# العقائد الإسلامية

دراسة منهجية في أصول الدين

محمد جواد مالك

مؤسسة البلاغ
بيروت

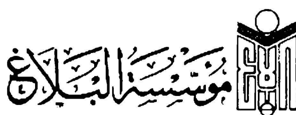
العقائد الإسلامية

دراسة منهجية في أصول الدين

# العقائد الإسلامية

## دراسة منهجية في أصول الدين

محمد جواد مالك



مؤسسة البلاغ
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

مؤسسة البلاغ

لبنان - بيروت - المشرفية - بناية المقداد -
ص.ب: ٧٩٥٢ - هاتف: ٨٣٥٥٥٠ - ٨٣٥٨٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وما جعله اللّهُ إلاّ بشرىٰ ولتطمئنَّ به قلوبُكم وما ٱلنّصرُ إلاّ من عند اللّه إنّ اللّهَ عزيزٌ حكيم ، إذْ يغشيكُمُ النُّعاسَ أمَنَةً منهُ وينزِّلُ عليكم من السماءِ ماءًليطهّركم به ويُذْهِبَ عنكم رجزَ الشيطان وليربِطَ على قلوبكم ويُثبّتَ به الأقدام﴾ .

[سورة الأنفال : ٨ ؛ الآيتان : ١٠ ، ١١] .

# المقدمة

إن المكتبة الإسلامية غنيّة بالكتب العقائدية التي تتناول أمهات الفكر الإسلامي ولكنها تشكو من الحالة المنهجية في الاستعراض أحياناً كثيرة ولقد سار العلماء والمفكرون في كتبهم الفلسفية والعقائدية علىٰ نفس المناهج السابقة بإضافة آرائهم وتطلعاتهم المستجدة ونحن حاولنا في دراستنا هذه أن نوزّع الاهتمامات على كل أصول الدين بشكلٍ متوازن موضحين الفكرة بشكلٍ مبسط غالباً ومعمّق أحياناً ساردين الشبهات الرئيسية في البحث كذلك والرد عليها ، لتغطية الأبحاث في كل جانب وإننا أحببنا ـ في أطروحتنا العقائدية هذه ـ تحقيق ما يلي :

١ ـ وضع الكتاب بالشكل المنهجي المتسلسل ليسهل فهمه وقد تجنبنا الغموض والابهام في التعبير قدر الإمكان .

٢ ـ إثراء البحث بمصادر الإسلام الرئيسية أي القرآن الكريم وسنة النبي الأعظم (ص) والأئمة الأطهار وهذه هي الينابيع الأساسية للفكر الإسلامي .

٣ ـ بروح موضوعية استفدنا من المدرسة اليونانية القديمة والفلاسفة القدماء بشكل عام وبنفس الروح حاورنا المدارس الفلسفية في الإسلام مبتعدين

عن حالة التعصب المذهبي .

٤ ـ تناولنا أُصول الدين الإسلامي حسب التسلسل المعروف (التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد يوم القيامة) من دون مقدمة في نظرية المعرفة أو مداخل فلسفية أُخرىٰ قاصدين الإحاطة التامة والمباشرة لأصول العقيدة في الإسلام بما يناسب هذه الدراسة .

٥ ـ تناولنا العدل الإلهي والنبوة والإمامة بشكلٍ يمكن أن يختلف عن تناول العلماء والمفكرين حيث وضحنا الأدوار القيادية لبعض الأنبياء وكل الأئمة بشكل مقتضب يناسب إكمال صورة القدوة الحسنة في الأذهان ، علماً بأننا لم نتناولهم تأريخياً وإنما وضحنا الأدوار القيادية في الشريعة والمجتمع فجاء البحث متكاملاً من هذه الزاوية .

٦ ـ أوضحنا المسائل المتعلقة بالمعجزة الكبرىٰ (القرآن الكريم) بشكلٍ مفصل أحياناً لاتمام الفائدة .

هذا ونرجو أن تكون الرسالة العقائدية هذه منهجاً دراسياً لشباب الإسلام ليتسلحوا بالفكر الإسلامي في عصر تعددت فيه حلقات التآمر علىٰ الدين الحنيف وبالذات المؤامرات الفكرية التي هي بحاجة ماسة إلىٰ السلاح الفكري المناسب لخوض المعترك الثقافي بنجاح واطمئنان ، والله سبحانه نعم المولىٰ ونعم النصير .

# المدخل

وفيه بحوث :

١ ـ معنىٰ العقيدة لغةً واصطلاحاً .

٢ ـ أثر العقيدة علىٰ الإنسان .

٣ ـ أثر العقيدة في المجتمع .

٤ ـ موقع العقيدة من الناحية الشرعية .

٥ ـ تفريع : في ضرورة التقليد بالفروع .

٦ ـ الهجمة العدوانية .

٧ ـ الموقف المطلوب .

# (١)

# معنى العقيدة لغة واصطلاحاً

هو التصديق والتدين بما عقد عليه قلبه وضميره ، فأعتقَدَ الشيء يعني صدّقه وتديّن به وعقد الخيط أي جعل فيه عقدةً يصعب فلّها ونقضها حيث أُحكم شدّها .

**أمّا معنى العقيدة اصطلاحاً :**

فالعقيدة هي مجموعة أفكار وقيم معينة يرتبط القلب بها ارتباطاً وثيقاً علىٰ مستوىٰ التصديق والتدين ـ عن طريق القناعة ـ بحيث يصعب فلّها عن القلب وتكون بمثابة السبيكة المعدنية المتلاحمة التي يصعب فرز معادنها البعض عن البعض الآخر بعد التداخل والتماسك ، وفعلاً لا يمكن فرزها حين الاشتداد والصلابة أي صلابة الإيمان ويبقىٰ الإنسان والمجتمع منشدّان إلىٰ عقيدتهما بدرجة الإيمان من حيث القوة والضعف فالمؤمن الصحيح لا يتنازل عن مبادئه حتىٰ لو كلفه ذلك الموقف حياته وبكلمة أُخرىٰ إن هذه الأفكار وهذه القيم الفكرية التي تتلاحم مع قلب الإنسان لا تنفكّ عنه إلا بقطعها بالسكين أو أيةِ آلةٍ جارحة أُخرىٰ مثلها مثل الخيط القوي الذي يُشدّ ، أي يربط بعضه ببعض شداً محكماً فيصعب فلّه إلاّ بالسكين حيث القطع ، ولا يرعوي الطغاة في كل مكان وزمان من استعمال هذا الاسلوب للتخلص من رجال المبادىء والقيم ورجال الالتزام بالعقيدة حيث الشدة والصلابة في

المقارمة والمواجهة قال الله سبحانه ﴿**يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم**﴾ .

[سورة المائدة ٥ ؛ الآيـة : ٤١] .

فالعقيدة الفعلية هي التي تحتل موقعها الطبيعي في القلوب ولا تبقىٰ في إطار الكلام واللسان وقال النبي محمد (ص) : «الإيمان عقد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالأركان»(١) .

وورد في الأثر عن الإمام علي (ع) أنه قال : قال لي رسول الله (ص) : «يا علي ! اكتب» فقلت : ما أكتب ؟ فقال (ص) : «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم الإيمان ما وَقَر في القلوب وصدّقته الأعمال والإسلام ما جرىٰ علىٰ اللسان وحلّت به المناكحة»(٢) .

أما في صدد وصف إيمان المؤمن بالقوة والصبر والصلابة فقد ورد الكثير الكثير فقد قال الإمام الباقر (ع) : المؤمن أصلب من الجبل ، تستقل منه والمؤمن لا يستقل من دينه شيء وقال الإمام الصادق (ع) : إن المؤمن أشدّ من زبر الحديد إن زبرَ الحديد إذا دخل النار تغيّر وإن المؤمن لو قتل ثم نشر ثم قتل لم يتغير قلبه(٣) .

## (٢)

# أثر العقيدة على الانسان

من المؤكد ان الفكر العقائدي يترك إنعكاساته المباشرة على سلوكية الفرد ومنهجية حياته مهما كانت نوعية الاعتقاد ، فلا بد أن نعرف مسبقاً ان للعقيدة ـ أياً كانت ـ لها آثارها الواضحة على الفرد نفسياً وسلوكياً على مستوى الشعور أو اللاشعور . فكل فكرةٍ بل كل مدرسة عقائدية تسعى لتربية الفرد وصياغة شخصيته ـ كهدف رئيسي لها ـ وهذه التربية تكون وفقاً لنظريتها ورؤيتها للحياة ، لتنتج العنصر المبدئي فتأخذ بيد الفرد لتدخله في مصحّات معدّة له سلفاً كي تغسل عنه السلبيات والأدران العالقة في ذهنه ـ حسب رؤيتها ـ فتغيره تغييراً جذرياً ليخرج برؤية جديدة للحياة وبسلوكية جديدة أيضاً وبطموحات مستجدة رسمت له سابقاً . .

فالعقائد المادية مثلاً بكل أصنافها تحاول تغيير الإنسان واستدراجه لتبنّي الفكرة المادية ليسعى جاهداً لتحقيق ما تنشده من أهداف وطموحات قد اقتنعت هذه الفلسفة بجدارتها مما يعكس ذلك ظواهر عملية نشاهدها في الساحة تعتبر إفرازات طبيعية من جراء الاعتناق بهذه الفكرة وتصديقها ويمكن أن نضرب لهذا القول مثلاً اجتماعياً وعملياً نراه في الواقع الحالي أمامنا ألا وهو ظاهرة الحجاب عند المرأة أو ظاهرة السفور عند المرأة نلاحظ ـ وكما قلنا ـ ان كل ظاهرة اجتماعية خلقية هي إفراز طبيعي لما

يعتقد به الإنسان فالمرأة الشيوعية التي لا تؤمن بقيم الحشمة والحفاظ على الأنوثة ولا تؤمن بيوم الحساب المستقبلي الذي سيعاقبها الله سبحانه في حالة المخالفة لأوامره كما تؤمن المرأة المسلمة .. فلذلك تندفع لإشباع غرائزها الحيوانية بكل ما أوتيت من قوة على الطريقة التي تهواها ومع من ترضى وتحب دون قيد أو شرط .. هذه النتيجة الخلقية وهذا الأمر السلوكي هو في واقعه استجابة طبيعية لما تؤمن به هذه المرأة من أفكار مادية بعيدة عن القيم والخلق النبيل وحسابات الضمير والوجدان ومحاكمة الخالق الكريم ومن الطبيعي أن تعترف هذه المرأة أو يعترف أصحاب هذه المبادىء بأن هذه الظاهرة (السفور والإباحية الجنسية) هي قمة الطموح البشري لديهم فحينما تصل المجتمعات إلى هذه السلوكية تنتهي أمراض الفرد والمجتمع وتبدأ الحياة الفاضلة السعيدة ـ كما يحلمون ـ وطن حر وشعب سعيد ـ !! .

بينما نلاحظ العقيدة الإسلامية التي تهدف تغيير الفرد تغييراً جذرياً في السلوك والطموحات بشكلٍ يوافق الفطرة الإنسانية النقية بل ليكمل بناءها بشكلٍ طبيعي حيث يقول سبحانه وتعالى في محكم كتابه الكريم : **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ..﴾** .

[سورة الروم ٣٠ ؛ الآية: ٣٠].

فتتلخص مهمة العقيدة الإسلامية في تحصين هذا البناء الفطري للإنسان من كل التراكمات السلبية وما يحصل عليه من الشوائب الملوثة لنقاء هذه الفطرة التي ترنو إلى الكمال والنضج الفكري وهي التي ترى إن العدل حسن والظلم قبيح ...

فتأتي العقيدة الإسلامية كمحصّن لهذا النقاء الفطري من أمراض المجتمع ثم لتكمل مسيرته نحو الكمال حيث الطموح الإنساني فقد جاء في محكم آيات الله المجيدة **﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾** .

[سورة المائدة ؛ الآية : ٣] .

وجاء في حديث الرسول الأكرم (ص) :

(كل مولودٍ يولد علىٰ الفطرة حتىٰ يكون أبواه يهوّدانه وينصّرانه)[٤]
ففي نظر هذه العقيدة إن الكمال والطموح والتقدم كل ذلك يأتي عبر ممارسة القواعد الإسلامية الفكرية والعملية التي ترمم الحالة الإنضباطية لدىٰ الفرد ففي مثالنا عن الحجاب بالنسبة للمرأة نرىٰ أنّ الإسلام يضع الهيكلية العامة للحجاب في أن لا تبرز المرأة جسمها ومفاتنها،بل تستره بشكلٍ يحفظ كرامتها ويعطيها حرية التحرك خارج البيت ضمن الاطر الشرعية وذلك كي يحقق حالة النمو الايماني في قلب المرأة المسلمة بالمحافظة علىٰ فطرتها السليمة وبإيجاد البرامج الحياتية العملية التي تحصن المرأة من الإنحراف وتقويها ايمانياً وتدفعها نحو بناء الحياة .

ومن هنا نلاحظ ان العقيدة الإسلامية تسعىٰ بمنهجها القويم ورجالها المصلحين لتحقيق هذا التطور لدىٰ الإنسان ليصل إلىٰ قمة الطموح البشري حسب الرؤية الإسلامية .

وهذا المثل الاجتماعي يمكن أن تماثله أمثلة علىٰ كافة الأصعدة الحياتية الأخرىٰ كالصعيد الاقتصادي والسياسي والتربوي وهكذا فكل عقيدة تحاول تغيير الفرد وفق ما تراه هو الأصلح والأفضل .

هذا من جانب ومن جانب آخر نرىٰ ان العقيدة تصنع المعجزات في قلب الإنسان حيث تحوّله إلىٰ كتلة من الصمود والصلابة والتحدي حينما يشعر الإنسان ان الطغاة والمعتدين يريدون أن يسلبوا حريته وعقيدته أو يمسّوها بسوء فلذلك يتحمل الصعاب بل الهلاك في سبيل إيقاف المعتدين عند حدّهم فقد قال سبحانه ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ .

[سورة البروج ٨٥ ؛ الآية: ٨] .

وفي التاريخ أمثلة رائعة في الإقدام والتضحية في سبيل المبادىء فهذا إبراهيم الخليل (ع) كما يحدثنا القرآن الكريم عنه ، كيف أنّه صبر وصمد صمود الأبطال أمام الهجمة الشرسة من قبل أعداء الحق فنراه يصبّر نفسه على ذلك العذاب ، فليرموه في النار المستعرة التي أعدوها خلال فترة زمنية طويلة فيرفع رأسه مطمئناً إلى ربه الكريم قائلاً :

«أنت الواحد في السماء وأنت الواحد في الأرض حسبي الله ونعم الوكيل»[٥]

وهذا نبينا الأكرم محمد (ص) في صراعه مع الجاهلية آنذاك حيث قال (ص) : «ما أوذي نبيٌّ مثلما أوذيت» .

فكانوا يجمعون له الأشواك والأحجار والأوساخ ليقفوا أمام طموحه وصلابته فكان الردّ الحاسم منه وحينما وسّطوا عمه أبا طالب أجابهم بقوله (ص) :

«يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه»[٦] .

وهذا الحسين بن علي (ع) في واقعة كربلاء يجسد معاني الصبر والاخلاص والشجاعة حيث قدّم أهل بيته وأصحابه قرابين في سبيل العقيدة بل قدّم طفله الرضيع الذي يعتبر بحق ـ أصغر جندي في العالم يخوض معارك المصير ـ ولن يبخل حتى بنفسه الطاهرة وحينما أخذه الإعياء ونزف الدماء توسّد الرمال في وسط الصحراء يدير طرفاً إلى نسائه وما بقي من أطفاله ويرفع نظراته نحو السماء قائلاً :

إلهي تركت الخلق طرّاً في هواكا وأيتمتُ العيال لكي أراكا
فلو قطعتني بالحبِّ إرباً لما مال الفؤادُ إلى سواكا

هكذا تصنع العقيدة روحاً عالية معطاءة فنرى المجاهدين والمصلحين يتحملون في مسيرتهم الجهادية أقسى أنواع التعذيب والتهجير والتنكيل دون أن يتنازلوا عن مبادئهم قيد أنملةٍ وحتى إن البعض ليدري انه في حالة الموت البطيء وهو يصارع الجاهلية والإنحراف لكنه يبقى صامداً صابراً . .

هكذا نلاحظ أثر العقيدة الطبيعي في قلوب المعتنقين لها من الناحية العملية والسلوكية .

# (٣)

# أثر العقيدة في المجتمع

فكما تؤثر العقيدة في الفرد وتغيّره نحو سلوكية ترتضيها وأهداف وطموحات تخططها له . كذلك للعقيدة آثارها الاجتماعية وبكلمة أخرىٰ إن المجتمع الذي يؤمن بفكرةٍ معينة نابعة عن عقيدة مادية كانت أو روحية ، هذه الفكرة ستفرز قيم وعادات وتقاليد معينة يمارسها ذلك المجتمع بملء إرادته تارةً أو بوحي الضغوط القاهرة من داخل أجنحة المجتمع فيندفع بالنتيجة ليمارس سلوكية معينة متماشياً مع العقيدة السائدة فمثلاً في مجتمع عبدة النار في الهند وفي تلك الفئة التي تؤمن بتعدد الزوجات إلىٰ غير نهاية ، فحينما يموت الزوج تؤخذ نساؤه ضمن تشيعٍ كبيرٍ لينصب علىٰ قبره مهرجاناً كبيراً تشعل فيه النيران ثم تساق زوجات الميت الواحدة تلو الأخرىٰ للحرق في هذه النيران ويروىٰ ان أحد البرجوازيين كانت لديه أربع وثلاثون زوجة فحرقت كلهنَّ عدا واحدةٍ لأنها كانت حامل فبعد أن وضعت جيء بها في مسيرة اجتماعية مماثلة للسابقة لتكملة المهرجان السابق وأحرقت كذلك .

ويمكن أن نرىٰ مثالاً آخر للتأثير الإجتماعي ففي مجتمع الأعراب في الجاهلية كانت ظاهرة الوأد عند بعض القبائل . التي يقول عنها القرآن

الكريم : ﴿وإذا الموءودة سئلت . بأي ذنبٍ قتلت﴾ .

[سورة التكوير ٨١ ؛ الآيتان : ٨ و ٩] .

حتىٰ إن البعض ـ من هؤلاء ـ غير مقتنع بوأد ابنته ولكن العصبية الجاهلية والضغوط الاجتماعية النابعة من العقيدة الفاسدة هي التي تملي عليه سلوكاً شاذاً كدفن البنات وهن أحياء فلا يستطيع أن يقاومه أو يغيره . . لذلك نرىٰ حتىٰ في المجتمعات الإسلامية هنالك نوع من السلوكيات تفرضها العقيدة الإسلامية لا يستطيع المجتمع أن ينفلت منها وإن كان بعض أفراده لا يؤمن بها مثلاً إجراء مراسيم العقد في الزواج أو مراسيم دفن الميت وآداب الدفن والتعاليم الواردة في الغسل والتكفين ففي بعض الأحيان نرىٰ قطاعات اجتماعية تمارس هذه التقاليد بدوافع اجتماعية وعاطفية بعيدة عن الدوافع الفكرية العقائدية .

فالمهم ان العقيدة مهما كان خطها الفكري ـ مادياً أو روحياً ـ تترك آثارها علىٰ الفرد والمجتمع أو تخلق أجواء معينة تؤثر علىٰ سلوكية الفرد وسلوكية المجتمع كذلك . وهذا ما يتضح جلياً في القرآن الكريم حينما يصف المؤمنين بمواصفات فردية لكل مؤمن أو لمجتمع المؤمنين فتبرز آثار العقيدة علىٰ الأفراد من ناحية ومن ناحية أخرىٰ يصف المؤمنين بمواصفات جماعية فتبرز آثار العقيدة علىٰ المجتمع الإنساني فلو تدبرنا الآيات القرآنية الآتية لتبين لنا ذلك .

يقول سبحانه : ﴿قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا علىٰ أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنّهم غيرُ ملومين ،فمن ابتغىٰ وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم علىٰ صلواتهم يحافظون﴾ .

[سورة المؤمنون ٢٣ ؛ الآيات : ١ ـ ٩] .

فالصلاة عبادة فردية لكل فرد أو لمجموع المؤمنين ولها آثارها على الإنسان كفرد وعلى عموم المجتمع والزكاة عمل فردي يقدم المؤمن جزءاً من أمواله لصالح المجتمع الإسلامي ، وحفظ الأمانة لصالح المجتمع الإنساني .

## (٤)

# موقع العقيدة من الناحية الشرعية

الملاحظ أن العقيدة الإسلامية تحتل الموقع الرئيسي في حياة المسلمين بالاعتبار الشرعي حيث يأمرنا الشارع المقدس أن نأخذ عقيدتنا عن وعي وإدراك واستدلال وعلم وقناعة لا عن طريق العاطفة والوراثة لذا يقول سبحانه في محكم كتابه العزيز :

**﴿أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم﴾** .

[سورة الأنبياء ٢١ ؛ الآية: ٢٤].

ويقول سبحانه أيضاً: **﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾** .

[سورة الأنبياء ؛ الآية: ٦٦، ٦٧].

فلذلك يحرّم الإسلام التقليد في العقائد بل لا بد أن يقتنع بها المسلم قناعةً تامة كي يتفاعل معها ويستجيب لها بكل ما تريد فقد ورد في كتب الفقهاء المراجع: يجب أن يكون اعتقاد المسلم بـ (أُصول الدين) عن دليل وبرهان ولا يجوز له أن يقلد أحداً فيها بمعنىً أن يقبل كلام أحد فيها دونما دليل ،لأن العقيدة المورثة أو الحاصلة بتأثير عاطفي تبقىٰ في إطار الطقوس الشكلية دون تضحيات مطلوبة وقت الحاجة فلو أرادت العقيدة تضحيات

جسيمة بالمال والنفس فلا يبخل عن ذلك المقتنع بها كما أكدّ الإمام الحسين (ع) هذا المعنىٰ في واقعة كربلاء :

إن كان دين محمدٍ لم يستقم إلاّ بقتلي يا سيوفُ خذيني

والعقائد الإسلامية التي يصطلح عليها بأُصول الدين هي :

١ ـ التوحيد .
٢ ـ العدل .
٣ ـ النبوة .
٤ ـ الإمامة .
٥ ـ المعاد يوم القيامة .

هذه الأُسس الخمسة هي التي يتركز عليها الفكر الإسلامي فلا يمكن للفرد أن يعتبر نفسه مؤمناً بها وقد أخذها وراثة من أبويه أو مجتمعه بل لا بد أن يعتنق هذه الأُصول عن وعي واستدلال وكما ورد في الحديث الشريف قوله (ص) :

«كل مولود يولد علىٰ الفطرة حتىٰ يكون أبواه يهوّدانه وينصّرانه»[٧] .

فلا يجوز إذن أن نأخذ هذه العقائد والأصول إلاّ عن طريق الاستدلال العقلي المتين الذي يوصلنا إلىٰ درجة القناعة التامة بهذه المبادىء . . . لذلك نرىٰ في مجتمعاتنا الإسلامية الحالية قسمين من المسلمين :

**القسم الأول** : مؤمن إيماناً حقيقياً وصلباً بحيث أنه لو تعرض إلىٰ أقسىٰ أساليب التعذيب الوحشي لا يتنازل عن مبادئه ، بينما هنالك القسم **الثاني** : من المسلمين فهو غير مستعد أن يصلي صلاة الصبح علىٰ وقتها لأنها تنغص عليه نومته الصباحية حيث النسائم الهادئة والأجواء المنعشة ، ولنا أمثلة بالتاريخ الإسلامي كثيرة ففي عصر الرسالة الأول حيث الصفوة المجاهدة الأولىٰ تحملت التعذيب الوحشي من قبل الجاهلية دون أن تتنازل عن مبادئها الإسلامية وقد دخلت سمية أم عمار بن ياسر أسمىٰ صفحات

التاريخ الإسلامي المشرق حيث ربطوها على الصخرة الرمضاء وكانت تتلوى ألماً من شدّة حرّها طالبين منها أن تنكر الرسالة المحمدية وتعلن رفضها لمحمد (ص) وكانت بإيمانها الصادق ـ تأبى بإصرارٍ وقوة وهي تعاني آلام الموت حتى آغتاظ أبو جهل طاغية زمانه من هذه الروح الصامدة وازداد غضباً منها لصبرها وإيمانها فزرع في قلبها حربته السامة فأرداها شهيدة وكانت أول شهيد في الإسلام ـ رحمة الله عليها . وهذا الصحابي الجليل ـ كما ينقل أرباب السير ـ سعيد بن عبد الله الحنفي في يوم العاشر من المحرم يقف مدافعاً عن سيد الشهداء (ع) في كربلاء وهو يصلي صلاة الظهر في وسط المعركة مدافعاً عنه بصدره وروحه فتلقى السهام برحابة صدر حتى قضى نحبه بعد انتهاء صلاة الإمام الحسين (ع) .

هذا نمط من المسلمين المؤمنين الملتزمين في جانب ، وذلك الذي يأبى القيام مبكراً لصلاة الصبح نمط آخر في جانب آخر والسؤال الذي يعرض نفسه لماذا هذا التباين والاختلاف في المواقف ؟ .

وللإجابة على هذا السؤال يجب أن نعرف أن الموقف الصلب هو نتاج الإيمان الصلب وإن الموقف الهزيل والضعيف هو نتاج الإيمان الضعيف وهكذا فالمسلم الذي يأخذ إيمانه عن دليل ووعي وقناعة فيجهد نفسه ليصل إلى هذا الاستدلال الواعي والقناعة التامة حينها يعتزّ بعقيدته ولا يفارقها بسهولة . بعكس المسلم الذي يأخذ عقيدته وراثةً من الأبوين أو من تأثيرات المجتمع والبيئة فإنه غير مقتنع بها وعليه فلا يضحي من أجلها لذا يقول الشاعر :

ومن أخذَ البلادَ بغيرِ حربٍ يهون عليه تسليمُ البلادِ

فالذي يأخذ إسلامه وعقيدته دون معاناة ومجاهدة واستدلال وقناعة لا ننتظر منه الموقف الجهادي الصعب والعكس صحيح حيث صفحات التاريخ الإسلامي مليئة بمواقف المجاهدين والمجاهدات في سبيل العقيدة الإسلامية المباركة ولا بأس أن نسجل هنا ملحوظة توضيحية للإيمان الصلب حيث أن المؤمن الصحيح يتكون في داخله جهاز مراقبة يراقب بدقة تامة كافة تصرفاته

وأعمـاله وأقـواله لكي لا تحيـد عن جادة الصـواب فيشعـر قلبيـاً ـ حينهـا ـ أن هنالك الرقيب العتيد الذي يسجل عليه كل مـا يعمل ويفعـل ويمارس قـال الله الحكيم في القرآن المجيد:

﴿ما يلفظ من قولٍ إلاَّ لديه رقيب عتيد﴾ .

[سورة ق ٥٠ ؛ الآية : ١٨] .

ويوم القيامـة حينما يستلم الإنسـان صحيفة أعمـاله يقـول بتعجب ـ كما يخبرنا القرآن الكريم ـ :

﴿مالِ هذا الكتـاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أحصـاها ، ووجـدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾ .

[سورة الكهف ١٨ ؛ الآية : ٤٩].

وحقاً ما قالته تلك الفيلسوفة الغربية : إن الإسلام نجح في تربية أبنائه حيث وضـع جهازاً بوليسـياً داخل كل فردٍ يضبط عليه أعماله وتصرفاته بوعي ودقة .

فمن هنا نحن مدعوّون لفرز أسلوبين لاعتناق العقيدة .

**الأسلوب الأول** : أن نـدرس العقيـدة دراسـة واعيـة وهــذا مـا يـريـده الشـارع المقدس حيث يحـرّم التقليد في أُصـول الـدين (أي العقيدة) بـالنسبـة للإنسان العاقل البالغ وهذه الدراسة تحتاج إلىٰ منهجية علمية دقيقة لا تأخذنا إلىٰ متاهات أقوال الفلاسفة والمفكرين حيث فيها الدهـاليز الـطويلة التي يشعر الإنسـان المسلم أمامهـا انه بحـاجة إلىٰ اتعـاب ومعانـاة مرهقـة خلال فتـرات زمنيـة طويلة ليتعـرف علىٰ دينه ويعتنق مبـدأه لا بل المفـروض أن نضع نصب أعيننـا طريقـة اعتناق المسلمين الأوائـل للإسـلام وكيف استـطاع الإسـلام أن يصنع منهم جيلاً فولاذياً يقاوم الجاهلية بأسرها . وهنا يمكنُ أن نتساءل :

كيف استـطاع الشهداء الأوائـل في مكة المكـرمة علىٰ اجتيـاز الإمتحان الصعب في المقاومة ؟ حيث عذّبوا واستشهـدوا بالـرغم من أن القرآن الكـريم

لم يكتمل نزوله بعد في مكة المكرمة ونحن نعلم إن كثيراً من آيات وسور الكتاب العزيز نزلت في المدينة المنورة بعد الهجرة (السور المدنية) أي بعد استشهاد الكوكبة الأولىٰ وتعذيبهم وتهجيرهم إذن فالمسألة ليست متعلقة بكثرة المناقشة والحديث الطويل الذي يجرّ الإنسان إلىٰ بحوث هو في غنىً عنها جانبية وقشرية أحياناً وربما لا تمت للعقيدة بصلة . . ويخطر في بالي مثالٌ عملي ففي سنة ١٩٧٩ أصبحت مدرساً للغة العربية والدين في إحدىٰ الثانويات الرسمية بالعراق وقد تمَّ تعيين مجموعة من المُدَرِّسات في نفس الثانوية لسدّ الشواغر في هذه الثانوية الكبيرة وكانت من بين المُدَرِّسات مُدَرِّسة متخرجة من كلية الآداب في جامعة بغداد ـ قسم الدين ـ فكان لا بد أن ألتقي معها بحضور المدير لأسلمها بعض الحصص من دروس الدين ، علماً بأن طلاب المدرسة كلهم ذكور !! ولكن جهاز التعليم كان مختلطاً فحينما رأيتها ما صدّقت نفسي بأني أجلس أمام فتاة مسلمة تحمل شهادة (بكالوريوس بالدين الإسلامي) فقد رأيتها في منتهىٰ التبرج والخلاعة وعلىٰ آخر موضة ! فسلمتها بعض دروس الدين رغماً عليَّ باعتبارها متخصصة في الدين الإسلامي ـ إنّا لله وإنا إليه راجعون ـ فراجعت نفسي فيما بعد وقلت مع نفسي ! مسكين ! من يتخرج متتلمذاً علىٰ يد هذه المدرِّسة المتخصصة بالإسلام والشريعة كيف يكون دينه ! ؟ وكيف تكون عقيدته ؟ ومبدأه وموقفه في الحياة ! ؟ .

ولا أنسىٰ ما سمعت عن ذلك الأستاذ البروفيسور في المانيا الغربية المشرف على دراسات ـ مرحلة الدكتوراه ـ في اللغة العربية أي الذي يمنح الشهادة العليا للطلبة المتخصصين باللغة العربية وآدابها إنه يهودي ألماني قد حفظ القرآن الكريم علىٰ ظهر قلبه وبمجرد أن تناقشه في مسألة نحوية سرعان ما يستشهد بآيات القرآن الحكيم بل يتلو عليك أطول الآيات بل أطول السور المباركة تلاوةً صحيحة مطبِّقاً قواعد الترتيل بدقة غريبة !! .

من هنا يمكن أن نعيد التساؤل الماضي بصيغةٍ أُخرىٰ فنقول :

هل استطاعت تلك المدرسة المتخصصة أو هذا الأستاذ المشرف وأمثالهما أن يحصلوا علىٰ الإيمان الصادق الذي حصلت عليه سمية أم عمار ؟ الذي كلفها إيمانها التعذيب الوحشي علىٰ يد الجاهلية النكراء وإلىٰ الشهادة الواعية في سبيل المبدأ وبالرغم من أن سمية لم تحمل شهادة (بكالوريوس) في الدراسات الإسلامية وليست مشرفة علىٰ رسائل الدكتوراه ولم تحفظ من القرآن الكريم إلاّ آيات قليلة بل لم تسمع تلاوة القرآن كله فإلىٰ حين شهادتها لم يكتمل نزول القرآن المجيد ـ بعدُ ـ كما هو معروف .

فمما سبق نلاحظ أننا أمام أسلوب هادف لدراسة العقيدة الإسلامية بشرط الحذر من الدخول في الأنفاق المظلمة التي صنعتها بعض العقليات الفلسفية التى أضاعت الجوهر والهدفية من العقيدة وألهت نفسها بالمظهر المزخرف الذي تحول شيئاً فشيئاً إلىٰ أحاديث شكلية تُدرس في قسم الدين في الدراسات المتخصصة الذي يخرِّج مجموعات بشرية لا صلة لها بالدين ولا تتأثر به إلاّ لغرض التعلم والشهادة الدراسية غالباً فالدين لديها مجرد كلمات تلوكها في الفم كأي درسٍ لعلمٍ آخر كالرياضيات مثلاً دون التأثر السلوكي في حياة المدرس والطالب من هذه الدراسة لذا نحن نريد أن ندرس العقيدة الإسلامية عبر الأسلوب العلمي الهادف ولا يهمنا التطويل إذا كان نافعاً وذلك لنتعامل مع أوامر الشارع المقدس ونواهيه دون لف أو دوران قاصدين البناء العقائدي الذي يؤهلنا لتحمل مسؤولية الإصلاح الإسلامي لأنفسنا ولابنائنا ومجتمعنا . .

وحقاً نقول إن لم نسر علىٰ هذه المنهجية الإسلامية العلمية في دراسة العقائد فسنقع في أحد الطريقين : فأما أن ندخل في التفصيلات الفلسفية التي لا تغني ولا تسمن من جوع فنزداد تيهاً وحيرة ، وأما أن نلجأ إلىٰ الأسلوب الثاني ـ رضينا أم أبينا ـ ويتلخص هذا الأسلوب بنشأة العقيدة بالمؤثرات الحياتية .

فحينما نترك المسألة من دون دراسةٍ علمية وتمحيص موضوعي يأتي

دور الأبوين والأسرة والقبيلة والمجتمع والبيئة والمدرسة والنادي والجامعة وكل ما يحيط بالإنسان . . فكل طرفٍ من هذه الأطراف وبمدىٰ تفاعله مع الإنسان واحتكاكه وتأثيره سيفرز فيه جملةً من القناعات والأفكار التي تتحول شيئاً فشيئاً إلىٰ عقيدته المستقبلية حيث تملأ إفرازات هذه الأطراف ذلك الفراغ العقائدي لدىٰ الإنسان بأفكار متعددة مليئة بالخرافات والشبهات ومن الطبيعي حينها يحشي الإنسان عقله بها من دون أي استدلال غالباً ! فسرعان ما يصطدم هذا الإنسان المسكين حينما يناقشه إنسان آخر يما يناقض أفكاره أو لن يجد جواباً أمام السائلين عن معتقداته فأما أن يتعصب لها دون علم وإما أن يتنكر لها ويكفر بها وقطعاً إنه معرّض للهزاهز والتقلبات فسرعان ما نجد أمثال هؤلاء يتقلبون بتقلب التيارات شرقاً أو غرباً دون اكتراث أي أنهم يمتازون بالسلوك النفاقي . . وفعلاً كما يقول القرآن الكريم : ﴿**إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلىٰ الصلاة قاموا كسالىٰ يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلاَّ قليلاً ، مذبذبين بين ذلك لا إلىٰ هؤلاء ولا إلىٰ هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً**﴾ .

[سورة النساء ٤ ؛ الآيتان : ١٤٢ ، ١٤٣] .

وحينذاك ينشأ عندنا جيل من المذبذبين والمهزوزين والانتهازيين لذا يقول الشاعر المعاصر :

يا شعب هاك من الرجال نماذجاً    يتلونون تلون الحرباء

أي كما إن هذا الحيوان يتلون بتغير لون البيئة فالناس هكذا يتلونون علىٰ ضوء الأفكار المستجدة والسائدة في الساحة أي لا يوجد ثبات علىٰ مبدأ معين .

فإذن علينا أن نتعرف علىٰ الموقع الطبيعي للعقائد الإسلامية من الشارع المقدس وعليه فلا بد أن ندرس العقيدة عن وعي وإدراك واستدلال ويحدثنا القرآن الكريم في هذا الصدد كثيراً ويرسم لنا الأسلوب الناجح في اعتناق المبدأ وهو الأسلوب الأول الذي اخترناه ويدفعنا لذلك قول الله (عز وجل) :

**﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ .**

[سورة العنكبوت ٢٩ ؛ الآية : ٢٠] .

**﴿أو لم يتفكروا في أنفسهم﴾ .**

[سورة الروم ٣٠ ؛ الآية : ٨] .

**﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبين لهم أنّه الحق﴾ .**

[سورة فصلت ٤١ ؛ الآية : ٥٣] .

**﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلىٰ السماء كيف رفعت . وإلىٰ الجبال كيف نصبت . وإلىٰ الأرض كيف سطحت . فذكّر إنما أنت مذكر﴾ .**

[سورة الغاشية ٨٨ ؛ الآيات : ١٧ ـ ٢١] .

## (٥)

# تفريع: ضرورة التقليد في فروع الدين نابعة من عمق العقيدة

فكرة التقليد لها أصالة في عمق الإنسان بل في عمق التاريخ كذلك فنلاحظ منذ قديم الزمن أنّ الإنسان في كثير من سلوكياته وتصرفاته يبدأ بتقليد الآخرين كما في قصة هابيل وقابيل وَلَدَيْ نبينا آدم (ع) حيث إن قابيل قتل هابيل ـ في القصة المعروفة ـ وحينذاك تحيرّ قابيل ماذا يصنع بجثة أخيه المقتول فأرسل سبحانه وتعالىٰ غرابين فقتل أحدهما الآخر فحفر الغراب القاتل حفرة أي قبراً ودفن جثة الغراب القتيل كما قيل[٨] .

وهكذا فعل قابيل بجثة أخية يقول ربنا سبحانه في هذا الصدد : **﴿فطوّعت له نفسُهُ قَتْلَ أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ، فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليُريَهُ كيف يواري سَوْءَةَ أخيه قال يا ويلتىٰ أعجزت أن أكونَ مثل هذا الغرابِ فأواري سوءةَ أخي فأصبَحَ من النادمين﴾** .

[سورة المائدة ٥ : الآيتان: ٣٠، ٣١ ].

وأكثر من هذا نلاحظ إن الإنسان منذ طفولته ونعومة أظفاره يبدأ بتقليد من يحوطونه في البيت والأسرة والمجتمع وبالخصوص تأثير الأبوين والإخوة في اللغة والتفاهم والسلوكية العامة ولنا أمثلة كثيرة قام بها روّاد علم التربية في أنهم يأخذون أطفالاً ويضعونهم في الغابات وبعد فترة من المراقبة يرون إن الطفلة مثلاً تمشي على أطرافها الأربعة كالحيوانات في الغابة ولا تتمكن من الكلام

بل يرونها قد آنسجمت شيئاً ما مع فصيلة من فصائل الحيوانات الأليفة كالقرود ، فهي تنهزم كغيرها من حيوانات الغابة أمام لجنة المربين حينما تدخل الغابة والطفلة تمشي كالحيوانات وتأكل كما تأكل الحيوانات أيضاً . . ويمكن ملاحظة المسألة أيضاً حينما ندقق النظر في بعض الأطفال كيف أنهم يقلدون الكبار في كل شيء وفي اللعبة الشائعة بين الأطفال الصغار أن يتلبس الولد الصغير دور الأب والبنت الصغيرة دور الأم وكما تسمىٰ لعبة (الأب والأم) فنلاحظ الغلظة في تصرف الابن الصغير والحدة السلوكية في التعامل ، مما يعكس دور الآباء المعروف في مجتمعاتنا بينما البنت الصغيرة تعتني بالبيت والأثاث والطبخ وتربية الأطفال الرمزيين بطريقتها الخاصة مما يعكس دور الأمهات المليء بالحنان والعطف وهكذا يلعبون كمقلدين . . فإذن التقليد في الأمور الحياتية والسلوكية ظاهرة متأصلة في عمق التاريخ والوجدان ، هذه الظاهرة لم يأتِ إليها الإسلام ليقطعها من الجذور بل ليعطيها منهجيّة واضحة ، كي تستقيم وتتهذب حين الاستجابة لها سلوكياً ومن هنا نؤمن بأن التقليد أمر فطري بالنسبة للإنسان ، ومن هنا نؤمن جازمين بأن الإسلام دين الفطرة ، فلا يمكن لهذا الدين المتوِّج للفطرة تهذيباً واستقامة أن يقطع هذه الظاهرة من الجذور ـ كما قلنا ـ لأنها تعتبر عملية استئصالية لجزءٍ هام من كيان الإنسان والبشرية فنبتلي بجراحها الأليمة لو قدِمنا علىٰ خطوة الاستئصال هذه !! وحتماً سنجهل دواءها البديل الشافي !! .

بينما يأتي الإسلام ليهذب فكرة التقليد ويجعلها ضمن شروط ومواصفات دقيقة بحيث يحافظ علىٰ فكرة التوازن الفطري للإنسان والمجتمع من دون الوقوع في فخ الافراط أو التفريط ليقف أمام ذوبان الإنسان في التيار الاجتماعي بتقليد الناس في كل شيءٍ من جهة وبين حالة الامتناع عن التقليد بخلاف الفطرة فالحل الوسط يكمن فيه النجاح التام ، لذلك قال سبحانه :

**﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾** . [سورة البقرة ٢ ؛ الآية : ١٤٣] .

فحدّد الأمور المباحة في قضية التقليد كاللغة والمأكل والمشرب والملبس والمسكن، لكن ضِمْن ضوابط خلقية وصحية واجتماعية فالمأكل له شروطه باختلافِ أنواعه منها شروط عامة كالحليّة أي لا يكون حرام الأكل وكذلك عدم الغصبيّة ومنها شروط خاصة كالتذكية بالنسبة للحيوان حلال اللحم أي الذبح على الطريقة الشرعية أما طريقة الأكل فتختارها بنفسك شيّاً أو قلياً أو نيئاً إن لم تضر بصحتك .

من هنا نلاحظ أنّ الإسلام يترك مجالاً للعقل الإنساني أن يختار ويبدع ضمن دائرة الإمكان الشرعي وبكلمة أُخرى أن يفجر طاقاته في الحياة لكن عبر قنوات الحلال والحرام والضوابط السلوكية والفقهيّة المبينة بالتفصيل في مظانها .

ومن جانب آخر يأتي الإسلام إلى قضية التقليد في الأُمور السلوكية والعبادية ويضع لها حدوداً ومعايير دقيقة وفي ذلك يقول القرآن الكريم :

**﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الأخر﴾** .

[سورة الأحزاب ٣٣ ؛ الآية : ٢١].

ويعرّفون الأصل الثاني من أُصول التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم بالسنة الشريفة وهي قول المعصوم (ع) وفعله وتقريره وبهذا يفتح المجال أمام الإنسان المؤمن ليأخذ من قياداته وقدواته البرنامج الحياتي عملاً وسلوكاً ولن يترك الإسلام هذه المسألة بهذا القدر بل استمر في تحديد فكرة التقليد لإبقاء الإنسان في الطريق المستقيم دائماً فأمر بتقليد الفقهاء والمراجع ـ في زمن الغيبة وهو زماننا الحالي ـ بالمسائل الشرعية ففي الحديث عن الإمام الحسن العسكري (ع) : «فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً على هواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه»[٩] .

وبهذا بدأت مسيرة المجتهدين والفقهاء المراجع ـ في زمن غيبة الإمام (ع)ـ فإذن نلاحظ أن الإسلام اختار للمسلمين وللمؤمنين من يصلح للتقليد منهم وهو الذي يمتاز ـ باختصار ـ بهذه المميزات الواردة في النص الشريف المتقدم وتفصيلات أخرىٰ مذكورة في كتب الفقه الإسلامي والسؤال: في أي شيء نقلّد المجتهد ؟ .

نقول في الجواب : نحن نقلده في أُصول الدين العشرة . هذا ما حدّده لنا الإسلام (الصلاة ، الصوم ، الزكاة ، الخمس ، الحج ، الجهاد ، الأمر بالمعروف ، النهي عن المنكر ، التولي لأولياء الله ، التبرّؤ من اعداء الله) .

حيث أن المجتهد الجامع للشرائط يستطيع أن يستنبط الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها التفصيلية وقد توصل إلىٰ قناعات تامة في المسائل الفرعية فالمفروض علينا أن نقلده ونسير علىٰ ضوء فتاواه . ومن هنا ندرك ان الإسلام دين الفطرة حيث أنه لبّىٰ هذه الحاجة العميقة في شعور الإنسان ورسم لها القناة الشرعية والطبيعية التي توصله إلىٰ رضا الخالق سبحانه وتعالىٰ من خلالها .

وهذه الظاهرة أي ظاهرة التقليد واضحة الضرورة للإنسان في الحياة فسرعان ما تتوفر القناعة لدىٰ الإنسان بها من دون حاجة إلىٰ الكلام الطويل فالمقلِّد (بالكسر) يدرك أهميتها النفسية ، ولأنها في حدود القضايا الفرعية من الدين وليست هي من اختصاص الجميع فالإنسان المسلم إما أن يكون مجتهداً يقلده الناس أو محتاطاً قد أطلع علىٰ أكثر الآراء بأدلتها فيجمع فيما بينها ويطبق الأحوط وأما أن يكون مقلداً في عباداته وشرائطها وفي المسائل المستحدثة الأُخرىٰ من دون أن يأتي عبر دراساته الشخصية في كل مسألةٍ من آراء المجتهد ليقتنع بها ثم ليطبقها ، فإن هذا الأسلوب من الخطأ الشائع لدىٰ بعض المسلمين أي يطبق ما يقتنع به شخصياً وربما ما يفيده ، وهذا غير صحيح عرفاً وعقلاً بالاضافة إلىٰ المخالفة الشرعية وإنما المفروض أن يطيع المجتهد في كل أمرٍ شرعي بعد أن يقتنع باجتهاد

المجتهد وإنما مثله مثل كل إنسان حينما يتعلم لغة معينة فإنه لا يسأل عن الألفاظ والأسماء الدالة علىٰ معانٍ معينة ، ويطلب القناعة لهذا التسميات ثم ليحفظها ويردّدها بل يأخذ الألفاظ علىٰ معانيها ويحفظها ولا يسأل لماذا سميت الشمس شمساً والأرض أرضاً؟ ـ في العربية مثلاً ـ وإنما يأخذها من دون أن يعرف خلفياتها ـ وبمختلف اللغات أيضاً ـ وليس من الصحيح عقلاً أن يسأل: لماذا آختاروا لتلك المعاني هذه الاسماء بالذات ؟ ولذلك نرىٰ في عصر ما قبل الإسلام في الجزيرة العربية هنالك عدة ألفاظ دالة علىٰ معنىً واحد كالسيف فإن له عدة أسماء دالة عليه كالصارم والقاطع والبتار والحسام . . وكذلك نرىٰ العكس عدة معاني تدل علىٰ لفظٍ واحدٍ مشترك كالعين فإنها تدل علىٰ الباصرة وعلىٰ نبع الماء والذهب والبترول وكذلك الجاسوس . . . فلم يسأل أحد عن هذه الأمور لتحصل له قناعة شخصية بها وهكذا كما إن المريض حينما يذهب إلىٰ الطبيب ليعطيه دواءً لا يسأل عن أصل الدواء ومداخلاته الكيمياوية حتىٰ يوفّر لنفسه القناعة التامة بالدواء وإنما يأخذه ليتناوله وهو مستسلم للمسألة تماماً وهكذا بالنسبة للتقليد في فروع الدين ومستجدات الأمور المعاصرة كالجهاد والأمر بالمعروف في زماننا الحالي . . . فالمجتهد كالطبيب بل هو الطبيب المختص والمأمون الذي يصف لنا الدواء والعلاج في كل مسألة من مسائل الحياة شخصية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية ليعطينا الرأي الإسلامي الصحيح فيها حسب ما توصل إليه بعد جهدٍ كبير ، وعلينا أن نطبق الأوامر والنواهي دون النظر إلىٰ القناعات ما دمنا قد توصلنا ـ سلفاً ـ إلىٰ القناعات الرئيسية من ضرورة التقليد وتشخيص المقلَّد ـ بالفتح ـ وميادين التقليد. هذا وعلينا أن نعرف أن هذا التقليد لفروع الدين في الحقيقة هو إيمان تبعي لما حصل من إيمان أصلي لأصول الدين العقائدية فهذا التقليد نابع عن الخلفية الثقافية للإنسان والمجتمع تلك الخلفية التي صنعتها أصول الدين العقائدية الخمسة ـ التي ذكرناها قبل قليل ـ فهنالك لا بد من توفير القناعات التامة في الوحدانية وعدالة الله والنبوة والإمامة والمعاد يوم القيامة أما بالنسبة لفروع الدين فهي حالات امتثال وتنفيذ يستجيب لها المكلف أداءً للواجب الشرعي الملقىٰ علىٰ عاتقه .

# (٦)
# الهجمـة العدوانيـة

عـرفت قوىٰ الاستكبـار العالمي أن سبب تمـاسك المجتمـع الإسـلامي وصلابته ووقوفه أمام الطموحات الاستيلائية يـرجع بـدرجة عـالية إلىٰ الخلفيـة الفكرية التي يؤمن بهـا المجتمع الإسـلامي فحينما تمتـاز هذه العقيـدة بتقويـة جانب الإرادة في المواقف الصعبة لأبنائها فإنهم لا يفكـرون حاليـاً بالاستيـلاء والاستغـلال المادي بقـدر مايفكـرون بالخطـوةالأولىٰ المهمة التي تتـركـز في تفتيت هذا التماسك الاجتماعي وتمزيق وحدته وتلاحمـه وفك صـلابته ليتسنىٰ لهم الإقـدام للخطوة الثـانية دون ردود فعـل وهي خطوة الاستغـلال والاستيلاء بـمجتمع المؤمن المتمـاسك مـع بعضه كمـا يقول الـرسول الأكـرم (ص) : «المؤمنـون في تبارّهم وتـراحمهم وتعاطفهم كمثـل الجسد إذا آشتكىٰ تـداعىٰ له سائره بالسهر والحمّىٰ»(١٠) .

هكذا مجتمع محصّن من المؤكد أنه مستهدف من قِبل كل قوىٰ الشيطان في المنـطقة لكي تنفـذ داخل هـذا المجتمع لتـذويب تلك القيم الخلقية السـامية والسيطرة بالتـالي علىٰ المجتمع وخيـراته وبهـذا الصدد أتـذكر تلك الفيلسـوفة الإلمـانيـة التي قـالت بعـد نكسـة حـزيـران عـام ٩٦٧ : لن ينتصـر العـرب والمسلمـون علىٰ إسرائيـل أبداً إلاّ أن يؤمنـوا بـالجنـة من جـديد . وللعلم إن قوىٰ العدوان جرّبت نفـسها في الحرب المكشوفـة مع المجتمعـات الإسلاميـة

فكانت تلاحقها الهزيمة تلو الهزيمة فمثلاً أسسوا مدارس تبشيرية في البلدان الإسلامية هدفها إخراج المسلمين من الإسلام إلىٰ المسيحية المحرَّفة (طبعاً) ، فكانت ردود الفعل عنيفة في وجوه المبشرين ويُنقل ان إحدى هذه المدارس كانت في البصرة بالأربعينيات وأن القسيس كان يأتي إلىٰ المدرسة وإلىٰ الصف وهو مُرتَدٍ زي القديسين والصليب علىٰ صدره فيتحدث بنبرة مقدسة هادئة ليعلّم الصبيان التعاليم والأفكار المسيحية والصليبية ـ مساءً ـ وحينما كان ينطفىء الضياء ثم يعود كان الطلبة من أبناء المسلمين علىٰ فطرتهم يصلون علىٰ النبي محمد وآله بأعلىٰ أصواتهم فيهب هذا القسيس مستغرباً كيف يحدث ذلك ويتساءل مع رفاقه: إننا نجهد أنفسنا بالتدريس ونتعب ونخدم هؤلاء الطلبة وإذا بهم متعلقون قلبياً بدينهم ونبيّهم .والحقيقة ان الجماهير المسلمة ـ آنذاك ـ بدأت تواجه هذه الدعوات الصليبية بأساليبها البدائية منطلقة مما تعلمته وأخذته من وسائل التربية الإسلامية العادية في المجتمع والساذجة أحياناً يعني إن مقاومتها لهذه الهجمة كانت فطرية استجابة للإيمان العام والبسيط الذي تمتلكه .

وتطورت الطرق الاستعمارية في الغزو الفكري والثقافي للأمة الإسلامية إلىٰ أن أوجدت لها أنصاراً من داخل الدوائر الحاكمة في تلك البلدان أو عبر خلايا الأحزاب الالحادية التي كانت تنفذ إرادة أسيادهم في تحقيق أهدافهم بتمزيق وحدة المسلمين ونشر الأفكار الإلحادية ونشر السلوكية غير الملتزمة وسلب قيم الحرية وشرف المقاومة . وبالفعل بدأت تغذي أبناء الإسلام (بشتىٰ الأساليب الصليبية والصهيونية العالمية) أفكاراً تشكيكية بالعقائد الإسلامية والمبادىء الخيّرة واستطاعوا أن يخدعوا قسطاً من الشباب بشعاراتهم البراقة وشبهاتهم العديدة ليتخذوهم جسراً لمصالحهم في السيطرة والاستغلال . فبدأت تسري في المجتمع الإسلامي فكرة التشكيك بوجود الله سبحانه وبعدالته وبرسالة النبي (ص) وبشخصيته وكيف أنه معصوم ومرسل من الله (عز وجل)؟ وكذلك بالإمامة من بعد الرسول (ص) وأما حديث المعاد يوم القيامة فالشبهات حوله كثيرة ومثيرة أيضاً . ولأن

الهجمة كانت عنيفة ومتنوعة الأسلحة فكان هنالك نوع من الخلط بين أُصول الدين وفروعه ليوفروا علىٰ أنفسهم الحجج المتنوعة في ادعائهم الباطل مثلاً كانوا يثيرون استفهامات علىٰ الصبية والشباب !! بقولهم نحن لم نشاهد أحداً خرج من قبره منهزماً بجراحه نتيجة التعذيب في القبر كما تتصوره الأفكار والتعاليم الإسلامية . . فإذن هذه المراسيم من غسل الميت إلىٰ كفنه ودفنه مراسيم ابتدعها رجل عبقري آسمه محمد مستغلاً الجانب العاطفي لدىٰ الإنسان لينضبط الناس تحت لوائه آنذاك ! وقد فات أوان التصديق بهكذا أمور !! وكانوا يقولون أيضاً كيف تقول إن الله موجود ونحن لا نراه ولا نحسه ولا ندركه ؟ وكيف نثبت إنه عادل ونحن نرىٰ الظلم بعينه منتشر في هذه المجتمعات حيث الطبقية والفوارق الاجتماعية والفردية. وأتذكر أحدهم كان يقول دائماً: إن العدالة الإلٰهية كما يصورها المسلمون هي اسطورة لا حقيقة لها فإننا نرىٰ هنالك إنساناً جميلاً قوي البدن وصاحب ثروة كبيرة أو مكانة اجتماعية وبالمقابل نرىٰ إنساناً قبيحاً ضعيف البدن ودائم المرض وفقيراً ومكانته الاجتماعية هزيلة أهذا هو التقسيم العادل بين الناس ـ كما يزعم المسلمون ! ـ .

وحتىٰ في عالم الطفولة نرىٰ طفلاً يولد وهو يتمتع بعينين جميلتين وذكاء ثاقب وفي ظروف معيشية جيدة وإلىٰ جانبه طفل يولد فاقد العينين وذو عاهة مزمنة وظروفه المعيشية قاسية وكذلك نرىٰ شخصاً له شعر جميل وطويل وآخر يتحسر علىٰ خصلة شعر تتواجد على رأسه ، أهذه هي عدالة السماء ؟ .

من المؤكد ان هذه التساؤلات المبتورة والمغرضة تزعزع عقيدة الشباب وخاصة حينما لا يروا الجواب الشافي لهذه الشبهات لذلك كله اندفع المصلحون الإسلاميون ليوجدوا حلاً لهذا المأزق ـ مأزق مراحل الشك لدىٰ الشباب المسلم ـ وبالفعل نسجل هنا حقيقة تاريخية وهي إن المصلحين الإسلاميين رجعوا خطوة إلىٰ الوراء في أعمالهم وخططهم وذلك لمعالجة هذه الأزمات العقائدية فبدلاً من أن يدفعوا الناس ويعلموهم أُسلوب

الهجوم على العدو وفضح نظرياته وأفكاره المسمومة اضطروا للإستجابة للجو العام الذي كان يتطلب الدفاع عن الله سبحانه وعن عدالته ورسالته وهذا ما لمسناه في خطبهم وتأليفهم فكانت أكثر نشاطاتهم تنصب حول إثبات وجود الله وعدالته وسلامة القرآن من التحريف وبمعنى آخر الدفاع عن الإسلام وهذا مصداق حديث أمير المؤمنين (ع) «ما غزي قوم في عقر ديارهم إلّا ذلوا . . » .

وبالفعل تمَّ بعونه (تعالى) دفع الشبهات بالحجج الدافعة ولكن السؤال الملح الذي لا مفر منه ، سيبقى يلاحقنا :

هل هذا يكفي للعملية الإصلاحية الهادفة في المجتمع الإسلامي حصانة ووقاية دائمة ؟ أم لا بد من موقف آخر يكمل العملية الإصلاحية ، وهذا ما سنتحدث عنه .

# (٧)
# الموقف المطلوب

والآن ماذا نصنع أمام هذه الهجمة العنيفة علىٰ عقائدالمسلمين؟ وحقاً بدأتْ تشعر الشعوب الإسلامية بأن هنالك موجات إلحادية صهيونية صليبية تعيش وتنمو في وسطها بل إن قسطاً من شباب المسلمين صار من روّاد الإنحراف بل من المتعصبين لهذه المبادىء التضليلية والآن أمام هذه الهجمة وتلك النتائج التي بدأت تستفحل في الأوساط ، علينا أن نعي المسؤولية الكبرىٰ ونبدأ بالمعالجة الدقيقة لهذا المرض الخطير متبصرين بالإسلام ومتدبرين بالقرآن المجيد والسنة الشريفة والسيرة المقدسة ، والعلاج الرئيس يتجسّد في تحصين أنفسنا وشباب المسلمين عامة بالفكر الإسلامي المتين كي لا تستطيع جراثيم التشكيك أن تخترق جدار قلوبنا وتفسدها ، إذن علينا أن نملي عقولنا بالفكر السليم وبحججه القويمة ، فلو تُرك فراغ في أذهاننا لاستطاعت هذه الأفكار الدخلية أن تتسلق علىٰ حين غفلة وتدخل حصوننا فتحتل مركزها في فراغات أذهاننا فإذن لا سبيل للتخلص من هذا الوباء إلاّ بإملاء نقاط الفراغ في دماغ الإنسان فلو لم تتوفر له الفكرة السليمة ليؤمن بها ، سيتشبث بالأفكار السقيمة فالمسألة طبيعية لأن الإنسان ضعيف ومحتاج لغيره ولا بد أن يسند نفسه إلىٰ أفكار معينة ـ وأكثر من هذا ـ لا بد للإنسان من فكرة يؤمن بها وحتىٰ لوقال: إني لا أؤمن بأية فكرة ففي الحقيقة إنه يؤمن

بفكرة ـ لا أؤمن بأية فكرة ـ لهـذا كان لزاماً علينـا أن نقوم بهـذا العمل الجبـار وهو أن نأخذ العقيدة عن إدراك ووعي ونفهمها كما يريدها سبحانه وتعالىٰ .

وبهـذا العمل سنقـطع دابر التشكيـك والإنحراف والإلحـاد هذا بـالنسبة لتحصين القلوب بـالأفكار الإسـلامية وبعـد القيام بهـذه العمليـة لا يمكننـا أن ننكـر دور الغزو المبـاغت للأفكـار المضادة الملحـدة فإنهـا قد أثـرت سـابقـاً ومـاضية في تـأثيرهـا بشكلٍ معين فلذلـك نحن أمام طـريقين لمعـالجـة هـذه المسألة الخطيرة :

**الـطريق الأول** : هـو طـريق الانهـزام أمـام هـذه العقبـات والأفكـار الهدامة .

**والطريق الثاني** : هـو طريق الالتـزام المبدئي لحـل هذه العقبـات مهما بلغت شدة المواجهة .

وطريق الانهزام يكرس حالـة التخلف في الفرد والأُمـة ولا مبرر شـرعي له وكذلك ، لا مبرر عقلي له والذي يفكر بالسلبيات ويعظم تـأثيرهـا في نفسه إنمـا يضع علىٰ قلبـه ستاراً سميكـاً من الأوهام يمنعـه من ممـارسـة فعـاليـاتـه الطبيعية في رؤية النور .

وبكلمة أُخرى إن أمثال هؤلاء لا يريدون أن ينزلوا للساحـة الفكريـة في المجتمع أو يعملوا تغييراً واصلاحاً في الأُمة لذلـك يبررون مـوقفهم الانهزامي هـذا والذي سيؤدي بـالنتيجة إلىٰ حـالة الانغـلاق واليأس وفقـدان الأمل بتغيـر الأُمة واصلاحهـا والطريـف ان أمثـال هؤلاء الناس يتصـورون أنهم سيبقون في سلامة من هذه الأمراض الغازية وفاتهم أن يتفكروا قليلاً بالأيـام السالفـة كيف إن خطة الدفاع تتعب الإنسان وبـالنتيجة يستسلم ـ وغالباً ـ للضغـوط المتنوعـة ويضـطر أيضاً ليسـاير الـوضع المنحـرف السائـد وأحبّ أن أكرر مقـولة الإمـام علي أمير المؤمنين (ع) (ما غزي قوم في عقر ديارهم إلّا ذلوا . . ) .

ولا يمكن أن يـدّعي أحد بـأنه لا يتـأثـر ولا يؤثـر في المجتمـع سلبـاً أو

إيجاباً فهذه سنة الحياة وقوانين التأثير والتغيير الاجتماعي ومن هنا يقول الشاعر :

لا تربط الجرباء حول صحيحةٍ　　خوفي علىٰ تلك الصحيحة تجربُ

وبالاضافة إلىٰ إننا حينما ندعو لنظرية الإلتزام بالإصلاح والتغيير مهما كلف الأمر إنما نحقق بذلك هدفنا الأساس وهو تمرين وتربية الإنسان المصلح لنفسه حيث يمارس التعاليم الإسلامية ممارسة عملية في الساحة مما يجعله يخرج من طور الدراسة النظرية والتنظيرية إلىٰ الميادين التجريبية والعملية وبالنتيجة سنحافظ علىٰ نفسية المصلح ذاته من الإنحراف أو المداهنة لذلك يقول سبحانه وتعالىٰ :

﴿أتأمرون الناس بِالبرّ وتنسون أنفسكم﴾ .

[سورة البقرة ٢ ، الآية : ٤٤] .

ويتعجب مولانا أمير المؤمنين من هكذا إنسان حيث يقول (ع): عجبتُ من امرىءٍ يأمر بالمعروف وينسىٰ نفسه . . .

فإذن نحن نتعجب من إنسان يدعو للخير والإحسان وينسىٰ نفسه إنه بالفعل عملٌ قبيح ولله درّ القائل :

لا تنهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مثله　　عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ

فعادةً تصقل شخصية المصلحين بالممارسة وتحمُّل الأعباء والمشاكل وهذا ما يتحقق بطريق الالتزام .

أما مدرسة المنهزمين التي تعلن إفلاسها أمام التيارات الغازية ومثل الواحد فيها مثل ذلك المقاتل في ساحة القتال الذي يحمل عتاده وذخيرته بالتمام ولكنه لا يعرف كيف ومتىٰ يستعمل أسلحته فحينما تبدأ بنادق العدو بإطلاق الرصاص نراه يخلع الأثقال من علىٰ جسمه ويرميها جانباً ليتمكن من الهزيمة العاجلة وحينذاك سيلاحقه رصاص العدو ليرديه قتيلاً وهكذا مصير المنهزمين فإن رصاص الإنحراف والأفكار الهدامة سيلاحقهم لينتزع ما يملكون من

بقايا الايمان ! بل ليسحبهم إلىٰ جانبه عبر سياسة الاستدراج لغرض السقوط في المستنقع ، ونتساءل : كيف يتبلور الإيمان ؟ إن لم يطبق عملياً لهداية الآخرين ويمارس ميدانياً لردّ أصحاب الشبهات العقائدية ، ففي الممارسات الميدانية سيصلب عود المؤمنين وتتبلور شخصياتهم الإيمانية ـ فقد قال عز وجل في محكم كتابه الكريم :

**﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلىٰ الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ .**

[سورة آل عمران ٣ ؛ الآية : ١٠٤] .

**﴿لا خير في كثير من نجواهم إلاَّ من أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بين الناس﴾ .**

[سورة النساء ٤ ؛ الآية : ١١٤] .

إذن علىٰ المؤمنين أن ينتهجوا طريق الالتزام الواعي كموقف إسلامي صحيح وإن هذا الموقف يكلف المؤمنين الواعين الكثير من التضحيات والتنازلات من الطموحات الشخصية والدنيوية ولنا في دراسة التجربة العقائدية عبر التاريخ أمثلة واضحة ويذكرنا القرآن الكريم حين يحدثنا عن الأمم السالفة ، ويدفعنا للتدبر والتبصر ويثير فينا دفائن العقول والفطرة السليمة التي هي مصدر النقاء وهي الحجر الأساس لبناء العقيدة الأصلية . وفي هذا الصدد يخاطبنا القرآن الكريم ويقول في عدة آيات نذكر منها :

**﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ .**

[سورة العنكبوت ٢٩ ؛ الآية : ٢٩] .

**﴿أفلا ينظرون إلىٰ الإبل كيف خلقت. وإلىٰ السماء كيف رفعت. وإلىٰ الجبال كيف نصبت. وإلىٰ الأرض كيف سطحت. فذكر إنما أنت مذكر﴾ .**

[سورة الغاشية ٨٨ ؛ الآيات : ١٧ ـ ٢١] .

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبين لهم أنّه الحق﴾ .

[سورة فصلت ٤١ ؛ الآية: ٥٣].

﴿أو لم يتفكروا في أنفسهم﴾ .

[سورة الروم ٣٠ ؛ الآية: ٨].

﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ .

[سورة يونس ١٠ ؛ الآية: ١٠١].

﴿وسخرّ لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾ .

[سورة النحل١٦ ؛ الآية : ١٢] .

هكذا يعلمنا ربنا سبحانه وتعالىٰ طريقة التفكير والإمعان في النظر لأخذ العقيدة بوعي وإدراك فإذن لنمارس التربية القرآنية علىٰ أنفسنا علىٰ المستوىٰ الفردي أو الاجتماعي لتركيز العقيدة في عمق ذواتنا ومما لا شك فيه ان التربية الاجتماعية لها أثرها الواضح في غرس العقيدة في النفوس حيث انها توفر الأجواء المناسبة لتمتين العقيدة وتصليبها وفي الاثناء لا بد من معرفة الردود المناسبة ـ والمستندة علىٰ الشريعة الإسلامية ـ لكل الشبهات المطروحة والتي تطرح حديثاً كذلك فلا بد من استيعاب الهجمة الفكرية بكل مراحلها وأبعادها أما بالمرحلة الأخيرة ـ التي هي الضمانة للاستقامة والمواصلة في فكرة الالتزام ـ لا بد أن نطبق أُسلوب الهجوم بدلاً عن الدفاع فقط ! فلنهاجم أصحاب الشبهات والمشككين كما يعلمنا القرآن الحكيم فقد قال سبحانه :

﴿أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم﴾ .

[سورة الأنبياء ٢١ ؛ الآية: ٢٤].

والبحث عن براهينهم بحث الثغرات والشبهات لديهم وهو حديث لا

ينتهي علىٰ المستوىٰ النظري والعملي ومن السهولة بمكان وضعهم في الزاوية الحرجة التي لا مفر منها لتنكشف سرائرهم وأباطيلهم فمن المؤكد ان هنالك مصالح ووراء المصالح أصابع تدفعهم لهذه المواقف فيثيروا الشبهات والتشكيكات علىٰ المبدأ القويم الذي لا شك فيه .

وقطعاً هذه الحالة تحتاج إلىٰ ملاحقة ومتابعة جدية فهنالك يكتشف الإنسان ذاته :هل إنه مستوعب مبدأه بصورة تامة بحيث يستطيع ردّ الشبهات والشكوك وافحام المشككين بالأدلة العقلية والنقلية أم لا ؟ وبالتالي مهاجمتهم في عقر ديارهم فإن لم يكن المستوىٰ كذلك فلا بدّ أن نتسلح بالإيمان والفكر كي نستطيع خوض هذا الغمار المصيري فإذن بالنتيجة علينا أن نلتزم القضية العقائدية ولا ننهزم أمام طلباتها مهما كلفت . . ونحن مدعوّون إلىٰ هذا الموقف المبدئي . .

قال سبحانه : ﴿ليس للإنسان إلاّ ماسعىٰ وأنّ سعيه سوف يُرىٰ﴾ .

[سورة النجم ٥٣ ؛الآيتان: ٣٩ ، ٤٠] .

وقال عز من قائل : ﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ .

[سورة البقرة ٢ ؛ الآية : ٣٨] .

# مصادر المدخل

(١) الحيـاة ، للحكيمي الجزء الأول الباب الثـاني ص ٢١٩ نقـلاً عن آمـالي الـطو
٢/٦٤ .

(٢) ميزان الحكمة ، ري شهري ج ١ ص ٣٠٠ .

(٣) ميزان الحكمة ، ري شهري ج ١ ص ٣٣٨ .

(٤) سفينة البحار ج ٢ ص ٣٧٣ .

(٥) الكامل لابن الأثير ص ٥٦ الجزء الأول .

(٦) سيرة الرسول ـ عن طبقات ابن سعد ص ٤٢ .

(٧) سفينة البحار ج ٢ باب فطرة الله ص ٣٧٣ .

(٨) مجمع البيـان للعـلامـة الـطبـرسي المجلد الثـاني ـ تتمـة الجـزء السـادس والـ
ص ٧٧ .

(٩) ميزان الحكمة ، ري شهري ج ٨ ص ٢٥٨ .

(١٠) ميزان الحكمة ، ري شهري باب الإيمان ج ١ ص ٣٣١ .

# الفصـل الأول

# التوحيـد

وفيــه بحــوث :

١ ـ بيان عقيدتنا في التوحيد .

٢ ـ كيف يجب أن نعرف اللّه ؟ .

٣ ـ اللّه خارج عن حدّ التشبيه والتعطيل .

٤ ـ موقع الحواس من معرفةِ اللّه سبحانه .

٥ ـ الجهاز العقلي وطرق الاستدلال .

٦ ـ كيف ومن أوجد الكون ؟ والكلام في هذا البحث عن :

( أ ) مناقشة أزلية المادة .
(ب) نظرية الصدفة في خلق العالم .
(جـ) قراءة في الاحتمالات لعلة الوجود .
( د ) اللّه هو الخالق للكون ، وحديث الأدلة علىٰ ذلك .
(هـ) وقفة مع الشبهات والرد عليها .

٧ـ صفات الله «عزّ وجلّ» والكلام في هذا البحث يتضمن :

(أ) الصفات الذاتية الثبوتية .

(ب) الصفات السلبية .

(جـ) صفات أفعاله .

# (١)

# بيان عقيدتنا في التوحيد

حينما نريد أن ندخل حلبة الصراع مع القوىٰ المعارضة لفكرتنا لا بد أن نعرف ما هو الموضوع الذي نريد أن نقدم له الدليل وندافع عنه؟ وما هي العقيدة التي نؤمن بها ؟ وما هي أسس التوحيد وعقيدة التوحيد لدينا؟ ولكي نكون علىٰ وضوحٍ تام لا بد أن نستند إلىٰ خلفية فكرية صلبة نقف عليها وندافع عنها دفاع المعتنق المبدئي الذي يعانق عقيدته بقوة ويدافع عنها وأيضاً يدفع عنها الشبهات والاتهامات ويضحي من أجلها إذن فنحن نعتقد عقلياً بضرورة معرفة أبعاد فكرة التوحيد ولو بمستوىٰ مناسب لهذا البحث. فالدافع العقلي هذا هو المحقق لمعرفتنا تلك فمن ناحية يجب أن نقدم الشكر للخالق والمالك والمدبر الذي مهّد لنا السبيل لحسن الاستفادة من الطبيعة أمطارها وهوائها ومن الحيوانات والنباتات بل من أجهزة الإنسان الداخلية فقد قال سبحانه :

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ .

[سورة التين ٩٥ ؛ الآية: ٤ ].

وأمرنا بالنظر والاعتبار للتوصل إلىٰ معرفته حق المعرفة ومن ناحية أخرىٰ ندرك أن العقل يأمرنا بدفع الضرر عن أنفسنا فكل إنسان عاقل يؤمن بضرورة دفع الضرر عن النفس ومن المؤكد ان الذي لا يؤمن بالله تعالىٰ

حق الإيمان يعرّض نفسه لأكثر من ضرر وخطورة وبالفعل إنه يلقي بنفسه إلى التهلكة حيث الاضطراب النفسي والقلق في الحياة الدنيا فقد قال الله الكريم :

﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ .

[سورة الرعد ١٣؛ الآية: ٢٨].

وقال أيضاً : ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا﴾ .

[سورة طه ٢٠ ؛الآية: ١٢٤].

وأما في الآخرة فالهلاك والجحيم والخسران المؤكد حيث يقول عز وجل :

﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ .

[سورة آل عمران ٣ ؛ الآية: ٨٥].

ومن ناحية ثالثة هنالك دعوة إلهية مفتوحة للإنسان للالتزام بهذه العقيدة القائمة على أسس التوحيد ليحصل على السعادة في الدنيا والآخرة بل إلحاح في دعوته للنجاة وإلاّ سيُحرم الإنسان من نعيم الآخرة على الأقل بل سيشقى نفسياً في الدنيا - كما مر في الآيات الكريمة - وسنوضح هذه الفكرة في حديثنا عن عدالة الله، بأن عدم التصديق بالتوحيد سيعكس سلوكاً شاذاً بعيداً تماماً عن السلوك السوي الذي يعكسه هذا المعتقد المقدس فمقابل تحقيق بعض لذائذ الدنيا غير الشرعية سيُحرم من لذات الآخرة الأبدية كما يقول سبحانه وتعالى :

﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم . .﴾ .

[سورة محمد ٤٧ ؛الآية : ٣٦] .

**والآن ما هي عقيدتنا في التوحيد :**

عقيدتنا هي : إن الله سبحانه هو الخالق المبدع المهيمن المكون المبدىء للكون والإنسان والوجود وهو الواحد الذي ليس كمثله شيء، قديم أزلي عليم حكيم عادل قدير حي غني باقٍ لا يزول ، لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم ، بصير سميع ، وغاية فكرة التوحيد انه واحد لا شريك له ولا معين له ، لم يلد ولم يولد فهو الذي أوجدنا بحكمته وإبداعه لا شبيه له ولا نظير، فهو الموجِد والمميت والمحيي وهو ليس مثلنا لا بالصفات ولا بالقدرات فهو القدير والعليم لا كما نصف أحدنا بأنه قدير في أمر ما كالخطابة أو التعامل التجاري أو عارف بالنحو أو الطب فالله ليس كمثلنا ومن هنا تبدأ أزمة الإنسان في الاعتراف بوجود الله تعالىٰ حيث أنه لا يستطيع أن يخرج من إطار شخصه فكل التصورات يتصورها شبيهة به ، ونسخاً طبق أصله وكما قال الإمام الباقر (ع): (هل سمي عالماً قادراً إلا لأنه وهب العلم للعلماء والقدرة للقادرين وكلما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم والباريء تعالىٰ واهب الحياة ومقدر الموت ولعل النمل الصغار تتوهم إن لله زبانيتين أي قرنين فإنهما كما لها وتتصور إن عدمها نقصاً له لمن لا يكونان له ولعل حال كثير من العقلاء كذلك فيما يصفون الله تعالىٰ به سبحان ربك ربّ العزة عما يصفون . . )[1] .

فيفترض الإنسان خالقه ومبدعه كشخصه فله عينان ورجلان وأجهزة داخلية وبمعنىٰ آخر إنه يعكس مكوناته وصفاته علىٰ ما يتصور في ذهنه مثله مثل ذلك الشخص الأعمىٰ العاجز الذي قيل له يجب أن تأكل من هذه الفواكة وقدمت له فاكهة التفاح قال :من أولدها ؟ قيل له: شجرة اسمها شجرة التفاح قال : إنه إنتاج لذيذ ولكن لي أسئلة عنها قيل له: ما هي ؟ قال : أين تنام هذه الشجرة ؟ وكيف تسير أهي عاجزة عن السير مثلي ؟ وما هو أكلها ؟ وهل يمكن أن نضيّفها في بيتنا فترةً من الزمن ؟ أو نهدي لها ملابس صوفية أيام البرد ؟ كي تقي نفسها وهل يمكن أن نتعرف علىٰ زوجها وأقربائها ؟ وهل

لها أب أو أمير يحكمها ؟ وهكذا . .

ومن حقنا أن نتساءل ـ هنا ـ : لماذا يسأل هذا الإنسان الأعمىٰ والعاجز كل هذه الأسئلة التي تبدو لنا في غير محلها؟والجواب: لأنه لا يستطيع أن يتصور نظاماً غير النظام الذي يعيشه هو وأقرانه ، ولا يمكن أن يتصور وجوداً مختلفاً عنه .

إذن إن الذي أوجدنا ليس مثلنا بالمكونات والصفات وصحيح قد تكون اللغة قاصرة لا تستطيع أن تجسد لنا ما نعتقد به ولكن علينا أن نميز بين قولين ، فحينما نقول زيد عالم وخالقنا عالم ، صحيح أن اللفظين بالشكل والصورة مشتركان في أمر واحد وهو العلم وبصيغة لفظية واحدة ولكنهما يختلفان بالمضمون قطعاً ، وصحيح قولنا هذا سميع وهذا بصير ولكن ليس بنفس المفهوم الذي نطلقه علىٰ ذات الخالق سبحانه وتعالىٰ .

فهو المنزه عن التشبيه وعن النقص ولذا يقول الإمام الباقر (ع): (بل كل ما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم) كما مر معنا آنفاً .

وأما الآيات الكريمة التي تجسد الله تعالىٰ فهي من باب تقريب المعنىٰ لذهن الإنسان ولا يمكنُ أن نؤمن بها بظواهرها مطلقاً فمثلاً قوله تعالى :

**﴿وجوه يومئذٍ ناضرة ، إلىٰ ربها ناظرة﴾** .

[سورة القيامة ٧٥ ؛ الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣] .

فهل يمكن أن يذهب البعض إلىٰ أن المسلم يوم القيامة بإمكانه أن يرىٰ الله سبحانه بعينه ؟فهذا أمر مستحيل إذ لو كان كذلك فيكون الله جسماً مركباً محتاجاً وحادثاً وغير أزلي وهذا ليس ربّنا والحقيقة أننا ننظر وننتظر رحمته وعطفه وثوابه يوم القيامة وهذا أمر مستساغ في اللغة العربية فهو لا يقصد النظر الحسي بالتأكيد ، وكذلك في الآية الكريمة **﴿يد الله فوق أيديهم﴾** فلا

يجوز التجسيم لذاته المقدسة وإنما المسألة معنوية تدل على أن قوة الله وقدرته فوق قوتهم وقدرتهم وهكذا بقية الآيات الكريمة الظاهرة في ذلك .

قال سيدنا أمير المؤمنين (ع) : (من وصف الله فقد قرنه ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزأه ومن جزأه فقد جهله) يعني من وصف الله تعالىٰ بصفة مغايرة لذاته فقد جعله مقارناً لغيره بالصفة ومن جعله مقارناً لغيره بصفته فقد ثناه إذ الموصوف وهو الله شيء والوصف شيء آخر ومن ثناه فقد جزأه أي جعله مركباً من ذات وصفه ومن قال بأنه ذا جزء لم يعرفه لأن الله واحد أحد .

وقال (ع) أيضاً : (أول الدين معرفته وكمال معرفته توحيده وكمال توحيده نفي الصفات عنه) وروىٰ الصدوق في التوحيد عن عروة قال : قلت للرضا (ع) : خلق الله الأشياء بقدرة أم بغير قدرة ، فقال : لا يجوز أن يكون خلق الأشياء بالقدرة لأنك إذا قلت خلق الأشياء بالقدرة فكأنك قد جعلت القدرة شيئاً غيره وجعلتها آلة له بها خلق الأشياء ، وهذا شرك وإذا قلت خلق الأشياء بقدرة فإنما تصفه أنه جعلها باقتدار عليها وقدرة ولكن ليس هو بضعيف ولا عاجز ولا محتاج إلى غيره .

وبإسناده عن الباقر انه قال:(سميع بصير يسمع بما يبصر ويبصر بما يسمع . . .)[٢] .

هذا هو ربنا وهذه هي عقيدتنا به .

# (٢)

# كيف يجب أن نعرف الله ؟

في الساحة البشرية عقائد متنوعة ولكنها ترتبط بقواسم مشتركة فيما بينها مما يجعلها تتمحور حول صنفين من العقائد الصنف الأول :يجتمع على الإيمان بوجود الله الخالق الأزلي والصنف الثاني : لا يؤمن بوجود إله أزلي خالق للكون بل يدعو لأزلية شيء آخر كالمادة مثلاً أو يبقى متشبثاً بنكران الخالق وجحود الله بكونه علة الوجود ومدبره .

ويشمل الصنف الأول عقائد متنوعة أيضاً منها ما يؤمن بأن لله سبحانه شريك ومعاون في الإدارة الكونية أو عدة شركاء له ، وبعضها يؤمن بالإثنينة في الخالق حيث يرى استحالة اجتماع النقيضين في إله واحد فلا يكون إله الخير وإله الشر إلهاً واحداً وإله النور وإله الظلام إلهاً واحداً بل لابدّ أن يكون هنالك إلهان في العالم إله المنافع والخير والإيجابيات ، وإله الاضرار والشر والسلبيات كما في عقيدة المجوس . وهنالك من يؤمن بتعدد الألهة فإله للخير وإله للشر وإله للظلام وإله للنور وإله للمطر وإله للشمس وهكذا كما ذهب الاغارقة إلى ذلك ـ في غابر الزمن ـ ومنهم من يرى ان الله سبحانه أوجد وأبدع الكون والوجود فهو علة الإيجاد والإبداع وليس علة الدوام والاستمرار حيث فقد أو ترك سيطرته بعد أن أبدع قوانين الحياة وسيّرها ، بقيت الطبيعة وقوانينها الكونية هي التي تسيّر الوجود فهي المدبرة

حالياً لمسيرها، أما الله فهو الخالق للقوانين الطبيعية فقط في بدايتها أما القوانين الطبيعية الحالية هي الآلهة الميدانية فهي تدير نفسها بنفسها بالاستمرارية كدحرجة الكرة من مرتفع فالبداية هي بتحريك الإنسان للكرة أما دوام الحركة فللاستمرارية وعليه فقد انتهىٰ دور الخالق في الكون ـ وفقاً لهذه النظرية ـ بمجرد الإيجاد والإبداع ! بينما يرىٰ الإسلام إن الله سبحانه هو علة الوجود والإبداع أولاً وعلة الدوام والاستمرار كذلك فلا شريك له ولا نظير ـ كما مر .

وعموماً إن هذه النظريات الفلسفية المتعددة تلتقي في فكرة الإيمان بوجود الله ولكن باختلاف وجهات النظر وعلينا أن نتوصل عبر الأدلة العقلية والنقلية إلىٰ أحقية العقيدة الصحيحة ويلزمنا أن نقدم الأدلة لدحض الأباطيل والأوهام التي تكتنف هذه العقيدة ـ عقيدة الإيمان بالله بالمعنىٰ الإسلامي ـ فندفع نظرية تعدد الآلهة والاثنينية وغيرهما ولنقرر عبر الأدلة أن الله تعالىٰ هو الواحد الأحد المبدع والمدبر والمهمين الدائم علىٰ ملكوته .

وقبل التطرق لهذه التفصيلات نودّ أن ندخل في حوارٍ موضوعيٍّ هادىء مع الصنف الثاني ولا نريد النقاش في صحة أو خطأ النظرية لأن ذلك سيأتي وإنما لنضع الجماعة أمام مفترق الطرق بعيدين عن التفصيلات والتشعبات فبكلمة واحدة نقول : إن الحق لواحد أينما نكون ومن أي منظار ننطلق فلا يمكن أن نؤمن بالتناقض فالشمس إما مشرقة أو مظلمة والقمر إما أبيض أو أسود فلا نؤمن بالتناقض في مكان واحدٍ وزمانٍ واحد وشروط منطقية واحدة .

ومن أبسط المناقشات والاستدلالات ومن واقع المنكرين لله! يمكن أن نتوصل مع هذه الجماعة إلىٰ أنهم لا يطيقون جواباً أمام كلمة الحق وكلما هنالك نراهم يلتفون علىٰ هذا الأمر الفطري وهو الإيمان بالله بدوافع عديدة منها شخصية ومنها سياسية واجتماعية وعلىٰ ما في تصوري الشخصي أنهم ينهزمون من الواجبات الشرعية التي تثقل كاهلهم غالباً فيبررون لهذا الانهزام

تمسكهم بهذه الأفكار والنظريات المنكرة لمبدع الكون ليروضوا عقولهم ويجبروها علىٰ مسايرة شهواتهم وطموحاتهم الشخصية . فالمؤمن مكلف بعدة واجبات بعد إيمانه بالرسل والرسالة الإسلامية والإمامة والمعاد فعليه أن يصلي ويصوم ويلتزم بالواجبات الشرعية ويترك المحرمات فالإيمان هو سلسلة من الالتزامات والضوابط فيفر المنكر هارباً من هذه الالتزامات عبر الضغط علىٰ فطرته وعقله بضغوطات النفس الأمارة بالسوء حتىٰ ترضخ هذه الفطرة النقية ! لضغوط وإرهاصات الغرائز النفسية وطموحاتها وبالنتيجة سينجذب العقل إلىٰ أن يضع التبريرات والمسوغات بقالب فلسفي معين يرضاه لنفسه ! ومثله مثل ذلك الصبي الذي أخذه والده إلىٰ الكتاتيب كي يتعلم اللغة العربية وقراءة القرآن الكريم وحفظه وقد كان الطفل ذكياً جداً لكنه في الدرس الأول امتنع عن مسايرة الدرس والاستجابة للتعلم وتظاهر بالبلاهة والبلادة وامتنع من تلفّظ الحروف الهجائية (أ ، ب ، ت . . ) فسأله المعلم عن السبب أجابهُ بأنه لا يستطيع التلفظ وحينما سأله عن أُموره الحياتية الأُخرىٰ أجابه بطلاقة !! فعرف الشيخ أنه محتال فاستعمل معه وسائل الضغط المعروفة لدىٰ بعض المعلمين بالتهديد والضرب وفعلاً ضربه ضرباً مبرحاً ، حينها تعالت صرخاته وملأت الجو الدراسي ضجيجاً وبالتالي أعلنَ عن استجابته لقرار الشيخ في مواصلة التعليم وبالفعل بدأ يتلفظ الحروف بشكلٍ جيّد واستمر في دراسته وبعد فترة سأله الشيخ عن ذلك فأجابه بصراحة : لقد عرفت انه لا مخلص من هذه السلسلة الدراسية الطويلة فالمسألة لا تنتهي حينما أتلفظ الحروف الأولية حيث سنواصل الدراسة من بعد الحروف الهجائية تأتي سور القرآن وبعد السور التزامات وبعد الالتزامات سلوكيات وعبادات وواجبات وهلم جرّاً . . . ففكرت أن أنهزم كليّاً من البداية من دون الدخول في هذه الخطة التعليمية الطويلة فآمتنعت من القراءة . . ولكني ما أفلحت ! فكثير من أفراد هذه المجموعة المنكرة يشبهون هذا الصبي ففي واقعهم ينضمون إلىٰ طريقة الانهزام من المسؤوليات والانفلات من الواجبات فقد قال سبحانه في محكم كتابه :

**﴿فلمّا جاءتهم آياتنا مبصرةً قالوا هذا سحر مبين ، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً فانظر كيف كان عاقبةُ المفسدين﴾ .**

[سورة النمل ٢٧ ؛ الآيتان: ١٣ ، ١٤].

وهكذا مهما اختلفت الأسباب والتصورات في تفسير أصحاب الصنف الثاني فالمسألة مصيرية بحد ذاتها وبحاجة إلى القرار الشجاع في اختيار العقيدة التوحيدية الخالصة من الشوائب التي أشرنا إليها .

ونعود الآن إلىٰ الحديث عن فكرة الصنف الأول : لماذا التعدد في وجود الآلهة ؟

يقول القرآن الحكيم : **﴿الذي خلق سبع سمٰوات طباقاً ، ما ترىٰ في خلق الرحمٰن من تفاوت فأرجع البصر هل ترىٰ من فطور﴾ .**

[سورة الملك ٦٧ ؛ الآية: ٣].

فالدقة البنائية في الخلق الإبداعي للكون تدل علىٰ وحدة الخالق المبدع .ونتساءل لماذا لا بد من وجود إلهين اثنين ؟ والحال إن كل شيء في الكون يدل علىٰ أن الخالق واحد لعظمة الانسجام والتنسيق فيما بين المخلوقات في العالم .

فوا عجبا كيف يُعصىٰ الإلٰه  أم كيف يجحده الجاحِدُ
وفي كل شيء له آيةٌ  تدل علىٰ أنه الواحِدُ

وجدلاً نقول إن هذه الآلهة المتعددة أو الإلهين إما أن يكون أحدهم أو أحدهما هو الأقوىٰ فيقدر علىٰ غيره وأما أن يكونوا بدرجة متساوية من القوة فلا يقدر أحدهم على غيره فإن قلنا ان أحدهم قادر علىٰ غيره فهو الإله المدبر الواحد وإن قلنا إن أحدهم ليس قادراً علىٰ غيره من المشاركين معه في الألوهية فنسلب منه صفة مهمة من صفات الألوهية وهي القدرة فإذن لا يستحق أحدهم منصب الإله الحقيقي المبدع المهيمن القادر وكيف نقول إنه قادر ويعجز عن السيطرة علىٰ وجودات منافسة له فالإيمان بالإله علىٰ انه

قـادر وعاجـز في آن واحد هـو ايمان بـالتناقض البـاطل عقـلاً ، والعجز صفـة شاملة لكل أنواع العجز سـواء كان من السيـطرة على المنافس أو الهيمنـة على قانون الطبيعة فهـو عجز على كـلّ حال وبـالمقابـل القدرة صفـة شاملة كـذلك لكل أفرادها فالقادر قدرته مطلقة والمهيمن هيمنتـه مطلقة .

﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ .

[سورة يٓس ٣٦ ؛ الآية : ٨٢].

ولا فـرق لـديـه بين إبـداع السمـاوات والأرضين وإبـداع حشـرة حقيـرة كالذبابة أو البعوضة فقد قال سبحانه :

﴿إن الله لا يستحي أن يضـرب مثلاً مـا بعوضـة فما فـوقها فـأمـا الـذين آمنـوا فيعلمون أنـه الحق من ربهم وأما الـذين كفروا فيقـولـون مـاذا أراد الله بهذا مثلاً يُضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلاّ الفاسقين﴾ .

[سورة البقرة ٢ ؛ الآية: ٢٦].

والقرآن العظيم في موضع آخر يتناول فكرة الشريـك لله سبحانـه ووجود الألهة المتعددة فيقول :

﴿لـو كـان فيهمـا آلهـة إلاّ الله لفسـدتـا فسبحـان الله ربّ العـرش عمّـا يصفون﴾ .

[سورة الأنبياء ٢١ ؛ الآية: ٢٢].

فالدقـة التي نراهـا في خلق الكون من الـذرة إلى المجرة والنـظام الذي نراه في جسم الإنسان والحيوان والنبات إنـه حقاً يـرغمنا لـلاعتراف والإذعان للمبـدع الأكبر فلو كـان هنالـك مدبّـران لهذا الكـون لارتبكت الأمور الكـونية كما لا يمكن أن نتصور رئيـسين لـدولة أو مـديرين لمعمـل وهكذا لا يمكن أن نتصور إلهين لهذا الكون وبالفعل لو كـانت الإدارة آثنينية لكـانت تأتينـا الأوامر والإرشـادات من كل إلـه بل تـأتينا رسـل وكتب سماويـة من كل إلـه ونحن ما

وجدنا في قديم الزمان أو الزمن الحالي من يدّعي هذا الإدعاء الباطل فقد قال الله تعالى في محكم كتابه العزيز :

﴿إنه من سليمان وإنّه بسم الله الرّحمٰن الرحيم . ألاَّ تعلوا عليّ وأتوني مسلمين﴾ .

[سورة النمل ٢٧ ؛ الآيتان: ٣٠ ، ٣١].

وقال الإمام علي (ع) في وصيته لولده الحسن أو محمد بن الحنفية علىٰ اختلاف الروايات : (واعلم يا بُني أنّه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ، ولعرفت أفعاله وصفاته ولكنه إله واحد كما وصف نفسه) .

أما الإمام الصادق (ع) فقال في جواب الزنديق الذي قال له:لم لا يجوز أن يكون صانع العالم أكثر من واحد ؟ :

(لا يخلو قولك أنهما اثنان من أن يكونا قديمين قويين أو ضعيفين أو يكون أحدهما قوياً والآخر ضعيفاً فإن كانا قويين فلِمَ لا يدفع كل واحد منهما صاحبه وينفرد بالتدبير وإن زعمت ان أحدهما قوي والآخر ضعيف ثبت أنه واحد كما نقول للعجز الظاهر في الثاني وإن قلت إنهما اثنان لم يخل من أن يكونا متفقين من كل جهة أو مفترقين من كل جهة فلما رأينا الخلق منتظماً والفلك جارياً واختلاف الليل والنهار والشمس والقمر دلَّ صحة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر علىٰ أن المدبر واحد)[٣] .

أما فكرة تعدد الآلهة فكذلك إن قلنا كلهم موجودون في آن واحد يأتينا الحديث المار الذكر بمعنىٰ أيهم أقوىٰ وأقدر ؟ فإن برز منهم أحد فهو الإله القادر وإن كانوا متساوين في القوة والقدرة فيكون كل واحد منهم عاجز وقادر في آن واحد وهذا ما أبطلناه حيث التناقض ـ كما مر معنا ـ فإذن لا يمكن أن نؤمن بإله عاجز وغير قادر .

هذا إن قلنا إن الآلهة موجودة في آن واحد وهنالك من يذهب إلىٰ أن

تعدد الآلهة عبر تجدد الزمن وبكلمة أخرىٰ يرىٰ أنّ العرش الإلهي هو منصب وراثي :إله ابن إله فكل آثنين بحاجة إلىٰ ثالث والثالث بحاجة إلىٰ رابع والرابع بحاجة إلىٰ خامس وهكذا . . .

فالموجد المبدع بحاجة إلىٰ من أوجده وأبدعه فهو حادث والحادث بحاجة إلىٰ علة والعلة بحاجة إلىٰ علة أُخرىٰ، ونقع حينئذ في التسلسل الباطل كما يقول الفلاسفة إذ لا بد من نقطة بداية لهذا الكون ولهذا الوجود فإن لم نتوصل لهذه القناعة سنبقىٰ نسلسل العلل تلو العلل إلىٰ ما لا نهاية . .

وهذا الكلام يصلح للجواب علىٰ من يسأل من أوجد الله ؟ ! فيدخل في نفق التسلسل علة تجر علة من دون أن يخرج منه بنتيجةٍ ملموسة بل يزداد تيهاً علىٰ تيه .

وهنا إما أن نقول إن هذه العلل باقية علىٰ حالها وكانت هكذا من دون الحاجة إلىٰ علة رئيسية موجدة أو سبب أخير في إبداعها . وبالتأكيد إن هذا الكلام هو نكران واضح للقانون العقلي فلكل معلولٍ علة ولكل مسبَّب سبب ، هذا قول ، وإما أن نأخذ بالقول الآخر وهو : أن نفترض أن لهذه الموجودات ولهذه العلل علة تعتبر أُم العلل الكونية وهي التي أبدعت الوجود ووضعت القوانين الطبيعية وخلقت الإنسان والحيوان وهذه العلة الرئيسية نسميها الله القادر المبدع المهيمن وهكذا نتوصل إلىٰ فهم الخالق الموجد المبدع .

# (٣)

# اللّه خارج عن حدّ التشبيه والتعطيل

قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ .

[سورة الشورىٰ ٤٢ ؛ الآية : ١١].

وكما أسلفنا إن الذي أوجدنا ليس مثلنا لا بالذات ولا بالصفات فهو تعالىٰ قوي قادر عالم ليس كما نتصور الإنسان القوي ذا العضلات المفتولة والقدرة الفولاذية وإنما قوته وقدرته وعلمه ـ كل ذلك ـ لا يقع في تصوراتنا المحدودة وايضاً هو الخالق المبدع المهيمن علىٰ هذه الوجودات لا مثيل لذاته ولا شبيه لصفاته وبهذا التقرير لا يمكن أن نشبّه الله سبحانه بأحدٍ بلغ قدْراً من إبداع محدود في صناعة أو تأليف شعر فالله سبحانه كما وصف نفسه ﴿ليس كمثله شيء﴾ لأن كل شيءٍ في الوجود نراه بأعيننا فهو مخلوق ومرتبط وجوده بزمن ويتغير مع الظروف وحاشا الله عز وجل من هذا التشبيه والتمثيل .

بالإضافة إلىٰ أننا لا يمكن أن ننكر وجود مدبر عليم يدير الكون وينظم حركته فأنفسنا وما نرىٰ من الظواهر والآثار الكونية تكفي للاعتراف

والاذعان التام لعظمة الخالق الكريم فهو ليس نكرةً أو عدماً بل إنه موجود حتماً لوجود آثاره وحكمته وإنه لا شبيه ولا مثيل له ومن هنا قال الإمام الصادق (ع) : (كل موهوم بالحواس مدرَكٌ بها تحده الحواس وتمثله فهو مخلوق) وبهذا فإن دائرة التشبيه بالحواس المحدودة التي نملكها بعيدة عن الله سبحانه وكذلك لا يمكن نفيه ، فالأنظمة الدقيقة في الكون تدل عليه دلالة واضحة .

فقد قال (ع) : (لا بد من الخروج من جهة التعطيل والتشبيه لأن من نفاه أنكره ورفع ربوبيته وأبطله ومن شبهه بغيره فقد أثبته بصفة المخلوقين المصنوعين) .

فكل ما نتخيله ونتصوره في أذهاننا محدود مثلنا ، محتاج مثلنا ، فقير مثلنا ، متغير مثلنا ، له بداية كما له نهاية مثلنا بالضبط ، لأنه انعكاس عن ذواتنا المتصفة بالتغيير والتبديل والانتهاء فإننا لا نستطيع أن نتعرف علىٰ وجود أحد أو أن نحيط علماً بوجوده ، بأدواتنا الملموسة هذه إلاَّ أن يكون مثلنا أو دوننا فلا نستوعبه بل لا نستطيع معرفة وجود الذي هو فوقنا كمالاً بهذه الأدوات الملموسة والمحسوسة لأنها محدودة الطاقة والامكانية .

فالوجود الذي نحن نعرفه ونستوعبه يكون ضده العدم والله سبحانه وجوده ليس له ضد فوجود الله عز وجل لا كما نفهم من الوجود الذي يقابله العدم بل هو الوجود المطلق والكمال المطلق وحينما نقول الله أكبر فإن كنا نقصد إن الله أكبر من كل شيءٍ فقد حدّدناه والمفروض أن نقول إن الله أكبر من أن يوصف فقد قال الإمام أمير المؤمنين (ع) : «فمن وصفه فقد حدّه ومن حدّه فقد عده ومن عدّه فقد ثناه ومن ثناه فقد جعل له شريكاً» .

وحقاً كل ما نشاهده أو نتصوره في الذهن فهو من سنخنا وجنسنا أي حسب حدودنا وانعكاسنا بينما الذات المقدسة ليست من سنخنا فكيف نستطيع أن نشبهها علىٰ ضوء حواسنا المحدودة وعقولنا القاصرة كذلك ، يقول الإمام الصادق (ع) -في هذا الصدد- : «تعالىٰ الله عما يصفه الواصفون» فإذن لا بد أن ننفي عن الله التشبيه والعدم يقول الإمام الصادق (ع) أيضاً :

( . . . فإذا أنتهىٰ الكلام إلىٰ الله فأمسكوا . . . )[٤] .

لأننا لا نستطيع معرفة كنه الله وماهيته بل لا نستطيع التوصل إلىٰ المعرفة المحسوسة لله لأن الله خارج عن إطار إحاطتنا المحدودة والقاصرة يقول الله في محكم كتابه :

﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ .

[سورة الأنعام ٦ ؛ الآية: ٩١].

ويقول الإمام السجاد (ع) : (إلهي لولا أمرك لنزهتك عن ذكري لأن ذكري بقدري لا بقدرك) لأن الإمام السجاد محدود فذكره محدود أيضاً ولكن تعاليم الله وأوامر بالذكر والدعاء والتسبيح هي التي جعلت الإمام المحدود والإنسان المحدود يذكر اللامحدود ويسبح له .

فقد قال سبحانه : ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ .

[سورة الأنعام ٦ ؛ الآية: ١٠٣].

وعن الجعفري عن الإمام الباقر (ع) في كلامه حول هذه الآية المباركة قال : (يا أبا هاشم أوهام القلوب أدق من أبصار العيون أنت قد تدرك بوهمك السند والهند والبلدان التي لم تدخلها ولا تدركها ببصرك وأوهام القلوب لا تدركه فكيف أبصار العيون)[٥] .

فإذن كيف نعبد ربّاً لم نره ؟ يجيب علىٰ ذلك الإمام علي (ع) ـ كما يسند إلى الأصبغ ـ قال : قام إليه رجل يُقال له ذغلب فقال : يا أمير المؤمنين هل رأيت ربك ؟ قال: ويلك يا ذغلب لم أكن بالذي أعبد ربّاً لم أره فقال : كيف رأيته ؟ صفه لي قال (ع) :

(ويلك لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان)[٦] .

فإذن هذا هو الله ـ خارج عن حدّ التشبيه والتعطيل بل تدركه العقول بآثاره الحكيمة ـ .

# (٤)

# موقع الحواس من معرفة اللّه سبحانه

الحواس الخمس التي يمتلكها الإنسان هي بمثابة النوافذ الطبيعية بينه وبين العالم الخارجي فالعين ترىٰ الموجودات لتميز الألوان والأشكال وتكشف النور عن الظلام أما الأذن فهي تميز الأصوات لتعرف صوت الصديق عن غيره ولتميز أيضاً بين أصوات الطبيعية كخرير الماء وحفيف الشجر وأصوات الحيوانات كصهيل الخيل وزئير الأسد وفحيح الأفعىٰ وزقزقة العصافير وكذلك تميز بين أصوات المكائن والآلات الميكانيكية وبين أصوات الطائرات الحربية عن الطائرات المدنية وبين أزيز الرصاص وصوت المدافع وهكذا . . وأما الأنف فيشم الروائح المتنوعة فيميز العطور الجميلة عن الروائح الكريهة أيّاً كان المصدر بل ويميز العطور الجميلة ذاتها في درجة التركيز أو الخفة حسب المصادر . . وأما اللسان فيتذوق الأمور ليكتشف لنا الطعم الحلو عن المر والحار عن البارد ، إضافة لكونه الناطق الرسمي عن أفكار وأحاسيس الإنسان الداخلية . . وأما حاسة اللمس فتكشف لنا عن الملمس الخشن لتميزه عن الناعم وهكذا فالحواس إذن هي النوافذ الطبيعية التي تربط الوجود الخارجي بذهنية الإنسان . وسبحان الخالق الكريم الذي قال :

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تَقويم﴾. [سورة التين ٩٥ ؛ الآية : ٤].

ونحن في دراستنا عن الحواس ندرك بأن هذه الحواس لها مدىً محدود لا تستطيع أن تتجاوزه والواقع العملي أثبت هذه المسألة حيث أن الحواس الخمس بأجهزتها المعقدة فإنها محدودة بحدود معينة وبقدرات معينة لا يمكن تجاوزها فمثلاً وببساطة نحن لا يمكننا أن نرىٰ ماذا يجري حالياً في شوارع باريس لأن أعيننا قاصرة عن تحقيق هذا الهدف كما لا يمكن أن نرىٰ ماذا يجري في الشارع المجاور لنا وحتىٰ خلف جدران غرفتنا لا نستطيع رؤيته لأن الجدار يحجب عن قدرة العين الباصرة . وحاسة الاذن كذلك ، لها ذبذبات معينة تتمكن أن تسمع فيها فلو زادت عن هذا الحد الطبيعي أو نقصت لم نستطع سماع شيءٍ ما ففي عالم النمل مثلاً لا نستطيع سماع الحوار الدائر بين أفراد النمل بالرغم من أننا ندرس عن هذه المملكة وجيوشها ونظامها ، كل ذلك لأن قدرة استيعاب الأذن لذبذبات الصوت قدرة محدودة وما ينطبق علىٰ حاسة السمع ينطبق كذلك علىٰ حاسة الشم واللمس أي أن هذه الحواس محدودة القدرة والقابلية .

والسؤال المطروح أن هذه الحواس المحدودة ماذا نريد منها ؟ أنريدها أن ترىٰ كل شيء في الوجود بما في ذلك الخالق المدبر مثلاً وأنّىٰ لها ذلك وكيف يكون لها ذلك ؟ .

ممّا تقدم نفهم أن الحواس التي نمتلكها هي نوافذ المعرفة للإنسان بالفعل ولكنها قاصرة ومحدودة لا تستطيع أن تستوعب كل الأحداث وتميزها إضافة إلىٰ أن الحواس هذه قدتخطىء كمافي الحالات السرابيّة بالنسبة للعين فهي ترىٰ السراب وتتصوره حقيقة ولكن حينما تقترب منه لا ترىٰ شيئاً وينتقل السراب الخادع لمكان آخر . . وعليه نحن لا نستطيع أن نجزم أن كل الوجودات في الكون لا بد أن تمرّ عبر حواسنا مباشرةً حتىٰ نؤمن بها كحقيقة قائمة وإنما قد نصل لمعرفتها عبر معرفة الحقائق اليقينية بصورة غير مباشرة أي من خلال آثارها ، فإذن لا تستطيع حواسنا استيعاب كل الوجود كي تؤمن به وإنما نستطيع أن نؤمن بنوع من الوجودات التي نتحسسها وندركها عن طريق آثارها حتىٰ لو لم تخضع لاحدىٰ حواسنا مباشرة ،مثال

ذلـك المغناطيسيـة في الحديـد والقوة الكهـربائيـة والجاذبيـة الأرضية وغيـرها فنحن نؤمن بـوجودهـا قطعـاً من دون أن نراهـا أو نشمها . . . وبمعنىٰ آخـر لا تخضـع لهذه الحـواس التي بحوزتنـا وإنمـا نؤمن بهـا من آثـارهـا . . . فنحن بتجاربنا نـدرك أن الذي يصعـد إلىٰ قمة الجبـل أصعب وأشق من الذي ينـزل من القمـة إلىٰ الوادي وكمـا في تجربـة نيوتن والتفـاحة كيف أنـه رآهـا حينمـا تنضـج تسقط إلىٰ الأرض ولا تصعد إلىٰ السمـاء . . . فمن ذلك تـوصلنـا إلىٰ الإيمان بوجـود جاذبيـة في الأرض تجذب إليهـا الأجسام والهـواء . . وكذلـك المغنـاطيسية في الحـديد فنحن لا نستـطيع أن نميـز بين قطعتين من الحـديـد إحداهما ممغنطة والأخرىٰ غيـر ممغنطة إلّا بعـد أن نرىٰ الآثـار فنجزم بـوجود المغناطيسية بالرغم من أننـا لا نستطيـع أن نسمع أو نـرىٰ أو نشم أو نلمس أو نتـذوق المغناطيسيـة والجاذبيـة . . . وحتىٰ الأشعة غيـر المرئيـة فلو استعملنـا المنشور المضلع في مختبر الفيـزياء مثـلاً فإننـا سنلاحظ فـرز سبعة ألـوان هي الأحمـر والبـرتقـالي والأصفـر والأخضـر والأرزق والنيلي والبنفسجي فقط والعلماء يؤكدون علىٰ وجـود ألوان أخـرىٰ غير مـرئية فيسمونها بـالاشعة تحت الحمراء وما وراء البنفسجية فلا نراها ولا نشمها ولا نتذوقها لكننا نؤمن بها .

وكـذلك القـوة الكهربـائية فهي قـوة لا تخضع للحـواس الخمسة وإنمـا يميّزها العقل من خلال الآثار فمن الصعوبة بمكان أن نشير لسلك كهربائي فيـه قوة أو خالٍ من القوة الكهربائية حيث لا فرق بين السلكين إلّا بالآثار .

وحتىٰ بعض المسـائـل الـوجـدانيـة كـالحب والبغض والألم واللذة لا يمكن أن تخضـع للحواس الخمس يقـال أن بهلولاً صادف إنسـاناً ينكـر وجود الله بحجة إنه لم يره فضربه بحجر أصاب راسه فتـألم وصرخ متوجعـاً فـالتفت إليـه بهلول متسـائلاً : إني لا أرىٰ لـلألم لـونـاً ولا شكـلاً ولا طعمـاً ولا رائحـة فأتعظ المنكر .

وفي نقاش الإمام أبي الحسن الرضـا (ع) مع أحـد الزنـادقة في عصـره جـاء إليه محتجـاً وهو يقـول : أوجَدْني كيف هـو؟ وأين هو؟ فـقــال (ع) :

ويلك إن الـذي ذهبت إليـه غلط هـو أيّن الاين بـلا أين (أي إنه أبـدع الكـون وأوجد المخلوقات في مواقعها) وكيّف الكيف بـلا كيف فلا يعـرف بالكيفـوفية ولا بالأينونية ولا يدرك بحاسة ولا يقـاس بشيء . فقال الـزنديق : فـإذن إنه لا شيء إذ لم يـدرك بحـاسـةٍ من الحـواس . فقـال الإمـام (ع) : (ويلك لمّـا عجـزتْ حواسـك عن إدراكه أنكـرت ربوبيتـه ونحن إذا عجـزتْ حـواسنـا عن إدراكه أيقنا أنّه ربنا بخـلاف شيءٍ من الأشيـاء) . قـال الرجـل : فأخبـرني متىٰ كان ؟ .

فقال (ع) : أخبرني متىٰ لم يكن فأخبرك متىٰ كان .

قال الرجل : فما الدليل عليه ؟

فقـال (ع) : (إني لما نـظرت إلىٰ جسـدي ولم يمكنّي فيـه زيـادة ولا نقصـان في العرض والـطول ودفع المكـاره عنـه وجـرّ المنفعـة إليـه علمتُ أنّ لهـذا البنيان بـانياً فـأقررت بـه مـع مـا أرىٰ من دوران الفلك بقـدرتـه وإنشـاء الحسـاب وتصريف الـرياح ومجـرىٰ الشمس والقمـر والنجـوم وغيـر ذلـك من الآيات العجيبات المبينات علمت أنّ لهذا مقدراً ومنشئاً) .

هـذا وفي بعض حالات الخـوف والفزع بـل وفي ذروة الخوف حيث لا يُتوقع الانقاذ من قوة اعتيادية يتصل الإنسان بوجدانـه وضميره وفـطرته بـالخالق المدبر حيث إن هذا الهاجس المـرعب يضغط علىٰ الحواس فيقلصهـا إلىٰ أن تعلن إفـلاسهـا أمـام الحـدث لـتبـرز الفـطرة وتحكم بمـا وراء الحـواس قـوةً حقيقية للإنقاذ .يروىٰ أن رجـلاً جاء لـلإمام الصـادق (ع) وسألـه : عرفني ربّي فقـال لـه الإمـام (ع) : هـل ركبت البحـر ؟ قال :نعم قال : هـل كُسـرت بـك السفينة؟ قال: نعم قـال (ع) : هل تعلق قلبـك بشيءٍ حيث لا سفينة تنجيـك ولا أحد يغنيك ؟ قال : نعم قال الإمام :(ذلك هو ربك) .

ففي أحلك الساعات واحرجها تنطق الفطرة بـالحق هامسـةً بصوت عـال متـوجهةً بصـدقٍ واخلاص مبـاشـرة فهي تحـطم كـل الحـواجـر التي صنعتهـا الحواس والماديات والدنيا لتتعلق ببراءة وصدق بالمصدر الأزلي الدائم .

فإذن ليس كل ما لم يخضع للحواس فهو غير موجود وكل ما يخضع للحواس فهو موجود بل قد تكون هنالك أمور واضحة للعقول ولكن الحواس قاصرة عن إدراكها ، بل الآثار تدل عليها يقول سبحانه وتعالىٰ :

**﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ .**

[سورة الملك ٦٧ ؛ الآية : ٢٣] .

وكذلك يمكن العكس حيث أن الحواس تخدع الإنسان بوجود شيء خيالي كسراب الماء مثلاً فيتصوره حقيقة وإذا به خيالاً ـ وقد مرّ ذلك ـ .

ويصور لنا القرآن الكريم هذه الصورة الوهمية ويعتبر أعمال الكافرين هي كالسراب الخادع للعين بوجوده ، لكنّه أمرٌ وهميٌ لا حقيقة له ، فيقول :

**﴿والذين كفروا أعمالُهم كَسَرابٍ بقيعةٍ يحسبُهُ الظمآنُ ماءً حتىٰ إذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شيئاً وَوجَدَ اللّهَ عنده فوفّاهُ حسابه واللّهُ سريعُ الحساب﴾ .**

[سورة النور ٢٤ ؛ الآية : ٣٩] .

# (٥)
# الجهاز العقلي وطريق الاستدلال

العقل هو الجهاز الكاشف للحقائق وهذه الحقائق قد يستلمها بإيعازات الحواس أو يستلمها من الآثار المتعددة سواء كانت خارجية أو داخلية فيسلط عليها أشعته الكاشفة ليتبين بالتالي حقيقة الأمر فبالعقل نميّز الطريق المستقيم عن الطريق الملتوي وبالعقل نكتشف خطأ الأفكار وصحتها ومن العقل نستلم بطاقة الدعوة لفعل الخير والجمال وإطاعة الخالق المدبر ومن العقل نتلقى إشارات حمراء بعدم ممارسة الأعمال الشريرة المخالفة للفطرة الإنسانية .

قال تعالى : **﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾** .

[سورة النحل ١٦ ؛ الآية : ١٢].

فالعقل هو الأداة الكاشفة والمميزة والدالة على الله سبحانه وتعالى حيث القدرة الكاملة والملك التام المطلق .

وهنا يبرز سؤال مفاده : من دلّ العقل على الله ومن منحه هذه القابلية ليبحث عن الأسباب والعلل الماورائية ؟ وفعلاً لا يستقر للعقل قرار حينما يبقى في إطار الشك والاحتمال فيسعى بكل قوته للتوصل إلى السبب الأول

حيث تتوفر القناعة التي بدورها تجعل العقل مستقراً ومطمئناً ويمكن أن نقول إن هذه المسألة من المسائل الجديرة بالبحث والمناقشة وقد ازدادت الاجابات عنها حيث تتعدد الجهة التي تلهم العقل هذه القابلية علىٰ البحث والتمييز عن الخالق الأعظم بل السعي لمعرفة علة العلل وسبب الأسباب فمنهم من قال : إن القوة الملهمة قوة ذاتية كالآلة الميكانيكية تضعها علىٰ قانون معين فتستمر عليه دون توقف تبعاً لقانون الاستمرارية كدحرجة الكرة ومنهم من قال: إن القضية تكسبيه حيث تم اكتساب هذه القابلية من البيئة والمجتمع ونحن نسدل الستار علىٰ كل هذه النظريات التي هي بحاجة إلىٰ كلام طويل لعرضها وتوجيهها فلنبرز الرأي الإسلامي الصحيح من منابعه الأصيلة ، يقول مولانا أمير المؤمنين الإمام علي (ع) في دعاء الصباح :

(يا من دلع لسان الصباح بنطق تبلجه وسرّح قطع الليل المظلم بغياهب تلجلجه وأتقن صنع الفلك الدوار بمقادير تبرجه وشعشع ضياء الشمس بنور تأججه يا من دلّ علىٰ ذاته بذاته وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته . . ) تأمل في قوله (ع) يا من دلّ علىٰ ذاته بذاته فالله سبحانه هو الذي ألقىٰ في روعنا وعقولنا هذه الغاية المقدسة وهذا الطموح الفطري كي يسعىٰ الإنسان للتوصل إلىٰ معرفته سبحانه بنور العقل .

والإمام السجاد (ع) في هذا الصدد يقول في دعائه : (بك عرفتك وأنت دللتني عليك . ودعوتني إليك ولولا أنت لم أدرِ ما أنت . . ) .

والآن دعنا نتصور هل أن العقل باستطاعته أن يدرك كل الأشياء والوجودات بكنهها وماهيتها ودقة جزئياتها وأوصافها حتىٰ نعمّم هذه الاستطاعة لتشمل بحثنا عن معرفة الله عز وجل وبكلمة أخرىٰ هل استطاع العقل أو هل يستطيع أن يدرك ماهية الله وكنهه بالشكل المحسوس أو الملموس ؟ .

وفي الإجابة علىٰ هذا الاستفهام نجزم بأن العقل الإنساني لا بد أن

يكـون قاصـراً وقابليـاته محـدودة وهذا الجهـاز المخلوق والمحـدود قـطعـاً لا يستطيع أن يحيط علمـاً وإدراكاً بـاللامحـدود وهو الخـالق العظيم بـل أكثر من هذا إن العقل الإنساني قد لا يحيط علماً حتىٰ ببعض الماديـات والملموسـات من الأشياء المتعارفة التي يقرّ بوجودها العلم فلا تـظهر لـلإنسان إلاّ أن يكـون متخـصصـاً بالعلم المعين فيمكنـه أن يحيط بالشيء أو بجـزئه إحـاطـة شـاملة نـوعاً مـا مثـلاً الأطبـاء فـإنهم لم يحيـطوا بكـل أمـراض جسم الإنسـان وليس باستطاعتهم أن يشخّصـوا المرض ويصفـوا الدواء لكـل الأمراض المستعصيـة وهكذا يقف العلم الحديث والطب الحديث عـاجزاً عن شفـاء بعض الأمراض المستعصيـة والتي لا زالت لغزاً يصعب حـلّ رمـوزه فمن هنـا نفهم أن العقـل الإنسـاني رغم إنجازاتـه العملاقـة في الحياة لكنـه يعجز عن أمـور قـد تكـون تافهة في نظر الإنسان العادي ، صحيح أن العقـل الإنساني تـوصل إلىٰ صنـع سفينة الفضاء وصنـعَ العقل الالكتـروني ولكنه يعجـز عن قتل الجـرثومـة التي تسبب الزكام مثـلاً ولكنه يعجـز عن معالجـة مرض السـرطان فضـلاً عن عجزه المطلق إذا طلبوا منـه إحياء ذبـابة أو إعـادة الروح إلىٰ نملة ولتستخـدم أضخم المختبرات الطبية لهذه العمليات .

يقول سبحانه في محكم كتابه الكريم : **﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحقّ من ربهم وأمّا الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلاّ الفاسقين﴾** .

[سورة البقرة ٢ ؛ الآية: ٢٦] .

وبالفعل **﴿وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً﴾** .

[سورة الإسراء ١٧ ؛ الآية: ٨٥] .

أحد العلماء الكبار صاحب نظريات علمية رائعة تـرك وصية قبيـل وفاتـه بعـد أن سألـه أحد عن إنجـازاته العلميـة قال : إني اكتشفت أننـا لا نعلم شيئـاً ومثلنـا مثل ذلـك الطفـل الجـالس علىٰ شـاطىء البحـر يتـلاعب بـالصـدف والحصىٰ الملقىٰ علىٰ السـاحل بـواسطة الأمـواج البحريـة ونتصور بـذلك أننـا

نعلم بكل شيء والحال أن أسرار البحر العظيمة وما يجري في الأعماق كلها مخفية عنا فبمجرد معرفة شيءٍ بسيطٍ جداً عن البحر كالصَّدَف نتصور أننا عرفنا كل شيء ! .

يقول الأستاذ بويس هامان أستاذ علم البيئة : عندما أرىٰ قطرة من الماء تحت الميكروسكوب وحينما أشاهد أبعد النجوم بالتلسكوب تأخذني الحيرة الشديدة .

ويقول ويليام جيمس الفيلسوف الأمريكي ت ١٩١٠ :

(إن نسبة علمنا إلىٰ جهلنا كنسبة قطرةٍ إلىٰ محيط) .

فاذن نحن لا نستطيع أن نحمّل عقولنا أكبر من قابليتها وإنما المفروض أن نوظفها في مجال اختصاصها كي تسير مسيرة طبيعية ولا تشذ عن طريقها بشكلٍ مريب وقلق . . فقد قال الإمام الصادق (ع) : (إن العقل يعرف الخالق من جهة توجب عليه الإقرار ولا يعرفه بما يوجب الإحاطة بصفته) .

وجاء في الرواية ( لم يطلع العقول علىٰ تحديد صفته ولم يحجبها عن واجب معرفته) فبما أن العقول قاصرة عن إدراك الإحاطة التامة بصفة الله سبحانه بالشكل الملموس فعليه أن الله سبحانه لم يوجب علينا هذه المعرفة باعتبار أنها خارجة عن قابلياتنا وقدراتنا فقابلياتنا محدودة وقاصرة ولهذا السبب نرىٰ كثيراً من الأحاديث والروايات الناهية عن التفكير في ذات الله وكنهه فقد قال الرسول الأكرم (ص) : «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله ، تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدّرون قدره» وقال أيضاً : «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا» ، «تفكروا في كل شيءٍ ولا تفكروا في ذات الله»[٧] .

وقال الإمام علي (ع) : ( . . والله هو المستور عن درك الأبصار المحجوب عن الأوهام والخطرات)[٨] .

وفي مرة كان الإمام الصادق (ع) يمرّ في المسجد فسمع أُناساً يتكلمون في ذات الله فالتفت إليهم ونهاهم عن ذلك بقوله : ( يا قوم لا تتكلموا في ذات الله فإن قوماً تكلموا في ذات الله فتاهوا)[٩] .

فإذن مسألة معرفة ذات الله وكنهه وماهيته مسألة مرفوعة عن العقل الإنساني لأنها خارجة عن قدرته وطاقته والمفروض أن نؤمن بالله سبحانه قوة خالقة مهيمنة بصورة متناسبة مع قدرة عقولنا ولا ندخل في التفصيلات التي لا تزيدنا إلا حيرةً وابتعاداً عن أصل المطلب والمسألة طبيعية جداً حيث أننا نؤمن بكثير من الأُمور من حولنا في الحياة دون الدخول بالقضية التفصيلية وإنما نصل إلىٰ التصديق العملي عبر المعرفة الإجمالية التي تجرنا إلىٰ الإيمان والتصديق في النتيجة فمثلاً روح الإنسان هل من عاقل ينكرها ؟ وبالمقابل هل من عاقل يدرك ذاتها وماهيتها ؟ لا يدّعي ذلك أحد .

وإنما بصورة إجمالية نعرف تلك الروح ونعتقد بأثرها الواضح .

قال أمير المؤمنين (ع) :

(الحمد لله المعروف من غير رؤية ، الخالق من غير منصبه خالق الخلائق بقدرته واستعبد الأرباب بعزته وساد العظماء بجوده وهو الذي أسكن الدنيا خلقه وبعث إلىٰ الجن والانس رسله ليكشفوا لهم عن غطائها)[١٠] .

فمن هنا يبرز دور الأنبياء والرسل (ع) جاؤوا ليبينوا للناس حقيقة الأمر ويأخذوا بأيديهم إلىٰ الاستقامة والمعرفة الحقة عن طريق الآثار التي تدل عليه سبحانه وتعالىٰ وتجدر الإشارة إلىٰ أن هذا القصور الموجود في حواسنا المختلفة كالعين والسمع وكذلك القصور الموجود في عقولنا ليس كل هذا من باب النقص والعيب وإنما من باب التقدير الإلهي الحكيم الذي بواسطته تتحقق الحكمة الإلهية البالغة في أن تكون لكل أمر حدود معينة لا يمكن تجاوزها فالعين لها حدود كما للعقل حدود ليستقيم نظام الحياة فقد قال عز من قائل في محكم كتابه :

﴿ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيءٍ فقدره تقديراً﴾ .

[سورة الفرقان ٢٥ ؛ الآية : ٢].

ولكن من خلال هذه الحدود المرسومة يستطيع الإنسان أن يتوصل إلىٰ أبواب الحقيقة والمعرفة الحقة فيدخلها بأمان ونحن حينما نؤمن بأننا في دار امتحان واختبار في هذه الدنيا يمكن أن تكون هذه الحدود من جملة هذه الامتحانات المفروضة علىٰ الإنسان .

فإذن ذات الله وكنه وجوده وماهيته لا يمكن أن نتوصل إلىٰ معرفتها تفصيلياً كما لا نتمكن من معرفة القوة الكهربائية والمغناطيسية والروح الحيوانية كذلك ـ ومن الطبيعي أن الأمثال تضرب لتقريب الفكرة ليس إلاّ لأنها لا تقاس ـ .

فقد قال سبحانه : ﴿ليس كمثله شيء﴾ .

[سورة الشورى ٤٢ ؛الآية : ١١].

# (٦)
# كيف ومن أوجد الكون ؟

**هنالك عدة توجهات للاجابة على هذه المسألة أهمها :**

( أ ) مناقشة أزلية المادة .

(ب) نظرية الصدفة في خلق العالم .

(جـ) قراءة في الاحتمالات لعلة الوجود .

( د ) اللّه هو الخالق للكون وحديث الأدلة على ذلك .

(هـ) وقفة مع الشبهات والردّ عليها .

سندرس هذه التوجهات لنصل إلىٰ الأمر الذي تقتنع به عقولنا بروحٍ موضوعية تماماً وهنا وقبل البدء أُسجل ملاحظة هامة لهذه الدراسة وهي أن هذه الدراسة الموضوعية تحتاج إلىٰ نوعٍ من التجرد عن العواطف والمعتقدات ـ علىٰ الأقل وقتياً ـ كي نستوعب الآراء وأدلتها بموضوعية ونردّ عليها بموضوعية كذلك والمفروض أن نزرع في أنفسنا الثقة التامة لخوض هذا المضمار العسير الذي يحدّد مصيرنا ومصير أُمتنا الإسلامية كذلك .

فلنبدأ بالتوجه الأول :

**( أ ) أزلية المادة :**

ما معنىٰ الأزلي ؟ وماذا يقابله من المعاني ؟ وما معنىٰ الأبدي ؟ وما

يقابله أيضاً ؟ لنتعرف علىٰ ذلك في البداية .

الأزلي هـو الذي لا بـداية لـه ويقابله الحـادث الـذي لـوجـوده بـداية مـرتبطة بـالزمن والأبـدي هو الـذي لا نهايـة له أي أنـه يبقىٰ خالـداً دون فنـاء ويقـابله الحادث الـذي يفنىٰ ويزول وينتهي في وقت معين . أمـا أهم صفـات الأزلي الأبدي الذي يقابله الحادث فهي ما يلي :

١ ـ الأزلي بسيط والحـادث مركب : أي إن الأزلي لا يحتـاج إلىٰ شيء كي يختلط معـه أو يشترك معـه ليبرزه بشكـل معين بينما الحـادث ذاته بحـاجة إلىٰ عنصر أو عناصر أخرىٰ كي يبـرز بوجهـه المألـوف إلىٰ الوجـود فقد يكـون هـذا الحادث مـركباً من جزءين أو أجزاء عـديدة فـالإنسان مثـلاً مركب من دم ولحم وعظم وشعر وجلد بعد أن كان نطفة صغيـرة فتركبت مـع بويضـة الأنثىٰ في الـرحم ثم تـطورت الأعضـاء بمـرور الـزمن إلىٰ هـذا الكـائن الحي فهـو مركب من أجزاء عديدة وكل جزء ينمو ويظهر لتفاعـلات معينة مـرتبطة بـالزمن كالأسنان اللبنية في الطفولة مثلاً تظهر في ظروف معينـة مرتبـطة بزمنٍ ما .يقول الإمـام علي : (أم هذا الـذي أنشأه في ظلمـات الأرحـام ، وشُغُف الأستـار ، نطفة دهـاقا ، وعلقـة محاقـا ، وجنينا ، وراضعـا ، ووليدا ويـافعا . ثم منحـه قلبـاً حافـظاً ولسانـاً لافظاً وبصـراً لاحظاً . . ) رقم الخـطبة ٣/٨١ . فمن كـل ذلك نستخلص بأن المركب له أجزاء وهذه الأجزاء قد تنشـأ منذ بـداية وجـوده وقـد تلتحق وتتفرع عنـه فيما بعـد أيْ تظهـر فيه كـأجزاء ضمن نمـوه والأجزاء هذه هي حادثـة مركبـة أيضاً ويمكن فصـل عناصـر المركّب بعضهـا عن بعض كالمواد الكيمياوية المركبة ضمن تـركيبة معينـة من مواد متعـددة تظهـر بشكلٍ معين ولو غيّرنا التركيبة بتغيير مقادير العناصر المشتركة لتغيّـر النـاتـج ، فذرتـان من الهيـدروجين مـع ذرة أوكسجين تنتـج لنـا مـركب المـاء وبـالعكس يمكن فصـل الهيدروجين عن الاوكسجين بـإمرار المـركب بالتيـار الكهـربـائي فتعـود التركيبة إلى طبيعتهـا في الهواء . ومن هنـا نقول إن الأزلي يستحيـل أن يكون مـركباً لأن المـركب حادث . وكـذلك نقـول إن الأزلي لا يتغيـر مهمـا تغيـرت الـظروف والأحـوال علىٰ العكس من المـركب فـالحـادث مـركب يتغيّـر بتغيّـر

الـظروف والأحوال فيزداد وينقص وتنفصل منـه بعض العنـاصـر أو تـزداد فيـه علىٰ ضـوء ما تستجـده الظروف بينمـا الأزلي يبقىٰ كما هـو لا يتغير ولا يتبـدل مهمـا تقدم الـزمن وتبدل الـظرف . يقول الإمـام علي في خطبتـه رقم ١٨٤ : (وإن الله سبحانه ، يعـود بعد فنـاء الدنيـا وحده لا شيء معـه ، كما كـان قبل ابتـدائها ، كـذلك يكـون بعـد فنـائهـا بـلا وقت ولا مكـان ولا حين ولا زمـان عُـدمت عند ذلـك الآجال والأوقـات ، وزالت السنون والسـاعات . فـلا شيء إلا الله الـواحد القهـار . الذي إليـه مصير جميـع الأمور . بـلا قدرة منهـا كان ابتداء خلقها ، وبغير امتناع منهـا كان فنـاؤها . ولـو قدرت علىٰ الامتنـاع لدام بقاؤها . .) .

٢ ـ الأزلي سرمدي في وجـوده أي أبدي خـالد لا ينعـدم والحادث يفنىٰ وينتهي فـالشجرة مثـلاً كانت بـذرة أو فسيلة فتغيـرت وتبـدلت إلىٰ أن صـارت شجـرة مثمرة ثم تبـدأ بعد فتـرة من الزمن بـالعد العكسي حتىٰ تنتهي وتمـوت وتحرق أخشابها أو تستخدم لاغـراض أخرىٰ . . فـإذن الحادث عكس الأزلي حيث أن الحـادث ينتهي ويفنىٰ ويعدم من الـوجود بينمـا الأزلي يبقىٰ كمـا هـو لا ينعدم .

فقـد قـال الله في محكم كتـابـه الكـريم : **﴿كـل من عليهـا فان .ويبقىٰ وحه ر بك ذو الجلال والإكرام﴾** .

[سورة الرحمٰن ٥٥ ؛ الآيتان : ٢٦ ـ ٢٧] .

٣ ـ الأزلي لا يحتـاج إلىٰ غيـره مهمـا كـانت الـظروف والأحـوال عكس الحادث فإنه يحتاج في وجـوده إلىٰ علة وسبب وفي استمراريتـه كذلـك يحتاج إلىٰ علة فـالإنسان يحتـاج إلىٰ خالق ومـوجد وأسبـاب موضـوعية ويحتـاج إلىٰ أسباب المعيشة كي يستمر في وجوده من أكـل وشرب وعنـاية فـإذا مرض فهـو بحاجة إلىٰ طبيب يعالجه وفي أيـام البرد يحتـاج إلىٰ التدفئة والملابس المناسبة وفي حالة التعب يحتاج إلىٰ الراحـة والنوم وفي الجـوع يحتاج إلىٰ طعـام بينما الأزلي لا يحتـاج إلىٰ سبب في الايجاد ولا في استمـرار وجـوده فهـو غني عن

العالمين لا يحتاج الراحة والنوم وأسباب العيش كما قال عز وجل في محكم كتابه :

**﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . . .﴾** .

[سورة البقرة ٢ ؛ الآية : ٢٥٥] .

فهو غني عن عباده وعن كل شيء آخر بينما الحادث فقير في وجوده واستمراره إلى غيره كالإنسان فهو محتاج إلى خالق يوجده وإلى عوامل استمرار وجوده من الماء والهواء والطعام وأسباب النمو والعيش فقد قال القرآن العظيم :

**﴿لله ما في السموات والأرض إن الله هو الغني الحميد﴾** .

[سورة لقمان ٣١ ؛ الآية : ٢٦] .

والآن لنأتي إلى أصحاب نظرية : «أزلية المادة» ونسألهم أولاً ماذا تقصدون بالمادة ؟ هل تقصدون بها التراب والجبال والأشجار والماء والبحار والسماء والأرض أي أن مقصودكم من المادة هذه الطبيعة المحيطة بنا ، فإن كان كذلك فسوف نصطدم حينما نمرر هذا المعنى على الصفات ـ آنفة الذكر ـ ففي الحقيقة إن هذه الموجودات تتصف بصفات الحادث لا بصفات الأزلي على الاطلاق .

فحينما نعرّف المادة بأنها « كل شيء يشغل حيّزاً في الفراغ وله وزن» من هذا التعريف نفهم أن المادة تتصف بصفات الحادث ولا يمكن أن تتصف بصفات الأزلي بأي شكل من الاشكال فالتعريف يشير إلى أن المادة بحاجة إلى مكان فهي ليست غنيّة عنه ولها وزن فلو أخذنا أية مادة ـ في الوجود ـ أو أي قدر مشترك بين المواد كلها كالذرات مثلاً فالذرة ذاتها مركبة من الالكترونات والنيوترونات وتصنف المواد عبر عدد ذراتها وعناصر الذرات أيضاً إلى تصانيف متعددة وتقرّ لنا الفيزياء بأن هذه العناصر قد تتغير طبيعياً ويمكن تغييرها بالعوامل الخارجية فمثلاً أشعة (كاما) تتحول إلى عنصر آخر

حينما تفقد بعض بروتوناتها إثر الاشعاع وعنصر اليورانيوم يتحول إلىٰ الراديوم وإلى الرصاص علىٰ التوالي بواسطة الاشعاع وحتىٰ أن الاشعة (أشعة كاما) يمكن أن تتحول إلىٰ ذرات مادية بعناصرها ـ الكترونات وبروتونات ـ وإذا أصطدم العنصران فيها تتحول إلىٰ طاقة . .

وكما مضىٰ في مركب الماء $H_2O$ يتحلل الماء إلىٰ عنصريه الأوكسجين والهيدروجين بتمرير التيار الكهربائي وهكذا نرىٰ أن الطاقة تتحول إلىٰ ذرات مادية والذرات المادية تتحول إلىٰ طاقات فالقنبلة النووية أو الذرية القائمة علىٰ قاعدة الانشطار الذري والتفاعل المتوالي والقنبلة الهيدروجينية التي تنفلق بدمج القنبلة الذرية بنوىٰ ذرة الهيدروجين من هذا الدمج تتولد طاقة هائلة وحتىٰ الطاقة هذه تتحول من حالةٍ إلىٰ اُخرىٰ فالطاقة الكهربائية تتحول إلىٰ طاقة ميكانيكية كما في تشغيل المكائن الميكانيكية بواسطة طاقة الكهرباء والطاقة الكهربائية يمكن تحويلها إلىٰ طاقة كيمياوية ـ كما مر ـ في تحليل الماء إلىٰ عنصريه بواسطة التيار الكهربائي وهكذا . . فأصحاب هذه النظرية ذهبوا إلىٰ أن العالم ينتهي إلىٰ ذرات متناهية في الصغر هذه الذرات تستمد قوتها وحركتها من الأثير أو من الخلاء الموجود في الكون حيث القاسم المشترك لكل الذرات .

هذه الذرات هي أصل الكون وتمتاز بالصلابة القصوىٰ التي لا تتجزأ وهي كذلك تتحرك وتسبح في الأثير بحركة ميكانيكية منتظمة وبسبب هذه الحركة ظهرت في الكون أشكال متعددة للمادة . فإذن تكون المادة أزلية وهي أصل الوجود .

والرّد الواضح علىٰ أصحاب هذه النظرية حيث أنهم قالوا بأنها ذرات صلبة لا يمكن أن تتجزأ أرادوا بذلك تصعيد الذرات إلىٰ الصفات الأزلية وأنها لا تقبل التركيب ولكن لا يخفىٰ علىٰ أحد وخاصة في تطور العلم الحديث ـ كما مر معنا ـ يقسم الذرات إلىٰ عناصر وجزئيات متعددة ويحوّل الذرة المادية إلىٰ طاقة والطاقة إلىٰ ذرة ثم حينما فرضوا وجود الخلاء أو

الأثير وبنوا عليه آراءهم وطموحاتهم الفلسفية في الوجود ما سألوا أنفسهم من أوجد الأثير وهل أن هذه الذرات المادية الأزلية كما يزعمون هي في غنىً عن هذا الأثير؟ ثم إن هذه الذرات تتغير في الواقع المادي من شكلٍ لآخر وتفنىٰ كذلك والذي يتغير ويفنىٰ هو حادث متغير محتاج وليس أزلياً . .

وأما نظرية المادية الديالكتيكية (الجدلية) فتتلخص بأن كارل ماركس الذي يعتبر تلميذ هيجل الفيلسوف الألماني (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) قد أخذ نظريته الجدلية من استاذه (هيجل) لكنه أبدلها من الحالة التصويرية المثالية الناكرة للمذهب المادي إلىٰ الحالة المادية وهنا أتذكر أحد الأساتذة نقل لنا كلمة من ماركس وهي : لقد وجدت هيجل منكوساً علىٰ رأسه فأحببت أن أعدله ـ أي يعدل أستاذه من التوجّه المثالي إلىٰ التوجه المادي فكان يرىٰ هيجل أن الوجود سراب لا حقيقة له في الخارج والحقيقة موجوده في عالم الفكر بشكل متناقض (وجود وعدم وجود) إثبات ونفي فكل فكرة تثبت في الذهن تحمل نقيضها في داخلها فلا شيء موجود في الخارج أما ماركس فقد سحب هذا التفسير إلىٰ المادة فذهب إلىٰ أن الحركة ليست سوىٰ انعكاس حركة الواقع وقد انتقلت إلىٰ الإنسان .

ويذهب ماركس إلىٰ أزلية المادة وأنها أبدية خالدة لا تفنىٰ ويؤكد الماديون بأن المادة تحمل في داخلها حركة ذاتية مضادة لما هو الواقع ومتناقضة معه وهذا يفسر لنا تغير المادة من شكلٍ إلىٰ آخر وهم لا يقصدون بالتناقض هو الوجود والعدم وإنما هو الصراع الذي يؤدي إلىٰ انتقال الشيء بسبب ذاتي من القوة إلىٰ الفعل كما يقول المناطقة كما الرجل الشاب هو بالقوة نعتبره أباً ولكنه بالفعل ليس بأب إلا أن يتزوج ويخلف أبناءً فيكون أباً بالفعل فهذه النقلة من حالة إلىٰ أُخرىٰ تسميه الفلسفة الماركسية بالتناقض ! .

فمما تقدم تؤمن الفلسفة المادية بأزلية وأبدية المادة لأنها لا تفنىٰ وإنما وجودها نبعي ذاتي ولا تحتاج إلىٰ علة موجدة فهي أزلية أبدية ـ كما

يتصورون ـ وهي لا تفنىٰ ولا تستحدث من العدم ـ كما يقولون ـ .

والأمر المطروح علىٰ الماديين هو ان المادة المتطورة من حالة لأخرىٰ بفعل التناقض الداخلي هل أنها بحاجة إلىٰ من يعطيها هذه القوة لأجل التحول والتغيير أم لا ؟ ثم إن المادة التي تتغير كما يقولون من حالة لأخرىٰ قد فقدت شرطاً رئيسياً من شروط الأزلي وهو الثبات وعدم التغير ثم أنها حينما تحمل في داخلها النقيض يعني أنها مركبة في وجودها من ذاتها ومن نقيضها والمركب ليس أزلياً وتجيب المادية الجدلية بأن المادة لا تفنىٰ وإنما تتحول إلى طاقة واشعاع ومن الاشعاع تتحول إلىٰ حالة مادية فتختفي حالة لتظهر حالة أُخرىٰ وهكذا فالأمر يعود إلىٰ الطاقة التي تتحول من شكل لأخر دون فناء فبما أنها لا تفنىٰ فلا تحتاج إلىٰ علة الإيجاد فعليه تكون المادة أزلية خالدة .

ونحن علىٰ ضوء الكشوفات الحديثة نرد علىٰ هذه النظرية حيث ثبت علمياً ان الطاقة كما الذرة تفنىٰ . . يقول عالم الطبيعة البيولوجية (فرانك ألن) كما جاء في كتاب (الله يتجلىٰ في عصر العلم) . قوانين الديناميكية الحرارية تدل علىٰ أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً وانها سائرة حتماً إلىٰ يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق ويومئذٍ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام (فناء) عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلىٰ الصفر المطلق بمضي الوقت) .

أما (كبسيل) عالم الحشرات في نفس الكتاب يقول (فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً . . . وإن لهذا الكون بداية) .

ويقول العالم الكيمياوي (كوثران) «تدلنا الكيمياء علىٰ أن بعض المواد في سبيل الزوال والفناء ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة وعلىٰ ذلك فإن المادة ليست أبدية»[١١] .

علىٰ ما تقدم نلمس أن فكـرة أزلية المـادة التي نـادىٰ بهـا مـاركس عبـر التنـاقض الذاتي المـوجود داخـل الذرات غيـر صحيحة علميـاً وبـذلـك ينتهي مفعول النظرية لأنها ما استطاعت أن تثبت أزلية المادة بشتىٰ طرقها .

## (ب) نظرية الصدفة في خلق العالم :

هنالك نظرية تقول بأن الموجودات والكائنات في العـالم خلقت صدفـة من دون خـالق والذي نفهمـه من الصدفـة ـ هنا ـ أحـد المعنين فالمعنىٰ الأول هـو المعنىٰ الشـائـع إجتمـاعيـاً كمـا لـو تلتقي عـزيـزاً فـارقتـه منـذ فتـرة طـويلة من دون سـابق تخـطيط ففي أثنـاء مـرورك بـالسـوق تلتقي بـه ـ مثـلاً ـ فتقول : صـدفـة التقيت بـه من دون سـابق إنـذار أو خـطور في الذهن بل كان اللقاء عفوياً ومثـال آخر أنـك تبحث عن حاجـة مفقودة وعـزيزة عليك وأنت ماض في أعمالك فجـأةً تشاهـدها أمـامك تقـول صادفتهـا صدفـةً فهـذا المعنىٰ وبهذا التـوجه لا يمكن أن ننكـر العوامـل المسببـة لهـذا اللقـاء المفـاجىء مع الشخص الصـديق أو الحاجـة المفقودة فهنـالك أسبـاب طبيعية متعددة رتبت هذا اللقـاء منها الخـروج في هذا الـوقت ولهذا المكـان وخروج صديقي متزامناً معي ولكلٍ دوافعه الذاتيـة والشيء الذي يمكن تسجيله هـو أن هذا اللقاء تم، ولكن دون قصـد أونيّة أو تخـطيط في الذهن ، وبهـذا المعنىٰ لا مناقشة لنا فيه لأنـه خارج عن بحثنـا بل سنناقش المعنىٰ الثاني الـذي يدخـل في صميم بحثنا .

والمعنىٰ الثـاني هـو مـا يـذهب إليـه البعض من الفـلاسفـة والمفكـرين ويقصـدون بالصـدفة أن الأشيـاء والوجـودات في العالم وجـدت دون سبـب أو علة للإيجاد وإنما من طبيعتها الـوجدان والـظهور أو الفقـدان والضمور فليست مـرتبطة بـأي جهاز تخـطيطي أو عقـل مـدبـر ومخـطط وبـالـطبـع يقـدّم هؤلاء الصدفيون أدلتهم علىٰ دعواهم تلك، وتتلخص أدلتهم بأنهم ما شاهـدوا بدايـة التكـوين والخلق فلذلك لم يحصـل لهم الجزم بـوجود علل للخلق والـوجـود وأنهم حـالياً يشـاهدون المـوجودات بـاختلاف أنـواعها مخلوقـة ولها قـوانينهـا المعينة .

﴿كلّ في فلك يسبحون﴾ .

[سورة الأنبياء ٢١ ؛ الآية : ٣٣].

وهذه القوانين الخاصة بكل عنصر في هذا الكون الرحب إنها مستمرة في نظامها بشكلٍ طبيعي ومنضبط ولا تتوقف عن عملها إلا بعوامل خارجية كالجاذبية والضغط الجوي كما يذهب إلىٰ ذلك نيوتن فالتفاحة تسقط من الشجرة إلى الأرض بعوامل الجاذبية الأرضية فينتهي عملها ضمن قانون الشجرة لقانون خارجي آخر وهذه الاستمرارية التي نراها في نظم الكون دون علة ودون سبب بل من طبيعتها ذلك فهي وجدت دون علة وسبب وبقيت دون ذلك أيضاً فإذن وجدت صدفة واستمرت كذلك صدفة وينسحب هذا التصور إلىٰ كل الوجود والخلق فإن هذا العالم وجد صدفة من كبير أجزائه إلىٰ صغيرها كما أجاب أحدهم حينما سئل عن القميص الذي يرتديه بقوله أن هنالك حقول القطن وجدت صدفة في أرضٍ معينة وبمرور الزمن نضجت المحاصيل القطنية وأينعت فما المانع أن تجيء الرياح الشديدة علىٰ هذه المحاصيل وتقطف القطن من الحقول وبالفعل أخذت القطن صدفة ثم ساقته إلىٰ آفاق السماء وهنالك في الآفاق العليا وبعد مرور ملايين السنين وعلىٰ أثر تقلبات الجو في طبقات السماء العليا وفي وسط الأمطار والرياح العاتية تمتّ تصفية القطن من كل شائبة وبمرور الزمن تلونت هذه القطع القطنية المنتظمة بألوان عديدة ثم فصّلت بأشكال وأحجام مختلفة وبتنسيق دقيق وبألوان زاهية وبمرور الزمن أخذت الرياح تعيد الأمانة إلىٰ أهل الأرض ـ صدفةً ـ وما المانع في أن يوماً من الأيام يكون الإنسان علىٰ سطح داره رافعاً يديه إلىٰ السماء وصدفة يأتي القميص الذي فصّل ورتّب مناسباً للجسم ضمن مقاييسه المعينة وصدفةً يدخل في يديّ ـ أنا مثلاً ـ وتدفعه الرياح ليستقر في جسمي كما ترىٰ ثم نلاحظ وإذا به قميص قطني جميل ملوّن بالشكل المناسب .

يقول (هلسكي) : لو جلست ستة من القرود علىٰ آلات كاتبة وظلت تضرب علىٰ حروفها ملايين السنين فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق

الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير فكذلك كان الكون الموجود الآن نتيجة لعمليات ظلت تدور المادة لبلايين السنين)[١٢] .

**أما الرد على أصحاب هذه النظرية فيأتي في عدة نقاط أهمها :**

١ ـ إن قانون الاستمرارية الذي يستدلون به على أنه بلا سبب فيسحبونه إلىٰ نكران السبب الأول للايجاد ، كيف يمكن أن نصدق ذلك وننكر علة الاستمرار في النظام ؟ بل العكس فإن سبب الاستمرار يمكن أن نسحبه إلىٰ وجوب إيجاد علة أولية لهذا النظام المستمر ثم إن قانون الاستمرارية لا ينكر وجود العلة في الايجاد ، وفي الاستمرار أو في التوقف عن الاستمرارية فلا أحد ينكر علة وجود النظام في الكون والمسألة فطرية سواء كانت المادة ساكنة أو متحركة فإنها ساكنة لسبب وتتحرك لسبب وتقف عن الحركة لسبب آخر فمن غير المنطق أن نضع قانون الاستمرارية سبباً لنكران علة الوجود فلا ربط بينهما بهذه الصورة .

٢ ـ ثم في مثال (هلسكي) نفسه حيث جلوس القردة وطبعها بالآلة على الأوراق آلاف أو ملايين السنين كي تنتج قصيدة لشكسبير وفي الحقيقة أن هذا المثل يناقض فكرة اللاسبب فهو من جانبنا نحن المنكرين للصدفة في خلق العالم وليس من جانب الصدفيين حيث أن القصيدة هذه جاءت عبر تفاعلات عدة أسباب وعلل لانتاجها فالقرود والضرب على الآلة الكاتبة والآلة نفسها والحبر والورق والزمن كلها أسباب تتفاعل لانتاج هذه القصيدة ـ إن وقع ذلك ـ فلا نستطيع أن نقول ان القصيدة طبعت من وحدها صدفة دون سبب .

٣ ـ ثم إننا حينما نقف أمام الأنظمة الكونية الدقيقة التي يحدثنا العلم الحديث عن عظمتها وإبداعها لحريٌّ بنا أن نقف منها موقف المتأمل الواعي فلو نظرت إلىٰ نفسك بإمعان وبدقة لأعدت النظر في هذه النظرية من جديد واعتبرتها من المسليات الذهنية للإنسان الجليس كحكايات ألف ليلة وليلة ، ويكفي أن نعرف أن في كل عينٍ للإنسان توجد أربعة عشر مليون خلية عصبية لو تغير موقع عصب من هذه الأعصاب ـ لا سمح الله ـ أُصيبت العين

بمرضٍ معين يشخصه المتخصصون .

هل تقول إن هذه العين وجدت صدفة وتعمل وتستمر في نشاطها صدفة دون أية أسباب وعلل ، فهل يعقل؟ أن أضرب رجلاً علىٰ وجهه بقوة وأدعي في المحكمة ان يدي صدفة ارتفعت وصفعت وجه هذا الرجل بقوة من دون أي سبب بل الصدفة والصدفة وحدها لعبت دورها وهي علة الضرب !!

ماذا ننتظر من هذا الإدّعاء إلّا أن يأمروا بي للسجن أو إلىٰ مستشفى المجانين ويقولون لي ـ بعد ذلك ـ إننا جئنا بك إلىٰ هذا المكان صدفة دون سبب وستستمر فيه دون سبب أو علة هل يصدّق عاقل ذلك ؟ .

وفي كتاب العلم يدعو للإيمان مثال جيد يقول فيه (كريس موريسون) المؤلف والعالم الأمريكي «لو تناولت عشر قطع وكتبت عليها الاعداد من واحد إلىٰ عشرة ثم رميتها في جيبك وخلطتها خلطاً جيداً ثم حاولت أن تخرج منها من الواحد إلىٰ العاشر بالترتيب العددي بحيث تلقي كل قطعة في جيبك بعد تناولها مرةً أخرىٰ فإمكان تناول القطعة رقم ١ في المحاولة الأولىٰ ١ / ١٠ .

وإمكان تناول القطعة رقم ١ ، متتابعين هو ١ / ١٠٠ .

وفرصة سحب البنسات التي عليها أرقام ١ ، ٢ ، ٣ متتالية هي نسبة ١ / ١٠٠٠ .

وفرصة سحب ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ متتالية هي ١ / ١٠,٠٠٠ .

وهكذا حتىٰ تصبح فرصة سحب البنسات بترتيبها الأول ١ ـ ١٠ بنسبة واحد إلىٰ عشرة بلايين محاولة» .

وعلىٰ هذا نجزم بأنه من المستحيل أن يكون وجود العالَم وما فيه من الصدفة كما لا يقبل بهذا التفسير أبسط إنسان علىٰ وجه الأرض حينما تعتدي عليه أو تسرق منه شيئاً بحجة الصدفة العمياء فلا يقبل عاقل بذلك

ولا أية محكمة في العالم ترضىٰ أن تكون الصدفة دليل البيّنة للمدّعي فمثلاً : يسرق إنسان ما بعض المجوهرات والذهب ويدّعي أنها صدفة دخلت جيبه دون سبب آخر ، فبالتأكيد إنه أمر مردود من الأساس لأن قانون العلية مسألة بديهية فطرية لا يستطيع أحد نكرانه وفي حالة النكران ستهدم كل أسس العلم والبداهة .

فكيف لو نظر الإنسان إلىٰ هذا الكون الرحب بدقته وعظمته وقوانينه المعقدة الداخلية وعلاقته بالعالم الخارجي ضمن ضوابط دقيقة فهل ينظر إلىٰ نظرية الصدفة نظرة اعتبار . والكون كله يدل على الخالق المبدع . فلذا سنتحدث عن بعض الأدلة العلمية في الأحاديث القادمة بعونه تعالى .

**(جـ) قراءة في الاحتمالات لعلة الوجود :**

بعد أن توصلنا فيما سبق إلىٰ أن نظرية أزلية المادة ونظرية الصدفة في خلق الوجود لا تقومان علىٰ أسس علمية وعقلية وتمّ تفنيدهما والآن نريد أن نتوصل إلىٰ معرفة (علة الوجود) وما هي الاحتمالات في هذه العلة فلو أخذنا أنفسنا مثلاً وتساءلنا من الذي أوجدنا ؟ وما هي الاحتمالات في علة خلقنا وسبب وجود أنفسنا ؟ .

وقبل الإجابة علىٰ هذا السؤال يمكن أن نقرر أن أنفسنا ما كانت مخلوقة سابقاً ثم وجدت أي أننا قبل الولادة للدنيا ما كنا موجودين في هذا العالم وحالياً نحن موجودون وكلٌ منّا يعرف عمره أي بداية وجوده وحتىٰ اللحظة الراهنة . فنحن ما كنا في الوجود وحالياً موجودين وفي يوم ما ستنتهي حياتنا **﴿كل من عليها فان.ويبقىٰ وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾** كما يقول القرآن الكريم في :

[سورة الرحمٰن ٥٥ ؛ الآيتان : ٢٦ ـ ٢٧] .

وفي حديث للإمام الرضا (ع) حينما سئل عن الدليل علىٰ وجود الله فأجاب : «أنت لم تكن ثم كنت وقد علمت أنك لم تكوّن نفسك ولا كوّنك من هو مثلك . . » . وهكذا يحصر الإمام احتمالات المبدع والخالق ومن

ثمّ يحاور السائل ويطلب منه أن يحاور نفسه أيضاً لكي لا يقع تحت تأثير معين بل يضفي أجواء الحرّية ليتوصل السائل إلى الحقيقة بملء إرادته .

وبعد تلك الملاحظة وهذه الرواية وأمثالها الكثير، نعيد التساؤل الأول من الذي أوجدنا ؟ وقد اتفقنا على أننا ما كنا في الوجود فوُجدنا فما هي احتمالات الموجد لنا ؟ والاحتمالات ثلاثة لا رابع لها وينطبق نفس الأمر على العالم بأسره وعلى الطبيعة المحيطة كلها ودعنا الآن ندرس الاحتمالات الثلاثة :

**الاحتمال الأول** : نحن أوجدنا أنفسنا ونحن دبرنا جسمنا وروحنا وكيّفنا ظروفنا في الولادة والدوام ضمن هذا النظام الحياتي .

**الاحتمال الثاني** : إن الذي أوجدنا هو مثلنا فأفاض علينا بالوجود .

**الاحتمال الثالث** : إن الذي أوجدنا ليس مثلنا .

أما الاحتمال الأول : (نحن أوجدنا أنفسنا) فهذا لا يمكن أن نصدّقه لأننا أثبتنا سلفاً عدم وجودنا قبل أن نوجَد فكيف أوجدنا أنفسنا من العدم؟ أي حينما آمنا ببداية زمنية لوجودنا فقبلها ما كنا موجودين فوجُدنا بمعنى اننا في مرحلة زمنية كنا عدماً ثم صار لنا وجوداً فالذي يكون عدماً ثم وجوداً ثم عدماً لا يمكن أن يكون ـ هو ـ قد أوجد نفسه أو أفناها، هذا أولاً وثانياً لو ـ جدلاً ـ نحن أوجدنا أنفسنا لأوجدناها كاملة دون نقص غير ضعيفة ولا محتاجة إلى الموجودات والأشياء الأُخرى في الحياة ومن ثم لاستطعنا أن نُبقي أنفسنا دون أن نموت لأن الإبقاء أسهل من الايجاد والإبداع والخلق علماً بأن الموت والفناء أمر محزن للإنسان وبالفعل ـ وقهر عباده بالموت والفناء ـ والإنسان يحب البقاء في الحياة ولكنه من المستحيل التحكم في فترة البقاء ودرء الأجل أو ابعاده وتأجيله .

﴿يدرككم الموت ولو كنتم في بروجٍ مشيدة﴾ .

[سورة النساء ٤ ؛ الآية : ٧٨] .

وهكـذا نرىٰ في الـوجدان إننـا لا نستطيـع إعادة الحيـاة إلىٰ أعزّ الخلق إلينـا مهما أوتينـا من قوة علميـة وحتىٰ أنفسنا لا نستـطيع أن نـدافع عنهـا حين الضرر الصحي فضلاً عن المـوت فنرىٰ البعض مُبتلى بـالأمراض الجسميـة أو النفسية وأما الموت فحتميته أمر لا بد منه وقد قال سبحانه وتعالىٰ :

﴿كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة . . ﴾ .

[سورة آل عمران ٢ ؛ الآية : ١٨٥] .

فـإذا لم نستطع دفـع الضرر والإبقـاء علىٰ النفس من الفناء فقـطعاً نحن لا نستـطيع أن نـوجد أنفسنـا فالمسـألة ـ فعـلاً ـ خـارجـة عن إرادتنـا وكيف لا نصدّق ذلك والحـال نحن لا ندري مـاذا في أجوافنـا واحشائنـا وداخلنا وحتىٰ المتخصصين في تشـريح جسم الإنسـان يقفون مـوقف المتحير لعـظيم الصنع والإبداع في الكيان الإنساني العجيب .

قال سبحانه : ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ .

[سورة الطور ٥٢ ؛ الآية : ٣٥] .

وبـالفعل إن هـذه الأمـور التي لا يمكننـا أن نتحكم فيهـا كمـا لا يمكن لأي أحد أن يختار جنسـه ولون شعـره ولون بشـرته وطـوله وحتىٰ مسقط رأسـه ومكان موته كذلك ، قال عز وجل :

﴿إن الله عنـده علم السـاعة وينـزل الغيث ويعلم مـا في الأرحـام ومـا تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرضٍ تموت . . ﴾ .

[سورة لقمان ٣١ ؛ الآية : ٣٤] .

**فكيف يمكننا أن نوجد أنفسنا من العدم :**

وهكذا ينتهي الاحتمال الثاني أيضاً بأن الذي أوجدنا هو مثلنا ! بمعنىٰ آخر لو كان الذي أوجدنا مثلنا ويتصف بأوصافنا لاستطعنا نحن كذلك أن نوجِدَ خلقاً مثلنا وهذا الأمـر لا يـدعيـه عـاقـل فضـلاً عن الجـزم والاعتقـاد بـه وإذا كنـا

غيـر قادرين وكـلّ منا غيـر قادر أن يـوجد مثله فيأتينـا الكلام السـابق وهو عدم استطاعتنا علىٰ أن نبقيهم كمـا هم عليه الآن والحـال أن الكثير من أصـدقائنـا واعـزائنا يمـوتون ونحن نتقـطع أسىً وغصة عليهم دون أن نقـدر علىٰ ابقائهم وإعادة الأرواح إلىٰ أبدانهم ومؤكد أن هذا العمـل أقل بكثيـر من الإيجاد التـام للإنسان فلذا ينفجـر الإنسان بكـاءً علىٰ فقدان أحبـائه وهـذا عمل المقهـورين وعمل العاجزين تنفيساً عن الألم ـ وقهر عباده بالموت والفناء ـ .

فإذن نحن لا نستطيع أنِ نوجد أمثالنا ولا أمثالنـا يستطيعـون أن يوجـدونا هـذا من النـاحيـة العمليـة أمـا إذا رجعنـا إلىٰ حـديثنـا المـاضي في أن أصـل الـوجـود لا بـد أن يتصف بصفـات الأزلي لا الحـادث المصنوع والمحـدود فنقول إن أنفسنا أو أمثالنا لا يمتلكون صفات الأزلي بل يتميزون بصفات الحادث حيث التغيير والحاجة إلىٰ الغير والتركيب وكلها من صفات الحادث .

فإذن نحن لسنا قادرين علىٰ أن نوجـد أنفسنا ولا أن نـوجد أمثـالنا قـطعاً ويقيناً . وهكذا لا بـد أن يكون لهـذا الكون الـرحب العجيب بنظامـه ودقتـه ولهذا الإنسان العجيب بـأجهزتـه الدقيقـة لا بد أن يكـون من أوجده ليس مثلـه وإنمـا يتمتع بصفـات الأزلي الأبدي كـاملة وسبحـانـه الـذي يقـول في محكم كتابه :

﴿فـاطر السمٰـوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجـاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ .

[سورة الشورىٰ ٤٢ ؛ الآية : ١١].

فـالوجـود كما نـراه (الكون والإنسـان) لا بد أن يـوجده الـذي يستوعبـه بالكامل أي بمستوىٰ رفيع من الصفات الخـاصة التي تنتـج هذا الإبـداع لا أن يكـون الموجِـد (بالكسـر) بمستوىٰ هـذا الوجـود إبداعـاً أو أقل منـه مستوىً ! فـالكمال المـطلق صفة المـوجِد الأكبـر الذي يحتـوي ويستـوعب كـل الوجـود ويسيِّر قوانينه ويتحكم في خلقته ومصير العالم وحقاً إن الطريق لمعرفة الخالق للكـون يبدأ من معـرفة النفس فـالذي يـريد أن يعـرف خالقـه يجب أن يعـرف

نفسه والأسرار المودعة فيه ليرىٰ عظمة الموجد لها والمدبر لقوانينها (فمن عرف نفسه فقد عرف ربه) كما ورد في الأثر ، وبعد أن نتعرف علىٰ عظمة الموجد والمبدع لهذه النفس الإنسانية ولهذا التكوين الإنساني ولهذا الوجود الكوني ندرك تماماً إنّ الموجودات ناقصة رغم عظمتها ومحدودة رغم آفاقها قياساً بالخالق المبدع فهو ليس مثلنا وبالتالي نستنتج أن ما هو موجود في أنفسنا وفي الوجود العام ليس موجوداً في خالقنا العظيم لأنه (ليس كمثله شيء) كما مرّ معنا .

فأنا محدود والخالق ليس محدوداً ، فأنا عاجز والخالق قادر وأنا محتاج والخالق غني عن كل شيء وأنا أنتهي وأفنىٰ بنهاية زمنية والخالق لا ينتهي بزمن وأنا كانت لي بداية والخالق ليست له بداية فهو أزلي أبدي سرمدي خالد .

فهو واحد أحد (ليس مقابل الاثنين والثلاثة والأربعة) بل هو واحد أحد لا نظير له ولا ضدّ له ولا ندّ له ولا شبيه له ولا مثيل .

سئل الإمام الرضا (ع) ما الدليل علىٰ وجود الله ؟ فأجاب : (أنت لم تكن ثم كنت وقد علمت أنك لم تكوّن نفسك ولا كونك من هو مثلك . . ثم قال : إني لما نظرت إلىٰ جسدي ولم يمكني فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره عنه وجر المنفعة إليه علمت أن لهذا البنيان بانياً فأقررتُ به . . )[١٣] .

فإذن لا أنا أوجدت نفسي يقيناً وبتجرد ولا أوجدني الذي هو مثلي يقيناً وبتجرد أيضاً ويبقىٰ الاحتمال الثالث الذي لا خيار غيره وهو أن الذي أوجدنا ليس مثلنا ـ والآن قد تكون اللغة قاصرة عن التعبير الدقيق لهذا المعنىٰ وحتى العقل الإنساني كذلك قاصر عن أن يصل لمعرفة كنه الخالق الكريم ـ وبين اللغة والعقل في قصورهما يمكن أن نخرج بنتيجة علمية واضحة وهي أن الذي أوجدنا ليس مثلنا أما كيف يكون؟ وما هي ماهيّته وكنهه؟ هذا ما أجاب عليه الإمام علي أمير المؤمنين (ع) حيث قال : (اللهم . . . حمداً لا ينقطع عدده ولا يفنىٰ مدده فلسنا نعلم كنه عظمتك إلاّ أنّا نعلم أنّك حي

قيوم لا تأخذك سِنة ولا نوم . . . لم ينتهِ إليك نظر ولم يدركك بصر أدركت الأبصار وأحصيت الأعمال . . . ) .

هذا هو الدليل من داخل أنفسنا ولنا حديث عن الأدلة الخارجية عن النفس ونكتفي بالإشارة هنا إلىٰ تكملة حديث الإمام الرضا (ع) علّنا نفصّل في الأدلة الخارجية في الصفحات القادمة إن شاء الله قال (ع): « . . . فأقررتُ به مع ما أرىٰ من دوران الفلك بقدرته وإنشاء السحاب وتصريف الرياح ومجرىٰ الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المبينات . . . علمت أن لهذا مقدِّراً منشئاً . . » .

ويجيب الإمام علي (ع) ببساطة عن إثبات الصانع فقال : (البعرة تدل علىٰ البعير والروثة تدل علىٰ الحمير وآثار القدم تدل علىٰ المسير فهيكل علوي بهذه اللطافة ومركز سفلي بهذه الكثافة لا يدلان علىٰ اللطيف الخبير ؟ ) هذا ونحوه محكي عن الأعرابي . .[١٤] .

## ( د ) الله هو الخالق وحديث الأدلة :

بعد أن عرفنا شيئاً من نظرية أزلية المادة والصدفة وحديث الاحتمالات توصلنا إلىٰ أن الإنسان المؤمن لا بد أن يمتلك القناعة بمبداٍه كي يتمسك به كلياً وإلاّ تبقىٰ المسألة عقدة مترسخة في باطن الإنسان هذه العقدة تنفجر سلباً في حالات العسرة والضيق لأنها تفتقد الأرضية المطلوبة لغرض توفير القناعة التامة ولذلك لا بد أن نبحث بحريّةٍ وإطمئنان هذه القضية المهمة لنوفر لأنفسنا الحل السليم لهذه العقدة ومن هنا يعرِّفُ بعض الأساتذة العقيدة بالعقدة الكامنة في شعور الإنسان متىٰ ما توصل إليها مطمئناً صادقاً انجلت عقدته ومثله مثل الإنسان إذا ضيع شيئاً عزيزاً عليه فيبحث عنه بحثاً دقيقاً فمتىٰ ما وجده تنتهي عقدته ويستريح ضميره ووجدانه فانحلال العقدة بوجود الهدف الذي كان ضائعاً ، حينها تتحول العقدة إلىٰ عقيدة يؤمن بها الإنسان فقد قال سبحانه :

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

[سورة الرعد ١٣ ؛ الآية: ٢٨].

فحالة التمسك بالعقيدة والمبدأ منشأها القناعة بهذه الأفكار والمعتقدات ونحن يمكننا أن نستدل علىٰ وجود الخالق المدبر المهيمن عن طريق وجودنا مرةً وعن دليل خارج عن وجودنا مرةً أُخرىٰ حيث نرىٰ عظمة الإبداع والتدبر وسنن هذا الكون الفسيح .

وبداهة أن الأثر يدل على المؤثر والمصنوع يدل علىٰ الصانع والدقة في الأثر والنظام في المصنوع يدلان علىٰ قدرة الخالق وعظمته كما أنك حينما تشاهد بناءً متواضعاً من طابق أرضي واحد ليس فيه إلاَّ باب واحد وغرفتان ولواحق بسيطة للبيت تقول لا بد من بانٍ ومصمم لهذا البناء المتواضع وكذلك حينما تشاهد ناطحات السحاب ذات المصاعد الكهربائية فترىٰ الدقة في التشييد والتنسيق ما بين الطوابق والسلالم الكهربائية فلا بد أن تقول أن هنالك عقولاً هندسية واعية أنتجت هذا العمران الضخم وعليه لا نمنح صفة العقل الهندسي المتطور للبيت المتواضع الأول كما نمنحه لمصممي ناطحات السحب وهكذا فمن خلال عظمة الخلقة والإبداع التي نراها في داخلنا ودقة الأنظمة الكونية خارجنا نتوصل إلىٰ معرفة الذات الإلهية المقدسة والمدبرة لهذا الوجود والمتصفة بكل صفات الكمال والجمال والجلال .

وقبل أن نتطرق لحديث الأدلة نلفت انتباه القارىء الكريم إلىٰ مسألة مهمة وهي هل إن الله سبحانه علة العلل في إيجاد الأشياء والوجودات؟ أم أنه ليس كذلك. والعلة إما أن تكون علة تامة أو علة ناقصة فإذا قلنا بأن الله سبحانه هو العلة الناقصة فالمفروض وجود غير الله لايجاد بقية العلل ولإيجاد الكون وأما إذا قلنا علة تامة لازم هذا أن تكون الموجودات قديمة بقدم الله لأن المعلول لا يفارق علته أبداً ، والحال نحن أثبتنا عملياً ووجدانياً وعلمياً بأننا لم نكن موجودين سابقاً فوُجِدْنا في الكون فيما بعد

وهكـذا الوجـودات المستقبلية حـالياً هي عـدم ولكنها ستـوجـد في المستقبـل بمعنىٰ نحن لسنـا قدمـاء كما يـريد ذلـك الفـرض علىٰ مـا يـذهب إليـه بعض الفلاسفة .

فلو كـان معنىٰ أن الله علة تامـة يقودنـا ـ كما يـذهب البعض ـ إلىٰ قـدم الوجودات بقدم الله علىٰ مستوىٰ وجود الشركـاء له سبحـانه فنحن نـرفض هذا المعنىٰ ونرفض الانقياد مـع هذا البعض وراء النتيجـة السـاذجـة . وكذلـك أن الله سبحانه ليس علة ناقصة للزوم اشتراك غير الله مـع الله لتتكون العلة التـامة المسببة للوجود والخلق والإبداع .

من كل ذلك نستنتج أن الله سبحانه ليس علة تامة ـ كما تذهب النتيجة السـابقـة التي تُوصِلنـا إلىٰ قـدم المـوجـودات وإلىٰ أن عليـة الله تعني سلب القدرة عنه فكلما تحققت العلة التامـة يتحقق المعلول دون اختيار العلة التـامة ودون السيـطرة علىٰ هذا الإنتـاج وبالتـالي سلب القدرة منـه (سبحانـه) . بـل العكس فإنّ الله تعالىٰ هو مختار يفعل ما يريد فقد قال عز وجل :

﴿إنَّمـا أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ .

[سورة يس ٣٦ الآية : ٨٢] .

فكـان الله ولـم يكن معه شيء ثم خلق الأشيـاء ثم يميت الخـلائق وهـو علىٰ كـل شيء قدير بعيداً عن كـونـه (عـزّ وجـلّ) علة تـامـة أو نـاقصـة علىٰ النتائج التي نخرج بها .

**والآن نحاول أن نسلط الضوء على الأدلة :**

**أولاً : حديث وجودنا :**

يقـول القرآن المجيـد : **﴿ولقد خلقنـا الإنـسـان من سـلالـة من طين .ثم جعلنـاه نطفـة في قـرارمكين .ثم خلقنـا النـطفـةَ علقـةً فخلقنـا العلقـةَ مضغـةً فخلقنا المضغةَ عظاماً فكسـونا العـظامَ لحماً ثم أنشـأناه خلقـاً آخر فتبـارك الله أحسن الخالقين﴾** .

[سورة المؤمنون ٢٣ ؛ الآيات : ١٢ ـ ١٤] .

ويقول سبحانه في آيةٍ أُخرىٰ : ﴿هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلاَّ هو العزيز الحكيم﴾ .

[سورة آل عمران ٣ ؛ الآية : ٦] .

ويقول أيضاً : ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ .

[سورة الملك ٦٧ ؛ الآية : ٢٣] .

الإنسان بأجهزته ومظهره وخلاياه وغدده يعد أكبر معمل منظَّم ومنتج في العالم حيث يؤدي واجباته علىٰ أحسن ما يرام وفيه أسرار ترى العلم راكعاً أمامها .

يقول سبحانه وتعالى في محكم كتابه الكريم : ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ .

[سورة التين ٩٥ ؛الآية : ٤] .

فإضافة إلىٰ أنه جهاز معقد في غاية التعقيد فإن أجهزته تتداخل وظيفياً فيما بينها فجهاز يخدم جهازاً آخراً بشكلٍ منسق ودقيق ومن المؤكد أن الأجهزة تقع تحت تأثيرات الحالة النفسية وبالعكس فالشعور واللاشعور النفسي يتبادلان مع أجهزة الإنسان وإفرازات غدده في كافة الأجهزة المختلفة ضمن تنظيم دقيق فكل عضو له وظيفته المعينه يؤديها لصالح الإنسان العام في النمو والبناء ولنستمع إلىٰ أقوال بعض العلماء في هذا الصدد يقول (مورسون) العالم الطبيعي (خذوا جسم الإنسان فإنكم ستجدون فيه من الخلايا بعدد عشرة ملايين مليار خلية وهذا هو العدد المتوسط للخلايا في جسم شاب في مقتبل العمر)(١٥) .

أما في كتاب الطب محراب الإيمان يذكر أن هناك ثلاثة عشر ألف مليون خلية عصبية أي ١٣ مليارد خلية عصبية في الجهاز العصبي وحده والخلية بحد ذاتها بناء محيّر مدهش وهذه كلها تعمل بشكل دقيق محكم

متناسق متعاون لتأدية الأغراض الحيوية والفكرية وأن هناك ٧٥٠ مليون سنخ رئوي يعمل لتصفية الدم وذلك بإمرار غاز الأوكسجين من الخارج إلىٰ الدم الأسود الوارد من البطين الأيمن من القلب وهناك الكِلْية وهي الجهاز المنقّي للدم من الجهة الثانية وفيها واحات صغيرة جداً لا ترىٰ إلاَّ بالمجهر حيث يتفرع الشريان الذي يغذّي الكلية إلىٰ فروع دقيقة جداً حتىٰ يصل إلىٰ تفريع شعري لا يرىٰ إلاَّ بالمجهر يلتف حول نفسه ليشكل ما يعرف بالكبد وفيها يمر الدم ببطءٍ شديد ويتصفىٰ بالرشح في الكلية قرابة ٢٠٠ لتراً من الدم يومياً ويعود ليمتص مرة أُخرىٰ بواسطة الأنابيب الكلوية التي يمر منها قرابة ١٩٨ ليتراً وهذه الكبب يصل عددها إلىٰ المليون في الكلية الواحدة تقوم بتصفية مئات الألتار من الدم يومياً وإن الروعة تكمن في الغدد وفي البناء وفي كيفية العمل وفي الروعة الهائلة لتخليص الإنسان من السموم التي تدخل جسمه)[١٦] .

أما عن القلب فقد جاء في كتاب الاعجاز الطبي في القرآن : القلب هو دعامة الجسم وقوام الحياة وعضلاته متصلة بعضها ببعض في مدمج خلوي لا تفصل بين خلاياه جدر خلوية كما هو معروف بين خلايا الحيوان والنبات ولعل هذا التكوين الخلقي للعضلة القلبية قد جعلها مؤهلة تماماً للعمل كوحدةٍ واحدةٍ يتواتر إيقاعها بقوة وإنسجام لا إرادياً ولا دخل فيه من [illegible]ـص وهذه الحركة القلبية شديدة الاعجاز بطبيعتها . والعضلة القلبية شديدة النشاط موفورة القوة دائمة العمل دائبة الحركة لا تكلّ ولا تملّ لا تسأم ولا تهرم لا يتأثر إنقباضها تأثراً بيّناً بائناً بالتخدير الكلي أو النصفي كما إنها لا تصاب بالسرطان والقلب يضخ في اليوم الواحد ما يقرب من ثمانية آلاف لتر من الدم يدفعها إلىٰ مسافة تقدر بنحو عشرة آلاف ميل وتصل ضربات القلب السليم في اليوم الواحد إلىٰ ١١٥٢٠٠ ضربة أو خفقة وتصل في الشهر الواحد إلىٰ ٣,٤٥٦,٠٠٠ من ثلاثة إلىٰ أربعة ملايين ضربة أو خفقة .

أما عن حركة القلب فأثناء انقباض الأُذين الأيمن ينبسط البُطين الأيمن وينغلق الصمام الرئوي وينفتح الصمام الثلاثي ليمر الدم من خلاله إلىٰ

البُطين الأيمن وعند انقباض البطين الأيمن ينغلق الصمام الثلاثي وينفتح الصمام الرئوي الذي يندفع الدم من خلاله للشريان الرئوي ومنه إلىٰ الرئتين[١٧] .

وأثناء انقباض البطين الأيسر ينغلق الصمام الرئوي وينغلق الصمام الميترالي وينفتح الصمام الأورطي حيث يندفع الدم خلاله بقوة انقباض البطين الأيسر إلىٰ الشريان الأورطي ثم إلىٰ جميع أجزاء الجسم .

**أليس هذا بإعجاز طبي هندسي رائع بديع ؟ :**

وأما لو كشفنا عن بعض الأسرار التي كانت غامضة فيما مضىٰ والعلم الحديث كشف عن أهميتها جديداً مثلاً غدة (تيموس) وهي غدة صغيرة في القفص الصدري وتقع فوق البلعوم وقد كانت غير معلومة الأهمية واعتبرها البعض عضواً لا فائدة فيه ولكن قد عُلم اليوم بأن للغدة دور كبير في توفير الحماية والمقاومة والدفاع للبدن ضد العناصر الأجنبية المهاجمة ويعتقد البعض ان لها تأثيراً علىٰ الفعاليات الجنسية ونمو البدن بعد البلوغ وباستئصالها تبدو الأعضاء الجنسية بحالة الخمول ويتأخر حصول البلوغ .

أما غدة (أبي فير) فهي أعقد من تيموس وتقع داخل الدماغ وكان البعض من العلماء لا يتصور لها فائدة ولكن اليوم تبين لها التأثير علىٰ النشاطات الجنسية والبلوغ وأما اللوزتان حيث كان الأطباء يرون لا فائدة لهما ويأمرون بآستئصالها كثيراً ، تبين اليوم أنهما تعملان علىٰ تزويد الجسم بالكريات البيضاء ومهمتها الدفاع عن الجسم والوقوف بوجه الميكروبات فهي تشكل مراكز حِجر صحي أو حصناً منيعاً يقف في مداخل الطرق التنفسية إذ تنقي الهواء من الميكروبات . وحتىٰ الزائدة الدودية فقد توصل البعض إلىٰ أن الزائدة الدودية يمكن أن تلعب دوراً مؤثراً في الدفاع ضد السرطان ويمكن أن يؤدي استئصالها عند غير الضرورة إلىٰ ظهور السرطان ونقلاً عن مجلة «جاما» استئصال الزائدة الدودية في الأشخاص المؤهلين للإبتلاء بالسرطان له تأثير ملحوظ في ذلك ويمكن أن يكون باعثاً علىٰ

حدوثه في الجسم[١٨] .

ولو جئنا إلىٰ جهاز السمع عند الإنسان لوقفنا علىٰ إنجاز هائل وجبار حتىٰ إنه وضعت نظريات تشرح لنا كيف تستقبل الأذن الصوت وكيف تحلله من خلال جهاز السمع واعضائه فنستطيع أن ندرك جهة الصوت ونميز الأصوات بعضها عن بعض وندرك البعد المكاني لهذا الصوت .

والمتتبع لهذه الحاسة يدرك عظمتها من خلال الدراسة الدقيقة لأجزائها فهي مقسمة إلىٰ ثلاثة أقسام رئيسية : الأذن الخارجية وهي مؤلفة من صيوان الأذن (الجزء الغضروفي الخارجي) ووظيفته جمع الاهتزازات الصوتية ونقلها بأمانة إلىٰ داخل الجهاز والجزء الثاني هو القناة الموصلة بين الصيوان والطبلة .

أما الأذن الوسطىٰ فتنفصل عن الخارجية بغشاء رقيق (طبلة الأذن) وتتألف هذه الأذن من عظام السمع (المطرقة والسندان والركاب) وغشاء الطبلة هذا مادته من أفضل الأجسام إيصالاً للصوت فيمتاز بالرقة وهذه الميزة مفيدة للنقل لكنه معرض للتمزيق من زيادة الضغط الخارجي فاتقاءً من هذه الخطورة صار من ورائها انبوب يوصل بين الأذن الوسطىٰ والجزء العلوي من الحلقوم ويسمىٰ «قناة أو بوق أوستاكيوس» وهذه القناة تنظّم الضغط علىٰ الطبلة ومن خلالها يتم تفريغ الافرازات فلولاها لتراكمت الافرازات وأفسدت الأذن .

والعظيمات هذه (المطرقة والسندان والركاب) متصلة بعضها ببعض بشكلٍ هندسي منتظم تستلم الذبذبات الصوتية من الطبلة بشكلٍ فنيٍ وتسلّمها للعظم التالي ومن ثمّ يطرق نافذة القوقعة (الأذن الداخلية) مكبرة للصوت بما يعادل قوة الذبذبة الأصلية اثنين وعشرين مرة .

فلو تعطلت العظيمات عن العمل لسببٍ ما فهنالك البديل المؤقت لاستلام الصوت وهو «الكوة المستديرة» الواقعة بين الاذن الوسطىٰ والداخلية ولم تتصل بالعظيمات تلك فهي أداة احتياطية يستفاد منها وقت الحاجة

بشكلٍ أوتوماتيكي .

ثم يلاحظ أن العظام مصنوعة من أجسام صلبة جيدة لتوصيل الصوت، وأنها منفصلة عن عظام الرأس لتحتفظ بالاهتزازات من التسرب .

أما الأذن الداخلية فهي مؤلفة من عدة دهاليز وأقنية وسلالم وتسمىٰ (التيه) وأوله دهليز بيضوي الشكل متصل بغشاء (الكوة البيضاء) وفي الدهليز أنبوب حلزوني يحتوي علىٰ محور مركزي علىٰ شكل عمودي وتلفه قناة محيطة بالمحور مرتين ونصف وفي القناة (هذه) صفيحة رقيقة بعضها عظمي وبعضها غشائي وهي تشطر القناة المحيطة بالمحور إلىٰ شطرين وفي داخل القناة جهازان :

**أحدهما** : يتصل بغشاء الكوة البيضوية ليستلم الاهتزازات عن طريق العظام ويسمىٰ بـ (السلم الدهليزي) .

**والثاني** : يتصل بغشاء الكوة المستديرة ليستلم الاهتزازات عن غير طريق العظام ويسمىٰ (بالسلم الطبلي) وهناك يقع عضو (كورتي) وهو التركيب المتخصص بالتحسس وذلك في غور القوقعة (القناة المحيطة) وعلىٰ القسم الأعلىٰ من عضو كورتي توجد أربعة صفوف من الخلايا الشعرية وهذه الصفوف تحتوي علىٰ تركيب جلاتيني يسمىٰ بالغشاء الغطائي وتنقسم هذه الصفوف بتراكيب تشبه العصي إلىٰ صف داخلي وثلاثة صفوف خارجية وتحت الخلايا الشعرية تتفرع نهايات الألياف العصبية السمعية التي يقدر عددها بثلاثين ألف نهاية ويقول ذوو الاختصاص (ولا يعلم علىٰ جهة اليقين كيف يتأتىٰ لعضو (كورتي) أن يحوّل الذبذبات إلىٰ دفعات عصبية)[١٩] .

ولا يسعني هٰهنا إلاَّ أن أردد وأطيل النظر في كلمات مولانا أمير المؤمنين الإمام علي (ع) في هذا الصدد فيقول : (. . وما الذي نرىٰ من خلقك ونعجب له من قدرتك نصفه من عظيم سلطانك وما تغيّب عنا منه وقصرت أبصارنا عنه وانتهت عقولنا دونه وحالت ستور الغيب بيننا وبينه

أعظم . . )[٢٠] .

اكتفي بهذا القدر من النماذج في الاستدلال من وجودنا وداخلنا وأما في استدلالنا من خارج أنفسنا فيمكن القول فيه :

إن ما نراه من دقة ونظام وعظمة لهذا الكون المليء بالأسرار والأعاجيب يكفي أن يوصلنا إلىٰ وجود المدبر المبدع الخالق وعظمته . ففي الأفلاك والبحار والحيوانات والنباتات بل في كل شيء يخطر ببالنا تتجسد عظمة الخالق فيه ودقة نظامه وتدبيره مما يبهر الإنسان علىٰ مستوىٰ المعرفة والعلم والبداهة بحيث لا يستطيع أحد أن يجيب حينما يسئل عن المبدع والمدبر والخالق إلا أن يقول الله تبارك وتعالىٰ وفي هذا المجال يقول القرآن المجيد :

**﴿ولئن سألتهم من خلق السمٰوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنّىٰ يؤفكون﴾ .**

[سورة العنكبوت ٢٩ ؛ الآية : ٦١] .

وفعلاً لو فكر الإنسان فيما يجري حوله من قوانين ونظم تيقّن بوجود الخالق والمدير والمدبر :

**﴿أفلا ينظرون إلىٰ الإبل كيف خلقت . وإلىٰ السماء كيف رفعت . وإلىٰ الجبال كيف نصبت . وإلىٰ الأرض كيف سطحت . فذكر إنّما أنت مذكر﴾ .**

[سورة الغاشية ؛ ٨٨ الآيات : ١٧ ـ ٢١] .

يقول سيدنا الإمام علي علي (ع) : « . . . ألا ينظرون إلىٰ صغير ما خلق كيف أحكم خلقه وأتقن تركيبه وفلق له السمع والبصر وسوّى له العظم والبشر انظروا إلىٰ النملة في صغر جثتها ولطافة هيئتها لا تكاد تنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر كيف دبت علىٰ أرضها وصبت علىٰ رزقها تنقل الحبة إلىٰ حجرها وتعدها في مستقرها تجمع من حرّها لبردها وفي ورودها لصدرها مكفولة برزقها مرزوقة بوفقها لا يغفلها المنان ولا يحرمها الديّان ولو

في الصفا اليابس والحجر الجامس ولو فكرت في مجاري أكلها في علوها وسفلها وما في الجوف من شراسيف بطنها وما في الرأس من عينها وأذنها لقضيت من خلقها عجباً ولقيت من وصفها تعباً . فتعالىٰ الذي أقامها علىٰ قوائمها وبناها علىٰ دعائمها لم يشركه في فطرتها فاطر ، ولم يعنه علىٰ خلقها قادر ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلتك الدلالة إلاّ علىٰ أن فاطر النملة هو فاطر النخلة لدقيق تفصيل كل شيء وغامض اختلاف كل حي وما الجليل واللطيف والثقيل والخفيف والقوي والضعيف في خلقه إلاّ سواء وكذلك السماء والهواء والرياح والماء فانظر إلىٰ الشمس والقمر والنبات والشجر والماء والحجر واختلاف هذا الليل والنهار وتفجر هذه البحار وكثرة هذه الجبال وطول هذه القلال وتفرق هذه اللغات والألسن المختلفات . . . فالويل لمن جحد المقدِّر وانكر المدبر . . . وهل يكون بناء من غير بانٍ أو جناية من غير جان»[٢١] .

أما الذي نراه في الكتب الحديثة حول عظمة الخالق وتدبيره فهو كثير فلنقف علىٰ بعضه فقد جاء في كتاب الله والعلم الحديث : (هذا الأوكسجين الذي إذا زاد زيادة طفيفة لسبّب فناء العالم بما يسببه من اختلال في كثافة الهواء . . . فتتهاوىٰ الكواكب والأجرام)[٢٢] .

علماً بأن نسبة الأوكسجين في الهواء ٢١٪ فلو صارت النسبة ٣٠٪ مثلاً لاختلّ النظام في الحياة وتبدّلت موازين الاحتراق لأن الأوكسجين يساعد علىٰ الاشتعال ففي هذه النسبة المفترضة يساعد علىٰ الاشتعال بشكلٍ غير طبيعي مما يسبب الحرائق الفادحة في كل مكان وان الكون بنجومه المختلفة الاحجام التي لا حصر لها والتي تندفع في جميع الاتجاهات كأنها شظايا قنبلة متفجرة في صورة لا يكاد المرء أن يتخيلها حتىٰ يدركهُ البهر)[٢٣] .

ويقول أنشتاين ـ العالم المعروف ـ (وكما أن الساعة اليدوية لا بد لها من صانع صنعها أو مخترع اخترعها كذلك الطبيعة لا بد لها من مبدعٍ قدير ابتدعها بقدرته وأنشأها بحكمته وهو الخالق العظيم) .

ونرىٰ الكون الرحب بما في فضائه الفسيح من كواكب وأفلاك تسير

ضمن خطة دقيقة كلٌ قد عرف طريقه ومسلكه وقانونه وبعبارة أُخرىٰ كتلٌ من الأنظمة والدساتير والموازنات في الحركة والتأثير والجاذبية المتوازنة بصناعة دقيقة جداً في المسيرة والتحرك .

يقول عزّ من قائل في محكم كتابه العزيز : ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌ في فلك يسبحون﴾ .

[سورة يس ؛ ٣٦ الآية : ٤٠] .

وفي آية أُخرىٰ : ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾ .

[سورة الرحمٰن ؛ ٥٥ الآية : ٧] .

فمثلاً يذكر علماء الطبيعة والفلك إن قطر الشمس ٨٦٤,٠٠٠ ميل وهذه الشمس شرارة في مجرة درب التبانة (مجموعتنا الشمسية تعتبر جزءاً منها) وتتخلل نجوم هذه المجرة وكواكبها كميات كبيرة جداً من الغاز معظمه هيدروجين وغبار وربما كانت كتلة الغاز والغبار المنتشرة في المجرة تعادل كتل النجوم كلها(٢٤) .

ومجرتنا يحددون قطرها نحو ١٠٠,٠٠٠ سنة ضوئية(٢٥) .

وفي بعض التقارير العلمية أكثر من ذلك وهذه مجرتنا ليست وحدها في الفضاء ويؤكد قسم من التقارير العلمية انه قد تم كشف علىٰ الأقل عشرة بلايين مجرة أُخرىٰ وهذا يعتمد علىٰ قوة الجهاز الكاشف ولدىٰ بعض التقارير إن عدد المجرات مائة ألف مليون مجرة(٢٦) .

يقول الله سبحانه : ﴿والسماء بنيناها بأَييْدٍ وإنّا لموسعون﴾ .

[سورة الذاريات ؛ ٥١ الآية : ٤٧] .

وفي دائرة المعارف قولٌ للعالِم نيوتن هو (كيف تكونت أجسام الحيوانات بهذه الصياغة البديعة ولأي المقاصد وضعت أجزاؤها المختلفة هل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأُصول الإبصار ونواميسه

والاذن بدون إلمام بقوانين الصوت . . . وهـذه الكائنـات كلها في قيـامها علىٰ أبـدع الأشكـال وأكملهـا ألا تـدل على وجـود إلـه منـزّه عن الجسمـانيـة حي حكيم)[٢٧] .

وبهـذا نكون قـد وضحنا الأدلـة من داخـل الإنسـان في بيـان جـزءٍ من أجهزته وأوضحنا أيضاً بعض الأدلـة من خارج الإنسـان وحديث الأدلـة حديث شيق أدعـو المؤمنين لمطالعته في مختلف الكتب المعنية .

**(هـ) وقفة مع الشبهات والرد عليها :**

**الشبهة الأولىٰ : وخلاصتها :**

إن الحـواس الـخمس هي النـوافذ الـطبيعيـة للمعـرفـة ولحصـول العلم وعلىٰ رأس الحواس حاسـة البصر فهي الحجـة القاطعـة ونحن بصراحـة لا نرىٰ الله وعليه لا نستطيع أن نؤمن بشيءٍ لا نراه .

والجـواب : هؤلاء يعتقـدون أن مصـدر المعـرفـة لـديهم هـو الـدليـل الحسي البصري عبر التجـارب ويضاف لـه السمع ، الشم ، اللمس ، الـذوق فكل معرفة لا تمر عبر هذه القنوات تعتبر من الأوهام واللاواقعيات ـ ( وما دامت المسـألة الإلهيـة مسألـة غيبية وراء حـدود الحس والتجربـة فيجب أن نطرحهـا جـانباً وننصـرف إلىٰ مـا يمكن الـظفـر بـه في الميـدان التجـريبي من حقـائق ومعارف)[٢٨] .

ونقول في الإجابة أيضاً : إننا لا ننكر دور الحس في المعـرفة الإنسـانية ولكن نقـول ليست المسـألـة كلها متعلقـة بالحس وإنمـا للادراك العقلي الـدور الأهم في المعرفة ، (فنيوتن مثلاً حين وضع قانون الجاذبيـة العامـة علىٰ ضوء التجـربة لم يكن قـد أحس بتلك القوة الجـاذبيـة بشيء من حـواسـه الخمس وإنمـا استكشفها عن طـريق ظاهـرة أُخرىٰ محسـوسة لم يجـد لهـا تفسيـراً إلا بافتراض وجود القوة الجاذبة)[٢٩] .

فصحيح أنه رأىٰ بعينه التفاحة التي سقطت إلىٰ الأرض وتساءل لماذا ما صعدت إلىٰ السماء ولكنه افترض علىٰ هذا البناء الحسي أمراً غير ملموس أو محسوس ألا وهو أمر الجاذبية الأرضية التي لا تخضع للحواس الخمس بأية صورة من الصور وإنما أدركها من خلال آثارها بدليل عقلي واضح فلو أزلنا مبدأ العلية العقلي كما يرغب أصحاب المذهب التجريبي لوقعنا في فخ الصدفيين ، ومع ذلك فإن الحواس هذه قد تخطىء كما في مسألة السراب وقد تختلف من فرد لآخر ومن ظرف لآخر مما يجعل لهذا الاختلاف ظهور الواقع العلمي عند البعض ونكرانه عند البعض الآخر ، يقول الدكتور فؤاد صروف في مقال نشرته مجلة عالم الفكر الكويتية العدد الثاني : (إن علماء الطبيعة في هذا العصر رأوا بعقولهم ما لا يمكن أن يروه بعيونهم أو بمصوراتهم الضوئية) .

فاكتشف علماء الطبيعة أسراراً لم تكتشفها الحواس وعلىٰ رأسها العيون فلو سايرنا المذهب التجريبي أكثر نلاحظ أنه لا يستطيع أن يثبت قواعده في المعارف الموجودة في العالم إلاَّ بالاعتماد علىٰ القواعد العقلية مثال ذلك التعليل وكشاهد عليه مثلاً نلاحظ أثر النار في تبخير الماء كسائل له مواصفات معينة وليس كل السوائل لأن الماء يتكون من مكونات مهيّأة للتبخر نتيجة الحرارة فكل سائل يحمل نفس المواصفات يتبخر بالحرارة وهكذا قاعدة التعميم علىٰ كل المياه في العالم . فالتعليل والتعميم وأمثالهما من القواعد العقلية هي التي تدفع بالتجارب الحسية نحو الأمام وهذه القواعد عقلية ولولاها لاحتجنا إلىٰ تكرار كل التجارب وعلىٰ كل السوائل كما في مثالنا .

وهكذا نرىٰ العقل يرمم المعرفة الحسية من مواقع القوة أما أصحاب هذا المذهب فهم يذهبون إلىٰ أن الحواس هي المصدر لكل المعارف وهنا نتساءل هل هذه القاعدة حصلوا عليها عبر التجربة أم لا؟ وفي هذا الصدد يقول السيد محمد باقر الصدر في كتابه فلسفتنا (صحّ لنا أن نتساءل عن السبب الذي جعل التجريبيين يؤمنون بصواب هذه القاعدة فإن كانوا قد

تأكدوا من صوابها بلا تجربة فهذا يعني أنها قضية بديهية وأن الإنسان يملك حقائق وراء عالم التجربة وإن كانوا قد تأكدوا من صوابها بتجربة سابقة فهو أمر مستحيل لأن التجربة لا تؤكد قيمة نفسها)[٣٠] .

فبالنتيجة نلاحظ أصحاب هذا المبدأ يطبقون قواعد عقلية من حيث لا يشعرون إضافة إلىٰ أن كثيراً من الخبرات والتجارب والعلوم جاءتنا عبر التاريخ ونحن نؤمن بها دون أن نراها أو نشهدها وقد نحصل عليها بطرق غير حسيّة فالمغناطيسية والكهربائية والجاذبية وأمثالها نؤمن بها دون أن نراها بالعين أو نشمها بالأنف أو نلمسها باليد . فإذن ليست الحواس هي النافذة الوحيدة لمعارف الإنسان بل هي النافذة الاعتيادية للمعرفة بينما يبقىٰ العقل هو البداية الرئيسية لمعارف الإنسان وهكذا تتلاشىٰ هذه الشبهة أمام أشعة العقل والعلم الحديث فليست علومنا ومعارفنا عبر الحواس فقط هي التي آمنا بها .

## الشبهة الثانية : لكل وجود في العالم علة إيجاد لا بد منها فمن أوجد الله سبحانه ؟

وقبل الإجابة أتذكر قولاً للفيلسوف (برتراند راسل) في كتابه لماذا لست مسيحياً؟ (فكما أن لكل شيء علة وسبب لا بد لوجود الله أيضاً من علة ودليل ولو أمكن لشيء أن يكون بلا دليل ولا علة لأمكن أن يكون هو الله أو العالَم وعلىٰ هذا فالبحث عن الله يفقد اعتباره) .

ويقول (هربرت اسبنسر) الفيلسوف البريطاني (المشكلة هي أن العقل البشري يفتش لكل أمر عن علة وهو يرىٰ استحالة الدور والتسلسل ولا يرىٰ علة بلا علة ولا يفهمها) .

فبالنتيجة يمكن أن نقول إن مبدأ العلية هو قانون لازم لكل مناحي الوجود ولا يمكن أن يكون شيءٌ موجوداً دون علة أو سبب وحينما نفترض أن هنالك شيئاً وجد دون علة أو سبب فهو نوع من أنواع الصدفة في الخلق وبهذا

الأسلوب يصنفون الأيديولوجية الإسلامية ضمن نظرية الصدفيين حيث أنها تعتقد بوجود الخالق والمدبر الرئيسي صدفة بمعنىٰ كونه موجودا بلا علة أو سبب ، وصحيح أن الإسلاميين يقدّمون مقدمات طويلة وعريضة بلا بُدّية العلة ويعرضون عن نظرية الصدفة جانباً ويهزأون منها بأدلة علمية دامغة ولكنهم حينما يَصِلون إلىٰ حصن الرب الخالق تتهاوىٰ القواعد العلمية التي ساروا عليها فهنا ـ وبالذات في موضوع الله ـ تسقط العلية والسببية تماماً حيث وجد الله من دون علة ومن دون سبب بل هو علة العلل ومسبب الأسباب وهذا ما لم يقرّه العلم ولم يقرّه الإسلاميون أنفسهم في بداية البحث وقبل الوصول إلىٰ حصن الخالق وبالمناسبة يقول الدكتور العظم في كتابه (نقد الفكر الديني) : لنفترض أننا سلّمنا بأن الله هو مصدر وجود المادة هل يحل ذلك المشكلة ؟ . . . أنت تسأل عن علة وجود السديم الأول وتجيب بأنها (الله) وأنا أسألك ـ بدوري ـ وما علة وجود الله ؟ وستجيبني بأن الله غير معلول الوجود وهنا أُجيبك ولماذا لا نفترض المادة الأولىٰ غير معلولة الوجود ؟ وبذلك ينحسم النقاش دون اللجوء إلىٰ الغيبيات وإلىٰ كائنات روحية بحتة لا دليل لدينا علىٰ وجودها (الميتافيزيقية) ويستمر قائلاً (إن أقصىٰ ما تستطيع الإجابة به (لا أعرف) إلاّ أن وجود الله غير معلول ومن جهة أُخرىٰ عندما تسألني ما علة وجود المادة الأُولى ؟فإن أقصىٰ ما أستطيع الإجابة به (لا أعرف) إلاّ أنها غير معلولة الوجود)[٣١] .

وعلىٰ هذا سنقرّ بجهلنا في معرفة الوجود الأول وحسب ما يدّعي الدكتور العظم وأصحاب هذا الرأي أن الطريقيْن مسدوديْن بنتيجةٍ واحدةٍ متساويةٍ ومتعادلة .

وبالفعل إنها شبهة مؤثرة حينما تثار في الأوساط العامة تجد من يصغي لها ولكن هؤلاء مثلهُم مثلُ القائل لخصمه (عرفتَ شيئاً وغابت عنك أشياء) وللإجابة علىٰ هذه الشبهة نتبع طريقة أساتذتنا في شرح النظريتين (نظرية الوجود) و (نظرية الإمكان الوجودي) ثم الردّ العام علىٰ هذه الشبهة التي تعد من الشبهات الرئيسية التي يلتزم بها الماديون وبعض الماركسيين بالذات

وأنها السبب في تغيير عقائد بعض الشباب نحو الأفكار الهدامة والسلوك الملتوي .

## أما الآن فلنتعرف على النظريتين :-

### ( أ ) نظريــة الـوجـود :

هذه النظرية ترىٰ حتمية احتياج الموجود إلىٰ علة توجده ، هذه النظرية مستندة علىٰ التجارب العلمية في كل الميادين كالطب والهندسة والكيمياء والفيزياء ، مثال ذلك غليان الماء بالحرارة وتمدد الحديد بالحرارة فالحرارة هي علة الغليان للماء والتمدد للحديد ولولا هذا القانون (لكل موجود علة) لجاءت الصدفة واحتلت المنطق العلمي التجريبي ـ كما يقولون ـ ويمكننا أن نناقش هذه النظرية ونردها عبر ما يلي :

١ ـ إن التجربة كمصدر رئيس لمعرفة العلة ـ هذا ما لا يقرّه العلم والعقل ـ حيث أننا نعرف أن التجربة لها حدود خاصة في التطبيق الميداني أي لها حقل خاص وهو الحقل المادي من الوجود ـ فاعتبارها مقياساً علمياً يكشف عن العلة والسبب في عموم الوجود هذا أمر بعيد عن الدقة العلمية حيث أن الوجود ليس ماديّاً فقط وإنما جزء منه يخضع لعنوان المادة وعليه تطبق التجربة كالغليان وتمديد الحديد بالحرارة ـ كما مر ـ أما أننا نوكل الوجود الكبير لهذا المقياس الذي لا يستطيع استيعابه بالتجربة وحدها لغرض كشف العلل ! فهو أمر شاذ ! حيث أن الوجود مليء بأمورٍ غير مرئية كالجاذبية والمغناطيسية والأرواح وما شابه ولو سلّمنا جدلاً بالتجربة وقدرتها علىٰ بيان كل العلل والأسباب لكل الوجود ففي الحقيقة أن التجربة تكشف عن أسباب الظواهر المادية كالغليان والتمدد لا أكثر فهي تربط بين عدة عوامل كالنار والحرارة والشمس بمكونات مادية معينة كالحديد فتكشف عن العلاقة التي تعتبرها علة للتمدد أما لماذا الشمس أو الحرارة تعمل هذا العمل؟ ولماذا الحديد له هذه القابلية دون غيره؟ هذه تساؤلات تعجز التجربة عن الإجابة عليها .

أما الوجودات غير المرئية فتعلن التجربة إفلاسها وتستسلم أمامها لأنها لا تستطيع أن تمدّ يديها إلىٰ العمق الغيبي وهو أمر واقعي ـ دون شك ـ كالجاذبية والمغناطيسية وما شابه .

٢ ـ أما ربط الإلهيين بالصدفة ولو بدرجة متأخرة ـ كما يقول البعض ـ لقلة الشجاعة لدىٰ الإلهيين فيرفعون الصدفة عن الوجود المادي ليضعوها علىٰ المصدر الأول للوجود وهو الله ! في المسألة خلط واضح إذ أن المصدر الأول الذي يؤمن به الإلهيون يتصف بصفات الأزلي والأبدي وهذه الصفات تجعله يكون واجب الوجود لا يحتاج لشيء . . . أما الصدفة في الخلق فهي لا تتصف بصفات الأزلي والأبدي وإنما هي محتاجة لظروف عديدة وممكنة فإذا ظهرت أو انعدمت ضمن الاطار الخاص بها نسميها صدفة وجدت دون حضور ذهني أي يتعادل الوجود والعدم بالنسبة لها ككفتي الميزان أما المصدر الأول للوجود في العقيدة الإلهية ليس هكذا بل أن المصدر واجب الوجود وضروري الوجود وممنوع العدم لا إنه ممكن الوجود وممكن العدم كالصدفة .

٣ ـ نظرية الوجود تبحث عن علة الوجود دون أن تعتني بعلة العدم ويظهر من بعض المؤمنين بذلك ـ أن المادة لا تُفنىٰ ولا تُستحدث من العدم وإنما المركبات حين تحولاتها تفقد كثيراً من خصائصها فالعدم هذا يقرّه العلم ويقرّ كذلك بلا بُدّية السبب في الانعدام ، فالماركسيون الذين يدّعون أزلية المادة يقرّون في نفس الوقت أنّها تتغير وتتحول من حالة لأخرىٰ وأنها لتفقد بعض العناصر من مركباتها بالتحول أو تهرب منها بعض العناصر أثناء التفاعلات الكيمياوية . والعلم يقر ذلك بالاتفاق فإن هذه التغيرات والتقلبات ليست من صفات الأزلي الأبدي فحينما تستسلم النظرية المادية أمام العلم الذي يذهب إلىٰ أن للوجود بداية وللمادة بداية وأنها تتحول من حالة لاخرىٰ وتتجدد وتنعدم وتُفنىٰ وتُستحدث ، نرىٰ أصحابها يشنّون حملة شعواء علىٰ العقيدة الدينية نتيجة رد الفعل السلبي من قرارات العلم وعلىٰ نفس المستوىٰ والأسلوب ، بينما العقيدة

الـدينية تقـرّ بأن الصفـات الأزلية والأبـدية المتفق عليهـا لا تناسب المـادة المتغيرة حسب ما يقرّه العلم بل تناسب ما يصفه الدينيون بالخالق المدبر الـذي لا يكـون مـادة ولا يحتـاج لعلة ولا يفتقـر لسبب بمـا أن ذلـك من ضرورات المادة الفانية .

(ب) أما نظرية الإمكان الوجودي :

وكما مرّ في تقسيم الوجودات إما أن يكون واجب الوجود لـذاته وهـو لا يحتاج إلىٰ علة في وجوده لذلك فهو واجب الوجـود وإما ممتنـع الوجـود لذاتـه وهـو لا يحتـاج في عـدمـه إلىٰ علة وإمـا ممكن الـوجـود والعـدم فيحتـاج في وجـوده إلىٰ علة ويحتاج في عـدمه إلىٰ علة كـذلك فعـلاقة الإرتبـاط بين العلة والمعلول (وجوداً أو عدماً) يرجـع إلىٰ الإمكان الـوجودي فكـل ممكن الوجـود يخضـع للعلة في إيجاده أو في عدمه وبمـا أن المادة ممكنـة الـوجـود فـلا هي واجبة الوجود لذاتهـا ولا ممتنعة الـوجود لـذاتها كمـا مر معنـا الحديث المؤيـد علمياً .

فإذن إن المادة تحتاج إلىٰ علة أو سبب للإيجاد كما تحتاج إلىٰ علة أو سبب للفناء والعدم .

وحيث أن الله سبحانه ليس ممكن الوجود فهو واجب الوجـود لذاتـه كما قرر الإلهيون فـلا يحتاج إلىٰ علة لإيجـاده . فإذن نسـتطيع أن نخـرج من هذا البحث بأن الوجود العام لهذا الكون والكـائنات يحتـاج إلى مصدر أو سبب أو علة للإيجاد ولا بد أن يكون هـذا المصدر متصفـاً بصفات الأزلي الأبـدي فهو واجب الوجود بذاته وإلا سنصل إلىٰ التسلسل والدور الباطلَيْن عقلاً .

فلذا نـرىٰ أن الماديين يـطلقون علىٰ المـادة صفات الأزلي وأنهـا واجبة الوجود لذاتها وقد تبين أن العلم يعترض علىٰ ذلك وان المادة غير متصفة بصفات الأزلي وبمـا أن افتراض هـذا الأزلي والمصدر الـرئيس للوجود هـو بين أمرين لا ثـالث لهما إما المادة وإمـا الله سبحـانـه كمـا يـذهب الإلهيـون . وبمـا أن المـادة والوجـود الطبيعـي في الحيـاة لا تخضـع لصفـات الأزل فـإن صفـات

الأزل هذه تنطبق علىٰ القدرة الكبرىٰ التي هي الله سبحانه .

غاية المسألة ـ إننا كبشر ـ لا يمكننا أن نتصور وجوداً لواجب الوجود بذاته تصوراً مادياً قائماً كرؤيتنا للمواد الأخرىٰ ـ ولا يمكننا أن نتصور وجوداً دون سبب وعلة وذلك لأننا ألفنا الحياة القائمة علىٰ العلة والمعلول مباشرة فتصورنا أن هذا قانون لا يمكن تجاوزه . والحال أن الأدلة العقلية والعلمية تشير إلىٰ ضرورة واجب الوجود والذي أفاض علىٰ الكون كله هذا الوجود الحي . فهو الموجود دون علة سابقة بل هو علة العلل في الوجود .

**الشبهة الثالثة :**

إن من طبيعة الأشياء والوجودات التي نشاهدها أمامنا موجودة وفاعلة في الحياة بطبيعتها أوجدت نفسها بنفسها والوجود أوجد نفسه بنفسه من دون الحاجة إلىٰ سبب أو علة فلماذا نبحث بجهد عن علة الوجود الأولىٰ ما دام الأمر لا يحتاج لهذا التعب فالوجود بطبيعته موجود وله قوانينه الطبيعية من الولادة حتىٰ الممات .

**وللجواب نقول** : سبق أن قررنا وتحدثنا في الإجابة علىٰ الشبهة الثانية نلاحظ أن منطوق هذه الشبهة يساعد ما قررناه هناك حيث يقول المنطوق منذ الولادة وحتىٰ الممات أي من الوجود المسبوق بالعدم إلىٰ العدم والفناء المسبوق بالوجود وقلنا لا زال الوجود يُحكم بالإمكان فهو محتاج إلىٰ المصدر الأول في الإيجاد كما يحتاج إلىٰ علة للإبقاء وعلة للإفناء أيضاً .

ونحن نعتقد أن الوجود هذا سبقه عدم فإذن لهذه المادة والطبيعة بداية محددة فإذن هذا الممكن بحاجة إلىٰ علة وسبب للإيجاد وسبق أن أوضحنا في احتمالات العلة الموجدة للأشياء وقلنا في إحدىٰ الاحتمالات أن الوجود أوجد نفسه والطبيعة أوجدت نفسها والإنسان أوجد نفسه ، فالطبيعة الكونية هي التي أوجدت نفسها بنفسها ووضعت قوانينها بنفسها وعالجنا الموضوع في مكانه . وقررنا أن العلة الأصلية يجب أن تتصف بصفات الأزلي الأبدي وهذه الصفات لا تنطبق علىٰ المادة والطبيعة

بـأية صـورة من الصـور فهي فقيرة ومحتـاجـة إلىٰ المـوجـد أي العلة البـاعثـة والمسببة للإيجـاد . قيل لـلإمام الـرضا (ع): يا بن رسـول الله مـا الدليـل علىٰ حدوث العالم ؟.فقال (ع) : (إنك لم تكن ثم كنت وقـد علمت أنك لم تكـوِّن نفسك ولا كونك من هو مثلك . . )[٣٢] .

**الشبهــة الرابعــة :**

إنطلاقاً من مفهومي الزمان والمكان فأين الله ومتىٰ وجد ؟ .

وللجواب علىٰ هذه الشبهة نؤكد مراجعة الشبهـات الماضيـة التي تعطي الـرؤية الحقيقيـة للإيمـان بالله سبحـانه وحينمـا نقـرّ بصفـات الأزلي والأبـدي يجب أن نبتعد عن الأمور المألوفـة والمتكررة أمـامنا في الحيـاة والمطبّقـة في العالم المادي أمـا الواجب الـوجود لـذاته والأزلي الأبـدي لا يحيطه زمـان ولا يشغله مكان بل هو الذي يحيط بكل الأزمنة وبكـل الأمكنة فهـو ليس محتاجـاً لصفتي الزمان والمكان وصفة الاحتياج للظرف الزمـاني والمكاني تنـطبق علىٰ العالم المادي الذي نحسه ونلمسه . أي الحادث وهذا غير الأزلي كما هو المعروف .

والمشكلة أن العقـل البشري لا يستـطيع أن يتصـور هـذه المسـألـة لأن تصوراتنا هي انعكاسات الحياة المادية فبشكل طبيعي نقيس الأمـور علىٰ ضوء القـوانين الماديـة التي ألفناهـا وهذا ممـا يضـطرنـا أن نقـرّب الفكـرة بـالأمثلة الشائعة اليوم كالجـاذبية الأرضيـة أو جاذبيـة الكواكب في الفضـاء والكهربـائية والمغنـاطيسية وعـالم الأرواح وصفات الصـدق والكـرم كـل ذلـك هـل يحـده مكان أو يقيسه زمن ـ طبعاً ـ هذه الأمثلة لتقـريب الفكرة فقط والـذي نريـد أن نقوله أن هنالك وجـودات خارجـة عن حدود الـزمان والمكـان وواجب الوجـود لـذاته لا يخضـع لهذه الحـدود إطلاقـاً وفي الروايـة المارة الـذكـر عن الإمـام الـرضا (ع) حينمـا يسئل كيف الله وأين هـو ؟ فقـال (ع) : (. . هـوَ أيّن الأين بلا أين وكيّف الكيف بلا كيف فلا يعرف بـالكيفوفيّـة ولا بالأينـونيّة ولا يـدرك بحـاسـة ولا يقاس بشيء . . ) فـلمـا سـألـه متىٰ كـان أجـاب الإمـام (ع) : (أخبرني متىٰ لم يكن فأخبـرك متىٰ كان) ، وفي كـلام أميـر المؤمنين (ع) :

(. . ظاهر في غيب وغائب في ظهور لا تجنه البطون عن الظهور ولا يقطعه الظهور عن البطون قَرُبَ فَنَأَىٰ وعلا فَدَنا وظهر فبطن فعلن. .)[٣٣] وقال (ع) أيضاً : (. . ومن قال فيمَ فقدْ ضمنه ومن قال عَلامَ فقد أخلىٰ منه . .) .

وللدعابة أخبرني أحد الشباب بأن مَلَكَ الموت كيف يأتي لقبض روحي ومن أين يأتي ومتى يأتي ؟ وبدأ يحلّل المسألة ويؤكد بأن الجواب علىٰ كيف يأتي ومتىٰ يأتي فلا يستطيع تحديده لأنه خارج عن إرادتي أما من أين يأتي ؟ فأكّد أن الملك (عزرائيل) يطبق (فأتوا البيوت من أبوابها) فسأغلق الأبواب والشبابيك وامنع مَلَكَ الموت من الدخول عليَّ وبالتالي أمنعه من قبض روحي وبهذا سأسلم منه وأعيش فترة أطول . هذا الفتىٰ ينظر للأمر بعين ساذجة وبريئة فقلت له قول الله سبحانه :

﴿أينما تكونوا يدركْكم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ .

[سورة النساء ؛ ٤ الآية : ٧٨] .

ومَلَكُ الموت هذا إن كان ضمن مقاييسنا المادية بالفعل يمكن حصره ومنعه من قبض الأرواح ولكن الأمر غير ما نتصور نحن فهو لا يخضع لهذه القوانين المألوفة لدينا .

وللجواب علىٰ متىٰ كان؟ يجيب الإمام الباقر (ع) : (إنما يُقال متىٰ كان لما لم يكن فأما ما كان فلا يُقال متىٰ كان ، كان قَبلَ القبل بلا قبل وبعدَ البعد بلا بعد)[٣٤] .

وهكذا نتوصل إلىٰ أن الزمان والمكان من مختصات الحوادث أما الأزلي فلا يخضع لمقاييسهما .

## الشبهة الخامسة :

إن من الأحاديث العقائدية التي ندرسها ونسمعها ونتلقاها تشاع فكرة مفادها : أن الإيمان بالتوحيد يَطْرد القلق والاضطراب من النفس ويضفي جوّاً هادئاً في الحياة ونحن لا نرىٰ الموحدّين هكذا والشرائع السماوية أصبحت هي التي

تفرّق الناس وتصنفهم إلىٰ أقسام ربما تتناحر فيما بينها بالرغم من التقائها بالإيمان بالله عزّ وجلّ فنرىٰ الناس المؤمنين يتخبطون في ألوان الشقاء والبلاء والظلم فلا نرىٰ هذا التغير الاصلاحي والسلوكي المزعوم منعكساً من عقيدة التوحيد علىٰ الإنسان والمجتمع وكما لانلمس الحكمة من الشرائع السماوية ولا نلمس الحكمة في الخلق في بعض الأحيان فما هي فوائد الشرائع وما هي فائدة هذه المخلوقات الضارة ؟ التي قد تهدد الحياة أحياناً .

للإجابة علىٰ هذه الشبهة يمكن توضيح بعض النقاط الواردة في الشبهة وبمعنىٰ آخر يمكن تفكيك بعض المفاهيم المنطوية داخل منطوق الشبهة وكما يبدو هنالك نوع من الخلط بين ما هو نازل من السماء بعنوان الكتب المقدسة والفكر الديني لغرض هداية الناس وما بين حالة الناس أنفسهم ويجب أن نعلم أن الكتب المقدسة غير القرآن الكريم قد حرّفت فكتب الديانات السماوية لم تعد تمثل رأي الخالق المدبر بما فيها من تحريف وتبديل وأهواء وهي بالنتيجة نسخت بالرسالة الخاتمة وهي القرآن الكريم أي الدين الإسلامي يقول سبحانه في القرآن العظيم :

**﴿ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبلَ منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ .**

[سورة آل عمران ؛ ٣ الآية : ٨٥] .

ونأتي إلىٰ المسلمين ففي الواقع نحن لم نطبق علىٰ أنفسنا القرآن الكريم بالشكل الكامل وإنما أغلب المسلمين جزّأ الإسلام فأخذ ما ينفعه في نواحي حياته الشخصية والاجتماعية وترك ما يكلّفه من واجبات ومسؤوليات وخاصة ما تجسد قيم التضحية والإباء .

هذه الصورة العامة لحياة المسلمين فقد قال عز وجل :

**﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلىٰ أشدّ**

العذاب . . ﴾ .

[سورة البقرة ؛ ٢ الآية : ٨٥] .

ولا ننكر وجود طبقة واعية مؤمنة تطبق على نفسها القرآن والإسلام، إنما كلامي على الحالة العامة والصورة العامة للمسلمين ، وعلى ما نرى من التطبيق الجزئي للإسلام نلاحظ أن المسلمين أفضل من غيرهم من الناحية النفسية فنحن نجني ثمار هذا التطبيق الجزئي للإسلام فمن الناحية النفسية تؤكد لنا الاحصائيات أن حياة المسلمين قليلة القلق والإضطراب وعدم الثبات والانتحار قياساً بحياة غير المسلمين حيث يكثر فيها القلق والانتحار .

والدليل : إن أطباء النفس ودراسات الأمراض النفسية نراها بكثرة هائلة في الدول الأوروبية على عكس الشعوب الإسلامية وهي على علّاتها، وأما لو كان التطبيق الكامل للشريعة الإسلامية في حياتنا لعشنا في قمة الاستقرار والحضارة والعدالة والازدهار فالسبب الرئيس إذن هو نحن المسلمين المطبقين للشريعة فالحكمة الحقيقية من رسالة الإسلام هي تهذيب النفس الإنسانية وإقامة العدل الإلهي في المجتمع ليسود الإخاء والحب والسلام والكل يعرف كيف كان المجتمع الجاهلي متناحراً وكيف صار في عهد الرسالة الأول هذه حكمة الشريعة إما حكمة المخلوقات الضارة ـ نحن قد نعتبرها ضارة ويمكن أن يؤيدنا العرف لدى الكثيرين من أبناء الأرض ولكن من وجهة نظر أُخرى نحن لا ندريها قد تكون نافعة ومن قال إن الحكمة تكون دائماً في النفع والفوائد فهناك كثير من الحيوانات نعتبرها ضارة وسامة وهالكة وفي بعض الأحيان هي التي تنقذ الإنسان من أخطار محدقة والكشوفات العلمية تثبت لنا ذلك والبشرية عاجزة عن معرفة الأُمور كلها وبمرور الزمن نحصل على اكتشافات عظيمة وجبارة كنا نجهلها سابقاً . وهنالك أمثلة كثيرة في هذا الصدد ففي كتاب (الإسلام يتحدى) مجموعة من هذه الأمثلة منها :

طريقة الحصول على (النتروجين المركب) الذي بواسطته تستطيع النباتات أن تقوم بعملية صنع الغذاء والطريقة هذه تعتمد على الجراثيم التي

تعيش في جذور النباتات بباطن الأرض فهي تأخذ النتروجين من الجو وتحوله إلىٰ مركب النتروجين ثم تستفيد منه النباتات وطريقة أخرىٰ بواسطة الرعد وهو الصوت الحاصل في احتكاكات السحب فيمتزج الاوكسجين مع النتروجين ويحصل (المركب) وبالامطار ينزل المركب إلىٰ جوف التربة ، وهكذا اكتشف العلم الحديث حكمة الجراثيم والرعد ولربما لم يكتشف كل الحكمة . فالمشكلة الحقيقية إن الإنسان يريد أن يعرف كل شيء ولكن العقل الإنساني قاصر عن بلوغ الكمال حيث الكمال لله سبحانه وحده .

**الشبهة السادسة :**

ما هي المواد الأولية لهذا الوجود الطبيعي في الكون حيث استطاع القادر بهندسة دقيقة أن يركبها تركيبات مختلفة فظهرت كما نرىٰ ، خصوصاً حينما نؤمن بأن للمادة أصل ثابت لا يتغير وهو جوهر المواد فهل دوره سبحانه تركيب وهندسة المواد أم الخلق المبدع ؟.فإن كان التركيب فما هي المواد الأولية وهل يمكن أن تتصف بالأزل ؟ وإن كان الإبداع فهل يعقل أن الكون وجد بعد عدم تام ؟ .

للإجابة نعود لنقول ما قررناه سابقاً أنّ الإنسان عقله قاصر عن التوصل لمعرفة الإبداع التام لأنه لم يألف ذلك وهنا أتذكر طريفة بالمناسبة حيث كنا أطفالاً كان يتحدث لنا الكبار بأن آباءهم المرحومين لو كان يخبرهم أحد بانه في المستقبل من الزمان يستطيع الإنسان أن ينتقل من دولة لاخرىٰ عبر وسائط النقل الحديث وكأنها الغرف المنزلية من دون استعمال الحيوانات لما صدّقونا ولضحكوا علينا بينما نرىٰ اليوم أنّ الغرف هذه سواء كانت القطارات أو السيارات أو الطائرات فإنها تسير دون حيوانات أقول في ذلك الوقت وقبل التكنولوجية الحديثة من كان يصدق ؟ .

وشخصياً لديّ طريفة مشابهة لتلك وهي أنّ أحد أقربائنا من كبار السن والمعمّرين كان يتحدث مرة بأن أول سيارة دخلت مدينة كربلاء مع وفد حكومي ملكي لزيارة الإمام الحسين (ع) فقال : خرجنا لمسافة بعيدة علىٰ الخيول

لاستقبال الوفد وإذا بنا نرىٰ حيواناً جديداً في تركيبه يمشي علىٰ أقدام دائرية واسعة (الاطارات) وللحيوان صوت غريب للتنبيه ـ لم نألفه ـ قال أحد الحضور لعن الله الانجليز حتىٰ حيواناتهم ليست عادية ـ يقول وقفتْ السيارة ونزل الوفد ففي البداية انهزمنا وانهزمت معنا خيولنا ولكن بعد قليل اقتربنا شيئاً فشيئاً حتىٰ وصلنا إلىٰ الحيوان الجديد فبدأنا نبحث عن فم هذا الحيوان ومخرجه وكيف يرىٰ طريقه وما هو نوع طعامه وما شابه هذه التساؤلات . . لماذا ؟ لأنهم لم يألفوا هذا الأمر وبمرور الزمن أصبح مألوفاً واعتيادياً لذلك حينما نقول أن الله أبدع الكون من لا شيء فهذه القدرة الكبرىٰ التي تميز الله سبحانه عن الآخرين فبقدرته أوجد الأشياء أما نحن فلا نألف هذه الصناعة المبدعة لذا قال الإمام علي (ع) : (. . كائن لا عن حدث موجود لا عن عدم . . ) في وصف الله تعالىٰ .

فالكون بما هو حادث وليس أزلياً كما ثبت معنا سابقاً فهو إما وُجد صدفة وأثبتنا بطلان ذلك وإما أوجده سبب مبدع وهو سبحانه . أما نحن فلم نألف هذا الإبداع لأننا لم نعاصره ولم نألفه وكثيراً من الأُمور نعترف بها دون معاصرتها أو مشاهدتها . أما كيف نؤمن بأن للمادة أصل ثابت دون تغيير وقد أثبتنا تحول المادة إلىٰ طاقة والطاقة إلىٰ مادة والكل إلىٰ فناء وعدم ، هذا الأصل الثابت نسبياً متغير ومتحول ولا بد لهذا المتغير والمتحول أي الحادث من مبدع أزلي وقد أوضحنا ذلك في البحوث السابقة .

**الشبهة السابعة :**

المؤمن بالله سبحانه كيف يمكنه أن يصوِّر لنا كنه الله وماهيته في ذهنه وهل يمكنه أن ينقل تصوره لماهية الله إلىٰ أذهاننا ؟ .

والإجابة واضحة فقد مرت بعض الأُمور في هذا الصدد سابقاً أن العقل الإنساني لا يستطيع أن يعرف كنه كل الموجودات في الكون ﴿وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ فالمغناطيسية والجاذبية والروح الإنسانية كل هذه

الأمور لا يعرف الإنسان كنهها وماهيتها بالرغم من أنهـا حادثـة ومخلوقة فكيف يستطيع أن يحيط بقادر عظيم جبـار فالمحـدود لا يحيط اللامحـدود وهذا ممـا يذكرنا بحديث الإمام الصادق (ع) فإن قومـاً تكلموا في ذات الله فتـاهوا ـ وقـد قال الرسول الأكرم (ص) في عـدة أحاديث نـذكر منهـا قولـه (ص) : «تفكّروا في آلاء الله ولا تفكـروا في الله ، تفكـروا في الخلق ولا تفكـروا في الخـالق فـإنكم لا تقـدرون قـدره ، تفكـروا في كـل شيءٍ ولا تفـكـروا في ذات الله»(٣٥) .

وعلىٰ هذا يكفي للإنسـان المؤمن أن يرىٰ ربّـه وخالقـه بعقله عبر آثـاره الحكيمة فالله سبحانه هـو القدرة المـطلقة التي أبـدعت الخلق ودبرت الكـون وسيّـرت القوانين فكلهـا مطويـات بيمينه ﴿وما قـدروا الله حقَّ قـدرِهِ والأرضُ جميعـاً قبضتُهُ يـوم القيامـةِ والسمٰواتُ مـطويّات بيمينـه سبحانـه وتعـالىٰ عمّـا يشركون﴾ .

[سورة الزمر ؛ ٣٩ الآية : ٦٧] .

بهـذا القدر يستـطيع المؤمن أن يتـوجه إلىٰ خـالقه بـالـطاعـة والامتثـال ويـزداد إيمانـاً كلّما تـدبّر في آلاء الله وفي الخلق كمـا أراد الـرسـول الأعـظم (ص) ذلك .

# (٧)
# صفات «اللّه عزّ وجلّ»

**والكلام في هذا البحث يتضمن :**

( أ ) الصفات الذاتية الثبوتية .

(ب) الصفات السلبيـــة .

(جـ) صفات أفعالـــه .

وكما مرّ معنا إنه يستحيل على العقل الرشيد أن يدرك كنه الله سبحانه وماهيته لأن المحدود يستحيل عليه إحاطة اللامحدود والإنسان الحادث يستحيل عليه أن يحيط الله الأزلي الأبدي وقد قال أمير المؤمنين علي (ع) : (فكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله). وبالفعل إننا لا نستطيع أن نحيط إحاطةً كليةً حتىٰ بالمحسوسات المادية فترانا نعجز عن إدراكها بشكلٍ معين فكيف نستطيع أن نحيط اللامحدود واللامحسوس . . وهكذا حينما تقصُرُ عقولنا المحدودة عن إدراك كنه وماهية الله سبحانه فهي ـ أيضاً ـ تقصر عن إدراك ماهية صفاته وواقعها . إنما كيف نَعْرفُه سبحانه ونعْرفُ صفاته فذلك من خلال آثاره فيتبين من آثاره إنه الخالق المبدع القادر العالم المدرك الحي الباقي الصادق العادل . . ويقسم المفكرون الاسلاميون صفات الله إلىٰ الأقسام الثلاثة أعلاه .

فالصفات الذاتية الثبوتية هي عين ذاته فهو قادر بالذات وعالم بالذات وحيّ بالذات أي إنه ذاته وصفته شيء واحد لأنه لو قلنا بأن صفاته ليست

عين ذاته لوقعنا في خطإٍ لا يغتفر والنتيجة تكون إما أنها طارئة على ذاته المقدسة زيدت عليه فاذن صارت ذاته مركبة وهذا خلاف ما اتفقنا عليه بأنه سبحانه أزلي بسيط حيث أن المركب حادث والحادث مخلوق وإلىٰ آخر ما مر سلفاً .

وإما أن تكون صفاته قديمة بقدمه سبحانه فاذن سيكون هذا القديم (الصفات) شريكاً للقديم الأول (عين الذات) وهذا مما يخالف أصل الفرض والاتفاق الماضيين ، ولا بأس أن نوضح الفكرتين قليلاً ممّا يلائم هذه الرسالة العقائدية فلو سلّمنا جدلاً إلىٰ أن صفاته طارئة علىٰ الذات فستكون حادثة حيث طرأت علىٰ الذات فلذا يستلزم وجود المحدث فإن كان الله هو المحدث لزم أن تكون صفاته مكتسبة فيما بعد أي أنه لم يكن عالماً فصار عالماً بعد أن أحدث العلم أليس كذلك ؟ وإن كان المحدث غير الله فإما هو مساوٍ له فيكون شريكاً لله وإما أن يكون أقوىٰ منه فهو الله الحقيقي والمبدع الحقيقي لا هذا الإله الوهمي الضعيف الذي يتبين ضعفه وكنا مخدوعين به حيث وضعناه في موضع الخالق المبدع القدير .

وأما لو تماشينا مع الفرض الثاني في أن صفاته قديمة بقدم ذاته المقدسة فسنصل إلىٰ نتيجة مشابهة لما سبق حيث ننتهي إلىٰ الإيمان بتعدد القدماء بتعدد الأزليين أي بتعدد الألهة وبمعنىٰ آخر سنكتشف شركاء لله سبحانه وها هنا يقول الإمام علي (ع) في خطبته الرائعة : (أوّلُ الدين معرفته ، وكمالُ معرفته التصديق به ، وكمالُ التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الاخلاص له ، وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه ، لشهادة كل صفة إنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف إنه غير الصفة فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه (أي جعل له قريناً شريكاً) ومن قرنه فقد ثنّاه ومن ثنّاه فقد جزّاه ومن جزّاه فقد جهله ومن جهله فقد أشار إليه ومن أشار إليه فقد حدّه ومن حدّه فقد عدّه ومن قال فيم فقد ضمّنه ومن قال علام فقد أخلىٰ منه ، كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم . . . )[٣٦] .

فإذن في مسألة صفات الذات نخرج بإيمان تام بأنها عين ذاته

المقدسة فهو عالم من حيث أنه حيّ وهو حيّ من حيث أنه عالم . . وهو قدير من حيث أنه حكيم وهو حكيم من حيث إنه قدير وهكذا بقية صفاته . أما لو أدركنا أن مفهوم علمه يغاير مفهوم حياته مثلاً فهذا الحي يصبر مخلوقاً آخر وليس عين ذاته وبالنتيجة ستكون ذاته مركبة من عدة صفات وذلك لأن مفهوم العلم محدود ومؤطر ومستقل عن مفهوم القدرة والحياة وهكذا فسنقف على عدة محاور تشكل دوائر مستقلة بعضها عن بعض كل محور بمثابة الصفة المستقلة عن أختها . بينما كل هذه الصفات مجتمعة تجسد صفات الله الثبوتية والله سبحانه منزّه عن الحدود والأطر كما أسلفنا في صفات الأزلي . إذن فالعلم ذاته ولا معلوم والقدرة ذاته ولا مقدور فلا يكون العلم والقدرة ذاتاً لله تعالى مع تمايز مفهوميهما بحدود معينة والمفروض أن يكون ذلك العلم وتلك القدرة كلاهما حقيقة واحدة لا غير وهكذا بقية الصفات الثبوتية وإنها تعبير عن حقيقة واحدة . وهكذا نقرأ فيما ورد بالسنة الشريفة «وأسماؤه تعبير» فالذات المقدسة حقيقة واحدة نسميها بأسماء مختلفة فأسماؤه تعبير فلا تمايز ولا اختلاف ولا حدود بينها وإنما تعابير . . فهو القادر والعالم والحي والقيوم والمختار ولا ندّ له ولا حدّ له أي بمعنى لا أول له ولا آخر له بما يدل على أنه قبل كل شيء كان ومع كل شيء يكون ومع كل شيء كائن وهنا يكمن السر في رفع الفارق بين الاسم والصفة فقد سئل الإمام الصادق (ع) عن الاسم قال : (صفة لموصوف) . إذن لا فرق بين الاسماء والصفات لأن الاسم نفس الصفة بالنسبة للذات المقدسة والاسم عندنا غير المسمى ونعرف ذلك بالوجدان فالاسم شيء والمسمى شيء آخر أما في حديثنا عن الله عز وجل وصفاته واسمائه لا نميّز بين هذه الأمور كلها اطلاقاً فالاسماء والصفات تعبيران عن الذات المقدسة لا غير لأنه في الاحتمال الآخر (أياً كانت سعتهُ أو ضيقه) فستكون المفاهيم مخلوقة طارئة عليه أو شريكة معه تعالى الله عن ذلك وعلى هذا قال الإمام الصادق (ع) : (من عبد الاسم فقد كفر ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك فمن عبد المعنى بايقاع الاسماء التي وصف الله سبحانه وتعالى نفسه فهو شيعة آل البيت (ع) وجاء في الأنوار النعمانية عن الصادق

(ع) : (كل ما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم ولعلّ النمل الصغار تتوهم أن لله تعالىٰ زبانيتين فإن ذلك كما لها وتتوهم أن عدمها نقصان لمن لا يتصف بهما وهكذا حال العقلاء فيما يصفون الله تعالىٰ به)[٣٧] .

وقبل أن نعود إلىٰ حديث الصفات التي يقسمها المفكرون الإسلاميون وعلماء الكلام كما ذكرنا ذلك في أول الحديث عن الصفات لا بد من تسجيل الملاحظة التالية :

في الحقيقة إن هذه التقسيمات ما هي إلاّ تقسيمات استيضاحية أراد المفكرون أن يوضحوا كمال الله عز وجل بطريقة مستساغة وملائمة للعقل الإنساني وبما أن اللغة هي الأُخرىٰ قاصرة عن التصوير المتكامل لصفاته تعالىٰ فلا بد أن نضع فوارق ذهنية بين هذه الصفات التي نطلقها علىٰ الذات المقدسة والتي قد تطلق علىٰ الإنسان نفسه فنقول محمد عالم ونفس كلمة عالم نطلقها علىٰ الله العظيم فنقول الله عالم ولكن هل نقصد نفس المعنىٰ من اللفظ المشترك؟ بالتأكيد لا ، فهي صفة واحدة ظاهراً ولكنها مختلفة واقعاً من حيث الحجم والاستيعاب ولكن اللوم يقع علىٰ اللغة التي تعجز أحياناً عن بيان هذه الدقة . ومن هنا نكرر ما قلناه سابقاً (إن الذي خلقنا ليس مثلنا) ففي الواقع إن الأنبياء والأوصياء و رسالات السماء ما استطاعت أن تبين أكثر من هذا فقد جاء في القرآن الكريم :

﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ .

[سورة الشورىٰ ؛ ٤٢ الآية : ١١] .

إذن فإذا أردنا أن نعرِفه كمال المعرفة يجب أن نعرِف أنفسنا تمام المعرفة وإذا عرفنا أنفسنا وصفاتنا وقابلياتنا سنعرف ذات الله وصفاته لأن ذات الله هي غير ذواتنا وصفاته غير صفاتنا حتىٰ لو كانت الألفاظ مشتركة في اللغة . وبيان الفروق بين المعنيّين شيء نعتقده ونؤمن به ، فعلىٰ هذا لو عرفنا أنفسنا تماماً فكل ما كان فينا ليس في الله لأنه ليس مثلنا وقد جاء في الأثر الشريف عن الإمام

علي (ع) : (من عرف نفسه فقد عرف ربه)[٣٨] .

وهكـذا فنحن محـدودون بـزمـان ومكـان وبقابليـات محـدودة بينمـا الله سبحـانـه ليس لـه حـد وهـذا التعبيـر أدق وابلغ من قـولنـا (لا نهـايـة لله) لأن اللانهاية مفهوم يختلف عن مفهوم ليس له حد فاللانهاية لأمرٍ يمكن أن يكون له بداية كالعدد له بداية وليس له نهاية بينما اللاّحد ليس له بداية ولا نهاية . ونحن لنا بداية أولىٰ بينما سبحـانه ليس لـه بدايـة ولنا آخِـر وليس له آخِـر ولنا ظاهر فليس له ظاهر ولنا باطن فليس له باطن . . .

وحينما نصفه سبحانه بـالأول نعني قبل كـل شيء لا بمعنىٰ البدايـة وهو الظاهر يعني فوق كل شيء وقـد قال الإمـام علي (ع) ـ كما مـر في الصفحات السـابقة ـ : (ظـاهر في غيب وغـائب في ظهور . . . قَرُبَ فنأىٰ وعـلا فَدَنـا وظهـر فبطن وبـطن فعلن . . .) فاللغـة لا بدّ أن تخضع بشكـل من الأشكـال لمـا يدور في أذهـاننا من المعـاني المجردة والـدقيقة فـلا نقـول أن الله واحـد ونقصـد بذلـك الواحـد الذي يليـه رقم الاثنين ورقم الثلاثـة وإنما نقصـد إنـه أحد فرد صمد فالله سبحانه لا يعد فهو ليس واحـداً بذلك المعنىٰ بل إنه واحد لا نظير له ولا ضد له ولا ندّ لـه ولا مثيل لـه ولا شبيه لـه والآن لماذا كـل هذا التـوضيح الـذي لا بد منه؟ ولما كـانت المسألـة لغَويـة فأين وجـه المسألـة من المعرفة الحقيقة . والجواب لأننـا عادة نقيس الأُمـور علىٰ أنفسنا ـ هـذه حدود معرفتنا ـ فنحن لنـا ضد ونـد ومثيل وأول وآخـر وحدود معينـة أُخرىٰ ونقـول : واحد واثنين وثلاثة . .

وحينمـا نريـد أن نعرف الله ونصفـه بصفاتٍ ألفـاظها مجـردة لا توصلنـا إلىٰ عمق المعرفة وغاية التـوحيد إلا بـالتوضيـح والفهم وهنا تـطل علينا سـورة التـوحيد لتجسـد المعتقـد الحق فقـد قـال سبحـانـه : ﴿**قـل هـو الله أحـد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد**﴾ فهـذه غايـة التوحيد، وصفاته سبحانه ليست كصفاتنا التي تعوّدناها أو عرفنـا مضمونهـا لذا يقـول الإمام علي (ع) ـ كما ذكرنـا آنفاً ـ : (وتمـام توحيـده نفي الصفات عنـه لشهادة كـل صفة

أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثنّاه ومن ثناه فقد جزّأه ومن جزأه فقد جهله ومن جهله فقد أشار إليه ومن أشار إليه فقد حدّه ومن حدّه فقد عدّه ومن قال فيم فقد ضمنه ومن قال علام فقد أخلىٰ منه، كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم ، مع كل شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايله ، فاعل لا بمعنىٰ الحركات والآله، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه . .)[٣٩] .

وهنا نتساءل بحريّة تامة ونقول إن الإمام علي (ع) يحصر غاية التوحيد في نفي الصفات عنه ونحن نقرأ في القرآن الكريم وهو كلام الله سبحانه عن صفات الله فهو سميع وبصير وعليم وحي وقيوم . . وفي الأحاديث الشريفة وروايات الأئمة (ع) نقرأ هذه الصفات الكريمة المنسوبة إلىٰ الله عز وجل فكيف نفسر ذلك ؟ يمكن رفع هذا الاشكال من الأساس حينما نعود إلىٰ الصفات التي قسمها علماء الكلام لندرسها بامعان فيرتفع هذا الاشكال .

## ( أ ) الصفات الذاتية الثبوتية :

وهي صفات الكمال والجمال اللازمة لواجب الوجود وعدّها علماء الكلام ثمانية : القدرة ، العلم ، الحياة ، الإرادة ، الإدراك ، الكلام ، الصدق والسرمدية كما عن المحقق الطوسي في تجريده[٤٠] .

وهكذا تقسم صفاته تعالىٰ إلى نوعين :

( أ ) صفات الذات .
(ب) وصفات الفعل .

والفرق بينهما يتضح في أن الصفات التي لا نستطيع أن نسلبها عن ذات الله يُقال لها صفات الذات فهي الصفات الكمالية لواجب الوجود ونفيها عنه يستوجب نقصاً وهي كما قلنا سابقاً عين ذاته كالقدرة والعلم فعندما نقول : الله قادر وعالم لا نستطيع سلب العلم والقدرة عنه .

وأما الصفات التي نستطيع أن ننسبها إليه ونسلبها عنه يُقال لها (صفات الفعل) فهي ليست ذاتية وإنما حادثة وليست من صفات الكمال ونفيها لا يوجب النقص كما نقول هو الذي خلق ولم يخلق ورزق ولم يرزق وهو الذي يهدي ويضل فهذه الصفات تسمىٰ بصفات الفعل بينما لا نستطيع القول أن الله يعلم ولا يعلم ويقدر ولا يقدر أو يعلم ويجهل ، يقدر ويعجز . وفي مسألة صفات الذات أيضاً إذا قلنا أن الله عالم وقادر وحيّ واستفدنا من العالم مفهوماً غير ما نستفيده من القدرة وغيرما نستفيده من الحياة هذا العلم كذلك سيكون مخلوقاً وليس هو عين ذاته بل لا بد أن يكون مفهوماً واحداً ـ كما مرّ آنفاً ـ لأن مفهوم القدرة محدود بأُطرٍ معينة أي إنها تخلو من كلّ شيء ما سوىٰ العلم وهكذا مفهوم القدرة محدود ومعين ومفهوم الحياة أيضاً . . . وكل محدود مخلوق والله سبحانه منزه عن الحدود ، وإذا قرأنا هذا الحديث القائل (والعلم ذاته ولا معلوم والقدرة ذاته ولا مقدور) لا يكون العلم والقدرة ذاتاً لله مع بقاء تمايز بين مفهوميهما ، فإذن ذلك العلم وتلك القدرة كلاهما حقيقة واحدة أو كلاهما تعبير عن حقيقة واحدة وكما ذكرنا سابقاً (واسماؤه تعبير) فالفرق بين الاسم والصفة يتضح من جواب الإمام الصادق حينما سئل عن الاسم فقال : (صفة لموصوف) . إذن لا فرق بين الاسم والصفة لأن الاسم نفس الصفة والصفة عين الذات .

والآن لنعرف شيئاً عن هذه الصفات التي ذكرناها عن المحقق الطوسي فالصفات الثمانية التي تعتبر هي الصفات الثبوتية ـ ولا يفوتني أن أشير إلىٰ الخلاف البسيط بين العلماء في تحديد هذه الصفات الثمانية فمنهم من يفككها إلىٰ أعداد أخرىٰ كالعلامة الحلي (قدس سره) في كتبه الكلامية يعدّها هكذا ـ القدرة والعلم والحياة والإرادة والكراهية والإدراك وإنه قديم أزلي باق أبدي وأنه متكلم وأنه صادق فزاد اعتبار الكراهية ومنهم من اكتفىٰ بذكر الإرادة فرأىٰ أن الكراهة هي إرادة الترك وأما اعتباره القدم والأزلية والأبدية لأنها تفصيل معنىٰ السرمدية[41]-المهم هذه الصفات الثمانية هي الصفات الثبوتية الذاتية الحقيقية لنقف عليها وقفة سريعة :

١ ـ القدرة : قال سبحانه : ﴿وكان الله علىٰ كل شيءٍ قديراً﴾ .

[سورة الأحزاب ؛ ٣٣ الآية : ٢٧] .

لما وصفنا الله سبحانه بالكمال المطلق فإنه قادر علىٰ كل شيءٍ وجوداً وعدماً حدوثاً وبقاءً أي مستولٍ علىٰ كل شيءٍ فلا يعجزه شيء لأن العجز نقص لا يمكن مع فرض الكمال المطلق له ومثال قدرته ما نرىٰ من الكائنات ونظمها الدقيقة قال الله تعالىٰ :

﴿وما كان الله ليعجزه من شيءٍ في السّمٰوات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً﴾ .

[سورة فاطر ؛ ٣٥ الآية : ٤٤] .

فالله قادر علىٰ كل شيء ولا نؤيد قول المعتزلة أنه لا يقدر علىٰ القبيح والشر لاستلزمه الظلم بل نقول أنه قادر لكنه منزّه عن فعل القبيح وعن الإمام الصادق (ع) : قيل لأمير المؤمنين هل يقدر ربك أن يُدخل الدنيا في بيضةٍ من غير أن تصغر الدنيا وتكبر البيضة ؟ قال : (إن الله تعالىٰ لا ينسب إلىٰ العجز والذي سألتني لا يكون)[٤٢] .

والآن بعد أن عرفنا أنّ ذات الله علة العلل في الإبداع والإيجاد والادامة فهو القادر الخالق المهمين يردنا سؤال وهو هل إنه تعالىٰ علة تامة أم علة ناقصة؟ ـ وقد أشرنا إشارة سريعة لهذا المعنىٰ فيما مضىٰ ـ فإذا قلنا إنه علة ناقصة فالمفروض وجود علل أُخرىٰ غير الله سبحانه ليتحقق الإيجاد فمجموع العلة الناقصة مع العلل الناقصة الأُخرىٰ تتكون العلة التامة . أما إذا قلنا إنه علة تامة فلازم ذلك أن نؤمن بقدم كل المخلوقات والموجودات لأن المعلول لا يفارق العلة التامة أبداً ولا لحظة زمنية واحدة ولازم ذلك أن يكون كل الخلائق قديمة كقدم العلة التامة لأنهما لن يفترقا أبداً . والحال نحن أثبتنا علمياً ويقينياً أننا لم نكن موجودين في القرون الماضية والآن نحن موجودون في هذا القرن من الزمن ونحن لم نوجِد أنفسنا ـ كما قلنا سابقاً ـ فإذن ليس الله علة ناقصة يلزم اشتراك علل أُخرىٰ معه لتحقيق العلة

التامة لإيجاد الخلائق ومن جهة أُخرىٰ ليس الله علة تامة علىٰ هذا المفهوم حيث أننا نعلم حالياً بوجودنا عقلاً ويقيناً وستنتهي حياتنا في المستقبل كما لم نكن شيئاً فيما مضىٰ ثم وجدنا ، فاذن مسألة القدم للخلائق بقدم العلة التامة تنتفي .

فالقول بعلية الله سلبٌ للقدرة عنه وتحقيق المعلول دون اختيار العلة التامة هذا هو سلب القدرة عنه وكل ذلك مردود فالله قادر مريد مختار ليس علة تامة ولا ناقصة بل يفعل ما يريد (وكان الله ولم يكن معه شيء ثم خلق الأشياء) كما ورد في الأثر .

**٢ ـ العلم** : فالله عز وجل محيط بكل الأُمور ولا يخفىٰ عنه شيء ففي قوله تعالى :

**﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو ويعلم ما في البر والبحر﴾** .

[سورة الأنعام ؛ ٦ الآية : ٥٩] .

وقال في آية أُخرىٰ : **﴿يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور﴾** .

[سورة غافر ؛ ٤٠الآية : ١٩] .

فالله سبحانه محيط بكل الأُمور من أسرار وخفايا ونوايا فهو العالم بذواتها وصفاتها وافعالها ووجودها وأسباب زوالها وحياتها فقد قال في محكم كتابه :

**﴿ويعلم ما في السمٰوات وما في الأرض والله على كل شيءٍ قدير﴾** .

[سورة آل عمران ؛ ٣ الآية : ٢٩] .

وقال عز وجل في آيات أُخرىٰ : **﴿والله عليم حكيم﴾** .

[سورة النساء ؛ ٤ الآية : ٢٦] .

**﴿والله بكل شيء عليم﴾** .

[سورة النساء ؛ ٤ الآية : ١٧٦] .

﴿تعلمُ ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسِك إنك أنت علاّمُ الغيوب﴾ .

[سورة المائدة ؛ ٥ الآية : ١١٦] .

﴿وتوكّل علىٰ الله إنه هو السميعُ العليم﴾ .

[سورة الأنفال ؛ ٨ الآية : ٦١] .

فهو يعلم بالأشياء قبل وجودها كعلمه بها بعد وجودها لا تخفىٰ عليه خافية وإنه حكيم في أفعاله وخلقه ومنزّه عن الظلم والقبح والجهل . فقد قال الإمام الرضا (ع) في دعائه : (سبحان من خلق الخلق بقدرته واتقن ما خلق بحكمته ووضع كل شيءٍ منه موضعه بعلمه سبحان من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فهذه عين حكمته حيث جعل للحيوان البرّي أدوات الإهتداء وللحيوان البحري غيرها مما يناسب الوسط المائي والنملة تختلف عن البقرة والطيور تختلف عن الزواحف والأشجار تختلف عن الحيوانات وهكذا وبالفعل (وضع كل شيء منه موضعه بعلمه) فلا ترىٰ جهازاً أو آلة أو جزءاً من أجزاء الحيوان والنبات والإنسان والوجود كله إلاَّ وتتجلىٰ فيه الحكمة الربانية فبعضه يمكن أن نعرفه وبعض لا زال العلم يجهل أثره . وهنا يبرز سؤال بعد مراجعة بعض النصوص الشرعية مثلاً قوله تعالى : ﴿وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ ﴿وقل ربِّ زدني علماً﴾ إن صفة العلم محدودة قابلة للزيادة والنقيصة كيف نطلقها علىٰ الله سبحانه وقد ردّدنا فيما مضىٰ أن الذي خلقنا ليس مثلنا . . فللإجابة علىٰ هذه المسألة نشير إلىٰ أن علم الله ليس كعلمنا محدوداً ومؤطراً فقد جاء في أُصول الكافي عن الإمام الصادق (ع) (لم يزل الله تعالىٰ ربنا والعلم ذاته ولا معلوم والسمع ذاته ولا مسموع والبصر ذاته ولا مبصَر والقدرة ذاتة ولا مقدور فلما أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه علىٰ المعلوم والسمع علىٰ المسموع والبصر علىٰ المبصر والقدرة علىٰ المقدور قيل فلمْ يزل الله متحركاً قال : تعالىٰ الله ، إنّ الحركة صفة محدثة بالفعل قيل فلمْ يزل الله

متكلماً قال : إن الكلام صفة محدثة ليست بأزلية) .

ويقول الإمام الحسين في دعاء عرفه (. . .يا من لا يخفى عليه اغماض الجفون ولالحظ العيون ولا ما استقر في المكنون ولا ما انطوت عليه مضمرات القلوب ألا كلّ ذلك قد أحصاه علمك ووسعه حلمك وتعاليت عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً . .)[٤٣] .

**٣ ـ الحياة** : فهو الحي القيوم القديم الأزلي والباقي إلىٰ الأبد فهو واجب الوجود بذاته وعلته ذاتية فهو حيّ دائم بمعنىٰ أنه عالم قادر حيّ لا يموت فهو الذي أوجد الكائنات وأبدع الوجود ونظامه وبمرور الزمن نرىٰ هذه الوجودات منها ما يتجدد ويتولد ومنها ما يموت وينقرض فهذه الاستمرارية في الإبداع والعطاء هي التي توصلنا إلىٰ العلم والقدرة الإلهية أي إنه حي قيوم علىٰ الوجود . وجاء في عقائد الإمامية الإثنىٰ عشرية (وبعد فرض كون الذات هو الكمال المطلق فمن جزئيات كماله إستناد ما سواه إليه تعالىٰ حدوثاً وبقاءً فهو تعالىٰ حي)[٤٤] .

وسئل الإمام الباقر (ع) عن الله متىٰ كان فقال (ع) : (متىٰ لم يكن حتىٰ أخبرك متىٰ كان) .

**٤ ـ الإرادة** : إنه سبحانه مريد لأفعاله أي تصدر منه أفعاله بالإرادة والاختيار فبإرادته التامة تتخصص أوقات وأمكنة وظروف خلق الأشياء من دون خضوع لأيّةِ اعتبارات خاصة أو تأثيرات معينة . وكذلك بإرادته أمرنا بطاعته لكن لا علىٰ سبيل القسر والحتم وإنما باختيار عبيده :

**﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾** .

[سورة الكهف ؛ ١٨ الآية : ٢٩] .

فأمرنا بالطاعة التامة لأوامره ونهانا عن المعاصي فيكون مريداً للطاعة وكارهاً للمعصية فأمرنا بما يريد ، ونهانا عمّا يكره ، وترك لنا الخيار :

﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾ .

[سورة البقرة ؛ ٢ الآية : ٢٥٣] .

﴿وأنّ الله يهدي من يريد﴾ .

[سورة الحج ؛ ٢٢ الآية : ١٦] .

فـأمْرُهُ بـإرادته للمصلحـة ونهيُهُ عمّـا يكـره لعلمِـه بـالمفسـدة فقـد قـال سبحانه :

﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ .

[سورة البقرة ؛ ٢ الآية : ١٨٥] .

فـإذن تـرك الله سبحـانـه الخيـار لنـا بـإرادتـه : ﴿إن ربّـكَ فعـالٌ لمـا يُريد﴾ .

[سورة هود ؛ ١١ الآية : ١٠٧] .

﴿ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً﴾ .

[سورة الأنعام ؛ ٦ الآية : ١٠٧] .

أي لو أراد الله بمشيئته جبراً الاّ يَشرك به أحد لفعل ولكنه ما أراد ذلك وجـاء في الاحتجـاج عن الـرضـا (ع) : ( إرادة الله تعـالىٰ ومشيئتـه في المعـاصي النهي عنها والسخط لهـا والخذلان عليهـا قـال السـائـل : فلله فيـه قضاء قال : نعم ، مـا من فعل يفعله العبـاد من خير أو شـر إلاّ ولله فيه قضـاء وقـال السـائـل : ما معنىٰ هـذا القضاء قـال : الحكم عليهم بما يستحقـونه من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة)[٤٥] .

فالإرادة علة الإيجاد وهي فعل ذات الله سبحانـه لذلـك نقرأ في القـرآن الكريم :

﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ .

[سورة يس ؛ ٣٦ الآية : ٨٢] .

وقيل للإمام الصادق (ع) لم يزل الله تعالى مريداً فقال : إن المريد لا يكون إلا المراد معه (قديم مثله) لم يزل عالماً قادراً ثم أراد . . .) .

٥ ـ الإدراك : هو علم الله تعالىٰ الخاص والمحيط بجميع المعلومات فهو السميع وهو البصير (يسمع ويبصر) طبعاً دون جوارح للسمع والبصر لأن ذلك يخرجه عن صفات الأزل فإذن لا تخفىٰ عليه خافية بل يسمعها ويراها أي يدركها بدقة فقد قال سبحانه :

**﴿وما تسقط من ورقة إلاَّ يعلمهُا ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾** .

[سورة الأنعام ؛ ٦ الآية : ٥٩] .

**﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾** .

[سورة الشورىٰ ؛ ٤٢ الآية : ١١] .

وقد قال الإمام الحسين (ع) في دعائه يوم عرفة : (. . . عُميت عينٌ لا تراك عليها رقيباً وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً)(٤٦) .

٦ ـ الكلام : إنه تعالىٰ متكلم ـ وكما قلنا سابقاً ـ من دون أن نعكس صفة لجارحة اللسان عليه لأنه يستحيل عليه ذلك . فقد قال سبحانه في محكم كتابه المجيد :

**﴿وكلّم الله موسىٰ تكليماً﴾** .

[سورة النساء ؛ ٤ الآية : ١٦٤] .

فصفة الكلام بالنسبة إليه عز وجل نقصد بها قدرته علىٰ إيجاد الكلام فهو علىٰ كل شيءٍ قدير ولهذا يخلق الحروف والأصوات فيما يشاء من الأجسام لإيصال رسالته كما في خلق الكلام في شجرة طور لتكليم موسىٰ (ع) .

٧ ـ **الصدق** : حينما وصفنا الخالق الكريم بالكمال المطلق فلا تجوز عليه صفة الكذب لأنها من صفات النقص ويستحيل عليه ذلك وحينما يذهب البعض بجواز القبح عليه سبحانه فيجوّزوا عليه الكذب والظلم إنهم لا يخرجون الأمر من الدوائر التالية فإما أنْ يكون سبحانه جاهلاً بهذا القبح والظلم أو أن يكون عالماً به ولكنه مجبور علىٰ فعله وعاجز عن تركه أو أن يكون عالماً به وغير مجبور عليه ولا يحتاج إليه فينحصر في أن يكون فعله تشهياً وعبثاً ولهواً !! . هذه الصور تستحيل علىٰ الله تعالىٰ لأنها تستلزم النقص فيه والله سبحانه محض الكمال فيجب أن نحكم بأنه منزّه عن الظلم وفعل ما هو قبيح(٤٧) وسيأتي الحديث عن العدل الإلهي ونفصل في المسألة أكثر ـ إن شاء الله ـ .

٨ ـ **السرمدية** : فالله سبحانه قديم أزلي لم يُسبق بعلة فقد قال تعالىٰ :

**﴿وما نحن بمسبوقين﴾** .

[سورة المعارج ؛ ٧٠ الآية : ٤١] .

وأنه سبحانه باقٍ أبدي لا يعتريه العدم فهو الأول بلا أول يكون قبله والآخر بلا آخر يكون بعده ألم يكن سبحانه وتعالىٰ واجب الوجود فهو القائم بذاته ، الغني عن غيره ومن صفات الواجب الوجود لذاته أن لا يسبقه عدم ولا يلحقه عدم أيضاً وإلا لصار ممكن الوجود والعلة توجده والعلة تعدمه أي يكون محتاجاً لعلة الإيجاد في وجوده ولعلة العدم في زواله بينما واجب الوجود لذاته مستحيل العلة للإيجاد ومستحيل العلة للعدم . فهو الغني بذاته عمّا سواه ، فهو دائم قيوم أزلي أبدي لا يحدد بزمن البداية ولا يمكن تحديد نهايته فعن أمير المؤمنين (ع) : (إنما يقال متىٰ كان لما لم يكن فأما ما كان فلا يقال متىٰ كان ، كان قبل القبل بلا قبل وبعد البعد بلا بعد) وهكذا مر معنا حديث الإمام الباقر (ع) حينما سئل عن الله سبحانه متىٰ كان فقال (ع) : (متىٰ لم يكن حتىٰ أخبرك متىٰ كان)(٤٨) .

والإمـام الحسين (ع) في دعاء عـرفة يقـول في مقطع منـه : (. . . متىٰ غبت حتىٰ تحتـاج إلىٰ دليل يـدلّ عليـك ومتىٰ بعُـدت حتىٰ تكـون الآثـار هي التي توصل إليك . . .) .

إذن فنحن نعتقـد أن من صفاتـه تعالىٰ الثبـوتية الحقيقيـة الكماليـة التي تسمىٰ بصفات الجمال والكمـال كالعلم والقـدرة والإرادة والحياة . . هي عين ذاته ليست هي صفات زائدة عليها وليس وجودها إلا وجود الذات فقدرته من حيث الـوجود حيـاته وحيـاته قـدرته بـل هـو قـادر من حيث هـو حي وحي من حيث هو قادر لا اثنينيـة في صفاتـه ووجودهـا وهكذا الحـال في سائـر صفاتـه الكمـالية[٤٩] فهي عين ذاتـه وجوداً وعينـاً وفعلاً وتـأثيراً فهـو تعالىٰ ليس كمثله شيء ولا يشبـه خلقه فصفـاته عين ذاتـه غير زائـدة عليها بينمـا صفاتنـا زائـدة علىٰ ذواتنا فكنا معدومين فوجدنا وكنا جاهلين فتعلمنا . . أما لـو كانت صفـاته تعـالىٰ كصفاتنـا زائدة علينـا أو كـانت غيـر ذاتـه لكـان تعـالىٰ محتـاجـاً إليهـا والمحتاج ممكن الحدوث ومركب فلا يكون واجب الوجود كما فـرضناه وتـأتي افتراضات متشعبة علىٰ هذا الفرض مثلاً لو كانت صفاته غير ذاته من سيكون الاقدم وإن كانـا معاً في القـدم فيلزم تعدد القـدماء وهكـذا يجرنـا البحث إلىٰ سلسلة البطلان التي عالجناها في حديثنا عن صفـات الأزلي الأبدي الـذي مرّ معنـا .

وهنـا يقول أميـر المؤمنين : (. . . وكمال الاخـلاص لـه نفي الصفـات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل مـوصوف أنه غير الصفـة فمن وصفه فقد قـرنه ومن قـرنه فقـد ثناه ومن ثنـاه فقد جـزأه ومن جزأه (جعله مركباً) فقد جهله . . .) .

وروىٰ الصـدوق في التوحيـد عن عـروة قال : قلت للرضا (ع) : خلق الله الأشياء بقدرة أم بغير قدرة ، فقـال : (لا يجوز أن يكـون خلق الأشياء بـالقدرة لأنـك إذا قلت خلق الأشيـاء بـالقـدرة فكـأنـك قـد جعلت القـدرة شيئـاً غيـره وجعلتهـا آلة لـه بهـا خلق الأشيـاء وهـذا شـرك وإذا قلت خلق الأشيـاء بقـدرة

فإنما تصفه أنه جعلها باقتدار عليها وقدرة ولكن ليس هو بضعيف ولا عاجز ولا محتاج إلىٰ غيره) .

وعن الباقر (ع) أنه قال : (سميع بصير يسمع بما يبصر ويبصر بما يسمع) .

وأما الصفات الثبوتية الإضافية كالخالقية والرازقية والتقدم والعلية فهي ترجع في حقيقتها إلىٰ صفة واحدة حقيقية وهي القيوّمية لمخلوقاته وهي صفة واحدة تنتزع منها عدة صفات باعتبار اختلاف الآثار والملاحظات(٥٠) فهذه الصفات التي سميناها فيما سبق بصفات الفعل وقلنا إنها حادثة وليست ذاتية فيه كصفات الذات فنستطيع أن ننسب صفات الفعل إليه تعالىٰ ونسلبها كذلك فهو المحيي وهو المميت وهو يخلق ولم يُخلق ويرزق ولم يُرزق ـ ومرّ معنا الحديث عن صفات الفعل قبل صفات الذات وأشرنا إلىٰ الإرادة وأثبتنا أنها من صفات الفعل ـ .

**(ب) وأما الصفات السلبية :**

قال تبارك وتعالىٰ : ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ .

[سورة الرحمٰن ؛ ٥٥ الآية : ٧٨] .

قيل الجلال صفاته السلبية وتسمىٰ صفات الجلال أما الاكرام فهي صفاته الثبوتية وصفات الجلال هي التي تنفي النقائص عنه تعالىٰ فهي ممتنعة عن واجب الوجود وغير لائقة بالكمال المطلق وهذا الكمال المطلق لا يمكن تثبيته إلاّ بنفي النقص والقبح عنه كما لا يثبت الحق إلا بنفي الباطل ومن أهم هذه الصفات السلبية هي :

أنه لا شريك له وأنه ليس محتاجاً في ذاته وصفاته إلىٰ الغير والمكان والزمان وأنه ليس مركباً من الأجزاء وأنه ليس محلاً للحوادث كالنوم واليقظة وأنه لا يحل ولا يتحد مع أحد وأنه ليس بجسم وأنه لا يُرىٰ بحاسة البصر وأنه لا يفعل قبيحاً وأنه لا يشبه أحداً . . . فهي منافية تقريباً للصفات الثبوتية أو مضادة لها كالجهل والعجز والفناء والشريك كل ذلك ينافي العلم

والقدرة والبقاء والوحدانية ـ على التوالي ـ فليس لله ضدّ ولا شكل ولا صورة ولا حيِّز لمكان ولا هو جوهر كالجسم والمادة ولا هو عرض كاللذة والشهوة لأن ذلك مفتقر إلىٰ من يؤثر فيها من الوجود لذا حينما سئل الإمام علي (ع) : هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين فقال (ع) : (أفأعبد لما لا أرىٰ ثم قال : لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان قريب من الأشياء غير ملامس ، بعيد منها غير مباين ، متكلم لا برويّة ، مريد لا بهمة ، صانع لا بجارحة ، لطيف لا يوصف بالخفاء ، كبير لا يوصف بالجفاء ، بصير لا يوصف بالحاسة ، رحيم لا يوصف بالرقة ، تعنو الوجوه لعظمته ، وتجب القلوب من مخافته)[٥١] .

وحينما سئل الإمام الصادق (ع) عن حقيقة الله أجاب : (هو شيء بخلاف الأشياء أرجع بقولي إلىٰ إثبات معنىٰ وإنه لشيء بحقيقته الشيئية غير أنه لا جسم ولا صورة ولا يحس ولا يجس ولا يُدرك بالحواس الخمس لا تدركه الأوهام ولا تغيره الأزمان)[٥٢] .

وتبرز أمامي علامة استفهام كبيرة أُحبذ أن أوردها قبل أن أشرح بعض الصفات السلبية وهذه المسألة قد أخذت منّا وقتاً وجهداً لا بأس به بيننا وبين أستاذ الفلسفة أيام دراستنا في النجف الأشرف وملخصها أننا حينما نصف الله سبحانه وصفاً خارجاً عن اطرنا وحواسنا ولا نستطيع أن نحيطه علماً ولا نتمكن من معرفة كنه ذاته وماهيته وكل ذلك مرّ معنا في الصفحات السابقة مع الروايات الشريفة الداعمة للفكرة ، يبرز هذا التساؤل حينما يكون الخالق الكريم بهذه الصورة فمن الذي دلّنا عليه وجعلنا نبحث عنه ونتوصل إلىٰ معرفة ما أمكننا معرفته لنمتثل أوامره . . وما استطعنا أن نصل إلىٰ الجواب الشافي حينذاك حيث المناقشة الحادة بين الأطراف فأحدنا يرفض والآخر يعارض وثالث يوافق وهكذا في الوسط المزدحم بالنقاش خيّم علينا صوت الاستاذ المرحوم ذلك الصوت الرخيم وتلا مقطعاً من دعاء الصباح لمولانا وسيدنا الإمام علي (ع) وبالفعل كان هو الجواب الشافي الذي جعلنا نوقف تلك المناقشة وذلك الضجيج بل ونقتنع . . . حيث قال

الإمـام : (. . . يا من دل علىٰ ذاتـه بذاتـه وتنزه عن مجـانسة مخلوقـاته وجـلّ عن ملاءمة كيفياته يا من قرب من خـطرات الظنـون وبَعُدَ عن لحـظات العيون وعلم بما كان قبل أن يكون . . .)[٥٣] .

ونقـرأ كذلـك في دعاء الإمـام زين العابـدين (ع) : (بك عـرفتك وأنت دللتني عليك ودعوتني إليك ولولا أنت لم أدر ما أنت . .)[٥٤] .

فـإذن هو الله سبحـانه الـذي دلنا علىٰ ذاتـه المقدسـة ومما لا ريب فيـه نلاحظ في هذا المقطع المبارك ذكر بعض الصفات السلبيـة الجلاليـة حيث لا يتجانس سبحانـه وتعالىٰ مـع مخلوقاتـه ولا يرىٰ بـالعيون المجـردة وهكذا . . والآن لنعـود إلىٰ معـرفـة أهـم صفـات الجـلال (الصفات السلبية) فلنـوضحهـا بإيجاز :

**١ ـ إن الله تبارك وتعالىٰ لا شريك له :**

سبق وأن تحدثنا في الفصـل السابق وأشـرنا إلىٰ الآيـات الكريمـة بهذا الصـدد في أنه (سبحـانه) يمتنـع عليه الشـريك عقـلاً فأمـا الواحـد أقـوىٰ من الثـاني أو متسـاويين في القـوة والقـدم وعلىٰ كـل التقـاديـر لـرأينـا حينـذاك الاختلاف في الخلق والرسل والآثار ومرت معنا الآيـات والروايـات الموضحـة لهذه الصفة منها قال سبحانه :

**﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾** .

[سورة الأنبياء ؛ ٢١ الأية : ٢٢] .

**٢ ـ إنـه سبحانـه غيـر محتـاج في ذاتـه وصفـاتـه : إلىٰ الغيـر والمكـان والـزمان والأدوات والكيفيـة فهو الغني المـطلق عن غيره وقـد مضىٰ معنـا أنه واجب الوجود لذاته وصفـاته صفـات الأزلي التي منها أنـه لا يحتاج إلىٰ غيـره وإنـه يستغني بـذاتـه عن كـل شيء في الـوجـود بـل كـل شيء مفتقـر إليـه . وهنـا لا بد أن نشيـر إلىٰ مسألـة الظهـور الإلهي ومستلزمـات الـظهـور هـل أن الخـلائق تظهـر في الله سبحانـه أم أن الله يظهـر فيها من بـاب (فلست تـظهـر**

لولاي لم أكن لولاك) ومما لا شك فيه أن هذه المسألة أخذت أبعاداً مختلفة وآراءً متعددة فبعض الصوفيين ذهب إلىٰ أن الله سبحانه يظهر في المخلوقات حتىٰ في الحيوانات لأنهم تشدّدوا في ظهوره فيها وبعض المفكرين وقف متحيّراً متردداً فلو تصفحنا تراثنا الديني المقدس لقرأنا في الحديث القدسي «كنتُ كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق لكي أُعرف» ومعنىٰ ذلك أن الله خلق الخلق لأنه أراد الناس أن يعرفوا ربهم فعليهم أن ينظروا إلىٰ خلقتهم وعظمة أجهزتهم الداخلية والخارجية حتىٰ يعرفوا الله الخالق لهم وليس المعنىٰ إنه لو لم يخلق الخلق لم يكن معروفاً فخلق الخلق ليكون معروفاً فهو معروف لنفسه وظاهر بنفسه ولا يحتاج إلىٰ شيء ليظهر به . فليس معنىٰ الحديث أنه سبحانه ظاهر فيهم بل هم ظاهرون به كما كل شيء قائم بالله وليس هو قائم بأيّ شيء بل كل شيء قائم به وهكذا كل شيء ظاهر به وباطن به فلا يكون المخلوق ظرفاً لله تعالىٰ ولا الله تعالىٰ ظرفاً للخلائق حتىٰ تكون الخلائق في الله ظاهرة أو يكون الله في الخلائق ظاهراً بالمعنىٰ الظرفي . وأما ما نقرأ في الكتاب العزيز في الآية الكريمة مثلاً :

﴿فنفخنا فيه من روحنا﴾ .

[سورة التحريم ؛ ٦٦ الآية : ١٢] .

فمن باب نسبة الشيء إلىٰ الله عز وجل لتقريبه إليه كما في الآية الأُخرىٰ :

﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ .

[سورة الزخرف ؛ ٤٣ الآية : ٦٨] .

وفي آية مباركة أُخرىٰ : ﴿وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾ .

[سورة الحج ؛ ٢٢ الآية : ٢٦] .

فالروح والعباد والبيت كل ذلك من مخلوقات الله أما نسبة ذلك إلى الله من باب القربة والمنزلة الرفيعة . يقول الإمام الصادق في تفسير الآية ﴿ونفخنا فيه من روحنا﴾ قال : (إن الروح متحرك كالريح وإنما سمي روحاً لأنه اشتق اسمه من الريح . . وإنما أضافه إلى نفسه لأنه اصطفاه على سائر الأرواح كما قال لبيت من البيوت (بيتي) ولرسول من الرسل (خليلي) (حبيبي) واشباه ذلك وكل ذلك مخلوق مصنوع محدَث مربوب مدبَّر) .

فهو الصمد ليس وعاءً يصدر منه شيء ولا يكون ظاهراً في شيء ، عن الصادق (ع) : (هو الله الثابت الموجود، تعالى الله عما يصفه الواصفون، فلا تعدو القرآن فتضلوا بعد البيان) فلا بد من نفي التشبيه والتعطيل عن الله سبحانه . ونقرأ في دعاء الإمام الحسين (ع) في يوم عرفة قوله : (كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك عميت عين لا تراك عليها رقيباً . . . ) وهذا المقطع واضح لما ذهبنا إليه وقد قال الإمام الصادق : (ليس إلا الله وخلقه لا ثالث بينهما ولا ثالث غيرهما) فكل شيء أراد أن يظهر فلا بد أن يظهر بالله سبحانه وليس الله يُظهر في الشيء فهو الغني عن كل شيء لقوله تعالى : ﴿ومن كفر فإنّ الله غنيٌ عن العالمين﴾ .

[سورة آل عمران ؛ ٣ الآية : ٩٧] .

وقوله أيضاً : ﴿قالوا آتخَذَ الله ولداً سبحانه هو الغنيّ . . ﴾ .

[سورة يونس ؛ ١٠ الآية : ٦٨] .

**٣ ـ الله سبحانه ليس مركباً** : كذلك أخذنا فيما مضى من صفات الأزلي أن يكون بسيطاً لا مركباً لأن المركب يكون حادثاً والحادث مخلوق ويكون له أول كما يكون له آخر وهذا كله ينافي صفة الأزل ويطابق صفة الممكن المحتاج لغيره وحاشا لله سبحانه من ذلك فالله منزّه عن التركيب الخارجي ومنزّه عن الأجزاء العقلية ـ كما يسجل ذلك الشيخ الهادي في

كتابه معالم التوحيد ـ والمراد من التركيب الخارجي يعني هو أن يكون الشيء ذا أجزاء خارجية كالمعادن والمحاليل الكيمياوية التي تتألف من الأجزاء المختلفة ولكن مثل هذا التركيب يستحيل في شأن الله سبحانه لأن الشيء المركب من مجموعة الأجزاء سيكون محتاجاً في وجوده إلىٰ تلك الأجزاء لا محالة والمحتاج إلىٰ غيره معلول لذلك الغير ولا يصلح للالوهية حينئذ . هذا مضافاً إلىٰ أن الأجزاء المؤلفة للذات الإلهية إما أن تكون واجبة الوجود فحينئذ سنقع في مشكلة «تعدد الآلهة» التي يعبر عنها في علم الكلام بتعدد القدماء وإما أن تكون ممكنة الوجود وفي هذه الصورة ستحتاج هذه الأجزاء إلىٰ الغير ليوجدها فيكون معنىٰ هذا أن ما فرضناه إلهاً يكون معلولاً لأجزاء ذاته التي هي معلولة لموجود أعلىٰ وبالتالي لا يكون إلهاً . وذاته منزهة عن الأجزاء العقلية ويسترسل الشيخ الهادي في توضيح هذا النوع من البساطة ولأهمية توضيحه نورده :

**ألف** : إن الشيء يعرف بجنسه وفصله أو ما يقوم مقامهما التي تسمىٰ بالماهية وليس للماهية أي دور إلاّ تحديد وجود الأشياء وبيان موقعها في عالم الوجود .

باء : إن كل مولود ممكن مركب من شيئين ماهية ووجود وليس المقصود تركيبه من الجزئين الخارجين كالعناصر المتركبة بل المراد هو أن الذهن النقاد يرىٰ الشيء الخارجي الواحد في ـ مختبر العقل ـ مكوناً من جزئين : أحدهما يحكي عن مرتبته الوجودية وأنه يقع في أي مرتبه من مراتب الوجود من الجماد والنبات والحيوان وغيرها والثاني : يحكي عن عينيته الخارجية التي طرد بها العدم عن ساحة الماهية ولكن هذا النوع من التركيب يستحيل في شأن الذات الإلهية لأنها إذا كانت مؤلفة من وجود وماهية انطرح هذا السؤال إن الماهية كانت في حد ذاتها نافذة للوجود والعينية فبماذا طرد هذا العدم وأقيم محله الوجود فإنّ هذا الطرد يحتاج ـ تبعاً لقانون العلية العام ـ إلىٰ عامل خارجي عن ذات الشيء ومن المعلوم أن الشيء المحتاج إلىٰ العلة الخارجة عن وجوده ممكن لا يستحق الألوهية ؟ !

ولاجل هذا ذهب العلماء إلىٰ بساطة ذاته وإنها منزهة عن الماهية وهو عين الوجود وصرفه(٥٥) .

٤ ـ **إنه تعالىٰ ليس محلاً للحوادث** : كالنوم واليقظة والحركة والسكون والقيامة والقعود والشباب والهرم والقوة والضعف واللذة والألم والحزن والفرح والرضىٰ والسخط لأن ذلك كله خاص بالممكنات الحوادث المتغيرات والله سبحانه لا يتغير ولا يتبدل ولا يتأثر فهو ليس بجسم كي يرتبط بمتغيرات الزمان والمكان . وهذه العوارض كالنوم والألم والضعف إنها دليل العجز والنقص وهو تعالىٰ منزه عن ذلك فقد قال سبحانه في محكم كتابه الكريم :

**﴿الله لا إله إلا هو الحيُّ القيوم لا تأخذه سِنَةٌ ولا نومٌ له ما في السمٰوات وما في الأرض﴾** .

[سورة البقرة٢ ؛ الآية: ٢٥٥].

وهذه الصفة أود أن أتوسع فيها لأنها مورد كلام ونقاش . . فحينما قررنا أن ذات الله ليس فيها رضىً ولا غضب إذن فما هو معنىٰ غضب الله عليهم ورضي الله عنهم فنقرأ ذلك في القرآن والأحاديث والروايات . فإن لم يكن في ذات الله رضىٰ أو غضب فما معنىٰ قيام الناس بالعبادات أو بترك المعاصي لتحقيق رضاه فإن قلنا إن الرضىٰ والسخط موجودان في ذات الله فلازم ذلك متعلق الرضا أفعال العباد عموماً وتشمل أعمالهم بالفكر واللسان والجوارح إذن تارة يرضىٰ الله حيث يكون العمل من قبل العباد موجباً لرضاه تعالىٰ وتارة يغضب ويسخط حيث يكون عملهم موجباً للسخط والغضب . عندئذ يتحقق معنىٰ رضىٰ الله وغضبه قال سبحانه في محكم كتابه :

**﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾** .

[سورة المائدة ؛ ٥ الآية : ١١٩] .

وقال أيضاً : ﴿**والـذين اتبعـوهم بـإحسـان رضي الله عنهم ورضـوا عنه**﴾ .

[سورة التوبة ؛ ٩ الآية : ١٠٠] .

وقال سبحانه في آية أُخرىٰ : ﴿**من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير**﴾ .

[سورة المائدة ؛ ٥ الآية : ٦٠] .

وقال عز وجل أيضاً : ﴿**وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم**﴾ .

[سورة الفتح ؛ ٤٨ الآية : ٦] .

وقـد قال الرسول الأعظم (ص) : «يا فـاطمـة إن الله يغضب لغضبـك ويرضىٰ لرضاك» و «إن الله يغضب لغضب فاطمة ويرضىٰ لرضاها»[٥٦] .

وبهذا نرىٰ أن الغضب والرضىٰ يتحققان في الله عـز وجل نتيجـة أعمال العبـاد فتكون ذاتـه حينذاك متغيـرة من حال إلىٰ حـال ومتحـولـة من حـال إلىٰ حال! بمعنىٰ آخر سيـرضىٰ الله عنا إذا أطعنـاه وطبقنـا أوامـره وأمـا إذا عصينـاه سيغضب علينا فإذن وجودنا بـل وجود إنسـان واحد يمـارس عملاً معينـاً يكون سبباً لتغير ذات الله من الغضب إلىٰ الـرضا فـإذا تغيرت ذات الله نتيجـة أعمال العبـاد وكل شيء متغيـر مصيره الـزوال والتبدل وربمـا الإبادة ـ ومن هنـا كـان لهذه الصفة الأهمية في شرحها وتفصيلها .

**والآن كيف يمكن حلّ المسألة :**

جـاء في أُصـول الكـافي عن الإمـام الصـادق (ع) في شـرح الآيـة الكريمة :

﴿**فلمّا آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين**﴾ .

[سورة الزخرف ؛ ٤٣ الآية : ٥٥].

قوله (ع) : (إن الله لا يـأسف كأسفنـا ولكنه خلق أوليـاء لنفسه يـأسفون

ويرضون وهم مخلوقون مربوبون فجعل رضاهم رضاء نفسه وسخطهم سخط نفسه لأنه جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه فلذلك صاروا كذلك وليس ذلك يصل إلىٰ الله كما يصل إلىٰ خلقه لكن هذا معنىٰ ما قال من ذلك وقد قال من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ودعاني إليها وقال ﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ وقال : ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾ فكل هذا وشبهه علىٰ ما ذكرت لك ، وهكذا الرضا والغضب وغيرهما من الأشياء مما يشاكل ذلك ولو كان يصل إلىٰ الله الأسف والضجر وهو الذي خلقهما وأنشأهما لجاز لقائلٍ أن يقول إن الخالق يبيد يوماً لأنه إذا دخله الغضب والضجر دخله التغير وإذا دخله التغيير لم يؤمَن عليه بالإبادة ثم لم يعرف المكوِّن من المكوَّن (بالفتح) ولا القادر من المقدور عليه ولا الخالق من المخلوق ، تعالىٰ الله عن هذا القول علواً كبيراً بل هو الخالق للأشياء لا لحاجة فإذا كان لا لحاجة استحال الحدّ والكيف فيه) .

إذن لا نستطيع أن ننسب الصفات التأثرية كالغضب والضجر والأسف والرضىٰ إلىٰ الله سبحانه فهو منزّه عن ذلك كله فهو المؤثر ولا مؤثر سواه وهو سبحانه غير متأثر بشيءٍ إطلاقاً وإنما خلق أولياء لنفسه يمتازون بميزتين رئيسيتين كما في الرواية المتقدمة (جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه فصاروا كذلك) فهذا الولي الداعية لله سبحانه والدليل عليه رضاه رضىٰ الله وغضبه غضب الله وسخطه سخط الله فبيعة الرسول هي بيعة الله :

﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ .

[سورة الفتح ؛ ٤٨ الآية : ١٠] .

﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ .

[سورة النساء ؛ ٤ الآية : ٨٠] .

لذلك حينما نقرأ الروايات التالية وبعض الأحاديث الشريفة تتوضح إلينا هذه المسألة كلياً ، فقد جاء في كتاب (من لا يحضره الفقيه) أنه سئل الرسول (ص) كيف يتوفىٰ ملك الموت المؤمن ، فقال (ص) : «إن ملك

الموت ليقف من المؤمن عند موته موقف العبد الذليل من المولىٰ فيقوم هو وأصحابه لا يدنو منه حتىٰ يبدأ بالتسليم ويبشره بالجنة» وجاء في (أصول الكافي) عن الرسول (ص) : «ولو أن مؤمناً أقسم علىٰ ربه لا يُميته ما أماته أبداً ولكن إذا كان ذلك إذا حضر أجله بعث الله إليه ريحين ريحاً يُقال لها المنسية وريحاً يُقال لها المسخية فأما المنسية فإنها تنسيه أهله وماله وأما المسخية فإنها تسخي نفسه عن الدنيا حتىٰ يختار ما عند الله» .

وعن الإمام الصادق (ع) : (ما يخرج مؤمن عن الدنيا إلّا برضىً وذلك أن الله تبارك وتعالىٰ يكشف له الغطاء حتىٰ ينظر مكانه في الجنة وما أعدّ الله له فيها وينصب له الدنيا كأحسن ما كانت ثم يخيّر فيختار ما عند الله عز وجل ويقول ما أصنع بالدنيا وبلائها فلقنوا موتاكم كلمات الفرج) .
وعن الإمام الصادق في رواية أُخرىٰ :أنّه سئل :هل يكره المؤمن علىٰ قبض روحه قال : (لا والله إنه إذا أتاه ملك الموت يقبض روحه جزع عند ذلك فيقول له ملك الموت يا وليّ الله لا تجزع فوالذي بعث محمداً (ص) لأنا أبرُّ بك وأشفق عليك من والدٍ رحيم لو حضرك افتح عينيك فانظرقال : وتمثل له رسول الله (ص) وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذريتهم (ع) فقال له هذا رسول الله وأمير المؤمنين و . . والأئمة رفقاؤكم ففتح عينيه فينظر فينادي روحه منادٍ من قبل رب العزّة فيقول : يا أيتها النفس المطمئنة إلىٰ محمد وأهل بيته ارجعي إلىٰ ربك راضيةً بالولاء مرضيةً بالثواب فادخلي في عبادي (يعني محمداً وأهل بيته) وادخلي جنتي فما شيء أحب إليّ من استلال روحه واللحوق بالمنادي ) . وعن الإمام الباقر (ع) كما جاء في أُصول الكافي : (حضر رسول الله (ص) رجلاً من الأنصار وكانت له حال عند رسول الله فحضره عند موته فنظر إلىٰ ملك الموت عند رأسه فقال له رسول الله (ص) ارفق بصاحبي فإنه مؤمن فقال له ملك الموت يا محمد طِبْ نفساً وقرّ عيناً فإني بكل مؤمن رفيق شفيق واعلم يا محمد أني لأحضر ابنَ آدم عند قبض روحه فإذا قبضته صرخ صارخ من أهله عند ذلك فانتحي في جانب الدار ومعي روحه فأقول لهم والله ما ظلمناه ولا سبقنا به

أجلنا ولا استعجلنا به قدره وما كان لنا في قبض روحه من ذنب فإن ترضوا بما صنع الله به وتصبروا تؤجروا وتحمدوا وإن تجزعوا وتسخطوا تأثموا وتوزروا وما لكم عندنا من عُتبىٰ وإن لكم عندنا أيضاً عودة وبقية فالحذر الحذر . . ) .

من مجمل الروايات المنتخبة في هذا الصدد نلاحظ أن الرضا والسخط هو رضا أولياء الله وعباده المخلصين كما قال الرسول الأكرم (ص) : «يا فاطمة إن الله يغضب لغضبك ويرضىٰ لرضاك» .

وكذلك نرىٰ إن نفس الرضا والغضب هو فعل الله سبحانه فرضىٰ الله الذي هو فعله يعني ما خلق في موضع رضاه أي الجنة وغضبه الذي هو فعله وليس في ذاته أبداً هو مخلوقه أي النار وبموجبهما رضىٰ وليه وغضب وليه فمن رضي عنه الولي يدخل الجنة ومن غضب عنه الولي يدخل النار ـ فالذي يرضي الولي يكون محله رضىٰ الله وهو الجنة ومن أغضب الولي يكون محله غضب الله الذي هو النار فرضا الله الجنة وغضب الله النار .

فمن مجمل الروايات السابقة وغيرها نستخلص هذه الفكرة التي قلناها فالرضا والغضب مخلوقان وليسا في ذات الله عز وجل وهذان المخلوقان هما عبارة عن الجنة والنار والولي المؤمن هو الشفيع للجنة وكما في الروايات أن الإمام علي (ع) هو قسيم النار والجنة فرضاه رضا الله أي يدخل المؤمن إلى الجنة وأما غضبه فهو غضب الله أي يدخل المنحرف إلىٰ النار كما ورد عن الرسول الأكرم (ص) : « يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق» وفي حديث آخر : «عنوان صحيفة المؤمن حب علي بن أبي طالب»[٥٧] .

**٥ ـ أنّه سبحانه لا يحلّ ولا يتحد مع أحد :**

أي إنه تعالىٰ لا يوجد في محل يضمه ويحويه ولا يفتقر إلىٰ المحل الذي يحل فيه لأن الافتقار والاحتياج للشيء ليس من صفات الأزلي بل من صفات الممكن الحادث المتغير المحتاج فالله سبحانه موجود في كل مكان

غير مفتقر لحيّزٍ ليتواجد فيه فيخلو منه الحيز الأخر ولأن الحلول في مكان يستلزم الجسمية والله منزه عن ذلك .

أما الاتحاد وهو أن يصير الشيئان شيئاً واحداً . والآن هل يتحد سبحانه وتعالىٰ مع مخلوقاته القاصرة أو يحل فيها - كما يذهب البعض - وما هو الهدف من ذلك ؟ أم يتحد مع قديمٍ آخر ويندمج معه وما الغرض من ذلك أيضاً؟ ويبدو أن غرض الأمرين هو الحاجة لذلك، والحاجة منفية عن واجب الوجود بذاته إضافة إلىٰ أن هذين الأمرين يستلزمان الجسمية والحدوث والله منزّه عن ذلك وساحته المقدسة تطرد هذه الاحتمالات الباطلة .

٦ - الله عز وجل ليس بجسم : لأن الجسم يكون مركباً عادةً ويحتاج الجسم إلىٰ مكان وزمان ، ويتغير وينمو ويموت وينتهي وكل ذلك من صفات الممكن الحادث المتغير، والجسم بحاجة إلىٰ الإيجاد أيضاً وهو من صفات الممكن كذلك والله سبحانه منزّه عن هذه الصفات فهو واجب الوجود أزلي - كما مر معنا - .

٧ - وأنّه لا يُرىٰ بحاسة البصر :

وضحنا ذلك في الشبهة الأولىٰ من أحاديثنا الماضية ولا بأس هنا بذكر هذه الرواية عن الأصبغ عن أمير المؤمنين (ع) قال : قام إليه رجل يُقال له ذُعلب فقال يا أمير المؤمنين هل رأيت ربك ؟ قال (ع) : (ويلك يا ذُعلب لم أكن بالذي أعبد رباً لم أره فقال كيف رأيته صفه لنا) . قال (ع) : (ويلك لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان) فلأن الرائي بالعين المجردة حينما يرىٰ شيئاً يعني يرىٰ جسماً يشغل حيزاً بالفراغ . ولا يمكنه أن يرىٰ شيئاً ليس بجسم ومن الممكن ألا ترىٰ العين حتىٰ بعض الأجسام المرئية فأنّىٰ لها أن ترىٰ ما ليس بجسم وقد أكدنا أن الله سبحانه وتعالىٰ ليس بجسم لأنه ليس من الممكنات الحوادث وعليه لا بُدّ من تأويل ما ورد للتقريب الذهني في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة

مما يتوهم القارىء بأنه (سبحانـه) جسم . فمثلاً الآيـة القائلة ﴿يـد الله فوق أيديهم﴾ تعني قدرته وقوته الكبرىٰ فوق القوىٰ الأُخرىٰ وهكذا . .

**٨ ـ أنّـه لا يفعل قبيحـاً** : الكمـال المـطلق لا يصـدر عنـه القبيـح لأنـه حينما يصدر قبيحاً إما أن يكون جاهـلاً بقبحه والجهـل يخرج الله سبحـانه عن دائرة الكمال المطلق وأما أن يكون عالماً بقبحه لكنه عاجز عن الترك والعجز صفة لا تليق بـالكمال المـطلق وإما أن يكون محتاجاً لفعل القبيح ونفينا حاجته ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لشيء . وإما أن يكون عابثاً والعبث ليس من صفات الحكيم الكامل فإذن كل ذلك مردود ومحال علىٰ الله عز وجل .

**٩ ـ أنّه سبحانه لا يشبه أحداً** : وقد قررنا سـابقاً أن الـذي أوجدنـا ليس مثلنـا كما جـاء في قولـه تعالىٰ في محكم كتـابه المجيـد ﴿ليس كمثله شيء﴾ وقـد قال الإمـام علي (ع) في خطبتـه المشهورة : (الحمـد لله الـذي لا يبلغ مدحته القـائلون ولا يحصي نعماءه العـادّون ولا يؤدي حقه المجتهـدون الذي لا يدركه بُعد الهمم ولا يناله غوصُ الفطن، الذي ليس لصفتـه حد محـدود ولا نعت مـوجود ولا وقت معـدود ولا أجـل ممـدود فـطر الخـلائق بقـدرتـه ونشـر الرياح برحمته ووتّـد الصخور ميـدان أرضه أول الـدين معرفتـه وكمال معـرفته التصديق به وكمال التصديق بـه توحيـده وكمال تـوحيده الاخـلاص له وكمـال الاخلاص له نفي الصفات عنه لشهـادة كل صفـة إنها غيـر الموصـوف وشهادة كل موصوف إنه غيـر الصفة فمن وصف الله سبحـانه فقـد قرنـه ومن قرنـه فقد ثنـاه ومن ثناه فقـد جزأه ومن جـزأه فقـد جهله ومن جهله فقـد أشار إليه ومن أشار إليه فقد حدّه ومن حدّه فقد عدّه ومن قال فيمَ فقد ضمّنـه ومن قال عـلام فقـد أخلىٰ منه، كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، وجـد مـع كـل شيء بمقارنه وغيّر كل شيء لا بمزايله فاعل لا بمعنىٰ الحركات والآلة)(٥٨) .

هذه الخطبة تبحدثت عن كثير من الأُمور وتضمنت الصفات السلبية عموماً حيث نفىٰ عن الله سبحانه المشابه في الوجود كما في حديثنا عن الصفة الأخيرة حيث قال : (ولا نعت موجود) ونفىٰ عنه الحـدود الزمنيـة والمكانيـة والجسمية

أيضاً . ولا بأس أن نشير في نهاية هذا البحث إلىٰ حديث الإمام الباقر (ع) في هذا الصدد يقول (ع) : (هل سمي عالماً قادراً إلّا لأنه وهب العلم للعُلماء والقدرة للقادرين وكلما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم والباريء تعالىٰ واهب الحياة ومقدر الموت ولعل النمل الصغار تتوهم أن لله زبانيتين أي قرنين فإنهما كما لها وتتصور انّ عدمهما نقصان لمن لا يكونان له) -وأمّا في تعدد الاسماء الحسنىٰ فقد روي عن ثقة الإسلام في (الكافي) بإسنادٍ حَسَنٍ عن هشام بن الحكم انّه سأل مولانا الصادق (ع) عن اسماء الله واشتقاقها ، الله ممّ هو مشتق قال : فقال لي : (يا هشام الله مشتق من إله والإله يقتضي مألوهاً والاسم غير المسمىٰ فمن عبد الاسم دون المعنىٰ فقد كفر ولم يعبد شيئاً ومن عبد الاسم والمعنىٰ فقد كفر وعبد اثنين ومن عبد المعنىٰ دون الاسم فذلك التوحيد أفهمت ياهشام ) قال فقلت زدني ، قال : (إن لله تسعة وتسعين اسماً فلو كان الاسم هو المسمىٰ لكان كل اسم منها إلهاً ولكن الله معنىٰ يدلك عليه بهذه الاسماء وكلها غيره يا هشام ، الخبز اسم للمأكول والماء للمشروب والثوب اسم للملبوس والنار اسم للمحرق أفهمت يا هشام فهماً تدفع به وتناضل به اعداءنا والملحدين مع الله تعالىٰ غيره) ، قلت : نعم . وهذه الرواية تنفعنا فيما قررناه سابقاً بأن صفات الله عز وجل هي عين ذاته .

**(جـ) صفات أفعاله :**

تحدثنا عنها في أثناء الحديث عن الصفات الذاتية الثبوتية وعن صفة الإرادة كذلك فهي صفات متداخلة مع صفات الذات فآثرنا أن نذكرهما معاً لتتم المعرفة بشكل سريع ومقارن .

(١) حق اليقين للسيد شبر ج ١ ص ٤٧ .
(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٣٦ .
(٣) نفس المصدر ج ١ ص ١٥ وما بعدها .
(٤) نفس المصدر ج ١ ص ٤٥ .
(٥ ، ٦) نفس المصدر ج ١ ص ٣٩ .
(٧) ميزان الحكمة ، ري شهري ج ٦ ص ١٦٥ .
(٨) ميزان الحكمة ، ري شهري ج ١ ص ١٣٢ .
(٩) الرواية مسموعة من محاضرة إسلامية عامة .
(١٠) تصنيف نهج البلاغة ، لبيب بيضون ص ٣٩ باب وحدانية الله سبحانه .
(١١) الله يتجلىٰ في عصر العلم ، ـ الكتاب العلمي المعروف ـ .
(١٢) الإسلام يتحدىٰ ، ص ١٠٦ .
(١٣) حق اليقين ، السيد شبر ج ١ ص ٧ .
(١٤) نفس المصدر .
(١٥) مجلة الحوادث عدد ١١٧٣ .
(١٦) الطب محراب الإيمان ص ١١
(١٧) الاعجاز الطبي ، الدكتور السيد الجميلي ط . بيروت ص ٢١٩ وما بعدها .
(١٨) دروس في أصول الدين ص ٢٧ وما بعدها ـ بتصرف ـ ط . إيران ترجمة محمد علي تسخيري .
(١٩) الموسوعة الطبية الحديثة ج ٤ ص ٧٩٣ نقلاً عن محاضرات في العقيدة للشيخ البهادلي ـ بتصرف ـ .

(٢٠) الخطبة ١٦٠ ـ ٦ ، المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة ، محمد رشتي طبع إيران .
(٢١) نهج البلاغة للإمام علي (ع) ، تحقيق محمد عبده ج.٢ ص ٣٣٥ .
(٢٢) الله والعلم الحديث ص ٢١ .
(٢٣) نفس المصدر ص ٢٣ .
(٢٤) الكون الأحدب ص ٢٥٤ .
(٢٥) التكامل في الإسلام ، أحمد أمين ج ٣ ص ٦٨ .
(٢٦) الكون الاحدب ص ٢٥٤ .
(٢٧) دائرة المعارف ، لمحمد فريد وجدي ج ١٠ ص ٤٤٨ .
(٢٨) فلسفتنا ، السيد محمد باقر الصدر ص ٢٩٤ .
(٢٩) نفس المصدر ص ٢٩٤ .
(٣٠) نفس المصدر ص ٧٣ .
(٣١) نقد الفكر الديني ، للدكتور العظم ص ٢٨ وما بعدها .
(٣٢) نقلاً عن الزنجاني ، بداية الفلسفة ص ٧٠ .
(٣٣) حق اليقين ، السيد شبر ج ١ ص ١٣ .
(٣٤) نفس المصدر ص ٢٩ .
(٣٥) ميزان الحكمة ، ري شهري ، ج ٦ ص ١٦٥ .
(٣٦) نهج البلاغة ، تحقيق وشرح محمد عبده ، الخطبة الأولى ص ٦٨ ، ٦٩ .
(٣٧) الأنوار النعمانية لنعمة الله الجزائري ج ١ ص ٩ ط . إيران .
(٣٨) ميزان الحكمة ، ري شهري ، ج ٦ ص١٤٢ .
(٣٩) نهج البلاغة ، شرح محمد عبده ص ٦٩ ، ٧٠ .
(٤٠) حق اليقين ، السيد شبر ص ٢٠ .
(٤١) نفس المصدر ص ٢١ .
(٤٢) نفس المصدر ص ٢٤ .
(٤٣) دعاء الإمام الحسين في يوم عرفة في مفاتيح الجنان للمرحوم شيخ عباس القمي ط . طهران ص ٥٠٩ .
(٤٤) الزنجاني ، عقائد الإمامية ص ٢٩ .
(٤٥) حق اليقين ، السيد شبر رواية الطبرسي ص ٣١ .
(٤٦) مفاتيح الجنان ، جمع الشيخ عباس القمي ط . طهران ص ٥١٢ .

(٤٧) عقائد الإمامية للشيخ المظفر ص ٤١ .

(٤٨) حق اليقين ، السيد شبر ص ٢٩ .

(٤٩) عقائد الإمامية للشيخ المظفر ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٥٠) نفس المصدر ص ٣٩ .

(٥١) نهج البلاغة ، الخطبة ١٧٩ ـ ١ .

(٥٢) أصول الكافي ، كتاب التوحيد ص ٨٣ .

(٥٣) دعاء الصباح للإمام علي الموجود في كتب الأدعية كمفاتيح الجنان ص ١١٣

(٥٤) ميزان الحكمة ، ري شهري ج ٦ ص ١٦٣ .

(٥٥) معالم التوحيد في القرآن الكريم ، للشيخ جعفر الهادي ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٥٦) فاطمة الزهراء من المهد إلىٰ اللحد ، محمد كاظم القزويني ص ٢٧٥ .

(٥٧) ميزان الحكمة ، ري شهري ج ١ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٥٨) نهج البلاغة ، الخطبة الأولىٰ ص ٦٨ ط . بيروت .

# الفصـــل الثـاني

## العـدل

ويحتوي البحث على ما يلي :

١ ـ ضرورة العدالة الإلهية في القرآن والسنة .

٢ ـ توطئـــة لا بـد منهــا .

٣ ـ معنى العدل وموقع اعتقادنا منه .

٤ ـ الجبر والتفويض .

٥ ـ القضـــاء والقـــدر .

٦ ـ حكمة أفعـال الله .

٧ ـ الحسن والقبح الذاتيان العقليان .

٨ ـ قاعدة اللطف الإلهي .

٩ ـ الشبهات والـردّ عليها .

(١)

# ضرورة العدالة في القرآن والسنة

قال سبحانه وتعالىٰ في القرآن المجيد : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاءِ ذي القربىٰ وينهىٰ عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾ .

[سورة النحل ؛ ١٦الآية : ٩٠].

وقال عزّ من قائل : ﴿فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ .

[سورة الروم ؛ ٣٠ الآية: ٩].

وفي آية أُخرىٰ : ﴿ولقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ .

[سورة الحديد ؛ ٢٥ الآية: ٢٥].

وقوله عز وجل : ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾ .

[سورة النساء ؛ ٤الآية : ١٣٥] .

وفي موقع آخر قال الله العظيم : ﴿وما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما لاعبين﴾ .

[سورة الدخان ؛ ٤٤ الآية : ٣٨] .

وفي سورة الأنعام : ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدّل لكلماته﴾ .

[سورة الأنعام ؛ ٦ الآية : ١١٥] .

وفي سورة النساء : ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة . .﴾ .

[سورة النساء ؛ ٤ الآية : ٤٠].

وقال رسول الله (ص) : «ما كرهته لنفسك فأكْرهه لغيرك وما أحببته لنفسك فأحبّه لأخيك تكن عادلاً في حكمك، مقسطاً في عدلك، محباً في أهل السماء مودوداً في صدور أهل الأرض» .

وقال في حديث آخر (ص) : «إن العدل هو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا» .

وقال الإمام علي (ع) : (العدلُ أساسٌ به قوام العالم ، العدل أقوىٰ أساس ، إن العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ونصبه لإقامة الحق فلا تخالفه في ميزانه ولا تعارضه في سلطانه)[1] .

والإمام علي في حواره مع عبد الله بن عباس حينما دخل عليه في ذي قار وعلي يخصف نعله ـ يروي ابن عباس قال لي : ما قيمة هذه النعل ؟ فقلت لا قيمة لهافقال :( والله لهي أحبّ إليّ من إمرتكم إلا أن أُقيم حقاً وأدفع باطلاً)[2] .

والإمام الصادق (ع) يقول : (أما العدل فأن لا تنسب إلىٰ خالقك ما لامك عليه)[3] .

وفي احتجاج الطبرسي : روي إنّ قوماً من أصحاب أمير المؤمنين خاضوا في التعديل والتجويز فخرج حتىٰ صعد المنبر فحمد الله واثنىٰ عليه ثم قال :( أيها الناس إن الله تبارك وتعالىٰ لما خلق خلقه أراد أن يكونوا علىٰ آداب رفيعة واخلاق شريفة فعلم أنهم لم يكونوا كذلك إلاّ بأن يعرّفهم ما لهم وما عليهم والتعريف لا يكون إلا بالأمر والنهي والأمر والنهي لا يجتمعان إلاّ

بالوعد والوعيد والوعد لا يكون إلا بالترغيب والوعيد لا يكـون إلاّ بالتـرهيب ، والتـرغيب لا يكـون إلاّ بمـا تشتهيـه أنفسهم وتلذّه أعينهم والتـرهيب لا يكـون إلاّ بضـد ذلك ثم خلقهم في داره وأراهم طـرفاً من اللذات ليستـدلوا علىٰ مـا ورائهم من اللذات الخالصة التي لا يشـوبها ألم ألا وهي الجنـة وأراهم طرفـاً من الآلام ليستدلوا به علىٰ ما ورائهم من الآلام الخـالصة التي لا يشـوبها لـذة ألا وهي النـار فمن أجل ذلـك ترون نعيم الـدنيا مخلوطـاً بمحنهـا وسـرورَهـا ممزوجاً بكدرها وغمومها . . ) .

# (٢)

# توطئه لا بد منها

كلما حاولت أن أفلت من زمام التاريخ الفكري لهذه المسألة ما استطعت وبالفعل ما استطعت أن أتجاوز ما دار في المدارس الفكرية الإسلامية من حديث ونقاش حول العدالة الإلهية فمرةً يشتد النقاش إلىٰ درجة الخِصَام العقائدي ومرةً يفتر بانحناء واضح أمام العاصفة من أحد الأطراف المتنازعة وكان الصراع أشده بين المدرسة العدلية (المعتزلة) وبين مدرسة الأشاعرة وفي خضم هذا الصراع المرير كانت تبرز مدرسة أهل البيت (ع) حاسمة للصراع والخلاف ضمن الأسلوب الدقيق. الذي يوافق القرآن الكريم والسنة الشريفة من جهة ويوافق العقل والتطلعات الإنسانية من جهة أُخرىٰ . . علىٰ العموم أجد نفسي مضطراً لتناول المسألة تاريخياً لعل هذا سيفتح لنا آفاق المعرفة ويسهل علينا فهم المراد وهذا يتطلب شيئاً من التوضيح ، ونحن إذ ندخل في جزءٍ حساس من عقيدتنا الإسلامية دراسةً وتحليلاً ولعلّ (العدل) من أشد المواضيع العقائدية حساسيّةً بين المسلمين وأكثرها إثارةً للمشاعر والخلفيات الثقافية والاجتماعية حيث أن مسألة العدل ملتصقة بحياة الناس وتوفيقهم في الحياة ووعيهم وعقيدتهم ومصيرهم في المستقبل بالدنيا والآخرة . فمن هنا تكسب قضية العدل الإلهي أهمية بارزة في حياة المسلمين الفكرية . ومن هنا نفهم أهميتها وحساسيتها التي دفعت

بالمسلمين للمناقشات وكثرة الجدل في كافة أدوار التاريخ الإسلامي حتىٰ اليوم وعلىٰ أسس فهم العدالة الإلهية نشأت مدارس فكرية بين المسلمين ، ففي منتصف القرن الأول الهجري نضجت البحوث الكلامية وعلىٰ رأسها العدل ومما لا شك فيه أن الإسلام يؤمن بالحرية الفكرية بل يدفع القرآنُ الكريم الناس للتفكير والتدبر والاعتبار فيثير دفائن العقول لتنطق الفطرة الإنسانية النقية متلاقحةً مع أسس الدين الإسلامي فقد قال سبحانه :

﴿أفلا يتدبرون القرآن أم علىٰ قلوب أقفالها﴾ .

[سورة محمد ؛ ٤٧ الآية : ٢٤] .

والرسول الأعظم (ص) كذلك يدفع بالتفكير الإيجابي فقد قال : «فكرة ساعة خير من عبادة سنة» ويقول الإمام علي(ع) : (التفكر يدعو إلىٰ البر والعمل به)[٤] .

وهذه الحرية الفكرية تفتح علىٰ الإنسان آفاق الخير والصلاح وترسخ العقيدة في الأعماق . وهكذا فالإسلام يعالج كثيراً من المسائل الفكرية والنفسية والغيبية بالتفكير الذاتي والمناقشة الفكرية . هذه الحالة أفرزت عدة تساؤلات من كوامن اللاشعور لدىٰ الإنسان المسلم آنذاك وخصوصاً بعد هبوب الرياح الفكرية القديمة والاغريقية مترجمةً إلىٰ العربية علىٰ الأفكار الإسلامية ويمكن القول باجتماع الأسباب واشتراكها بنسب معينة في تهيئة المناخ الفكري المحتدم الصراع فيما بين المسلمين ولا تُنكر العقليات الإسلامية المتقدة التي تصدت لبلورة الموقف الإسلامي لكثرة الاثارات والتساؤلات في ذات المجتمع المسلم فبرزت مسألة الجبر والاختيار والقضاء والقدر والمسائل الفلسفية الأخرىٰ التي تصبّ مجتمعةً في موضوع العدالة الإلهية التي هي من أبرز صفاته جلّ وعلا . لذلك نشأت مدارس فكرية الواحدة أمام الأخرىٰ وبالذات مدرسة المعتزلة التي وقفت أمام مدرسة الأشاعرة في مجمل المسائل الفكرية ويحتدم الصراع الفكري في قضية العدالة أشد احتدام فظهرت المجبرة أمام المفوضة فالإنسان المجبر علىٰ

أفعـاله بـدون إرادة مستقلة هـل من العـدل أن يعـاقب أو يكـافـأ علىٰ أعمـالـه بنـوعيها الأعمـال الإيجابيـة أو السلبية ؟ أمـا الإنسان المختـار في أعمالـه أمن العدل محاسبته أم لا ؟ وهكذا برزت المدرسة الوسطىٰ هي مدرسة أهل البيت (ع) ـ كما قلنا ـ لتحسم هذا الصراع لصالح المبـدأ الـرسـالي المستقيم الذي كان بدوره هذا يتوج الفطرة الإنسانيـة الطبيعيـة بتعاليم الله عـز وجل ومـع هذا فقد امتازت مدرستا المعتزلة والأشاعرة بنقـاط قوة إيجـابية ونقـاط ضعف سلبية وكل مدرسة عرفت نقـاط الضعف ونقاط القـوة في المدرسـة الفكريـة المقابلة وشعرت كذلك بنقاط ضعفها وقوتهـا فبرزت ودافعت وبـرّرت لضعفها فنجحت حيناً وأخفقت أحياناً كثيرة في الدفاع لمغـالطات فكـرية واضحـة تصطدم بهـا في النتـائج المتـرتبة علىٰ مقـدمات مغلوطـة أيضاً ولم تقف المسـألة عنـد هذا الحد بل انسحبت من أطر المفكرين والعلمـاء إلىٰ ساحـة المجتمع وفي بـاب (لا تقـوىٰ في الصراع) نـزلت القضية لعمـوم النـاس فصـار التسقيط والتكفيـر بين الـطرفين علامـة مميـزة لحقبـة زمنيـة من العصـر الإسـلامي بـل وانسحب الأمـر مع الـزمن كـذلـك ممـا وفـرّ منـاخـاً منـاسبـاً لـظهـور اللعب السيـاسيـة ولـلإستفادة من هذا الصراع لتقوية كراسي الحكام في أدوار سياسة مختلفة .

فمـدرسة المعتـزلة كـانت تؤمن بفكرة العـدل الإلهي في مسـألـة الجبـر والاختيار أما مدرسة الأشاعرة فـإنها تؤمن بفكـرة المشيئة الإلهيـة ( ما شـاء الله كـان ، وما لم يشـأ لم يكن) وقدمت مـدرسة الأشـاعرة تفسيـراً للمسألـة حيث رأت أن ما يفعله سبحانه وتعالىٰ في الكون والمخلوقات هـو فعل حسن وخيـر محض وعدل .

وهكذا فالـذي ورد في الشريعـة ممدوحـاً فهو الحسن والخيـر وفـاعلـه يستحق الثواب والذي ورد في الشـريعة مـذموماً فهو القبيـح وفـاعـلـه يستحق الذم والعقاب (فالمعني بالحسن ما ورد الشرع بالثناء عليـه والمراد بـالقبيح مـا ورد الشـرع بـذم فـاعله) كمـا جـاء في الارشـاد للجـويني ص ٢٥٨ ونهـايـة الاقدام للشهر ستاني ص ٣٧٠ .

أما بالنسبة لافعال الله عز وجل فكلها أفعال حسنة كما تذهب مدرسة الأشاعرة وليس للعدل قوانين ثابتة يسير عليها سبحانه بل كل ما يفعله هو العدل والخير والحسن حتىٰ لو كان في تصورات البشرية وفي مفهومنا البشري أنه عقاب وعذاب فهو حسن وعدل لأنه صادر من الله عزّ وجلّ (إن الله هو المالك القاهر الذي ليس بمملوك وليس فوقه آمر ولا زاجر ولا من رسم له الحدود ، لذلك لا يقبح منه فعل شيء نراه قبيحاً . . )[٥] فكل شيء عندهم عدلٌ لمجرد إسناده إلىٰ الله تعالىٰ وكل شيء حسن لأنه من الله تبارك وتعالىٰ .

فقد قال سبحانه : **﴿ فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾** .

[سورة الروم ؛ ٣٠ الآية : ٩].

وفي آية أُخرىٰ : **﴿وما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما لاعبين﴾** .

[سورة الدخان ؛ ٤٤ الآية : ٣٨] .

وقد قال الرسول الأعظم(ص): « إن العدل هو الذي يمسك السمٰوات والأرض أن تزولا» .

أما المعتزلة فادّعوا أن العدل له معيار خاص تسير عليه الأفعال والتصرفات فاعتقدوا أن العدل أساس لقانون الله سبحانه فمكافأته للمؤمنين بالجنة والرضىٰ عدل ومعاقبته للمجرمين بالنار والسخط والأذىٰ عدل فقد قال عز وجل :

**﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار . . ﴾** .

[سورة البقرة ؛ ٢ الآية : ٢٥] .

وقال في آية أُخرىٰ ـ بالمقابل ـ : **﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾** .

[سورة النحل ؛ ١٦ الآية : ١١٨] .

وقال سبحانه أيضاً : ﴿وأخذنا الذين ظلموا بعذابٍ بئيسٍ بما كانوا يفسقون﴾ .
[سورة الأعراف ؛ ٧ الآية : ١٦٥] .

ومن هنا تنطلق مسألة الحُسن والقُبح فالمعتزلة يذهبون إلىٰ أنها مسألة عقلية بحتة والعقل يستطيع أن يصل إلى أن الكذب قبيح والصدق حسن والظلم قبيح والعدل حسن ولا يحتاج الأمر لتوضيح شرعي يعني أن العقل المجرد عن التعاليم الشرعية بإمكانه الوصول إلىٰ معرفة الحسن والقبح في الأقوال والأعمال أما الأشاعرة فهم علىٰ عكس المعتزلة حيث ذهبت مدرستهم إلىٰ إنكار قدرة العقل في كشف النقاب عن الافعال الحسنة والقبيحة بل لا بد من تدخل الشريعة الإسلامية في تبيان الحسن من الافعال وفرزه عن قبيح الأعمال ـ كما مر آنفاً ـ فبهذا المعنىٰ ـ لدىٰ الطرفين المتنازعين ـآنعكس الأمر علىٰ الخالق الكريم فذهبت مدرسة المعتزلة إلىٰ أن الله سبحانه لديه غايات واهداف من الخلق، والأفعال الصادرة عنه فهو الحكيم المدبر . أما الأشاعرة فرفضت رأي المعتزلة ووقفت مدرستهم بالمقابل لمدرسة المعتزلة متذرعة بأن المسألة تجرنا إلىٰ الخروج من العقيدة الإسلامية الصحيحة حيث نفرض علىٰ الله أغراضاً معينة ليسير لتحقيقها وهذا منافٍ لأُصول التوحيد ولعلاقة الرب مع المربوب فرفضت مدرسة الأشاعرة مسألة الأغراض والأهداف في أفعال الله معللة ذلك إن فعل الله عين الصواب والحكمة والمصلحة دون أن نفرض بعقولنا المحدودة طريق الحكمة والمصلحة والهدف الحسن والحكيم مسبقاً وتتضح هنا قمة الحساسية في المسألة لأنها تنعكس علىٰ الأصل الأول والرئيس من أُصول العقيدة الإسلامية وهو أصل التوحيد فقد قررنا أن الله سبحانه لا شريك له ولا تأخذه سِنة ولا نوم ولم يكن له ولي ، فنستشم من المعتزلة أنهم بكلامهم يريدون فرض خطة معينة أو قوانين معينة لأفعال الباريء عز وجل مما يسلبه تعالىٰ حق الاختيار والحرية في الخلق والفاعلية والإبداع والتصرف وحاشا لله من هذا التقيد وهذا بالضبط ما يفهمه الأشاعرة لذلك ثارت ثائرتهم ووقفوا أمام المعتزلة بقوة وعارضوا فكرة الجبر في افعال الله

واعتبـروا أن المعتزلـة يجبرون الله علىٰ أفعـاله وتصـرفاتـه أي لا إرادة لله أمام قانون الإنسـان الذي يـراه عدلاً . وفي الحقيقـة هذه نقـطة الضعف الواضحـة في مـدرسة المعتـزلة حيث أنهـا ما استـطاعت أن تضع الإجـابة الـوافية لهـذه الشبهة ولعلّ الألفاظ قد خانت مدرسـة المعتزلـة في تبيان الأمـر فلذلك وقعت المعتزلة في فخ عميق من خلال هـذه الزاويـة المثيرة . ويمكن أن نفصـل في هذه المسألة وغيرها في الصفحات القادمة في أثناء أحاديثنا .

وأمـا نقـطة الضعف ـ التـي تبـدو أنهـا غيـر مقصـودة ولكنهـا مستنتجـة أيضاً ـ لدىٰ مـدرسة الأشـاعرة والتي كشفتهـا مدرسـة المعتزلـة تتلخص في أنّ كلّ الأفعال مصدرها الله وما يفعله الله هو عـدل ومصلحة وحكمـة هذا شمـول كبيـر لكل مـا يصـدر في الـطبيعـة والكـون من الأفعـال حتىٰ المـظالم فلذا لا يتورع ـ كما يظهر ـ من يعتقد بمدرسـة الأشاعـرة صدور العبث والـظلم والقبح عنه سبحانه ! وهذا أمـر مستحيل وإنـه سبحانـه منزّه عن هـذه النواقص وشيئـاً فشيئـاً نضطر إلىٰ سحب العـدالة من الله عمليـاً حيث ندخـل في اطـار الجبـر والاضطرار فيكون الظلم والقبح في أفعـاله تعـالىٰ فعليه من الممكن أن تنسب إلىٰ أفعـاله سبحـانه الـظلم والقبح والنقص وهـذا ما يصـطدم بأصـل التوحيـد وصفات الله ـ كما قلنا ـ فلذلك نـلاحظ عبد الجبـار المعتزلي الـذي كان يـرىٰ الاختيار والقانـون العادل الـذي يسير عليـه سبحانـه حينما التقىٰ بـأبي إسحاق الاسفـراييني فقال عبـد الجبار : (سبحـان من تنزه عن الفحشـاء ) فأجـابه أبـو إسحاق : (سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء) وحقاً كان يفهم الواحد الأخر وهكذا فإن الأشاعرة ينسبون الظلم والفحشاء لله سبحـانه كنتيجـة طبيعية لمقدماتهم والمعتزلة كانوا يحدّدون إرادة الله بإرادة وقانون الإنسان .

وأمـا مدرسـة أهل البيت (ع) فجـاءت لتضـع حـداً وسـطاً بين الإفـراط والتفريط لتحسم الأمر بين عموم الاشكالات الـواردة . فتارةً كـان يقف مذهـب أهـل البيت مع المعتـزلة وتـارة مع الأشـاعرة في نقـاط الاتفـاق مـع الشـريعـة الإسـلامية فنـرىٰ مثلاً حينمـا يقف مذهب أهـل البيت مع المعتـزلة في مسـألة الجبـر والتفويض إنـه يعطي مفـاهيم تغايـر مفـاهيم المعتـزلـة أو لنقـل مكملة

ومصححة للمفاهيم التي يُنادي بها المعتزلة وإن كانت مدرستهم تحسب علىٰ العدلية فلا يترك مذهب أهل البيت المسألة منوّضة ولا مختارة بل (أمر بين أمرين) وبهذا تنتهي اشكالات الطرفين فلا يؤلّه الإنسان بسلب إرادة الله سبحانه وبتحديد صلاحياته وتصرفاته علىٰ ضوء القانون العدلي كما تذهب المعتزلة ، ولا هو يقع في مطب عدم التنزيه للذات المقدسة من القبح والظلم كما وقع الأشاعرة في ذلك ، ويمكن أن توضح المسألة في مثال آخر ففي مسألة صفات الله سبحانه فالأشاعرة وقعوا في اشكال كبير حيث عددوا القدماء إلىٰ جانب الذات المقدسة من حيث لا يشعرون فاعتبروا الصفات قديمة وأزلية ومغايرة للذات المقدسة فبذلك أثبتوا أن الأزلية ليست فقط لله بل لكل صفاته وهي قديمة بقدمه فإنها أزلية لا مخلوقة ولا محتاجة لعلة أوسبب للايجاد فبهذا تشترك الصفات مع ذات الله في القدم وبمعنىٰ آخر تتعدد الألهة ! .

بينما المعتزلة تخلصوا من هذه الإشكالية فوحّدوا الصفات مع الذات فتمحوروا حول القديم الواحد وهو الله سبحانه ومع نجاح المعتزلة في هذا البيان لكنهم لم يجيدوا الإخراج الفني فبقيت حلقة مفقودة في سلسلة البيان هذا حيث وضح المعتزلة أن الذات الإلهية هي نائبة عن الصفات بينما حدّد مذهب أهل البيت (ع) توحيد الصفات مع الذات بالاضافة إلىٰ اعتبار الصفات عين الذات ـ كما مرّ في الفصل السابق ـ .

اكتفي بهذه التوطئة التي اعتمدتها علىٰ المعلومات العامة من مطالعاتي للكتب المعنيّة واظن أن الصورة قد وضحت تأريخيّاً ، وأشير إلىٰ من يطلب التفصيل فليراجع كتاب العدل الإلهي للشهيد مطهري . فقد اعتمدته كمصدر أساسي في هذه التوطئة .

# (٣)
# معنى العدل
# وموقع اعتقادنا منه

عن الإمام أمير المؤمنين (ع) : (التوحيد أن لا تتوهمه والعدل أن لا تتهمه) ، العدل صفة من الصفات الثبوتية ـ المارة الذكر ـ ولكن لكثرة الحديث عن هذه الصفة والاشكالات الواردة عليها كان لزاماً علينا توضيح معنىٰ العدل وبيان اعتقادنا منا .

العدل هو ضد الظلم وعدل الله هو تنزيه الله عن الظلم (والظلم هو التعدي ووضع الشيء في غير موضعه الذي يليق به وهذا نقصٌ بالضرورة والمفروض أنه تعالىٰ مسلوب عن جميع النقائص فهو عادل فالعدل هو تنزيهه تعالىٰ عن النقائص الفعلية)[٦] وأنه لا يتصف بصفات الظالم فلا يفعل القبيح ولا يجبر العباد علىٰ الطاعة أو العصيان وسيجزيهم بما عملوه ثواباً أو عقاباً . فلا جور في قضائه ولا حيف في حكمه ولا يكلف عباده بما لا يطيقون ويعاقبهم علىٰ ما يستحقون فهو عادل في حكمه وخلقه وأفعاله . فإذن معنىٰ العدل هو رعاية الحقوق كاملة علىٰ عكس الظلم الذي يعني عدم احترام الحقوق أو عدم رعاية حقوق الناس فبالعدل توزع الحقوق علىٰ الناس حسب الأولويات الطبيعية بينما الظلم يعني سحق تلك الأولويات وبالتالي اضاعة حقوق الآخرين ويجدر بنا أن نشير إلىٰ أنه تعالىٰ غير مدين أو مطلوب لأي إنسان بل لأي كائن في الوجود فما يعطينا سبحانه من نعمه وبركاته وفيضه ورحمته فكلُّ عطائه ليس مقابل طلب ماضٍ نطلبه منه

سبحانه!! بل هو من منه وعطفه ونقرأ في الدعاء (. يا من يعطي من سأله ، يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحننا منه ورحمة . .) وهذا التوزيع العادل هو الذي يجعلنا نُكبر عظمة الخالق الكريم في كل صنوف الطبيعة فجعل للإنسان عقلاً مخططاً مبدعاً دون الحيوان وجعل الإنسان يمشي علىٰ قدميه دون الحيوان وجعل للسمك القدرة علىٰ العيش في الماء وهكذا . . وحتماً إن هذه الأمثلة لا تثير الفضول والتساؤل في صفوفنا لأنها هادئة ونستوعبها ولكن وبالتأكيد هنالك إثارة كبيرة لو تناولنا خصوصيات البشر واختلافاتهم الواضحة في الرزق والجمال والحياة وهذا نُحيله لموضوع الشبهات ـ الذي سيأتي ـ هذا من جهة ومن جهة أُخرىٰ نلاحظ أن الموجودات تختلف بعضها عن بعض في قدرتها علىٰ اكتساب الكمية المعينة من الفيض الإلهي وذلك لأن الله خير محض وكمال محض فهو يفيض علىٰ المخلوقات من الخير المطلق والكمال المطلق فالمسألة متعلقة بالأرضية المتوفرة لدىٰ الموجودات فباختلاف القدرات في استلام روح الفيض الإلهي اختلفت الموجودات فيما بينها وتفاوتت الخصوصيات من كائنٍ لكائن ومن جنسٍ لجنس بل من إنسان لإنسان في رزقه وجماله وبيئته وهكذا . . ومع هذا نلاحظ أن الفرص موزعة بشكلٍ متساوٍ للجميع أي حالة التساوي التي نسميها بالعدالة في توزيع العطاءات بالذات من هذا الفيض الكريم .

ويمكن أن تبرز أمامنا مساءلة ، فلو حصرنا السبب إلىٰ اختلاف القابليات والقدرات في استقبال التوزيع الإلهي المطلق نقول لماذا الاختلاف في هذه القدرات أيضاً ؟ ولماذا التفاوت في هذه القابليات ؟ وتبقىٰ المساءلة شاخصة وتبحث عن الإجابة الوافية ونحيل ذلك أيضاً إلىٰ موضوع الشبهات والردود عليها ـ بإذنه تعالىٰ ـ . . والآن لماذا الظلم والقبح في المجتمع ولمن ينسب ذلك ؟ هل يمكن أن ينسب إلىٰ الله عز وجل ـ كما يفعل البعض ـ ؟ .

يجيب شيخنا المظفر بقوله : (فلو كان يفعل الظلم والقبح ـ تعالىٰ

عن ذلك ـ فإن الأمر في ذلك لا يخلو عن أربع صور :

١ ـ أن يكون جاهلاً بالأمر فلا يدري أنه قبيح .

٢ ـ أن يكون عالماً به ولكنه مجبور علىٰ فعله وعاجز عن تركه .

٣ ـ أن يكون عالماً به وغير مجبور عليه ولكنه محتاج إلىٰ فعله .

٤ ـ أن يكون عالماً به وغير مجبور عليه ولا يحتاج إليه فينحصر في أن يكون فعله له تشهياً وعبثاً ولهواً . وكل هذه الصور محال علىٰ الله تعالىٰ وتستلزم النقص فيه وهو محض الكمال فيجب أن نحكم أنه منزه عن الظلم وفعل ما هو قبيح)[٧] .

والأدلة كثيرة علىٰ عقيدة ـ عدل الله ـ منها عقلية ومنها شرعية نقلية ويمكن أن نذكر بعضها :

( أ ) قد ذكرنا في نقلنا عن الشيخ المظفر ـ رحمه الله ـ كيف أنه حصر المسألة بالصور الأربع وجعل المسألة مستحيلة عقلاً .

(ب) قال سبحانه في كتابه العظيم : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ كيف أنه يأمر بالعدل وهو لا يفعله ـ والعياذ بالله ـ .

(جـ) نزّه الله عز وجل ذاته المقدسة عن الظلم واللهو والعبث . بقوله تعالىٰ :

﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربّك بظلامٍ للعبيد﴾ .

[سورة فصلت ؛ ٤١ الآية : ٤٦] .

﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ .

[سورة الكهف ؛ ١٨ الآية : ٤٩] .

﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ .

[سورة النساء ؛ ٤ الآية : ٤٠] .

وبقية الآيات الكريمة والاحاديث والروايات الدالة علىٰ العدل الإلهي وخاصة رواية أمير المؤمنين (ع) التي ذكرناها في بداية بحثنا عن العدل حيث ردّ علىٰ أُولئك الذين شككوا بعدل الله .

# (٤)
# الجبر والتفويض

الجبر لغةً : الاكـراه والارغام والقهـر ، واصطلاحـاً : هو إكـراه وإرغام من قبـل الله سبحانـه لعباده على فعـل الأشياء حسنـة كانت أم قبيحـة من دون أية إرادة للرفض من قبل العباد

أما التفـويض لغـةً : تقـول تفـويضـاً إليـه الأمـر أي صيـره إليـه وجعله الحاكم فيه .

واصـطلاحـاً : إن الله تعـالىٰ جعل أفعـال العباد حـرةً مطلقـة يفعلون ما يشاؤون دون أن تتدخل إرادة الله سبحانـه في أعمالهم الخيِّـرة أو الشريـرة فهم مستقلون بالقرار والإرادة تماماً وعلىٰ ضوء ما تقـدم اختلفت المدارس الفكـرية إثباتاً ونفياً لأحد الجانبين فذهبت مدرسة الجبرية إلىٰ أن الله سبحانه هو الخالق المـدبر لهـذا الكون فكـل الأفعال مصـدرها منـه حيث أنـه خلق كـل الأشيـاء الخيرة والشريرة وخلق الكفر والإيمـان وكل مـظاهر الحيـاة ومنها أفعـال العباد فليس للعباد دور في أعمالهم وإنما هي أعمال الله بكافة أنواعها .

وقدموا مجموعة استدلالات علىٰ مذهبهم هذا منها :

( أ ) إن الله يعلم بما كان وما سيكون من افعال عبـاده وكل مـا في علمه سيقع حتماً وواقعاً فهو سبحـانه يعلم بـوجود الكفـار سابقـاً ولاحقاً فـلا بد إذن أن يقـع الكفر ويستحيـل علىٰ الكافـر أن يغيِّر نهجـه إلىٰ الإيمان لأن الفـرض

واقـع في علم الله وتغيّره يجعلنـا نصفـه سبحـانـه وتعـالىٰ بـالجهـل وهـذا مستحيل .

(ب) إن إرادة الله عـز وجل هي الغـالبة وإليهـا ينتهي الأمـر كله فلو أراد الله للإنسان الإيمـان وأراد الإنسان لنفسـه الكفر والضـلال ففي مجال التحقيق لـو انتصرت إرادة الإنسـان الكافـر فكفـر هـل نقـول إن إرادة الله مغلوبـة علىٰ أمرها؟ أم الأفضـل أن نقول أن هـذه الإرادة النابعـة من الإنسان نحـو كفره هي من عنـد الله فالله هـو الغالب بـإرادته والإنسـان مجبـر لتـطبيق إرادة الله أي إن الإنسـان مجبَر علىٰ أفعـالـه ومضـطَر إليهـا وبمعنىٰ آخـر إمـا أن نجـرد الله من الإرادة الدائمة وإمـا أن تكون إرادتـه هي النافـذة حتىٰ لو سقـطنا في فـخ عدم التنزيه . ومن هنا تُفسَّر بعض الآيات الكريمة على ظواهـرها ليـدعموا الفكـرة الجبرية مثـلاً قولـه تعالىٰ في سـورة النساء ؛ الآيـة : ٧٨ ﴿**وإن تصبهم حسنة يقـولوا هـذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولـوا هذه من عنـدك قل كـلّ من عنـد الله**﴾ وفي سورة إبـراهيم ؛ الآية : ٤ ﴿**فيضـل الله من يشـاء ويهـدي من يشاء**﴾ .

فإذن الهداية والضلال والحسنات والسيئات كلهـا من عند الله سبحـانه ! ولا دور للإنسان في ذلك فقد قال سبحانه :

﴿**ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصـح لكم إن كـان الله يـريـد أن يغويكم**﴾ .

[سورة هود ؛ ١١ الآية : ٣٤] .

ومقابل مدرسة الجبـرية هنـالك مـدرسة المفـوضة التي تقـول بالاختيـار علىٰ عـكس الجبـر حيث أن الله سبحانـه رفع الحـظر عن الناس وتـركهم في مطلق الحريـة في أعمالهم خيـراً أم شراً هـذا الترك والتفـويض للإنسـان بعيد عن إرادة الله المتمثلة في سلطانه وأوامره ونواهيه .

فـالقرآن الكـريم يقـول : ﴿**ونفسٍ ومـا سـواهـا . فـألهمهـا فجـورهـا وتقواها . قد أفلح من زكّاها . وقد خاب من دساها . .**﴾ .

[سورة الشمس ؛ ٩١ الآيات : ٧ ـ ١٠] .

وقوله تعالىٰ: ﴿إنّا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً . .﴾ فالإنسان هو محور الإرادة في تحقيق الخير أو الشر .

[سورة الإنسان ؛ ٧٦ الآية : ٣] .

ومن الطبيعي أن أدلة المدرسة المفوّضة كانت ضعيفة وربما أضعف من أدلة المدرسة الجبرية لذلك نلاحظ أنّ التفويض رأي باطل عقلاً وشرعاً .

أما عقلاً فلا يعدو الأمر بين ما يلي :

( أ ) إما أن الله سبحانه علم أن المخلوقات بإمكانها أن تدير نفسها مستقلة تماماً وهذه الإدارة الذاتية توصلها إلىٰ الكمال المنشود ، وهذا العلم المفترض لحدّ الآن لا نرىٰ تصديقه أو مصاديقه علىٰ الأرض فإما أن نقول إن افتراضنا باطل وهو الصحيح وإما أن نصفه سبحانه بالجهل ـ والعياذ بالله ـ حيث يفوض الأمر لعباده المحتاجين لقوانينه فبالنتيجة نرىٰ العكس حيث ندرك بالوجدان أن الإنسان بحاجة ماسة إلىٰ أوامر الله ونواهيه دوماً ولا يستطيع أن يستغني عنها أبداً .

(ب) وإما أن نقول إنه سبحانه عاجز عن تدبير أمورهم وإدارتهم لذلك فوّض الأمر لهم وهذا العجز لا يليق بمقامه تعالىٰ وليس من صفات الأزلي ـ كما قلنا سابقاً ـ .

(جـ) المسلمون بالأجمع يؤمنون بأن الرسالة الإسلامية شاملة للنواهي والأوامر الإلهية والله سبحانه طلب من العباد إطاعة أوامره وتطبيقها والابتعاد عن نواهيه وسيجزي العباد علىٰ أعمالهم قال سبحانه :

﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ .

[سورة آل عمران ؛ ٣ الآية : ١٤٤] .

﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ .

[سورة إبراهيم ؛ ١٤ الآية : ٧] .

فإذن المسألة خالية من التفويض المطلق للعباد .

لذلك حينما يسأل الحسن بن علي الوشا الإمام الرضا (ع) : الله فوض الأمر إلىٰ العباد فقال (ع) : الله أعزّ من ذلك قلت : فأجبرهم على المعاصي قال : الله أعدل واحكم من ذلك ثم قال : قال الله : (يا بن آدم أنا أولىٰ بحسناتك منك وأنت أولىٰ بسيئاتك مني عملت بالمعاصي بقوتي التي جعلتها فيك) .

وعن أبي عبد الله الصادق (ع) يسأله أحد أصحابه بعد أن سمع لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين امرين قال : وما أمر بين أمرين ؟ .

قال (ع) : (مثل ذلك مثل رجل رأيته علىٰ معصية فنهيته فلم ينته فتركته ففعل تلك المعصية فليس حيث لم يقبل منك فتركته كنت الذي أمرته بالمعصية) والإمام الرضا (ع) يقول : ( . . فإن أئتمر العباد بطاعته لم يكن الله عنها صاداً ولا منها مانعاً وإن آئتمروا بمعصية الله فشاء أن يحول بينهم وبين ذلك فعل وإن لم يحل وفعلوه فليس هو الذي أدخلهم فيه) .

فلو أعطيت لإنسان سلاحاً يدافع عن نفسه وعلّمته الطريقة والهدف المطلوب فلو استعمله الإنسان في قتل إخوانه المؤمنين فهل من العقل أن نقول إن سبب القتل هو الإنسان المعطي للسلاح أو المدرب له ! ومثال أقرب لو أعطينا إنساناً مالاً ليستفيد منه في حياته بينما يأخذه ويرميه في البحر ويموت جوعاً هل سبب الموت هو الباذل؟ ، ومما ينقل في الروايات أن أبا حنيفة في ذات يوم خرج من عند الإمام الصادق (ع) فاستقبله الإمام الكاظم (ع) فقال له : يا غلام ممن المعصية ؟ فقال (ع) : (لا تخلو من ثلاث : إما أن تكون من الله عز وجل وليست منه فلا ينبغي للكريم أن يعذب عبده بما لم يكتسبه . وإما أن تكون من الله عز وجل ومن العبد فلا ينبغي للشريك القوي أن يظلم الشريك الضعيف ، وإما أن تكون من العبد وهي منه فإن عاقبه الله فبذنبه وإن عفا عنه فبكرمه وجوده) .

ومن هنا جاءت مدرسة أهل البيت (ع) لتبين الحق وتبرزه إلىٰ الساحة

بـدعم الآيات القـرآنية المجيـدة ولتزيـل الابهام وتـرفع الشبهـات عن الـطريق مستندة إلى الشرع والعقـل فقد قـال الإمام الصـادق (ع) للرد على المدرستين المذكورتين :

(لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين) .

وقال الشيخ المفيـد(*) في توضيـح حديث الإمـام (ع) : (إن الله تعالى مكن الخلق من أعمـالهم وأفعالهم ووضـع لهم حدوداً فيهـا وأمـرهم بحسنهـا ونهـاهم عن قبيحهـا فلم يكن بتمكينهم إيـاهـا مجبـراً لهم عليهـا ولم يفـوض إليهم الأعمال لمنعهم من أكثرها) .

فالله سبحانه بيّن حدوده الشـرعية أوامـره ونواهيـه وزوّدهم بارادة خـاصة تمكنهم من فعـلِ الشيء أو تـركـه وجعـل أمـر الاختيـار بيـد الإنسـان ليختـار طـريقه بملء إرادتـه وهذا لا يعني الجبـر من ناحيـة ولا التفويض من نـاحيـة أخـرى وسيـأتي البحث عن اللطف الإلهي والتـوفيق الإلهي وكيف أن إرادة الإنسـان مهما بلغت فهي محـاطة بـإرادة الله سبحانـه فبإمكـانه (عـز وجل) أن يقـطع عمـر الإنسـان الـذي ينـوي أن يفعـل شيئاً وينهي إرادة الإنسـان أيضـاً فـإذن هـذه الإرادة الإنسـانية هي قـوة يمنحها الله الخـالق لـلإنسـان كمـوهبة العقل ونعمة العين فبإمكانه تعالى أن يسلب عقـل الإنسان فيصيـر مجنونـاً أو ...مه وهو أعمى فالمسألة الاختيارية النابعـة من إرادة الإنسان إنمـا هي تحت الارادة الإلهية المطلقة التي تستعمل صلاحياتهـا الكبرى متى شـاءت فالإنسـان مختار في حدود معينـة ولله سبحانـه سلب هذه القـدرة من الإنسان ، واتـذكر ههنا كلمة لـلإمام علي (ع) حيث يقـول : (عرفت الله سبحـانه بفسـخ العزائم وحل العقود ونقض الهمم)(٨) .

واستدل مذهب أهل البيت بالآيـات القرآنيـة الكريمـة منها : في سـورة

---

(*) الشيخ المفيد هو أبو عبد الله محمد بن محمـد النعمان المفيـد البغدادي من أبـرز تـلاميذ السيـد المرتضى والشيـخ الطوسي وكـان من أجل علمـاء الشيعة الإمـامية وقـد أحصى له السيد الأمين قريباً من مائتي كتاب ورسالة في الفقه والكلام والحديث .

الإنسان ؛ الآية : ٣ ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ وفي سورة الكهف ؛ الآية : ٢٩ ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ وردّوا علىٰ تفسير تلك الآيات الكريمة التي اعتبرها المجبرون أدلة قاطعة لهم والحال إنها ليست أدلة لهم بل عليهم . وبالاضافة لما سبق فإن مدرسة أهل البيت اعتمدت كما قلنا علىٰ الشرع والعقل .

فأثبتت الاختيار ودفعت الجبر والتفويض جانباً ومن أهم الأدلة علىٰ ذلك ما يلي :

( أ ) القضية الوجدانية وخلاصتها أن يسأل الإنسان نفسه هل أنه مجبر علىٰ فعل معين من أكل وشرب وسفر وما شابه ؟ هل إنه مجبر للحضور في الاحتفال مثلاً أو تناول طعام معين؟ ففي الحقيقة إن الإنسان يمتلك الحرية المطلقة في الاختيار وكما قلت تحت إشراف الإرادة الإلهية قطعاً .

(ب) حينما نؤمن بأن الله عادل فهل من العدل أن يجبر عباده علىٰ المعاصي ويعاقبهم عليها كيف نتصور ذلك فقد قال الإمام الصادق (ع) : (إن الناس في القدر علىٰ ثلاث أوجه : رجل يزعم أن الله عز وجل أجبر الناس حى المعاصي فهذا قد ظلم الله في حكمه فهو كافر ورجل يزعم أن الأمر مفوّض إليه فهذا قد وهب الله في سلطانه) .

وعلىٰ هذا فقد أساءت المدرسة الجبرية لله وبظنها أنها تدافع عنه سبحانه فبدلاً من أن تجعله عادلاً جعلته أظلم الظالمين للإنسان حيث يجبر الإنسان علىٰ المنكر دون قدرةٍ منه علىٰ دفع ذلك ومن يعاقب المسيء المجبور ؟ .

(جـ) لو كان الأمر كما يذهب المجبره لبطل التشريع الإلهي من أساسه فمادام الإنسان مكره علىٰ أفعاله فمن الخطأ تكليفه بأوامر ونواهٍ وما إرسال الرسل وإنزال الكتب إلاّ أعمال عبثية لا جدوىٰ من ورائها ـ والعياذ بالله ـ .

( د ) لو ماشينا الجبرية لخرجنا ببطلان الحساب والعقاب في النعيم أو العذاب وذلك لأن الشاكر والكافر بدرجة واحدة حيث أنهما مجبران على الطاعة أو الجحود فأما كلاهما إلى الجنة وأما كلاهما إلى النار لأنه لا دور لأحدهما في أعماله وتصرفاته ما دامت القدرة الذاتية مسلوبة في اختيار الأعمال .

(هـ) ما دام الإنسان مسيّر وإن أفعاله التي يؤديها هي أفعال غيره وإرادة غيره بقرارات غيره وهو الله سبحانه ـ حسب الفرض ـ فلا داعي إذن لمعاقبته في الشريعة الإسلامية في الدنيا والآخرة فالزاني والسارق والقاتل كلهم أدّوا هذه الجرائم كممثلين على المسرح مجبرين على أداء هذه الأدوار المحددة لهم فمن المعيب بل ومن الظلم أن نسن لهم تشريع العقوبة في قطع يد السارق أو جلد الزاني وغيرهما ، التي نراها في القرآن الكريم .

( و ) أما أدلة المجبرة (الماضية) من أن إرادة الكافر لو غلبت لم نستطع أن نقول بغلبتها وإنما نعطي الغلبة لله وإن كانت النتيجة قبيحة وهذا الكلام ساذج حيث أنهم أرادوا الدفاع عن قدرة الله وضعوه في قفص الاتهام بعنوان الظالم المطلق ـ نستغفره تعالى ـ أو أن ما في علم الله لا بد أن يتحقق في الخارج شراً أو خيراً فالكافر لا بد أن يظهر في الميدان عملياً كحقيقةٍ خارجيةٍ مصدقةٍ لعلم الله ونفي هذا التصديق العملي جهل من قبل الله وهكذا . . والحق إن الأمر واضح والردّ على ذلك واضح أيضاً حيث أن العلم بالشيء لا ينفي ما عداه والعلم بالشيء لا يعني أنه هو الفاعل فالعالم بأوقات الخسوف والكسوف والتقلبات الجوية ودرجات الحرارة هل نعتبره أنه هو فاعلها ؟ وليس من عاقل يقول هذا .

وأما الآيات الكريمة التي يظهر منها ما يستفيده المجبره . ففي الحقيقة هنالك آيات كريمة أكثر ظهوراً منها تفيد العكس مثلاً يقول سبحانه :

﴿ونفسٍ وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ .

[سورة الشمس ؛ ٩١ الآيات : ٧ ـ ١٠] .

فيجعل الله للإنسان وحده حق تقرير مصيره ﴿قد أفلح من زكّاها . .﴾ سأل أحد الأصحاب الإمام الرضا ـ سلام الله عليه ـ الله فوّض الأمر إلىٰ العباد ؟ قال الإمام : (. . قال الله عز وجل يا بن آدم أنا أولىٰ بحسناتك منك وأنت أولىٰ بسيئاتك مني عملتَ المعاصي بقوتي التي جعلتها فيك)، فيضع الأمر بيَد الإنسان نفسه، وآيات كريمة مضت منها :

﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ .

[سورة الإنسان ؛ ٧٦ الآية : ٣] .

وغيرها من الآيات والروايات . وأما الآيات التي يشم منها ظاهراً تأييد رأي المجبرة كما في سورة النساء : ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كلٌ من عند الله﴾ . آية ٧٨ .

فالحسنة في اللغة العربية لها معانٍ عديدة منها الرحمة والخير والنعمة كما للسيئة معان عديدة منها المصيبة والحدث المؤلم ونقص بالأموال والأنفس . وهكذا ورد في المصحف المبارك قوله تعالىٰ :

﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ .

[سورة آل عمران ؛ ٣ الآية : ١٢٠] .

فالحسنة هنا بمعنىٰ الرحمة والبركة أما السيئة فهي تعني المصيبة والكارثة ، وفي قوله تعالىٰ في سورة الأعراف ؛ الآية : ١٣١ ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيّروا بموسىٰ ومن معه . .﴾ فالحسنة بمعنىٰ النعمة والبركة والسيئة بمعنىٰ المصيبة والعذاب فإذن ليست الحسنة بمعنىٰ الطاعة والالتزام دائماً وكذلك السيئة ليست بمعنىٰ الكفر

والعصيان دوماً بل لهما معانٍ أخرىٰ ـ كما مر ـ وفي سورة إبراهيم ؛ الآيات : ٢ ـ ٤ ﴿**الله الذي له ما في السمٰوات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد ، الذين يستحبون الحياة الدنيا علىٰ الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلالٍ بعيد ، وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم**﴾ .

فذهبت مدرسة المجبرة إلىٰ أن الله تعالىٰ يضل العباد بفعله ويهديهم بفعله كذلك ويستنتجون من هذا التفسير بأن الإنسان مجبر علىٰ أفعاله حسنة وقبيحة فإنها من الله وبأمره وكما مضىٰ في الآية السابقة إن اللغة العربية واسعة المفاهيم دقيقة الأوصاف فالهدىٰ والضلال كلمتان متقابلتان وردتا في القرآن الكريم كذلك بمعانٍ عديدة منها : تأتي كلمة الهدىٰ بمعنىٰ الإرشاد كقوله تعالىٰ : ﴿**إهدنا الصراط المستقيم**﴾ أي أرشدنا وتأتي كلمة الضلال بمعنىٰ التيه والضياع كقوله تعالىٰ : ﴿ . . **غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾ في سورة الحمد أي بمعنىٰ التائهين ، وتأتي كلمة الهدىٰ بمعنىٰ الزيادة في البركات والألطاف كقوله تعالىٰ :

﴿**والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم**﴾ .

[سورة محمد ؛ ٤٧ الآية : ١٧] .

بينما تأتي كلمة الضلال بمعنىٰ الموت كقوله تعالىٰ : ﴿**وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد**﴾ .

[سورة السجدة ٣٢ ؛ الآية : ١٠] .

أي لو متنا سنبعث من جديد بعد الموت ، وتأتي كلمة الهدىٰ بمعنىٰ الثواب كقوله تعالىٰ :

﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار**﴾ .

[سورة يونس ؛ ١٠ الآية : ٩] .

أي يثيبهم ويجزيهم ا لجنة .

وتأتي كلمة الضلال بمعنىٰ العذاب كقوله تعالىٰ في سورة القمر ؛ الآية : ٤٧ ـ ﴿إن المجرمين في ضلالٍ وسعر﴾ أي في عذاب وسعير ـ والمعنىٰ المعروف لكلمة الضلال هو معصية الله والخروج عن الطريق المستقيم علىٰ عكس الهدىٰ فتعني إطاعة الله والاستقامة علىٰ الطريق السوي .

وبعد هذه المقدمة اللغوية نعود للآيات الكريمة الثلاث من سورة إبراهيم ، فالمجبرة قالت إنها تدل علىٰ أن فعل الضلال والهدىٰ من قبل الله تعالىٰ فالإنسان مضطر في أعماله وتصرفاته ومجبر عليها خيراً أو شراً بدليل الآيات هذه وغيرها علىٰ نفس الطريقة الاستنتاجية والحق إن هذه الآيات لا تدل علىٰ الجبر في افعال العباد حيث سياقها يشير إلىٰ أن إرادة الإنسان هي التي تقرر مسيرته في الحياة فالناس الذين يحبون الحياة الدنيا ويفضلونها علىٰ الآخرة بل والذين يقفون أمام الحق وينهجون نهجاً غير مستقيم هؤلاء قد تركوا الرسالة التي جاءتهم بلسانهم ووضحت لهم سبل الخير والصلاح وحذرتهم من الشر والفساد . فمن خلال المعنىٰ العام للآيات الثلاث نستدل علىٰ الاختيار لدىٰ الإنسان في تحديد سلوكه وتصرفاته ونرىٰ أنّ معنىٰ الضلال في الآية الرابعة هو العذاب ومعنىٰ الهدىٰ هو الثواب وقد مرّ بالمقدمة إن من معاني الهدىٰ والضلال ذلك فيصير المعنىٰ فيعذب الله من كفر ويثيب من آمن واطاع ولذا نرىٰ نهاية الآية الرابعة ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ فمن الحكمة الإلهية أن يبين الطريق المستقيم والطريق المنحرف ويترك الأمر للإنسان كي يختار بإرادته . لتثبت حكمته تعالىٰ في الأمر بطاعته والنهي عن معصيته ومن ثم يثيب المطيع ويهلك العاصي أما لو كان الله يكرههم علىٰ الأفعال والمعاصي فليس من الحكمة إذن إرسال الرسل وإصدار الأوامر والنواهي لمن يكون مسلوب الإرادة . . وهكذا الأيات الأخرىٰ التي يستدل بها الجبريون علىٰ دعواهم في سلب الاختيار والإرادة من الإنسان فالإنسان يفعل الخير أو الشر لا بإرادته الخاصة وإنما بفعل الله وقدرته فالإنسان آلة

تنفيذية تفعل دون قرارها وإنما قرارها هو قرار الله خيراً أو شراً ـ والعياذ بالله ـ واحتجاجهم في ذلك واهٍ جداً وعلىٰ غرار ما تقدم تنهار كل استدلالاتهم من القرآن الكريم والسنة الشريفة بل تنقلب عليهم خاصة حينما نقرأ ،الآيات الظاهرة علىٰ اختيار الإنسان لسلوكه وأعماله والنافية للجبر والاضطرار فمن الآيات هذه : قوله سبحانه وتعالىٰ :

**﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾ .**

[سورة فصلت ٤١ ؛ الآية: ٤٦].

**﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ .**

[سورة البقرة ٢ ؛الآية: ٧٩].

**﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ .**

[سورة المدثر ؛ الآية : ٣٨] .

**﴿فمن شاء فليؤمن ومن يشاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً﴾ .**

[سورة الكهف ١٨ ؛ الآية: ٢٩].

**﴿سارعوا إلىٰ مغفرةٍ من ربكم . . .﴾ .**

[سورة آل عمران ٣ ؛ الآية: ١٣٣].

**﴿ما سلككم في سقر ،قالوا لم نك من المصلين﴾ .**

[سورة المدثر ٧٤ ؛ الآيتان ٤٢ ، ٤٣].

وأمثال هذه الآيات المباركة فإنها تدل علىٰ حرية الإنسان في اختيار أعماله وسلوكه وهو الذي يقرر مصيره يوم الحساب . وبالنتيجة نفهم أن مدرسة أهل البيت هي التي أعطت المعنىٰ الحقيقي المتزن بين الجبر والاختيار في نظرية الوسط الإسلامي بين الإفراط والتفريط فللإنسان إرادته

وحــريتــه ولكن الإرادة الكبــرىٰ هي بيـد الله عــز وجـل وكمثــالٍ تـوضيحي للتقريب ـ القوة الكهربائية ـ فنحن احرار في تصرفنا بـالقوة الكهـربائيـة داخل البيت فنستخـدمها للسخان تارة  وللبـرادَ والثلاجـة تارة أخـرىٰ ونشعـل الضيـاء الكبير أو الصغير بحـرية تـامة ولكن أمـر الطاقـة الكهربـائية الـرئيس بيد دائـرة الكهرباء فمتىٰ مـا شاءت تـطفىء الطاقـة الكهربـائية أو تشعلهـا فإرادتنا داخل البيت محكومة بإرادة الدائرة الرئيسية الموزعـة للطاقة الكهـربائيـة وبمعنىٰ آخر إن حـريتنـا مـطلقـة نسبيــاً في داخـل البيت وهكــذا نفهم الأمـر بين الجبــر والتفويض .

فالله سبحانه بيده القدرة الكبرىٰ ومنح للإنسان حريـة ضمن دائرة معينـة فإن أراد الله تعطيل حركة الإنسان في سلب حريته لفعل ذلك متىٰ شاء .

# (٥)
# القضاء والقــدر

القضاء هو الامضـاء الإلهي علىٰ أمرٍ حتمي الـوقوع الـذي لا مرد لـه ، والقَدَر هو الحد الطبيعي من القانون الإلهي في الـوجود فـالله قدّر لـلإنـسـان أن يكـون له عقـل فلو توفـرت الظروف الـذاتية والموضوعية فيصير أمـراً واقعيـاً وحتميـاً أي قضاءً. قـال الإمام الكـاظم (ع) : (القدر هـو تقـديـر الشيء من طوله وعرضه والقضاء هو الامضاء الذي لا مـرد له) وقـال الإمام الـرضا (ع) : (القدر هندسة والقضاء ابرام) .

وللقضـاء والقدر معـانٍ أخرىٰ وردت في القـرآن الكـريم منهـا الإخبـار كقـوله تعـالىٰ في سورة الإسـراء ؛ الآية : ٤ ﴿وقضينـا إلىٰ بني إسرائيـل في الكتـاب لتفسدن في الأرض مـرتين﴾ أي إخبارهم بـذلك ومنهـا الارادة كقولـه تعـالىٰ في سورة البقـرة ؛ الآية : ١١٧ ﴿وإذا قضىٰ أمـراً فإنمـا يقـول لـه كن فيكـون﴾ أي إذا أراد أمـراً ومنهـا الحكـم والفصـــل كقـولـه تعـالىٰ في سـورة طه ؛ الآية : ٧٢ ﴿فاقضِ ما أنت قـاض﴾ ومنها الأمـر كقولـه تعالىٰ في سـورة الإسراء ؛ الآية : ٢٣ ﴿وقضىٰ ربك ألا تعبدوا إلاَّ إيـاه وبالـوالدين إحسـاناً﴾ أي أمـر بعبادتـه ومنها المـوت كما في سـورة القصص ؛ الآية : ١٥ ﴿فـوكزه موسىٰ فقضىٰ عليه﴾ .

ومن معاني القدَر التحـديد بـالكمية كقـوله تعـالىٰ : ﴿وإن من شيءٍ إلاَّ

عندنا خزائنه وما ننزّله إلّا بقدرٍ معلوم﴾ ومنها الخلق كقوله تعالىٰ : ﴿وقدّر فيها أقواتها﴾ أي خلقنا ومنها التضييق كما في سورة الفجر ؛ الآية : ١٦ ﴿وأما إذا ما ابتلاه فقَدَرَ عليه رزقه فيقول ربي أهانن﴾ .

ومنها القضاء الحتمي كما في سورة الأحزاب ؛ الآية ٣٨ : ﴿كان أمر الله قَدَراً مقدوراً﴾ أي حتماً مقضيّا أما المعنىٰ الذي هو محل نزاع الفلاسفة والمتكلمين هو الذي يوصلنا إلىٰ سلب ارادة الإنسان وإجباره علىٰ أعمالٍ معينة خيِّرة أو شريرة بدعوىٰ أن القضاء والقدر ملزمان ولا مفر منهما أو ما يقابل هذا المعنىٰ وهذا المذهب .

وقد اتفق المسلمون علىٰ أن أعمال الناس تجري بقضاءٍ وقَدَرٍ إلٰهيّين فقد ورد في الحديث الشريف (كل شيءٍ بقضاء وقَدَر) ولكن كالمعتاد اختلف المسلمون في تحديد مفهوميْ القضاء والقدَر وقبل أن نوضح الاختلاف نحاول أن نسلط الضوء علىٰ جزء من المسألة في البداية فنقول : إن أفعال العباد اللاإرادية هي خارجة عن موضوع البحث وهي التي نسميها بالضرورية كالأعمال الداخلية للإنسان كعمل المعدة وجهاز التنفس ونبض القلب والدورة الدموية . فإذن الحديث يقتصر ويدور حول الأعمال الإرادية للإنسان والتي نسميها بالأعمال الاختيارية الخارجية التي تخضع لإرادة الإنسان فيسيّرها كيف يشاء أو يُجبر علىٰ التصرف بها كما يذهب البعض لذلك، كالذهاب والاياب والاعتقاد والعبادة والأكل والشرب والنوم وسائر الأفعال. وهنا أكّدت مدرسة المجبرة بأن القضاء والقدر الإلهيين هما مفروضان علىٰ البشر فالله سبحانه خلق أفعال الناس بقضائه وقدَره وما يؤدي الناس من أعمال فهي بقضاء الله وقدَرِه فالله قدَّر الكفر والعصيان علىٰ الكافرين والعاصين وقضىٰ بالكفر والعصيان عليهم وهو الذي قدّر وقضىٰ بالطاعة والإيمان علىٰ المطيعين والمؤمنين من دون أن تكون للناس إرادة وقابلية تردّ قضاء الله وقدَرَه فالناس مسلوبو الإرادة والاختيار أمام القضاء والقدَر الإلهيّين وبمعنىٰ آخر أن الله خلق أفعال العباد الحسنة والقبيحة وأجبرهم علىٰ الإستسلام لها وتطبيقها فالمجبرة أرادوا أن ينفوا الشريك من

الله في افعـالـه ولكنهم سقـطوا في وحـلٍ عميق حيث نسبـوا إليـه الـظلم والفساد .

وأمـا المفوّضـة فإنهم ذهبـوا إلىٰ أن الله خلق العباد وتـرك لهم حـريتهم المطلقة والكـاملة في كل التصـرفات والسلوك لـذلك أرادوا أن ينـزهوا الله من الـظلم والجور والفسـاد فوقعوا في وحـلٍ عميق أيضـاً حيث أنهم عـزلـوا الله سبحـانه عن ملكـه وجعلوا له شـريكاً في الأفعـال فقد قـال الرسـول الأعـظم (ص) : «من زعم أن الله يـأمـر بـالسـوء والفحشـاء فقـد كـذب علىٰ الله ومن زعم أن الخيـر والشر بغيـر مشيئة الله فقـد أخرج الله من سلطانـه ومن زعم أن المعـاصي بغيـر قـوة الله فقـد كـذب علىٰ الله ومن كـذب علىٰ الله ادخله النار»(٩) .

وهذه خلاصة مدرسـة أهل البيت ـ في الجبـر والتفويض ـ فـالله سبحانـه منـزّه من أن يجبـر عبـاده علىٰ عمـلٍ معين ومن ثم يعـاقبهم عليـه لأن ذلـك خلاف عدله وحكمته وخلاف مانشعره في وجداننا الشخصي .

ونورد هنا روايـةَ أمير المؤمنين (ع) حينمـا سألـه أحد أصحـابه عن هـذه المسـألـة كمـا يـروي لنـا الكليني في الكـافي : (قـال : كـان أميـر المؤمنين صلوات الله عليه جالسـاً بالكـوفة بعـد منصرفـه من صفين إذ أقبل شيـخ فجثا بين يـديه ثم قـال له : يـا أمير المؤمنين أخبـرنـا عن مسيـرنـا إلىٰ أهـل الشـام أبقضـاء الله وقَدَر ؟ فقـال له أمير المؤمنين :أجـل يـا شيـخ مـا علوتم تلعـة ولا هبـطتم بـطن وادٍ إلا بقضـاءٍ من الله وقـدَر فقـال الشيـخ : عنـد الله أحتسب عنائي يا أميـر المؤمنين فقال لـه : مه يـا شيخ فـوالله لقد عـظّم الله لكم الأجر في مسيـركم وأنتم سائـرون وفي مقـامكم وأنتم مقيمـون وفي منصـرفكم وأنتم منصـرفون ولم تكـونـوا في شيءٍ من حـالاتكم مكـرهين ولا إليـه مضـطرين . فقال الشيخ وكيف ، لم نكن في شيءٍ من حالاتنا مكـرهين ولا إليه مضـطرين وكان بالقضاء والقدر مسيرنا ومنقلبنا ومنصرفنا فقال لـه : وتظن أنـه كان قضـاءً حتماً وقدَراً لازمـاً ؟ وإنه لـو كان كـذلك لبـطل الثواب والعقـاب والأمر والنهي

والزجر من الله عز وجل وسقط معنىٰ الوعد والوعيد فلم تكن لائمة للمذنب ولا محمدة للمحسن ولكان المذنب أولىٰ بالإحسان من المحسن ولكان المحسن أولىٰ بالعقوبة من المذنب تلك مقالة أخوان عبدة الأوثان وخصماء الرحمٰن وحزب الشيطان وقَدَرية هذه الأُمة ومجوسها . إن الله تبارك وتعالىٰ كلّف تخييراً ونهىٰ تحذيراً وأعطىٰ علىٰ القليل كثيراً ولم يُعصَ مغلوباً ولم يُطَع مُكْرِهاً ولم يملك مفوَّضاً ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ولم يبعث النبيين مبشّرين ومنذرين عبثاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) .

فأنشأ الشيخ يقول :

| | |
|---|---|
| أنت الإمام الذي نرجو بطاعته | يوم النجاة من الرحمٰن غفرانا |
| أوضحت من أمرنا ما كان ملتبساً | جزاك ربك بالإحسانِ إحساناً |

وفي رواية الصدوق في العيون بإسناده عن يزيد بن عمير قال :دخلت علىٰ علي بن موسىٰ الرضا (ع) بمرو فقلت له يا بن رسول الله روي لنا عن الصادق أنه قال لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين فما معناه، فقال الرضا (ع): من زعم أن الله تعالىٰ يفعل أفعالنا ثم يعذّبنا عليها فقد قال بالجبر ومن زعم أن الله عز وجل فوض أمر الخلق والرزق إلىٰ حجته (ع) فقد قال بالتفويض فالقائل بالجبر كافر والقائل بالتفويض مشرك، فقلت له يا بن رسول الله فما أمر بين أمرين، فقال: وجود السبيل إلىٰ اتيان ما أمروا به وترك ما نُهوا عنه فقلت له فهل لله عز وجل مشيئة وإرادة في ذلك،فقال: أمّا الطاعات فارادة الله ومشيئته فيها الأمر بها، والرضا والمعاونة عليها، وإرادته ومشيئته في المعاصي النهي عنها، والسخط لها والخذلان عليها، فقلت فلله عز وجل فيها القضاء قال : نعم ، ما من فعلٍ يفعله العباد من خير وشر إلا ولله تعالىٰ فيه القضاء، قلت فما معنىٰ هذا القضاء قال : الحكم عليهم بما يستحقونه علىٰ أفعالهم من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة)[١٠] .

فمن هنا نفهم بأن الجزاء الإلهي هو حق طبيعي لله تعالىٰ وذلك انطلاقاً

من عـدالتـه فمن العـدل أن يعـوّض الله الإنسـان المؤمن عن صبـره وجهـاده وعبادته بما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين يقول تعالىٰ :

﴿إنما يوفّىٰ الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ .

[سورة الزمر ؛ ٣٩ الآية : ١٠] .

ومن العدل أن يعاقب الله الإنسان المنحرف لعصيانه وانحـرافه وظلمـه ـ أيضاً ـ : ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ .

[سورة الزلزلة ٩٩ ؛ الآيتان: ٧ ، ٨].

وهذا الثواب أو العقاب إما أن يتجـزأ لمصلحة معينـة في الدنيـا والآخرة وإمـا أن يؤجـل تمـامـاً لـلآخـرة وبهـذا التـوجيـه نـدرك وبعمق العـدل الإلهي فحرمان في الـدنيا وعـطاء في الآخرة وصبـر في الدنيـا ونعيم دائم في الآخـرة وبـالمقابـل الاعتداء علىٰ الحقـوق في الدنيـا يعني الجحيم في الآخـرة فـإذن الحيـاة الآخرة تكمـل الحياة الـدنيا علمـاً بأن الـدنيـا عمـل بـلا حسـاب وفي الآخرة حساب بلا عمل. وبمعنىٰ آخر أن الذي ينظر إلىٰ الدنيا فحسب باعتبارها كل الحياة ربما يصل إلىٰ معرفة التفاوت والاختلاف بين العباد في المال والجمال والكمـال وحينما يجعـل الدنيـا إحدىٰ الحلقتين الكبيـرتين في الحيـاة العـامـة والحلقة الثانية هي الآخرة فتكتمـل صورة الحيـاة العامـة وتزول هـذه المعرفـة السـطحيـة التي يحصـل عليهـا الإنسـان من الـوهلة الأولىٰ حينمـا يـنظر إلىٰ الحياة الدينوية. واتخطر هنا حديث الرسول الأعظم (ص) حينما دخل علىٰ ابنته الزهراء (ع) وهي تطحن بيديهـا وترضـع ولدهـا فدمعت عينـا رسول الله (ص) فقـال لها (ص): (يا بنتاه تعجلي مرارة الدنيـا بحلاوة الآخرة). [١١] وطبيعي ـ كما قلنا ـ يمكن أن تكون مصلحة معينة في البيْن فينزل الله عقـابه علىٰ عبـادِهِ في الدنيا كتأديب المجتمعات الغابرة أو المعاصرة فيأتي العقاب في الدنيا وبالمقابل في الحالة الايجابية قد يستجاب الدعاء كإنزال المن والسلوىٰ علىٰ بني إسرائيل أو إلحاق العقوبة المباشرة لأقوام الأنبيـاء الذين انحـرفوا وأصـرّوا علىٰ الإنحـراف كقـوم نـوح وعـاد وثمـود فقـد جـاء دعـاء النبي نـوح (ع) في سـورة نـوح ؛

الأيتان: ٢٤ ، ٢٥ في قوله تعالىٰ: **﴿وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً ، مما خطيئاتهم أُغرقوا فادخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾** فأصبحت من القوانين والسنن الإلهية كما قال سبحانه **﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً﴾** .

[سورة الإسراء ؛ ١٧ الأية : ٧٧] .

وقال في سورة الأحزاب ؛ الأية : ٦٢ **﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾** فدلت هذه الآيات علىٰ ربط الأسباب بالمسببات ونتائج الأعمال بمقدماتها سواء كانت النتائج في الدنيا أو في الأخرة حسب الحكمة الإلهية . لذلك قال الملا صدر في شرحه لأصول الكافي (القضاء والقدر إنما يوجبان ما يوجبان بتوسط أسبابٍ وعللٍ مترتبةٍ ومنتظمةٍ بعضها مؤثرات وأُخرىٰ متأثرات) .

وهنا لا بد من التنويه لمسألة حياتية وهي : إن الإيمان بالقضاء والقدر بالمعنىٰ الجبري يدفع بالإنسان لمنهجية اللامبالاة والكِسل لأنه ينتظر جاهزاً ما في قضاء الله وقدره . والصحيح أن الإيمان بقضاء الله وقدره هو الإيمان بسنن الله وشريعته حيث يدفعنا الله إلىٰ التنافس الايجابي في عمل الخير والإحسان ويدفعنا إلىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح والجهاد في سبيل الله كما قال في محكم كتابه :

**﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾** .

[سورة التوبة ؛ ٩ الأية : ٤١] .

وقال سبحانه : **﴿إن الله لا يغيّر ما بقومٍ حتىٰ يغيّروا ما بأنفسهم . .﴾** .

[سورة الرعد ؛ ١٣ الأية : ١١] .

وهذا الذي يجعلنا نقرر ما قلناه بأن الإنسان في أفعاله وسلوكه مختار وبمعنىٰ آخر إنه مخيَّر لا مسيَّر وإرادة الإنسان الاختيارية هذه هي تحت

سلطان الله وقدرته الكبرىٰ فالإنسان مختار في تصرفاته بتلك القدرة والقابلية الإلهية التي منحها الله إياه . فالله منح عباده القابلية علىٰ الشر كما منحهم القابلية علىٰ الخير فقد قال عز وجل في سورة الإنسان ، الآية : ٣٠ ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ فحينما يعمل العبد معصية فقد أساء اختياره مستعيناً بقدرة الله سبحانه حيث منحه القدرة والقابلية علىٰ ذلك وفاعل الخير استفاد من هذه القدرة وأحسن اختياره فقال سبحانه في سورة هود ؛ الآية : ٧ ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ فالإنسان بإرادته يختار ويتجسد لطف الله عز وجل في توضيح الطريقيْن وعواقبهما ويمكن أن يثار هٰهنا سؤال حول تفسير الحديث المشهور للنبي الأعظم (ص) «السعيد من سعد في بطن اُمه والشقي من شقي في بطن اُمه»[١٢] فهل يمكن تغيّر الشقاوة أو السعادة ما دامت مكتوبة علىٰ جبين الإنسان قبل نزوله إلىٰ دار الدنيا والحق إن الله يعلم قبل أن يخرج هذا الإنسان من بطن اُمه أنه سوف يرتكب الجرائم أو يعمل الحسنات كما قال الإمام الكاظم (ع) حينما سئل عن معنىٰ الحديث (الشقي من علم الله ـ وهو في بطن أُمه ـ أنه سيعمل عمل الأشقياء والسعيد من علم الله ـ وهو في بطن أُمه ـ إنه سيعمل عمل السعداء) فبمجرّد علم الله تعالىٰ في تمييز عباده لا يعني ذلك جبراً أو قسراً كما أن المدرس يعلم بنتائج طلابه قبل انتهاء الفترة الدراسية فليس ذلك جبراً أو قسراً عليهم ، هذا ومن الممكن أن نفسر الحديث علىٰ أن السعادة تحصل من تأثير الأبوين وحالتهما النفسية والصحية مثلاً ـ مما يعكس علىٰ الجنين الارتياح والسعادة . ومن المغالطة بمكان أن نرمي بأسباب الأعمال الصالحة أو المعاصي علىٰ الله ـ سبحانه ـ فقد ورد في رواية بحار الأنوار ج ٥ ص ٤٧ قول الرسول الأعظم (ص) : «يكون في آخر الزمان قوم يعملون من المعاصي ويقولون إن الله قد قدّرها عليهم ، الراد عليهم كشاهر سيفه في سبيل الله» .

والحق أن القضاء والقدَر قانونان إلهيّان نرىٰ أثرهما الواضح في الحياة ففي الرواية عن الإمام علي (ع) أنه كان جالساً في ظل جدار وفجأة عرف أن الجدار مشرف علىٰ الإنهدام فابتعد عنه حالاً وحينئذٍ اعترض

أحد الحضور قائلاً : أمن قضاء الله تفرّ يا علي ؟ فأجابه (ع) : (أفرّ من قضاء الله إلىٰ قدره)[١٣] .

إذن هما قانونان من القوانين الإلهية فالفرار من قانون إلهي يمكن أن يسبب الموت حين سقوط الحائط فعليه أن يبتعد الإنسان عن الحائط المائل ويضمن حياته لما بقي من العمر المقدّر له فلو كانت ساعة الموت حتميّة (بالقضاء) فيحل عليه الموت حتىٰ دون سبب ظاهر كقانون إلهي أيضاً فقد قال عز وجل : ﴿قل إنّ الأمر كلّه لله يُخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قُتلنا هٰهُنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلىٰ مضاجعهم﴾ .

[سورة آل عمران ؛ ٣ الآية : ١٥٤] .

وهذا ردٌّ من الله سبحانه علىٰ الكافرين لمّا قالوا : ﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعَل الله ذلك حسرةً في قلوبهم والله يُحيي ويميت﴾ .

[سورة آل عمران ؛ ٣ الآية : ١٥٦] .

ومن هنا نفهم الاحاديث الشريفة والروايات الواردة مثلاً : الصدقات تدفع البلاء وصدقة السر تطفيء غضب الله . . فالأجَلَ المعلق والبلاء الطاريء يدفع بالصدقة كقانون إلهي والأجل الحتمي لا يدفعه شيء كقانون إلهي أيضاً لقوله ـ تبارك وتعالىٰ :

﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون﴾ .

[سورة النحل ؛ ١٦ الآية : ٦١] .

فهذا هو القضاء الحتمي من الله سبحانه لا يعارضه شيء أبداً .

# (٦)

# حكمة أفعال اللّه

سؤال يواجه الجميع: لماذا الاختلاف والتفضيل في الحصص الموزعة من الفيض الإلهي ؟ فلما كانت الأرزاق الإلهية عادلة التوزيع بين البشر لماذا نشاهد الاختلاف في الحياة ؟ فإن كان الاختلاف نتيجة لأرضية الاستقبال لهذا الفيض كمّاً وكيفاً لماذا تختلف هذه الأرضية من شخص لآخر ومن مجتمع لآخر؟ هنا يبرز السؤال بصورة أكثر شدةً لماذا هذا الاختلاف في أرضية الاستقبال ؟ ألم يخلقنا الله جميعاً بقانون عادل متزن إذن لماذا الاختلاف والتمايز بين الناس ؟ فنرىٰ أحد الناس ذكياً جميلاً ذا مالٍ وجاهٍ وعناية يولد في بلدٍ غني خالٍ من المشاكل والأزمات النفسية ر. ـع بظروف جيدة فيدرس ويثقف ويشقّ طريقه إلىٰ مواقع علمية واجتماعية وربما سياسية مرموقة فينعم في حياته ، بينما نرىٰ شخصاً آخر بصفات عكسية أي إنه غبي أبله قبيح المنظر فقير مالياً وليس له جاه ويولد في بلد فقير تعيس وكلّه مشاكل وأزمات نفسية وسياسية فلا يدرس ولا يثقف بل يشق طريقه نحو أزمات حادّة تنتظره فإذا بلغ سن الرشد لا يستطيع الزواج لإفلاسه وضعته فتزداد حدة مشاكله فتصبح روحه عدائية انتقامية عنيدة ـ غالباً ـ .

والآن لماذا هذا الفرق ؟ ولماذا هذه الاختلافات ؟ وكما يصدق ذلك علىٰ الفرد يصدق علىٰ المجتمع بصفةٍ عامة بل علىٰ الكائنات الحية الأُخرىٰ

فلماذا خُلق الإنسان وخُلق الحيوان؟ ولماذا خلق الحيوان حيواناً بريّاً ؟ والآخر بحريّاً وهكذا. ومرةً أخرىٰ تبرز المساءلة الوجدانية لماذا الاختلاف في الأعمار ؟ بل لماذا تنتهي حياتنا وتفنىٰ وتنعدم ونحرم أخيراً من نعمة الدنيا ؟ وكذلك تبرز المساءلة الوجدانية لماذا النقص في الخِلقة وعدم الكمال فلماذا الجهل والفقر ؟ ولماذا الأفات والمصائب والحيوانات السامة والضارة ؟ لماذا الجراثيم القاتلة فلو اعتبرنا من الحكمة أن توجد الكريات البيضاء في دم الإنسان لتطوق الجراثيم المهاجمة لجسم الإنسان وتطردها نتساءل لماذا الجراثيم ابتداءً ؟ إن هذه الحشرات والأفات التي لا نستطيع حصرها تهدد الإنسان بل الحياة بالأجمع فالأفاعي السامة تقتل الإنسان والنيازك الحارقة بإمكانها أن تحرق مدينة كاملة والفيضانات المدمرة باستطاعتها تدمير البشرية . . بعد هذه التساؤلات التي تعتبر من البحوث الحساسة في مسألة العدل الإلهي والتي تنتاب ذهنية شباب المسلمين أكثر من غيرها لأنها ملموسة عملاً وبإمكان الوسوسة الشيطانية أن تمد مخالبها القذرة إلىٰ الفطرة الإنسانية السليمة لتخدشها عبر هذه الطرق التي تظهر في البداية بأنها صاحبة الحق ولكن بعد ما يتضح موقف الإسلام الحقيقي تضمحل هذه الشبهات وتذوب أمام أشعة الحق الحارقة لجراثيم الباطل . وأرىٰ نفسي مضطراً لتوضيح المسألة أكثر فأتناول هذا الموضوع بنوعٍ من التفصيل . .
وعلىٰ ضوء مجمل مطالعاتي في هذا الشأن أظن إن هذه الاشكالات هي التي دفعت الإنسان لاتخاذ نهجاً عبادياً والتزامياً معيناً في الحياة ففي حقبة زمنية غابرة تبنىٰ الإنسان إلهين في الكون إلهاً للخير وإلهاً للشر فعبدوا أصنام الخير: الماء والشمس والأرض . . وعبدوا أصنام الشر : الطاعون والزلزال فنشأت الثنائية (الازدواجية) كما في عبادة المجوس المعروفة أو عبادة الجاهلية التي كانت تتقرب إلىٰ الله برموز الخير وتتعوذ برموز الشر، فلو تجردنا عن هذا التحليل وجئنا إلىٰ القرآن الكريم ونقرأ الآية الكريمة :

﴿الحمد لله الذي خلق السمٰوات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾ .

[سورة الأنعام ؛ ٦ الآية : ١] .

تبرز أمامنا هذه المساءلة الوجدانية الملحّة فالظلام المقترن بالخوف والسكون والسواد وتوقف الحياة الاجتماعية بينما النور المقترن بالحركة والانتعاش والإزدهار وكلاهما من جعل الله وإبداعه . . المهم هذا التساؤل يأخذ طريقه الطبيعي بحثاً عن الإجابة فتارةً نذهب إلىٰ أن الموجودات كلها خير وما نحسبه شراً هو أمر طارىء علىٰ الأصل أي الخير، ويُحكم لهذا الشر بالمعادلة النسبية فيوجد في باطن الشر هدف صالح وخير محسوب من زاوية معينة ربما نحن لا ندركه لقصورنا أحياناً وتقصيرنا أحياناً أُخرىٰ، هذه إجابة إيجابية وبالضبط أمامها إجابة سلبية تحمل روح الرد علىٰ التفسير الأول وعموماً أمام هذه التساؤلات توجد طريقتان للإجابة :

**الطريقة الأُولىٰ** : هي الطريقة التسليمية المطلقة، فلا ظلم في الخلق والوجود ولا اختلاف ولا تفرقة في الكون بل العدل والاستقامة والتوزيع العادل للفرص الحياتية ـ كما قلنا ـ في الصفحات السابقة ـ ونسأل لماذا يظلم الله الناس ؟ ألأنه محتاج أو فقير أو انه يضمر البغض والعداء لأحد . . كل ذلك ليس من صفات الأزلي الحكيم وكل ما في الأمر أن بعض الأسرار ما استطعنا اكتشافها لقصور أو تقصير . وهذه الطريقة في الإجابة سهلة وبسيطة ومريحة للنفس من جهة وانها سريعة النتائج من جهة أُخرىٰ .

**أما الطريقة الثانية** : فهي الطريقة التوضيحية (طويلة النفس) هدفها العثور علىٰ أسرار هذه الآفات والأزمات والاختلافات وتوجيهها التوجيه الإسلامي القويم علىٰ ضوء المعرفة المتواجدة لديها فنسأل مثلاً هل من الحكمة والمصلحة أن تُخلق هذه الآفات والزلازل المفجعة والمروعة ؟ وعليه كان لا بد من معرفة وجودات الكون ضمن الأنظمة الذاتية أو الاعتبارية بانها خلقت بهذه الصيغة لا غيرها مع وجود الترابط المتين فيما بينها أو أنها وجدت ثم احتلت هذه المواقع فيما بعد وهنا يضرب الشهيد مطهري مثلاً بالأرقام ويقول فمثلاً العدد (٥) يستطيع أن يكون بين العدد ٤ والعدد ٦ ولا يستطيع أن يحتل المرتبة بين العدد ٦ والعدد ٨ وهل يحتل العدد ٧ المنزلة بين العدد ٤ والعدد ٦ دون خرق ؟ . . . وتعالوا الآن ننظر في نظام العلل والمعلولات

الأسباب والمسببات المقدمات والنتائج لنَرَىٰ ما هي حقيقتها ؟ هي خلقت أولاً ثم أُعطيت درجتها ومنزلتها بعد ذلك ؟ أم أن وجودها مساوٍ للرتبة التي استقرت فيها)(١٤) .

وقد قال سبحانه : ﴿**وما أمرنا إلا واحدة كلمحٍ بالبصر**﴾ .

[سورة القمر ؛ ٥٤ الآية : ٥٠] .

فالإرادة المباشرة من الله وإرادة التنظيم الحالي كذلك منه في تعيين الرتبة وتحديد المهمة والصلاحية فالإرادة واحدة في الخلق والإدارة فإذن النظام الكوني ذاتي وليس اعتبارياً وإرادة وجود الكون هي عين إرادة نظام الكون وإرادة نظامه هي عين إرادة وجود الكون . وفي الحقيقة لا يوجد تفضيل في الخلق والتوزيع بالنسبة للقدرة علىٰ الانتفاع أي الأرزاق العامة وإنما هنالك فرق واضح بين الأمرين فالتفضيل هو ترجيح كفة طرف علىٰ طرف بالرغم من تساويهما مثال ذلك البشر أمام القانون الإسلامي فلا تفضيل ولا ترجيح حيث قال (ص) : «الناس سواسية كأسنان المشط» . أما الاختلاف فهو توزيع المهام حسب القدرة والقابلية فهو تفضيل وترجيح كفة طرف علىٰ طرف آخر لعدم تساويهما كما في الفقه الإسلامي أن دية المرأة نصف دية الرجل وللمجنون أحكام ولغير البالغ أحكام وللعبد المملوك أحكام وفي الارث ﴿**للذكر مثل حظ الانثيين**﴾ وهكذا إذن المسألة ليست تفضيل دون أسباب وإنما هنالك اختلاف ولا بد من مراعاته كي تتحقق العدالة ، والاختلاف مسألة طبيعية حينذاك بل هي عين العدالة بينما عدم مراعاة الاختلاف أي المساواة هنا هي عين الظلم قال تعالىٰ :

﴿**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾ .

[سورة الزمر ؛ ٣٩ الآية : ٩] .

ومثال جميل يستشهد به الشهيد مطهري في كتابه العدل الإلهي فيقول : لو أخذنا إناءين يسع كل منهما عشرة ليترات ووضعنا أحدهما تحت حنفية الماء وسكبنا فيه عشرة ليترات من الماء ووضعنا الآخر تحتها وسكبنا

فيه خمس ليترات منه فهذا ترجيح لأن منشأ الاختلاف هنا ليس من ناحية الإناء وإنما من المالىء للإناء أما إذا كان لدينا إناءان يسع أحدهما عشرة ليترات والآخر يسع خمسة ليترات وغمسنا كلاً منهما في البحر فإن الاختلاف بينهما سيستمر لان اختلافها ناشيء من ناحية استعداد كل منهما وسعته وليس من ناحية البحر أو قوة اندفاع الماء[15] وعلىٰ هذا تزول الشبهة ولكنها تظهر بشكل أقوىٰ إذا عرفنا أن صانع الإناءين ولسبب ما جعل أحدهما صغيراً والآخر كبيراً فلا يمكن تساويهما لاختلاف قابليتهما فالإشكال علىٰ الأصل .

وهكذا بالنسبة إلىٰ خلق الإنسان حيث ان الله سبحانه خلق الحر والعبد فعليه يحصل الحر علىٰ امتيازات ما لا يحصل عليها العبد ، لماذا ؟ ولماذا خلق الذكر ذكراً والانثىٰ انثىٰ ليكون للذكر مثل حظ الانثيين . والجواب علىٰ ذلك يتلخص بما يلي :

يقول الله في محكم كتابه : ﴿إنا كل شيءٍ خلقناه بقدر﴾ .

[سورة القمر ؛ ٥٤ الآية : ٤٩ ].

فالقانون الإلهي في خلق الكون له امتيازاته وترتيباته وقوانينه الخاصة وإن هذا الكون قد خُلق ضمن مقاييس معينة وإدارة هذا الكون محكومة بأنظمة ثابتة ذاتياً لا تقبل التغيير كما في سورة فاطر ؛ الآية : ٤٣ ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ .

وقال سبحانه : ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتىٰ يغيّروا ما بأنفسهم﴾ .

[سورة الرعد ١٣ ؛ الآية : ١١] .

فالقانون الإلهي ليس قانوناً اعتبارياً طارئاً سرعان ما يتغيّر ويزول بل إنه قانون ثابت فنظام العلة والمعلول والأسباب والمسببات ومراتب الخلق ـ كما قلنا سابقاً ـ كل ذلك ضمن تخطيط وإدارة قانونية ثابتة فلا يمكن أن نجمع ذرتين من الهيدروجين وذرة من الاوكسجين وننتظر الناتج حامض الكبريتيك

فكل شيء علة لمعلولٍ معين ومعلول لعلة معينة وضمن نظام الخلق والإيجاد تترتب الوجودات ذاتياً لا اعتباطياً طارئاً . وضمن هذا النظام الواسع لا بد أن توجد عدة اختلافات لتكتمل صورة الكون فالكون بحاجة إلىٰ جزء غير مرئي وإلىٰ جزء مرئي ظاهر للعيان والكون بهذه الصورة القانونية المبدعة بحاجة إلىٰ جزء من المادة نسميه تراباً صالحاً للزراعة والحفر والمشي عليه وبحاجة إلىٰ قرصٍ منير يحلق في السماء ويشع علينا نوراً في الليل ولا نستطيع أن نعيش فوق ترابه مع أن الإنسان استطاع أن ينزل علىٰ سطح القمر ولكن بالنتيجة يبقىٰ هذا الكوكب يخدم الإنسان من بعيد . والكون بحاجة أيضاً إلىٰ ظلمات متراكمة في جوف المحيطات والبحار فكما أن للكون قمماً جبلية شاهقة فللكون أيضاً وديان سحيقة لغرض التوازن وسريان القانون الإلهي .

كل ذلك ليس من باب التفضيل والامتياز وإنما من باب التوزيع للأدوار التي لا بد منها لغرض التكاملية فهو من باب الاختلاف الذي هو عين العدالة والحكمة والتدبير .

وأما موضوع الأفات والشرور في الطبيعة كالزلازل والفيضانات المدمرة والحيوانات السامة والضارة وهكذا النقص في العطاء والخلقة فهذا رجل بصير وهذا رجل أعمىٰ وهذا جميل وهذا قبيح وهذا الحيوان نجس وهذا طاهر فمما لا شك فيه انه موضوع من أشد المواضيع الغنية بالأمثلة والوقائع وبالفعل نرىٰ بعض المسلمين يثيرهم هذا الموضوع وبالخصوص لوكان المتطرق له يمتلك لباقة بيانية وقدرة علىٰ الاستيلاء علىٰ مشاعر القارىء أو السامع فلذلك كان الأجدر بنا أن نبحث مبحث العدالة بالتفصيل ونجعله من البحوث العامة والمتداولة بين الأيدي وننزّله إلىٰ الثقافة العامة لتتشكل خلفية إسلامية ناضجة للمسلمين ليردعوا بها أصحاب هذه الأبواق الجاهلية .

والحق إن الظلم والشر والقبح أُمور نسبية أي تتحدد سلبياتها بالنسبة لشيء معين دون آخر مثلاً الحيوانات السامة هي ليست ضارة لنفسها بل للإنسان فهي بالنسبة للإنسان ظلم وشر لانها تقتله أما بالنسبة لنفسها فلا

ظلم ولا شر وبالنسبة لغيرها كذلك بل قد تكون خيراً لكائن حيواني آخر ويمكن أن تؤثر علىٰ الطبيعة المحيطة تأثيراً إيجابياً .

ولنأخذ مثالاً من الطبيعة : ثاني أوكسيد الكربون غاز سام وقاتل بالنسبة للإنسان ولكنه بالنسبة للنباتات ضروري لحياتها فتأخذه من مركبات الهواء لتلفظ الأوكسجين الذي يعتبر الجزء الضروري من الهواء لحياة الإنسان فثاني أوكسيد الكربون ضار بالنسبة للإنسان ونافع للنباتات ومع وجود هذه النسبة الواضحة نلاحظ في قانون الخلقة الكونية لا بد من الغازين في تركيب الهواء ـ في مثالنا ـ أي إن هذه الوجودات وأمثالها من لوازم الخلقة الكونية فلا يمكن الاستغناء عنهما كالعارض علىٰ الواقع أو ملازمة الظل لصاحبه. ومع ذلك يمكن افتراض فوائد جمة للسموم المارة الذكر لكننا ما توصلنا لمعرفتها مثلاً : يذكر الشيخ أحمد البهادلي في كتابه محاضرات في العقيدة الإسلامية نقلاً عن كتاب (الإسلام يتحدىٰ) مثالاً مصدقاً لهذه الفكرة حول نبات الصبير[١٦] .

ـ لقد قاموا في استراليا بزراعة نوع خاص من (الصبّار) لكي يحمي مزارعهم بما فيه من أشواك فانتشر الصبار انتشاراً رهيباً ومروعاً حتىٰ استولىٰ علىٰ منطقة توازي مساحة جزر بريطانيا وهاجم قراهم وضرب مزارعهم ولم يتمكنوا من استئصاله بأية طريقة واستمرت هذه الحالة حتىٰ خرج علماء الحشرات وفتشوا عن دودة تأكله فاكتشفوا دودة لا تعيش إلاّ عليه ولا غذاء لها سواه وتتناسل بسرعة ولا عدو لها في حشرات استراليا وسرعان ما تغلبت هذه الدودة الصغيرة علىٰ ذلك النبات ولعلنا قبل هذه العملية نقول أن وجود هذه الحشرة لا نفع فيه ومن أمثال هذه الحشرة النافعة يكتشف العلم نفعها بمرور الزمن وربما لا يحصل له شرف الاكتشاف فمن الصعوبة أن نحكم بعدم جدوائيتها لأول وهلة فلربما لا يظهر منها النفع إلاّ بعد حين ولربما نرىٰ أضرارها من زاويتنا ولها منافع من زوايا الحياة الأخرىٰ فسبحان الخالق المبدع المدبر .

فلذلك لا يمكن فصل الآثار الضارة عن غير الضارة فالجانبان هما

جانبا الحياة فمع النور ظلام ومع الخير شر ومع العسر يسر، ومع هابيل قابيل ومع البياض سواد من باب الضد يكشفه الضد وكلٌ حسب موقعه من خارطة الحياة كالرسوم الهندسية التي تحتل حيّزاً معيناً فالمثلث مجموع زواياه يساوي زاويتين قائمتين والمربع مجموع زواياه أربع زاويا قوائم فليس من المعقول أن يعترض أحدنا علىٰ هذا التقسيم بقوله لقد ظلمتم المثلث بحصته مثلاً . . فقد قال سبحانه :

﴿ربنا الذي أعطىٰ كلَّ شيءٍ خلقه ثم هدىٰ﴾ .

[سورة طه ٢٠ ؛ الآية: ٥٠].

ومن جملة فوائد الأضرار والآلام والأمراض والفقر والحرمان والبلاء علىٰ الإنسان بالذات ان شخصيته تصقل وتنضج لتتفجر طاقاتها لإزالة هذا البلاء من ناحية ومن ناحية أُخرىٰ تعتبر تربية الإنسان كاملة الصورة حينما يمرُّ بالآلام والأضرار والنكبات فينكشف مدىٰ صبره وتحمله للاذىٰ وبالتالي تنمو حالة التقوىٰ في القلب وتنحسر حالة الفجور وهكذا ستكون هذه الآلام لغفران الذنوب كما ورد في الاثر الشريف ولتقوية الروح الإيمانية لمقاومة الشيطان والهوىٰ أي لصالح الإنسان . فلذلك نلاحظ الأنبياء (ع) كانوا أشد الناس بلاءً واختباراً فأحدهم يبتلىٰ بأولاده والآخر بمرضه وعلته والآخر بقومه والآخر بزوجته والآخر بالفقر وهكذا وسنتحدث في فصل النبوة عن بعض الأنبياء ـ حتىٰ جاء رسول الإسلام محمد (ص) ليقول: «ما أوذي نبيّ مثل ما أُوذيت» وهكذا الأئمة الأطهار (ع) حتىٰ ورد في الأثر المبارك علىٰ لسان أحدهم (ع) : (ما منا إلاّ مسموم أو مقتول) والقرآن الكريم يجعل الاختبار والنجاح في الاختبار من الأُسس الرئيسية لتحقيق رضا الله سبحانه وبالتالي نيل الخير والجنان فقد قال سبحانه : ﴿ولنبلونكم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾ .

[سورة البقرة ٢ ؛ الآية : ١٥٥] .

وقال الرسول (ص) : «حمّىٰ يوم كفارة سنة » وفي حديث آخر قال

(ص) : «إن الحمّىٰ طهور من ربّ غفور»[١٧] .

والإمام الصادق (ع) يقول : (إن أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الأمثل فالأمثل) وبالفعل إن المؤمن ليجد راحته في تحمل العناء والجهاد والتعب علىٰ عكس غير المؤمن فانه يجد راحته في الابتعاد عن المسؤليات المقدسة ، ونحن إذ نستقرىء الأفكار التي وردت في البداية تحت عنوان (حكمة أفعال الله) ورد موضوع الموت والفناء وبالفعل إنه مكروه وحزن حيث ورد ـ وقهر عباده بالموت والفناء ـ وفي الحقيقة أن الموت والحياة والأخرة والثواب أو العقاب وبمعنىٰ آخر أن مرحلة الموت وما بعد الموت هي التي تجيب عن أكثر الاشكاليات التي يثيرها البعض حول العدالة الإلهية حيث أن الدنيا مرحلة يمر بها الإنسان ـ كما مر بمراحل الاصلاب والأرحام فالدنيا حلقة من حلقات حياة الإنسان ومحطة من المحطات التي يمر بها الإنسان لأجلٍ معلوم(الموت وما بعد الموت) أي أن هذه الحَلَقة من الحياة تترتب عليها الآثار سلباً أو إيجاباً وعلىٰ ما أُنجز من أعمال في الدنيا فـ (الدنيا مزرعة الأخرة) كما ورد وكلما كان الإنسان مطيعاً مؤمناً صابراً في الدنيا كلما تقرب في الأخرة إلىٰ رضىٰ الله سبحانه وكلما كان عاصياً مخالفاً ظالماً في الدنيا كان بعيداً عن رحمة الله في الآخرة إذن الإشكالات المثيرة في عالم الدنيا حول التوزيع العادل تنتهي حينما ندرك أن حلقة الموت وما بعد الموت متممة لحلقة الحياة الدنيوية ومترتبة عليها هذا من جهة ومن جهة أُخرىٰ إن مسألة الموت ـ كما أسلفنا ـ هي نهاية الحياة الدنيوية المبتسمة فهي القهر والحرمان والنقص والشؤم . . كل هذا التوهم يزول حينما نعرف أنّ الموت حلقة وصل بين طرفي الحياة الدنيوية والأخروية ولا بد من الدخول للأخرة من خلال بوابة الموت ولله درّ الشاعر لقوله :

كل ابن انثىٰ وإن طالت سلامته ... يوماً علىٰ آلة الحدباء محمولُ
وإذا رأيت جنازةً محمولةً ... فأعلم بأنك بعدها محمولُ

فحياة الإنسان مسلسل زمني بعضه في الدنيا وبعضه بعد الدنيا فالأخرة هي

الحيوان والاستقرار وصحيح أن الإنسان حينما يألف جماعة وطريقة حياتية معينة يصعب عليه فراقها وبالفعل الفراق قهر والموت قهر كما أن الطفل يولد من بطن أُمه باكياً يريد البقاء على طريقة ألفها في حياته الجنينية المعتادة وحينما يدخل رحاب الدنيا بعد وعيه يضحك على تصوره الطفولي الساذج ويسخر من بكائه الفطري حباً لحياة الرحم وهكذا المؤمن الناجح والحائز على رضى الله تعالى يسخر من تصوره الساذج هو الآخر في تعلقه بالدنيا الفانية فقد جاء في الأثر الشريف ( الناس نيام إذا ماتوا انتهوا) فإذن تزول هذه الرؤية الضبابية والتشاؤمية حينما نضع الدنيا والآخرة في موضع الحياة العامة المتكاملة قال سبحانه :

**﴿أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً أنّكم إلينا لا ترجعون﴾** .

[سورة المؤمنون ٢٣ ؛الآية: ١١٥] .

وقال أيضاً في محكم كتابه الكريم : **﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾** .

[سورة الملك٦٧ ؛ الآية : ٢] .

وقال في آية أُخرى : **﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾** .

[سورة العنكبوت ؛ ٢٩ الآية : ٦٤] .

أي أن الحياة الدنيا هي حلقة من حلقات حياة الإنسان وليست كل الحياة . والحساب في الآخرة سيصفي المظالم في الدنيا يقول الإمام علي (ع) : (اليوم عمل ولا حساب وغداً (يوم القيامة) حساب ولا عمل) وكما ورد في الحديث : (الدنيا مزرعة الآخرة) فما تزرعه من خير وبركة وعطاء في الدنيا هو الذي تحصده وتحصل عليه في الآخرة والعكس كذلك ولا بأس أن نسجل هنا ملاحظة خاصة وهي ان بعض المعاصي والآثام يلمس الإنسان آثارها السوداء كعقوبة طبيعية في الدنيا كشرب الخمر مثلاً فله أضرار

طبيعية تلحق بالشارب عبر قانونها الطبيعي فالآثار الصحية والاجتماعية والنفسية واضحة الانعكاس من ارتكاب هذا الإثم كالبصمات السوداء على الصفحات البيضاء ومثال ما ورد في الأخبار ـ بشر القاتل بالقتل ـ وعملية القصاص من الظالم المعتدي على يد المؤمنين وهكذا وإنما ركزنا في جزاء الآخرة لكي لا نجهد أنفسنا في انتظار العقوبة الدنيوية للظالمين والآثمين ولتنقشع الشبهات العالقة بالعدالة حيث الحساب الدقيق للأعمال والأقوال والتصرفات قال سبحانه :

**﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾** .

[سورة الأنبياء ؛ ٢١ الآية : ٤٧] .

# (٧)

# الحسن والقبح الذاتيان العقليان

مسألة الحسن والقبح من المسائل المهمة في بحث العدل الإلهي حيث رأى بعض المسلمين انه لا فائدة للجدال والنقاش ولا بد من الإيمان القطعي بعدالة الله دون النظر والتمحيص فهو سبحانه المدبر القدير العادل وما يفعله صحيح وحسن فلا نقاش ولا جدال بعد ذلك ومن المؤكد أن هذه الفئة من المسلمين تمتاز بالسطحية والسذاجة لذلك لا تتدخل في مواضيع تظن بأنها ستتورط فيها حينما يحتدم النقاش وربما تخشىٰ أن ينفلت منها زمام الإيمان فتلجأ لهذا الحل أو أنها تعتقد بأن هذه الاثارة وهذه الاستفهامات هي في غنىً عنها لذلك لا تبحث عن صفة العدالة إلاّ كصفة عابرة موجزة نابعة عن قناعات مترسخة بطريقة ساذجة وهي بهذا الفعل تترك تراكمات الشبهات عالقة في ذهنية الناس دون جواب فمصيرها محدد علىٰ مفترق طريقين فإما أن تموت هذه التساؤلات موتاً بطيئاً عبر القناعات البسيطة ـ كما قلنا ـ وهذا هو إيمان العجائز ولدينا ـ عليكم بإيمان العجائز ـ ويبدو أن ذلك مهم في التقية والمسائل الامنية خوفاً من الجائرين ـ وأما الطريق الثاني للشبهات فهو طريق النمو والاستفحال بالفعل فإنها ستنمو وتكبر في ذهنية الناس حتىٰ تنفجر بالانحراف والالتواء السلوكي أحياناً كما حدث ذلك مع بعض الشباب .

وفي تأريخنا الإسلامي تناولت مدرستان فكريتان هذه المسألة ذهبت المدرسة الأولىٰ إلىٰ أن ميزان العدل والعدالة هو فعل الله سبحانه فكل ما يفعله الله هو عين العدالة وقالوا بوحدة الفاعلية لذلك رأوا كل الأعمال والافعال في الكون صادرة عن الله عز وجل بما فيها إبداع الخلق والكائنات وافعال الإنسان والحيوان والحشرات كلها أفعال الله العادلة فلو أعطىٰ الله سبحانه ـ مثلاً ـ للمظلوم حقّ الثأر أو لم يعطه حقه فهو عدل مطلق في كل حال لأنه من الله العادل فإذن لا يوجد مفهوم الظلم لديها علىٰ الإطلاق واستدلوا علىٰ رأيهم بأن القدرة الإلهية قدرة شاملة وعامة وغير عاجزة عن أداء كل أنواع الأفعال فلو لم يفعل الله تعالىٰ الشر والظلم والفساد لكانت قدرته ناقصة وعاجزة عن بعض الأعمال فإذن كل الأفعال من الله سواء كانت خيراً أو شراً صلاحاً أو فساداً . فهم بفكرتهم هذه أرادوا تنزيه الله سبحانه من الشريك الفاعل ولكنهم نزهوا الطغاة والظالمين من ظلمهم وقبيح أعمالهم لأنهم نسبوا الأعمال كلها إلىٰ الله القدير ! ـ والعياذ بالله ـ .

قال الشهيد المطهري في العدل الإلهي : (لا مفهوم للظلم وهؤلاء لا يعرفون علامة العدل غير أنه فعل الله فكل فعلٍ هو فعل الله فهو إذن عدل وليس كل ما هو عدل فهو فعل الله وحسب وجهة نظرهم لا يوجد للعدل ضابط . . . فقد أنكروا العدل عمليّاً ولهذا السبب عرف مخالفوهم ـ وهم الشيعة والمعتزلة باسم (العدلية) إشارة إلىٰ أن تفسير الأشاعرة للعدل إنما هو إنكار في الحقيقة لمضمون العدل . . . وادىٰ هذا إلىٰ إنكار صفتي الحسن والقبح العقليين بصورة جذرية فقالوا لا يعني مفهوم العدالة سوىٰ كون الفعل منسوباً إلىٰ الله)(١٨) .

فعقيدة الأشاعرة أن الله خالق لعبده وما عمل بينما مذهب المعتزلة إن العبد يخلق أفعال نفسه واستدل الأشاعرة علىٰ مذهبهم بالآية الكريمة في سورة الصافات ؛ الآية : ٩٦ : ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ فالله هو الذي خلق الخير وأراده من عباده وسهل لهم طريقه وخلق الشر ولم يرضه من عباده وحذرهم منه لقوله: ﴿ولا يرضىٰ لعباده الكفر﴾ .
[سورة الزمر ؛ ٣٩ الآية : ٧] .

وللرد عليهم ببساطة نقول كيف يجيبون الله سبحانه وتعالىٰ حيث نسب الظلم إلىٰ العباد في أكثر من آية في القرآن المجيد فقد قال سبحانه : ﴿**وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ وفي آية أُخرىٰ يصف المنحرفين : ﴿... **ففسقوا فيها** ..﴾ وما ندري كيف يواجهون هذه الآيات الواضحة في تحميل المظالم علىٰ العباد .. أما الآية الكريمة ﴿**والله خلقكم وما تعملون**﴾ سبقتها الآية ﴿**قال أتعبدون ما تنحتون**﴾ فهو استفهام معناه الانكار والتوبيخ أي كيف يصح أن يعبد الإنسان ما يعمله بيده فإنهم كانوا ينحتون الأصنام بأيديهم ﴿**والله خلقكم وما تعملون**﴾ أي وخلق ما عملتم من الأصنام فكيف تدعون عبادته وتعبدون معمولكم ؟ وهذا كما يقال فلان يعمل الحصير وهذا الباب من عمل فلان النجار قال الحسن معناه وخلق أصل الحجارة التي تعملون منها الأصنام وهذا يجري مجرىٰ قوله : ﴿**تلقف ما يأفكون**﴾ وقوله تلقف ما صنعوا في أنه أراد المنحوت من الجسم هنا دون العرض الذي هو النحت الذي كما أراد هناك المأفوك فيه والمصنوع فيه من الحبال والعصي دون العرض الذي هو فعلهم فليس لأهل الجبر تعلق بهذه الآية في الدلالة علىٰ أن الله سبحانه خالق لأفعال العباد لأن من المعلوم أن الكفار لم يعبدوا نحتهم الذي هو فعلهم وإنما كانوا يعبدون الأصنام التي هي الأجسام . وقوله ما تنحتون هو ما يعملون في المعنىٰ علىٰ أن مبنىٰ الآية علىٰ التقريع للكفار والازراء عليهم بقبيح فعلهم ولو كان معناه والله خلقكم وخلق عبادتكم لكانت الآية إلىٰ أن تكون عذراً لهم أقرب من أن تكون لوماً وتجنياً . ولكان لهم أن يقولوا ولم توبخنا علىٰ عبادتها والله تعالىٰ هو الفاعل لذلك ؟ فتكون الحجة لهم لا عليهم ولأنه قد اضاف العمل إليهم بقوله تعملون فكيف يكون مضافاً إلىٰ الله تعالىٰ وهذا تناقض(١٩) .

أما المدرسة العدلية فذهبت إلىٰ أن العقل يرىٰ أن العدل حسن بذاته والظلم قبيح بذاته وبما أن الله سبحانه هو الخالق المدبر للكون بما فيه الإنسان ، فقد أفاض علىٰ العباد نعمة العقل (فهو إذن لا يترك عملاً يحكم

العقـل بحسنه ولا يفعـل عملاً يحكم العقـل بقبحـه)[٢٠] فتحكم بـأن الله عـز وجل منزه عن الظلم وعن فعل القبيح والفساد :

﴿ما الله يريد ظلماً للعباد﴾ .

[سورة غافر ؛ ٤٠ الآية : ٣١].

﴿والله لا يحب الفساد﴾ .

[سورة البقرة ؛ ٢ الآية : ٢٠٥] .

فهـذه المـدرسـة لم تنفِ الفـاعليـة عن غيـره تعـالىٰ ولم ينفـوا الـظلم الاجتمـاعي والفساد ورفضـوا مبدأ الفـاعلية الـواحدة لجميـع الأفعال واعتبـروا الحسن والقبح عقليين ذاتيين . فقد قال النبي (ص) : «حجة الله علىٰ العباد النبي والحجـة فيمـا بين العبـاد ونبيّ الله العقـل»[٢١] . وعن الإمــام الصـادق (ع) : (أما العدل فأن لا تنسب إلىٰ خالقك ما لامك عليه)[٢٢] .

فمن هنـا ندرك معنىٰ العـدالة الإلهيـة في النـظام المتـوازن الـدقيق في العـالم من الذرات والالكتـرونات إلىٰ المجـرات ومن عالم النبـات والحيـوان إلىٰ الحشـرات والـديـدان فكـل السنن الكـونيـة والقـوانين التي تسيـر عليهـا الطبيعة وهذا الإنسان المخلوق العجيب الـذي يعتبر بحـد ذاته معجـزة فريـدة فقد قال سبحانه : ﴿. . . وصوركم فـأحسن صوركم ورزقكم من الـطيبات﴾ يقول الدكتور كارل ـ لا شيء أقـرب إلينا منا ومع ذلـك فإن في هـذا الجسم من الاسـرار الكثيرة مـا لا علم لنا بهـا ـ وأكثر من ذلـك وضع قـوانين العدالـة الاجتمـاعية فـردّ المظالم وقـانـون العقـوبـات الإسـلامي من كفـارات وديـات وقصـاص للمحافـظة علىٰ توازن المجتمـع خلقياً واجتمـاعياً وبعـد كـل ذلـك هنـالك يـوم الحساب حيث المحـاسبة الـدقيقة التي تجـريهـا محكمـة العـدل الإلهي إيجـاباً أو سلبـاً ـ كل ذلـك يجعلنا نؤمن بعدالة الله سبحانه وتعالىٰ وأن الحسن والقبح ذاتيان عقليان .

(٨)

# قاعدة اللطف الالهي

هي العناية الإلهية العامـة بعباده وتشمـل جميع التسهيـلات الربـانية في العبادة والطاعة وجميع أنواع الرحمة والحنان لعموم البشر فقد قال سبحانه :

﴿الله لطيف بعباده﴾ .

[سورة الشورى ؛٤٢ الآية: ١٩].

﴿إن الله لطيف خبير﴾ .

[سورة الحج : ٢٢ الآية: ٦٣].

﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ .

[سورة البقرة ؛ ٢ الآية : ١٨٥] .

، ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ .

[سورة الحج ؛ ٢٢ الآية : ٧٨] .

﴿. . ولكنّ الله حبّب إليكم الإيمـان وزيّنـه في قلوبكم وكـرّه إليـكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون﴾ .

[سورة الحجرات ؛ ٤٩ الآية : ٧] .

﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين﴾ .

[سورة الأنبياء ؛ ٢١ الآية: ١٠٧].

وقال النبي الأكرم (ص) : «جئتكم بالشريعة السمحة السهلاء» ـ «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» من خلال النصوص المقدسة يتضح لنا مدىٰ لطف الله بعباده وعنايته المتميزة بالإنسان فيريد بنا اليسر ويحبب لنا الإيمان ولا يحملنا فوق طاقتنا من الحرج والعسر ويبعدنا عن ارتكاب المعاصي فهو لطيف وخبير .

هذا الدعم الغيبي الملموس نسميه ـ قاعدة اللطف الإلهي ـ وتكون شاملة للحياة الشخصية والاجتماعية والنفسية . . فالله تبارك وتعالىٰ يوفّر مناخاً معيناً واجواءً مناسبة تساعد الإنسان علىٰ معرفة دينه وإقامة أحكامه وأداء واجباته وإقامة عباداته وعلىٰ المستوىٰ الفكري تساعده الأجواء علىٰ التوصل بالبرهان لمعرفة الله وقدرته وعظمته ففي هذا الاطار الايماني الساخن يندفع الانسان لطاعة الله ويبتعد عن معاصيه وكل إنسان مؤمن يستطيع أن يحصي وقفات مهمة في حياته الشخصيّة ويتذكرها إنه كاد أن يقع فريسة في شراك الشيطان والعدو ولكن عناية الرحمٰن تتدخل في الوقت الصعب ليتم إنقاذه .

﴿وما أُبرّىء نفسي ، إن النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾ .

[سورة يوسف : ١٢ الآية : ٥٣] .

وفي بعض الأحيان تبرز هذه العناية الإلهية بشكلٍ لا يقبل أدنىٰ شك أنها عناية ملموسة يشعر بها الإنسان المؤمن في أحلك الظروف وأعسر الأوقات وأكثر من هذا نلاحظ نفس الشعور وبنفس الدرجة عند عموم الناس حتىٰ غير المؤمنين من أُولئك الذين يمرّون بمشاكل صحيّة ونفسية متأزمة ومفاجآت انتكاسية في حياتهم ـ هنا في اللحظة المهمة تتجسد أمامهم عناية الرحمٰن بأجلىٰ صورها حيث يسبب الأسباب بتدبيره فينقذ الإنسان من أزمته ونقرأ في الدعاء (. . يا مسبب الأسباب . .) (ذلّت لقدرتك الصعاب ، وتسببت بلطفك الأسباب) ومن أبرز صور العناية الإلهية إرسالهُ الأنبياء (ع) هداةً ومصلحين وختم رسالات السماء بالقرآن الكريم ومن عنايته لم يترك الأُمة الإسلامية دون قيادة شرعية مستمرة بعد النبي (ص) فنصب لنا الأئمة

الأطهار قادةً وهداة كي تستقيم المسيرة الفكرية والتطبيقية العملية للشريعة الإسلامية ، ومن ألطافه ومننه أنه شمل عبادة بعطفه وحنانه مادياً وصحياً وروحياً كي يسعدهم في حياتهم الدنيوية ويوم يقوم الحساب ومن لطفه أن الدين الإسلامي دين السماحة واليسر والاستيعاب لكل الظروف القاسية أزاء أداء الواجبات الدينية كالعبادات بالتحديد فالصلاة واجبة بالصورة المألوفة شرطاً كالطهارة وأركاناً واجزاءً فإذا مرّت ظروف لن تسمح باستخدام الماء في الطهارة يتحول المسلم للطهارة الترابية ، وإن لم يستطع القيام في الصلاة فليجلس أو يستلقِ وإن كان خائفاً فهناك صلاة الخوف علىٰ ما موجود في الرسائل العملية لفقهاء الإسلام من تفصيل ومراعاة لكافة الظروف المتوقعة .

وكذلك من ألطاف الله أنه يعطي للجميع فرص الاستقامة والخير والصلاح ويعطي للجميع البركات والأرزاق فنقرأ في الدعاء : (. . يا من يعطي من سأله ويا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة . .) .

وبهذه القاعدة ـ اللطف الإلهي ـ يتجاوز الله كثيراً عن المسيئين والمخطئين حيث رحمته المباركة تسع كل شيء فلذلك تُعلمنا السنّة بالدعاء التالي (اللهم عاملنا بلطفك ولا تعاملنا بعدلك) (اللهم اني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء . .) فهو رحيم ورحمن ومنّان وحنّان والممتحن لعباده والآمر لهم بالطاعة بملء إرادتهم دون إكراه وقسر (لا اكراه في الدين) ليظهر واقع الإنسان المؤمن عن غيره ويكتشف قوة إيمانه والتزامه وحبه أو بالعكس ـ لا سمح الله ـ .

يقول سبحانه : ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ .

[سورة الملك ؛ ٦٧ الآية : ٢] .

وجعل التكليف الإلهي من لطفه بعباده يسيراً بالامكانيات المتوفرة فيقول ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . .﴾ كي لا يدفع الإنسان إلىٰ الزاوية الحرجة في تطبيق أوامره .

# (٩)

# الشبهات والرّد عليها

وردت جملة من الشبهات أثناء البحوث الماضية حول العدالة الإلهية ولأهمية بحث الشبهات أفردنا له حلقة فيما تبقىٰ من البحث موضحين بعض ما ذكرنا .

**ويتلخص البحث في الشبهات التالية :**

( أ ) بعض أفعاله تعالىٰ بعيد عن الحكمة ـ ظاهراً ـ .

(ب) شبهة خلق الكافر والمنافق والشقي .

(جـ) هل الشفاعة يوم القيامة من العدل الإلهي ؟

( د ) التكاليف الشرعية هل تناسب العدل الإلهي ؟ .

(هـ) لماذا خلقنا الله سبحانه ؟ .

( و ) العذاب والبلاء والنكبات علىٰ المؤمنين والطيبين غالباً .

( ز ) الدعاء علىٰ الظالمين لماذا لا يستجاب دائماً ؟ .

**الشبهة الأولى : بعض أفعاله تعالى بعيد عن الحكمة ـ ظاهراً ـ :**

لقد تحدثنا في فصل حكمة أفعال الله وبيّنا هنالك أن الإنسان لا يستطيع أن يحيط الوجود علماً ومعرفة فلربما يرىٰ شيئاً يعتبره ضاراً وسلبياً وبعد فترة يكتشف أثره الإيجابي في الحياة فغياب الحكمة عن الإنسان ليس

دليلاً علىٰ عدم وجود الحكمة وأوضحنا كذلك فكرة الضرورة التكوينية في الخلق فجزء من خلايا الإنسان ظاهر وجزء غير ظاهر وجزء في ظلمات التجاويف الداخلية وجزء في الواجهة الظاهرية ولا بد من التكاملية وتوزيع الأدوار كضرورة تكوينية ـ الواحد يكمل دور الآخر ـ فلربما الأول غير ظاهر الحكمة ولكنه ضروري لإظهار حكمة الثاني ـ وهكذا ـ.

فإذن لا يوجد من أفعال الله بعيد عن الحكمة وإنما قد يتوهم قاصر النظر ذلك. فكل أفعاله واحكامه حكيمة وهادفة ولا عبرة بالتوهم البيّن خطأه.

## الشبهة الثانية: شبهة خلق الكافر والمنافق والشقي :

**بيان الشبهة** : إن الله تعالىٰ يعلم بكفر الكافر وكذب المنافق وظلم الشقي من بداية حياتهم وقبل ارتكابهم للمعاصي وهذا العلم لا بد أن يتحقق فلو لم يتحقق يعني ان هذا الأمر قد خالف علم الله أو بمعنىٰ آخر كان الله جاهلاً أو خاطئاً في حالة عدم الوقوع ـ والعياذ بالله ـ ومن جهة أُخرىٰ إن الكافر لا يستطيع إلاَّ أن يكفر والمجرم لا بد أن يعصي وذلك تصديقاً لعلم الله عز وجل .

والجواب علىٰ الجزء الثاني من الشبهة قد تحدثنا عنه فيما سبق بالجبر والتفويض في الأعمال والتصرفات أما الجزء الأول من الشبهة فمن الممكن أن يكون لأول وهلة من الأُمور العصيبة لكن ببعض الوضوح نلاحظ انقلاب السحر علىٰ الساحر ـ ففي الحقيقة ان العلم بالشيء لا يصنع واقع ذلك الشيء بل لا يؤثر في تحقيقه أبداً كما أنك تعلم أن القوة الكهربائية بإمكانها أن تقتل الإنسان لو مسّها مباشرة وكذلك تعلم أن أمواج البحر المتلاطمة لا تتحطم علىٰ صدر الإنسان بل هو سيتحطم أمام ضربات أمواج البحر العاتية فيموت الإنسان المعترض لها وانت تعلم أن الطفل لو سقط من الطابق العاشر إلىٰ الأرض سيموت . . وإذا دهسته سيارة كبيرة سيموت أيضاً . . هذا العلم واليقين هل يصنع الموت لأخي وصديقي وطفلي فلو

قُدِّر أن مات صديقي بالكهرباء أو بالغرق أو مات الطفل سحقاً بالسيارة هل أن علمي المسبق بالنتيجة هو السبب في ذلك ؟ ونفس المثال ينطبق على علمي بأن الأخ المنحرف الذي اختار طريق الفساد إلىٰ آخر حياته فإنه سيهلك في النار فهل إني أدخلته هذه المهلكة لمجرد علمي بالنتيجة ؟ وخاصة لو عرفنا أن المسألة محاطة بمجمل أسباب ومسببات وعلل ومعلولات وهذا ما يفسره قول النبي نوح (ع) كما ورد في القرآن الكريم :

﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلَّا فاجراً كفّاراً﴾ .

[سورة نوح ؛٧١الآية : ٢٧] .

هذا العلم من النبي (ع) بنتيجة أبناء المنحرفين هل إنه هو السبب في انحرافهم وهل من عاقل يدّعي ذلك ؟ والمعروف أن رسالة الأنبياء هي رسالة الإصلاح والتغيير ولكن هذه القناعة بانحراف الأجيال القادمة من أولاد المنحرفين وجدت للنبي نوح (ع) عبر أسباب ومسببات وتجارب وخبرات ، إضافة لذلك نلاحظ أنّ الإنسان في وجدانه يعرف أنه مخيّر في أعماله وسلوكه وقد مرمعنا - في موضوع الجبر والتفويض - فبمجرد علمي بأن أحد طلابي مثلاً سيختار فرع الرياضة البدنية في دراساته الجامعية أو كاختصاص في دراسته العليا وعلمي بأن أحدهم سيختار الطب البشري اختصاصاً مفضلاً وله القابلية في ذلك هل إني صنعت الاختيار لهما أم أن الطالب بملء إرادته وخصوصياته المتأثرة بمجمل الأسباب المحيطة والموروثة أحياناً ومن جملتها الدرجة المؤهلة والاستعداد النفسي وغيرهما فبالنتيجة يختار لنفسه مستقبله فإذن مجرد علمي بالنتائج ليس هو السبب الصانع للواقع الخارجي كما هو معروف من خلال الأمثلة المتعددة .

وهكذا بالنسبة للشقي والظالم حيث تساهم الظروف غير المستقيمة في خلق هذه النفسية الدموية المتكبرة فمثلاً ابن الزنا وآكل مال اليتم وآكل الحرام ، صحيح أن هؤلاء قد أثرت فيهم الظروف التعيسة التي جنت عليهم من آبائهم أو محيطهم كما ورد في الأثر ( السعيد من سعد في بطن أُمه

والشقي من شقي في بطن أمه) أو من أعمالهم الشريرة كشرب الخمر والمقامرة والربا . . . ولكن هذه الظروف بشكل أو بآخر تخلق عنده حبّ العمل الشرير ضمن مناخ نفسي مناسب ومع ذلك فإن ممارسة العمل الإنحرافي بحاجة إلىٰ قرار الإنسان حيث الاختيار الارادي فبإمكان ابن الزنا أن يحترم حقوق الناس ويطيع الله ويحافظ علىٰ استقامته ليتقرب إلىٰ الله وبامكانه أن ينتقم ويبطش بالمجتمع متىٰ ما سنحت له الفرصة للانتقام ثأراً من الجناية علىٰ أمه لذلك نلاحظ صلاحية ابن الزنا في الإسلام أقل من صلاحيّة ومنزلة الابن الشرعي ومع ذلك فأمام ابن الزنا فرص للاستقامة وإن كان الأمر فيه نوع من الصعوبة كالتائب من الذنب فبامكانه أن يتوب ويعود إلىٰ الطريقة المستقيمة التي يختارها لنفسه مخالفةً لهواه .

إذن فالمسألة طبيعية وليست خادشة لعدل الله سبحانه حيث خلق الله الكافر والمنافق والشقي وذلك لأن الله قد وفّر فرصاً متساوية للجميع لغرض الاختيار وزوّدهم بالعقل المميّز والمدرك للمصلحة وهو العادل (سبحانه) وميزانه دقيق فقد قال في محكم كتابه الكريم :

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ،ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ .

[سورة الزلزلة ؛ ٩٩ الآيتان : ٧ ، ٨] .

و ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة . . ﴾ .

[سورة النساء ؛ ٤ الآية : ٤٠] .

بل إن ميزانه العادل في منتهىٰ الدقة والعدالة فالله سبحانه يقدّر لهذه الظروف المحيطة بالشقي التي سببت قلقه من دون إرادته ومدىٰ معاناته من هذه الظروف القاسية التي جاءته عبر معاصي أبيه مثلاً فكل الأمور تؤخذ بالحسبان في ميزانه يوم القيامة وتبقىٰ في الدنيا مسألة الاختيار بيد الإنسان فكم من الأولاد الشرعيين هم وقود جهنم لانحرافهم وكم من الأولاد غير الشرعيين تظهر استقامتهم في الدنيا لاصرارهم علىٰ المبدأ القويم فقد قال سبحانه :﴿وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون﴾ فالمفروض أن نعبده

تعالىٰ رغم كل الظروف والتراكمات السلبية الموروثة أو القادمة من جراء الأعمال الخاطئة التي يمارسها الإنسان ، فالإنسان لديه القدرة في صياغة نفسه بالطاعة والاستقامة مهما كانت ظروفه النفسية والوراثية والاجتماعية .

يقول سبحانه : **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾** .

[سورة الطلاق ؛ ٦٥ الأيتان: ٢ ـ ٣ ] .

**الشبهة الثالثة: هل الشفاعة يوم القيامة من العدل الالهي ؟ :**

لما استحق المجرمون عقاب الله عز وجل يأتي الشفيع ينقذ المجرم من العذاب برأفته ورحمته مستغلاً منزلته عند الله وبهذا تصبح رحمة الشفيع هذا أوسع من رحمة الله تعالىٰ ! فينقذ من العقاب جماعة من المذنبين لهذه الوساطة ويترك جماعة من المذنبين في العقاب الأليم هل هذه الشفاعة وبهذه الكيفية من العدالة الإلهية ؟ .

في الحقيقة إن هذه الشبهة وبهذا الأسلوب من الطرح نلمس فيها كثيراً من التداخلات في المفاهيم وعموماً لو سايرنا أصحاب هذه الشبهة يفترض علينا تفكيك تداخلاتها وتوضيح الرد عليها .

فالشفاعة علىٰ شكلين ، شكل مرفوض شرعاً وعقلاً وهذا ما يردده أكثر الناس فقد قال تعالىٰ :

**﴿واتقوا يوماً لا تجزىٰ نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾** .

[سورة البقرة ؛٢ الآية : ١٤٨] .

فاكثر الناس يتصور بأن النبي (ص) وأئمة أهل البيت (ع) سيشفعون لهم بالرغم من خطاياهم حيث يستغل الأولياء نفوذهم وقربهم لله تبارك وتعالىٰ لتغيير الإرادة الإلهية والقانون الرباني حيث قضىٰ علىٰ المجرمين بالنار فيحوّلون هذا القضاء من الجحيم إلىٰ النعيم وهذا أمر لا يقبله الشرع

ولا يقبله العقل وهو من المفاهيم السائدة لدىٰ السذج من الناس فيتصورون أن التقرب إلىٰ الله وإلىٰ النبي أو الأئمة - مثلاً - يأتي من طريق البكاء علىٰ الحسين وأصحابه وإقامة المآتم والمواليد وهذه الأعمال هي الضمان لهم لنيل رضىٰ الله من دون إقامة حدود الله واطاعته في الصلاة والصيام والحج والزكاة والخمس !! فكأنما هنالك إرادتان إرادة الله وإرادة ولي الله كالإمام الحسين (ع) فإرادة الله في القضاء نتيجتها عسيرة حسب ظن هذا البعض الساذج من الناس فالله دقيق في المحاسبة من أداء الصلاة والصيام والجهاد وترك النواهي كالغيبة والنميمة وترك الخمر والزناٰ والربا وما شابه ذلك بينما إرادة الحسين المنافسة لإرادة الله !! فيسيرة الحصول وتتحقق بزيارة الحسين والبكاء في مأتمه وهذه الإرادة الحسينية ستشفع للعاصين وتاركي الصلاة والصيام يوم القيامة وستتغير إرادة الله وقوانين الله طوعاً لإرادة الحسين ! وفي الحقيقة هذا التصور هو عين الشرك بالله وهذه المفاهيم الباطلة السائدة دون دقة لا بد من تهذيبها حيث أن شفاعة الحسين تتحقق للعباد مع شرطها وشروطها وهذا ما نسميه بالشفاعة المقبولة شرعاً وعقلاً وهو الشكل الثاني فقد قال تبارك وتعالىٰ :

**﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ .**

[سورة النساء ؛ ٤الآية : ٦٤] .

فاستغفار الرسول لهم هو جزء من عناية الله ولطفه فلا تعارض بين الأمرين والإرادتين بل أن شفاعة الرسول وطلب المغفرة لهم من الله عز وجل بالنتيجة فالشفاعة بيد الله كما قال سبحانه في آية أُخرىٰ :

**﴿ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضىٰ﴾ .**

[سورة الأنبياء ؛ ٢١ الآية : ٢٨] .

**﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم . . ﴾ .**

[سورة البقرة ؛ ٢ الآية : ٢٥٥] .

إذن الشفاعة هي من الله العظيم . فهو مصدر العفو والمغفرة والتجاوز وهذه هي الشفاعة الصحيحة والمقبولة بينما الشفاعة الباطلة هي التي تنصب إرادةً ما فوق إرادة الله وأي فرق بين هذا التصور ووضع شريك لله ـ سبحانه ـ فقد قال في القرآن الكريم :

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ .

[سورة النساء ؛ ٤ الآية : ١١٦] .

فالشفاعة المشروعة قد جعلها الله وسيلة للوصول إلىٰ رضاه ومغفرته حيث قال في محكم الكتاب العزيز :

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾ .

[سورة المائدة ؛ ٥ الآية : ٣٥].

فالوسائل الموصلة إلىٰ رضوان الله تعالىٰ من أبرزها الشفاعة المشروعة من قبل أولياء الله للمذنبين والعاصين فقد قال رسول الله (ص) : «حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسيناً»[٢٣] .

فالحسين وسيلة شرعية بحبه يتحقق حب الله والذي يحب الله يطيعه ولا يعصيه فالسير علىٰ منهجية الإمام الحسين يعني إطاعة الحسين وإطاعة الحسين تعني إطاعة النبي واطاعة النبي إطاعة الله :

﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ .

[سورة النساء ؛ ٤ الآية : ٥٩] .

وفي الرواية : (الراد عليهم كالراد علينا والراد علينا كالراد علىٰ النبي والراد علىٰ النبي كالراد علىٰ الله والراد علىٰ الله كحد الشرك به) .

فإذن الشفاعة والصفح والتجاوز ضمن المقاييس الشرعية والوسائط المشروعة تصل نتيجتها إلىٰ الله تعالىٰ :

﴿قل لله الشفاعة جميعاً﴾ .

[سورة الزمر ؛ ٣٩ الآية : ٤٤] .

﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ .

[سورة يونس ؛ ١٠ الآية : ٣].

فالرسول الأعظم (ص) هو الشفيع الأول يوم القيامة لأنه وسيلة الله لعباده ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ وهي ضمن المقاييس الشرعية فقد ورد - يدخل النار ولو كان سيداً قرشياً ويدخل الجنة ولو كان عبداً حبشياً - .

إذن الموازين المطلوبة ليست هي القرابة أو الأعمال السطحية وإنما بالقيم الإيمانية وضمن القنوات التي حددها سبحانه وتعالىٰ تتم الشفاعة بإرادة الله من دون أي تأثرّ أو تأثير فقد قال سبحانه في محكم الكتاب العزيز :

﴿الذي يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كلَّ شيءٍ رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم﴾ .

[سورة غافر (المؤمن) ؛ ٤٠ الآية : ٧ ] .

وقال الإمام الصادق : (إن شفاعتنا لا تنال مستخفاً بالصلاة)[٢٤] .

من هنا نستخلص فكرة الشفاعة من القرآن الكريم حيث الشفاعة المشروعة عكس ما يتصور البعض أنه سينال الجنة دون صلاة وصيام والواجبات الأُخرىٰ بل بمجرد بعض المستحبات كإقامة مآتم الحسين (ع) وإن كنا نعتقد بأن سفينة النجاة هو الحسين كما قال رسول الله : «الحسين مصباح الهدىٰ وسفينة النجاة» وفي الروايات - من بكىٰ وأبكىٰ وتباكىٰ غفرت ذنوبه ووجبت له الجنة ، ولكن مع شرطها وشروطها فالشفاعة حق يتحقق ضمن وسائل الله المشروعة فللمؤمن الذي يقول بيتاً من الشعر في مصاب

الإمام الحسين يرزقه الله بيتا في الجنه ـ من قال فينا بيتا من الشعر رزقه الله بيتاً في الجنة ـ أما غير المؤمن فلا تشمله هذه الشفاعة ، لأن المؤمن سلك المسلك الإلهي حيث وسيلة الله بينما غيره هو الذي نصب نفسه متوهماً في تجاوز إطاعة الله ورسوله والإتيان ببعض المستحبات لنيل الشفاعة والحال إن شفاعة النبي والأئمة هي كرامة ومنحة من الله سبحانه للنبي والقرآن فإنه شافع مشفع والأئمة الأطهار والمؤمنين الصالحين وهذه الكرامة هي من رحمة الله فلو شملت بعض العاصين فإنها تشملهم بعد استيفاء العدل الإلهي حقه من عصيانهم حيث تصفية الحساب في الدنيا أو في عالم البرزخ (القبر) أو سنوات من العذاب الأليم في الآخرة وهكذا . فإذن الشفاعة المشروعة هي عين اللطف الإلهي والعناية الإلهية والعدل الإلهي أيضاً .

**الشبهة الرابعة: التكاليف الشرعية هل تناسب العدل الالهي ؟**

حينما نتتبع الأحكام الشرعية نلاحظ بعض الأحيان نوعاً من القساوة والشدة والتكليف فوق الطاقة الإنسانية ـ حسب الرؤية الظاهرية ـ مثال ذلك الفتاة حينما تنهي التاسعة من عمرها يوجب عليها فرض الصلاة والصوم والواجبات الشرعية الأُخرىٰ في حين تراها في هذا العمر صغيرةً لا تتحمل حرّ الصيف في صيام شهر رمضان ومثال آخر نشاهد القسوة ظاهرة في القصاص والحدود التي تقام علىٰ الجُناة فقطع يد السارق وجلد الزاني . . وما شابه . .

كيف يمكن أن نستوعب هذه الشبهة ونوجهها إسلامياً ؟ وتبدو لي أن هذه الشبهة التي يتشدق بها بعض المصلحين الغربيين والمستشرقين بالذات ودعاة السماح أولئك الذين لبسوا ملابس القديسين وحقوق الإنسان واعلنوا دفاعهم عن كرامة وشرف الإنسان انها انعكست ـ هذه الشبهة ـ في لاشعور مجتمعنا واصبح البعض يردد كلماتهم بأن الإنسان يخطىء فلماذا هذه الصرامة المؤذية ؟ ولماذا إراقة الدماء لخطأٍ معين ؟ .

والإجابة علىٰ هذا النوع من الشبهات تحتاج إلىٰ حديث طويل ولكن

نحـاول أن نتحدث بـالأساسيـات دون الهوامش مـراعاة لـظروف وطبيعـة هـذه الرسالة وقبل الخوض في الإجابة لا بد من كلمـة صغيرة تفتـح لنا المجـال ألا وهي أننـا نؤمن بـأن الله سبحـانـه قـد خلَقنـا واودع فينـا الغـرائــز والشهـوات **﴿ونفس وما سواها ، فألهمها فجورهـا وتقواهـا ، قد أفلح من زكّـاها ، وقـد خاب من دساها . . ﴾** .

[سورة الشمس ؛ ٩١ الآيات : ٧ ـ ١٠] .

فالخالق المبدع المدبر يعلم خفايا النفس وكيف تستقيم وتهتدي وكيف تـرتـدع عن المنكـر والمحـرمـات وهـو الـذي يعلم الأسلوب المنـاسب لـردع الإنسان عن ارتكاب الجرائم والآثام وتكرارها لغـرض تطويقهـا والتخلص منها بشكـل جـدي وقـطعي لضمـان الصـلاح النفسي والاجتمـاعي فهـذا الإيمـان يجعلنـا ـ طبيعياً ـ نقـول أن الله عز وجـل بتقديـره الحكيم سن القوانين وحـدّد مـوعد بلوغ الفتـاة وسنّ الحدود والقصـاص عن حكمة دقيقـة لغرض التـربيـة الصالحة وردع النفس الإمارة بالسوء عن المنكرات

ومن ثم نقـول إن الله ما أراد بـالشريعـة الإسلاميـة إلاّ الخير والمعـروف والصلاح **﴿إن الله يريـد بكم اليسر ولا يـريد بكم العسـر﴾** فالنبي (ص) بُعث بالشريعة السمحاء فقد قال (ص) : «إن الله عفوّ يحب العفو»[٢٥] .

فالتكاليف الشرعية ليست بحاجة إلىٰ بـذل قصارىٰ جهـد الإنسان وإنمـا تشكل جزءاً من وقته وجزءاً من مالِه وفي فترات الجهاد قد تكلف نفسه وهذه التربية الهادفة لبنـاء صرح الـدين في المجتمع تنفعـه علىٰ المستوىٰ الشخصي والاجتمـاعي أيضاً فهـو بحاجـة إلىٰ مثل هـذه التربيـة الهادفـة والصارمـة لكي يستطيع خـوض الحياة الاعتيـادية بنجـاح فليتحمل الإنسـان من التعب والجهد والجـوع والعـطش والسفـر إلىٰ بيت الله الحـرام والبــذل المـالي في الــزكـاة والخمس والحج . ليُمرّن نفسياً وتربـوياً لتحمـل الصعاب بـأنواعهـا في الحياة ومن ثم يتهيأ للدور الأكبر لو أرادت منه العقيدة تضحيات أكثر .

أما القصاص والحـدود فذلـك أمر يحقق عين العـدالة فلو تسـامحنا عن

القصاص لبقي الحق مهدوراً وهـذا عين الظلم فـالحدود والتعـزيرات تقـام مع تـوفر الشـروط الموضـوعية الإسـلامية لتحقق هـدفين هدف التـوبيخ الشـديـد للجـاني وللناس بشكـل عام لغـرض الاعتبار فـانهم يرتـدعـون أمـام العقـوبـة الصارمة وهدف أخذ الثأر بالشكـل المشروع من الجـاني لتهدئـة المجني عليه ولفض النزاع بالشكـل العادل بـدلاً من ترك المسـألة جـانباً لتتفـاقم الأزمة في النفس كعقـد نفسيـة مستعصيـة الحـل لتنفجـر في ظلم اجتمـاعي كبيـر في المستقبل .

واضافة لذلك فإن هنالك مجال للتصالح والتنـازل في بعض المرافعـات المشـروحة في كتب الفقـه الإسـلامي . ممـا يجعلنـا نقـول إن هـذه التعـاليم مناسبة جداً للعدل الإلهي حيث أنها لصالح الإنسان أولاً ثم البشرية ثانياً .

**الشبهة الخامسة: لماذا خلقنا الله سبحانه ؟**

قال تعالىٰ : ﴿**وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين**﴾ .

[سورة الأنبياء ؛ ٢١ الآية : ١٦] .

وقال في آية أُخرىٰ ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ .

[سورة الذاريات ؛ ٥١ الآية : ٥٦] .

و ﴿**الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً**﴾ .

[سورة الملك ؛ ٦٧ الآية : ٢] .

فـإذن إن لخلق الإنسان والحيـوان والكواكب والنجـوم والبحـار والهـواء أهـداف وليست المسألـة عبثية فـالله خلقنا لكي يُعـرف وتعرف قـدرته ومن ثم ليمتحننـا في الحياة الـدنيا ويجـزينا بـالآخرة علىٰ ضـوء ما نفعله في الـدنيا . يقـول الإمام الصـادق (ع) : (. . . ما خلقهم ليجلب منهم منفعـة ولا ليـدفـع بهم مضرة بل خلقهم لينفعهم ويوصلهم إلىٰ نعيم الأبد) .

وفي حـديث آخـر قـال (ع) : (خلقهـم لاظهـار حكمتــه ونفـاذ علمــه وامضاء تدبيره) .

فالإنسان مخلوق إلهي متميّز وفّر له الله عز وجل طاقات كبيرة لتسخير قوانين الطبيعة لصالحه ولعمارة الكون بعمله وعبادته لله تعالىٰ .

## الشبهة السادسة: العذاب والبلاء والنكبات على المؤمنين والطيبين - غالباً - لماذا ؟

قال سبحانه : **﴿الم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾** .

[سورة العنكبوت ؛ ٢٩ الآيات : ١ ـ ٣] .

للعذاب والابتلاء في الدنيا أكثر من هدف ومن الأهداف الرئيسية اكتشاف المؤمن الصابر علىٰ البلاء فالفتنة والامتحان العسير والابتلاء كل ذلك يكشف الجوهر الذاتي للإنسان ويميزه عن المظهر ففي الرواية : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، سجنه قياساً بالآخرة حيث الجنة والأرزاق فمحل السجن أي الدنيا محل الابتلاء والاختبار . ومن الأهداف نيل الأجر والثواب في الآخرة ـ وكما فسّرنا سابقاً ـ أن الدنيا والآخرة وجهان للحياة العامة الواحدة فالآخرة امتداد للدنيا والدنيا مزرعة الآخرة .

أما منطوق الشبهة بأن العذاب علىٰ المؤمنين ـ غالباً ـ فهو غير دقيق وإن كان كذلك فهو للاختبار كما قلنا والمؤمن كما يصفه الإمام علي (ع) : (وقور عند الهزاهز ، ثبوت عند المكاره ، صبور عند البلاء ، شكور عند الرضا . . . الناس منه في راحة ونفسه منه في تعب)[٢٦] .

## الشبهة السابعة: الدعاء على الظالمين لماذا لا يستجاب دائماً ؟

الدعاء وسيلة للتعبير عما يجري في داخل النفس وطموحاتها والقرار النهائي بيد الله عز وجل فمن المشهور في الحديث القدسي : (الظالم سيفي انتقم به وانتقم منه ) وورد في الحديث «كيفما تكونوا يولّ عليكم » وفي الرواية : إن تركتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يولىٰ عليكم شراركم فتدعون فلا يستجاب لكم .

إذن للدعاء مفاتيحه المشروعة وأرضيته المطلوبة فإن اكتفىٰ المجتمع بالدعاء اللفظي دون العمل الصالح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمن الطبيعي ألاّ يستجاب دعاء الداعين أو أن هنالك ظروف موضوعية بالمجتمع يرىٰ الله سبحانه من الصالح بقاء الظالم علىٰ ظلمه إلىٰ إشعار آخر . أما الداعين العاملين فيدعون ربهم من باب :

﴿وقال ربكم ادعوني استجب لكم﴾ .

[سورة غافر ؛ ٤٠ الآية : ٦٠] .

لهم أجرهم في نجاح أعمالهم وقبول دعواتهم ولكن للظروف الموضوعية القائمة تؤجل الاستجابة ولربما لصالح المجتمع المؤمن ذاته ونحن لا نعرف ذلك .

وهذا الحديث يجرنا إلىٰ أن الأعمال الصالحة من غير المسلمين المؤمنين هل تلقى أثراً حسناً عند الله ما دام أن دعاء المؤمنين غير الآمرين بالمعروف لا يلقى أثراً مناسباً .

والحقيقة أن القرار النهائي بالقبول وعدمه بيد الله سبحانه والملاحظ أن الأعمال الصالحة من البر والإحسان الصادرة من المؤمنين بالله والحساب والعقاب تصعد إلىٰ درجة القبول عند الله بشرط النية المخلصة ولو كانت النية قلقة الاخلاص فنسبة القبول بيد الله تعالىٰ حسب نسبة القلق التي لا يضبطها سواه ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ كما قال القرآن الكريم في [سورة غافر ؛ ٤٠ الآية : ١٩] .

أما أعمال البر والإحسان كإنشاء المستشفيات وبناء الجسور للخدمات العامة لجميع الناس هذه الأعمال الصادرة من غير المؤمنين فالأمر يعود إلىٰ الله المدبر المقدر حيث يميّز نياتهم فإن كانت النية لوجه الله الكريم فإنها تساهم في تخفيف عذابهم واسعادهم في الدنيا بالذات والمهم في المسألة أنها تربط بالنية القلبية وهم يفدون علىٰ الحي الكريم فإن كان عدم الإيمان

صادر من تعصب وعناد أو كان من قصور لا تقصير فالمسألة فيها تمييز ومميزها حساب الله الدقيق :

﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم﴾ .

[سورة الشعراء ؛ ٢٦ الآيتان : ٨٨ ، ٨٩] .

وهكذا تنسحب المسألة علىٰ المخترعين الذين أفادوا البشرية بخدماتهم والآية الكريمة تقول :

﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ .

[سورة المجادلة ؛ ٥٨ الآية : ١١] .

فللمؤمن درجة وللمؤمن العالم درجات كما يذهب العلامة الطباطبائي في ميزانه فربما يجزي الله ذلك العالم غير المؤمن الذي خدم البشرية بعلمه جزاءً حسناً في الدنيا فيهيّء له أسباب المعيشة الدنيوية بعيدة عن المنغصات .

(١) ميزان الحكمة ج ٦ ص ٨٦ .

(٢) نهج البلاغة خطبة ٣٣ .

(٣) الكافي ج ١ ص ٤٤٢ .

(٤) كتاب الحياة للشيخ الحكيمي ج ١ ص ٤٨ .

(٥) نهاية الأقدام للشهرستاني ص ٣٩٧ .

(٦) الزنجاني : عقائد ص ٢٩ .

(٧) المظفر : عقائد الإمامية ص ٤١ .

(٨) المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة لمحمد دشتي وكاظم محمّدي قصار رقم ٢٥٠ ص ١١٥ طبع قم ١٤٠٦ هـ .

(٩) مغنيه : فلسفة التوحيد والنبوة ص ٦٣ .

(١٠) عقائد الزنجاني ص ٣٣ .

(١١) ميزان الحكمة ج ٣ ص ٣٢٧ .

(١٢) ميزان الحكمة ج ٥ ص ١٢٩ .

(١٣) التوحيد للصدوق ـ الطبعة الحجرية ص ٣٣٧ عن المطهري ص ١٢١ .

(١٤) المطهري : العدل الإلهي ص ١٠٢ .

(١٥) نفس المصدر ص ١٠٦ .

(١٦) البهادلي : محاضرات في العقيدة ص ٣٠١ ـ بتصرف ـ .

(١٧) سفينة البحار ج ١ ص ٣٤٥ .

(١٨) المطهري : العدل الإلهي ص ٥٠ .

(١٩) مجمع البيان في تفسير القرآن للعلامة الطبرسي المجلد ٥ الجزء ٢٣ ص ٧٠ .

(٢٠) المطهري : العدل الإلهي ص ٥٢ .

(٢١) الكافي ج ١ ص ٢٥ .

(٢٢) نفس المصدر ص ٤٤٢ .

(٢٣) ميزان الحكمة : ري شهري ج ١ ص ٢٤٣ .

(٢٤) نفس المصدر ج ٥ ص ١١٧ .

(٢٥) نفس المصدر ج ٦ ص ٣٦٧ .

(٢٦) نفس المصدر ج ١ ص ٣٣٢ .

# الفصل الثالث

# النبوة

ويحتوي على البحوث التالية :

**١ ـ النبوة معنىً وضرورةً .**

**وضرورة النبي (ص) نتحدث عنها في :**

**( أ ) الضرورة العقلية .**

**(ب) الضرورة التكوينية .**

**(جـ) الضرورة الشرعية .**

**( د ) الضرورة النفسية .**

**(هـ) اللطف الإلهي .**

**٢ ـ من هو النبي المرسل ؟ ومن هم الأنبياء ؟ وما هي صفاتهم .**

**٣ ـ العصمة أدلتها ودلالاتها .**

**٤ ـ الأنبياء ونبي الإسلام .**

**٥ ـ وقفة مع بعض الأنبياء (ع) ونبيّ الإسلام محمد (ص) .**

٦ ـ القرآن والتحدي ، بيان المعجزة الكبرىٰ ومواقع الإعجاز التالية :

(أ) معجزة القرآن الأدبية البلاغية .

(ب) معجزة القرآن العلميّة .

(جـ) معجزة القرآن الغيبية .

(د) معجزة القرآن التربوية والنفسية .

(هـ) معجزة القرآن التشريعية .

(و) هل للنبي معاجز غير القرآن الكريم ؟

# (١)
# النبوة معنىٰ وضرورة

المعنىٰ اللغوي للنبي هو الإنباء يعني الإخبار عن الله عز وجل .

**أما المعنىٰ الإصطلاحي** : فالنبي هو الذي يخبر الناس عن الله تعالىٰ أوامره ونواهيه فهو أمين الله يهديهم للخير والصلاح بتنفيذ أوامره سبحانه والابتعاد عن نواهيه ، فهو الرابط بين الخالق والمخلوق وهو الوسيلة الموصلة للإنسان إلىٰ رضا الله الخالق الكريم وبمعنىٰ آخر هو البوابة الإلهية علىٰ الأرض من خلالها يستطيع الإنسان أن يرتقي إلىٰ درجات القربة منه :

**﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم . . .﴾ .**

[سورة النساء ؛ ٤ الآية : ٥٩] .

فعلىٰ هذا نرىٰ أن الذي يريد أن يدخل في رحاب الله ويكون من المقربين لديه عليه أن يطيع الله من خلال تطبيقه لرسالة النبي المرسل وأوامره . فالرسالة السماوية هي اللوائح القانونية الإلهية التي تشمل الحياة بكل معانيها والنبي المرسل هو الذي ينقل هذه اللوائح القانونية للبشر بعد أن يكون الانموذج التام في تطبيق تلك اللوائح القانونية علىٰ نفسه وأسرته ومجتمعه فقد قال سبحانه :

﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة﴾ .

[سورة الأحزاب ؛ ٣٣ الآية : ٢١] .

وهذا النبي المرسل مختار من قبل الله عز وجل لتأدية هذا الدور الكبير والخطير في الحياة فالمسألة إذن تعيينيّة من قبل الله سبحانه لمواصفات ومؤهلات خاصة يمتاز بها الرسول المنتخب لا يعلمها إلا هو العزيز القدير فقد قال عز وجل :

﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس علىٰ الله حجة بعد الرسل﴾ .

[سورة النساء ؛ ٤ الآية : ١٦٥] .

و ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ .

[سورة الأحزاب ؛ ٣٣ الآية : ٤٠] .

و ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ .

[سورة ص ؛ ٣٨ الآية : ٢٦] .

و ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ .

[سورة الأنبياء ؛ ٢١ الآية : ١٠٧] .

فمسألة الرسالة مسألة غيبية بحتة وتعيين النبي المرسل مسألة غيبية أيضاً فهو سبحانه يصطفي من عباده ويختار ضمن المقاييس الخاصة به فالله يختاره أميناً نقياً زاكياً صادقاً وكل هذه الصفات الإيجابية المعروفة الظاهرة أمام الجميع وهنالك صفات إيجابية باطنية يمتاز بها الرسول تبقىٰ في الأُطر الغيبية التي لا يعرفُها إلاّ الله وعلىٰ ضوئها يتم تعيين النبي المرسل وتنزل الرسالة عليه ليبلّغها بأمانة وإخلاص .

﴿وما ينطق عن الهوىٰ، إن هو إلاّ وحي يوحىٰ﴾ .

[سورة النجم ؛ ٥٣ الآيتان : ٣، ٤ ] .

و ﴿وما أرسلناك إلا مبشّراً ونذيراً﴾ .

[سورة الفرقان ؛ ٢٥ الآية : ٥٦] .

## ما هي ضرورة النبي :

أما ضرورة النبي (ص) فنتحدث عنها عبر ما يلي :

( أ ) الضرورة العقليـة .

(ب) الضـرورة التكوينية .

(جـ) الضـرورة الشرعيـة .

( د ) الضـرورة النفسيـة .

(هـ) اللطف الإلهـي .

فضرورات بعثة النبي للبشـرية كمنقـذ وموجّـه ضرورات عـديدة فـالنبي (ع) هـو حلقـة الـوصـل الـطبيعية والشـرعية بين الخـالق والخلق بين الـرب والمربوب فلندرس أهم هذه الضرورات التي سجلناها قبل قليل :

### ( أ ) الضـرورة العقليـة :

إن الإنسـان خلق بفـطرتــه ـ وفي داخله ـ قـوتــان متصـارعتــان الخيـر والشر .

﴿ونفسٍ وماسوّاها،فألهمها فجورها وتقواها﴾ .

[سورة الشمس ؛ ٩١ الأيتان : ٧ ، ٨ ].

وهذا كما نُعبّر عنه بـالجهاز العقلي الكـاشف والداعي للخيـر من جانب ومن جـانب آخر الأهـواء والشهـوات الـداعيـة للشر واللهـاث المـادي فـأمـام إغـراءات الدنيـا وشهواتهـا يتضاءل دور العقـل فينسىٰ الإنسـان الفـطرة السليمة والعقـل النيّر فيمشي خلف شهـواته وإغـراءات الدنيـا بينما تبـرز حاجـة العقل البشري إلىٰ القوة الغيبيّة المبدعة التي طالما تنادي بيقـظة العقل وإثـارة دفائنـه وتنبهه بالذكرىٰ .

﴿فذكّر إنما أنت مذكّر﴾ .

[سورة الغاشية ؛ ٨٨ الآية : ٢١] .

﴿سيذّكر من يخشىٰ﴾ .

[سورة الأعلىٰ ؛ ٨٧ الآية : ١٠] .

فكلما ابتعد الإنسان عن رؤىٰ عقله أو بمعنىٰ آخر إن أعماله السيئة حجبت دور العقل كلما نادىٰ الرسول ونادت الرسالة الإلهية بالعودة إلىٰ دور العقل والتفكير في سبيل النجاة ضمن البرامج الشرعية وفسح المجال أمام الشهوات لتحقّق بالطرق المشروعة لانقاذ الإنسان من عقد الكبت والانعزال وهنا تتحقق العدالة الإلهية بأوسع معانيها حيث نلاحظ جانب الفجور لدىٰ الإنسان له من يثيره ويستهويه ويجلبه ويحرّكه نحو الشر ويلمّع له النتائج ذلك الشيطان والدنيا واللذات والغرائز الفطرية فمن الطبيعي أن تشملنا العدالة الإلهية حيث يضع العدل الإلهي من يذكّر الإنسان وينبهه ويجلبه ويهذبه ذلك الرسول وتلك الرسالة بل كان كل الرسل والرسالات التي بعثت تؤدي هذا الهدف الرئيسي .

فإذن النبي المرسل والرسالة السماوية ضرورة عقلية فلا بد من الرسول ومن الرسالة لتتحقق العدالة الإلهية والتوازن الطبيعي ما بين قوىٰ الشر وقوىٰ الخير المتصارعة في ذات الإنسان وعمق المجتمع البشري ولا بد من الانتصار للعقل الإنساني فهو بحاجة ماسّة إلىٰ دعمٍ غيبيٍّ لينتصر علىٰ قوىٰ الشر كما أن لقوىٰ الشر من يثيرها وينتصر لها من الأهواء والشيطان والدنيا والآن وبعد تحقّق الموازنة وإتمام الحجج الباطنية والظاهرية يترك الإنسان إما شاكراً وإما كفوراً كما يقول القرآن :

﴿إنّا هديناه السّبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾ .

[سورة الإنسان ؛ ٧٦ الآية : ٣] .

وأما من يدّعي قدرة العقل علىٰ التوجيه والهداية للإنسان من دون دورٍ

للأنبياء والرسالات فهو بعيد عن الدقة حيث نلاحظ عبر التاريخ أن المصلحين مهما بلغوا من القدرة العقلية ما آستطاعوا تحقيق التوجيه والهداية بالشكل المطلوب لأن عقولنا مهما بلغت فهي قاصرة عن الإحاطة بأسرار الكون والغيب وحتىٰ أنها قاصرة من معرفة المفاسد والمصالح بالشكل التام فنقرأ بالتاريخ أن عقل الإنسان اخترع له ربّاً من حجر فعبده أو من تمرٍ فأكله حينما جاع وقسّم الآلهة إلىٰ إله السماء وإلٰه الأرض وإلٰه الزرع وإلٰه الحرب . . ويروون عن الآلهة كيف تفعل المنكرات وما شابه كلها تصوّرات ونظريات ساذجة للعقل الإنساني سرعان ما تتغيّر ، بل كثير من النظريات حتىٰ العلميّة الحديثة منها ما يفنّد بعضها بعضاً فمثلاً في الطبابة تتبدل وتتغير من زمن لزمن وكثير من الأسرار في الطبيعة والكون يكتشفها العقل بعد مرور فترة زمنية بالاضافة إلىٰ أن الله عز وجل لا يفعل شيئاً هباءً ولغواً ـ والعياذ بالله ـ بل إنه يعلم علم اليقين أن هذا المخلوق (الإنسان) لا يستطيع أن يدير نفسه بنفسه مع منحة القدرة العقلية الكبيرة لذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب لتنظيم حياة الإنسان ووضع الضوابط اللازمة في حياته الاجتماعية الاقتصادية والسياسية ولو أن الله تعالىٰ كان يعلم بعلمه الغيبي أن الإنسان يستطيع أن يستغني عن الرسالة والرسول بالاعتماد علىٰ عقله وما زوّده من إمكانيّات ذاتية لتركه لشأنه بينما نحن نلمس الحاجة الماسة للمنهج السماوي الذي عرّفه إلينا سبحانه وتعالىٰ فهو خالقنا وهو العالم باحتياجاتنا ، وعقولنا كذلك بحاجة ماسة إلىٰ منهجيّة السماء الثابتة لرسم قوانين الدنيا من العلاقات الاجتماعية كالزواج والإرث والمعاملات الأخرىٰ لكي يتحقق رضا الله بتطبيق قوانينه الشرعية وكذلك تبيان المفاهيم الإسلامية بالشكل العلمي كالعدالة والمعاد والجنة والنار والثواب والعقاب . عن هشام بن الحكم عن أبي عبد الله (ع) أنّه قال للزنديق الذي سأله من أين أثبتَ الأنبياء والرسل ؟ قال : (إنّا لمّا أثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنّا وعن جميع ما خلق وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً لم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه فيباشرهم ويباشروه ويحاجّهم

ويحاجّوه ثبت أن له سفراء في خلقه يعبرون عنه إلىٰ خلقه وعباده ويدلّونهم علىٰ مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبرون عنه جلّ وعز وهم الأنبياء عليهم السلام وصفوته من خلقه حكماء مؤيدين بالحكمة مبعوثين بها غير مشاركين للناس علىٰ مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب ـ في شيءٍ من أحوالهم ـ مؤيدين من عند الحكيم العليم بالحكمة . وفي رواية أخرىٰ في علل فضل بن شاذان عن مولانا الرضا (ع) : (فإنْ قال فلِمَ وجب عليهم معرفة الرسل والإقرار بهم والإذعان لهم بالطاعة قيل لأنه لمّا لم يكن في خلقهم وقواهم ما يكملوا لمصالحهم وكان الصانع متعالياً عن أن يُرىٰ وكان ضعفهم وعجزهم عن إدراكه ظاهراً لم يكن بدٌ من رسول بينه وبينهم، معصوم يؤدي إليهم أمره ونهيه وأدبه ويقفهم علىٰ ما يكون به إحراز منافعهم ودفع مضارهم إذ لم يكن في خلقهم ما يعرفون به ما يحتاجون إليه منافعهم ومضارهم . . . )[1] .

ولا بد من الإشارة إلىٰ ادعاءٍ يدعيه البعض بأن التطور العلمي كفيل بتنظيم حياة الإنسان والمجتمع فالعلم والتكنولوجيا وأدوات العلم الأخرىٰ كل ذلك يجعلنا نستغني عن النبي المرسل ورسالات السماء وخاصة نحن أمام قوائم جبارة من الاكتشافات والاختراعات العلمية المتعددة التي ذللت صعوبات الحياة وحطمت كبرياء الطبيعة القاسية وتستطيع هذه الأدوات العلمية أن توصل الإنسان والمجتمع إلىٰ السعادة في الحياة كما نلاحظ سعادة الإنسان مع الصناعات المتطورة وخاصة في مجال الخدمات من وسائل النقل والكهرباء والبرق والهاتف والتلفاز وغيرها. وهذه الفكرة يثيرها البعض من أنصاف المثقفين علىٰ رؤوس الشبيبة والأشبال لأغراض معروفة وبالفعل لأنهم عرفوا شيئاً وغابت عنهم أشياء . . وصحيح أن العلم خدم ويخدم البشرية جمعاء خدمةً لا تنكر فقرّب المجتمع البشري من بعضه البعض وأضاء ليله وجعله كالنهار وذلّل صعوبات الهندسة والطب والخدمات ولكن بقيت أمام العلم والعلماء أسرار ضخمة وألغاز كثيرة يصعب علىٰ

العلماء فكّها ومعرفة رموزها إضافة لأسرار الغيب والنفس الإنسانية وما وراء الطبيعة حيث يقف العلم والعلماء موقف الطفل الحائر أمامها لا يمتلك مفتاح الأبواب الموصدة بل لا يستطيع معرفة موقع الأبواب حتىٰ يقف عندها ليطرق الباب أو ينتظر أمام الباب طويلاً عسىٰ من مخبر أو أمر طارىء يستطيع تفسيره ليملي فراغه ويقف العلم والعلماء موقف التلميذ الصغير أمام أسرار الطبيعة الهائلة والنفس والميتافيزيق هذا الكلام بشهادة رجال العلم أنفسهم يقول الكسيس كاريل في كتابه المعروف ـ الإنسان ذلك المجهول ـ (. . . فنحن نؤكد أن جميع المتخصصين في عملهم يعتقدون بأن ما ظفروا به لحد الآن ضئيل جداً ولا أهمية له بأزاء المسائل التي لا بد أن نعرفها فيما بعد. . . والواقع إن الإنسان مجموعة واحدة معقّدة مبهمة ليست قابلة للتفكيك ولا يمكن معرفتها بسهولة ولا تتوفر لحد الآن الأساليب التي يمكن استخدامها في دراسته جزءاً جزءاً وبصورة مجموعة واحدة ودراسة علاقاته بالبيئة المحيطة به . . . وعلىٰ هذا فإن الإنسان الذي يعرفه المتخصصون في كل فرع من هذه العلوم ليس واقعياً أيضاً وإنما هو شبح يصنعه ويعرضه في ذلك العالم)[٢] .

ويقول وليم جيمس في كتابه إرادة الاعتقاد : (إن علمنا ليس إلا نقطة ولكن جهلنا بحر زاخر) ويقول الكسيس كاريل : (إن علمنا عن ذاتنا لا يزال في حالة بدائية) ويقول غوستاف لوبون في كتابه الآراء والمعتقدات : (إن العلماء تبدو عليهم السذاجة كما تبدو علىٰ الجهلة الآدميين) .

ويقول الدكتور أبرسولد : (وعندما تزايد علمي ومعرفتي بالأشياء من الذرة إلىٰ الأجرام السماوية ومن الميكروب الدقيق إلىٰ الإنسان تبيّن لي أن هنالك كثيراً من الأشياء لم تستطع العلوم حتىٰ اليوم أن تجد لها تفسيراً وتكشف عن أسرارها النقاب)[٣] .

مع كل هذا التطور العلمي وشهادات العلماء بأن العالم لا يزال مجهولاً أمامنا فكيف نعطي لهذا العلم أمر تقرير المصير وبناء الروح

والقانون والعدالة فالعلم لا يزال بسيطاً ويبقىٰ كذلك كيف نربط أنفسنا بعجلته الحائرة؟ وفي الحال نرىٰ أن العلم يخدم البشرية حيث تتفجر طاقات الإنسان العقلية في استخدام بعض أسرار الطبيعة أما الجوانب الغيبيّة فالعلم لا يستطيع أن يفهمها أو يدركها بل يعلن عجزه التام عن فهمها . فعلىٰ ذلك تتحقق لدينا ضرورة الرسالة والرسول عقلياً لتوضيح هذا الأمر المستصعب في سنّ القوانين وتنظيم علاقة الإنسان بأسرته ومجتمعه وبنفسه وبربه وبالكون كذلك وهذا ما يعجز عنه العلم وكل وسائل التكنولوجيا المتطورة فمن هنا يُقال أن الإنسان بحاجة إلىٰ صياغتين صياغة ذاتية لنفسه كي ينمو علىٰ الفضائل والاستقامة وصياغة خارجية يقوم بها الإنسان لتوفير الخدمات وتذليل الصعاب فالصياغة الأولىٰ أي البناء النفسي لا ينجح إلا عبر مناهج السماء وقوانين الرسالة السماوية .

**﴿لئن اجتمعت الجن والإنس علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ .**

[سورة الإسراء ؛ ١٧ الأية : ٨٨] .

وأما الصياغة الثانية فتعتمد علىٰ طاقاته الفكرية وتطوره الحضاري .

**﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السمٰوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلاّ بسلطان﴾ .**

[سورة الرحمن ؛ ٥٥ الأية : ٣٣] .

فالمسألة متروكة للإنسان نفسه حيث يستفيد من خبراته وتجارب السابقين لتطوير حياته الخارجية فلو تمت الصياغتان بالشكل المناسب لسعدت البشرية وإن تمت الصياغة الخارجية دون الداخلية فالويل للبشرية لأن هذا التطور العلمي لا ينفعها بقدر ما يضرها يقول الكسيس كاريل في كتابه الإنسان ذلك المجهول (إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي علىٰ وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في

الضعف والتي ستكون عودتها إلىٰ البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها . . .) .

أما لو تمت الصياغة الداخلية صياغة القيم والمثل في الإنسان والمجتمع ـ ولو فرضنا من دون الصياغة العلمية الخارجية ـ لعاشت البشرية في أمن وأمان وراحة نفسية مع اتعاب جسدية . فإذن الصياغة الذاتية لإنسانية الإنسان هي الهدف السامي الذي تطمح له رسالات السماء فالكمال الإنساني طموح الأنبياء ورسالاتهم قال الإمام علي (ع) في خطبته الأُولىٰ في نهج البلاغة : (. . . فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكّروهم منسيّ نعمته ويحتجوا عليهم بالتبليغ ويثيروا لهم دفائن العقول ويروهم آيات المقْدرة . .) فحينما تتفجر طاقات الإنسان العقلية سيصوغ بواسطة الرسالة الإلهية نفسه ومجتمعه وحضارته والعلم سيكون في خدمة الإنسانية ـ آنذاك ـ .

### (ب) الضرورة التكوينية :

حينما نتساءل عن هدف الخلق ولماذا خُلق البشر ؟ يجيبنا القرآن الكريم :

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ .

[سورة الذاريات ؛ ٥١ الآية : ٥٦] .

ونسأل ما هو الهدف من العبادة ؟ حينها نعرف أن العبادة هي التي تضمن لنا سعادة الدنيا والآخرة فنخرج بنتيجة واضحة هي أن الهدف هو تحقيق المصلحة والسعادة للإنسان نفسه .

﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم﴾ .

[سورة الإسراء ؛ ١٧ الآية : ٧] .

فبالضرورة التكوينية نكتشف ضرورة النُبوة كي تكتمل الصورة من كل

جوانبها فلو لم تكن الرسالة السماويّة موضحة لنا طريق الكمال والسعادة ما اكتملت الصورة التكوينية للحياة بصورة عامة وبالنسبة للإنسان بصورة خاصة هذا من جانب ومن جانب آخر نلاحظ أن تكوين حياة الإنسان بحاجة إلىٰ أخيه الإنسان وبحاجة إلىٰ المجتمع والأُسرة والأرض .

فالناس للناس من بدوٍ ومن حضرٍ    بعضٌ لبعض وإن لم يشعروا خدمُ

فالإنسان مدني بالطبع كما يقولون فعلاقاته الحياتية لا بد لها من نظام يحكمها ويضبطها وإلاّ تتحول إلىٰ حياة الغاب ويحكمها قانون الغاب فهذه القوانين يجب أن تكون عادلة وملائمة لتكوين الإنسان الداخلي لترتب علاقته مع بني جنسه ضمن المقاييس المقبولة، مثلاً العلاقة الزوجية والعلاقة الأبوية والبنوية وعلاقات الجوار وغيرها وليقطع دابر المعتدين علىٰ هذه القوانين في حالة وقوع الظلم والاعتداء علىٰ الحقوق . فالرسالة السماوية هي الضمان في كل ذلك علىٰ عكس القوانين البشرية التي تتغيّر بين آونةٍ وأُخرىٰ تبعاً لمزاجيّة الحكام أو لاختلاف فهم المقنّنين والمنظّرين لتبعات القوانين هذه .

وكذلك نلاحظ أن الإنسان في هذا الكون هو المخلوق الوحيد الذي يمتاز بالقدرة العقلية والتي بدورها تحاول أن تستفيد من كل الوجودات في الكون ونرىٰ بالمقابل هذا الكون مسخر للإنسان .

**﴿أو لم يروا أنّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون﴾** .

[سورة يٰس ؛ ٣٦ الآية : ٧١] .

**﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾** .

[سورة البقرة ؛ ٢ الآية : ٢٩] .

**﴿وسخر لكم ما في السمٰوات وما في الأرض جميعاً منه﴾** .

[سورة الجاثية ؛ ٤٥ الآية : ١٣] .

﴿الله الذي سخّر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره﴾ .

[سورة الجاثية ؛ ٤٥ الآية : ١٢] .

﴿وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار﴾ .

[سورة إبراهيم ؛ ١٤الآيتان : ٣٢ ، ٣٣] .

وفي الحديث القدسي (عبدي خلقت الأشياء لاجلك وخلقتك لأجلي) فالإنسان خليفة الله علىٰ الأرض فإذن هذا المخلوق بحاجة إلىٰ ضوابط للطموحات النفسية التي لولاها لضاعت القيم الإنسانية وبدأ الواحد يأكل الثاني علىٰ قاعدة فاز باللذات من كان جسورا . هذه الضوابط تحدد العلاقة بين العقل الإنساني المدير والمستثمر لما حوله من الوجود وما بين العقول الإنسانية الأخرىٰ من جهة ومن جهة أخرىٰ بينه وبين الطبيعة ذاتها أي بينه وبين طرق الاستثمار الممكنة من الوجودات بصورة عامة التي يريد استثمارها . وفي الرواية : (أيها الناس إن الله تبارك وتعالىٰ لما خلق الخلق لم يكونوا علىٰ آداب رفيعة وأخلاق شريفة فعلم أنهم لن يكونوا كذلك إلاّ بأن يعرفهم ما لهم وما عليهم) فإذن للنبوة ضرورة تكوينية لاكتمال الصورة التكوينية للوجود يقول الدكتور أميل درمنجام في كتابه حياة محمد : (إن وجود الأنبياء ضروري لهذه الدنيا بمقدار ضرورة وجود القوىٰ الطبيعية النافعة والعجيبة كالشمس والمطر . . )[٥] .

فالنبي خليفة الله في الكون خلافة كونية وعلىٰ الناس والقانون خلافة تشريعية فضرورته إذن تكوينية كما انها تشريعية .

### (جـ) الضرورة الشرعية :

القوانين الإلهيّة وتشريعات الحلال والحرام في المسائل الشخصية والمعاملات العامة الاجتماعية والاقتصادية والآداب والعلاقات العامة والاخلاق والسياسة وما يتصل بهذه القوانين من أمور فرعية كل ذلك بحاجة

إلىٰ تبيانه وتطبيقه وهذا ما يقوم به النبي المرسل لتوضيح رسالة السماء فإذن هنالك ضرورة شرعية في بعث النبي والرسالة فالنبي المرسل يعتبر المبلّغ لإرادة الله الشرعية وعن طريقه يتم التبليغ بأحكام الله الشرعية ولولاه لما استطعنا أن نحرز رضا الخالق الكريم عبر تطبيق دساتيره فقد قال سبحانه :

**﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكنّي رسول من رب العالمين، أُبلّغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾** .

[سورة الأعراف ؛ ٧ الآيتان : ٦٧ ، ٦٨] .

ومن ناحية ثانية نحن كبشر لا ندرك سوىٰ هذا العالم المحيط بنا بنسب معينة من العلم به فنحن بحاجة إلىٰ معرفة أبعاد خلق الله عز وجل وما أعدّ للإنسان في الآخرة من ثواب وعقاب وكيف نعتقد بالعودة يوم القيامة حيث الحساب وقبل يوم الحساب عالم البرزخ وما الذي يجري في عالم البرزخ وكيف يكون القبر إما روضة من رياض الجنان وإما حفرة من حفر النيران . . هذه الأُمور وضحها الأنبياء (ع) لنا فالإنسان وحده لا يمكنه أن يتعرف علىٰ هذا المستقبل المبهم بوحي نفسه لذلك نحن نحتاج إلىٰ من يرفع عنّا هذا الابهام ويعطينا أُسس الاعتقاد والإيمان بالمعاد والبرزخ والجنة والنار والنعيم والعذاب فمن مهمات الرسالة السماوية والنبي المرسل توضيح هذا المستقبل المرتقب .

قال سبحانه : **﴿وإن مّا نُرينّك بعض الذي نعدهم أو نتوفّينّك فإنّما عليك البلاغ﴾** .

[سورة الرعد ؛ ١٣ الآية : ٤٠] .

وفي آية أُخرىٰ : **﴿هذا بلاغ للناس ولينذروا به﴾** .

[سورة إبراهيم ؛ ١٤ الآية : ٥٢] .

ومن ناحية ثالثة نحن بحاجة إلىٰ برنامج روحي يضمن لنا سلامة الاعتقاد وصلاح النفس والثبات علىٰ المبدأ عن طريق العبادة أو سبل التزكية

للنفس لضمان الاستقامة وهنا ما يوضحه لنا كذلك النبي المرسل والرسالة السماوية .

قال سبحانه: **﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾** .

[سورة الجمعة ؛ ٦٢ الآية : ٢] .

وجاء في الرواية : ( . . . وكان ضعفهم (الناس) وعجزهم عن إدراكه ظاهراً لم يكن بد من رسول بينه وبينهم، معصوم يؤدي إليهم أمره ونهيه وأدبه، ويقفهم على ما يكون به إحراز منافعهم ودفع مضارهم. . . ) ومع فقدان هذا البرنامج سيجرّنا الفراغ العقائدي إلى اختراع عقائد أو اختلاق أفكار تسد هذا الفراغ العقائدي فيتمسك بها الإنسان على مستوى الخرافات والتقاليد الرجعية التي لا تعرف العلم والوجدان. والحق كما كان لدى الهنود تقاليد دفن الزوجة وهي حية مع زوجها المتوفي وكان عند البعض الآخر من الهنود عقيدة أكثر فساداً وانحرافاً من هذه حيث يحرقون الزوجة أو الزوجات على قبر الزوج المتوفى بعد أن تخرج مسيرة كبيرة لتشيع جثمان الزوج هذه المسيرة ترفع الأناشيد والاهازيج بالطبول والمزامير حتى تصل إلى القبر فتنصب محرقة ضخمة على القبر بعد دفن الزوج لترمى إليها الزوجة المسكينة أو الزوجات طعمة لهذه النار الملتهبة . .

بينما الشريعة السماوية تضع برنامجاً روحياً خالصاً من هذه الشوائب الغريبة وتحدد حقوق الرجل كما تحدد حقوق المرأة وتبيّن ضوابط هذه الحقوق مما يلائم الفطرة والشرف والكرامة .

قال سبحانه : **﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾** .

[سورة النساء ؛ ٤ ؛ الآية : ١٦٥] .

وقال الإمام علي (ع) : (بعث ـ الله ـ رسله بما خصهم به من وحيه وجعلهم حجة له على خلقه لئلا تجب الحجة لهم بترك الاعذار إليهم فدعاهم بلسان الصدق إلى سبيل الحق)[٦] .

**( د ) الضرورة النفسية :**

قال سبحانه : **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾** .

[سورة الأحزاب ؛ ٣٣ الآية : ٢١] .

مسألة القدوة في الحياة مسألة في منتهى الأهمية حيث أن الإنسان يرسم لنفسه أهدافاً معيّنة في الحياة فإن كانت هذه الأهداف قد نفّذها آخرون من قبله وهو يعتبرها سامية في نظره فسرعان ما يطبقها مستلهماً من المطبّق الأول أسلوبه ومنهجيته والمسألة اعتيادية بالإضافة إلى أهميتها الكبيرة وخاصة في قضية مجاهدة النفس وتزكيتها والقيم الأخلاقية العالية والتربية المركزة وحينما نقف في دراستنا على نظرة أهل البيت (ع) إلى الدنيا وكيف كان يتعامل النبي (ص) مع الحياة الدنيوية وغرور الدنيا وزخارفها ندرك أهمية القدوة الحسنة في الحياة فيبدأ الإنسان المؤمن جاهداً نفسه للسير على تلك الرؤى أو الاقتراب من تطبيق تلك النظرات الواعية .

وهكذا نلاحظ أنّ حيّزاً واضحاً في ذهنية الإنسان يستدعي التقليد لشخصٍ ما وفي أمر ما إيجاباً أو سلباً ـ حسب النظرة الأخلاقية ـ فهناك من يقلد رياضيّاً ناجحاً لملء الفراغ الذهني وهناك من يقلد نبيّاً مقدساً ويتخذه كما في الآية المتقدمة قدوة حسنة فمن هنا جاءت السنة الشريفة في موقع المصدر الثاني ـ بعد القرآن الكريم ـ في القضية التشريعية فكل قولٍ وفعلٍ وتقريرٍ للمعصوم يعتبر سنّة وعلى المسلمين أن يتخذوا ذلك دستوراً في تطبيق أوامر الله ونهيه . وللعلم إن البناء النفسي للإنسان هو الهدف الأسمى في الحياة حيث يجسد مهمة الأنبياء والرسل ومتى ما بُنيَ الإنسان نفسياً على الأسس الشرعية بُنيت حضارة إنسانية ملؤها العدل والحنان وأن البناء الذاتي المستقيم أصعب المهام التربوية لذلك تسعى التربية الإسلامية لتضبيط البنى

التحتيّـة للمجتمع المسلم علىٰ أُسس نقيـة لتتم عمليـة إنمـاء القيم الإيجـابيـة في الـداخل من الخيـر والعطاء والاستقـامة فـالمسألـة إذن في غـايـة الأهميـة والخطورة وهكذا جمـع النبي محمد (ص) أصحـابه بعـد الانتصار الأول علىٰ المشـركين في معركـة بدر الكبـرىٰ قائـلاً لهـم : «عليكم بالجهـاد الأكبـر وقـد مضىٰ الجهاد الأصغر» قيل وما الجهاد الأكبر قال (ص) : «جهاد النفس» .

وجهـاد النفـس هـذا هـو البنـاء المتين لنفسيـة الإنسـان عبـر الترويض والمعاناة لخلق الإنسان المجاهـد المضحي العابـد المطبق لأوامـر الشريعـة . ومسـألة نفسيـة أُخرىٰ تتضـح من النبـوة وهي أن الأنبيـاء من البشر أنفسهم، لا من جنس آخـر متبـاين مـع الجنس البشـري ولـو كـان النبي كـذلـك لصعب اتخاذه قدوة حسنـة فحينما يكـون النبيّ من الناس اختـاره الله سبحانـه لأسباب معينـة فهـو من صميم المجتمـع البشـري ويعيش واقعيّـات النـاس ويتـداخـل معهم ويتقاطع مع حياتهم في التعـاون والمحبة والـزواج والتجارة والقيـادة في الصلاة وساحة القتال فـالصورة تكـون متكاملة وواضحـة مما يـوفّر علىٰ النفس الإنسانية ضغطاً طبيعياً لاستجـابة القـرار الشرعي والبـلاغ الإلهي منه فقـد قال سبحانه :

﴿قل إنّما أنا بشر مثلكم يوحىٰ إليّ﴾ .

[سورة الكهف ؛ ١٨ الآية : ١١٠] .

فـالفارق الـرئيسي بين النبي وبقية البشـر هو الـوحي المنـزَل من الـرب الأعلىٰ كمـا تشير الآيـة المباركـة . أما لـو كان النبي من المـلائكة أو الجن أو أي جنسٍ آخـر لمـا استـطاع أن يتـرك الأثـر النفسي المـطلوب والمنـاسب في النـاس ولما أمكن اتخـاذه قدوة في الحيـاة البشريـة ولمـا انسجم النـاس معـه بـالشكل الـذي نراه اليـوم من تعلق وآنصياع وإطاعة وإن كـان بعض النـاس وخـاصة في زمن الأنبيـاء يعتبر كـون النبي من الناس أمـراً لا يستسيغه الـذوق فلذلك كانت تكثـر الشبهات حـول النبي إنطلاقـاً من هذه الفكـرة وإنما كـانوا يـريدونـه نـوع من المخلوقـات خـاص بـطبـائعـه متـرفـع عن عـادات النـاس

كالملائكة مثلاً فنقرأ في الآية الكريمة قوله تعالىٰ :

**﴿. . قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عمّا كان يعبد آباؤنا﴾** .

[سورة إبراهيم؛ ١٤ الآية : ١٠] .

وفي قوله تعالىٰ : **﴿. . . ما هذا إلاَّ بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه﴾** .

[سورة المؤمنون ؛ ٢٣ الآية : ٣٣] .

**﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾** .

[سورة الفرقان ؛ ٢٥ الآية : ٧] .

ويرّد ذلك القرآن الكريم للضرورات العديدة منها النفسية .

أما في هذا اليوم فيذهب البعض إلىٰ أن النبي المرسل هو رجل مصلح عبقري كالعباقرة والمصلحين في المجتمع البشري العام . والحقيقة أن النبي المرسل له صفات معينة ـ كما أسلفنا ـ وعلىٰ ضوئها تم اختياره لهذا المنصب من قبل الله تعالىٰ فهو من البشر ومختار من الله عز وجل ليؤدي دور الوسيط المبلِّغ بينه تعالىٰ وبين الناس .

**﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحىٰ إليّ﴾** .

[سورة الكهف ؛ ١٨ الآية : ١١٠] .

**﴿هو الذي بعث في الأُمِّيين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾** .

[سورة الجمعة ؛٦٢ الآية: ٢].

وهنالك التفاتة جميلة من الآية الكريمة : **﴿ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب﴾** اطمئنان القلوب البشرية لنظام الله عز وجل ودستوره للحياة يأتي

من أنـه تعالىٰ محيط بكـل شيءٍ علماً ومعـرفة ويستـطيع تحـديد الخير والنفع وفـرزه من الشر والضـرر وانه سبحـانه يقـرّر ما ينفـع الناس دون ميـل لنـوازع نفسية كالهوىٰ ـ والعياذ بالله ـ وهكذا الرسول المعيّن .

﴿وما ينطق عن الهوىٰ، إن هو إلاّ وحي يوحىٰ﴾ .

[سورة النجم ٥٣؛ الآيتان : ٣ ، ٤ ].

مما يوفـر حالـة الاطمئنان في نفسيـة الإنسان المتلقّي بصفـاء واخلاص لوحي السماء علىٰ عكس القـوانين الوضعيـة التي يضعها الإنسـان بوحي عقله القاصر عن المعرفة التامة المحيـطة بكل الأُمـور ظاهـرها وبـاطنها ومن نـاحية أُخرىٰ أن العقل البشري يتأثر بالهوىٰ والنفس والغرائز بدرجـة من الدرجـات . بينما منهجية الله تعالىٰ ترسم الخطة للتزكية النفسية من كـل البراثن والنـزعات الشيـطانية ﴿ويـزكيهم ويعلمهم﴾ وقد قـال الـرسـول الأعـظم (ص) : «إنمـا بعثت لأُتمم مكارم الأخلاق»[٧] .

وجاء في الكافي عن هشام بن الحكم عن الصادق (ع) انـه قال لـزنديق سـأله من أين أثبت الأنبيـاء والرسـل قال (ع) : (إنا لما أثبتنـا أن لنـا خـالقـاً صانعاً متعـالياً عنـا . . وكان ذلـك الصانـع حكيماً متعـالياً لم يجـز أن يشاهـده خلقه ولا يلامسوه فيباشـرهم ويباشـروه ويحاجهم ويحـاجوه ثبت أن لـه سفراء في خلقـه وعباده يعبـرون عنـه إلىٰ خلقـه وعبـاده ويـدلـونهم علىٰ مصـالحهم ومنـافعهم ومـا بـه بقـاؤهم وفي تـركـه فنـاؤهم فثبت الآمـرون والنــاهـون عن الحكيم العليم في خلقــه . . ) فـالبنــاء النفسي المتين علىٰ أُسس الشـريعـة الإلهية تخلق هذا الجو من الإطمئنان ، والانتعاش الروحي يخلق رقابة وجدانية داخلية علىٰ تصرفـات وسلوكيات الإنسـان نفسه فيلومـه ضميره حينمـا يعصي أو يحاول العصيان ولو بالنيـة المجردة ، فـزراعة البـوليس الداخلي في النفس ليـراقب تصرفـات وأعمـال ونـوايـا الإنسـان من أهم أهـداف شـريعـة السمـاء وبـالفعل تتشكـل محاكم وجـدانيـة في قلب الإنسـان المؤمن لمحـاسبتـه علىٰ سلوكـه وكلامـه بل علىٰ جميـع تنفيذيّاتـه العمليـة مما يؤمّن سـلامـة القـانـون

وعدالة التطبيق وهذا ما تفتقره القوانين الوضعية والحكومات البشرية فإذن النبوة والرسالة تخلقان في الإنسان هذا الجو النفسي الهادىء المطمئن والمطبق للتشريع بكل تطوع وإرادة وبهذا تتجلىٰ الضرورة النفسية للنبوة بأبعادها الرئيسية .

**(هـ) اللطف الالهي :**

الله سبحانه الذي خلقنا وأرشدنا لفعل الخير والصلاح وحذّرنا من فعل الشر لأننا نجهل الكثير من مصالحنا ونتائج أعمالنا فهو سبحانه أجلّ وأعظم من أن يورط عباده بجهلهم بل أراد أن يسعدهم في حياتهم الدنيوية ويجعلهم في الأخرة من الناجين من العذاب فهو اللطيف بعباده والرؤوف بهم فلا يترك العباد سدىٰ دون توجيه فمن باب لطفه وحنانه بعث لنا الرسل كي يوضّحوا لنا السبل الخيّرة ويميّزوها عن السبل الشريرة :

**﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾** .

[سورة الإنسان ؛ ٧٦ الآية : ٣] .

وبما أن الشكر والكفر لهما الأرضية المناسبة في نفسية الإنسان فقد قال سبحانه : **﴿ونفسٍ وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها﴾** .

[سورة الشمس ؛ ٩ الآيتان: ٧ ـ ٨].

وقال : **﴿إن النفس لأمّارة بالسوء﴾** .

[سورة يوسف ؛ ١٢ الآية : ٥٣] .

**﴿إن الإنسان ليطغىٰ﴾** .

[سورة العلق ؛ ٩٦ الآية : ٦] .

هذا من الجانب السلبي أي هنالك استعداد في نفسية الإنسان لهذا الإنحراف والفجور والطغيان إلاّ ما رحم ربي كما في تكملة الآية : **﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلاّ ما رحم ربي﴾** وأمام هذه الأرضية هنالك أرضية

لدىٰ الإنسان موازية لها وهي الأرضية الإيجابية فقد قال عز من قائل :

**﴿ولا أُقسم بالنفس اللّوّامة . .﴾** .

[سورة القيامة ؛ ٧٥ الآية : ٢] .

وقال أيضاً : **﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلىٰ ربك راضيةً مرضية﴾** .

[سورة الفجر ؛ ٨٩ الآية : ٢٧] .

فهناك استعداد نحو الخير والمعروف وحالة الصراع الدائمة بين الطرفين في داخل النفس الإنسانية في تفاعل مستمر فلا بد من التوجيه الرباني لهذٰا الصراع الدائم ، فمن كماله المطلق ومن باب لطفه بعباده أرسل الرسل ليتم نعمته علىٰ البشر .

**﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾** .

[سورة المائدة ؛ ٥ الآية : ٣] .

يقول الشيخ المظفر في عقائد الإمامية : (فوجب أن يبعث الله تعالىٰ في الناس رحمةً لهم ولطفاً بهم: **﴿رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم . . .﴾** وينذرهم عما فيه فسادهم ويبشرهم بما فيه صلاحهم وسعادتهم . .

إنما اللطف من الله تعالىٰ واجبٌ فلأن اللطف بالعباد من كماله المطلق وهو اللطيف بعباده الجواد الكريم فإذا كان المحل قابلاً ومستعداً لفيض الجود واللطف فإنه تعالىٰ لا بد أن يفيض لطفه إذ لا بخل في ساحة رحمته ولا نقص في جوده وكرمه)(٨) .

وجاء في خطبة مولانا أمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة : (. . . لما بدّل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجهلوا حقه واتخذوا الأنداد معه واحتالتهم

الشيـاطين عن معـرفتـه واقتـطعتهم عن عبـادتـه فبعث فيهم رسله وواتـر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرتـه ويذكّـروهم منسيّ نعمته ويحتجـوا عليهم بالتبليغ ويثيروا لهم دفائن العقول ويروهم آيات المقْدرة . . ) .

فعَلىٰ مـا تقـدم من ضـرورات النبـوة وقـاعـدة اللطف الإلهي نـرىٰ أن الشـريعة الإلهيـة توفـر وتؤمّن للإنسـان حاجيـاته الفكـرية والـروحية والمـاديـة بالطرق المشروعة وتؤمن للإنسان حريته في الحيـاة وتمنحه حقـوقه المشـروعة وتتماشىٰ مع الـواقعيات الحيـاتية بـأبعادهـا الواسعـة مراعيـة للظروف الطارئـة والمتغيـرات الجزئيـة أو الكلية فتـدخل العنـاوين الثانـويـة لتحـديـد العنـاوين الأولية ـ كما يقول الأصوليـون ـ وفق قاعـدة ـ الضرورات تبيـح المحظورات، والضرورات تقدّر بقدرها.

## (٢)

# من هو النبي المرسل ؟
# ومن هم الأنبياء ؟وما هي صفاتهم ؟

النبيّ هو ذلك الإنسان الذي يُمنح ثقة من الله فتُوكل إليه النبوة ، والنبوة منصب إلهي علىٰ الأرض يختار الله سبحانه من يصطفي من البشر لهذه المهمة فيكون هو الوسيط ما بين الله وبين عباده فيستلم من الله أوامره ونواهيه وإرادته ويبلّغها للبشر لغرض هدايتهم للطريق الأسلم حيث تتحقق المصالح البشرية في الدنيا والآخرة علىٰ ضوء تعاليم الله المباركة ، وللنبي المرسل صلاحيات يخولّها سبحانه له .

﴿ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا . . .﴾ .

[سورة الحشر ؛ ٥٩ الآية : ٧] .

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ .

[سورة الأحزاب ؛ ٣٣ الآية : ٢١] .

وهكذا نعتقد أن الأنبياء كلهم معصومون أي منزهون عن الخطأ والمعاصي صغيرها وكبيرها لذلك أمرنا عز وجل أن نأخذ من الأنبياء ومن نبينا الأكرم (ص) نهجنا في الحياة ـ دون شك أو ريب ـ فقد قال في محكم القرآن الكريم :

﴿وما ينطق عن الهوىٰ، إن هو إلاّ وحي يوحىٰ﴾ .

[سورة النجم ؛ ٥٣ الآيتان : ٣ ، ٤] .

فأمرنا سبحانه باتباع النبي وهذا يعني أخذ أوامر الله ونهيه أي إطاعته لذلك ورد في الأثر ( الراد على النبي كالراد على الله . . ) فلا يمكن أن يأمرنا سبحانه باتباع من يخطىء ويغفل ويعصي وما شابه هذه النقائص البشرية وإلاّ لدخلنا مدخلاً لا مخرج منه حيث تتزعزع الثقة بالنبي الذي قد يخرج عن الحدود الشرعية في أعماله ولقلنا بجواز المعصية عليه وهذا يناقض أمر الله باتباع الذي يعصيه فنطيعه في العصيان ! ـ لا سمح الله ـ والحال إن الله أمرنا بإطاعته واطاعة الرسول وأولي الأمر بقوله :

**﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾** .

[سورة النساء ؛ ٤ الآية : ٥٩] .

وورد عن الإمام الصادق : إن الله أدّب نبيه (ص) حتىٰ إذا أقامه علىٰ ما أراد قال له : **﴿وآمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾** فلما فعل ذلك رسول الله (ص) زكاه الله فقال : **﴿إنك لعلىٰ خلق عظيم﴾** فلما زكاه فوّض إليه دينه فقال :

**﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾** .

[سورة الحشر ؛ ٥٩ الآية : ٧] .

وللإمام علي (ع) قول في هذا الصدد يقول فيه : (إن أطعتموني فإني حاملكم إن شاء الله علىٰ سبيل الجنة وإن كان ذا مشقة شديدة ومذاقة مريرة)[٩] .

وكما قلنا فالنبي إنسان له صفاته البشرية من الجسم مثلاً فهو يأكل ويشرب وينام وينكح ولذلك حينما تعجب القوم من النبي وقالوا كما ورد في القرآن الكريم :

**﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا انزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾** .

[سورة الفرقان ؛ ٢٥ الآية : ٧] .

كانوا لا يتصورون النبي بهذا المعنىٰ الإنساني فأثاروا ذلك باعتباره أمراً مستهجناً يقول الشيخ المفيد في أوائل المقالات :

(إن رسل الله من البشر وأنبيائه والأئمة من خلفائه محدثون مصنوعون تلحقهم الآلام وتحدث لهم اللذات وتنمي أجسامهم بالأغذية وتنقص علىٰ مرور الزمان ويحل بهم الموت ويجوز عليهم الفناء . .)[10] .

ولهم صفات معنوية روحية يتميزون بها عن سائر البشر كالعصمة ـ وسيأتي الحديث عنها ـ والقدرة علىٰ الادارة والتضحية التامة والشجاعة وتحمل المسؤولية في الخلافة علىٰ الأرض .

وأنبياء الله سبحانه منهم من كان من أُولي العزم الخمسة الذين تمتاز رسالتهم بعالميتها لزمانها وهم النبي نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد (عليهم الصلاة والسلام) ومنهم من كانت رسالته علىٰ نفسه أو أهله أو عشيرته أو بلدته فذكر قسم منهم مع قصصهم في القرآن الحكيم والأحاديث الشريفة والروايات كذلك ونحن نعتقد بهم جميعاً ونعترف بهم ونعتبرهم الممهدين للنبي الأكرم محمد (ص) ومنهم المذكور في القرآن ومنهم ما ذكر في الحديث الشريف والذين ذكروا في القرآن خمسة وعشرون رسولاً . . .

قال الله العظيم : **﴿آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحدٍ من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾** .

[سورة البقرة ؛ ٢ الآية : ٢٨٥] .

فكانت رسالة نوح هي السائدة في عصرها حتىٰ بعث الله النبي إبراهيم فصارت رسالته هي السائدة في زمانها إلىٰ رسالة موسىٰ فبقيت التوراة حتىٰ رسالة عيسىٰ وبقي الإنجيل رسالة عالمية لحين بعثة الرسول محمد (ص) .

﴿ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ .

[سورة الأحزاب ؛ ٣٣ الآية : ٤٠] .

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ .

[سورة المائدة ؛ ٥ الآية : ٣] .

وهنالك أنبياء ما كانوا من أُولي العزم أي لم تكن رسالتهم عالمية بل لمجتمعهم الخاص وأسرهم الخاصة ـ كما أسلفنا ـ فقد قال سبحانه :

﴿فاصبر كما صبر أُولوا العزم من الرسل﴾ .

[سورة الأحقاف ؛ ٤٦ الآية: ٣٥] .

وفي الرواية عن الإمام زين العابدين (ع) قال : (. . . منهم خمسة أُولو العزم من الرسل قلنا من هم ؟ قال : نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد (ص) قلنا له : ما معنىٰ أُولو العزم قال : بعثوا إلىٰ شرق الأرض وغربها جِنّها وانسها)[١١] .

وعن الإمام الرضا (ع) : (إنما سمي أُولو العزم أولي العزم لأنهم كانوا أصحاب العزائم والشرائع وذلك أن كل نبي كان بعد نوح (ع) كان علىٰ شريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه إلىٰ زمن إبراهيم الخليل وكل نبي كان في أيام إبراهيم وبعده كان علىٰ شريعة إبراهيم ومنهاجه وتابعاً لكتابه إلىٰ زمن موسىٰ وكل نبي كان في زمن موسىٰ وبعده كان علىٰ شريعة موسىٰ ومنهاجه وتابعاً لكتابه إلىٰ أيام عيسىٰ وكل نبي كان في أيام عيسىٰ وبعده كان علىٰ منهاج عيسىٰ وشريعته وتابعاً لكتابه إلىٰ زمن نبينا محمد (ص) فهؤلاء الخمسة أُولو العزم وهم أفضل الأنبياء والرسل)[١٢] .

ويقسَّم الأنبياء إلىٰ خمسة أقسام من حيث طريقة الاتصال بين الله

وبينهم فورد عن زرارة عن أبي جعفر (ع) قال : الأنبياء علىٰ خمسة أنواع منهم من يسمع الصوت مثل صوت السلسلة فيعلم ما عني به ومنهم من يُنبّأ في منامه مثل يوسف وإبراهيم ومنهم من يعاين ومنهم من ينكت في قلبه ويوقر في اذنه . .) .

وورد عن النبي (ص) بصدد عدد الأنبياء قوله : «النبيّون مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي والمرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر وآدم نبي مكلم»(١٣) .

أما عن سائر صفات الأنبياء (ع) يقول (ص) : «إنّا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ، ولا تنام قلوبُنا» . ويصف الرسول محمد (ص) حالة الأنبياء في مخاطبة الناس فيقول : «إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أنْ نكلِّمَ الناس علىٰ قَدْر عقولهم» .

وقد ورد في صفة الأنبياء عليهم السلام علىٰ لسان الإمام علي (ع) في خطبته رقم ١٩٢ في نهج البلاغة قوله : (. . . كانوا قوماً مستضعفين ، قد آختبرهم الله بالمخمَصَة ، وآبتلاهم بالمجهدة ، وآمتحنهم بالمخاوف ، ومَخَضَهم بالمكاره . . . ولقد دخل موسىٰ بن عمران ومعه أخوه هارون ـ صلّىٰ الله عليهما ـ علىٰ فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصيّ . . . ولو أراد الله سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذِّهبان ، ومعادن الجِنان ، . . . لفعل . . . ولكنّ الله سبحانه جعل رسله أولي قوّة في عزائمهم وضَعَفَةً فيما ترىٰ الأعينُ من حالاتهم ، مع قناعة تملأ القلوب والعيوب غنىً ، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذىً . .) .

ويقول الإمام الصادق (ع) : (إن الله عز وجل لم يبعث رسله حيث بعثها ومعها ذهب ولا فضّة ولكن بعثها بالكلام) .

وعن قتادة: (ما بَعث الله نَبيّاً قط إلاّ بَعثه حَسَنَ الوجهِ ، حَسَنَ الصوتِ) .

ومن أخلاق الأنبياء يقول الإمام الصادق (ع) : (أربعة من أخلاق الأنبياء ـ عليهم السلام ـ البرّ ، والسخاء ، والصبر علىٰ النائبة ، والقيام بحق المؤمن) .

ويقول الرسول الأعظم (ص) : «من أخلاق النبيّين والصدّيقين البشاشة إذا تراؤوا ، والمصافحة إذا تلاقوا» .

هذا نزر من صفاتهم آقتصرنا علىٰ ذكر بعضها من الاحاديث والروايات .

( ٣ )

# العصمة
# أدلتها ودلالتها

قلنا إن المعصوم هو المنزه عن الخطأ والنسيان وآرتكاب الآثام وبقية النواقص الأخرىٰ وإن الأنبياء كلهم معصومون وكذلك الأئمة (ع) فهم منزّهون عن المعاصي والذنوب ، فالنبي معصوم من قبل فترة النبوة وخلال فترة النبوة كذلك، والنبوة منصب إلهي رفيع يختار الله له من يتحمل المسؤولية الكبرىٰ في الإطاعة والتغيير والإصلاح وتبليغ رسالة السماء ضمن الضوابط والشروط الإلهية فيكون النبي بعيداً عن النقائص الجسمية والروحية ، الخَلقية والخُلقية ، النفسية والعقلية ، فالنبي لا يخطىء قولاً ولا فعلاً وهو بعيد كل ال ... عن التصرفات الدنيئة التي تنعكس سلباً علىٰ شخصيته ومنصبه الإلهي .

فالنبيّ محصّن حصانة روحية متينة تحفظه من ممارسة الأخطاء والآثام . والأنبياء جميعاً يمتلكون مناعة روحية تمنحهم القدرة علىٰ المحافظة علىٰ روح التوازن الخلقي والابتعاد التام عن المعصية والإنحراف . فهم قادة البشر وهم المثل العليا للبشر وهم القدوات المفروض علينا طاعتهم شرعاً . فالعصمة هي ملكة ذاتية لدىٰ المعصوم تجعله ممارساً للواجبات والمستحبات والصلاح والخير مجتنباً كل الموبقات والمحرمات والمكروهات وأعمال الشر مع قدرته عليها .

وبعد هذا التوضيح في معنىٰ العصمة نأتي الآن لمعرفة أدلة العصمة هذه ، وهل أن العصمة تجرنا إلىٰ نظرية الجبر المارة الذكر ؟ باعتبار أن المعصوم لا يرتكب خطأ ولا يمكنه ذلك .

وبعد ذلك نريد أن نتعرف علىٰ المعصومين من الزلل وهل يستطيع كلُّ إنسان أن يصل إلىٰ درجة المعصومين ؟ وإذا قلنا إن الأنبياء معصومون فكيف نفسر بعض الآيات الكريمة والروايات الشريفة التي يتوهم السامع ظاهراً حينما يقرأها فيتصور صحة نسبة الأخطاء للأنبياء (ع) ، كل هذه مجتمعة سنبحثها تباعاً بشيء من التوضيح .

## أما الأدلة فهي عقلية وشرعية :

فليس من العقل أن نتبع رجلاً يجوز عليه الإنحراف والإثم ونتخذه قدوة لنا في كل أُمور حياتنا ويستحيل علىٰ الله سبحانه أن يأمرنا بذلك فهو الكمال المطلق لا يمكن عقلاً أن يبعث لنا من يبلّغ رسالته ويمكن أن يكون آثماً منحرفاً . فلو كان للنبي المرسل تاريخ ملوّث ومليء بالآثام والمعاصي فمن الصعوبة أن يصدقه الناس ويقلدوه في رسالته وأعماله لأن التبليغ عن الغيب ووضع برنامج للإيمان والتقوىٰ وبالتالي التضحية والالتزام بالمبدأ كل ذلك بحاجة إلىٰ ثقة عالية يودعها الناس في شخص المبلّغ فلو كان المبلّغ مخدوشاً في شخصيته أو تأريخه فمن العسير جداً أن تتوفر حالة الثقة هذه، والتي تعتبر هي العمدة في القبول والأساس في التبليغ الناجح أما لو كانت تجوز عليه المعصية لفقدت الثقة وجازت تعريته والتبرؤ منه - عقلاً - .

أما الأدلة الشرعية فهي كثيرة في القرآن والحديث ونحن أمام أوامر الله سبحانه في اطاعة الرسل فقد قال عز من قائل : **﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم﴾** فلو جاز علىٰ النبي الاتيان بالمنكرات - لا سمح الله - فما هو دورنا كمتلقّين ومقلِّدين لقول النبي وفعله وتقريره أليست سنة المعصوم حجة بعد القرآن الكريم ؟ فأما أن نقلده في المعاصي كما نقلده بالأعمال الصالحة وهذا مستحيل عقلاً وشرعاً حيث يستحيل علىٰ الله

أن يأمرنا بالمعاصي والمفاسد فإذن حينما أمرنا بإطاعة الرسول أمرنا بالاستقامة والصلاح والالتزام فالله يعلم مسبقاً أن الرسول لا يعصي ولا يأثم أبداً وإلّا كان أمر الله لنا باطاعة الرسول بمثابة الاجازة في ارتكاب الآثام وهذا مستحيل .

وإما أن نرفض الاطاعة للرسول وهذا مخالف لأمره تعالىٰ وفي حالة رفض الطاعة بحجة عدم العصمة ستشيع الفوضىٰ فلو تصورنا بالفعل هذا الأمر كيف يكون حال المؤمنين به . فمن المؤكد إلىٰ الفوضىٰ والتهتك مصير المجتمع آنذاك بدل انتظامه وراء القائد المرسل ، ففي هذه الحالة لا يستطيع أن يأمر أمراً يتفق عليه الناس فتلعب الأهواء والطموحات الشخصية والحسابات السياسية في دائرة الاطاعة فتوسعها تارة وتضيقها تارة أُخرىٰ بحسب الرؤىٰ الشخصية والأهواء المضلّة بينما نلاحظ تأكيد الله سبحانه علىٰ اطاعة الرسول لحسم المسائل الحياتية والمصيرية والضغط باتجاه ترويض الناس ولنفوسهم بالذات لقبول القرارات الصادرة من النبي مهما بلغت درجات التضحية والعطاء لذلك نرىٰ في حالة عدم الاطاعة للنبي المرسل يعني عدم اطاعة الله الخالق وفي الآية المباركة التالية يقرن الله (عزّ وجلّ) إيذاء الرسول بإيذائه فيقول:

**﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة﴾** .

[سورة الأحزاب ؛ ٣٣ الآية: ٥٧] .

ونهىٰ عن ذلك الإيذاء نهياً قاطعاً .

فالنبي معصوم من الخطأ وقراراته هي قرارات الله **﴿وما ينطق عن الهوىٰ إن هو إلاّ وحي يوحىٰ﴾** واضافة لما سبق نلاحظ أن الله سبحانه حينما يختار صفوة من عباده لهذه المهمة الخطيرة من المؤكد انه تعالىٰ يختارهم عبر موازين دقيقة في الإختيار فتكون قدرات النبي عالية في الطاعة لله ومخالفة للشيطان والهوىٰ ، فالقدوة الصالحة التي أمر الله باتباعها حتماً

إنها تمتاز بدرجة كبيرة من الوعي والإرادة وإنها قادرة علىٰ دحر الشياطين والأهواء وحب الدنيا والرئاسة والسيطرة وإلاّ سيكون النبي علىٰ عكس الفرض بدل أن يكون قدوة صالحة سيكون في حالة معصيته قدوة سيئة ـ والعياذ بالله من هذا الفرض ـ فالنبي المرسل لا يصل إلىٰ مستوىٰ اختيار الله إلاّ بعد قدرته الناجحة في غلبة الشيطان وأهواء النفس الأمارة بالسوء وهذا الأمر لا يعلمه إلاّ الله حيث يعلم السر والجهر .

وقضية العصمة هذه مرتبطة بناحيتين الناحية الأُولىٰ : التسديد الغيبي وهذا ما أطلقنا عليه اسم ـ اللطف الإلهي ـ فقد قال سبحانه :

﴿قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي إن أتبع إلاّ ما يوحىٰ اليّ﴾ .

[سورة يونس ؛ ١٠ الآية : ١٥] .

﴿سنقرئُك فلا تنسىٰ﴾ .

[سورة الأعلىٰ ؛ ٨٧ الآية : ٦] .

﴿وما ينطق عن الهوىٰ إن هو إلا وحي يوحىٰ﴾ ﴿ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ .

والناحية الثانية : هي القدرات الذاتية لنفسية النبي المرسل حيث الأرضية الصالحة لذلك الدعم الإلهي والفيض المبارك والتسديد الرباني فالنبي ليس أداةً دون إرادة في التصرف والسلوك فهو ليس مجبراً علىٰ أفعاله وأقواله وإلاّ لجاءت تلك الشبهة التي عرضناها علىٰ أصحاب النظرية الجبرية فالمجبر لا يستحق العقاب في الآخرة أو الثواب لأنه يعمل خارج إرادته فالنبي ليس هكذا وإنما عنده القدرة في المعصية ولا يعصي للملكة الاخلاقية التي لا تفارقه نتيجة التسديد الغيبي والنفسية الرفيعة والنبيلة يقول السيد إبراهيم الزنجاني في كتابه عقائد الإمامية الإثنى عشرية : (العصمة عبارة عن قوة العقل من حيث لا يُغلب مع كونه قادراً علىٰ المعاصي كلها

كجائز الخطأ وليس معنىٰ العصمة أن الله يجبره علىٰ ترك المعصية بل يفعل به ألطافاً يترك معها المعصية باختياره مع قدرته عليها كقوة العقل وكمال الفطانة والذكاء ونهاية صفاء النفس وكمال الاعتناء بطاعة الله تعالىٰ . . )[١٤] .

وتتضح هذه الفكرة في قراءة سورة يوسف وقصته مع امرأة العزيز فقد قال سبحانه :

﴿ولقد هَمَّت به وهَمَّ بها لولا أن رأىٰ برهان ربه﴾ .

[سورة يوسف ؛ ١٢ الآية : ٢٤] .

فرفض طلب امرأة العزيز واستعصم بالله سبحانه وفي آية أُخرىٰ :

﴿ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلىٰ صراطٍ مستقيم﴾ .

[سورة آل عمران ٣ ؛ الآية : ١٠١] .

فالعصمة إذن ليست سلب الاختيار من النبي المرسل كما يفهم بعض البسطاء وإنما هي تركيب من اللطف الإلهي وإرادة النبي المرسل علىٰ فعل الخير والصلاح ولقد جاء في الرواية عن حسين الأشقر قال قلت لهشام بن الحكم ما معنىٰ قولكم إن الإمام لا يكون إلاّ معصوماً فقال سألت أبا عبد الله (ع) عن ذلك فقال : (المعصوم هو الممتنع بالله عن جميع المحارم وقد قال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلىٰ صراطٍ مستقيم﴾ .

وعن علي بن الحسين قال : الإمام منّا لا يكون إلاّ معصوماً وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها فلذلك لا يكون إلاّ منصوصاً فقيل له يا بن رسول الله فما معنىٰ المعصوم ؟ فقال: هو المعتصم بحبل الله وحبل الله هو القرآن لا يفترقان إلىٰ يوم القيامة، والإمام يهدي إلىٰ القرآن، والقرآن يهدي إلىٰ الإمام وذلك قول الله عز وجل : ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾[١٥] .

وسبق أن ذكرنا في موضوع الضرورة العقلية رواية عن الإمام الصادق (ع) وفيها : (. . . ثبت أن له سفراء في خلقه يعبرون عنه إلىٰ خلقه وعباده ويدلونهم علىٰ مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبرون عنه عز وجل وهم الأنبياء (ع) وصفوته من خلقه حكماء مؤيدين بالحكمة مبعوثين بها غير مشاركين للناس علىٰ مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب ـ في شيء من أحوالهم ـ مؤيدين من عند الحكيم العليم بالحكمة)[١٦] .

أما من هم المعصومون ؟ فنحن نعتقد بأن الأنبياء (ع) جميعاً معصومون عن الخطأ والزلل وكذلك الأئمة الاثني عشر من أهل البيت (ع) وفاطمة الزهراء بنت محمد (ص) أما الآيات والروايات التي يفهم منها ظاهراً بعض المعاصي الصادرة عن النبي المرسل فتؤول جملة وتفصيلاً ويمكن أن نمثل لذلك ببعض الأمثلة لغرض التوضيح .

قال عز وجل : ﴿عبس وتولىٰ،أنْ جاءه الأعمىٰ ،وما يدريك لعله يزّكىٰ﴾ .

[سورة عبس ؛ ٨٠ الأيات : ١ ـ ٣] .

فالبعض رأىٰ أنها نزلت في شخصية النبي الأكرم (ص) حينما كان عنده في مجلسه الأعمىٰ (ابن أُم مكتوم) والحال لدينا أمام هذه الرواية المقطوعة السند رواية موثقة في أنها نزلت في غير النبي (ص) والمعروف عن الرسول انه مدرسة الاخلاق النبيلة والعالية في الرعاية والعطف والحنان حتىٰ ان الله سبحانه وصفه في كتابه العزيز :

﴿وإنك لعلىٰ خلق عظيم﴾ .

[سورة القلم ٦٨ ؛ الآية : ٤] .

وفي آية كريمة أُخرىٰ قال عنه : ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك﴾ .

[سورة آل عمران ؛ ٣ الآية: ١٠٩] .

فالذي يصر علىٰ أن الآية الأُولىٰ نزلت في النبي (ص) . ففي الحقيقة يريد أن يثبت أن في آيات القرآن نوع من التناقض ـ والعياذ بالله ـ وحتىٰ أسلوب الآية الأُولىٰ لم نعهده بين الله ورسوله والمعروف أن القرآن نازل بلغة إياك أعني واسمعي يا جارة كما ورد في الأثر وهي لغة في قمة الأدب والرقة والاحترام .

وفي آية أُخرىٰ : ﴿ألم يجدك يتيماً فآوىٰ، ووجدك ضالاً فهدىٰ، ووجدك عائلاً فأغنىٰ﴾ .

[سورة الضحىٰ ؛ ٩٣ الآيات : ٦ ـ ٨] .

فبعض يرىٰ أن النبي كان ضالاً من الضلال المبدئي أو العقائدي فهداه الله إلىٰ الصراط المستقيم والحال أن لفظة (ضالّا) تطلق علىٰ عدة معانٍ ، منها بمعنىٰ الضياع فنقول ضلّ الولد إذا ضاع وتاه وأنّ النبي (ص) كان يتيماً فهيأ الله سبحانه له من يكفله ويرعاه، وفي صباه قد ضيّع الطريق في مكة كما في الرواية ردّه أبو جهل إلىٰ عبد المطلب وقيل ضلّ الطريق في مكان آخر . . . والآية الكريمة بصدد بيان نعم الله عز وجل علىٰ النبي الأعظم كيف بدّد الله الأزمات والمشاكل الحياتية بلطفه وحنانه من فقر ويتم وضياع وهذا لا يخدش بعصمة النبي بل العكس يقوّي جانب العصمة حيث الرعاية المبكرة والمتميزة من الله تعالىٰ نحو النبي علىٰ خلاف ما ذهب إليه بعض المفسرين .

وفي الآية المباركة : ﴿ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، الذي انقض ظهرك. . .﴾ .

[سورة الإنشراح ؛ ٩٤ الآيات : ١ ـ ٣] .

ما هو المقصود من الوزر ؟ ذهب بعض المفسرين إلىٰ أن الوزر بمعنىٰ الإثم والمعصية فإذن النبي غير معصوم بل كان يقترف آثاماً بدليل الآية حيث أزالها الله عن نبيّه والحال ان هذه اللفظة تدل علىٰ الثقل المرهق والحمل المتعب فالنبي (ص) كان يحمل علىٰ عاتقه مسؤولية الأُمة والتبليغ الإلهي

لها فكان يرهق نفسه ويتعبها حينما يرىٰ الإنحراف الكبير في الأمة قبل بعثته المباركة فكان يعتزل الناس في غار حراء ليناجي ربه ويشكو إليه همومه وآلامه .

فالآية تبين الحالة المتعبة التي كان يعاني منها النبيّ (ص) بحياته قبل البعثة فشرح الله صدره بالرسالة المنقذة ووضع الله عن ظهره هذه الآلام ورفع الله ذكره في الأذان . . وليس المقصود من الآية ما ذهب إليه البعض الآخر ـ سامحهم الله ـ . . وهكذا مجمل الآيات الواردة في هذا الصدد فيرتفع هذا الوهم بمراجعة تفاسير أهل العلم الذين يعتمدون علىٰ أحاديث النبي (ص) وروايات أهل البيت (ع) وبالنتيجة : إنها تدعم العصمة للأنبياء .

وما ورد في شأن الأنبياء كذلك مثلاً في قصة آدم (ع) وحواء :

﴿وعصىٰ آدم ربه فغوىٰ﴾ .

[سورة طه ؛ ٢٠ الآية : ١٢١] .

فالعصيان هنا ليس العصيان الحقيقي بل هو ترك الأوْلىٰ فخسر راحته في الجنة ونعيم الجنة فنزل إلىٰ الأرض واتعابها ـ أما إبراهيم الخليل (ع) وقصته مع قومه يحدثنا القرآن الكريم بقوله تعالىٰ :

﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض وليكون من الموقنين،فلما جنّ عليه الليل رءا كوكباً قال هذا ربي فلمّا أفل قال لا أُحب الأفلين، فلما رءا القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ، فلما رءا الشمس بازغةً قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ .

[سورة الأنعام ؛ ٦ الأيات : ٧٥ ـ ٧٩] .

وكما ورد في تفسير مجمع البيان ، الأقوال التالية :

فقال (إبراهيم) : هذا ربي على سبيل الفكر فلما أفل علم أن الأفول لا يجوز على الإله فاستدل بذلك على أنه محدث مخلوق . وقيل إنه قال ذلك قبل بلوغه ولما قارب كمال العقل حركته الخواطر فيما شاهده في هذه الحوادث فلما رأى الكوكب ونوره وإشراقه وزهوه ظن أنه ربه فلما أفل وانتقل من حال إلى حال قال لا أحب الأفلين والحال أن إبراهيم (ع) لم يقل هذا ربي على طريق الشك بل كان عالماً موقناً أن ربه سبحانه لا يجوز أن يكون بصفة الكواكب وإنما قال ذلك على سبيل الإنكار على قومه والتنبيه لهم ويمكن أن نميل للرأي الآخر الذي يذهب إلى قوله (ع) استخداعاً للقوم يريهم قصور علمهم وبطلان عبادتهم لمخلوق جارٍ عليه أعراض الحوادث . . . قال لهم هذا ربي في زعمكم[١٧] . . .

فكان هدفه اثارة عقولهم واستدراجهم وفق عقلياتهم الساذجة ليقفوا إلى جانب الحق وهو الرب الحقيقي بعد أن يكشفوا نواقص هذه الأرباب المعبودة كالشمس والقمر من دون الله تعالى ، فطبق إبراهيم (ع) ما وردنا في الأثر الشريف ـ إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم ـ وببساطة هذا الفهم الظاهري للآيات الذي يدفعنا إلى أن نلصق بالأنبياء مسألة العصيان يمكن أن يضمحل حينما نأخذ العلم من ينابيعه الصافية .

# (٤)
# الأنبياء ونبي الاسلام

تم اختيار الأنبياء من صميم الواقع الاجتماعي فواكبوا مسيرة الناس وكلما نما نبي في وسط مجتمعه نمت معه الفضيلة والخير والخط الإيجابي في الأمة كافراز طبيعي لدعوته المباركة وفي مقابل هذا الخط نما الخط السلبي من المنافقين والكافرين ليأخذوا دورهم العدائي للنبي ورسالته وعلىٰ طول التاريخ مسيرة حافلة لجهاد الأنبياء (ع) ومواقفهم من الأصدقاء والأعداء .

وكان عددهم ١٢٤,٠٠٠ نبي ولهم درجات ورُتب معينة فمنهم من كانت رسالته خاصة بنفسه وبأهله أو بمجتمعه وقريته ومنهم من كانت رسالته لجميع البشرية في عصره وكما مرّ معنا في الروايات، هنالك أنبياء أُولو العزم وهم خمسة (نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد(ص)) أما المذكورون في القرآن هم أفضل الأنبياء وعددهم خمسة وعشرون نبياً ورسولاً وهنالك فرق بين النبي والرسول فالرسول هو الذي يرىٰ جبرائيل ويكلّمه أما النبي فيسمع صوته فقط باليقظة أو المنام فيراه بالحلم وقد تجتمع الحالتان في شخص واحد فإذن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً .

وهذه الرسالات كانت تواكب مسيرة المجتمع الثقافية والاجتماعية فالذي يقول أن رسالة الإسلام هي الخاتمة وبما أنها هي الأصلح للبشرية ،

لماذا ما نزلت منذ بداية البعثة الإلهية ؟ مثلاً ! في زمن النبي نوح (ع) من دون أن تدخل البشرية في خضم الصراع الذي دار فترة طويلة بين اتباع الشرائع السماوية واعدائها من جانب وبين اتباع الشرائع السماوية أنفسهم من جانب آخر والذي لا يزال أثره واضحاً إلىٰ يومنا الحالي . ويمكن صياغة السؤال بشكل آخر ، ألم يكن في علم الله عز وجل أن الرسالة الإسلامية ونبوة محمد (ص) هي الأجدر والأفضل لمتطلبات البشر إلىٰ آخر الزمن فلماذا لم تنزل رسالة الإسلام من الأول ؟ لتنتهي المشاكل والصراعات المتعددة الجهات وعلىٰ الأقل إيقاف الصراعات بين الأديان السماوية نفسها أعني بين اتباعها وانصارها ، والواقع إن البشرية كانت بحاجة إلىٰ كل الرسالات السماوية حسب تسلسلها الزمني فالله أعلم بأحوال الناس وما يناسبهم من قوانين هذا أولاً وثانياً إن البشرية مرت بمراحل أشبه ما تكون بمراحل الطفولة البشرية والصبا والمراهقة والشباب ثم النضج البشري . وفي كل مرحلة من هذه المراحل كانت البشرية بحاجة إلىٰ رسالة تناسبها وتتلائم مع حالتها العقلية والثقافية والاجتماعية والذهنية السائدة وكل تلك الرسالات كانت تمهيداً لمرحلة النضوج البشري فأختتمت رسالات السماء بالرسالة المحمدية الخالدة فقد قال سبحانه :

**﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾** .

[سورة آل عمران ؛ ٣ الآية : ٨٥] .

و **﴿اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾** .

[سورة المائدة ؛ ٥ الآية : ٣] .

و **﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾** .

[سورة الأحزاب ؛ ٣٣ الآية : ٤٠] .

فكل رسالة من رسالات الأنبياء من أولي العزم تنسخ الرسالة السابقة لتحل محلها بأمر الله تعالىٰ وما بين الرسالات الرئيسية الخمس كان الأنبياء يجدّدون إحياء الرسالة العالمية التي سبقتهم حتىٰ يبعث الله نبياً من أولي العزم لينسخ تلك الرسالة برسالته الجديدة . .

ومرحلة النضوج هذه ساهمت الرسالات السماوية المتتالية في إيجادها بل لها الدَوْر الرئيسي في إنضاج المجتمع البشري حتىٰ وصل إلىٰ مرحلة التقبّل للرسالة الخاتمة . ونلاحظ ذلك جلياً في القرآن الكريم حيث يستعرض الكثير من الأمم السالفة والأنبياء السابقين (ع) والحالات التي مرت عليهم ولدينا سور كاملة بأسماء الأنبياء تحكي قصصهم مع أممهم فهذه سورة يوسف وسورة إبراهيم ونوح وغيرها فعلىٰ ذلك ندرك أن الحالة الذهنية للمجتمع البشري قد تمّ إنضاجها فصارت أرضية ملائمة لنداءات السماء الأخيرة حيث المنهج الإسلامي الثابت الذي يعتبر تتويجاً طبيعياً لجهود الأنبياء السابقين علىٰ نبي الإسلام محمد (ص) فإذن كل نبي مرسل هو حلقة من حلقات الرسالة السماوية صالحة لزمن معين فكل نبي يهدف تنظيم الحياة وملء فراغ الإنسان فكرياً وثقافياً وسدّ الحاجة الروحية لكي لا يبقىٰ عائماً دون ركائز فكرية يستند إليها في تفسير الاستفهامات العديدة التي تبرز أمامه حول الكون والخلق والوجود فيجدها أمامه موضحةً بأدلتها الوافية وبالتالي يعمل النبي جاهداً لتهيئة الناس للحلقة القادمة بالرسالة الجديدة . وبالفعل جاءت الرسالات لرسم الحياة المادية قانونياً فبينت الحلال والحرام وميّزت الأعمال الخيرة عن الشريرة لحفظ الحياة اجتماعياً وسلوكياً إضافة لبرامج الحياة الروحية عبر المناهج والقوانين التربوية ومما لا شك فيه أن الأنبياء قد واجهوا المجتمع البشري بشتىٰ أنواع المواجهة فالناس ما بين مؤيد مقتنع وما بين رافض محارب وما بين الاتجاهين هنالك درجات تزداد قرباً لأحد الموقفين أو بُعداً .

وبدأت مسيرة الأنبياء بالدخول في وسط الناس لدراسة نقاط ضعفهم ولمعالجتها وإزالتها وبيان نقاط قوتهم لدعمها إضافة لعملية الزرع الأيجابي

للقيم النبيلة في النفوس وقد عانىٰ الأنبياء في مسيرة التغيير الاجتماعي من الطغاة والرافضين للرسالة السماوية ووقف المتضررون من الدعوة الإصلاحية الموقف العدائي ودفعهم حقدهم إلىٰ المجابهة الفكرية والجسدية حتىٰ أن بعض الأنبياء تعرض للتصفية الجسدية بأبشع صورها حرقاً وتقطيعاً ونبذاً واتهاماً بالخيانة أو حب الرئاسة والتسلط وعموماً إن قصص الأنبياء حافلة بالمواقف الصعبة والمواجهة الشجاعة بين النبي وقومه وكانت دوافع الظالمين والمعارضين للأنبياء محصورة في الجهل والتخلف والخوف علىٰ المصالح الشخصية فتحمل الأنبياء من الظالمين أشد واقسىٰ أنواع التعذيب الجسدي والروحي حتىٰ بلغت الحالة الوحشية أن يفتكوا بالأنبياء فنشروا نبيّاً بالمنشار فقتلوه، ورَموا نبيّاً في البئر بعد أن سلخوا رأسه ونصبوا في وسط البئر سيوفاً متوجهةً للسماء ورموه من على رأسه فتقطع جسمه ارباً ارباً .

أما نبينا محمد (ص) فلاحقوه باكثر من مؤامرة لقتله فأنقذه الله سبحانه منها إضافة للتعذيب النفسي الذي تعرض إليه (ص) حتىٰ قال : «ما أوذي نبي مثل ما أُوذيت» .

وقد قال الله تعالىٰ : **﴿ولقد كُذبت رسل من قبلك فصبروا علىٰ ما كذبوا وأوذوا حتىٰ أتاهم نصرنا ولا مبدِّلَ لكلماتِ الله ولقد جاءك من نبأي المرسلين﴾** .

سورة الأنعام ؛ ٦ الآية : ٣٤] .

فكان الطغاة يحركون الجهلة لينفّذوا لهم ما يريدون فيرمون علىٰ النبي (ص) مثلاً الأوساخ ويضعون في طريقه الأشواك حتىٰ أبعدوه قسراً عن المجتمع في شِعب أبي طالب هو وصحبه في مدة زمنية تجاوزت عن ثلاث سنوات فكانت المقاطعة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

ولكل نبي قصص مع قومه ولكن مع هذه الحالات المؤلمة استطاع الأنبياء (ع) أن يخلقوا تياراً مؤمناً في المجتمع هذا التيار بدأ يتغيّر ويغيّر نحو الخير والصلاح ويتحمل المشاق في المسيرة الصعبة أمام التيار المضاد

وحسد المتضررين وبطشهم وكان يتم بإشراف النبي المرسل بل كان يدخل في الصراع بدقائقه وتفصيلاته . والآن فلنتساءل كيف كان يتم الاتصال بين الله وبين النبي ؟ وكيف استطاع النبي أن يثبت صدقه أمام الناس ؟ وحالة الناس المشككة عادة بالأطروحات الجديدة في المجتمع بل مناهضة ومحاربة لها وباختصار إن الاتصال كان يتم عبر الوحي ، ويدفعنا التساؤل لنقول من هو الوحي ؟ وكيف نفهم طريقة الاتصال بالوحي ؟ . عرفنا أن الوحي هو الرابط بين الله وبين النبي وهو القناة الأمينة التي تنقل أوامر الله عز وجل للنبي فهو المصدر الوحيد للرسالة السماوية والوحي هو البريد الناقل لرسالة الله إلىٰ النبي ومن ثم تُبلّغ بواسطة النبي للبشرية . وبهذه المعاني المتقاربة يتناسب لفظ الوحي بالمعنىٰ الإصطلاحي مع معناه اللغوي فهو الإعلام في خفاء فهو مصدر من (وحيت) إليه أو (أوحيت) إليه إذا كلمته بصورة مخفية وخصوصية وحينما ينسب الوحي إلىٰ الله عز وجل فيعني إعلام الله لأنبيائه رسالته واحكامه فالرسالة السماوية قادمة من الغيب عبر هذا الخط وهو الوحي الوسيط تستهدف المبلِّغ الرئيس هو النبي المرسل ليبلغها الناس .

**﴿قال ـ نوح ـ يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي وانصح لكم﴾ .**

[سورة الأعراف ؛ ٧ الآية :٦١ ، ٦٢].

فإذن نفهم أن الوحي حالة شعورية لدىٰ النبي يستقبل بها قرارات الله ليبلغها الناس فهنالك فرق دقيق بين الوحي والإلهام فالإلهام حالة غير شعورية تخطر في الوجدان، متعددة المصادر عكس الوحي فمصدره الغيب الإلهي فقط وقد يطلق علىٰ الوحي الإلهام الغيبي أحياناً .

وعلىٰ العموم فالوحي هو السبيل الطبيعي لنداءات السماء فقد قال تعالىٰ :

**﴿وما كان لبشرٍ أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل**

رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء﴾ .

[سورة الشورىٰ ؛ ٤٢ الآية: ٥١] .

فإذن للوحي عدة مظاهر كما أشارت الآية المباركة وهي :

**أولاً ـ الوحي المباشر :**

وهو الذي يقرب من معنىٰ الإلهام فيلقي الله سبحانه علمه المبارك في قلوب الأنبياء (ع) بالايحاء المباشر أو أن يرىٰ النبي في منامه ما يلهمه معرفة حكم الله الشرعي وقراره ـ جل جلاله ـ كما في قصة النبي إبراهيم (ع) مع ابنه إسماعيل (ع) فقد قال سبحانه :

**﴿قال يا بني إني أرىٰ في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترىٰ قال يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ .**

[سورة الصافات ؛ ٣٧ الآية: ١٠١] .

فإذن الإيحاء المباشر بالمنام جعله (ع) يُقْدم علىٰ ذبح ولده إسماعيل وهذا نوع من أنواع الوحي الذي يترجم إرادة الله سبحانه وتعالىٰ وقراره لأنبيائه الكرام ـ الواجب التطبيق ـ .

**ثانياً ـ الكلام من وراء حجاب :**

وذلك بأن يخلق الله عز وجل كلاماً بلغة النبي (ع) يفهمها النبي قراراً شرعياً أمراً أو نهياً أو سلوكاً معيناً كما في تكملة الآية المارة الذكر في قصة ذبيح الله إسماعيل **﴿ . . فلما أسلما وتلّه للجبين، وناديناه أن يا إبراهيم، قد صدقت الرؤيا إنّا كذلك نجزي المحسنين﴾ .**

وكذلك مع النبي موسىٰ حيث يسمىٰ كليم الله فكلّمه الله في جبل طور كما في الآية المباركة :

**﴿وهل أتاك حديث موسىٰ، إذ رأىٰ ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلّي آتيكم منها بقبسٍ أو أجد علىٰ النار هدىٰ، فلما أتاها نودي يا**

موسىٰ،إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوىٰ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحىٰ. . .﴾.

[سورة طه ؛ ٢٠الأيات :٩ ـ ١٣].

ثالثاً ـ المَلَك المباشر :

فقد قال عز وجل : ﴿. . أو يرسل رسلاً فيوحي بإذنه ما يشاء﴾ الوحي المنزل عبر جبرئيل المَلَك الأمين المقرَّب إلىٰ الله عز وجل كما في الآية الأخرىٰ :

﴿نزل به الروح الأمين، علىٰ قلبك﴾.

[سورة الشعراء ٢٦ ؛ الأيتان: ١٩٣ ـ ١٩٤].

وورد عن زرارة عن أبي جعفر (ع) قال : ( الأنبياء علىٰ خمسة أنواع منهم من يسمع الصوت مثل صوت السلسلة فيعلم ما عني به ومنهم من ينبّأ في منامه مثل يوسف وإبراهيم ومنهم من يعاين ومنهم من ينكت في قلبه ويوقر في أذنه)(١٨) .

وهنا يمكن أن نبرز التفاتة عصرية بأن الوحي الإلهي يستند إلىٰ عناصر مادية كما مرّ معنا في الأنواع الثلاثة فهنالك تعامل خاص من الخالق الكريم مع عبده المختار للنبوة ومسألة الاتصال لا تخضع للوسائل المادية المعروفة لدينا اليوم بل يمكن استخدام طرق غير مرئية وبدون أجهزة اتصال مادية وهذا ما نقصده من أن هنالك تعامل خاص بين الخالق والأنبياء ولتقريب الفكرة نقول إنّ الاتصال اليوم ما عاد لغزاً مجهولاً لدىٰ الناس بل أصبح أمراً اعتيادياً سواء خضع لاجهزة الاتصال المادية التكنولوجية أو كانت له طريقته الخاصة ولدينا دراسات وافية علىٰ قدرة الحيوانات ـ مثلاً ـ بانها تتصل فيما بينها بطريقتها الخاصة فالفراشة مثلاً تضغط علىٰ آلاف الأطنان من الهواء لتوصل صوتها إلىٰ زوجها البعيد عنها وسرعان ما يتم اللقاء في شهر العسل، هذا الاتصال يتم دون استعمال للاجهزة المادية ، وما تفعله حشرة النحل من

أعمال وانتاج للعسل عبر صناعة الخلايا الهندسية المنتظمة بإرادة الله ووحيه ـ بالطريقة الخاصة ـ فقد قال سبحانه :

﴿وأوحىٰ ربك إلىٰ النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً﴾ .

[سورة النحل ؛ ١٦ الآية : ٦٨] .

هذا إلهام إلهي لهذه الحشرة أن تسلك طريقها في الحياة بالصورة التي نشاهدها .

إذن فالارتباط بين الله والشخصية المختارة للنبوة لا تحتاج إلىٰ الأمور المادية بقدر ما تحتاج إلىٰ صفاء ذاتي وتوفيق إلهي واختيار لهذه المهمة الجبارة فالذي يخلق الفراشة بهذه القدرة والنحلة بهذه القابلية قادر علىٰ أن يبعث الرسالة عبر الوحي المبارك بأنواعه ـ المارة الذكر ـ .

# (٥)
# وقفة مع بعض الأنبياء ونبي الاسلام محمد (ص)

## النبي نـوح (ع) :

ورد في علل الشرائع أنّه سأل الشامي أمير المؤمنين علي (ع) عن اسم نوح ما كان ؟ فقال : (اسمه السكن وإنما سمي نوحاً لأنه نـاح علىٰ قومـه ألف سنـة إلا خمسين عـاماً) وفيـه عن الصادق (ع) كـان اسم نوح ، عبـد الغفـار وإنمـا سمي نـوحاً لأنـه كـان ينـوح علىٰ نفسـه . وفي قصص الأنبيـاء عن الصـدوق بإسناده إلىٰ وهب قال: إن نوحاً(ع) لبث في قـومه ألف سنـة إلاّ خمسين عامـاً يـدعوهم إلىٰ الله تعـالىٰ فلا يـزدادون إلاّ طغيانـاً ومضىٰ ثلاثـة قرون من قـومه وكان الرجل منهم يأتي بـأبنه وهو صغير فيـوقفه علىٰ رأس نـوح (ع) فيقول يـا بُني إن بقيت بعدي فلا تطيعَن هذا المجنون .

وقيـل إنه كـان نجاراً ولـد في العام الـذي مات فيـه آدم (ع) وبعث وهو ابن أربعمائة سنة وكان يدعو قـومه ليـلاً ونهاراً فلم يـزدهم دعاؤه إلا فـراراً كما يقول القرآن الحكيم :

﴿قـال ربّ إني دعوتُ قـومي ليلاً ونهاراً، فلم يزدهم دعـاءي إلاّ فراراً، وإني كلّمـا دعوتهم لتغفـر لهم جعلوا أصـابعهم في آذانهم واستغشـوا ثيـابهم

﴿وأصروا واستكبروا استكباراً، ثم إني دعوتهم جهاراً ، ثم إنّي أعلنت لهم وأسررت لهم أسراراً﴾ .

[سورة نوح ؛ ٧١ الآيات : ٥ ـ ٩] .

وكان يضربه قومه حتىٰ يغشىٰ عليه فإذا أفاق قال : اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون وكانوا يثورون إلىٰ نوح (ع) فيضربونه حتىٰ تسيل مسامعه دماً وحتىٰ لا يعقل شيئاً مما صُنع به فيُحمل ويُرمىٰ في بيت أو علىٰ باب داره مغشياً عليه . .

قال ابن عباس كانت امرأة نوح كافرة تقول للناس إنه مجنون وإذا آمن أحد بنوح أخبرت الجبابرة من قوم نوح به[١٩] .

وبعد معاناة كبيرة استطاع أن يوجد طبقة مؤمنة صغيرة والغالبية الكبرىٰ لم يؤمنوا به حتىٰ نفذ صبره فدعا علىٰ قومه :

﴿قال نوح رب لا تذر علىٰ الأرض من الكافرين دياراً﴾ .

[سورة نوح ؛ ٧١ الآية : ٢٦] .

فأمره سبحانه بصناعة السفينة كما قال عز وجل : ﴿قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾ .

[سورة الشعراء ؛ ٢٦ الآية : ١١٦] .

﴿فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ .

[سورة المؤمنون ؛ ٢٣ الآية : ٢٧] .

فصنعها ثم جمع المؤمنين وحملهم بالسفينة مع أجناس الحيوانات من كل جنس زوجين :

﴿حتىٰ إذا جاء أمرنا وفار التنّور قلنا آحمل فيها من كل زوجين آثنين وأهلك إلاّ من سبق عليه القول ومن آمن . . ﴾ .

[سورة هود ؛ ١١ الآية : ٤٠] .

فانزل الله سبحانه الأمطار الغزيرة وفار التنور فصارت الفيضانات العارمة وحملت السفينة لوحدها وتمّ غرق الكافرين وله موقف مع ابنه حيث عصاه وانهزم إلىٰ الجبل ويحدثنا الكتاب العزيز عن ذلك :

**﴿يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾** .

[سورة هود ؛ ١١ الآية : ٤٢] .

فقال ابنه : **﴿سآوي إلىٰ جبلٍ يعصمني من الماء﴾** .

[سورة هود ؛ ١١ الآية : ٤٣] .

فلم ينفعه هذا الإيواء فغرق مع الكافرين وهكذا فإن في قصة النبي نوح المباركة مع قومه عِبَر وشواهد جليلة ليس موضعها هذا الكتاب العقائدي وإنما أشرنا إليها إشارة سريعة لاستكمال فصل النبوة بذكر بعض الأنبياء (ع) ومعاناتهم وقصصهم مع البشرية .

وبعد أن انتهىٰ أمر الكافرين أنزل الله علىٰ نوح **﴿قيل يا نوح اهبط بسلامٍ منّا وبركات عليكَ وعلىٰ أممٍ ممّن معكَ وأممٌ سنمتّعهم ثم يمسّهم منا عذاب أليم﴾** .

[سورة هود ؛ ١١ الآية : ٤٨] .

فنزل نوح مع المؤمنين ووضعوا الحجر الأساس للحضارة البشرية من جديد فلهذا يعد النبي نوح (ع) الأب الثاني للبشرية بعد النبي آدم (ع) .

## إبراهيم الخليل (ع) :

أبو الأنبياء وثاني أولي العزم وخليل الرحمٰن قال سبحانه : **﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾** .

[سورة آل عمران ؛ ٣ الآية : ٦٧] .

جاء في علل الشرائع مسنداً إلىٰ الرضا (ع) قال : إنما اتخذ الله إبراهيم خليلاً لأنه لم يَرُدّ أحداً قط ولم يسأل أحداً غير الله عز وجل .

وعن النبي (ص) : ما اتخذ الله إبراهيم خليلاً إلاَّ لإطعامه الطعام وصلواته بالليل والناس نيام وقال سبحانه :

**﴿قد كانت لكم أُسوةٌ حسنةٌ في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآؤا منكم وممّا تعبدون من دون الله﴾ .**

[سورة الممتحنة ؛٦٠ الآية : ٤] .

النبي إبراهيم الخليل نادىٰ بالتوحيد أي الإيمان بوحدانية الله عز وجل ، خاصمهُ الطاغية نمرود بن كنعان وهو أول من تجبّر وادّعىٰ الربوبية . وكان له منجم أسمه (آزر) فأخبره بولادة شخص ينازعه في ملكه ، فغضب الملك فأمر بتفريق الزوج عن زوجته وقتل الأولاد لكن شاءت إرادة الله بحمل إبراهيم وبولادته بالشكل السري بقدرته تعالىٰ .

وكان آزر عم إبراهيم هو النحات للأصنام كان يعملها ويعطيها لأولاده ليبيعوها في السوق ولما كبر إبراهيم أعطاه بعض الأصنام ليبيعها بالسوق فكان يعلق في أعناقها الخيوط ويجرها علىٰ الأرض ويقول : من يشتري ما لا يضره ولا ينفعه ؟ فيمسكها ويغرقها بالماء ويلعب بها ويقول لها اشربي وتكلمي . . . وفي يوم عيد لأهل زمانه خرج نمرود وجميع الناس وكره إبراهيم الخروج معهم فوكّل ببيت الأصنام فلما ذهبوا عمد إبراهيم إلىٰ أصنامهم فحطمها الواحد تلو الآخر ثم علق الفأس في عنق كبيرهم ، ولما عادوا قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين فقالوا هٰهنا فتىٰ يُقال له إبراهيم هو الفاعل وكما ورد في القرآن المجيد :

**﴿قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين، قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يُقال له إبراهيم﴾ .**

[سورة الأنبياء ؛ ٢١ الآيتان : ٥٩ ، ٦٠] .

فجيء بـه إلىٰ نمرود فسئـل عن هذه الفعلة : ﴿قـال بـل فعله كبيـرهـم هذا فاسألوهـم إن كانوا ينطقون﴾ .

[سورة الأنبياء ؛ ٢١ الآية : ٦٣] .

يقول الإمام الصادق ( ما فعله كبيرهم وما كذب إبراهيم) لأنـه إنما قـال فعله كبيـرهم هذا إن نـطق وإن لم ينطق فلم يفعـل كبيـرهم هـذا شيئـاً وبعـد الاستشارات فيما بينهم اتفقوا علىٰ حرقـه فحبسوا إبراهيم وجمعوا لـه الحطب واضرموه بالنيران وبنوا لنمرود قصراً يشرف علىٰ التعـذيب الذي ينتـظر إبراهيم في هـذه النيران وكـانت النار شـديدة جـداً حتىٰ أن الطائـر في مسيرة فـرسخ أعلىٰ من النـار يحترق ويسقط هـاوياً فيهـا من شدة النـار ، فرمـوه في النـار ! فأوحىٰ الله عز وجل للنار :

﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً علىٰ إبراهيم﴾ .

[سورة الأنبياء ؛ ٢١ الآية : ٦٩] .

ثم خـرج إبـراهيم من النـار وجـاء إلىٰ نمـرود ليـدعـوه إلىٰ الـدين من جديد فـدخلا في منـاقشات حـادة فسألـه نمرود من ربـك ؟ قال إبـراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحي وأُميت ـ هنا ـ قال تعالى :

﴿ألم تر إلىٰ الذي حاجّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الـذي يحيي ويميت قـال أنـا أحي وأُميت قـال إبـراهيم فـإن الله يـأتي بـالشمس من المشرق فأتِ بها من المغـرب فبهت الـذي كفـر والله لا يهـدي القوم الظالمين﴾ .

[سورة البقرة ؛ ٢ الآية : ٢٥٨] .

فورد أن إبراهيم قال له كيف تحيي وتميت ؟ .

قال نمرود أطلب رجلين مِمَّن وجب عليهمـا القتل فـأُطلق واحداً وأقتـل واحداً فأكون قد أمتّ وأحييت .

فقال له إبراهيم إن كنت صادقاً فأحي الذي قتلته فلم يحر جواباً ثم أدخله إبراهيم في تساؤل أكثر وضوحاً وأقوىٰ حجةً كما في الآية المباركة ؛ ﴿إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبهت الذي كفر﴾ .

فانتصر إبراهيم في المناقشة الفكرية علىٰ طاغوت زمانه بالحجة العقلية الدامغة للباطل . وتبقىٰ مسيرة النبي إبراهيم (ع) مناراً للهداة والمصلحين .

## أيوب (ع) :

﴿وأيوب إذ نادىٰ ربه أنّي مسني الضر وأنت أرحم الراحمين، فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرىٰ للعابدين﴾ .

[سورة الأنبياء ؛ ٢١الآية : ٨٣ ـ ٨٤] .

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله (ص) : «أن أيوب نبيّ الله لبث به بلاؤه ثماني عشر سنة فرفضه القريب والبعيد إلاّ رجلين من إخوانه» .

وقال الحسن : (مكث أيوب (ع) مطروحاً علىٰ كناسة في مزبلة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهر تختلف فيه الدواب ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق غير رحمة وهي زوجته صبرت معه، وأيوب لا يفتر من ذكر الله والثناء عليه . .) .

وقيل إنه اشتد مرضه حتىٰ تجنّبه الناس فوسوس الشيطان إلىٰ الناس أن يستقذروه ويخرجوه من بينهم ولا يتركوا امرأته التي تخدمه أن تدخل عليهم فكان أيوب يتأذىٰ بذلك ويتألم منه ولم يشكُ الألم الذي كان من أمر الله .

وقال النبي (ص) «أعظم الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» .

ويُذكر أن أيوب حينما ذهب ماله وجماله وحلاله من الغنم والزرع كثر الشامتون عليه فقال (ع) الحمد لله حين أعطاني وحين نزع مني ، عرياناً خرجت من بطن أُمي وعرياناً أعود في التراب وعرياناً أحشر إلىٰ الله تعالىٰ . بل كلما كان يفتقد من النعم كان يزداد شكراً لله عز وجل حتىٰ تسلط المرض علىٰ بدنه فصار قرحة واحدة من قرنه إلىٰ قدمه فبقي في ذلك دهراً يحمد الله ويشكره حتىٰ وقع في بدنه الدود وكانت تخرج من بدنه فيردها ويقول لها : ارجعي إلىٰ موضعك الذي خلقك الله فيه .

وكانت امرأته تذهب للناس لتأخذ له طعاماً فتأتي وتلقمه حتىٰ مُنعت من العطاء إلاّ باعطائهم ذؤابتها الجميلة وبالفعل فعلت ذلك فكانت المحن المتتالية علىٰ النبي أيوب (ع) شديدة وكلما اشتدت أكثر كان إيمانه يزداد أيضاً فيشكر لله عز وجل وإلىٰ أن عافاه الله من علته حيث قال تعالىٰ :

﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ .

[سورة ص ؛ ٣٨ الآية : ٤٢] .

فاغتسل بعين ماء نبعت له فشفي من الأمراض الظاهرية وعين شرب منها فشفي من الأمراض الباطنية بإذنه تعالىٰ . .

## النبي موسىٰ (ع) :

ظروف ولادته كانت عسيرة جداً حيث كان الطاغية فرعون ـ فرعون موسىٰ ـ يراقب ولادات النساء ليقتل الذكور منهم خوفاً من ولادة موسىٰ هذا النبي الذي سينشر الدين الإلهي الجديد والذي سينتصر علىٰ اعدائه ويبطل سلطان فرعون فبدأ الطاغية فرعون بقتل الأطفال الذكور من بني إسرائيل حتىٰ قتل نيفاً وعشرين ألف مولود بالإضافة إلىٰ تعذيب الرجال والنساء في الأعمال الشاقة كالبناء الشاهق ـ الأهرامات ـ حتىٰ إنه كان يقيِّد الرجال بأرجلهم ويأمرهم بنقل الطين ومواد البناء إلىٰ السطوح فكان يقع الكثير منهم فيموتون أو تكسر أرجلهم .

وأم موسىٰ في خوف كبير من خبر حملها وكان فرعون قد نشر عيونه في كل بيوت بني إسرائيل فكانت امرأة تراقب أم موسىٰ لحظة بلحظة لتكتشف جنس الوليد ولكن بقدرة الله وعنايته بدأ التحابب بين المراقِبة هذه وأم موسىٰ حتىٰ أنها واعدتها بكتمان أمرها ففي هذه الظروف الارهابية ولد موسىٰ (ع) وبحضور المراقبة أيضاً واجتمع علىٰ الباب جمع من عناصر فرعون المأمورين بقتل الأولاد الذكور فلما وضعت أم موسىٰ فإذا به موسىٰ فنظرت أم موسىٰ للمرأة المراقبة نظر الاستعطاف والحنان فطمأنتها فخرجت إلىٰ الحرس وأخبرتهم أنه دم منقطع دون جنين فانصرفوا ، وكانت تخاف أم موسىٰ أن يبكي موسىٰ فيسمع الجيران صوت بكائه فيخبرون عنه فألهمها الله سبحانه :

**﴿فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني . .﴾** .

[سورة القصص ؛ ٢٨ الآية : ٧] .

وبالفعل صنعت التابوت الخشبي ووضعت فيه الرضيع ثم طرحته في النيل وقلبها مع الطفل وهي ترميه في النهر .

**﴿إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾** .

[سورة القصص ؛ ٢٨ الآية : ٧] .

والعناية الإلهية ربطت فؤاد أم موسىٰ أن تبوح بسره حتىٰ وصل التابوت إلىٰ قصر فرعون ورأت (آسيا) امرأة فرعون الصالحة المؤمنة هذا الصندوق ويحكي لنا القرآن الكريم فيقول :

**﴿وقالت امرأة فرعون قرّتُ عين لي ولك لا تقتلوه عسىٰ أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون﴾** .

[سورة القصص ؛ ٢٨ الآية : ٩] .

وتبنّت موسىٰ (ع) طفلاً صغيراً وفرضته علىٰ فرعون ثم طلبت له مرضعاً وما كان يقبل ثدياً إلّا ثدي أمّهِ فكُلفت بهذه المهمة .

﴿وحرّمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم علىٰ أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون، فرددناه إلىٰ أُمّه كي تقرّ عينها ولا تحزن ولتعلم أنّ وعدَ الله حق﴾ .

[سورة القصص ؛٢٨ الآيتان: ١١ ، ١٢] .

وترعرع موسىٰ في حجر أُمّه الحنون وحماية عدوه وعدو الله فرعون واستمرت به الحياة إلىٰ أن قتل أحد أعدائه منتصراً لشيعته فأصبح خائفاً يترقب ردود الفعل :

﴿فأصبح في المدينة خائفاً يترقب . .﴾ .

[سورة القصص ؛ ٢٨ الآية : ١٨] .

وحينما أعلن عن دعوته للدين الجديد ونزل في بني إسرائيل داعياً يدعوهم رَأىٰ الناس فيه علامات النبي المنقذ فأراد فرعون قتله فجمع أصحابه واستشارهم بأمر قتله وكان خازن فرعون مؤمناً بنبوة موسىٰ كاتم الإيمان كلما أراد أن يدافع عن موسىٰ بالأسلوب الهادىء ما استطاع فاتصل بالنبي موسىٰ واخبره بالمؤامرة :

﴿وجاء رجل من أقصىٰ المدينة يسعىٰ قال يا موسىٰ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين،فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين﴾ .

[سورة القصص ؛٢٨ الآيتان: ٢٠ ، ٢١] .

فخرج موسىٰ (ع) من بلد فرعون ـ مصر ـ إلىٰ مدين وبدأت قصته في مدين من موقف البئر . فنظر إلىٰ ناحية فإذا بجاريتين معهما غنم تنتظران دورهما في السقي فساعدهما موسىٰ بل ساعد الجمع كله وكان قوي الجسم ولوحده استطاع أن يملأ الدلو الكبير ويسحبه من البئر . . . فعادت إحدىٰ الجاريتين لتخبره بأن أباها يطلبه ليكرمَهُ بعد أن سمع أبوهما النبي شعيب (ع) قصة النبي موسىٰ (ع) فذهب إلىٰ دار شعيب . وقصّ عليه قصته :

﴿قال لا تخف نجوْت من القوم الظالمين﴾ .

[سورة القصص ؛ الآية : ٢٥] .

ثم تزوج من إحدىٰ بنات شعيب لقوته وأمانته حيث قالت : ﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ .

[سورة القصص ؛ الآية : ٢٦] .

فقوته في السقي وامانته حيث أنّ إحدىٰ البنتين أرادت أن تدلّه علىٰ الطريق فرفض أن تمشي أمامه بل هي تمشي من خلفه وتدله علىٰ الطريق وبالفعل تزوجها مقابل الأجرة لمدة ثماني سنين باضافة سنتين أُخرتين لو قضاهما موسىٰ كان تفضلاً من موسىٰ وبالنتيجة خدم عمه شعيباً عشر سنوات تفضلاً منه ، وبعد انتهاء الأجل أراد موسىٰ أن يعود لوطنه الأُم مصر فزوّده شعيب بعدد من الغنم لمعيشته مع زوجته وسلّمه عصا إبراهيم الخليل (ع) . . وانطلقا ـ موسىٰ وزوجته ـ مع الغنم كذلك متوجهين إلىٰ مصر وفي المسير ضيّع طريقه واشتد البرد وهبت العواصف الشديدة وخيم الظلام الدامس وهو في تلك الحالة المتأزمة فإذا به يرىٰ ناراً من جانب الطور .

﴿قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون﴾ .

[سورة القصص ؛ الآية : ٢٩] .

وحينما وصل إلىٰ النار رآها شجرة ملتهبة أراد أن يأخذ منها شيئاً من النار فأهوت نحوه ففزع منها ورجع وعادت النار إلىٰ الشجرة فـ ﴿نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسىٰ إني أنا الله رب العالمين﴾ .

[سورة القصص ؛ الآية : ٣٠] .

﴿وأن ألقِ عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولّىٰ مدبراً ولم يعقب﴾

فطمأنه الله سبحانه : **﴿يا موسىٰ أقبل ولا تخف إنك من الآمنين﴾** .

[سورة القصص ؛ الآية : ٣١] .

عاد موسىٰ إلىٰ عصاه وهو في شدة الخوف والفزع يرتعد خوفاً لكنه اطمأن بالنتيجة وأصبحت آيته الكبرىٰ ودليله الأعظم علىٰ نبوّته في زمن كان السحر في قمته . .

وكانت له آية أُخرىٰ : **﴿أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾**

[سورة القصص ؛ الآية : ٣٢] .

فنودي : **﴿أذهب إلىٰ فرعون إنه طغىٰ﴾** .

[سورة طه ؛ ٢٠ الآية : ٢٤] .

فبدأت مسيرته الجهادية ومواجهته المباشرة مع الطاغية فرعون وطلب من الله مآزرة أخيه هارون له وتمت الموافقة الإلهية فأمرهما بالذهاب لفرعون :

**﴿فقولا إنّا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك﴾** .

[سورة طه ؛ الآية : ٤٧] .

سألهما عن الدليل فبيّن موسىٰ الدليلين له . . فغضب فرعون وبدأ يذكّره بالماضي **﴿ألم نربّك فينا وليداً﴾** صغيراً **﴿ولبثت فينا من عمرك سنين﴾** **﴿وفعلت فعلتك التي فعلت﴾** .

[سورة الشعراء ؛ ٢٦ الأيتان : ١٨ ، ١٩] .

أي قتلت أحد أصحابي فأراد هو قتل موسىٰ فلم يستطع بقدرة الله فبدأ يحاججهما مَنْ ربكما ؟ ومن أنتما ؟ وآنتهت المجابهة بانتصار موسىٰ بالأدلة الملموسة الدامغة فانفتحت بوابة الاتهامات فاتهم موسىٰ بالسحر

والكذب وحدّدا موعداً للمباراة بين موسىٰ وبين السحرة من جماعة فرعون وتمت المباراة أمام أعين الناس في يوم عيد، وانتهت كما في القصة المعروفة بانتصار موسىٰ وهزيمة فرعون وسحرته .

قال عز وجل : **﴿قالوا يا موسىٰ إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين ، قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم ، وأوحينا إلىٰ موسىٰ أن ألقِ عصاك فإذا هي تلقف ما يأفِكون ، فوقع الحق وبَطَلَ ما كانوا يعملون﴾** .

[سورة الأعراف ؛ ٧ الآيات : ١١٥ ـ ١١٨] .

فصارت عصا موسىٰ : **﴿تلقف ما يأفكون﴾** .

[سورة الشعراء ٢٦ ؛ الآية : ٤٥] .

فأول من عرف الحقيقة هم السحرة فسجدوا لإله موسىٰ وآمنوا به **﴿فأُلقي السحرة ساجدين، قالوا آمنا برب العالمين﴾** .

[سورة الشعراء ؛ الأيتان : ٤٦ ، ٤٧] .

آنذاك بدأت الإعتقالات في صفوف المؤمنين بموسىٰ والتصفيات الجسدية حقداً عليهم فأنزل الله سبحانه غضبه علىٰ فرعون وقومه فأنزل الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والرجس والطاعون علىٰ قوم فرعون فكان فرعون مضطراً للتوجيه بالطلب من موسىٰ ليدعو ربه للنجاة لقاء اطلاق سراح المؤمنين المعتقلين من بني إسرائيل فكان يدعو موسىٰ دون أن يفي فرعون بعد انتهاء الأزمة وأخيراً أطلق سراحهم بعد رفع الطاعون ففكر موسىٰ وقومه بالهجرة من مصر وبالفعل هاجروا خوفاً وذعراً فعلم فرعون بذلك فلحقهم للبحر وبعد أن فلق الله البحر لموسىٰ وصحبه فدخلوا في البحر وخرجوا من الجانب الآخر وفرعون بجنوده دخلوا وراءهم استجابةً لطغيانهم وغرورهم فلما خرج موسىٰ من الطرف الآخر أخذ عصاه ـ التي هي سبب انفلاق البحر بإذن الله تعالىٰ ـ فعاد الماء إلىٰ طبيعته فغرق فرعون بجنوده .

**﴿فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾** .

[سورة البقرة ؛ ٢ الآية : ٥٠] .

وابتدأت مرحلة جديدة لموسىٰ (ع) بعد انتهاء دور الطاغية فرعون علماً بأنه (ع) مرّ بتجارب عصيبة مع قومه منها قصة القتيل الَّذي جاء به ابن عمه للنبي موسىٰ (ع) يريد أن يعرف قاتله فأمر سبحانه بذبح بقرة وضربها بالميت ليجلس الميت ويخبر عن القاتل فبدأوا يتململون في الأسئلة . . ما لونها . . ما هي . . المهم ذبحوها بالنتيجة وبالفعل قام الميت وأخبرهم بأن ابن عمه هو القاتل لخلاف بينهما حول الزواج من امرأة . .

وبعد انتصار موسىٰ في البحر وغرق فرعون ، طفت جثته إلىٰ السطح وعلىٰ الساحل لتكون عبرة لمن استعبر .

**﴿فاليوم ننجّيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾** .

[سورة يونس ؛ ١٠ الآية : ٩٢] .

أراد موسىٰ أن يدخل بلاد الشام فرفض قومه : **﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾** .

[سورة المائدة ؛ ٥ الآية : ٢٤] .

خوفاً من الجبارين الحاكمين في الشام فعاقبهم سبحانه بالتيه : **﴿قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس علىٰ القوم الفاسقين﴾** .

[سورة المائدة ؛ ٥ الآية : ٢٦] .

يعني في حيرة من أمرهم لا يرجعون إلىٰ بلادهم مصر ولا يدخلون الشام ضائعين في الأرض .

## النبي عيسى (ع) :

الحديث عن النبي عيسىٰ (ع) يجبرنا أن ننسحب للحديث عن مريم الطاهرة أُم النبي عيسىٰ حيث ظروف الولادة المتميّزة والتي هي بحد ذاتها

دلالة واضحة على معجزة النبي عيسىٰ وجذور المسألة تمتد إلىٰ المرأة الصالحة حنّانه واختها حنّة فتزوج النبي الكريم زكريا من حنانة وتزوج الرجل الصالح عمران من حنة ولم يرزقا أولاداً مدة من الزمن وبعد فترة طويلة من الحياة السعيدة المشوبة بالأسىٰ والحزن من ناحية عدم الإنجاب حملت (حنة) من زوجها عمران لتلد وليداً تنتظره طويلاً وإذ هي حامل وعمران يشكر الله سبحانه علىٰ هذا العطاء أرادت أن تقابل هذا الإحسان بشيء من الشكر فنذرت أن يكون هذا الوليد (محرّراً) أي وقفاً للخدمة في بيت المقدس ولكن شاء الله سبحانه أن تضع أُنثىٰ ومن الصعوبة أن تطبق نذرها حيث أن للانثىٰ ظروفها المانعة من تحقيق هذا النذر الذي يستوجب البقاء في بيت المقدس والخدمة الدائمة والعبادة المستمرة وهي لا تناسب وضعية المرأة ﴿**إذ قالت امرأة عمران ربّ إنّي نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم**﴾ المهم إنها ولدت أُنثىٰ وسمتها مريم ومعناها العابدة ﴿**فلما وضعتها قالت** (أُمها حنة) **ربّ إني وضعتها أُنثىٰ والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثىٰ ، وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم**﴾ .

[سورة آل عمران ؛ ٣ الآيتان : ٣٥ ، ٣٦] .

وبالفعل إنها لمسيرة صعبة تنتظرها و(حنة) هذه الأُم الحنون لا تعلم دور مريم وما تلاقيه في المستقبل من مجتمعها حينما تضع عيسىٰ ابن مريم من دون أب وهي لا تدري ماذا يكمن لها الغيب ؟ هذا وإنها كانت تعاني من أزمة نفسية وخصوصاً أنها بدأت تقاوم وتتحدىٰ الأُمور الصعبة لوحدها حيث توفي زوجها الصالح قبل ولادة (مريم) .

وهذه المرأة الصالحة (حنة) نفّذت النذر المقدس فحملت مريم في قماطها وجاءت بها إلىٰ بيت المقدس ودفعتها إلىٰ الرهبان والعُباد وأخبرتهم بأمرها ـ بأنها نذر وهي بنت عمران صديقكم ـ فرحّبوا بالطفلة مريم واختلفوا في أمر كفالتها ورضاعتها وكان (زكريا) (ع) زوج حنانة أُخت حنة أحدهم فأراد أخذها بأنه أقرب الناس بها صلة حيث زوجته خالة مريم ، أُخت أُمّها

حنّة فرفض الأحبار اقتراح زكريا فقرّروا الاقتراع ومن حسن الصدف فاز النبي زكريا (ع) بكفالتها .

يقول الله العظيم في الكتاب العزيز : **﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم** - من الحديد كانوا يكتبون بها التوراة فيرمونها بالماء فالطافي من الأقلام يفوز بالاقتراع - **أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾** .

[سورة آل عمران ؛ الآية : ٤٤] .

فتربت في بيت زكريا يقول سبحانه : **﴿فتقبّلها ربّها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا﴾** .

[سورة آل عمران ٣ ؛ الآية : ٣٧] .

فكبرت وترعرعت عند زكريا فخصص لها غرفة عالية لغرض عبادتها وانقطاعها لربها وكانت في غرفة منعزلة من الصعوبة الوصول إليها وكان زكريا يعتني بها كثيراً ودخل عليها ذات مرة وإذ به يجد لديها فواكه متعددة وطعاماً لذيذاً تحيّر من الأمر وكانت تشتد حيرته حينما يرى فواكه الصيف في الشتاء وبالعكس كلما دخل عليها في محرابها لذلك يقول القرآن العظيم : **﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنّىٰ لكِ ... قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾** .

[سورة آل عمران ؛ ٣ الآية : ٣٧] .

وهي مشغولة بالعبادة جاءها نداء غيبي : **﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاكِ وطهركِ واصطفاكِ علىٰ نساء العالمين ، يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾** .

[سورة آل عمران ؛ الآيتان : ٤٢ ، ٤٣] .

ومع مرور الأيام الطويلة رزق الله سبحانه زكريا ولداً وسمّاه

**يحيىٰ : ﴿يا زكريّا إنّا نبشّرك بغلامٍ آسمه يحيىٰ لم نجعل له من قبل سميّا﴾ .**

[سورة مريم ؛ ١٩ الآية : ٧] .

أما مريم الصديقة الطاهرة وهي مشغولة في عبادتها بعث الله سبحانه رسولاً منه ليهبها ولداً : **﴿واذكر في الكتاب مريم إذِ آنتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، فآتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويّاً﴾** في هكذا ظروف ومريم العفيفة الباكر خافت علىٰ سمعتها وشرفها وعفافها من هذا الشاب المرسل فبدأت تنصحه :

**﴿قالت إني أعوذ بالرحمٰن منك إن كنت تقياً ، قال (جبرئيل) إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ، قالت أنّىٰ يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً، قال كذلكِ قال ربك هو عليَّ هيّن ولنجعله آيةً للناس ورحمةً مّنا وكان أمراً مقضيا﴾ .**

[سورة مريم ؛ الآيات : ١٦ ـ ٢١] .

فحملت بالنبي عيسىٰ (ع) بهذا الأُسلوب الغيبي ومن المؤكد أن مريم عاشت القلق والضغوط النفسية والاجتماعية نتيجة لهذه الطريقة غير المألوفة ولكن إيمانها بالله سبحانه كان هو الضمانة لصبرها وكرامتها وبالفعل كانت ضغوطاً عسيرة تحيطها من كل جانب .

**﴿فأجاءها المخاض إلىٰ جذعِ النخلةِ قالت يا ليتني متُّ قبل هذا وكنت نسياً منسيا﴾ .**

[سورة مريم ؛ الآية : ٢٣] .

وأول معجزة يسجلها عيسىٰ (ع) علىٰ الأرض أنّه كلّم أُمه وهدّأ روعها **﴿فناداها من تحتها ألاّ تحزني قد جعل ربك تحتك سريّا﴾** ماءً سارياً فانفجرت الأرض ماءً بعد أن ضرب المسيح رجله علىٰ الأرض .

**﴿وهزي إليكِ بجذع النخلةِ تساقط عليكِ رُطباً جنّياً، فكلي واشربي وقري عينا﴾** .

[سورة مريم ؛ الآيات : ٢٤ ـ ٢٦] .

وعلّمها طريقة التخلص من ألسنة الناس الذين سيواجهون أُمّه باللوم تارةً وبالتهمة تارةً أُخرىٰ بتحويل المسألة إليه ليجيبهم بقدرة الله سبحانه فقد قال في محكم الكتاب الكريم : **﴿فامّا ترَيِن من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمٰن صوماً فلن أكلّم اليوم إنسيّاً، فأتتْ به قومها تحمله﴾** ـ وهي فرصة لهذه التطمينات والاجابات الحية والدامغة ـ .

**﴿قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريّا (عجيباً) يا أخت هارون ما كان أبوكِ امرأ سوءٍ وما كانت أُمك بغيّا﴾** .

[سورة مريم ؛ الآيات : ٢٦ ـ ٢٨] .

هارون رجل الصلاح فحينما يريدون أن يصفوا إنساناً بالصلاح يقرنوه بهارون **﴿فأشارت إليه قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبيا﴾** انطلق الصبي الرضيع بالإجابة الوافية والرّد الشافي للشبهات المرفوعة عليه وعلىٰ أُمه الطاهرة .

**﴿قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً﴾** .

[سورة مريم ؛ الآيات : ٢٩ ـ ٣٢] .

فعرف الناس أنه المولود الذي ينتظرونه لكي ينقذهم من الجهل والضلال إلىٰ نور الهداية والاستقامة والصلاح واعترف كثير من رهبان اليهود وعظمائهم بأنه المسيح المنتظر لانقاذ الأُمة من الويلات .

ومرت الأيام وبدأ ينشر رسالته مستنداً علىٰ المعاجز الإلهية التي تجري علىٰ يديه فهو الذي كلّم الناس في المهد صبياً ومعجزته في القضايا المستعصية بالطب من إشفاء الأكمه والأبرص بإذن الله تعالىٰ هذه المعجزة

كانت مناسبة لزمانه حيث تطور الطب ووسائله ومن الطبيعي بدأ اليهود بالتشكيك والتكذيب **﴿فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلاَّ سحر مبين﴾** ولكن التأييد الإلهي المطلق للنبي عيسىٰ وظهور المعاجز الكبرىٰ علىٰ يديه مما أحبط مؤامرات الأعداء فقد قال سبحانه :

**﴿إذ أيّدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتىٰ بإذني وإذ كففتُ بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبيّنات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾** .

[سورة المائدة ؛ ٥ الآية : ١١٠] .

فاستطاع النبي عيسىٰ بهذه المعاجز الجبّارة وبسموه الخلقي العالي وتقشفه بالحياة أن يؤثر في بعض الناس ويهديهم إلىٰ الصراط المستقيم علىٰ عكس المعاندين المتضررين بالدعوة الجديدة فأصبح من الناس الحواريون الملازمون للنبي عيسىٰ واستطاع بجهده المبارك في التبليغ والشفاء أن ينشر الدين الجديد ويروىٰ أن المسيح (ع) شفىٰ خمسين ألف إنسان في مختلف الأمراض المستعصية . والحواريون كان لهم الدور البارز في مساعدة النبي في نشر الدين ويُقال أن أحد الحواريين أرسله النبي (ع) إلىٰ الروم وزوّده بمعجزة إبراء الأكمه والأبرص فذهب للتبشير وهنالك كان بإمكانه معالجة أي مريض وشفائه بإذن الله فعظم أمره فدعاه الملك وحاجبه ثم أتىٰ له بغلام منخسف الحدقة لا عين له قائلاً له إن كنت صادقاً فأبرىء هذا الغلام فوضَع الحواري بندقيتين من الطين مكان عيني الغلام ودعا ربه سبحانه فإذا به بصير يرىٰ كلّ شيء فآمن الملك بالمسيح (ع) وقرّب الحواريين لمنزلةٍ رفيعةٍ . وكثيرة هذه القصص التي كانت تساعد المبشّرين في مواقفهم وتساعد المسيح (ع) في اقناع الناس للدين المسيحي فكان يحيي الأموات الذين ماتوا منذ زمنٍ سحيق لغرض خلق الحالة الإيمانية في نفوس الناس .

وهكذا استطاع النبي المسيح (ع) أن يدخل قلوب المهتدين ويبدأ الحسد بدوره الخبيث في قلوب المعاندين والكافرين فكانت المواجهة والمعاناة والآلام التي لحقت أصحاب الحق كبقية الأنبياء واتباعهم .

## النبي محمد (ص) :

ولد الرسول الأعظم (ص) في مكة المكرمة في تموز عام ٥٧٠ للميلاد ضمن ظروف اجتماعية خاصة يسودها الجهل والتخلف وإلىٰ جانب ذلك كان يشكو منها الضعيف والفقير والمحروم لأن لغة الغاب كانت هي المسيطرة علىٰ السلوك العام فالقوي يستغل الضعيف والظالم يأكل المظلوم ، كل ذلك دفع المجتمع بالتفكير الجدي نحو الخلاص من القلق والاضطراب والحروب والاعتداء بالاضافة إلىٰ وجود الخلفيّة الفكرية لدىٰ الناس وبالذات الخلفية الدينية المنتظرة للمنقذ والمصلح وهو نبي آخر الزمن ، يقول القرآن الكريم : ﴿**وما أرسلنك إلاّ رحمة للعالمين**﴾ فكانت حالة الانتظار لهذا المولود المنقذ موجودة لدىٰ عموم البشرية والعارفين منهم والمستضعفين أيضاً وفعلاً بزغ النور الإلهي علىٰ يد الرسول الأكرم محمد (ص) ليضع حدّاً لحالات الاستغلال وإراقة الدم والتقهقر والسلبية ويزرع بوادر الخير والصلاح والايجابية في شتىٰ ميادين الحياة والسلوك فولادة النبي (ص) كانت ولادة العدل والحق والحرية وهي بداية انقشاع الظلم عن الناس . فبلّغ برسالة الإسلام التي تعتبر بحق رسالة الحياة بكل معنىٰ الكلمة الخاص والعام للحياة الدنيوية والأخروية وبيّن القوانين الإلهية الصغيرة والكبيرة التي تحيط الإنسان والمجتمع ضمن ضوابط قانونية محددة فدخل القانون الإسلامي إلىٰ البيت والأسرة والشارع والعمل بكل صنوفه تجارة وصناعة وزراعة بل قننّ الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية وكان الرمز الأول والقدوة الحسنة للمسلمين علىٰ مر العصور .

﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**﴾ .

[سورة الأحزاب ؛ ٣٣ الآية : ٢١] .

والنبي (ص) هو القدوة الحسنة الذي مارس دوره في تطبيق القرآن الكريم بالخطوات الميدانية التي أصبحت مكملة وموضحة لتعاليم القرآن الكريم فصار قول النبي (ص) وفعله وتقريره لوائح القانون الإسلامي بعد القرآن . فكان يفكر في حل أزمات الفرد والمجتمع قبل البعثة وبعدها فكان تفكيره للمصلحة العامة فيفكر ويجهد نفسه خدمة للمجتمع ويضحّي خدمة للناس ويقدم للأمة كلّ ما يستطيع لأجل انقاذهم واصلاحهم فبلغت أخلاقُه الذروة العليا فقد وصفه سبحانه في محكم كتابه :

﴿وإنك لعلىٰ خلقٍ عظيم﴾ .

[سورة القلم ؛ ٦٨ الآية : ٤] .

كان (ص) بعيداً عن حب ذاته وحب الدنيا والشهوات لا تأخذه في الحق لومة لائم معروف بالصدق والأمانة منذ صغره فكان يلقب (بالصادق الأمين) وعرف بين أهله وعشيرته بأنه رجل الصلاح والخير وعرف بأنه ناصر المظلوم ورافض الظلم والظالم دون خوف أو وجل . اشتهر في الأوساط الاجتماعية ـ قبل البعثة ـ بأنه رجل الاستقامة ومثال العدل والانصاف ـ حتىٰ أن اعداءه شهدوا له بهذه الصفات السامية قبل بعثته وبعدها وقصة الحجر الأسود واختلاف القبائل العربية فيمن ينال شرف الرفعة والمكانة العالية بوضع الحجر في موضعه بعد البناء ، وكاد السيف أن يقع بين العرب آنذاك لولا اتفاقهم علىٰ قبول تحكيم أول من يدخل باب البيت الحرام وكان الداخل رسول الله محمد (ص) قالوا : هذا محمد ، هذا الأمين قد رضينا به يعني حكماً وبالفعل عالج الأمر بحكمته فجعل الشرف يتوزع علىٰ حملة الرداء الحامل للحجر الأسود وكل القبائل ساهمت برفعه عبر مندوبيها وقضىٰ علىٰ الفتنة في مهدها ، وكثيرة هذه المواقف قبل بعثته (ص) .

أما بعد البعثة فيكفي أن اعداءه يعترفون بسموه الخلقي ونبله وشرفه ففي مرة صعد (ص) جبل الصفا فقال :

يا صباحاه فاجتمعت إليه قريش فقالوا : ما لَكَ ؟ فقال : أرأيتكم إن

أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ما كنتم تصدقونني » . قالوا : بلىٰ قال :« فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

المهم أنهم يصدقونه في الخبر مهما كان نوعه لأنهم لم يعهدوه كاذباً قط . . وما أجمل ذلك اللقاء بين هرقل ملك الروم وبعض تجار قريش بعدما وصلت رسالة النبي (ص) لهرقل يدعوه للدين الجديد . . فسأل هرقل عن معارف الرسول (ص) فأجاب أبو سفيان : أنا أقربهم نسباً . فقال له هرقل : هل أنتم كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فأجاب أبو سفيان بالنفي حيث جرىٰ الحق علىٰ لسانه وسأله هرقل : هل يغدر؟ أجاب بالنفي وهنا نردد مقولة الشاعر ـ والفضل ما شهدت به الأعداء ـ فأبو سفيان ألد أعداء النبي (ص) لا يجرؤ باتهام النبي (ص) بالكذب أو الغدر أو الخيانة وهذا أبو جهل ألد أعدائه أيضاً يقول عنه (إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط) فلذلك نلاحظ أن تأريخه يمتاز بسمعة جيدة ونزيهه تحيط بشخصية الرسول (ص) هذا التاريخ الشامخ خدمه كثيراً في صراعِهِ مع الجاهلية وصدق الله حيث يقول :

﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ .

[سورة الأنعام ؛ ٦ الآية : ١٢٤] .

فهو (ص) مهيّأ لهذا الدور الكبير في حمل الأمانة الإلهية والرسالة المباركة والنجاح في تبليغها ومن صور تأريخه الشخصي أن قلبه النقي الطاهر كان يتألم لظواهر الفساد والإنحراف والجهل في الأمة فكان يعتزل الناس ليناجي ربه الكريم في غار حراء ويدعو لهم بالنجاة والخلاص وفي سنة الأربعين من عمره المبارك وهو في غار حراء غارق في مناجاة ربه الجليل تم تبليغه بالأمر فقد اختاره الله سبحانه للنبوة وبعث إليه الأمين جبرائيل ليبلغه الرسالة فنزل عليه بقوله تعالىٰ : ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق . . .﴾ .

هذا وقلنا فيما مضىٰ إن البشرية كانت تنتظر البشير المنقذ والذي

ساعدَ علىٰ الانتظار بشائر الكتب السماوية من التوراة والانجيل ببعثه (ص).

**﴿الذين يتبعون الرسول النبيّ الأُميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم ..﴾ .**

[سورة الأعراف ؛ ٧ الآية : ١٥٧] .

فكانت البشرية تنتظر هذا النبي المصلح الذي سيخرجها من الظلمات إلىٰ النور وكانت الكتب السماوية قد هيّأت الأذهان لهذا الرسول المنقذ وفي سورة الصف ؛ الآية : ٦ قال تعالىٰ : **﴿وإذ قال عيسىٰ ابنُ مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي آسمه أحمد﴾** .

وكان القساوسة والرهبان قد بيّنوا علامات وأوصاف النبي الجديد حسب ما صورته أسفارهم المقدسة وبالفعل دخل منهم للإسلام من آمن بتشخيص تلك الصفات في النبي محمد (ص) ومنهم (ابن حواشي) من كبار اليهود وعلمائهم ترك الشام قاصداً الحجاز ينتظر خروج النبي المصلح وأوصىٰ عند موته : (تركت الخمر والخمير وجئت إلىٰ البؤس والتمور لنبيٍّ يُبعث هذا أوان خروجه يكون مخرجه بمكة وهذه دار هجرته وهو الضحوك القتال يجتريء بالكسرة والتميرات ويركب الحمار العاري في عينيه حمرة وبين كتفيه خاتم النبوة . . )[٢٠] .

وهذا (بحيرا) الراهب المسيحي فقد رأىٰ النبي في طفولته وشخّص علامات النبوة فيه فقال لأبي طالب : فارجع بابن أخيك إلىٰ بلده واحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغُنّه شراً فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم[٢١] .

أما الراهب المسيحي الآخر (نسطور) فرأىٰ النبي محمداً (ص) في

شبابه فبشرّ بنبوته معتمداً علىٰ العلامات التي عرفها في الكتب المقدسة فكان يقول هو نبيٌّ وهو آخر الأنبياء[٢٢] .

المهم إن حياة النبي (ص) منذ ولادته وطفولته وصباه وشبابه مروراً بأيام تجارته وزواجه وانتهاءً بآثاره السلوكية الرفيعة حافلة بكل معاني السمو والنبل إلىٰ أن بعثه الله نبياً هادياً .

فحادثة الحجر ودخوله في حلف الفضول لنصرة المظلوم وتجارته الأمينة وتعامله الشخصي وشهادات علماء ومفكري الديانات السابقة ونصوص الكتب المقدسة أيضاً كل ذلك كان بمثابة الأرضية الصالحة للقيام بهذه المهمة الصعبة . . فبدأ (ص) بدعوته السرية ولمدة ثلاث سنوات استطاع (ص) فيها أن يوجد اللبنات الأساسية الأولىٰ للمجتمع الإسلامي وبعدها أعلن دعوته بأمر الله تعالىٰ لكننا نلاحظ بعد اعلان رسالته بدأت تتكالب عليه المؤامرات من قبل اعدائه والمتضررين بالدعوة الجديدة حيث التقىٰ أعداؤه من أقصىٰ اليمين إلىٰ أقصىٰ اليسار لضربه وتصفيته وإنهاء دوره ومنهجه وفعلوا كل ما أُوتوا من خبث ودسيسة وقوة فاستقبلته قريش بجاهليتها وغرورها بشتىٰ أنواع السخرية والاستهزاء والمحاربة النفسية والجسمية .

فجاءت قريش لعمه أبي طالب . . يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سفّه احلامنا وسب آلهتنا وأفسد شبابنا ! وفرق جماعتنا فإن كان الذي يحمله علىٰ ذلك العدم جمعنا له مالاً حتىٰ يكون أغنىٰ رجل في قريش ونملكه علينا . . .

وجاءت إجابة الرسول الأكرم (ص) لهؤلاء الجهلة كالسيف القاطع لأباطيلهم حيث قال (ص) : «يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري علىٰ أن أترك هذا الأمر ما تركته حتىٰ يظهره الله أو أهلك دونه» بهذه المبدئية القاطعة ردّهم ليتفكروا ملياً بأهداف الرسول المقدسة هذا والنبي (ص) مستمر في دعوته المباركة فكوّن الحلقات الايمانية الأُولىٰ من طبقات المجتمع المختلفة باللون والعرق والجنس علىٰ أساس التقوىٰ والإيمان

ولكن قريش بل الجاهلية الرعناء صبت جام غضبها على النبي (ص) وصحبه الكرام للانتقام منهم .

فتآمرت الجاهلية بكل صنوفها وخططت لضرب الرسول والرسالة مفرغة احقادها واضغانها بشتى الوسائل والطرق لاطفاء نور الله سبحانه فابتدأوا بالسخرية والحرب النفسية فدفعوا الصبية للاستهزاء بالنبي ومارسوا الايذاء الجسدي والنفسي فكانوا يرمونه بالأشواك ويضعون في طريقه القاذورات والأشواك ربما كان يعود إلى منزله ورجلاه تقطران دماً . . . وقذفوه بالكذب والسحر والخداع بعد أن وصفوه بالصادق الأمين قبل اعلان الدعوة المباركة ! وقد مرّ معنا كيف كان يصفه اعداؤه وحينما سئل أبو جهل عن الرسول أنه كاذب ؟ قال : (إن محمداً لصادق وما كذب قط) وأما أصدقاؤه ومحبّوه فأمر مفروغ عنه ويكفي أن نذكر خطبة عمّه أبي طالب عند زواج ابن اخيه محمد من خديجة قال : (فإن محمداً ممن لا يوزن به فتىً من قريش إلّا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً فإنما المال ظل زائل وعاريه مسترجعة . . .) .

المهم توجهوا للرسول (ص) بالحرب الجسمية والنفسية وما اكتفوا بذلك بل عذّبوا من آمن به أشد تعذيب من أسرٍ وإهانةٍ وضرب ربما حتى الموت كما صُنع بالصحابي ياسر وزوجته الشهيدة سمية حيث طعنها أبو جهل بحربته الظالمة بعد أن ضجت ألماً على الصخرة الملتهبة الرمضاء كل ذلك حقداً على إيمانها برسالة محمد (ص) .

وطاردوا المسلمين واشاعوا الشبهات حولهم ولاحقوهم في الهجرة الأولى إلى الحبشة كي يثيروا النجاشي ضدهم ولكن الله سبحانه هو الذي يدافع عن الذين آمنوا في كل مكان فانقلب السحر على الساحر حيث ردّت رشوتهم وعادوا خاسرين بعد أن استمع النجاشي كلام مندوب المسلمين جعفر بن أبي طالب في عقيدة الإسلام بالسيد المسيح (ع) .

وهكذا ضربوا على بني هاشم ومن آمن بالرسالة الطوق الاقتصادي

فحوصروا في شِعب أبي طالب أكثر من ثلاث سنين وعُلّقت المقاطعة الاجتماعية والاقتصادية في الكعبة وبالفعل كانت تجربة قاسية ومؤلمة عاشها المسلمون الأوائل في تلك الأيام الخانقة حتىٰ كان النبي (ص) يتألم كثيراً حينما يسمع صراخ الأطفال والنساء جوعاً وعطشاً .

ومع كل هذه الأساليب الوحشية المتعددة فقد كانت بمثابة سحابة صيف فما أفلحت هذه الأساليب لضرب كلمة الحق فقد تحوّل الفكر الإسلامي إلىٰ سيل متنامٍ هادر وقد بات مهدِّداً لمصالح الكفر والجهل والإنحراف فقد اتصل الرسول (ص) في أيام الحج بأهل المدينة وبالتحديد بالخزرج واستطاع أن يؤثر فيهم فدعاهم للإسلام فآمنوا به وقالوا: والله إنه للنبي الذي تواعدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه . ورجعوا إلىٰ أهلهم يبلغونهم الأمر وبالعام القادم جاء إثنا عشر رجلاً من يثرب بايعوا النبي (ص) وسميت بيعة العقبة الأولىٰ فبعث النبي (ص) الصحابي الجليل مصعب بن عمير معهم فأسس هذا الرجل قاعدة مؤمنة بالمدينة (يثرب) صالحة لاستقبال النبي (ص) إذا أراد الهجرة من مكة المكرمة فأسلم الكثير ، ومن جملتهم زعيم الأوس (أسيد) وقبيلته كذلك .

فهذه الآفاق الجديدة هي التي كسرت الأسوار المطوقة للرسالة الإسلامية وللمسلمين آنذاك وقرّر النبي (ص) أن يبتعد عن مكة ذات الحساسية المضادة للإسلام . ـ علىٰ العموم ـ هاجر إلىٰ المدينة المنورة حيث أصبحت المحطة الرئيسية لقيام الدولة الإسلامية ولنشر الدين الإسلامي فأستقبلته أرضية المدينة المنورة المهيئة للعمل الإسلامي وترك علياً (ع) نائماً في فراشه ليلة الهجرة وكان الأعداء قد صمموا علىٰ تصفية النبي جسدياً وفوجئوا بعلي مكانه وفاتتهم الفرصة التي عقدت آمالهم عليها وتتبعوا خطوات الرسول وموكب الهجرة فتدخلت العناية الإلهية مباشرة لتضيع معالم اختفائهم في الغار، المهم وصل النبي بموكبه المهاجر إلىٰ المدينة المنورة واستقبلته قلوب الناس بحفاوة وإكرام وقد شرع ـ بمجرد وصوله ـ بمشاريعه الاجتماعية والثقافية والتغييرية فبنىٰ المسجد النبوي وآخى بين المهاجرين

والانصار وبدأ بالاعداد العسكري ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل . . .﴾ تحسباً للمعارك المستقبلية التي ستنتجها مجمل الاضغان الجاهلية والمصالح المهددة والروح الانتقامية لآلهتهم المتساقطة بالاضافة إلىٰ التركيبة الاجتماعية والفكرية علىٰ أرض الحجاز . . هذا الخليط من الدوافع تبلور للوقوف ضد هذا الدين الجديد ومحاربة رسوله وملاحقة المؤمنين به في كل مكان وبكافة المستويات فعلىٰ المستوىٰ الفردي أو الجماعي كان يظهر ذلك الحقد الدفين في تعاملهم الشرير مع المسلمين وفي كافة معادلات الصراع بين الحق والباطل مثلاً تخبرنا صفية بنت حي بن أخطب ـ أحد كبار اليهود ـ بعدما جاء النبي (ص) إلىٰ المدينة وعرف الناس به فكان من جملة الذاهبين لرؤيته حي بن أخطب والد صفية وعمها أبو ياسر بن أخطب تروي صفية وتقول : (فلم يرجعا حتىٰ كانا مع غروب الشمس) قالت : فأتيا (أبوها وعمها) كالّين كسلانين ساخطين يمشيان الهوينا قالت فهششت إليهما كما كنت أصنع فوالله ما التفت إليّ واحد منهما مع ما بهما من الغم قالت: فسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي : أهو هو ؟ قال نعم والله .

قال : أتعرفه وتثبته ؟ . قال : نعم . قال : فما في نفسك منه ؟ . قال : عداوته والله ما بقيت[٢٣] .

وحقاً تنطبق عليهما وعلىٰ أمثالهما الآية الكريمة : ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله علىٰ الكافرين﴾ .

[سورة البقرة ؛٢ الآية : ٨٩] .

وبالفعل تمت اتفاقيات سرية بين اليهود وقريش وبين كافة المعارضين والمتضررين فقريش من مكة واليهود من المدينة وهما قوتان لا يستهان بهما اتفقتا لغرض تصفية رواد الدين الجديد ! وخاض المسلمون معارك المصير بجدية واندفاع فنصرهم الله واتمّ كلمته العليا فتم فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة ودخل الناس إلىٰ الإسلام وابتدأت مسيرة الحضارة الإسلامية بعد أن

سقطت الاقنعة وتبين الاندفاع الباطل لأصنامهم وجاهليتهم فانتصر الإسلام في بدرٍ وأُحد بعد الدرس القاسي وفي معركة الأحزاب أيضاً وانهزم اليهود وتساقطت قلاعهم الواحدة تلو الأُخرىٰ وانتشر الإسلام خارج الحجاز وامتد إلىٰ العالم بعد أن ترسخت دعائم الشريعة في قلوب المؤمنين وكانت المعجزة الكبرىٰ للنبي الكريم ـ القرآن المجيد ـ الصوت الرادع للمنافقين والكافرين وبلسم الشفاء للمؤمنين وبالفعل لقد طأطأ الجبابرة رؤوسهم وانحنىٰ البلغاء والأدباء أمام أُسلوبه المتين ومنهجيته المستقيمة .

فوضع النبي الأعظم (ص) أُسس الحضارة الإسلامية وبيّن كيفية تطبيق الرسالة والدعوة والعمل والجهاد للإسلام وإمكانية قيام الدولة الإسلامية علىٰ أساس التشريع الديني وقد مارس في حياته المباركة كافة القوانين الإسلامية بمختلف الأصعدة علىٰ ضوء أوامر الله عز وجل .

من هذا العرض السريع لحياة النبي الأعظم (ص) وجهاده نستنتج عدة أُمور لا بد أن ندرسها بشيءٍ من التوضيح . .

١ ـ إن النبي محمداً (ص) كان يتمتع بقوة عالية في شخصيته ساعدته علىٰ أن ينجح في عمله ونشر رسالته السماوية وخلق جيلاً مؤمناً يرفع علىٰ كاهله مسؤولية النشر والتطبيق للشريعة فمنذ بداية حياته (ص) تحدّىٰ الواقع الفاسد والتيار الفكري السائد في ضلاله وانحرافه فتعبد لوحده في غار حراء وابتعد عن الشهوات والنزوات المتداولة حينذاك فوقف كالجبل الأشم أمام الأعاصير الجاهليّة المحيطة به فبدلاً من أن ينجرف مع التيار العام الفاسد وقف متنكراً يفكر مليّاً بالنجاة لهذه الأُمة المسكينة فهو شخصياً ابتعد عن ذلك كل البعد وبقي في المجتمع ولكن ليس معه إلاّ في الإطار المشروع النافع حتىٰ لقب بالصادق الأمين وبعد البعثة صمد أمام الاغراءات الدنيوية المتعددة وردّ هذه الاغراءات بكلمات مبدئية قالها لعمه أبي طالب : (لو وضعوا الشمس في يميني . . .) .

والنبي الأعظم (ص) كان يمشي إلىٰ جانب المعذّبين ويرجو

لهم الخلاص من وحل الجاهلية الظالمة وفي بداية الدعوة الإسلامية كان يمشي إلىٰ جانب المعذبين من أجل الحرية والكرامة ومن أجل الإسلام فيتنفس الصعداء ويقول : «صبراً آل ياسر موعدكم الجنة»، بهذه القوة الكبيرة في شخصيته المتزنة استطاع أن يهضم المشاكل ويستوعب الأزمات علىٰ كافة المستويات الفردية والاجتماعية ليصوغ من الفرد الضائع في خضم الأحداث المتلاطمة بالأهواء والطموحات الدنيوية ليكون فرداً مؤمناً هادفاً يعرف حياته وطريقه وآخرته ومصيره بل يضحي من أجل المجتمع ويسحق أنانيته من أجل المصلحة العليا ، واستطاع أن ينظم من المجتمع الخاوي المتحارب والمتآكل بالفساد والصراعات الجانبية والعصبيّات مجتمعاً رسالياً مخلصاً لحريته وأمته متقدماً بحضارته فمن ناحية بنىٰ المجتمع بالتماسك الايماني وإدارته الإيمانية ومن ناحية أخرىٰ سعىٰ لإسعاد المجتمعات البشرية الأخرىٰ فبدأ يدك قلاع المتجبرين الحكام في شرق الأرض وغربها لانقاذ الناس ـ جميع الناس ـ من سلطة الطواغيت في الأرض . فدعاهم للإسلام أو ضَمِن دفع الجزية للمسلمين واستطاع العرب في الحجاز أن يسودوا العالم ـ ضمن برهة زمنية قصيرة ـ بعد أن كانوا في حالة النزاع الداخلي والتمزق الاجتماعي والطبقي القاتل . .

وبهذا كان النبي (ص) يتمتع بنضج سياسي واجتماعي رفيع وبهذه الروحية الفاعلة نزل في الساحة التغييرية ميدانياً وبنىٰ الفرد والمجتمع وقادهم بشجاعة تامة وإصرار كامل فلم تعرف شخصيته معنىً للهزيمة الداخلية قط بل كان ملاذ الأبطال في الحروب والصراعات كما قال الإمام علي (ع) : كنا إذا حمي الوطيس لذنا برسول الله (ص) . فكان يدعو الناس بقوة وشجاعة للإسلام دون خوف أو ملامة متوقعاً كل الأمور غير هيّاب منها فهو رجل التربية دون تردد ورجل المرحلة الصعبة دون وجل ورجل الإقتحام دون تهور ورجل التعقل دون جبن أو تراجع. قال علي (ع) : (قال لي النبي (ص): إجمع لي بني عبد المطلب حتىٰ أكلمهم وابلّغهم ما أمرت به ففعلت ما أمرني به ثم دعوتهم له . . ثم جمعتهم ثم داعاني بالطعام فقربته لهم

ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا وشربوا . . فقال(ص) :« يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله تعالىٰ أن أدعوكم إليه . . . » .

بهذه الشجاعة المقرونة بالسماحة كان يجمعهم ويحدثهم ويهديهم ومن جانب آخر كان يتحمل عذابهم وسخريتهم ، هذه النفسية القوية هي التي زرعت القيم الجديدة لغرض التعامل الحر والتصرف الناجح من أجل الرسالة والمجتمع وهذه النفسية من أسرار نجاحه (ص) في الرسالة الإسلامية فإذن العامل الذاتي في شخصية الرسول من المعالم المهمة في انجاح عمل الرسول الأعظم (ص) الإصلاحي والتغييري .

٢ ـ طبيعة رسالته المتميّزة بالقوة البيانية والقوة العقلانية في مخاطبة الناس عقولهم ووجدانهم الداخلي فالقرآن الكريم هذا المعجز المتميّز بالبيان المتين لمخاطبة العقل والوجدان من أسرار النجاح للرسالة الإسلامية وسنفرد حديثاً مفصلاً عن الكتاب العزيز وقدراته الاعجازية ـ بإذن الله تعالىٰ ـ وهنا نؤشّر إلىٰ هذه الناحية لنكمل صورة البحث في الاستنتاجات والمقومات . فكان القرآن المجيد له قدرته الغيبية في السيطرة علىٰ المشاعر ونفوس الناس وهذه الحالة من أبرز معاجز القرآن المجيد حتىٰ أن بعض المشركين كانوا حينما يسمعون الآيات المباركة تُتلىٰ علىٰ مسامعهم كانت تسيطر هذه الكلمات المقدسة سيطرة تامة بجرسها الموسيقي ومعانيها الدقيقة وبالحديث الواقعي الجذاب والكاشف عن خفايا النفوس ودفائن العقول مما يجبر العقلاء والناس عموماً علىٰ الاذعان التام لهذا الكنز السماوي العظيم .

﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً﴾ .

[سورة الإسراء ؛١٧ الآية : ٨١] .

ينقل التاريخ أنه في مرة جاء الوليد بن المغيرة إلىٰ الرسول الأعظم (ص) فلما قرأ عليه القرآن كأنه رقّ إليه فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه قال له : يا

عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتتعرض لما قبله قال الوليد : لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً قال فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره قال وماذا أقول؟ فواللّٰهِ ما فيكم رجل أعلم مني بالشعر لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا ووالله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمنير أعلاه مشرق أسفله وإنه ليعلو ولا يعلىٰ عليه وإنه ليحطم ما تحته . . . إلىٰ أن قال بعد ضغط أبي جهل ـ هذا سحر يأثره عن غيره) .

فهي رسالة تلائم العقل الإنساني وتنسجم مع فطرته الذاتية وتناغي طموحات الإنسان وتتوّج التطلعات الفطرية لديه بالهداية والصلاح وهي رسالة تستوعب كل آلام وآمال الفرد والمجتمع وتحل الأزمات حلاً عقلانياً علمياً فهي رسالة الحب والعلم والحرية والأخلاق السليمة وهي رسالة شمولية لمناحي الحياة كلها الروحية والعقائدية والعبادية والاقتصادية وهي رسالة اعتنت بالإنسان الفرد والمجتمع الإنساني وواكبت الإنسان منذ تكوينه الأول إلىٰ موته ودخلت في كل تفاصيل الحياة الصحيّة والاجتماعية والاقتصادية فهي رسالة الحياة في الدنيا ورسالة الحياة في الآخرة .

### ٣ ـ ظروف ولادة الدين الجديد :

أما ظروف ولادة الشريعة الإسلامية فإنها كانت ظروف انتظار الدستور الذي يأخذ بأيدي الناس المحرومين والمعْدمين إلىٰ شاطىء الأمان والهدىٰ . . فمن نقاط القوة لنجاح النبي الأكرم (ص) في الحجاز آنذاك أن الولادة للدين الإسلامي كانت في ظروف مؤاتية جداً ضمن التوقيت الناجح لاستقبال الناس للدين الجديد فكانت الحالة الاجتماعية والنفسية والمادية قد بلغت حدّها من الضغط علىٰ المساكين مما أدىٰ بالناس أن ييأسوا من حياتهم التافهة وطرقهم في الخلاص فدفعوا ضرائب العيش والعبودية إضافة لذلك أن الديانة السائدة وصلت إلىٰ حد كبير أيضاً من الابتعاد عن القيم السماوية الأصيلة فقد حُرِّفت الديانات قدراً كبيراً وابتعد الناس عن الروح الدينية

الأصيلة ابتعاداً هائلاً فسادت السخرية وعمّت حالة الضياع والاستغلال للمناصب الدينية لغرض امتصاص قوت الأمة . . فببزوغ أشعة الشمس الإسلامية أعيدت الثقة بالدين المصلح وأزيلت الأقنعة المموهة بالتقديس والمستفيدة باستغلال الآخرين وبان ضعف العقائد المحرّفة مما جعل عملية التبليغ الإسلامي عملية لها مسوغاتها وأهميتها فتفاعلت الساحة الاجتماعية بالحدث الجليل ما بين مؤيد ومدافع أو رافض ومعاند أو ساكت ومتحير وشيئاً فشيئاً أخذت الأمور تجري للصالح الإسلامي .

**﴿إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ .**

[سورة النصر ؛ ١١٠ الآية : ١ ـ ٣] .

**٤ ـ ظروف النبي (ص) الشخصية المتوّجة بالإمداد الغيبي :**

من هذه النقاط الجديرة بالإشارة مسألة البيئة التي عايشها الرسول الأكرم (ص) والظروف الشخصية التي مرّ الرسول (ص) بها قبل البعثة وبعدها هذه الظروف المحيطة به كان يرىٰ التأييد الغيبي الواضح مما ساعده أكثر علىٰ انجاح مهمته التبليغية الشاقة فالنبي (ص) ولد يتيم الأب أي مقطوع الحنان الأبوي فتكفّله جده ثم عمه ودخل معترك الحياة يصارعها بدقة وشجاعة وهدوء وهو يشعر ما لليتيم من حاجة كبيرة للرعاية فنزلت عليه الآيات الكريمة لتذكره باليد الغيبية الداعمة له .

**﴿ألم يجدك يتيماً فآوىٰ، ووجدك ضالاً فهدىٰ، ووجدك عائلاً فأغنىٰ، فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر﴾ .**

[سورة الضحىٰ ٩٣ ؛ الآيات : ٦ ـ ١٠] .

ونريد أن نقول إن الرسول الأعظم (ص) تفاعل مع ظروفه النفسية والشخصية والبيئية فهو رجل المعاناة والصبر والاعتماد علىٰ الذات فحينما بُعث لقيادة الأمة كان قد استكمل دورته الحياتية بعد أن خبرها بشكلٍ جيد

وعـرف كيف يتعامـلُ مع صعـوبـة العيش ومنغصـات الـدنيـا وكيف يـنظر إلىٰ الترف فقال : (إن التـرف يزيـل النعم) هذه الخبـرات العملية من الحيـاة بـل تراكم التجارب الحياتية جعلته أصلب عوداً وأربـط جأشـاً في الصبر والإقـدام ليقـود المسلمين بخطوات ثـابتـة في الميـدان التغييـري في المجتمـع والنفس وسـاحات القتـال كذلـك ، فمن جهـة يقـرر الصبـر علىٰ آل يـاسـر ومن جهـة أخرىٰ يأمـر المسلمين بالهجـرة والإعداد لـلادوار المستقبلية وهـو يهاجـر أيضاً معهم ليفتـح الأفـاق ويسبق الـزمن فيؤاخي عمليّـاً وبسـرعـة بين المهـاجـرين والأنصـار في المـدينـة المنورة ومن جهـة أخرىٰ يـوزع مسؤوليات الجهـاد في سـاحـات القتـال فمسيـرتـه متكـاملة كلهـا خلق وسمـو وتصميم وإرادة وعـزم وشجـاعة وإصـرار علىٰ المبدأ . هـذه الايجابيـات نشأت معـه ضمن الظروف المحيطة به التي خـدمته في المهمـة الكبرىٰ بـالعنايـة الإلهية المشـرفـة علىٰ ظروف تكوينه (ص) في صلب أبيه ورحم أمه وطفولتـه وحتىٰ استلام الـرسالـة الإسـلامية المبـاركة لينـدفع نحـو مسؤولياتـه المباركـة في تـطبيق القـرآن علىٰ الأرض .

# (٦)
# القرآن الكريم المعجزة الكبرى

لكل نبي مرسل بدعوة جديدة لا بد له أن يقدم إلىٰ جانب منهجه الجديد الذي يطالب الناس بتطبيقه معجزته الدالة علىٰ أن هذا المنهج هو من الخالق المدبر أي أنه منهج إلهي حكيم .

وعادةً لا بد أن تكون المعجزة هذه نادرة الحدوث ومتميزة بشكل معين تشد القلوب لها وتفرض نفسها علىٰ ذهن الإنسان ليدخل الإنسان بالتالي في اطار الطاعة التامة وإنها تجري علىٰ يد النبي المرسل كرامةً له من الله تعالىٰ ليصدّق الناس بأنه رسول بالفعل وإن منهجه هو منهج رباني قويم فيأتمر الناس بأوامر الله ويطيعونه ويطيعون الرسول أيضاً . والأنبياء (ع) عموماً جاؤوا بالمعاجز الدالة علىٰ نبوتهم وكانت المعاجز النبوية تتناسب مع مستوىٰ الناس أولاً وتتناسب مع مستوىٰ الحاجة لها ثانياً وتكون مناسبة للظرف السائد وهذه حكمة الله تبارك وتعالىٰ ففي زمن موسىٰ كان يسود السحر بأعتىٰ أشكاله فجاءت عصا موسىٰ علىٰ مستوىٰ هذه الظاهرة وإذا بها تلقف ما يأفكون وأمام أعين الناس أول من يؤمن بإله موسىٰ وهارون هم السحرة الذين سحروا أعين الناس وعارضوا موسىٰ ورسالته لا بل ان الطاغية فرعون كان يحتمي بهم فانهم أدركوا بعمق أن قضية العصا ليست من شؤون السحر . فقد قال سبحانه وتعالىٰ :

﴿. . . قالوا يا موسىٰ إما أن تلقي وإما أن نكون أوّل من ألقىٰ، قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيّهم يخيّل إليه من سحرهم أنّها تسعىٰ، فأوجس في نفسه خيفة موسىٰ، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلىٰ، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتىٰ ، فأُلقي السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسىٰ﴾ .

[سورة طه ؛ ٢٠ الآيات : ٦٥ ـ ٧٠] .

أما النبي عيسىٰ ابن مريم (ع) فكان الأمر السائد في زمانه الطب فمنح الله تبارك وتعالىٰ قدرةً فائقة للنبي عيسىٰ في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتىٰ كما في الآية الكريمة :

﴿أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأُبرىء الأكمه والأبرص وأحي الموتىٰ بإذن الله . . ﴾ .

[سورة آل عمران ؛ ٣ الآية : ٤٩] .

وهكذا نبينا الأكرم (ص) جاء بالقرآن الكريم معجزته الخالدة ليكون القرآن هو المنهج الواضح للحياة وهذه المعجزة مناسبة للتطور البلاغي واللغوي لدىٰ العرب آنذاك والمعروف ان العرب كانوا يتأثرون كثيراً بالأدب شعراً ونثراً حتىٰ برز الشعراء الكبار في الجاهلية بقصائدهم الخالدة لفظاً ومعنىٰ مما دفعهم ليكتبوا بعض القصائد الرائعة والمتفوقة بماء الذهب وعلقوها بالكعبة ـ كما هو معروف ـ .

فجاء القرآن الكريم بكلام لا هو شعر ولا هو نثر بل هو قرآن حكيم لا نستطيع أن نقول عنه شيئاً آخر . وهو معجزة النبي محمد (ص) هذه المعجزة التي امتازت عن غيرها بأنها دائمة علىٰ مرّ العصور والأزمان وغير منقطعة بموت النبي كما في المعاجز الأُخرىٰ السابقة للأنبياء السابقين فقد كانت مؤقتة ضمن ظروف زمانية ومكانية محدودة لأن رسالتهم كانت محدودة إلىٰ زمن معيّن ، بينما القرآن الحكيم هو معجزة الله في كل زمان وكل مكان

فهو المعجزة الخالدة التي أثبتت وأكدت معاجز الأنبياء من قبل وتحدّت الفنون والعلوم على مرّ الزمن ما دام الله سبحانه أراد للرسالة الدوام إلىٰ قيام الساعة منهجاً دائماً للبشر .

والقرآن الكريم هذا قد احتوىٰ علىٰ قصص الأولين من الأمم السالفة وفيه تبيان لقوانين الحياة وسنن الله وتحديد مصير الإنسان والمجتمع سلباً أو ايجاباً في الدنيا والآخرة ضمن ضوابط معينة وأشار إلىٰ حقائق علمية اكتشف العلم الحديث بعضها بينما لا يزال بعضها لغزاً محيّراً للألباب إلىٰ الوقت الحالي ويبدو أن بعضها سيبقىٰ سراً من الأسرار الدائمة .

فالقرآن رسالة ما بعدها رسالة وإنّه معجزة أبدية وإنّه آخر معجزة يبعثها الله تبارك وتعالىٰ للبشرية فالقرآن آخر صورة اعجازية يأتي بها الوحي وإن الإسلام ختم تاريخ الرسل وبدأ بعصره الخالد .

والقرآن الحكيم قد أحاط الإنسان والمجتمع والطبيعة والغيب إحاطة تامة وأفرز البرنامج المتكامل للحياة روحياً ومادياً ، معنوياً وطبيعياً . . فحفظ الإنسان من الضياع والمجتمع من الانحراف والغيب من النكران . . وكلما يمر الزمان تتجلىٰ عظمة القرآن أكثر فاكثر لتقدم العلم بشتىٰ صنوفه وتطور التكنولوجيا كل هذا التقدم بات يخدم القرآن خدمة جليلة وبالفعل يقف القرآن العظيم منذ أربعة عشر قرناً وقفة الشموخ والانتصار ليثبت للعالم بأنه صوت الله للبشرية يصلح لكل ظروف البشر وبأي مستوىً كانوا علمياً وثقافياً وفكرياً . . فهو الدستور الإلهي الذي يضمن بتطبيقه سعادة البشر نفسياً واجتماعياً حيث بينت أحكامه اسس العلاقة بين العبد وربه الجليل وكذلك العلاقة بين الإنسان والإنسان والعلاقة بين الإنسان والمجتمع ضمن الضوابط المشروعة بعيداً عن التمييز الطبقي والعشائري بل الشريعة الإسلامية ذوّبت كل الحواجز المصطنعة بين البشر وجعلتهم متساوين أمام القانون كأسنان المشط ﴿الناس سواسية كأسنان المشط﴾ كما في الحديث النبوي ، وفي ظل القرآن الكريم تحققت الحرية للإنسان والمجتمع في اختيار عقيدته

وطـريقة حيـاته : ﴿لا إكـراه في الدين قـد تبين الـرشـد من الغي﴾ فقـد أثـار القرآن دفائن العقول والأفكار ليستنير الإنسان بهـدىٰ عقله وطاقـاته الـذهنية في حرية تامة ليختار الطريق الأصلح له . فقد قال تبارك وتعالىٰ :

﴿الـذين يذكـرون الله قيامـاً وقعوداً وعلىٰ جنـوبهم ويتفكرون في خلق السمٰوات والأرض﴾ .

[سورة آل عمران ؛٣ الآية : ١٩١] .

وبـالفعـل عـرف الإنسـان قيمتـه وقـدْره وانتهىٰ عصـر الحـرمـان والـذل والعبودية والاستغلال حينما جاء الإسلام لينشر تعاليمه بين البشر .

وهكذا فقد وجـدت العائلة الإنسـانية الكـريمة نفسهـا معززةً مكـرمة في ظـل المعجـز الإلهي ووجـدت المـرأة حقـوقهـا بعـد أن كشف القـرآن أسـرار المرأة وحدودها وكرامتها فقد عاملها القرآن بما يناسبها نفسياً .

قال سبحانه : ﴿من عمل صـالحاً من ذكـر أو انثىٰ وهو مؤمن فلنحيينّـه حياةً طيبة﴾ .

[سورة النحل ؛ ١٦ الآية : ٩٧] .

وبمعنىٰ آخر إن هذه المعجزة الخالـدة والدسـتور الخالـد استوعب كـل منـاحي الحياة ومـا يتصل بـالإنسـان والمجتمـع والـطبيعـة والغيب من عقيـدة وعبادة ومعاملة وحياة وممات في هذه الدنيا وفي الدار الآخرة .

﴿فآتـاهـم الله ثـواب الـدنيـا وحسن ثـواب الآخـرة والله يـحب المحسنين﴾ .

سورة آل عمران ؛ ٣ الآية : ١٤٨] .

ونحن إذ نتحدث عن المعجزة الـربانيـة الخالـدة لا بد أن نشيـر إلىٰ أن الجاهلية القديمة والحديثة جابهت القرآن بأساليب عديدة ظنّـاً منها أنهـا سوف تنهي مسيرة الإيمان وتنتصر لمصالحها ومن هذه الأساليب والأفكار :

١ ـ اعتبروا القرآن من تأليف النبي محمد (ص) .

٢ ـ نسبوا إلىٰ الرسول الأعظم السحر والجنون والرهبنة .

٣ ـ حاربوا الرسول الأكرم نفسياً وجسمياً ولا زالوا يحاربون تأريخه المجيد واتباعه الملتزمين .

٤ ـ أثاروا الشبهات حول حياة النبي (ص) وعلىٰ القرآن الحكيم بغية التشكيك بهما .

ولو أردنا أن نردّ علىٰ هذه الادعاءات نردها بإيجاز لأن البحث الطويل ـ كما أظن ـ غير مُجدٍ بعد أن ركع العلم الحديث بكل اطروحاته المتقدمة لعظمة القرآن المجيد فبدأ علماء الذرة والتكنولوجيا والطب والاحياء والنبات يعترفون بمعجزة القرآن حيث يدلهم علىٰ قمة الأسرار والخفايا من القوانين والسنن الطبيعية بأُسلوب مبسط مبين ومع كل ذلك لنا مع أصحاب هذه الادعاءات حديث موجز وقبل الحديث يمكن أن نقول أن النفوس المريضة تحاول وبشتىٰ الطرق أن تستنتج تبريرات للوقوف مع هذه الادعاءات وإن كانت هذه التبريرات غير مقنعة أساساً إنما يخدعون أنفسهم بها وهم يعلمون ولكن أمراض النفس وضغوط المجتمع الفاسد والمصالح الدنيوية كل ذلك يدفعهم للوقوف إلىٰ جانب الباطل فقد قال سبحانه واصفاً هذه الحالة أدق وصف :

﴿. . وجحدوا بها واستيقنتْها أنفسهم ظلماً وعلوًّا﴾ .

[سورة النمل ؛ ٢٧ الآية : ١٤] .

وبالضبط مثلهم مثل عمر بن سعد في واقعة كربلاء حيث قال :

أأترك ملك الري والري منيتي أم أرجع مأثوماً بقتل حسينِ

يعني أنه يعرف نفسه لو قتل الحسين بن علي (ع) سيكون آثماً لكن ضغوط الشهوات الدنيوية دفعته للعمل القبيح .

والآن الذين يقولون إن القرآن من تأليف محمد (ص) ليعلموا أنه رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب فقد قال تبارك وتعالىٰ :

**﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين﴾** .

[سورة الجمعة ؛ ٦٢ الآية : ٢] .

وقال أيضاً : **﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾** .

[سورة الأعراف ؛ ٧ الآية : ١٥٧] .

وقال كذلك : **﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتب ولا الإيمان﴾** .

[سورة الشورىٰ ؛ ٤٢ الآية : ٥٢] .

إضافة لذلك إنّ حياة الرسول (ص) الشخصية قبل البعثة لم يمارس فيها قول الشعر أو النثر بل لم يدخل في مؤسسة أو جامعة تؤهله لذلك وحتىٰ أولئك الذين يدخلون إليها في الوقت الحاضر لا يستطيعون أن يطرحوا شيئاً من هذه التعاليم الإلهية وبهذه القدرة الكبيرة . اضافة لذلك لو كان القرآن من تأليف محمد لانعكست علىٰ القرآن الحكيم حالات البشر المتعددة من ضعفٍ وغضب ونحن لا نرىٰ ذلك في الكتاب العزيز قال تبارك وتعالىٰ :

**﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾** .

[سورة النساء ؛ ٤ الآية : ٨٢] .

أما تنسيبهم للنبي (ص) السحر والجنون وما شابه فإنه دليل عجزهم ومن المعلوم أن المعجزة تختلف عن السحر اختلافاً بارزاً في عدة أمور منها أن الساحر يخلط بين أمور عديدة ليخرج أمام الأعين أمراً نتصوره غريباً

بطريقة الإبداع بالتأثير على شعور الإنسان أو عينه أو خياله وفي الآية : ﴿ . . . يخيل إليه من سحرهم أنها تسعىٰ﴾ في قصة موسىٰ والسحرة بينما المعجزة هي حقيقة واقعة بعيدة عن الخيال والشعور بل كما ترىٰ الشمس وتؤمن بها .

والساحر عادةً يصل إلىٰ هذا الفن عبر دراسة وإمكانيات ذاتية خاصة بينما المعجزة لا تحتاج لذلك لأنها قدرة تسلّم إليه من الله تعالىٰ عبر الأمين ، والساحر لا يكون وحده في هذا العمل بل ضمن مجموعة من السحرة يمكن أن يكشف أحدهم الآخر ويوضح ضعفه بينما المعجزة تجري علىٰ يد نبي مرسل لا تناقضه معجزة أُخرىٰ .

والسحرة لا تكون لديهم أهداف ولربما يسحرون أعين الناس لأغراض شخصية أو شهوات دنيوية لذلك نلاحظهم يكونون ذيولاً للطغاة وفي خدمة أغراضهم ومصالحهم بينما صاحب المعجزة له أهدافه المقدسة وعادة يكون في صف المعارضة للطغاة والمتسلطين ويستعمل المعجزة في محلها ليقنع الناس بأن رسالته من الله تعالىٰ وليست له أهدافٌ غيرها . علماً بأن الناس كانوا يتهمون الأنبياء عموماً بالسحر لعجزهم أمام المعاجز الخارقة للعادات والقوانين السائدة فيقولون إنه ساحر إنه مجنون إنه كاهن . . وبعد الإتهام بالسحر جرت عادة الظالمين أن يبتدئوا حرباً نفسية واقتصادية ثم بالتصفيات الجسدية لأولياء الله تعالىٰ فمن هنا نفهم أسباب الحروب والمعارك في زمن الأنبياء والأولياء فبعد انهزام الظالمين والمغرّر بهم أمام المعجزة الربانية يتوسلون بلغة الغاب العنيفة ليعيدوا كرامتهم المهدورة أمام قوة القرآن الكريم والمعاجز الأُخرىٰ التي جاء بها النبي (ص) والأنبياء (ع) من قبله ، وهكذا بالنسبة لرميهم النبي (ص) بالجنون بسبب المرض النفسي المتأصل في داخلهم ورغبة منهم للثأر لكبريائهم المسحوق .

قال تعالىٰ : ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنىٰ وفرادىٰ ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنّة إن هو إلاّ نذير لكم . . .﴾ .

[سورة سبأ ٣٤؛ الآية : ٤٦] .

﴿... وما صاحبكم بمجنون﴾ .

[سورة التكوير ؛ ٨١ الآية : ٢٢] .

ولنا في كلام النضر بن الحارث الـذي يعتبر من أعـداء النبي (ص) خير دليل حيث وقف بمكة خاطباً : «يـا معشر قـريش إنه والله قـد نزل بكم أمـر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلامـاً حدثـاً أرضاكم فيكم واصـدقكم حـديثـاً وأعـظمكم أمـانـةً حتىٰ إذا رأيتمـوه في صـدغيـه الشيب وجـاءكم بمـا جاءكم به قلتم ساحر، لا والله ما هو بسـاحر لقـد رأينا السحـرة ونفثهم وعقدهم وقلتم كاهن لا والله ما هو بكاهن قـد رأينا الكهنـة وتخالجهم وسمعنـا سجعهم وقلتم شاعر لا والله ما هو بشاعر قـد رأينا الشعـر وسمعنا أصنـافه كلهـا هزجـه ورجـزه وقلتم مجنون لا والله مـا هو مجنـون لقد رأينـا الجنون فمـا هو بخنقـه ولا وسوسته ولا تخليطه يا معشر قريش فانظروا في شـأنكم فإنـه والله لقد نـزل بكم أمر عظيـم»[٢٤] .

# (٧)
# القرآن والتحدي ، ما هو المعجز واين موقع الاعجاز ؟

**القرآن والتحدي :**

منهجية القرآن الكريم منهجية حضارية بعيدة كل البعد عن الأساليب البدائية الحادة بل قدّم الرسول الأعظم (ص) هذا المنهج الرباني الواضح مع دليله وبرهانه وبدأ يتحاجج مع الناس علىٰ ضوء عقليتهم وأكثر من مرة يتساءل القرآن المجيد عن سبب الخلقة والوجود والطبيعة ليفتح أذهان الناس كي يتوصلوا إلىٰ المعرفة والعلم ، يقول القرآن الحكيم :

**﴿أفلا ينظرون إلىٰ الإبل كيف خلقت، وإلىٰ السماء كيف رفعت، وإلىٰ الجبال كيف نصبت، وإلىٰ الأرض كيف سطحت﴾** .

[سورة الغاشية ؛ ٨٨ الآيات : ١٧ ـ ٢٠] .

وفي آية أخرىٰ : **﴿ألم نجعل له عينين، ولساناً وشفتين، وهديناه النجدين . .﴾** .

[سورة البلد ؛ ٩٠ الآيات : ٨ ـ ١٠] .

وقال عز وجل أيضاً : **﴿أفرأيتم ما تمنون، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾** .

[سورة الواقعة ؛ ٥٦ الآية : ٥٩] .

وكثيرة هذه الآيات الاستفهامية التي يتطرق القرآن لها ليثير عقل الإنسان فيفكر في الخلق ويعتبر ويهتدي إلىٰ طريق الصواب . .

ومن ثم كان يوضح (ص) للناس انه رسول الله إلىٰ البشرية أي الوسيط الذي ينقل للناس نصوص الله وما ظهور هذه المعجزة العظمىٰ أي القرآن الكريم والمعاجز الأُخرىٰ علىٰ يد الرسول الأعظم (ص) إلاّ من عند الله تعالىٰ فقد قال سبحانه :

**﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحىٰ إليّ أنّما إلٰهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾** .

[سورة الكهف ؛ ١٨ الآية : ١١٠] .

فالرسول (ص) بشر مثلنا وإنما اختاره الله واصطفاه لهذه المهمة الكبيرة . فهو إنسان من مجموع البشر وكأحدهم ولكن بفرق الوحي الأمين الذي يهبط إليه ليبلغه رسالات الرب الجليل **﴿إنما أنا بشر مثلكم يوحىٰ إليّ . .﴾** و **﴿ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾** و **﴿إن الله اصطفىٰ آدم ونوحاً﴾** .

ومظهر آخر من مظاهر القرآن انه كان يتحدث مع المنحرفين والطاغين بأسلوب المجابهة الهادئة التي تخاطب الوجدان ليعوا أمرهم فيقول سبحانه :

**﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً﴾** .

[سورة الفرقان ؛ ٢٥ الآية : ٣] .

وبمظهر آخر كان يعلن إفلاس الآلهة أمام قدرته البالغة فيقول : **﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾** .

[سورة الحج ؛ ٢٢ الآية : ٧٣] .

وبهذا الأسلوب الوجداني استطاع القرآن الحكيم أن يترك الآثار الواضحة في نفوس الناس مهما بلغوا حدةً وغلظة، وحتىٰ أنه ينقل في كتب السيرة أن بعض الكفار من شدة شوقهم وانجذابهم للقرآن الكريم (كانوا يأتون متخفين ويكمنون ليلاً خلف بيت النبي (ص) حتىٰ انتشار ضوء الصباح وذلك لكي ينصتوا إلىٰ تلاوة القرآن الساحرة للقلب التي تتدفق علىٰ لسان رسول الله (ص) وقد تكرر هذا الأمر كثيراً)[٢٥] .

هذا الأسلوب الحي هو السر في نجاح النبي (ص) في نشر دعوته فكأنما القرآن كان يمسك المعول الحديدي بأسلوبه ليحطم العقائد والعادات المنحرفة ويصحح بعض التقاليد والأفكار السائدة ليبني القيم الإيجابية في نفسية الإنسان والمجتمع فحارب الشرك والإشراك بقوله :

**﴿لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا﴾** .

[سورة الأنبياء ؛٢١ الآية: ٢٢] .

وردّ علىٰ نسبة الولد إليه تعالىٰ كما قالت اليهود والنصارىٰ بقوله :

**﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارىٰ المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم . .﴾** .

[سورة التوبة ؛ ٩ الآية : ٣٠] .

وقال أيضاً: **﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلٰهٍ إذاً لذهب كل إلٰه بما خلق ولعلا بعضهم علىٰ بعض سبحان الله عما يصفون﴾** .

[سورة المؤمنون ؛٢٣ الآية: ٩١] .

**﴿وما ينبغي للرحمٰن أن يتخذ ولداً، إن كل من في السمٰوات والأرض إلاّ آتي الرحمٰن عبداً، لقد أحصاهم وعدهم عدّاً﴾** .

[سورة مريم ؛١٩ الآيات : ٩٢ ـ ٩٤] .

وهكذا فتح القرآن الكريم نفوس الناس ليستخرج ما فيها من عقائد وأفكار سقيمة ليبدلها بالخير والأفكار الصحيحة وبين آونة وأخرى يذكّر القرآن الكريم هذه المسألة وبأسلوبه الشيّق ليتم اجتثاث جذور الفكر الفاسد والمنحرف من النفس الإنسانية ولن يترك أمراً غامضاً بعيداً عن التحليل بل يأتي إليه ويمدّ شعاعه الطاهر ليحرق به كل الجراثيم العالقة في بواطن الإنسان لتنمو بالتالي الحالة الإيجابية والصحيحة وتأخذ طريقها اليسير في الحياة وحتماً كان يدور في نفس الإنسان الريب والشك من أمر المعجزة العظمىٰ فالقرآن أكد علىٰ عقيدة المعاد يوم القيامة وهنالك يجري الحساب الدقيق للناس ومما لا شك فيه قد ظهرت حالة الريب لدىٰ الناس من هذه العقيدة فيأتي القرآن ليعالجها العلاج الحسن فيقول :

**﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ثم من نطفةٍ ثم من علقة ثم من مضغةٍ مخلّقة وغير مخلّقة لنبين لكم ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلىٰ أجلٍ مسمّىٰ ثم نُخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدّكم . . . ذلك بأن الله هو الحق وأنّه يحي الموتىٰ وأنّه علىٰ كل شيءٍ قدير، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور﴾** .

[سورة الحج ؛٢٢ الآيات: ٥ ـ ٧] .

وفي سورة يٰس وفي نفس الصدد قال عز وجل : **﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرةٍ وهو بكلِّ خلقٍ عليم﴾** .

[سورة يس ؛ ٣٦ الأيتان : ٧٨ ، ٧٩] .

بهذه الطريقة النفسية السامية التي تتلخص في كشف الخفايا الداخلية وإظهارها إلىٰ السطح بين آونة وأخرىٰ لتتلقىٰ من أشعة القرآن ما يقيها ويحصنها بل ليعطيها القرآن المناعة من الإنحراف بعد أن يقتل الجراثيم الفكرية القابعة في اللاشعور . وتكرار هذا الكشف عبر عدة آيات وعدة مواقف وعدّة مناسبات مما يطهّر النفس ويزكّيها من براثن الشياطين

والنفس . وبالفعل استطاع القرآن أن يحوّل استفسارات وشبهات الناس إلىٰ تساؤلات هادفة منهم من يريد الوصول إلىٰ الحقيقة ومنهم من لا يريد ذلك فعلم الناس التساؤل الهادف والجواب المقنع وكان يبين الحالات النفسية التي تراود المنافقين بالذات وانهم لا يريدون إلاّ اللغو والوقوف أمام المد الإسلامي الجارف فاضحاً نفسياتهم العنيدة بقوله سبحانه :

﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن وٱلغوا فيه لعلكم تَغلبون﴾ .

[سورة فصلت ؛ ٤١ الآية : ٢٦] .

ومع هذا شجع الإنسان علىٰ التفكير الجدي والمصيري بمسائل الاعتقاد بعيداً عن التعصب والمصلحة الذاتية والحالة السلبية وذلك للتوصل ـ بتجرد ـ إلىٰ عين الحقيقة ليؤمن الناس عن قناعة تامة بالمبادىء الإسلامية واستطاع بالفعل أن يذوّب هذه المشاحنات الشيطانية التي كانت تحتل قلوباً كثيرة وبذلك تحررت النفوس من العقائد الفاسدة وبدأ التغيير يشمل الجميع عدا أُولئك الذين طبع الله علىٰ قلوبهم فهم لا يرون الحق ولا يمتلكون أدوات الرؤية الصحيحة .

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أُولئك كالأنعام بل هم أضل أُولئك هم الغافلون﴾ .

[سورة الأعراف ؛ ٧ الآية : ١٧٩] .

وبهذا أصبح القرآن هو المعجزة الخالدة للنبي (ص) هذه المعجزة توّجت المعاجز النبوية السابقة ورفعت عنها وعن الأنبياء أيضاً ما شوهته أيدي اليهود الآثمة حول شخصياتهم الجليلة بالشكل الذي يناسب أهداف اليهود التخريبية فمسحت الآثار السيئة حول شخصيات الأنبياء وأبرزت تأريخهم الجهادي الناصع .

فبذلك أصبح القرآن العظيم وثيقة السماء القانونية التي نسخت الوثائق

السابقة وبيّنت أنها الوثيقة السماوية الصحيحة والخالدة .

**﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ .**

[سورة آل عمران ؛ ٣ الآية : ٨٥] .

فإذن المشروع الإسلامي أي القرآن الكريم هو المشروع الذي أراد الله له الحياة والبقاء فهو المشروع الوحيد الجدير بمواكبة البشرية علىٰ مدىٰ الأزمان والدهور وإنه الذي يستطيع أن يستوعب كل التطورات الحاصلة والتي تحصل في المستقبل بل إنه قادر علىٰ تمشية أمور العالم بالرغم من وفاة أو شهادة صاحب المعجزة الكبرىٰ وهو الرسول الأعظم (ص) وفي الواقع هذا سر من أسرار القرآن إنه يقود البشرية بالقيادة الإسلامية الواضحة عبر الزمن فالقرآن منهج دستوري قيادي جاء للبشرية جمعاء منذ زمن النبي (ص) وإلىٰ أن تقوم الساعة .

هذا الانجاز الإلهي الكبير بدأ بالتحدي وبأسلوب علمي مقنع ولم يتحدّ القرآن الكريم أولئك الذين عاشوا في زمن الرسالة الأول بل تحدىٰ جمع البشرية في أي زمان ومكان وبثقةٍ تامة منذ محاولاتهم الأولىٰ واعتبرها غير مجدية مسبقاً فقال عز من قائل :

**﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً﴾ .**

[سورة الإسراء ؛١٧ الآية: ٨٨] .

أي لو يتعاون الجن مع الإنس والواحد يمسك ظهر الثاني في سبيل إتيان مثل هذا الكتاب المعجز فلا يقدرون علىٰ ذلك أبداً .

وأكثر من مرة واجه المعاصرين لنزوله المبارك بالتحدي وطلب تعاون الجميع في الاتيان بمثله وبأسلوبه والرسول الأكرم (ص) بالثقة المتكاملة كان يبلّغ الرسالة ويؤكد انها من عند الله وليست من عند نفسه . .

فهذه هي الجولة الأُولىٰ بالتحدي حيث طلب الله الإتيان بمثل هذا القرآن ثم خُفِّف الطلب بتحدٍ ثان حيث قال :

**﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾** .

[سورة هود ؛١١ الآية: ١٣] .

وفي الجولة الثالثة خفّف الطلب إلىٰ سورة واحدة فقد قال الكتاب العزيز : **﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا علىٰ عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾** .

[سورة البقرة ؛٢ الآية:٢٣] .

وفي سورة يونس ؛١٠الآية: ٣٨ : **﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورةٍ مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾** .

وللعلم إنّ هذا التحدي يعتبر مهولاً بالنسبة للبلغاء والفصحاء آنذاك وبالفعل أثبتوا عجزهم أمام أبسط حالات الاستجابة لهذا التحدي أُولئك الذين كتبوا قصائدهم بماء الذهب وعلقوها بالكعبة فخراً واعتزازاً تراهم يتصاغرون أما سورة الكوثر ـ القليلة المقاطع والألفاظ ، الكبيرة المعاني ـ وبالفعل ما استطاع الأدباء أن يخوضوا المعركة البلاغية .

والمسألة ليست اعتباطية حيث أن الكلمات في القرآن الكريم ليست ذات مظهر واحد . وصحيح أن معناها المقصود هو المعروف والمتداول في كتب التفسير ولكن لكل حرفٍ ولكل كلمة في موقعها لها عدة مظاهر وكلما تقدم العلم واستجدت الثقافة المتطورة ازدادت إشراقة الكتاب العزيز وتبينت أُمور ما كان يعرفها ذلك العربي في الحجاز آنذاك وربما كنا نقرأ القرآن دون أن نعي هذه المعاني التي أبرزتها العلوم المعاصرة ـ وعلىٰ سبيل المثال ـ نمثل علىٰ عجل لأننا سنفرز حديثاً في الاعجاز العلمي ، فقد سمعت من أحد العارفين المتكلمين وكان يفسر الآية الكريمة :

﴿مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان﴾ .

[سورة الرحمن ؛ ٥٥ الآية : ١٩ ، ٢٠].

قال إن العلم الحديث اكتشف أن في البحار والمحيطات آباراً من الماء العذب تنبع منها المياه العذبة وهي تسير في اتجاه يعاكس التيار العام للماء المالح في البحر بحيث لا يختلط الماء الحلو بالماء المالح السائد في البحار وبينهما فاصل لا يبغي الواحد علىٰ الآخر بل كلّ من الماءين يحافظ علىٰ خصوصيته .

هذا التفسير ما كنا نعرفه سابقاً قبل اكتشاف العلم ، المهم أن المتضررين بالرسالة والمعاندين جمعوا قواهم في عدة محاولات حثيثة ليأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سورٍ مفتريات أو بسورةٍ من مثله ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً وحقاً إن مجرّد التحدي هذا هو انتصار للقرآن الكريم فهو يتحدىٰ بثقة عالية إنها ثقة المبدأ المنتصر . .

يقول الدكتور واجليري الأستاذ في جامعة نابل في كتابه محمد ذلك النبي الذي لا بد أن يُعرف من جديد : (إن الكتاب السماوي للإسلام نموذج معجز لا يمكن تقليده وهو غير مسبوق في أسلوبه وتنظيمه في الآداب العربية وتأثيره في الروح الإنسانية ناشىء من امتيازه وروعته فكيف يمكن أن يكون مثل هذا الكتاب من إبداع محمد (ص) )[٢٦] .

والقرآن الكريم ليس كتاباً علميّاً يبحث في مسائل العلوم الطبيعية وإنما هو دستور الحياة وإنما يشير إلىٰ سنن الطبيعة وإلىٰ بعض العلوم للمناسبة والأهمية فكان السبّاق والمبادر في الإشارات العلمية والأدبية يقول الشيخ البوطي : (كان أكثر الميادين الفكرية التي يتسابق فيها أرباب الفصاحة والبيان هي ميادين الفخر والحماسة والموعظة والمدح والهجاء وكان أقل هذه الميادين اهتماماً منهم وحركة بهم ميادين الفلسفة والتشريع ومختلف العلوم وذلك هو السر في أنك قلما تجد الشعر يقتحم شيئاً من

هذه الميادين الخالية الأخرىٰ ، ومهما رأيت بليغاً كامل البلاغة والبيان فإنه لا يمكن أن يتصرف في مختلف الموضوعات والمعاني علىٰ مستوىٰ واحد من البيان الرفيع الذي يملكه بل يختلف كلامه حسب اختلاف الموضوعات التي يطرقها فربما جاء بالغاية من البراعة في معنىٰ من المعاني فإذا انصرف إلىٰ غيره انخذل عن تلك الغاية ووقف دونها غير أنك لا تجد هذا التفاوت في كتاب الله تعالى فأنت تقرأ آيات منه في الوصف ثم تنتقل إلىٰ آيات أخرىٰ في القصة وتقرأ بعد ذلك مقطعاً في التشريع واحكام الحلال والحرام فلا تجد الصياغة خلال ذلك إلا في أوج رفيع عجيب من الأشراق والبيان وتنظر فتجد المعاني كلها لاحقة بها شامخة إليها)[٢٧] .

## ما هو المعجز ؟

المعجز أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة وإنما قلنا أمر لأن المعجز قد يكون إتياناً بغير المعتاد وقد يكون منعاً من المعتاد . وإنما قلنا خارق للعادة ليتميز به المدعىٰ عن غيره وإنما قلنا مقرون بالتحدي لئلا يتخذ الكاذب معجزة من مضىٰ حجة لنفسه وليتميز عن الإرهاص والكرامات وإنما قلنا مع عدم المعارضة ليتميز عن السحر والشعبذة[٢٨] .

يعني ذلك ان المعجز إنما يخالف المعتاد أي يخالف القوانين المألوفة فهو يخرقها أي لا يخضع لها وإنما يكون بقدرة صاحب المعجزة قانوناً له اسبابه ومسبباته ويمتاز بقوة غالبة للقوانين المألوفة السائدة علماً بأن باب التحدي مفتوح علىٰ مصراعيه في كل الفنون أدباً وعلماً وبلاغة وفناً وهكذا .

## أين موقع الاعجاز ؟

سندرس المعجزة الكبرىٰ ـ القرآن الكريم ـ من الزوايا التالية :

١ ـ معجزة القرآن الأدبية البلاغية .

٢ ـ معجزة القرآن العلميـــة .

٣ ـ معجزة القرآن الغيبية .

٤ ـ معجزة القرآن التربوية والنفسية .

٥ ـ معجزة القرآن التشريعية .

## ١ـ معجزة القرآن الأدبية البلاغية :

إن التاريخ يقدم لنا حقائق كثيرة ومن الحقائق التي نحن بصددها يقول إن القرآن الكريم نزل في الجزيرة العربية وكان العرب قد بلغوا أوج عظمتهم وبراعتهم الأدبية والبلاغية حتىٰ أن الشعر الجاهلي كان يكتب بماء الذهب ويعلق في الكعبة من شدة الإعجاب والاعتزاز ـ كما ذكرنا سابقاً ـ ومع كل هذا التقدم اللغوي في استعمال الألفاظ بالشكل الفني المتطابق لمقتضىٰ الحال والملائم للذوق السليم الحساس بقدرة أدائية فائقة من الفصاحة والبلاغة والأدب وما تحويه هذه الفنون اللغوية من إبداع وتنسيق ودقة في الجرس الموسيقي للألفاظ ومعانيها الدالة عليها مع كل هذا نجد أن البلغاء الفصحاء والشعراء العرب حينما نزل القرآن الكريم اعترفوا بتقصير تقدمهم هذا ووقفوا مبهورين مندهشين للعظمة الكبرىٰ من الناحية الأدبية في القرآن العزيز .

وحتى اعداء الرسالة كانوا يقفون عاجزين عن المواجهة البلاغية للقرآن حيث فشلوا أكثر من مرة وضمن مجالات عديدة والتاريخ يشهد بذلك يروي صاحب مجمع البيان (رحمه الله) إن طغاة قريش خافوا من موسم الحج (المعتاد) أن يأتي الناس إلىٰ بني هاشم ويسمعوا ألفاظ القرآن الكريم من النبي محمد (ص) وينتشر أمره لذلك اجتمعوا في دار الندوة وقرروا أن يسقطوا هيبة الرسول والقرآن الكريم باتهامات رخيصة فقال لهم الوليد في الاجتماع : إنكم ذوو أحساب وذوو أحلام وإن العرب يأتونكم فينطلقون من عندكم علىٰ أمر مختلف فأجمعوا أمركم علىٰ شيء واحد، ما تقولون في هذا الرجل ؟ .

قالوا : نقول انه شاعر ! فعبس عندها وقال قد سمعنا الشعر فما يشبه

قوله الشعر فقالوا : نقول إنه كاهن ! قال إذا تأتونه فلا تجدونه يحدث بما تحدث به الكهنة قالوا : نقول إنه لمجنون ! فقال إذا تأتونه فلا تجدونه مجنوناً .

قالوا : نقول إنه ساحر ! قال وما الساحر : فقالوا بشر يحببون بين المتباغضيْن ويبغضون بين المتحابيْن فقال فهو ساحر[٢٩] .

المهم إن اعداء الرسالة والمخططين لضرب الشريعة كانوا يترددون في نوعية التهمة التي يحاولون أن يلصقوها بالنبي ويترددون في الوقوف أمام القرآن من الناحية البلاغية فلما تبيّن عجزهم الكامل توسلوا بأساليب أخرى منها الملاحقة والتصفية الجسدية أعني الحروب والمداهمات استجابة لحقدهم الدفين وانتصاراً لمصالحهم المهددة بالانهيار فلذلك نلاحظ أنّ القرآن الكريم الذي نزل على الرسول الأكرم (ص) يتضمن المشروع الإلهي للبشر من كل النواحي العبادية والاجتماعية والعقوبات وقواعد الحرب والزحف وكيفية الصلح والمعاهدات والممارسات الاخلاقية والقوانين الاقتصادية وقصص الأنبياء والعبرة عن الماضين وهكذا نلاحظ كل ذلك ضمن تسلسل أدبي فني رائع ، كل مجال من هذه المجالات قد أعطي حقه الكامل توضيحاً وبياناً وعلةً ودليلاً في العقائد والتشريع والأخلاق والمعاملات في الحياة وحال الموت والوصية والوكالة والكفالة وهكذا أبواب الحياة العملية والفكرية ، وتبرز عظمة القرآن البلاغية في استعمال الفنون بصياغة دقيقة تمتاز بالايجاز والقوة والرصانة والحسم في المواقف المعيّنة التي تتطلب فيها ذلك حتى في الأسلوب القصصي لبعض الأحداث الماضية كقصة أصحاب الكهف أو قصة النبي موسى (ع) فنلاحظ متانة الأسلوب في تبيان القصة مما يجعلها تمتاز بكل المميزات الحسنة للأسلوب القصصي الناجح من الإثارة والوضوح والربط المنسجم ما بين العبارات نفسها وما بين الألفاظ والمعاني من جهة أخرى يقول الرافعي في كتابه : (إن القرآن الكريم إنما ينفرد بأسلوبه لأنه ليس وضعاً إنسانياً البتة ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقةٍ تشبه أسلوباً من أساليب العرب)[٣٠] .

ويروي لنا هشام الصحابي الجليل للإمام الصادق (ع) : (اجتمع في بيت الله الحرام أربعة من مشاهير الدهرية وأعاظم الأدباء وكبار الزنادقة وهم عبد الكريم بن أبي العوجاء وأبو شاكر ميمون بن ديصان وعبد الله بن المقفع وعبد الملك البصري فخاضوا في الحج ونبي الإسلام وما يجدونه من الضغط علىٰ أنفسهم من قوة أهل الدين ثم استقرت آراؤهم علىٰ معارضة القرآن الذي هو أساس الدين ومحوره . . فتعهد كل واحد منهم أن ينقض ربعاً من القرآن إلىٰ السنة الآتية . . . ولما اجتمعوا في الحج القابل وتساءلوا عما فعلوا اعتذر ابن أبي العوجاء قائلاً أنه أدهشته آية : ﴿**قل لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**﴾ فأشغلته بلاغتها وحجتها البالغة .

وآعتذر الثاني قائلاً أنه أدهشته آية : ﴿**ضُرب مثلٌ فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضَعُف الطالب والمطلوب**﴾ (آية : ٧٣من سورة الحج) فأشغلته عن عمله . . .

وقال ثالثهم أدهشتني آية نوح : ﴿**وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت علىٰ الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين**﴾ (آية : ٤٤ من سورة هود) فأشغلتني الفكرة عن غيرها . وقال رابعهم أدهشتني آية يوسف : ﴿**فلما استيأسوا منه خلصوا نجيًّا**﴾ (آية : ٨٠ من سورة يوسف) فأشغلتني بلاغتها الموجزة عن التفكير في غيرها .

قال هشام وإذا بأبي عبد الله الصادق (ع) يمر عليهم ويومىء إليهم قائلاً : ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً**﴾ .

[سورة الإسراء ١٧؛ الآية : ٨٨][٣١] .

ومما نستكشفه من عمالقة الأدب والبلاغة في المثل المار الذكر ان القرآن وثيقة متماسكة منسجمة بعضها مع البعض الآخر بالأسلوب والأداء والمعنىٰ حيث أنه يتناول عدة موضوعات مختلفة تاريخية وقانونية وتشريعية

واخلاقية وغيرها بروحٍ متفاعلة متماسكة أدباً وموضوعاً وفي خلال المدة الطويلة التي استغرقت نزول الكتاب العزيز وهي ثلاثة وعشرين عاماً دون أن نرىٰ تفاوتاً أو اختلافاً أو تغييراً في المستوىٰ والطريقة الأدائية مطلقاً علىٰ عكس ما يؤلف الأدباء حيث يراجعون ويستبدلون ألفاظاً بدل ألفاظ وصوراً بدل صور بينما القرآن الكريم نزل كما قد نزل وبقي كما هو الآن وحالة التحدي لن تنتهي أبداً بل تبقىٰ ما بقي الليل والنهار وكلما تجدد الزمان نلاحظ القرآن يزداد إشراقاً ونوراً وثباتاً وتألقاً ومهما تطورت أساليب الأدب والبلاغة نرىٰ القرآن العظيم هو المقياس الخاص الذي تتوفر فيه كل عناصر القوة الإبداعية ـ فنياً وبلاغياً ـ (فالتعبير القرآني يظل جارياً علىٰ نسق رفيع واحد من السمو في جمال اللفظ ورقة الصياغة وروعة التعبير رغم تنقله بين موضوعات مختلفة من التشريع والقصص والمواعظ والحجاج والوعد والوعيد وتلك حقيقة شاقة بل لقد ظلت مستحيلة علىٰ الزمن لدىٰ جميع من عرفنا وسمعنا بهم من فحُول العربية والبيان)[٣٢] .

حتىٰ يظهر ذلك بوضوح علىٰ النفس الإنسانية فإنها لا تملّ من القراءة أو الاستماع للآيات الكريمة فالإنسان يميل إلىٰ التلاوة والاستماع دون ملل في التكرار . فالقوة الإبداعية بالبيان والأداء تسيطر سيطرةً تامة علىٰ مشاعر الإنسان فلن يمل الإنسان مهما قرأ أكثر أو استمع أكثر للآيات الكريمة بل في كل مرةٍ من تداول القرآن الكريم يكتشف الإنسان أثراً جديداً علىٰ نفسيته وروحيته وكلما تدبر الإنسان وتفكر في القرآن أكثر كلما شعر بهذا الاحساس الروحي العالي في داخله وكلما كان الشخص عالماً متفهماً أكثر كان إدراكه لابعاد وأسرار القرآن أكثر فيشعر بالانعكاسات القرآنية علىٰ نفسيّته ويلتذّ لذلك حيث يطمئن اطمئنان المؤمنين ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ .

وهذه السيطرة علىٰ المشاعر قد تكون من أسرار القوة لدىٰ الكتاب الكريم حيث السباكة الفنية الدقيقة للألفاظ الدالة علىٰ المعاني المقصودة وحتىٰ أُولئك المنافقين والكافرين كانوا يتأثرون بالاستماع للآيات المباركة

وكثير منهم من أعاد النظر في عقيدته بعد القراءة أو الاستماع فعدل عن طريقته العدائية إلىٰ الالتزام بالكتاب الحكيم ، ينقل لنا التاريخ أن الشعراء الكبار في الجاهلية كانوا يخجلون من أنفسهم حينما يقرأون أو يسمعون آيات الله العظيمة وتسيطر علىٰ أنفسهم ببلاغتها الساحرة وقوتها البيانية حتىٰ قيل لأحد الشعراء الجاهلين ـ واظنه لبيد ـ حينما سمعت اخته الأديبة أيضاً بالآية الكريمة :

﴿اقتربتِ الساعةُ وانشقّ القمر﴾ .

[سورة القمر : ٥٤ الآية : ١] .

جاءت لاخيها قائلة قم وأنزل معلقتك الذهبية واخجل من محمد فهذه الآية الكريمة تحمل عدة وجوه بلاغية بكلماتها القليلة علىٰ عكس معلقتك الطويلة .

ويذكر السيد الزنجاني في كتابه بصدد المعلقات السبع المشهورة قوله : (فإذا أنشأ ما هو أبلغ منه رفعوا الأول وعلقوا الثاني فلما نزل قوله تعالىٰ : **﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءكِ ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت علىٰ الجودي﴾** رفعوا المعلقات من الكعبة واخفوها من الفضيحة)(٣٣) .

وللعلم أن البلاغة بمحاسنها اللفظية وحسن استعمال التشبيه والتزويق والايجاز وما شابه من فنون الأدب والتعبير كل ذلك وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني فالقرآن لم ينزل لخوض مباريات أدبية وبلاغية وإنما نزل دستوراً للحياة من لدن الله العزيز الكريم فإحدىٰ مظاهر اعجازه هي القضية البلاغية ولأن العرب كانوا في قمة تطورهم اللغوي فكان فرسان الأدب والبلاغة يتضاءلون أمام المتانة البلاغية للقرآن المجيد لذلك ـ كما قلنا ـ سيطر القرآن علىٰ الكثير منهم نفسياً وشعورياً فكانوا يقفون أمام آية واحدة من القرآن حيارىٰ من شدة الدقة في التعبير . . . فيعلن البعض اسلامه كما فعل السحرة أمام موسىٰ فأعلنوا ايمانهم المطلق مما دفع فرعون ليبطش بهم .

كما قال سبحانه : ﴿فألقي السحرة ساجدين، قالوا آمنا برب العالمين﴾ .

[سورة الشعراء ؛ ٢٦ الآيتان: ٤٦ ، ٤٧] .

والبعض الآخر كان يدوس علىٰ ضميره وينتقم لمصالحه وعقيدته الخاوية لعصبيةٍ جاهلية منه فيترك البلاغة والأدب منهزماً من الساحة ليدخل إليها بالعنف والغلظة فصارت المعارك والحروب بعد الفشل الذريع للوقوف أمام القرآن أدبياً بلاغياً .

فقد قال تبارك وتعالىٰ : ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلىٰ عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرىٰ لقومٍ يؤمنون﴾ .

[سورة العنكبوت ؛ ٢٩ الآيتان : ٥٠ ، ٥١] .

فهو من عند الله وقد أُحكمت آياته إحكاماً دقيقاً لا يمكن للبشر مهما بلغوا أن يصلوا إلىٰ مستوىٰ التحدي له :

﴿كتاب أُحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير﴾ .

[سورة هود ؛ ١١ الآية: ١] .

ولنأخذ مثلاً قوله تعالىٰ : ﴿بل نقذف بالحق علىٰ الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . . .﴾ .

[سورة الأنبياء ؛ ٢١ الآية: ١٨] .

وفيها : كأن الحق ـ وهو معنىٰ مجرد ولعظم شأنه ـ قذيفة ثقيلة ترمىٰ علىٰ الباطل الهش الواهي فيرديه جثة هامدة وقد استخدمت في هذا المشهد العظيم للصراع بين الحق والباطل (الفاء) التعتيبية ولم تستخدم (ثمّ) أو غيرها لطيّ المشاهد بسرعة وبيان قدرة الحق الفائقة علىٰ دمغ الباطل والسرعة الخاطفة التي تم خلالها إزهاقه والإزهاق هو خروج الروح لبيان

حتمية انهيار الباطل وانعدام وجوده وبطلان أثره .

ولقد أجاد السيد الرضي حين لاحظ ان : (الدمغ إنما يكون عن وقوع الأشياء الثقال على طريق الغلبة والاستعلاء فكأن الحق أصاب دماغ الباطل فأهلكه)[٣٤] .

فحرف الفاء له دلالته وحسابه وموقعه واختيار المفردات الدالة على صميم معناها وأنت تحتار أمام النص المبارك هل المعنى يعكس اللفظ أو اللفظ يعكس المعنى المقصود وكأنهما متساويان بالتأثير والظلال المتبادلة من الواحد للآخر .

وهكذا الآيات القرآنية الأخرى تجسد البلاغة والأداء الأدبي في أرفع صوره وأرقى أشكاله .

## ٢ـ معجزة القرآن العلمية :

القرآن الكريم ليس كتاباً مختصاً بعلم من العلوم فلا يتلخص هدفه لإثبات شيء علمي أو نفيه ككتب الهندسة والطب والأحياء لأن العلوم هي نتاج العقل البشري فمهما اجتهد العقلاء استطاعوا أن يذللوا صعوبات الطبيعة ويخترعوا وسائل واجهزة تخدم البشرية جمعاء بينما القرآن كتاب الحياة هدفه تنظيم حياة الفرد والمجتمع من كل النواحي أي كل ما يتصور ضمن الحياة الدنيوية والأخروية من اجتماع وسياسة وثقافة واقتصاد وتربية نجده في القرآن المجيد قانوناً ودستوراً وطريقة لهذه الناحية وتلك الظاهرة . . فالقرآن يبني العقيدة الصحيحة في النفس ويهدم التراكمات الفكرية السلبية في ذات الإنسان وهو يبني لسس الأخلاق في الإنسان والمجتمع ويحارب النفاق والالتواء السلوكي ويجاهد الأعداء والمنافقين .

مع كل ما تقدم نلاحظ أن القرآن العزيز ينفرد بالاعجاز العلمي حيث يشير في بعض آياته الكريمة إشارات علمية وهو مستطرد في الكلام أثناء التشبيهات أو لتقريب فكرة معينة هدفها البناء الايماني ومع ذلك نلاحظ ان

هـذه الإشارات العلميـة قد أثبتهـا العلم الحـديث اليـوم بعـد جهـدٍ متـواصـل ولفتـرة طويلة وتبقىٰ بعض الأسـرار العلمية في القـرآن عسيـرة الانكشـاف من قبـل العلم والعلماء وحتىٰ اليـوم وبمعنىٰ آخـر لا زال التـطور العلمي عـاجـزاً عن كشف أسرار هذه الإشارات العلمية وحتىٰ الكلمة الواحـدة في موقعهـا لها دلالـة علمية معينـة يكتشفهـا العلم هـذا اليـوم ويقف إجـلالاً أمـامهـا ويـزداد إعجـاباً بهـذا الكتاب العـظيم بل حتىٰ الحـرف الواحـد في موقعـه لـه دلالتـه العلمية الواضحة كالتاء مثلاً فإنها تاء التأنيث أحيـاناً ، هـذا الحرف البسيط لـه دلالته العلمية يقرّها العلم هذا اليوم بعد أن كان يمرّ عليها مرور الكرام فنقـرأ مثلاً في قضية بيت العنكبـوت التي سنتحدث عنهـا قريبـاً كيف أن تاء التـأنيث لها دلالتها العلمية .

فمن هنــا يجـزم العقــلاء بـأن الـرسـول الأُمي (ص) في تلك البيئـة المتخلفة عن أساليب التطور العلمي والتكنولـوجي لا يمكنه أن يـأتي من عنده بهـذا الكتاب الـذي يحوي أسـراراً علمية يكتشفهـا العلم المتـطور في القـرن العشـرين أو لا تزال غـامضة عليـه حتىٰ الآن ولربمـا تبقىٰ أسراراً خـاصـةً لن يفهمها العلم مهما تطور وتقدم كما في معرفة الروح .

**﴿ويسـألونـك عن الروح قـل الروح من أمـر ربي وما أُوتيتم من العلم إلاّ قليلاً﴾** .

[سورة الإسراء ؛ ١٧ الآية : ٨٥] .

تبقىٰ الروح لغزاً محيـراً وان وسائلنـا العلمية لا تنهض بمعـرفتها لأنـه : **﴿وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً . .﴾** .

فيكون إذن هذا الإعجاز العلمي من الدلائـل الواضحـة لمعجزة القـرآن بأنه منزل من قبل القدير العليم بديع السمٰوات والأرض .

**﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾** .

[سورة النساء ؛٤ الآية : ٨٢] .

يقول الدكتور (واجلري) من جامعة نابل :

القرآن : (يضم آيات عديدة تبين القوانين الطبيعية والعلوم المختلفة وتناوله لهذه المواضيع العلمية دقيق وبعيد عن الأخطاء إلىٰ الحد الذي تهبط أمامه منزلة رجال العلم والفلاسفة والسياسيين)[٣٥] .

مع العلم ان القرآن كتاب تربية وهداية وليس كتاباً علمياً وإنما يتناول العلم في بعض الآيات للتوضيح والتقريب ـ كما مر ـ .

ويمكن أن نستعرض بعض هذه الأمثلة لتوضيح المسألة :

( أ ) تقول الآية الكريمة : ﴿يا أيها الناسُ ضرب مثلٌ فآستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو آجتمعوا له وإن يسلُبْهُمُ الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ .

[سورة الحج ؛ ٢٢ الآية : ٧٣] .

وهذا مثل ما زال معجزاً للعلم والعلماء بعد ألف سنة من تطور العلم والتكنولوجيا فمن يستطيع أن يخلق ذبابة علىٰ هوانها وتفاهتها ؟ وإذا سلبتك الذبابة حياتك بمرض تنقله إليك فمن يستطيع أن يرد لك تلك الحياة ؟ بل إنها لو سلبتك ذرةً من النشاء من طعامك فإن عباقرة الكيمياء لو اجتمعوا لا يستطيعون استرداد هذه الذرة من امعائها لأنها تتحول فوراً إلىٰ سكر بفعل الخمائر الهاضمة فما أضعف الطالب والمطلوب، ما أضعف عبقري الكيمياء وما أهون الذبابة وما أتفه ذرة النشاء في عالم هائل بلا حدود)[٣٦] .

(ب) في أكثر من آية حينما يذكر سبحانه حواس الإنسان يتقدم ذكر السمع علىٰ البصر هذا التقديم له دلالته العلمية يقول الدكتور مصطفىٰ محمود : (وهي مسألة يعرف سرها الآن علماء الفسيولوجيا والتشريح فهم وحدهم يدركون أن جهاز السمع أرقىٰ واعقد وأدق وأرهف من جهاز الأبصار ويمتاز عليه بإدراك المجردات كالموسيقىٰ وإدراك التداخل مثل حلول عدة نغمات داخل بعضها البعض مع القدرة علىٰ تمييز كل نغمة علىٰ انفراد كما

تميز الأم صوت بكاء ابنها من بين زحام هائل من آلاف الأصوات المتداخلة . . يتم هذا في لحظة . . أما العين فهي تتوه في زحام التفاصيل ولا تعثر على ضالتها يتوه الابن عن عين أُمه في الزحام ولا يتوه عن سمعها والعلم يمدنا بألف دليل على تفوق معجزة السمع على معجزة البصر ولم يكن هذا العلم موجوداً أيام نَزَل القرآن)(٣٧) .

يقول تعالىٰ : ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ .

[سورة النحل ؛١٦ الآية: ٧٨] .

وفي آية أُخرىٰ : ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كلُّ أُولئك كان عنه مسؤولا﴾ .

[سورة الإسراء ؛ ١٧ الآية: ٣٦] .

فمجرد تقديم السمع على البصر لفظاً له دلالته العلمية الدقيقة .

(جـ) تقول الآية المباركة : ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوتِ لبيتُ العنكبوتِ لو كانوا يعلمون﴾ .

[سورة العنكبوت ؛ ٢٩ الآية: ٤١] .

فهنا نرىٰ القرآن يختار صفة التأنيث حينما يتحدث عن العنكبوت فيقول : ﴿كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾ وقد كشف العلم مؤخراً أن أُنثىٰ العنكبوت هي التي تنسج البيت وليس الذكر وهي حقيقة بيولوجية لم تكن معلومة أيام نزول القرآن .

والحقيقة الثانية هي وصف بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت ولم يقل القرآن خيط العنكبوت أو نسيج العنكبوت وإنما قال بيت العنكبوت وهي مسألة لها دلالة ولها سبب . . والعلم كشف الآن بالقياس : إن خيط العنكبوت أقوىٰ من مثيله من الصلب ثلاث مرات وأقوىٰ من خيط الحرير

وأكثر منه مرونة فيكون نسيج العنكبوت بالنسبة لاحتياجات العنكبوت وافياً بالغرض وزيادة ويكون بالنسبة له قلعةً أمينة حصينة فلماذا يقول القرآن : ﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾ ولماذا يختم الآية بكلمة ﴿لو كانوا يعلمون﴾ لا بد أن هنالك سراً .

والواقع أن هناك سراً بيولوجياً كشف العلم عنه فيما كشف لنا مؤخراً فالحقيقة ان بيت العنكبوت هو أبعد البيوت عن صفة البيت بما يلزم البيت من أمان وسكينة وطمأنينة فالعنكبوت الأنثىٰ تقتل ذكرها بعد أن يلقحها وتأكله . . والأبناء يأكلون بعضهم بعضاً بعد الخروج من البيض ولهذا يعمد الذكر إلىٰ الفرار بجلده بعد أن يلقح أنثاه ولا يحاول أن يضع قدمه في بيتها .

وتغزل أنثىٰ العنكبوت بيتها ليكون فخاً وكميناً ومقتلاً لكل حشرةٍ صغيرةٍ تفكر أن تقترب منه وكل من يدخل البيت من زوار وضيوف يقتل ويلتهم . . إنه ليس بيتاً إذن بل مذبحة يخيم عليها الخوف والتربص وإنه لأوهن البيوت لمن يحاول أن يتخذ منه ملجأ والوهن هنا كلمة عربية تعبر عن غاية الجهد والمشقة والمعاناة وهذا شأن من يلجأ لغير الله ليتخذ منه معيناً ونصيراً . .

ذروة في دقة التعبير وخفاء المعاني ومحكم الكلمات وأسرار العلوم مما كان معروفاً أيام النبي ومما لم يعرف إلا بعد موته بألف عام . . إعجاز قطعي لا شك فيه يتحدىٰ العقل أن يجد مصدراً لهذا العلم غير المصدر الإلهي(٣٨) .

( د ) في الآية القرآنية : ﴿والسماء ذاتِ الرجع، والأرضِ ذات الصدع﴾ .

[سورة الطارق ؛ ٨٦ الأيتان : ١١ ، ١٢] .

يصف القرآن الكريم ـ السماء في الآية المباركة ـ بأنها ترجع ما يصعد إليها (بخار الماء ترجعه إلينا مطراً) ونعلم الآن ان الأمواج اللاسلكية

والتلفزيونية ترتد هي الأخرىٰ من السماء إذا أُرسلت إليها بسبب انعكاسها علىٰ الطبقات العليا الأيونية . . لهذا نستطيع أن نلتقط اذاعات لندن وباريس وجميع المحطات في الأرض بعد انعكاسها ونستمع إليها ونشاهدها ولولا ذلك لضاعت وتشتتت ولم نعثر عليها فالسماء أشبه بمرآة عاكسة ترجع ما يبثّ إليها فهي السماء «ذات الرجع» والأرض «ذات الصدع» أي تنصدع ليخرج منها النبات ونافورات الغاز الطبيعي والبترول وينابيع المياه الكبريتية ونفث البراكين(٣٩) .

(هـ)عدد من الآيات القرآنية يتحدث عن عالم الأفلاك مثلاً قوله تعالىٰ : **﴿أو لم ير الذين كفروا أنّ السمٰوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيءٍ حي﴾** .

[سورة الأنبياء ؛ ٢١ الآية : ٣٠] .

وفي مراجعة أحدث النظريات في نشوء الأرض والكواكب السيارة نراها تذهب إلىٰ أن الشمس كانت كبيرة جداً ، كتلة ملتهبة في الفضاء فمرّ بالقرب منها نجم قبل قرون عديدة وبسبب القوىٰ الجاذبة صار تخلخلاً في الضغط أثّر علىٰ الشمس فتصدّعت فانفصلت أجزاء متناثرة من الشمس ظلت تدور حولها أي ما انفلتت من دائرتها الجاذبة فبقيت تدور حولها بانتظام وبردت شيئاً فشيئاً حتىٰ افتقدت حرارتها ولهيبها فأصبحت الكواكب السيارة وأصبحت الأرض ، يقول العالم البريطاني جينز : (مرّ نجم بالقرب من شمسنا فأوجد فيها ضباباً مهيباً وأصبحت المادة المنفصلة من الشمس بصورة سيجارة طويلة ثم انقسمت هذه المادة فالقسم الأكبر من السيجارة كوّن السيارات الأضخم والقسم الأصغر منها كون السيارات الأقل حجماً)(٤٠) .

وجاء في المجمع : (تقديره كانتا ذواتي رتق فجعلناهما ذواتي فتق والمعنىٰ كانتا ملتزقتين منسدتين ففصلنا بينهما بالهواء)(٤١) .

( و ) قال تبارك وتعالىٰ : **﴿وإنّ لكم في الأنعام لعبرةً نسقيكم مما في**

**بطونه من بين فرثٍ ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾** .

[سورة النحل ١٦ ؛ الآية : ٦٦] .

يكشف القرآن الكريم عن سرٍ عميق من أسرار الطبيعة الحيوانية حيث يبين طريقة تحضير اللبن من الحيوان مما نلاحظ أن العلم بأساليبه الحديثة وأدواته المتطورة وصل إلىٰ نفس النتائج يقول الدكتور موريس بوكاي :

إن المواد الأساسية التي تؤمّن للبدن ما يحتاج من غذاء تأتي من التبدلات الكيميائية الحاصلة في طول جهاز الهضم وتتكون هذه المواد من العناصر الموجودة فيها تحتويه الامعاء وعندما تصل هذه العناصر في الامعاء إلىٰ مرحلة التغيير الكيميائي تمر عبر جدار الامعاء نحو التيار العام المتحرك إن هذا العبور يتم عن طريقين : إما مباشرة بواسطة العروق اللمفاوية وإما بطريق غير مباشر بواسطة الدوران وفي هذه الصورة تذهب هذه المواد أولاً إلىٰ الكبد وتحدث فيها هناك بعض التغيرات ثم تخرج منه لتلتحق بالتيار العام وعلىٰ هذا فإن جميع المواد تنتقل بواسطة حركة الدم والعوامل المكونة للبن تترشح من الغدد المغروسة في الثدي وتتغذىٰ هذه الغدد من نتائج هضم الغذاء التي تأتيها بواسطة حركة الدم إذن أصبح للدم امتصاص ونقل المواد المستخرجة من الأغذية لحمل الغذاء إلىٰ غدد الثدي المولدة للبن وهو نفس الدور الذي يقوم به لخدمة أي عضو آخر . . . إن هذه الحقيقة الرائعة من نتائج ومنجزات كيمياء وفسلجة الهضم التي لم تكن معروفة علىٰ الاطلاق في زمان النبي (ص) وقد بدأت معرفة ذلك في النهضة الحديثة عندما اكتشفت الدورة الدموية بعد الوحي القرآني بقرون)[٤٢] .

( ز ) قال سبحانه وتعالىٰ : **﴿لا أُقسم بيوم القيامة، ولا أُقسم بالنفس اللوامة، أيحسب الإنسان ألّن نجمع عظامه، بلىٰ قادرين علىٰ أن نسوّي بنانه﴾** .

[سورة القيامة ؛ ٧٥ الآيات : ١ ـ ٤] .

الآيات المباركة في مورد الاحتجاج والرد على بعض الجاحدين والمنكرين للبعث يوم القيامة فقدم القرآن دليلاً حياً نعيشه اليوم : **﴿بلىٰ قادرين علىٰ أن نسوي بنانه﴾** والبنان رؤوس أصابع اليد فقد صاغها الله سبحانه صياغة فريدة من حيث خطوطها وتشابكها بشكل متميز بين أفراد البشر جميعاً حيث يختص كل منا بهذه الميزة في أصابعه وقد اكتشف ذلك العلم الحديث وبدأ يستفيد من ذلك في ضبط المحاكم والاعترافات أو تصويرها لضبط الجاني في المسائل الجنائية كالقتل والسرقة وما شابه ذلك ـ كما هو معروف للجميع ـ .

(حـ) كشف لنا القرآن الكريم عن سرّ التفاهم في عالم الحيوان حيث اللغة المتبادلة فيما بين الحيوانات فلكل نوع من الحيوانات لغة خاصة يتفاهم بها فتعمل المجاميع الحيوانية أعمالاً اجتماعية مشتركة أو سياسية أو ثوريّة أو دفاعية حينما تتعرض أوكارها لعدو خارجي .

يقول القرآن العظيم : **﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم﴾** .

[سورة الأنعام ؛ ٦ الآية : ٣٨] .

وفي آية أخرىٰ : **﴿حتىٰ إذا أتوا علىٰ واد النمل قالت نملة يا أيها النمل آدخلوا مساكنكم لايحطمنّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن اشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلىٰ والدي . . .﴾** .

[سورة النمل ؛ ٢٧ الأيتان: ١٨ ، ١٩] .

وهكذا كشف عن اللغة الخاصة في التخاطب فيما بين النمل ، والعلم حديثاً بيّن بعض أسرار هذه اللغة في النمل والدجاج والكلب وغيرها .

ولا بأس أن نشير إلىٰ أن في سورة النمل بيان لقدرة النبي سليمان

علىٰ فهم لغة الحيوانات بإذن الله تعالىٰ .

فنقرأ : **﴿وحُشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . . . وتفقد الطير فقال مالي لا أرىٰ الهدهد أم كان من الغائبين . . . فمكث غير بعيد فقال (الهدهد) أحطتُ بما لم تحط به (يا سليمان) وجئتك من سبأ بنبإٍ يقين ، إني وجدت امرأةً تملكهم وأُوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . .﴾** .

[سورة النمل ؛ ٢٧ الآيات : ١٧ ، ٢٠ــ٢٢ ، ٢٣ ] .

فنلمس نوعاً من التحدي يصدر من الهدهد هذا الطائر المعروف للنبي سليمان بقوله احطت بما لم تحط به . . هذه اللغة كان يفهمها النبي سليمان وهي تبقىٰ لغزاً أمام التطور العلمي مع اعترافه التام بوجود هذه اللغة في عالم الحيوان .

(ط ) والقضية العلمية الجديدة أحب أن أُسجلها فاليوم تظهر كثير من الدراسات العلمية تثبت إعجاز القرآن الكريم ويصرح العلماء والمفكرون في أكثر من موقع ان هذه المعجزة لا يمكن أن تكون من نتاج إنساني أبداً بل من لدن عليم خبير.

والمعجزة هذه المرة بالأعداد والأرقام : **﴿الله الذي نزّل الكتاب بالحق والميزان﴾** .

[سورة الشورىٰ ؛ ٤٢ الآية : ١٧] .

فالميزان هو العدل والدقة في الانصاف وفي الاحكام والتعاليم وكذلك في عدد حروف القرآن الكريم فهي دقيقة ودالة علىٰ المعنىٰ المقصود ضبطاً .

والمسألة العددية هذه تتمحور حول الرقم ١٩ الذي هو عدد حروف البسملة **﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾** فهو السر في الاعجاز العددي الرقمي القرآني الذي لا يقبل القسمة وهذه الفكرة قدمها الدكتور رشاد خليفة

المصري بعد دراسة وافية استمرت أكثر من عشر سنوات مستعيناً بالعقل الالكتروني وعلىٰ ضوء ما يذهب إليه المفسرون المعاصرون في الآية الكريمة :

**﴿سأُصليه سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تُبقي ولا تذر ، لوّاحة للبشر ، عليها تسعة عشر﴾ .**

سورة المدثر ؛ ٧٤ الأيات : ٢٦ ـ ٣٠] .

أي عليها عدد حروف البسملة الذي هو ١٩ وإن كلمة من البسملة تتكرر في القرآن الكريم أضعاف رقم ١٩ فكلمة **﴿اسم﴾** الواردة في القرآن عدا الموجود في البسملة فقد وردت بصيغة **﴿اسم الله﴾ ﴿اسم ربك﴾ ﴿اسم ربه﴾** وردت ١٩ مرة .

والبسملة تكررت علىٰ عدد سور القرآن ١١٤ وحتىٰ في سورة النمل وردت في حكاية كتاب سليمان إلىٰ ملكة سبأ **﴿وإنه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم﴾** ويعني ذلك ١٩ ×٦ = ١١٤ .

وكلمة **﴿الله﴾** تكررت في القرآن : ٢٦٩٨ مرة أي ١٩ × ١٤٢ .

وكلمة **﴿الرحمٰن﴾** تكررت في القرآن : ٥٧ مرة أي ١٩ × ٣ .

وكلمة **﴿الرحيم﴾** تكررت : ١١٤ مرة عدد سور القرآن ١٩ × ٦ .

ومن جهة ثانية نجد في سورة (ق) : ٥٧ قافاً أي ١٩ × ٣ .

والملفت للنظر إن (قوم لوط) ذكروا في القرآن ١٢ مرة بهذه الصيغة إلاّ في سورة (ق) فقد ذكروا بصيغة (إخوان لوط) محافظة علىٰ عدد القافات فيها إذ لو ذكروا باسم (قوم لوط) لبلغت القافات فيها ٥٨ مما يحدث الاخلال بعدد القافات في هذه السورة التي هي ٥٧ والتي هي أضعاف عدد ١٩ .

ونجد في سورة الشورىٰ وفي افتتاحها **﴿حم ، عسق﴾** وجود حرف

القاف وعدد القافات فيها ٥٧ قافاً أي ١٩ × ٣ .

ثم لو جمعنا ٥٧ قافاً التي في سورة ق مع ٥٧ قافاً في سورة الشورىٰ لكان عدد مجموع سور القرآن .

ومثال آخر إن حرف (ن) يتكرر في سورة ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ ١٣٣ مرة أي ١٩ × ٧ ومن اتجاه آخر ينطلق من التساوي العددي والتناسق الرقمي في موضوعات القرآن الكريم الذي لاحظه الدكتور عبد الرزاق نوفل في كتابه : (الإعجاز العددي للقرآن الكريم) وإنه ـ كما قال ـ وجه جديد من أوجه الإعجاز في القرآن لا يختلف في نتيجة الأراء وليس هو بتفسير أو تأويل تتعارض فيه الاجتهادات وتتباين النظريات ولكنه حساب وأرقام وحقائق الحساب دائماً قاطعة وشواهد الأرقام أبداً دامغة .

فمثلاً الدنيا والآخرة ورد ذكر كلٍ منهما في القرآن ١١٥ مرة رغم أنهما لن يذكرا مجتمعين إلاّ في خمسين آية . .

والشياطين والملائكة ورد ذكر كل منهما ٦٨ مرة سواء أكان منها المفرد أو الجمع . والموت ومشتقاته والحياة التي تختص بالخلق دون ما يختص بحياة الأرض ورد فيه ذكر كل منها ٧١ مرة .

والبصر وهو الرؤية بالحاسة الظاهرة مع مشتقاتها والبصيرة وهي الرؤية القلبية الداخلية تكرر ذكرها ١٤٨ مرة .

وبنفس العدد ١٤٨ مرة تكرر ذكر لفظ القلب والفؤاد ومشتقاتها والنفع والفساد مع مشتقاتهما تكرر ذكر كل منهما ٥٠ مرة والصيف والحر والشتاء والبرد مع مشتقاتِ البرد والحر ذكر كل منها ٥ مرات .

والبعث والصراط ومشتقاتهما ذكرا (٤٥) مرة وهكذا[٤٣] .

وبالنتيجة نلاحظ أن الإعجاز العلمي لدىٰ القرآن الكريم مستمر في بيانه وظهوره ولا زالت بعض آيات الكتاب هي في عداد الاسرار الغامضة علىٰ العقل الإنساني فهل بعد ذلك من يقول إنه من صنع بشري أو جاء

صدفة أو وضعه ساحر أو كاهن ؟ .

ونـذكر في حـاشية بحث رقم ١٩ في القـرآن الكريم ان المسـألة ليست لهـا علاقـة بالأفكـار الباطنيـة المنحرفـة لا من قريب ولا من بعيـد كما يـذهب البعض من المفكـرين كـالأستـاذ أحمـد السحمـراني في كتـاب الحـركـات الباطنية .

لعقـدة هذا البعض من رقم ١٩ المقـدس لدىٰ بعض البـاطنيين والـربط بين الأمـرين ربط بعيد عن الـدقة العلميـة وحينما نـذكر ذلـك إنّـا نضيف إلىٰ سلسلة الإعجـاز القرآني في العصـر الحديث مـا نسميه بـالاعجاز العـددي قد ينفع الشباب للاطمئنان بعقائدهم وكتابهم الكريم بشكلٍ أفضل .

**٣ ـ معجـزة القـرآن الغيبيـة :**

قـال تبـارك وتعـالىٰ : ﴿**تلك من أنبـاء الغيب نـوحيهـا إليـك مـا كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا . . .**﴾ .

[سورة هود ؛١١ الآية : ٤٩] .

نبأ القرآن الكريم عن أخبار غيبية تحققت بالمستقبـل بالشكـل الموعـود في القرآن الكريم هذا من ناحيـة ومن ناحيـة اُخرىٰ أخبـرنا القـرآن الكريم عن قصص الأنبيـاء والاُمم السالفـة بـالشكـل الـدقيق الـذي لا نـلاحـظه في كتب اليهود والنصارىٰ بعـد تحريفهـا فلذلك كشف القـرآن المجيد عن المحـاولات الدنيئة في تحريف الكتب السماوية المقدسة التي سبقت الكتاب العزيز :

﴿**الذين يتبعون الـرسول النبي الاُمي الـذي يجدونـه مكتوبـاً عندهم في التوراة والانجيل . . .**﴾ .

[سورة الأعراف ؛٧ الآية : ١٥٧] .

والآن نحن لا نلاحظ ما يخص النبي محمد (ص) في كتبهم المتداولة حـالياً من التـوراة والانجيل وهـذا دليـل صـارخ علىٰ مـا تلعبـه أيـدي اليهـود والصليبية بالكتب المقدسة .

المهم بالنسبة للنوع الأول نذكر أمثلة لتوضيح هذا الجانب من المعجزة الكبرىٰ .

( أ ) قال القرآن الكريم : **﴿غُلبتِ الرومُ، في أدنىٰ الأرض وهم من بعد غَلَبهم سيَغلبون ، في بضعِ سنين لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ ويومئذ يفرحُ المؤمنون ، بنصر الله﴾** .

[سورة الروم ؛ ٣٠ الآيات: ٢ ـ ٥] .

نزلت هذه الآية الكريمة في السنة الثانية للهجرة أي سنة ٦٢٥ ميلادية بعدما انهزم جيش الروم المؤمن بالله العزيز علىٰ يد الفرس عبدة النار آنذاك واحتلوا بيت المقدس ففرح المشركون في الحجاز بهذا الانتصار الساحق واعتبروه اعلاناً عن انتصار مقبل علىٰ المسلمين عندهم وهكذا دخل الهم والغم علىٰ المسلمين وفي الأثناء نزل الوحي لينبّىء عن انتصار الروم علىٰ اعدائهم الفرس بعد تضميد جراحهم واعدادِهم من جديد لخوض معركة فاصلة وحاسمة وسيكون النصر لهم في بضع سنين يعني أقل من عشر سنوات وبالفعل تم الانتصار وفرح المؤمنون بذلك فهو وعد إلهي غيبي تحقق علىٰ الموعد المبرم .

(ب) وتنبأ القرآن العزيز بفتح مكة قبل الفتح فقد جاء في سورة الفتح : **﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصّرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾** .

[سورة الفتح ؛ ٤٨ الآية: ٢٧] .

وبالفعل تم الانتصار علىٰ المشركين وتم فتح مكة بالسنة الثامنة للهجرة ـ بإذنه تعالىٰ ـ وهذا التنبؤ كان يصعب علىٰ الناس تصديقه تبعاً للظروف الموضوعية المحيطة بالمسلمين بالإضافة إلىٰ الظروف الذاتية غير المتكاملة لشنّ هكذا حرب كاسحة وهجوم كبير ومع كل ذلك تم النصر والفتح .

ويكشف القرآن عن سرّ آخر في سورة النصر : **﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾** حيث كشف عن الفتح ودخول الناس جماعات جماعات للدين الإسلامي المبارك .

(جـ) أخبر القرآن الكريم ـ كما قلنا آنفاً ـ عن حياة الأمم السالفة بذكر قصصهم بأسلوب متين معبّر فقصة ذي القرنين وأصحاب الكهف وموسىٰ وعيسىٰ ويوسف وغيرهم .

**﴿تلك مِنْ أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾** .

[سورة هود ١٣ ؛ الآية : ٤٩] .

وفي هذا دلالة علىٰ الاحاطة التامة بالماضي والتاريخ وهو غيب بالنسبة للمتلقّين المعاصرين .

( د ) أنبأنا الله سبحانه بأن هذا القرآن يبقىٰ كما هو دون أن تستطيع الأيدي الأثيمة أن تنال منه أو تحرّفه أو تبدّله فقد قال عز وجل :

**﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾** .

[سورة الحجر ١٥ ؛ الآية : ٩] .

ونحن نلاحظ ضخامة المؤامرات الدنيئة علىٰ الكتب السماوية من الصهيونية والصليبية الحاقدة ومروراً بالماسونية وشبكاتها المدمرة والتي استطاعت أن تنال من الكتب السماوية السابقة وانتهاء بالنفوس المريضة بين بعض المسلمين وحكامهم . . كل هذه المؤامرات استهدفت القرآن المجيد كما استهدفت التوراة والانجيل من قبل وغيّرت فيهما كما يعترف بذلك أبناء وعلماء الديانات المسيحية واليهودية بينما نلاحظ القرآن الكريم يقف شامخاً محفوظاً وذلك بفعل اليد الغيبية الحافظة له وإلاّ فإن المؤامرة عليه أكبر من دفاع المسلمين عنه ومن حكامهم ان نصبوا أنفسهم حماةً لهذا الكتاب الكريم .

وهكـذا حينما تحـدىٰ القرآن الكـريم أولئك البلغـاء والفصحاء بقـوله :
**﴿قـل لئن اجتمعت الإنس والجن علىٰ أن يأتـوا بمثل هـذا القـرآن لا يـأتـون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً﴾** .

[سورة الإسراء ؛ ١٧ الآية : ٨٨] .

والآيـة الكريمـة الأُخرىٰ تقـول : **﴿وإن كنتم في ريب ممـا نـزلنـا علىٰ عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فـإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فـاتقـوا النـار التي وقـودهـا النـاس والحجـارة أعـدت للكافرين﴾** .

[سورة البقرة ؛ ٢ الآيتان : ٢٣ ، ٢٤] .

فقـد نفىٰ القـرآن نجـاح فعلهم إلىٰ الأبـد وهكـذا كـان الأمـر في زمن الـرسالـة وبعد عصـر الرسـالـة ويبقىٰ التحـدي سـاري المفعـول إلىٰ أن تقـوم الساعة .

وحتىٰ أن الـرسـول الأعـظم (ص) أنبـأ عن المستقبـل بـإذن الله تعـالىٰ فقال لعمار بن يـاسر «تقتلك الفئـة الباغية» وأخبر عن شهـادة الإمام علي (ع) وشهادة الإمام الحسين (ع) بكربلاء ، وكثيرة هذه التنبّؤات الغيبيـة التي جاء بهـا القرآن الكريم والـرسول الأعـظم (ص) فإنهـا قد تحققت فنستـدل من ذلك أن اليـد الخفيـة الإلهيـة هـي التـي تقـف وراء معـجـزة الإسـلام ـ القـرآن والرسول ـ .

## ٤ ـ معجزة القرآن التربوية والنفسيـة :

رسالة الإسـلام جاءت متنـاسبة مـع احتياجـات النفس الإنسانيـة فكأنهـا مـطلعة علىٰ كـل زوايـا هـذه النفس وأبعـادهـا ـ كيف لا ـ والله سبحـانـه قـد خلقهـا ووضـع لهـا قـوانينهـا المنـاسبـة لهـا في القـرآن فهي الـدواء الـطبيعي للأمراض النفسية مهما بلغت من حدّتها ومضاعفاتها ولا يمكن أن تتوفـر حالـة الاطمئنان بالشكل التام إلاّ بذكر الرحمٰن سبحانه، وهو القائل : **﴿ألا بـذكر الله**

**تطمئنّ القلوب﴾** وقد قال الإمام علي (ع) : (إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن)[٤٤] .

وعلىٰ هذا الضوء نلاحظ أنّ الأُسس التربوية في القرآن الكريم هي الوحيدة التي تكفل سعادة الإنسان والمجتمع لأن القرآن يدرك ما يجري في النفس الإنسانية من حالات مَرَضية أسبابها ومسبباتها ونتائجها فيبدأ بمعالجة الأسباب الرئيسية لهذهٰ الأمراض فيقلع جذور الفساد من الأساس حيث قال سبحانه :

**﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾** .

[سورة غافر ؛ ٤٠ الآية : ١٩] .

ويعلم أنّ الإنسان ظلوم جهول حيث حمل أمانة السماء : **﴿إنا عرضنا الأمانة علىٰ السمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا﴾** .

[سورة الأحزاب ؛ ٣٣ الآية : ٧٢] .

فلذلك حينما يشرع هذا التشريع المقدس يأتي مطابقاً لمصلحة الإنسان ولا يمكن أن نشك في هذه الحقيقة التي بات كثير من الناس لا يعونهابالشكل التام إثر تخلف معين أو لتأثير الإعلام المعادي للإسلام والمسألة لا تحتاج إلىٰ تفكير هائل مع ما وصلت إليه البشرية من التقدم التكنيكي والصناعة المتطورة لتذليل الصعاب إلاّ أننا نشاهد التذوق الحقيقي للسعادة والراحة القلبية لا تحققها الوسائل المتقدمة وإنما لا بد من معالجات روحية ونفسية لإنقاذ الإنسان من الازمات الخطيرة التي تحيطه من كل جانب والتي قد تودي بحياته أحياناً .

فالتقدم العلمي لا يحقق للإنسان احتياجاته النفسية فهو لا يوفر العقيدة القلبية والربط الروحي مع حقائق الوجود بل يوفر التفسير الظاهري للوجودات في الحياة فالعلم يكشف عن دقة الكون والابداع الهائل في

تصويره وهندسته وقوانينه من المجرات إلىٰ الذرات من الحيوانات إلىٰ الحشرات وفي داخل الإنسان أعظم الأجهزة العاملة تؤدي أعمالها بالشكل المناسب بينما القرآن الكريم بل الإيمان به يوفر حالة الربط الروحي بين الإنسان والمبدع للكون فيملأ هذا الفراغ بالحب والأمل فنعبده ونتقرب إليه ونخاف من عقابه بل نخاف من يوم الحساب ذلك اليوم العسير حيث المحكمة الكبرىٰ تقام علىٰ الإنسان وحينذاك تشهد علىٰ أعمالنا أيدنا وأرجلنا .

﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ .

[سورة النور ؛ ٢٤ الآية : ٢٤] .

فهذه القيم المقدسة لا يعطينا إياها العلم إضافة إلىٰ أن العلم لا يدّعي الكمال بل النظريات تتحول إلىٰ عمليات والعمليات في تطور مستمر وفي كل يوم اكتشاف جديد واختراع جديد أما القرآن فهو المنهج التربوي والعقائدي الثابت إنه في قمة الكمال لا يطرأ عليه التغيير أو التبديل :

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ .

[سورة المائدة ؛ ٥ الآية : ٣] .

فإذن هنالك حاجة نفسية للقرآن الكريم أو للعقيدة بشكل عام وعلىٰ ما تذهب إليه البحوث السايكولوجية المتطورة من أن هنالك فراغاً في مخ الإنسان لا يملأ إلاّ بالتربية الروحية والتعلق الوجداني بقوة كبرىٰ تسندنا لأننا ضعفاء ويظهر ضعفنا جلياً حين المرض أو حين يلوح علينا شبح الموت المخيف فلما لم تجد البشرية ذلك الدين القيم تلجأ إلىٰ الخرافات وعبادة الدنيا أو الأصنام كما كان سابقاً أو عبادة البقر كما عند البعض محاولة يائسة لملء الفراغ الذهني بالمعتقدات السخيفة خوفاً من حالة الضياع القاتلة وأظن أنّنا لا نحتاج إلىٰ أدلة في هذا الحديث وخاصة حينما نرىٰ البلدان العلمية في أوروبا بالذات فإلىٰ جانب التطور التكنولوجي هنالك الضياع المر القاتل

الـذي يعاني منه المجتمع وبـالـذات الشبـاب وفي كـل يـوم ومضـة جـديـدة تكتسـح الشارع الأوروبي حتىٰ غـدا البعض لا يفارق المـرآة ليل نهـار يعمـل في تصفيف شعـره وترتيب مـلابسـه وجلده وحـذائـه واظفـاره بشكـل لم يفعله المجنـون حتىٰ رأيت في إحدىٰ البلدان الأوروبيـة ان بعض شبـاب (البـانـك) قـد حلق شعر رأسـه من كل جـانب بالمـوس عدا المنـطقة العليـا من الـرأس فجعل الشعر منهـا طويلاً وملوناً كـألوان الـطيف الشمسي وقد وضـع عليه نـوعاً من الـزيت الخاص لـه بريق معين حينمـا تـراه كـأنـك تـرىٰ عشـاً للعصـافيـر وبـالفعل يستـطيع أن يخـدع بعض العصـافيـر لتقف علىٰ رأسـه في الحـدائق العـامة وبفَنّية متعبة حينـذاك يمتلىء هذا المسكين أو هـذه المسكينـة سعـادةً نفسية وفرحاً كبيراً فينتعش ويضحك ويبتسم لروحه المعذبـة وحينما يسئـل عن هذه الأعمال يجيب لتحقيق نشوة السعادة الروحية لديه !! .

هذا وإضافة إلى ملء هذا الفراغ الروحي نلاحظ ان التربية الإسـلامية لا تسمح للعقد النفسية أن تنمو في المنـاخ الملائم حيث يهيىء الإسلام مناخـات مضـادة للعقد النفسيـة فيحلها دون أن ينمّيهـا لكيلا تتحـول إلىٰ حالـةٍ مرضيـة عسيـرة كمـرض الحسـد والحقـد والتكبـر والغيبـة والخـوف وحب السيـطرة والانتقام والغرور وبقية الأمراض النفسية .

هذا السر التـربوي يسحب الصـواعق الناريـة من بارود النفس ويمسـك صمام الأمان لإيجـاد حالـة التوازن في النفس والمجتمـع دون أن تنمو الحـالة السلبيـة في داخل الإنسـان وليمتنع بـدوره عن الـظلم الاجتمـاعي وفي حـالـة الكوارث الطبيعيـة يفسرهـا التفسير الهـادىء المقبول بـدلاً من التفسير السلبي المريض الذي يدفع أعراض المرض النفسي بالظهور .

ومن روائـع المعجزة الخـالدة من النـاحيـة التربـويـة اننـا نـلاحظ هـذا المنهج الفريد قد أحاط الإنسان من كل جانب فهـو يهتم بالإنسـان قبل انعقـاد نـطفتـه فيقـول (ص) : «تخيـروا لنـطفكم فـإن النسـاء يلدن أشبـاه إخوانهـن وأخواتهن» .

وفي حديث آخر : «إياكم وخضراء الدمن» قيل يا رسول الله وما خضراء الدمن قال: «المرأةالحسناء في منبت السوء»[٤٥] .

ويعتني بالجنين منذ انعقاده نطفةً وإلىٰ أن يخرج من رحم أُمه طفلاً ومنذ الوهلة الأُولىٰ يضع القرآن الكريم والإسلام بشكل عام أُسساً تربوية له وكلما كبر الإنسان تنمو معه هذه الأُسس التربوية كي تحيط حياته تماماً في بلوغه وشبابه ونضوجه وحتىٰ يهرم ويموت ويدفن تلاحقه التعاليم الدينية وهو علىٰ صخرة المغتسل حيث الغسل والصلاة والدفن وبعد الدفن أيضاً هنالك مراسيم تقام بعد الدفن مباشرة وهنالك مراسيم وخيرات طويلة الأمد وكما هذا الاهتمام التربوي للفرد يكون للمجتمع كذلك فلذلك يقول القرآن الحكيم :

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ .

[سورة الأنفال ؛٨ الآية : ٢٤] .

فدعوة الرسول هي دعوة إلىٰ الأحياء وإلىٰ عمارة القلوب والحياة ومرة أُخرىٰ يحيط القرآن الكريم بالإنسان نفسياً ودنيوياً وفي الآخرة كذلك فيضع له القوانين الشرعية لضمان سعادته فهو من ناحية يخلق في داخل الإنسان رقابة ذاتية علىٰ سلوكيّاته وتصرفاته حيث يؤمن الإنسان في ظل الشريعة الإسلامية ان التبريرات مهما بلغت من قدرتها الكبيرة في الاقناع فإنها لا تقنع بما يحيط بالإنسان إحاطةً تامة ويعرف أسرار الأُمور .

﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ .

[سورة غافر ؛ ٤٠ الآية : ١٩] .

و ﴿ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيبٌ عتيد﴾ .

[سورة ق ؛ ٥٠ الآية : ١٨] .

فالتبريرات قد تنجح في اقناع الناس أو الحكّام ويمكن أن تنطلي عليهم الحقائق ولكن الله سبحانه لا تخفىٰ عليه خافية حتىٰ أنّ في يوم

القيامة يتعجب الإنسان من كتابه الذي يُعتبر سجلاً لأعماله فيسلّم إليه يقول القرآن لسان حال الإنسان هذا :

﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ .

[سورة الكهف ؛ ١٨ الآية : ٤٩] .

من تصرفات وأقوال وأعمال كلها مسجّلة في كتابه .

فالتربية القرآنية تخلق في الإنسان (بوليساً داخلياً) كما يقول الأوربيون حينما يقيّمون النجاح الإسلامي في التربية . ومن ثم نلحظ أنّ الإسلام يدفع بالمسلمين لانشاء الأخوّة الإنسانية وعلىٰ أوسع دوائرها ضمن قوانين عادلة تحكم السلوك والعلاقات والاخوة الإسلامية ويدفع الإسلام إلىٰ التغاضي والتجاوز عن كثير من الأمور التي تسبب تعكير الصفو الاجتماعي يقول الإمام علي (ع) في رسالته لوالي مصر : (لا تكن عليهم سبعاً ضارياً فالناس صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق) .

وجاء في القرآن الحكيم : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم﴾ .

[سورة الحجرات ؛ ٤٩ الآية : ١٣] .

ومن ناحية أخرىٰ يأتي القرآن الكريم بالأسس الاخلاقية لكي لا يتيه الإنسان في بحر الغرور والعُجب بماله وجماله أو منزلته الاجتماعية بل يذكره دائماً بالموت والفناء .

﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ .

[سورة آل عمران ؛ ٣ الآية : ١٨٥] .

﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروجٍ مشيدة﴾ .

[سورة النساء ؛ ٤ الآية : ٧٨] .

ويقول النبي (ص) : «اكثروا من ذكر هادم اللذات» فقيل يا رسول الله

فمـا هادم اللذات قـال: « الموت ، فـإن أكيس المؤمنين أكثرهم ذكـراً للمـوت وأشدهم له استعداداً»(٤٦) .

وإن الـدنيا عـاقبتها الـزوال والقرآن يـدفع بـالإنسـان نحـو أعمـال الخيـر والصـدقـات والسلوك المعتـدل رهبـةً ورغبــة . . وهكـذا في داخــل الاسـرة والمجتمع والعلاقة بين الأبوين والزوجين والعمل الخارجي مع الناس :

**﴿كنتم خيـر أمة أخـرجت للنـاس تـأمـرون بـالمعـروف وتنهـون عن المنكر﴾ .**

[سورة آل عمران ؛٣ الآية : ١١٠] .

والإمـام البـاقـر (ع) يقـول : (إن الأمـر بـالمعـروف والنهي عن المنكـر فريضة عظيمة بها تقام الفرائض)(٤٧) .

وقـانون الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر ضمـان لإستقـامـة التـربيـة الاجتمـاعية وإيجـاد جهاز المـراقبة الاجتمـاعية الهـادفة لنشـر الخير والصـلاح وللعلم إن حـديث المعجزة التـربويـة والنفسية حـديث شيّق وما أوردنـاه يلائم هذه الرسالة والحق أن في المسألة كلام كثير وتفصيلات أكثر .

وأكتفي بنقـل هذه الـروايـة في تفسيـر العياشي عن النبي (ص) قـال : **«أتـاني جبرائيـل فقال يـا محمد ستكـون في أمتك فتنـة قلت : فمـا المخـرج منهـا ؟ فقال : كتـاب الله فيه بيـان ما قبلكم وخبـر ما بعـدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل من وَليهُ من جبّار فعمَل بغيره قصمه الله ومن التمس الهـدىٰ في غيـره أضله الله وهـو حبـل الله المتين وهــو الـذكــر الحكيم وهـو الصراط المستقيم لا تزيغه الأهوية ولا تلبسه الألسنـة ولا يُخلق علىٰ التردد ولا تنقضي عجـائبه ولا يشبـع منه العلمـاء هو الـذي لم تلبث الجن إذا سمعته أن قالوا : ﴿إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلىٰ الرشد﴾ »**(٤٨) .

وبـالمناسبـة أنقل نصـاً لبرنارد شو (المفكـر المعروف) : إذا أراد العـالم النجـاة من شـروره فعليـه بهـذا الـدين (الـدين الإسلامي) إنـه دين التعــاون

والسلام والعدالة في ظل شريعة متمدّنة محكمة لم تنس أمراً من أُمور الدنيا إلا سمته ووزنته بميزان لا يخطىء أبداً وقد ألّفتُ كتاباً في محمد ولكنه صودر لخروجه عن تقاليد الإنكليز[٤٩] .

## ٥ - معجزة القرآن التشريعية :

إن القرآن الكريم وافق الفطرة الإنسانية فغطّىٰ كل ما تحتاجه من طلبات روحية وجسمية وتربوية وتشريعية وهنا تبرز المعجزة التشريعية للقرآن الكريم وتبقىٰ هذه المعجزة كسائرها من مظاهر المعجزة القرآنية معْلماً شاخصاً يتحدىٰ الزمن بكل ما أُوتي من قوة وتطور علمي .

فإذا تأملت في الفقه الإسلامي الذي شرع قبل أربعة عشر قرناً ضِمْنَ حياةٍ تسودها أعراف البادية الجافة وهو يتمتع بروح مدنية عالية لعرفت عظمة الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم حيث الطرح القانوني المتكامل للحياة المتحضرة فقد انحنىٰ أمام القوة التشريعية في القرآن أكابر المقننين وعظماء القانون والسياسة إجلالاً واعترافاً فقد بين القرآن أحكام العقوبات وآداب الحكم وحقوق المحكوم وواجبات القاضي والحاكم وكيف يستدل الحاكم علىٰ البيّنة في القضاء حيث الشهادة من العدول علىٰ المدعي واليمين علىٰ من انكر ، وبيّن دقة آداب المعاملات من بيع وشراء وإيجار وعارية وسائر العقود ، ونظمّ حياة الأُسرة في النكاح والارث وحقوق الزوج والزوجة وواجباتهما ووضح أحكام الجهاد والدفاع والمعاهدات والاتفاقيات وهكذا وبالرغم من أن البعض من أساتذة القانون كان يَشْكل علىٰ قانون العقوبات في الإسلام ويدّعي بأنه تعسفي في بعض الأحيان كقوله تعالىٰ :

﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا . .﴾ .

[سورة المائدة ؛ ٥ الآية : ٣٨] .

و ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة . .﴾ .

[سورة النور ؛ ٢٤ الآية : ٢] .

والمرأة في الإسلام يعتبرها هذا البعض ! انها مظلومة في قوله تعالى : ﴿وللذكر مثل حظ الانثيين﴾ وفي التشريع الإسلامي الطلاق بيد الرجل حيث ورد عندنا (الطلاق بيد من أخذ بالساق) ومن هذه الأمثلة .

ولكن بعد الدراسة العلمية والميدانية المستفيضة تبين أن هذه الاشكالات ناتجة عن عدم فهم حالة الرجل أو المرأة نفسياً واجتماعياً ولا بد من هذه العقوبات الرادعة لمن يتجاوز الحدود فالسارق لا يرتدع إلّا بقطع يده وبذلك يرتدع الناس من ارتكاب هذه الجريمة ويبقىٰ السارق حاملاً عاره علناً .

وأوضح مثال في تأريخنا بالعصر الإسلامي الطويل حيث لم تقع مثل هذه الجريمة إلّا مرتين كما هو المشهور وقد اختلف الفقهاء في زمن المعتصم حينما ثبتت السرقة علىٰ رجلٍ من المسلمين وكان اختلافهم في مقدار القطع أي من اين تقطع يد السارق ؟ فقال أحدهم تقطع من الكرسوع وهو طرف الزند الثاني مما يلي الخنصر وقال آخرون من المرفق ولم يقتنع المعتصم بأدلتهم وطلب الإمام التاسع من أئمة أهل البيت (ع) وهو الإمام محمد الجواد أن يعطي القول الفصل فقال : (فإن القطع يجب أن يكون عن مفصل أصول الأصابع فيترك الكف) وعندما سئل عن السبب أجاب قول رسول الله (ص) : السجود علىٰ سبعة أعضاء : الوجه واليدين والركبتين والرجلين فإذا قطعت يده من الكرسوع أو المرفق لم يبق له يد يسجد عليها قال تعالىٰ : ﴿وإن المساجد لله﴾[٥٠] .

ونتيجة اختلاف الفقهاء من عدم تطبيق هذا القانون الرادع لعدم وقوع السرقة والإنسان حينما يعرف مصيره في هكذا عقوبة من الصعوبة أن يقرر ارتكاب هذه الجريمة .

وبالمقابل نلاحظ اليوم في مجتمعاتنا وفي كل مكان فما أكثر السرقات والاعتداءات المتكررة لماذا ؟ لأن السارق لا يخاف من القانون الذي يسجنه فترة زمنية بسيطة ليخرج بعدها طبيعياً بينما الشريعة الإسلامية تجعله يتذوق

مرارة الفعلة الشنيعة وتبقىٰ العلامة في جسمه وصمة عار حتىٰ الموت بل ربما تنتقل هذه الوصمة السوداء إلىٰ أبنائه واحفاده .

أما بالنسبة للمرأة فلها مكانة في القانون الإسلامي وكرامة وحقوق علىٰ كل من يحتويها أباً كان أو زوجاً . . فينفق عليها من الجهات المشروعة وما تحصل عليه من الارث مثلاً فهو لها بالخصوص ومسألة الطلاق بيد الرجل هذا القرار يناسب حالتها العاطفية التي سرعان ما تغضب أو ترضىٰ فهي ريحانة لا قهرمانة كما يصفها الرسول الأعظم (ص) فبهذه الصياغة العاطفية الرقيقة للمرأة من غير الصالح أن تسلّم قرارات مصيرية كبيرة كالطلاق ويمكنها من جهة ثانية أن ترضي زوجها ببذل مهرها أو غيره في الحالات الشاذة فيكون الطلاق خُلعياً من قبل الزوجة . .

ونقل لنا دكتور في القانون في محاضرته إن المحاكم القانونية في باريس قبل سنين منحت للزوجة حق الطلاق كما للزوج تطبيقاً لشعار المساواة بين الرجل والمرأة في كل الميادين وإن هذا القانون سرعان ما رفع من المحاكم وحُدّد لكثرة المرافعات من قبل الزوجات تطبيقاً لهذه الصلاحية المناطة لهن ونقل لنا الأستاذ بأن كثيراً من الأسباب الدافعة للمرأة كي تطلّق زوجها كانت أسباباً تافهة وأدنىٰ من التافهة وذكر أن إحدىٰ النساء ذكرت سبب طلاقها لزوجها لأنه خالفها في الرأي في حلاقة راسه أو لبس ملابسه باللون غير المناسب للون السيارة أو لعدم قبوله الخروج معها للسينما في ليلة معينة وما شابه ذلك .

المهم إن الذي يدرك النفس وحالاتها وأسرارها سيصل في يوم ما إلىٰ أن التشريع القرآني هو الأنسب والأجدر بالتطبيق للمصلحة الإنسانية العامة فالقرآن الكريم حكم بالعدل والمساواة أمام القانون وحرم الزنا والاعتداء وعاقب علىٰ الفواحش :

﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق . . . ﴾ .

[سورة الأعراف ؛ ٧ الآية : ٣٣] .

وشـرَّعَ الجهاد والـدفاع : ﴿انفـروا خفافـاً وثقالاً وجـاهـدوا بـأمـوالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ .

[سورة التوبة ؛ ٩ الآية : ٤١] .

و ﴿فقاتلوا أئمة الكفر إنّهم لا أيْمان لهم﴾ .

[سورة التوبة ؛ ٩ الآية : ١٢] .

والحقيقـة ان المعجـزة التشـريعيـة لهي التي يفهمهـا العـالم المتحضـر اليـوم لأن العـالم لا يفهم التحـدي البـلاغي والغيبي بقـدر مـا يفهم القـوانين والدساتير التشريعية فهي انعكاس للحيـاة الواعيـة وبذلـك يثبت إعجاز القـرآن الحكيم بأنه مـرسل من الحي القـادر وليس من صنع البشـر إطلاقـاً لأنه يتـوّج الصياغة النفسية لدىٰ البشر ويطابق الفطرة الإنسانيـة ويحيط برحمتـه كل شيء ولا يترك حاجة إلاّ وسنّ لها قـانونـاً صالحـاً يماشيهـا مع الـزمن أو زوّد قانـونها بمـطاطية خـاصة يستـطيع القـانون أن يتمـاشىٰ مع جميـع الـظروف والأحـوال بحيث لا يخرج من الاطار التشريعي فنرىٰ الـدساتيـر الإسلاميـة صالحـة لكل الـوقـائـع صغيـرة وكبيـرة وفي أدق التفصيـلات يقف القـانـون الإسـلامي إلىٰ جـانبـه . قـال (سـانيـلانـا) : (إن في الفقــه الإسـلامي مــا يكفي المسـلمين تشريعهم المدني إن لم نقل إن فيه ما يكفي للإنسانية كلها) .

وقد أصدر مؤتمر لاهاي للقانون الدولي القرار التالي :

(إن الشـريعة الإسـلامية حيّـة مرنـة تصلح للتطور مـع الزمن وإن اللغـة العـربية قـد دخلت من الآن فصاعـداً في عـداد اللغـات التي يجب أن تسمـع في المؤتمر) .

وقـال الأستاذ (شيرل) عميد كليـة الحقوق بجـامعة فينّـا : (إن البشـريـة لتفخر بانتسـاب رجل كبيـر كمحمد إليهـا إذ أنه رغم أميّتـه استطاع قبـل بضعة عشر قرناً أن يأتي بتشريع سنكـون نحن الأوروبيون أسعـد ما نكـون لو وصلنـا إلىٰ قمته بعد ألفي عام) .

وقال الأستاذ أدمونت بورك : (القانون المحمدي قانون ضابط للجميع نُسج بأحكم نظام حقوقي وأعظم نظام علمي واسمىٰ تشريع منور لم يسبق قط للعالم إيجاد مثله)[٥١] .

## ٦ـ هل للنبي الأكرم (ص) معاجز غير القرآن الكريم :

بالتأكيد هنالك معاجز أُخرىٰ للرسول الأعظم (ص) ولكن المعجزة الخالدة والحية التي حيّرت العقول ـ القرآن الكريم ـ أما المعاجز الأُخرىٰ فيمكن أن نذكر بعضها بشكل عاجل . .

ـ مجيء الشجرة إليه قال أمير المؤمنين (ع) في خطبة القاصعة : (وكنت معه ـ مع النبي ـ لما أتاه الملأمن قريش فقالوا له : يا محمد إنك قد ادعيت عظيماً لم يدعه آباؤك ولا أحد من أهل بيتك ونحن نسألك أمراً إن أجبتنا إليه وأريتناه علمنا إنك نبي ورسول وإن لم تفعل علمنا أنك ساحر كذاب فقال (ص) لهم : وما تسألون قالوا : تدعوا لنا هذه الشجرة حتىٰ تنقلع بعروقها وتقف ما بين يديك فقال (ص) : «إن الله علىٰ كل شيء قدير فإن فعل الله ذلك لكم أتأمنون وتشهدون بالحق؟ » قالوا نعم قال : فإني سأريكم ما تطلبون وإني لأعلم أنكم لا تفيئون إلىٰ خير . . . ثم قال (ص) : «يا أيتها الشجرة إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر وتعلمين أني رسول الله فانقلعي بعروقك حتىٰ تقفي بين يدي بإذن الله» فوالذي بعثه بالحق لانقلعتْ بعروقها وجاءت ولها دوي شديد وقصف كقصف أجنحة الطير حتىٰ وقفت بين يدي رسول الله مرفوفة . . . فقلت أنا : لا إله إلاّ الله إني أول مؤمن بك يا رسول الله وأول من أقر بأن الشجرة فعلت بأمر الله تعالىٰ تصديقاً لنبوتك فقال القوم كلهم بل ساحر كذاب عجيب السحر خفيف فيه وهل يصدقك في أمرك إلاّ مثل هذا يعنونني ـ )[٥٢] .

وإنه (ص) أطعم النفر الكثير في منزل جابر الأنصاري وفي منزل أبي طلحة ويوم الخندق بزادٍ قليل فمرة أطعم ثمانين رجلاً من أربعة أمداد شعير أما في يوم الخندق أكثر من سبعمائة رجل أكلوا من زاد جابر الأنصاري

ببركة النبي (ص) وكتب الحديث مليئة بالتفصيلات في مسألة الإطعـــام .

وقـد أشفىٰ الله المرضىٰ علىٰ يـديه والأمـراض هذه مختلفـة وأبرز مثـل في تـأريخنا الإسـلامي ما ورد في يـوم خيبر حيث كـان الإمام علي (ع) أرمـد العين فتفل (ص) في عينيه ودعا له وقـال : « اللهم أذهب عنه الحر والبرد » فما وجـد حـراً ولا بـرداً وكـان يخـرج في الشتـاء في قميص واحـدٍ كمـا في الروايات .

وهذه الظاهـرة العظيمـة لا زالت ترافق الـرسول الأكـرم (ص) لمن يلوذ به طالباً حاجة بقلب صادق ومصلحـة يعلمها الله سبحـانه تقضىٰ تلك الحـاجة سواء كانت طبّية أو نفسية وبـالفعل أصبحت أضـرحة النبي وآل بيتـه من الأئمة الأطهار مستشفيات خاصة للظروف الطارئة وغالباً تستعمـل حين ييأس الأطبـاء من مداواتهم والأمثلة علىٰ هذه القضية لا تُعدّ ولا تحصىٰ .

ومن هـذه المعاجـز ـ عدا القـرآن الكـريم ـ قـد حفلت كتب الـروايـات كبحار الأنوار والكتب التـاريخية والـروائية الأخـرىٰ . وهنالـك سجلات بهـذه المعـاجـز في صدور النـاس المؤمنين تحتفظ بقصص الكـرامـات والمعــاجـز المعاصرة ولا زالت هذه المعاجز مستمرة وآثارها متناقلة بين الناس .

(١) ميزان الحكمة ، ري شهري ج ٩ ص ٣١٥ ، ٣١٦ .
(٢) الإنسان ذلك المجهول : الكسيس كاريل ص ٢ وما بعدها .
(٣) الله يتجلى في عصر العلم ص ٣٨ .
(٤) الإنسان ذلك المجهول : الكسيس كاريل ص ٤٤ .
(٥) حياة محمد للدكتور ـ أميل درمنجام ص ٣١
(٦) ميزان الحكمة ، محمدي ري شهري ج ٩ ص ٣٣١ .
(٧) نفس المصدر ص ٣٢١ .
(٨) عقائد الإمامية : المظفر ص ٥١ .
(٩) ميزان الحكمة ، ري شهري ج ٥ ص ٥٩٨ .
(١٠) أوائل المقالات : للشيخ المفيد ص ٨٤ .
(١١) ميزان الحكمة ، ري شهري ج ٩ ص ٣٣٩ .
(١٢) نفس المصدر ج ٩ ص ٣٤٠ .
(١٣) نفس المصدر ج ٩ ص ٣٣٦ .
(١٤) عقائد الإمامية الإثنى عشرية : السيد الزنجاني ص ٤١ .
(١٥) ميزان الحكمة ، ري شهري ج ٦ ص ٣٤٢ .
(١٦) نفس المصدر ج ٩ ص ٣١٥ .
(١٧) مجمع البيان المجلد ٣ ج ٧ ص ١٠٩ وما بعدها .
(١٨) ميزان الحكمة ، ري شهري ج ٩ ص ٣٣٦ .

(١٩) قصص الأنبياء ، الجزائري ص ٨٠ .
(٢٠) بحار الأنوار ج ١٥ ص ٢٠٦
(٢١) سيرة ابن هشام ج ١ القسم الأول ص ٨٣ .
(٢٢) طبقات ابن سعد ج ١ القسم الأول ص ٨٣ (نقلاً عن الدروس ص ١٦٣) .
(٢٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٣ .
(٢٤) نفس المصدر ج ٢ ص ٩٨ .
(٢٥) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٢ .
(١٦) محمد ذلك النبي الذي لا بد أن يُعرف من جديد د . واجليري ص ٤٥ .
(٢٧) من روائع القرآن للدكتور السوطي ص ١٣٥ .
(٢٨) تلخيص المحصل للخواجة الطوسي ص ٣٥٠ .
(٢٩) مجمع البيان ، الطبرسي ج ٩ ص ٣٨٩ .
(٣٠) عن إعجاز القرآن. . . . . . ص ٢٦٩ .
(٣١) عن المعجزة الخالدة للسيد هبة الدين الشهرستاني .
(٣٢) من روائع القرآن للدكتور السوطي ص ١٣٤ .
(٣٣) عقائد الإمامية الاثني عشرية للزنجاني ص ٥١ .
(٣٤) موجز علوم القرآن : داود العطار ص ٥٩ .
(٣٥) نداء الإسلام من قلب إيطاليا ص ٥٥ .
(٣٦) القرآن محاولة فهم عصري د . مصطفى محمود ص ٢٥٩ .
(٣٧) نفس المصدر ص ٢٦٧ .
(٣٨) نفس المصدر ص ٢٧٢ .
(٣٩) نفس المصدر ص ٢٧٦ .
(٤٠) نقلاً عن (النجوم بلاتلسكوب) ص ٨٣ .
(٤١) مجمع البيان للشيخ الطبرسي المجلد ٤ ج ١٧ ص ٢٠ .
(٤٢) نقلاً عن (مقارنة بين التوراة والانجيل والقرآن والعلم) ص ٢٦٨ .
(٤٣) عقيدتنا في الخالق : الشيخ نعمة ص ٣٠٥ ـ ٣٠٨ بتصرف .
(٤٤) أصول الكافي للشيخ الكليني ج ٢ ص ٥٩٩ .
(٤٥) ميزان الحكمة ، ري شهري ج ٤ ص ٢٨٠ ـ ٢٨٢ .
(٤٦) نفس المصدر ج ٩ ص ٢٤٦ .
(٤٧) الكافي للكليني ج ٥ ص ٥٥ .

(٤٨) عقائد الإمامية الاثنى عشرية للسيد الزنجاني ص ٥٤ .

(٤٩) أصول العقيدة للسيد مهدي الصدر ص ٣٠٤ نقلاً عن كتاب محمد عند علماء الغرب للشيخ خليل العاملي .

(٥٠) نقلاً عن تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٤٣٩ .

(٥١) أصول العقيدة للسيد مهدي الصدر ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ نقلاً عن روح الدين الإسلامي لعفيف طباره ص ٢٣٩ والإسلام والشيوعية لعبد المنعم النمر وقالوا في الإسلام ص ٥٥ وص ٢٣٥ للشيخ الظالمي - المصادر على التوالي - .

(٥٢) نقلاً عن الصدر ، أصول العقيدة ص ١٢٢ .

# الفصل الرابع

# الامـامـة

ويحتوي على البحوث التالية :

أولاً : المقدمة

ثانياً : لماذا الإمام

ثالثاً : الحل الجذري لمسألة الخلافة

رابعاً : شرائط الإمامة

خامساً : الإمام وعلاقته بالأمة

سادساً : واجباتنا اتجاه الأئمة

سابعاً : قادتنا الاثنا عشر

ثامناً : النبي والأئمة قيادة متكاملة

تاسعاً : من هم أئمة أهل البيت (ع)

عاشراً : وقفة سريعة في حياة الأئمة (ع)

# أولاً : المقدمة

الإمامة هي الامتداد الطبيعي لقيادة النبي الأكرم (ص) فكما أن النبي المرسل هو المجسد لتعاليم الرسالة السماوية ومطبّقها كذلك الإمام من بعده فلا يمكن أن تبقىٰ الرسالة دون منفّذ له صلاحيات تشريعية معينة و (كما نعتقد أنها كالنبوة لطف من الله تعالىٰ فلا بد أن يكون في كل عصر إمام هاد يخلف النبي في وظائفه من هداية البشر وإرشادهم إلىٰ ما فيه الصلاح والسعادة في النشأتين وله ما للنبي من الولاية العامة علىٰ الناس لتدبير شؤونهم ومصالحهم وإقامة العدل بينهم ورفع الظلم والعدوان من بينهم وعلىٰ هذا فالإمامة استمرار للنبوة والدليل الذي يوجب إرسال الرسل وبعث الأنبياء هو نفسه يوجب أيضاً نصب الإمام بعد الرسول)[1] .

وعلىٰ هذا لا يمكن أن نقول أن الرسالة السماوية لوحدها تكفي لهداية الناس وتحصينهم من الانحراف بل لا بد من منفّذٍ أمين لهذه الرسالة ، له الصلاحية التشريعية والتنفيذية وبه أتم الله سبحانه نعمته ولطفه فعيّن القيادة الشرعية بعد النبي في الأئمة الأطهار من أهل البيت ولم يترك المجتمع الإسلامي دون هذا التوضيح ليتخبط في أهوائه ضمن الفوضىٰ المتوقّعة لو تركت المسألة سدىٰ ولا يمكن أن نتصور بأن المسألة تركت دون تشريع وخاصة لو عرفنا أن هذه المسألة وهي خلافة الرسول

الأعظم (ص) من أخطر المسائل في حياة المسلمين فهي السبب الرئيسي في جمع الكلمة أو تفريقها بين المسلمين . ونحن نجد الشريعة الإسلامية في منهجها التفصيلي والشامل ما تركت أبسط الحاجات وأدقها في الحياة إلا وبينته بتوضيح كامل في القوانين الشخصية والاجتماعية والصحية فهكذا شريعة كاملة غير ناقصة لا يمكن أن تسدل الستار علىٰ مسألة من أخطر المسائل وأهمها والحال أننا نؤمن بأن الإسلام دين كامل وشامل ودائم والله سبحانه أنزل في يوم عيد الغدير حين أعلن النبي (ص) الإمامة للإمام علي قوله تعالىٰ :

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ .

[سورة المائدة ٥ ؛الآية : ٣] .

فهل يمكن أن تترك مسألة من أعمق المسائل وأحوجها بل أخطرها في حياة المسلمين؟ والحال أن المجتمع الإسلامي بحاجة إلىٰ نظرية قيادية تقوده في كل ظرف وعلىٰ مدىٰ الأزمان لأن عدم وجود هذا التطبيق العملي الصحيح للإسلام مع كل عصرٍ يعدّ نقصاً في المنهج القرآني وحاشاه من النقص. فإذن لا بدمن إمام معصوم قائد وخليفة للرسول وكما كان المجتمع والقرآن بحاجة إلىٰ الرسول الأكرم (ص) تبقىٰ الحاجة لخلافة النبي أي قيادة الأئمة (ع) لتطبيق القرآن واستمرار تنفيذ الأحكام الشرعية علىٰ الأرض . قال تعالى :

﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾ .

[سورة الرعد ؛١٣ الآية : ٧].

وقال الإمام الباقر (ع) : «إن الحجة لا تقوم لله عز وجل علىٰ خلقه إلاّ بإمام حي يعرفونه» .

فلا بد إذن من استمرار قيادة النبي (ص) في الأمة بالخلافة التي تتمتع بصفاته ومؤهلاته (ص) ويقول الإمام الصادق (ع) : «من مات وليس

عليه إمام حي ظاهر مات ميتةً جاهلية» .

وحديث الرسول الأعظم (ص) يقول فيه : «من مات وهو لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية» .

وهذه الروايات شاخصة تبين الحقيقة فلا يمكن أن تخلو الأرض من حجة شرعية وقيادة تمثل قيادة النبي (ص) في إدارة الناس وتوضيح واجباتهم وتبيان شؤونهم يقول الإمام الصادق «ما تبقى الأرض يوماً واحداً بغير إمام منا تفزع إليه الأمة» وفي رواية أخرى «لو بقيت الأرض بغير الإمام لساخت» ورواية ثالثة «إن الأرض لا تكون إلا وفيها حجة إنه لا يصلح الناس إلاّ ذلك ولا يصلح الأرض إلاّ ذلك» .

فلذلك نرى أن الحكّام الذين تسلّطوا على زمام أمور المسلمين بعد النبي الأكرم حاربوا هذه الصفوة المباركة بكل الوسائل ـ سجناً وتعذيباً ومطاردةً وقتلاً ـ كما صنع يزيد بن معاوية بالإمام الحسين في واقعة كربلاء ، فهو يدري حقاً منزلة الإمام الحقيقية ويعلم يقيناً أن الإمام الحسين هو الامتداد الشرعي الوحيد لقيادة النبي محمد (ص) فهو صاحب الحق بالخلافة لكن يزيد وأمثاله يفكرون بعقلية الحكّام والأمراء هدفهم التسلط والتحكم بالناس لا غير ، فدفعتهم الدنيا حتى حوّلوا هاجس الخوف من أئمة الحق إلى صراعٍ دامٍ فلاحقوا أئمة أهل البيت (ع) في كل مكان من أوّل الأئمة حتى آخرهم حيث غيّب الله ولي أمره القائم المؤمل وهو الإمام الثاني عشر بعد ما عزم الحكام على قتله فهو غائب عن الأنظار سيظهره الله فيما بعد ليملأ الأرض عدلاً وقسطاً بإذنه تعالى . فربّ سائل يسأل عن الروايات الماضية كيف أن الأرض لا تخلو من حجة ولو بقيت بغير إمام لساخت بأهلها فهل يوجد اليوم إمام وخليفة بالمعنى الشرعي للرسول الأعظم (ص) ، نعم من المؤكد انه موجود لكنه غائب مغمور يقول الإمام علي (ع) : «اللهم لا بدّ لك من حجج في أرضك حجة بعد حجة . . . لئلا يتفرق أتباع أوليائك ظاهر غير مطاع أو مكتتم خائف يترقب إن غاب عن

الناس شخصهم في حال هدنتهم في دولة الباطل فلن يغيب عنهم علمهم وآدابهم . . . » .

ويقول الإمام الباقر (ع) : «لم تخل الأرض منذ خلق الله آدم من حجة لله فيها ظاهر مشهور أو غائب مستور» .

والآن يمكن أن نتساءل ونحن لا زلنا في مقدمة البحث عن الإمامة هل إنّ النبي الأكرم (ص) كان يعلم بأهمية الخلافة والقيادة من بعده أم لا ؟ وهو الذي لم يترك صغائر الأمور إلاّ وضّحها وشرحها وبيّنها فهل مسألة الخلافة من بعده كانت بمستوىٰ من عدم الأهمية فلا تستحق البحث أم كيف ذلك ؟ فإن كان (ص) لا يشعر بأهميتها فذلك نقص يأباه العقلاء علىٰ أنفسهم أن يتركوا أمراً دون توصية عليه مهما كان تافهاً فكيف بالرسالة والمسؤولية ، أو بأنه كان يعرف أهميتها بدقة وبيّنها بأفضل صورة ولكن النفوس المريضة أزالتهم عن مراتبهم التي رتبهم الله فيها ألم نقرأ في زيارة الحسين (ولعَن الله أمة أزالتكم عن مراتبكم التي رتبكم الله فيها) .

فالأحاديث والروايات الماضية تؤكد ضرورة معرفة الإمام وضرورة اتباعه ويُحذرنا (ص) من التهاون في أمر الإمامة فالتهاون من الجاهلية ، فإذن كان الرسول (ص) يدرك أهمية الخلافة من بعده ومن المؤكد أنه (ص) استلم أوامر الله عز وجل في تعيين الأئمة من أهل البيت (ع) خلفاء من بعده وكانت الخطة الشرعية المباركة لإنهاء الفتنة والتمزّق من المجتمع الإسلامي وبالذات في المستقبل بعد رحيله (ص) ـ كما توقع النبي الأعظم ـ والآن لنتعرف علىٰ الخطة الشرعية ـ هذه ـ التي تضمن لنا سلامة المبدأ والمسير ، فإذن ما هي هذه الخطة ؟ وكيف ترك الرسول (ص) الأمر من بعده ؟ وما هي تنبؤات الرسول الأكرم (ص) لمستقبل الأمة حول الخلفاء ؟ كل ذلك سنعرفه في بحثنا عن الإمامة وهذه التساؤلات نبحثها في موضوع الحل الجذري لمسألة الخلافة الإسلامية الذي سيأتي ـ بإذنه تعالىٰ ـ .

# ثانياً : لماذا الامام ؟

١ ـ قاعدة اللطف الإلهي .

٢ ـ خاتمة الرسالات .

٣ ـ الضرورة التشريعية .

٤ ـ الضرورة الفكرية والعقائدية .

٥ ـ القدوة الصالحة والمثل الأعلى .

٦ ـ الضرورة الاجتماعية .

٧ ـ الضرورة الثورية والجهادية والسياسية .

٨ ـ الوقائع المستجدة .

٩ ـ الحصانة الايمانية .

١٠ ـ من سنن الله تعالى .

لدراستنا العقائدية هذه لا بد أن نتساءل حول المسائل الفكرية لنثير دفائن العقول من ناحية ولنعرف أهمية الإيمان بها من ناحية أخرىٰ ولتتوضح بالنتيجة أعمدة العقيدة الإسلامية شرعاً وعقلاً والمرجو ألّا تجرنا أحداث التاريخ إلىٰ حالات ردود الفعل السلبية التي تسود المجتمعات المتخلّفة بل لا بد من الموضوعية التامة في هذه البحوث لأنها مصيرية تحدد مستقبل الإنسان وحاضره بالقرب والبعد عن الله تعالىٰ فسعياً وراء الحقيقة لا بد من

عنصر القناعة بالمبدأ لنلتزم عبر القناعة هذه بتلك الحقيقة الإيمانية وموضوع الإمامة لا بد أن ندخله بهذه الروحية الإيجابية فنقول لماذا الإمام ؟ وكيف نفهم دور الإمام ؟ وهل للإمامة أدلتها الشرعية والعقلية ؟ وما هي فوائد الإمامة في حياة الإنسان المسلم وبالذات في عصرنا الحاضر حيث غياب الإمام الأصل وظهور طبقة الفقهاء المراجع النواب للإمام المعصوم ؟ وبالتالي ما هي واجبات الإمام وحقوقه وبالمقابل ما هي واجبات الأمة وحقوقها اتجاه الإمام وهل من الضروري دراسة حياة الأئمة ومعرفة أحداث التاريخ ؟ وهل من المهم استعراض أعمال ومنجزات كل إمام وقد مرت مع التاريخ ؟ وكيف يمكننا أن نتفهم الإمامة بكل أبعادها ؟ والآن يمكننا الدخول في البحث بعد هذه التساؤلات لنحصل على الإجابات المترابطة أحياناً ضمن تسلسل آتي وغير المترابطة أحياناً أخرى ضمن ضرورة نتحسسها ولندخل البحث عبر النقاط التالية :

**١ ـ قاعدة اللطف الالهي :**

كما قلنا سابقاً إن الله تعالى بلطفه وعطفه وحنانه على الإنسان والمجتمع البشري بعث أنبياءه ورسله وكتبه وهكذا ختم الرسالات برسالة الإسلام المباركة وكما أن القرآن العظيم يحمل ألطاف الله سبحانه في تعاليمه وتشريعاته أنزله لصالح الناس واختار النبي محمد (ص) لتطبيقه، أيضاً من ألطاف الله وهكذا امتداداً لهذا اللطف الإلهي عيّن سبحانه القيادة الإسلامية التي تلي الرسول الأعظم (ص) ليتم حفظ الإسلام والمسلمين من التيه والضياع ، المتوقعيْن لو ترك الكتاب بعد الرسول (ص) دون إمام مطبق للكتاب بصفته امتداداً طبيعياً وشرعياً للنبي (ص) وبالضبط كان يحدث الضياع أيضاً لو أنزل الله الكتاب على الناس دون نبي يأخذ بأيديهم نحو التطبيق الصحيح .

فمن ألطاف الله عز وجل أنه يرعى مصلحة المسلمين بشكل دقيق لذلك سنّ مشروع الإمامة وعين الأئمة (ع) وأمر بأتباعهم ، فالإمامة أمر

إلهي كالنبوة واللطف الإلهي يتجسد في اختيار النبي كما يتجسد أيضاً في تعيين الأئمة واختيارهم .

من هنا قال النبي (ص) في قوله تعالىٰ ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ «يدعىٰ كل قوم بإمام زمانهم وكتاب الله وسنة نبيهم » ،وقال (ص) في حديث آخر :« اسمعواوأطيعوا لمن ولّاه الله الأمر فإنه نظام الإسلام» .

وحينما سئل الإمام الباقر (ع) عن علة احتياج الناس إلىٰ النبي والإمام قال «لبقاء العالم علىٰ صلاحه وذلك ان الله عز وجل يرفع العذاب عن أهل الأرض إذا كان فيه نبي أو إمام» . وفي الآية المباركة : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي . .﴾ يقول الإمام الرضا (ع) : «وأمر الإمامة من تمام الدين» .

وفي الرواية الشريفة عن الإمام زين العابدين (ع) أنه قال :

«اللهم إنك أيّدت دينك في كل أوان بإمام أقمته عَلَماً لعبادك ومناراً في بلادك بعد أن وصلتَ حبله بحبلك وجعلته الذريعة إلىٰ رضوانك» .

وروايات كثيرة في هذا الصدد فالإمامة إذن أمر من الله وأمر من الرسول وهذا الأمر الإلهي هو جزء من لطف الله كما أن النبوة جزء من لطفه تعالىٰ ولو تأملنا في الآية الكريمة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم . . .﴾ والإمام الرضا يقول : «الإمامة من تمام الدين» . لاحظوا الإتمام في الآية للنعمة الإلهية والنعمة هذه نفهمها بأنها مصحوبة بالعطاء الكبير والحنان واللطف فإذن الإمامة هي تمام الدين وهي النعمة الإلهية فعليه تكون من الألطاف والمنن الربانية، هذا وقد أمر الله بإطاعة الأئمة (ع) . يقول الإمام الصادق : «نحن قوم فرض الله طاعتنا وأنتم تأتمّون بمن لا يعذر الناس بجهالته» .

**٢ ـ خاتمة الرسالات :**

رسالة الإسلام هي خاتمة الرسالات السماوية فقد قال عز وجل :

﴿ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ .

[سورة آل عمران ٣ ؛ الآية : ٨٥]

فبما أن هذه الرسالة هي الختام فلا بد من قانون يضمن ديمومتها عبر الزمن ونحن نعلم أن الرسالة الإسلامية ليست مقتصرة على زمن البعثة فقط ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ فإذن لا بد من استمرار القيادة الحية إلى جانب الدستور الفكري للمسلمين وهو القرآن الحكيم أي أن وجود الولاية للأئمة (ع) هي الضمان الوحيد للبقاء على ديمومة الرسالة الإسلامية ومن هنا جاءت الروايات تؤكد مسألة الولاية تأكيداً كبيراً لأنها مفتاح الشريعة الإسلامية قال الإمام الباقر (ع) : «بني الإسلام على خمس : على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية» . وفي رواية الإمام الصادق : «بني الإسلام على خمسة أشياء : على الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية» ، قال زراره : «فقلت:وأي شيء من ذلك أفضل ؟ فقال : (الولاية أفضل لأنها مفتاحهن والوالي هو الدليل عليهن . . ) .

فلا يكتب للرسالة الإسلامية بقاءً فعلياً من دون الإمامة المخوّلة لقيادة الأمة شرعاً يقول الإمام الرضا (ع) : «إن الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعز المؤمنين» .

بل إن الأئمة هم سبل الله فقال الإمام المهدي في دعاء الندبة «فكانوا هم السبيل إليك والمسلك إلى رضوانك» وبغير هذه السبل لا تقبل العبادات كما يقول الرسول الأكرم(ص): «كل من دان الله عز وجل بعبادة يجهد فيها نفسه ولا إمام له من الله فسعيه غير مقبول وهو منال متحير والله شانىء لأعماله ومثله مثل شاة ضلّت عن راعيها وقطيعها . . » .

فحينما تكون الرسالة الإسلامية خاتمة الرسالات أي لا يظهر نبي بعد النبي محمد (ص) فلا بد إذن من قيادات حيّة تستمر في وجودها إلى جانب القرآن بعد حياة النبي (ص) .

**٣ ـ الضرورة التشريعية :**

التشريعات والأحكام الإلهية جاءت مجملة في القرآن الكريم فالنبي

(ص) والأئمة (ع) هم المفصلون لمجمل القرآن والموضحون للمتشابه فيه وخاصة لو عرفنا أن أحاديث الرسول (ص) كثر الوضع فيها وباعتراف الجميع أن كل ما يروىٰ عن الرسول غير صحيح ولو أردنا أن نعتبر كل ما يروىٰ عن الرسول صحيح لأسأنا لشخصية الرسول وللإسلام عموماً ولوقعنا في فخ التناقضات العقلية وطبيعي كان للوضع أهدافه المصلحية من سياسية واجتماعية وهذا بحث يحتاج إلى تفصيل نحيله لوقت آخر .

فالمسلمون بحاجة ماسّة إلىٰ نبع صافٍ ليأخذوا منه مباشرة دون تحريف أو وضع أو شك ليتعرّفوا علىٰ الموقف الإسلامي الصحيح من القرآن والسنة النبوية الشريفة وكذلك يحتاجون إلىٰ النبع الصافي لمعرفة الوقائع المستجدة في حياة المسلمين التي لم تقع في زمن النبي (ص) وبحثت بالرسالة الإسلامية دون تفصيل .

فالإمامة بعد النبي هي التي تقوم بهذه المهمة الخطيرة ضمن التشريع الإسلامي يقول الإمام علي (ع) : «إن أولىٰ الناس بأمر هذه الأمة قديماً وحديثاً أقربها من الرسول وأعلمها بالكتاب وأفقهها في الدين أوّلها إسلاماً وأفضلها جهاداً . . .» هذا الإمام هو الذي يفصّل الآيات ويميّز الأحاديث الواردة عن النبي (ص) بأمانة وإخلاص وإلاّ لفسدت الديانة وكثرت الشبهات وفي هذا الصدد يقول الإمام الرضا : «إنه لو لم يجعل لهم إماماً قيّماً أميناً حافظاً مستودعاً لدُرست الملة وذهب الدين وغُيّرت السنة والأحكام ولزاد فيه المبتدعون ونقص منه الملحدون وشبهوا ذلك علىٰ المسلمين لأنا قد وجدنا الخلق منقوصين محتاجين غير كاملين مع اختلافهم واختلاف أهوائهم وتشتّت أنحائهم فلو لم يجعل لهم قيّماً حافظاً لِما جاء الرسول لفسدوا علىٰ نحو ما بيّنا وغُيرت الشرائع والسنن . . .» وفي رواية الإمام الصادق : «إن الأرض لا تترك إلا بعالمٍ يحتاج الناس إليه ولا يحتاج إلىٰ الناس يعلم الحلال والحرام . . .» .

فدور الأئمة (ع) هو إبراز الحقائق الشرعية كما يريدها الله تعالىٰ

ويريدها الرسول فهم يفصلون المجمل ويزيلون الشوائب التي كثرت بعد وفاته (ص) وهذا ما كان يعرفه النبي الأعظم ويتوقعه لذلك أوصىٰ بوصاياه الخالدة وشدّد فيها لكي نلتزم هذا الخط القيادي الذي لا يميل عن الحق أبداً فقد قال (ص) : «والذي بعثني بالحق نبياً لو أن رجلاً لقي الله بعمل سبعين نبياً ثم لم يأتِ بولاية ولي الأمر من أهل البيت ما قَبل الله منه صرفاً ولا عدلاً»[٢] .

هذا مع علمنا بأن الشريعة الإسلامية تستهدف من العبادة والإطاعة والانضباط أمام القانون الإلهي بناء الحضارة الإنسانية وفق الشريعة الإسلامية فهو هدف حضاري كبير وهو الاستقامة الواقعية علىٰ المبدأ وهو تحمل صعاب الإيمان والتقوىٰ لا فقط أنها تهتم بالعبادات الشكلية الظاهرية وتجعلها هدفاً بحدّ ذاتها وإنما تريدها تعبيراً عن العمق الإيماني والالتزام القلبي ففي كل الظروف تطبق التعاليم الإسلامية ولا يمكن للظروف أن تغيّر أو تبدّل القانون الإسلامي إلا ضمن المرونة المسموح بها شرعاً فحلال محمد حلال إلىٰ يوم القيامة وحرام محمد حرام إلىٰ يوم القيامة ، سئل الإمام الصادق أنه هل تبقىٰ الأرض بلا عالم حي ظاهر يفزع إليه الناس في حلالهم وحرامهم ؟ فقال : «إذاً لا يعبد الله» .

ومثال السارق الذي مرّ معنا في الفصل السابق في عهد المعتصم كيف أن الإمام الجواد حلّ نزاع القوم الفقهاء بأدلة شرعية من الكتاب العزيز وسنه النبي في مسألة موضع قطع يد السارق حيث استشهد بقول الرسول (ص) «السجود على سبعة أعضاء الوجه واليدين والركبتين والرجلين فإذا قطعت يده من الكرسوع أو المرفق لم تبق له يد يسجد عليها قال الله تعالىٰ : ﴿وإن المساجد لله﴾ .

فإجراء الأحكام الجزائية بخصوصياتها وتفصيلاتها من المستصعب أن يدرك ذلك غير الإمام المعصوم وفي مراجعة سريعة لتاريخ العقوبات الجزائية في زمن الخليفة الثاني عمر ندرك عظمة وجود الإمام علي لحل الإشكالات الفقهية المعروضة على الخلافة القائمة وورد علىٰ لسان عمر

ـ أكثر من مرة ـ: لولا علي لهلك عمر، وقال وكذلك: لا خير في معضلة ليس لها أبو الحسن.

فإذن الجانب الفقهي التطبيقي في العبادات والمعاملات وإجراء العقوبات وما شابه هذه الأمور التشريعية كان لا بد لها من إمام عالم قدير معصوم يرىٰ في نفسه الأهلية والقابلية علىٰ الفتوىٰ وإجراء الأحكام وهذا هو الإمام المعصوم وبالفعل نحن نلاحظ في التاريخ الإسلامي بالرغم من إقصاء الأئمة عن المسرح السياسي لكن دورهم في مجال التشريع والإفتاء وحل المعضلات الفقهية مفروض علىٰ الساحة الإسلامية وعلىٰ الخلافة القائمة أيضاً. فهم فقهاء المسلمين وفقهاء دور الخلافة الإسلامية علىٰ مر العصور.

## ٤ ـ الضرورة العقائدية:

ظهرت مدارس فلسفية كثيرة في عصور ما بعد النبي (ص) متأثرة بالفلسفة اليونانية أحياناً ولتطوير الحياة الفكرية لدىٰ المسلمين أحياناً أخرىٰ. وهذه المدارس الفلسفية كلها محسوبة علىٰ الفكر الإسلامي ومستمدة تعاليمها من القرآن الكريم والسنة المحمدية الشريفة ـ كما تدّعي ـ فمن يكون الحاسم للنزاع فيما بينها وبمن نلوذ ولمن نعطي القياد العقائدي.

فظهرت مدرسة المجسمة لله تعالى مستندة إلىٰ آيات التجسيم مثلاً قوله تعالىٰ:

﴿يد الله فوق أيديهم﴾.

[سورة الفتح ٤٨؛ الآية: ١٠]

و ﴿الرحمٰن علىٰ العرش استوىٰ﴾.

[سورة طه ٢٠؛ الآية: ٥]

والمدرسة الجبرية استندت علىٰ آيات قرآنية تحمل في ظاهرها الجبر مثلاً قوله سبحانه:

﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾

[سورة التوبة ٩ ؛ الآية : ٥١]

﴿قل إن الأمر كله لله﴾

[سورة آل عمران ٣ ؛ الآية : ١٥٤]

وهكــذا بـل في أحــاديث النبي الأعــظم (ص) مــا يمكن حمله على التجسيم والجبر أيضاً لأنه يُحمل على وجوهٍ متعددة فـأمام هـذا التيار الفكـري الـذي كاد أن يجـرف الأمة الإسـلامية بـل لقد هـزّها عقـائدياً بفضل الحكـام المتسلطين فلولا صمّام الأمان المتمثل بالقيادة الشرعيـة (أئمة أهـل البيت) لم تبق العقيـدة الإسـلاميـة على المستـوى المـطلوب في الثبـات أثنــاء الصـراع الحضـاري فكان لـلأئمة (ع) الـدور الأكبر في تـوضيح المتشـابهات وتفصيـل المجمـلات في القرآن والسنـة الشريفـة وتبيين أسرار الكتـاب العزيـز بـالأدلـة العقلية والشرعية ففنّد الأئمة (ع) أسس المدرسـة الجبريـة والمجسمة والـذين تأثروا بالأفكار الاغريقية بالمنحى السلبي .

فمن هنا نفهم إشارة بعض الروايات الكريمة لهـذه المسائـل الاعتقاديـة العميقـة فقـد ورد عن النبي (ص) في وصف القـرآن (ظـاهــره أنيق وبـاطنــه عميق)[٣] وروايـة أخـرى (أن للقـرآن ظهـراً وبـطناً ولبـطنه بـطناً إلى سبعـة أبطن)[٤] .

فكما أن وجود النبي (ص) ضـروريّ بالنسبة لبيان العقـائـد الإسـلاميـة فكذلك كان لوجـود الإمام وخـاصة لـو عرفنـا أن العصور الإسـلامية التي تلت حياة الرسول (ص) قد تعرضت لهجمات فكرية عديدة .

## ٥ ـ القدوة الصالحة والمثل الأعلى :

المثـل الأعلى والقدوة الصـالحـة في التـطبيق حيث لا يمكن أن ينجح دستور ما لم يـطبقه شخص تـطبيقاً عمليـاً دقيقاً والقـرآن الكريم كـذلك لا بـد من شخص مؤهل لهذا التطبيق الدقيق وبمـا أن القرآن حمّـال ذو أوجه فـلا بد

أن يكون هذا الشخص معصوماً لنضمن تطبيقه المشروع للشريعة الإسلامية فمن هنا نلاحظ التأكيد على هذه المسألة من قبل الله تعالى فقد قال :

**﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾.**

[سورة الأحزاب ؛ ٣٣ الآية : ٢١]

**﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾.**

[سورة النساء ٤ ؛ الآية : ٥٩]

كي يتخذ المسلمون تطبيقات المعصوم المنفّذ للشرع والمخوّل بالتفصيلات العملية قدوة صالحة ومثلاً أعلى في الحياة وبما أن القرآن الكريم هو مجموعة وثائق دستورية والمعصوم المطبق هو المسدَّد من قبل الله تعالى فقد جاء في الحديث الشريف قول النبي (ص) : «علي مع الحق والحقُّ مع علي» «علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»(٥) . وغيرها من الأحاديث والروايات التي ستأتي في حينها ، فإذن تكتمل الصورة الصالحة للدستور والصورة التطبيقية له أمام الناس وبعد ذلك لم تقبل منهم حجة أو تبرير في المخالفة والتباطؤ في تنفيذ الدساتير الشرعية .

فالأئمة (ع) هم الحماة للقرآن والمطبقون له فمنهم يصدر التفسير والتأويل بل يصدر كل خير منهم يقول الإمام الصادق (ع): «نحن أصل كل خير ومن فروعنا كل بر فمن البر : التوحيد والصلاة والصيام وكظم الغيظ والعفو عن المسيء ورحمة الفقير وتعهد الجار والإقرار بالفضل لأهله وعدوّنا أصل كل شر ومن فروعهم كل قبيح وفاحشة فمنهم الكذب والبخل والنميمة والقطيعة وأكل الربا وأكل مال اليتيم بغير حقه وتعدي الحدود التي أمر الله وركوب الفواحش ما ظهر منها وما بطن والزنا والسرقة وكل ما وافق ذلك من القبيح فكذب من زعم أنه معنا وهو متعلق بفروع غيرنا»(٦) .

هذا وقد ورد في تفسير قوله تعالى **﴿وأولي الأمر منكم﴾** عن الباقر

والصادق «إن أولي الأمر هم الأئمة من آل محمد ، أوجب الله طاعتهم بالاطلاق كما أوجب طاعته وطاعة رسوله»[٧] .

### ٦ـ الضرورة الاجتماعية :

الإمام (ع) هو المأوىٰ الطبيعي لحلّ المعضلات السياسية والاجتماعية والجهادية فكما أن وجود الإمام ضرورة عقائدية وتشريعية كذلك وجوده لضرورات اجتماعية وسياسية وثورية فالإمام يمنح الصفة الشرعية للتحرك والثورة والتضحية والشهادة في سبيل الله وأنه (ع) يحدد المصلحة الإسلامية في الثورة أو الصلح أو الهدنة فهو ينظر بنور الله وأنه مسدد من قبله تعالىٰ إضافة إلى القضايا الاجتماعية والسياسية فإنه الأجدر في حل معضلات المجتمع في هذه الأطر وخاصة لو عرفنا أن تحديد المصلحة والصفة الشرعية لا يمكن توفيرهما بدون الإمام المعصوم وبالذات في الظروف التي يسودها الأمراء والحكام وحواشيهما من وعاظ السلاطين والمبررين للحكام أعمالهم الجائرة والمضللين علىٰ الناس بذلك فيكون الناس بهذه الحالة وغيرها في حاجة ماسة إلى الإمام ليبين لهم الحلال والحرام قال الإمام الصادق ـ كما مر معنا هذا الحديث ـ ان الأرض لا تترك إلا بعالم يحتاج الناس إليه ولا يحتاج إلى الناس يعلم الحلال والحرام .

ورواية الإمام الرضا (ع) توضح هذه الضرورة كذلك حيث يتساءل « . . فإن قال : فلم جعل أولي الأمر وأمر بطاعتهم ؟ قيل لعلل كثيرة : منها أن الخلق لما وقفوا علىٰ حدٍّ محدود وأُمروا أن لا يتعدّوا ذلك الحد لما فيه من فسادهم لم يكن يثبت ذلك ولا يقوم إلاّ بأن يجعل عليهم فيه أميناً . . . ومنها أنا لانجد فرقة من الفرق ولا ملة من الملل بقوا وعاشوا إلاّ بقيّم ورئيس لما لا بد لهم منه ، لا قوام لهم إلاّ به . . . ومنها أنه لو لم يجعل لهم إماماً قيّماً أميناً حافظاً مستودعاً لدُرست الملة وذهب الدين وغُيرت السنة . . . » فلا بد أن يدخل الإمام في الوسط الاجتماعي ليحل المشاكل الاجتماعية ويوجهها الوجهة المقبولة فيكون النبراس الدائم لهذه الناحية

إضافة لنواحي الحياة الأخرى .

يقول الإمام علي (ع): «على أئمة الحق أن يتأسّوا بأضعف رعيتهم حالاً في الأكل واللباس ولا يتميزون عليهم بشيء لا يقدرون عليه ليراهم الفقير فيرضىٰ عن الله تعالىٰ بما هو فيه ويراهم الغني فيزداد شكراً وتواضعاً» .

وتتضح هذه الضرورة الاجتماعية ـ كما أسلفنا ـ حينما يتسلط رجال الدنيا علىٰ الحكم الإسلامي فيريدون من المجتمع أن يذوب في ذواتهم بل يسخروه حتىٰ في الأطر غير الشرعية لإرضاء شهواتهم كما فعل معاوية بن أبي سفيان لابنه يزيد حينما أحب يزيد زوجة عبد الله بن سلام (أُرينب) المعروفة بالجمال فدّبر حيلة بواسطة وعاظ السلاطين فجلب ابن سلام من المدينة للشام فأغراه بالزواج من أخت يزيد ابنته بشرط الطلاق من أُرينب التي كان يحبها كثيراً باعتبارها زوجته وبالفعل كتب الطلاق وأخذ كتاب الطلاق وعاظ السلاطين وانطلقوا نحو أُرينب في المدينة وزاروا الإمام الحسين (ع) وأخبروه بالأمر وهنا تدخل الإمام الحسين (ع) ليكون هو الخاطب أيضاً منافساً ليزيد في ذلك فبعد أن بُلّغت بطلاقها حزنت كثيراً واختارت ريحانة رسول الله زوجاً لها وبعد فشل المحاولة عاد ابن سلام حزيناً باكياً لأنه خسر زوجته ورفضته أخت يزيد فعرف المكيدة فجاء للحسين (ع) فأعادها إليه دون أن يدخل بها فعادت الأسرة سعيدة . . والإمام السجاد كان يرعىٰ الكثير من بيوت المدينة بعد إباحتها لجيش يزيد ثلاثة أيام . . ومن هذه الوقائع الاجتماعية التي تدخل الأئمة (ع) لإصلاحها تحفل بها كتب السير والتاريخ . .

### ٧ ـ الضرورة الثورية والجهادية والسياسية :

وكما أن وجود الإمام (ع) لضرورة اجتماعية إصلاحية كذلك وجوده لضرورة سياسية لتبيان الخطوط المنحرفة عن غيرها والضرورة جهادية ثورية أيضاً حيث يستطيع الإمام أن يحدد الثغرات السياسية في الحكم القائم ويضع لها البديل الإسلامي ويحدد أيضاً التوقيت الثوري المناسب في ظل

الظالمين بعد أن يرسم خطط العمل وطرق المسيرة الموصلة إلىٰ نقطة الانفجار الثوري أي ساعة الصفر فالإمام الحسن مهّد لثورة الإمام الحسين والإمام السجاد أكمل ثورة الإمام الحسين وأشعل الانتفاضة في المدينة المنورة وهكذا . . .

فإذن لا ينتهي موضوع الضرورات بالنسبة للإمام المعصوم إلا بشمول الحياة واحتياجاتها من كل النواحي فهو ضروري لكل ناحية من نواحي الحياة الكونية والشرعية والسياسية . . . يقول الإمام الرضا في صفة الإمام . . . (مضطلع بالامامة ، عالم بالسياسة)[٨] .

فالإمام هو الذي يستطيع أن يطبق الشريعة الإسلامية لحلّ هذه المعضلات ولا يستطيع ذلك إلاّ المعصوم فيحل الخلافات بالطرق المشروعة فقد ورد في كتب الروايات أن مناظرة حدثت بين أحد طلبة الإمام الصادق وهو هشام بن الحكم مع أحد الشاميين المختلفين بالرأي مع هشام في هذه المسألة وتم ذلك بحضور الإمام ، قال الشامي لهشام سلني في إمامه هذا ـ يعني الصادق ـ فغضب هشام حتىٰ ارتعد ثم قال للشامي : أربّك أنظر لخلقه أم خلقه لأنفسهم فقال الشامي بل ربي انظر لخلقه فقال هشام ففعل بنظره لهم ماذا ؟ قال : أقام لهم حجة ودليلاً كي لا يتشتتوا أو يختلفوا ، يتألفهم ويقيم أودهم ويخبرهم بفرض ربهم قال فمن هو ؟ قال رسول الله (ص) قال هشام فبعد رسول الله (ص) قال الكتاب والسنة قال هشام فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنة في رفع الاختلاف عنا قال الشامي نعم قال فلم اختلفنا أنا وأنت وصرت إلينا من الشام لمخالفتنا إياك فسكت الشامي فقال أبو عبد الله (ع) للشامي : ما لك لا تتكلم ؟ قال الشامي إن قلت لم نختلف كذبت، وإن قلت ان الكتاب والسنة يرفعان عنا الاختلاف أبطلت، لأنهما يحتملان الوجوه وإن قلت قد اختلفنا وكل منا يدعي الحق فلم ينفعنا إذن الكتاب والسنة إلاّ أن لي عليه هذه الحجة فقال (ع) سله تجده مليّاً فقال الشامي يا هذا من أنظر للخلق أربهم أو أنفسهم فقال هشام : ربهم أنظر . . . فقال الشامي فهل أقام لهم من يجمع لهم كلمتهم ويقيم

أودهم ويخبرهم بحقهم من باطلهم قال هشام في وقت رسول الله أو الساعة فقال الشامي في وقت رسول الله رسول الله والساعة من، قال هشام : هذا القاعد الذي تشد له الرحال ويخبرنا بأخبار السماء وراثة عن أب عن جد، قال الشامي فكيف لي أن أعلم ذلك قال هشام سله عمّا بدا لك، قال الشامي : قطعت عذري فعليّ السؤال وعند ذاك شرح له الإمام (ع) كيفية سفره وما صادف فيه من حوادث فأقبل الشامي يقول : صدقت وآمن بإمامته[٩].

وليس للإمام تحديد ساعة الثورة فقط بل بيان أسلوب التحرك وأساليب الجهاد بل يقود الأمة جهادياً علىٰ الأرض ويخطط لها ميدانياً التخطيط العسكري في الهجوم أو الدفاع سواء كانت المواجهة فردية أو جماعية وهكذا النبي (ص) القدوة العظمىٰ حيث قاد المسلمين شخصياً في الميدان وهكذا الإمام علي أيضاً وهكذا الإمام الحسين قاد الثورة بنفسه وأهل بيته وأصحابه البررة .

ففي الرواية : (أن الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعزّ المؤمنين، إن الإمام رأس الإسلام النامي وفرعه السامي بالإمام تقام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وتوفير الفيء والصدقات وإمضاء الحدود والأحكام ومنع الثغور والأطراف . . ) .

فإذن وجود الإمام علىٰ الساحة ضرورة سياسية وجهادية وثورية فإنه الغطاء الشرعي المتين للتحرك على كافة المستويات وهو الذي يحفظ لثمار هذا التحرك من الضياع ولجهوده من الانحراف .

### ٨ ـ الوقائع المستجدة :

الوقائع المستجدة في حياة الأمة علىٰ كافة المستويات بحاجة إلىٰ قرار قطعي ، ومن دون شك انه لا يستطيع أحد أن يزود الأمة بالقرار القطعي إلا الإمام المعصوم والمدعوم من قبله سبحانه وتعالىٰ يقول الإمام الباقر (ع) :

«إنما يَعرف الله عز وجل ويَعبده من عرف الله وعرف إمامه منّا أهل

البيت»[10] وهذه النقطة من النقاط المهمة التي نرىٰ آثارها جليةً أمامنا فالقائد الفعلي والشرعي هو الذي يعطيك القرار الشرعي دون تردد أو احتياط في كل المسائل وبالذات المسائل المصيرية المستجدة فإنه يحملها علىٰ مستوىٰ التطبيق والتنفيذ وانه يتحمل مسؤولية القرار وله الصلاحيات القيادية كما كانت للنبي (ص) في زمانه .

**٩ ـ الحصانة الايمانية :**

يقوم الإمام المعصوم بواجبه المقدس ضمن الظروف الموضوعية المناسبة يستهدف حصانة المجتمع إيمانياً ليقيه شر الانحراف والفساد فهو يحدد واجبه المقدس كثورة ثقافية أو أخلاقية أو إصلاحية أو جهادية سعياً لأجل الإصلاح والتحصين ففي الحالة الإصلاحية يبيّن للمجتمع السلوك الأصلح فيكون صورة ناصعة للخلق النبيل فيذكرهم بالآخرة حيث الجنة والنار وهكذا حينما تمد الدنيا مخالب شهواتها إلىٰ عمق الإنسان والمجتمع فيبتعد المجتمع عن الطريق السوي وتجعله من الناسين لذكر الله والآخرة يبرز الإمام بثورته الإصلاحية لينشر القيم الإيجابية ليعيد الناس إلىٰ جادة الصواب والإمام ـ كما أسلفنا ـ يحدد نوعية التحرك والثورة إصلاحياً أو ثقافياً أو سياسياً . . وربما يؤدي كافة الأدوار في آنٍ واحد أو يؤدي كل دورٍ في ظرفٍ معين حسب ما تمليه الشريعة من واجبات مقدسة هدفه الرئيسي منها هو الإسلام وحصانة المسلمين من تيارات الدنيا والشهوات وحب الرئاسة والشيطان قال النبي الأعظم (ص) في أواخر حياته: « والله ما من شيء يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلاّ وقد أمرتكم به وما من شيء يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة إلاّ وقد نهيتكم عنه»[11] .

والأئمة (ع) كلٌّ قد أدّىٰ دوره الشرعي في الأمة فهذا الإمام الحسين أعاد الأمة إلىٰ الوعي والاستقامة بعد أن رأىٰ الشهادة في سبيل الله الطريق الوحيد للإنقاذ حيث كان ضمير الأمة في طريق الموت والانتحار فقال (ع): «إني لا أرىٰ الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برما» .

ولسان حاله : «إن كان دين محمد لم يستقم إلّا بقتلي فيا سيوف خذيني» .

المهم أن تبقىٰ رسالة الإسلام في وجدان الناس عن قناعة وإدراك فأساليب الأئمة متعددة كلها تصب في هذه القناة ـ وسنأتي في حديث مقبل عن حياة الأئمة ونبيّن علىٰ مستوىٰ الإيجاز هذه النقطة من حياة الأئمة (ع) فهم يملكون الصلاحية لتطبيق الشريعة ويحددون الواجب الشرعي إزاءها.

## ١٠ـ من سنن الله تعالى :

من سنن الله تعالىٰ الخلافة للأنبياء حيث كان هارون وصي موسىٰ كما هو مذكور في القرآن الكريم وما بين نبي ونبي مجموعة من الأوصياء حتىٰ يظهر النبي المرتقب .

وأكثر من ذلك أن الإسلام أوجب علىٰ المسلم أن يوصي بأموره بعد الموت فقد ورد في الحديث الشريف قوله(ص): «من مات بلا وصية مات ميتة جاهلية» ، فرسول الإسلام (ص) مع مهمته الإلهية الكبرىٰ لا يمكن أن يتركها دون وصية وحماية والحال أن الشريعة الإسلامية كما هو معروف اهتمت بدقائق الأمور وجزئياتها في حياة المسلمين فكيف لا تهتم بالخلافة باعتبارها أمر مصيري وخطير !

وقد ورد في كتب الروايات لدىٰ كل الفرق الإسلامية أن النبي (ص) أوصىٰ للأئمة من بعده حيث قال (ص) : «إن هذا الأمر لا ينقضي حتىٰ يمضي فيهم اثنا عشر خليفة» وفي رواية كنز العمال قال (ص) : «إن عدة الخلفاء بعدي عدة نقباء موسىٰ» .

وفي حديث آخر قال (ص) : « لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً . . كلهم من قريش»[١٢] .

# ثالثاً : الحل الجذري لمسألة الخلافة

١ ـ النبي (ص) يتوقع حالة الخلاف
٢ ـ حسم النزاع

## ١ ـ النبي (ص) يتوقع حالة الخلاف :

في أكثر من حديث شريف نلاحظ تحذيراً من الرسول الأعظم (ص) للحالة الخلافية التي ستظهر من بعده وفي بعضها تصريح واضح بالاختلاف المتوقع والنبي (ص) يضع المعالجة الشرعية لمن يصغي إليه ويطيعه .

فقد قال (ص) : «ستفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين فرقة ، فرقة ناجية والباقون في النار»، وأحاديث الارتداد كثيرة تبيّن سبب الارتداد ومعالجته ففي كتاب الجمع بين الصحيحين الحديث ٢٦٧ «إن النبي محمد (ص) يرىٰ يوم القيامة أكثر أمته تدخل النار وحين يسأل عن السبب يقال : إنهم ارتدوا بعدك علىٰ أدبارهم القهقرىٰ» .

وقال (ص) في حديث آخر «تفترق أمتي علىٰ ثلاث فرق فرقة علىٰ الحق لا ينقص الباطل منه شيئاً يحبّونني ويحبون أهل بيتي مثلهم مثل الذهب الجيد كلما أدخلته النار فأوقدت عليه لم يزده إلاّ جودة ، وفرقة على الباطل لا ينقص الحق منه شيئاً . . . وفرقة مدهدهة علىٰ ملة السامري لا

يقـولـون لا مســاس لكنهم يقـولـون لا قتـال !! إمــامهم عبـد الله بن قيس الأشعري»[١٣].

مما سبق يظهر أن النبي (ص) كان متوقعاًللحالة الخلافية دون أدنى شك مما يـدفـع تسـاؤلنـا الـذي يفـرض نفسـههنا : هـل أن الـرســول فكـر في وضــع الحلول لهـذه الحالـة أم تركهـا لتحل نفسهـا بنفسـها! ؟ وهي مسألة مصيـريـة وجـوهريـة ولا يمكن أن نختـار الـرأي الثـاني حينمـا عـرفنـا أن الإسـلام دين الحيـاة لم يترك صغيـرة ولا كبيرة في الحيـاة إلاّ وسنّ لها قـانـونـاً ووضـع لهـا تشـريعاً فكيف بـالمسألـة المصيريـة التي من المحتمـل أن تهـدد وجـود الأمـة الإسلامية بل وجود الإسلام ككل .

فالله سبحانه والنبي الأكرم أحرص منا علىٰ الإسـلام والمسلمين فلا بـد إذن قـد وضعت الشريعـة الإسلاميـة حـلاّ منـاسبـاً لهـذه المعضلة المهمـة ولا يمكن أن نصدّق عدم وجـود الحل المشـروع لمسألـة من أهم مسـائـل الإسلام خطورةً ومن أعقد المسائل الاعتقادية ، لأن الإيمان بالامـامة وعـدمه سيؤثـر علىٰ مصير الشريعة الإسلامية من الجانب الفكري والعقائدي من ناحيـة ومن ناحيـة أخرىٰ ستتمزق الوحدة الإسلامية بل ستتقاتل الأمة فيمـا بينها ـ كمـا حدث في التاريـخ ! ـ .

ولو فرضنا أن الحل يبقىٰ عـائماً دون تحـديد اسمٍ معين ليقـوم بالمهـام الصعبـة ستتحوّل الصـلاحية الشـرعية لـلأمة في اختيـار القائـد ولأهـل الحـل والعقـد وهذا ممـا لا يـوجـد نص عليـه في آيـة أو حـديث نبـوي ولا الـدليـل العقلي يسنده لأن الأمة قد تخطىء في الاختيـار وقد تصيب وأن الأكثـرية ليست دليـلاً علىٰ صحة الـرأي في مسألـة اعتقـاديـة مهمـة والمعـروف أن الأكثـريـة مذمومـة في القرآن المجيـد وقد صـرح بعدم جـدوائية رأي الأكثـرية فقـد قال سبحانه :

﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ .

[سورة الأنعام ٦ ؛ الآية : ١١٦]

وحتىٰ في حياتنا العملية اليوم من الصعوبة أن نؤمن أن الأمة هي التي تحدد التشريع الإلهي الصائب في الحلال والحرام والقيادة والطاعة . . .

أمام هذه التساؤلات وأمام عدم الأدلة بشرعية اختيار الأمة نلاحظ النصوص المتواترة في تفسير القرآن الكريم وكذلك وجود أحاديث النبي الأكرم (ص) بأن الإسلام وضع الحل الطبيعي الشرعي لهذه المعضلة فقد نصب ـ بأمر الله عز وجل ـ النبي محمد الإمام علياً إماماً ووصياً وخليفة من بعده فمن جملة ما قاله (ص) حينما آخاه بعد الهجرة إلىٰ المدينة المنوّرة حيث المشروع المتكامل في مؤاخاة المهاجرين والأنصار قال له : «أنت مني بمنزلة هارون من موسىٰ غير أنه لا نبي بعدي» .

وقال (ص) : «إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم ـ أو من بعدي علىٰ اختلاف النصوص ـ فاسمعوا له وأطيعوا»[14] فضحك القوم واستهزأوا بهذا القرار وقالوا لأبي طالب قد أمّرك أن تسمع وتطيع لهذا الغلام ـ يعنون ابنه ـ.

وحديث الغدير في حجة الوداع لا ينكره أحد علىٰ الإطلاق حيث قال (ص) «من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه . . .» .

هذا الإجراء النبوي في حجة الوداع جاء استجابة للنداء الإلهي حينما نزلت الآية المباركة :

**﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس . . ﴾ .**

[سورة المائدة ٥ ؛ الآية : ٦٧]

وحينما بلّغ الرسالة في تعيين الخليفة من بعده وهو الإمام علي (ع) في ذلك الهجير نزلت الآية المباركة :

**﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ .**

[سورة المائدة ٥ ؛ الآية : ٣]

وفي رواية يونس بن يعقوب قال كان عند أبي عبد الله الصادق جماعة من أصحابه منهم حمران بن أعين . . وجماعة فيهم هشام بن الحكم وهو شاب فقال أبو عبد الله : «يا هشام ألا تخبرني كيف صنعت بعمرو بن عبيد وكيف سألته . . فأجاب إنه دخل عليه بالبصرة وهو في مجلس كبير فبدأ يسأله بعد أن عرّف نفسه بأنه رجل غريب ، قلت ألك عين فقال نعم . قلت فما تصنع بها قال أرىٰ بها الألوان والأشخاص . قلت فلك أنف قال نعم قلت فما تصنع به قال أشم به الرائحة قلت فَلَكَ فم قال نعم قلت فما تصنع به قال أذوق به الطعم قلت فلك أذن قال نعم قلت فما تصنع بها قال أسمع بها الصوت قلت ألك قلب قال نعم ، قلت فما تصنع به قال أميّز به كل ما ورد علىٰ هذه الجوارح والحواس قلت أَوَليس في هذه الجوارح غنىً عن القلب قال لا ، فقلت وكيف ذلك وهي صحيحة سليمة قال يا بني إن الجوارح إذا شكت في شيءٍ شمته أو رأته أو ذاقته أو سمعته ردته إلىٰ القلب فتستيقن اليقين ويبطل الشك قال هشام فقلت له فإنما أقام الله القلب لشك الجوارح قال نعم قلت لا بد من القلب وإلا لم تستيقن الجوارح قال نعم فقلت له يا أبا مروان فالله تبارك وتعالىٰ لم يترك جوارحك حتىٰ جعل لها إماماً يصحح لها الصحيح ،تستيقن به ما شكّت فيه ويترك هذا الخلق كلهم في حيرتهم وشكهم واختلافهم لا يقيم لهم إماماً يردون إليه شكّهم وحيرتهم ويقيم لك إماماً لجوارحك ترد إليه حيرتك وشكك قال فسكت ولم يقل لي شيئاً . . . »[١٥] .

فبالنتيجة إن المتوقع الطبيعي لدىٰ النبي (ص) من بعده سيكون الخلاف فلذلك بيّنه ووضع له الحل الإلهي قبل أن تأخذ المسألة أبعاداً نفسية وسياسية فلكي نؤمن بأكملية الرسالة الإسلامية وأنها شاملة لكل نواحي الحياة وأنها دائمة حتىٰ تقوم الساعة لا بد إذن من الإيمان القطعي بأن الإسلام قد حسم مسألة الخلافة دون أن يتركها تتفاعل سلبياً داخل الأمة بل حلّها حلاً جذرياً وواقعياً .

## ٢ ـ حسم النزاع :

ـ وكما قلنا ـ من مصداقية الرسالة الإسلامية بأنها كاملة وشاملة ومستمرة تقتضي الإيمان بأن الإسلام قد حسم النزاع المتوقع ببيان القيادة الشرعية فهي تمثل الخلافة الشرعية للنبي الأكرم (ص) بالتعيين نصاً وقد سبق أيضاً أن الأمة أو بالتحديد أهل الحل والعقد أو الأكثرية كل ذلك لا يمكن أن نعتبره طرحاً حاسماً للنزاع المتوقع فإن حلاًّ عائماً يصعب أن نلصقه بالشريعة الإسلامية التي لم تعوّدنا علىٰ الحلول العائمة والغامضة ومن العسير أن نربط هذا الحل العائم بالغيب المدبر وهكذا ننتهي بلا بدية التعيين للخلافة كما تمّ تعيين النبوة نصاً بأمر الله تعالىٰ فالمسألة مرتبطة بالتعيين الإلهي والاختيار الرباني ضمن المشروع المتكامل للرسالة الإسلامية فالله سبحانه هو العارف بمصلحة الرسالة البشرية وتعيين النبي والإمام بالنص هو الأنسب للطفه وعنايته ـ وأمر الإمامة من تمام الدين ـ كما قال الإمام الرضا (ع) .

# رابعاً: شرائط الامامة

١ ـ التعيين الإلهي
٢ ـ لا لاختيار الناس
٣ ـ العصمة
٤ ـ الأفضلية
٥ ـ السلامة من العيوب
٦ ـ المعاجز والكرامات

للإمامة عدة شرائط حددها التشريع الإسلامي فلا يمكن لشخص أن يخترق صفوف الأمة الإسلامية ويعلن نفسه إماماً ما لم تتوفر فيه هذه المواصفات التي يستحيل تواجدها في شخصية عادية غير مدعمة من الغيب وبذلك تتوفر الحصانة التامة للقيادة الإسلامية الأمينة على مصالح الإسلام والمسلمين من أن يدّعيها غير كفوء أو يعتلي منصبها الإلهي شخص منتفع بالإضافة إلى أن هذه الحصانة تحفظ القيادة الإسلامية من الوقوع تحت تأثيرات الدنيا والشهوات وبالتالي تكون قيادة أمينة على الشريعة وحريصة على مصالح الناس في ظل الإسلام ويستحيل عليها الانحراف فلو طالعنا كل شرائط القيادات في العالم لم نجد على الإطلاق مثل شرائط الإمامة عندنا ومن هنا تظهر أسباب الانحراف والتغيير من قائد لآخر على عكس

قيادة الإمام بل أكثر من ذلك أن القيادة الإسلامية النائبة عن الإمام المعصوم في زمن غيبته كزماننا الحالي فإنها محصّنة بشرائط دقيقة يصعب زحزحتها عن مواقفها المبدئية وأنها لمفخرة خالدة للإسلام أن يسنّ هذا المشروع القيادي عبر الزمن وهو محصن تحصيناً حديدياً من الإختراق أو الانحراف أو الخروج عن المبدئية وهذا الكلام يأتي في محله .

أما أهم تلك الشرائط فهي :

**١ . التعيين الالهي :**

إن الإمامة منصب إلهي والتصدي له بالمعنىٰ الشرعي الشامل لدينا لم يتحقق إلّا بالتعيين الإلهي فالنص الشرعي علىٰ الامامة من أبرز شرائطها، والعناية الإلهية ما تركتنا نتخبط في ظلمات الحياة بل وضحت لنا السبيل الهادي فبعد النبي (ص) وهو صاحب الولاية المطلقة يكون منصب الأئمة الاثني عشر (ع) هم ولاة أمر المسلمين في أموالهم وأعراضهم ومصيرهم فلو تتبعنا منصب الخلافة في أدوار التاريخ الإسلامي لما وجدنا ممارسة الدور القيادي للحاكمين كما يريده الله ونفهمه نحن من منصب الإمام والحال كان التسلط علىٰ إمارة المسلمين هي شارتهم ليحكموا من دون رعاية لتربية المجتمع وتعليم الناس وقيادتهم كيف يفعل الحاكم ذلك وهو يحكم المسلمين بعقلية الأمير المتجبر ، فاقد لشرائط التقوىٰ والإيمان والخلافة الشرعية وأدنىٰ مستويات العدالة ولكن ومع وجود الامارة المتسلطة كانت بؤر النور والهداية تأخذ طريقها في قيادة المجتمع لتملأه عدلاً وخيراً وصلاحاً . فكان يشعر المسلمون بقيادة الأئمة لهم روحياً ونفسياً بالرغم من إبعادهم عن المسرح السياسي هذا الشعور كان ولا يزال في وجدان المسلمين جميعاً .

فالقيادة الشاملة والخلافة الصحيحة تتجسد في إمامة المعصومين فهم يرشدون الناس إلىٰ العقل عبر الحجج القرآنية والفطرية ويمنعون الانحراف ويحاربون رأس الفتنة ويضحون من أجل القيم الإسلامية وراية لا إله إلا الله محمد رسول الله فحسب، وهذه الصفات لا نراها في خلفاء العباسيين مثلاً أو

أية خلافةٍ أخرىٰ ، بينما أئمة أهل البيت (ع) بالرغم من عدم الممارسة الشكلية لإدارة المسلمين لكنهم كانوا هم الولاة الشرعيين للمسلمين وتسجل لنا أحداث التاريخ أكثر من موقف مع أكثر من خليفة شكلي كان يتحير في إجابة المسلمين أو الوافدين فكان يحيل الأمر إلىٰ أهله وهم أئمة الهدىٰ (ع) .

عموماً نلاحظ أن هذا المنصب الإلهي المتميز عرف من الشرائط الرئيسية للإمامة عبر النص الشرعي أولاً وعبر التصدي الفعلي لقضايا الإسلام والمسلمين من قبل أئمة الهدىٰ ثانياً .

أما النص الشرعي ، فقد ورد في القرآن العزيز ذلك والنبي الأكرم وضح الأمر في أحاديثه أيضاً فكثير من الآيات والأحاديث التي تشخص الإمامة بالصفات المطلوبة وتُعيّن الإمامة في أشخاص معنيين بأسمائهم وقد مرّ في البحوث السابقة قسم منها ونذكر ـ هٰهنا ـ بعضها علىٰ مستوىٰ التذكير لا التفصيل :

قال تعالىٰ : **﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾**

[سورة المائدة ٥ ؛ الآية : ٥٥]

فقد اتفق المفسرون والمحدِّثون من جميع الفرق الإسلامية أنها نزلت في الإمام علي (ع) حينما تصدّق بخاتمه علىٰ المسكين وهو في أثناء الصلاة بحضور ثلة من الصحابة وهو مذكور في الصحاح الستة وروىٰ ذلك السيوطي والرازي والزمخشري وابن عباس وأبو ذر وجابر بن عبد الله الأنصاري . . وأهل اللغة كذلك يتفقون علىٰ أن معنىٰ الولي لغة يعني الأولىٰ بالتصرف المرادف للإمام والخليفة .

وقال تعالىٰ : **﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾** .

[سورة المائدة ٥ ؛ الآية : ٣]

يروي الرواة أنها نزلت في غدير خم بعد تعيين الإمام علي خليفة علىٰ المسلمين بأمر الله وبنص الرسول (ص) ، فعن أبي سعيد الخدري أن النبي (ص) لما أخذ بضبعي علي يوم الغدير لم يتفرق الناس حتىٰ نزلت

هذه الآية فقال(ص): «الله أكبر على اكمال الدين وإتمام النعمة ورضاء الرب برسالتي وبالولاية لعلي من بعدي . . .» .

وقال تعالىٰ : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ المراد بحبل الله هم أئمة أهل البيت كما ورد في كثير من الأحاديث وفي كتب التفسير أيضاً فالقرآن لا يفترق عنهم ومن تمسك بهم تمسك بالقرآن فهم عدل القرآن وترجمانه .

وسيأتي تفصيل بعض الآيات في حديث العصمة للأئمة (ع) وهناك آيات كثيرة في هذا الصدد أما ما ورد علىٰ لسان النبي الأكرم كذلك كثير في هذا الشأن نذكر بعضها .

قال رسول الله (ص) في حديث متواتر وبطرق عديدة : «إني قد تركت فيكم الثقلين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي وأحدهما أكبر من الأخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلىٰ الأرض وعترتي أهل بيتي ألا وانهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض» .

وفي حديث آخر قال (ص) : «يا علي! بنا ختم الله الدين كما بنا فتحه وبنا يؤلف الله بين قلوبكم بعد العداوة والبغضاء» .

وقال (ص) في حديث آخر : «إنما مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق» وعند ذكر آل النبي (ص) قال الإمام علي : «هم موضع سره وملجأ أمره وعيبة علمه وموئل حكمه وكهوف كتبه وجبال دينه بهم أقام انحناء ظهره وأذهب ارتعاد فرائصه» .

وقال الرسول (ص) : «ستفترق أمتي علىٰ ثلاثٍ وسبعين فرقة ، فرقة في الجنة والباقون في النار» .

وقال (ص) : «لا يزال هذا الدين قائماً حتىٰ يكون عليكم اثنا عشر خليفة» .

وأما رواية إبراهيم بن محمد الحمريني لحديث الغدير مسنداً من سليم بن قيس في حديث طويل . . يذكر فيه فضائل الإمام علي (ع) وأهل بيته أرىٰ لزاماً أن أنقل ما يفيدنا منه في هذا المجال ففي غدير خم خطب (ص) فقال :

«أيها الناس إن الله أرسلني برسالة ضاق بها صدري وظننت أن الناس مكذبي فأوعدني لأبلغها أو يعذبني . . . أيها الناس أتعلمون ان الله عز وجل مولاي وأنا مولىٰ المؤمنين أنا أولىٰ بهم من أنفسهم ؟ » قالوا بلىٰ يا رسول الله قال « . . . من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» فقام سلمان فقال يا رسول الله ولاء ماذا ؟فقال: « ولاء كولائي من كنت أولىٰ به من نفسه فعلي أولىٰ به من نفسه » فأنزل الله ﴿اليوم أكملت لكم . . .﴾ فكبّر رسول الله وقال: «الله أكبر تمام نبوتي وتمام دين الله ولاية علي بعدي» فقام أبو بكر وعمر فقالا: يا رسول الله هذه الآيات خاصة في علي قال(ص): «بلىٰ فيه وفي أوصيائي إلىٰ يوم القيامة» قالا: يا رسول الله بيِّنهم لنا قال (ص): «علي أخي ووزيري ووارثي ووصيّي وخليفتي في أمتي وولي كل مؤمن من بعدي ثم ابنه الحسن ثم الحسين ثم تسعة من ولد ابني الحسين واحداً بعد واحد ، القرآن معهم وهم مع القرآن لا يفارقونه ولا يفارقهم حتىٰ يردوا عليّ الحوض» .

أكتفي بهذا المقتضب من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة في بيان مسألة الإمامة بأنها قضية إلهية محددة من قبل الله سبحانه فالذي يسلك سبيل أئمة أهل البيت إنما يتعبد بالنص الإلهي المقدس وبنص الرسول الأكرم (ص) في مسألة الخلافة وهذا التعبد هو المطلوب أساساً لأننا توصلنا بالأدلة العقلية والنقلية بعدم إمكانية ترك هذه المسألة الحساسة دون حل ولن نجد حلاً سوىٰ ما رويناه من نصوص مقدسة في تعيين أئمة أهل البيت خلفاء وأمناء علىٰ الأمة والرسالة .

فإذن التعيين لهذا المنصب الإلهي مخصص لأئمة أهل البيت دون سواهم لأنهم هم المختارون من قبله تعالىٰ لقيادة هذه الأمة الإسلامية .

أما ثانياً فنلاحظ مسألة التصدي الحقيقي لمهام الأمة والرسالة تتجسد في أئمة أهل البيت أيضاً فهم تحملوا أعباء الرسالة الفكرية والثقافية والتنفيذية فهم حماة القرآن وحفظة سنة الرسول (ص) إضافة إلىٰ إدارتهم

للمجتمع الإدارة الفعلية لحل مشاكلهم وتوجيههم روحياً ونفسياً .

قال الإمام علي : «انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم واتبعوا أثرهم فلن يخرجوكم من هدىً ولن يعيدوكم في ردىً فإن لبدوا فالبدوا وإن نهضوا فانهضوا . . . » .

وقال كذلك : «إن أولىٰ الناس بأمر هذه الأمة قديماً وحديثاً أقربها من الرسول وأعلمها بالكتاب وأفقهها في الدين أولها إسلاماً وأفضلها جهاداً وأشدها بما تحمله الأئمة من أمر الأمة اضطلاعاً . . »[١٦] .

فالخلافة السياسية وإن احتل عرشها الحكام ولكن القيادة الإسلامية أي الخلافة الحقيقية كانت متجسدة في أشخاص الأئمة لذلك كانوا يحلون الأزمات الفكرية والثقافية والفلسفية مما يعجز عن حلها الحكام المتسلطون باسم الإسلام ـ وهذا ما سنتحدث عنه في حياة الأئمة في الصفحات القادمة ـ .

**٢ ـ لا لاختيار الناس :**

منصب الأئمة من أهل البيت تعيين إلهي مباشر بعيداً عن اختيار الناس فقد قال سبحانه وتعالىٰ :

**﴿ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضىٰ الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ .**

[سورة الأحزاب ٣٣ ؛ الآية : ٣٦]

فلا بد من الانصياع التام والتسليم المطلق لقضاء الله وقضاء رسوله لأن قضاء الرسول قضاء الله تعالىٰ : **﴿وما ينطق عن الهوىٰ، إن هو إلا وحي يوحىٰ﴾**

[سورة النجم ٥٣ ؛ الآيتان: ٣ ، ٤ ]

فليس للمؤمن أن يختار لنفسه أمراً وفي هذا الأمر قضاء إلهي محتوم فالخلافة منصب إلهي مقرر من قبل الله تعالىٰ حيث اصطفىٰ لهذا المنصب من يرىٰ فيه الأهلية والقدرة علىٰ تحمل مسؤوليتها وأمام هذا التشريع لا

نخيّر أنفسنا في اتباع هذا الخليفة باجتهاد أو استحسان بل لا اجتهاد ولا استحسان أمام النص المقدس وقد علمنا قصور عقولنا في الأبحاث السابقة عن كثير من الأمور وقدراتنا محدودة في هكذا تشريعات ولا نحتاج إلىٰ الاستدلال علىٰ ذلك لو شاهدنا الانتخابات في العالم كيف يجمع الأكثرية علىٰ اختيار رئيس لهم وبعد فترة يعضون أصابع الندم علىٰ عدم معرفتهم بنفسية هذا المنتخب المتسلط عليهم .

وعلىٰ هذا جاء اللطف الإلهي ليشملنا بعنايته ويحسم هذا الأمر بالتعيين قال تعالىٰ ﴿إني جاعلك للناس إماماً ـ النبي إبراهيم الخليل ـ قال -إبراهيم- ﴿ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾

[سورة البقرة ٢ ؛ الآية : ١٢٤]

فكان لإبراهيم الخليل طموح في أن يتقلد من ذريته هذا المنصب الإلهي المقرر ولكن التشريع الرباني نسف إمامة الظالمين وإن كانوا من ذرية إبراهيم .

وفي آية أخرى : ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ .

[سورة ص ٣٨ ؛ الآية : ٢٦]

وهكذا فمسألة الخلافة هي اختيار إلهي وليس للمؤمنين أن يتدخلوا في هذا الاختيار بل عليهم التسليم والإطاعة فالله وحده ﴿أعلم حيث يجعل رسالته﴾ [سورة الأنعام ٦ ؛ الآية : ١٢٤] فأئمة المسلمين قد نص الله سبحانه ورسوله علىٰ إمامتهم ففي الآيات الكريمة الماضية إشارة إلىٰ الولاية وفي أحاديث كثيرة وردت في هذا الصدد حصرت الخلافة والإمامة في بني هاشم في قريش قال رسول الله (ص) : «إن هذا الأمر لا ينقضي حتىٰ يمضي فيهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش» رواه مسلم في صحيحه ج ٢ ص ١٩١ .

وقال العلامة الحلي في (شرح التجريد) : إن المراد بالـ ١٢ هم أئمة الشيعة حيث ثبت بالتواتر أن النبي قال للحسين :«ابني هذا إمام ابن إمام أخو

إمام أبو أئمة تسعة تاسعهم قائمهم» وروىٰ المحب الطبري الشافعي في كتاب ذخائر العقبىٰ (أن النبي قال : «لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوماً واحداً لطوّل الله ذلك اليوم حتىٰ يبعث رجلاً من ولدي اسمه كاسمي» فقال سلمان : من أي ولدك يا رسول الله؟ قال : «إن ولدي هذا» ـ وضرب بيده علىٰ الحسين ـ [١٧].

أما لو ترك الخيار للناس فسنحصد التفرقة لعدم اجتماعهم علىٰ قائد واحد ـ عادة ـ فتدخل المحسوبيات والمنسوبيات كقضية طبيعية في الأمر وبعد ذلك من هو الضامن لاستقامة هذا القائد واستمراره علىٰ الاستقامة بعد انتخابه ؟ وكيف يمكنه أن يقنع الجميع برأيه وموقفه ؟ وحتىٰ في قناعاته التي يراها صحيحة من يُلزم الناس علىٰ قبولها في حالة عدم قناعتهم بتلك القرارات وهكذا مجموعة من العقبات التي تحول دون الارتباط القلبي بهذا المنتخب كما هو الحال في القيادات المنتخبة في العالم السياسي اليوم .

عن سعد بن عبد الله القمي عن الحجة القائم قلت فأخبرني يا مولاي عن العلة التي تمنع القوم من اختيار الإمام لأنفسهم ؟ .

قال : مصلح أو مفسد؟ قلت؟ مصلح قال : فهل يجوز أن تقع خيرتهم علىٰ المفسد بعد أن لا يعلم أحد ما يخطر ببال غيره من صلاح أو فساد ؟ قلت بلىٰ قال : فهي العلة وأوردها لك ببرهان ينقاد له عقلك .

ثم قال : أخبرني عن الرسل الذين اصطفاهم الله عز وجل وأنزل عليهم الكتب وأيدهم بالوحي والعصمة وهم أعلام الأمم أهدىٰ إلىٰ الاختيار منهم مثل موسىٰ وعيسىٰ (ع) هل يجوز مع وفور عقلهما وكمال علمهما إذ همّا بالاختيار أن تقع خيرتهما علىٰ المنافق وهما يظنان أنه مؤمن قلت : لا .

قال : هذا موسىٰ كليم الله مع وفور عقله وكمال علمه ونزول الوحي عليه اختار من أعيان قومه ووجوه عسكره لميقات ربه عز وجل سبعين رجلاً ممن لا يشك في إيمانهم وإخلاصهم فوقع خيرته على المنافقين قال الله عز وجل : ﴿واختار موسىٰ قومه سبعين رجلاً لميقاتنا . .﴾ فلما وجدنا اختيار

من قد اصطفاه الله عز وجل للنبوة واقعاً على الأفسد دون الأصلح وهو يظن أنه الأصلح دون الأفسد علمنا أن الاختيار لا يجوز إلا لمن يعلم ما تخفي الصدور . . » .

فإذن لا يمكن أن ندع هذه المسألة المصيرية للاختيار وليس المجتمع حقل تجارب يعيث فيه من يشاء من الناس فساداً وانحرافاً أو عدلاً حسب ما يراه لا حسب ما يراه الإسلام فلذلك جعلها الله سبحانه في أهل بيت نبيه الكريم وهم الأئمة الاثنا عشر . قال الإمام علي : «أنظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم واتبعوا إثرهم فلن يخرجوكم من هدىً ولن يعيدوكم في ردىً فإن لبدوا فألبدوا وإن نهضوا فأنهضوا . . » .

وقال (ع) : «ألا إن مَثَل آل محمد (ص) كمثل نجوم السماء إذا هوى نجم طلع نجم فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع وأراكم ما كنتم تأملون . . » .

وقال (ع) : «نحن شجرة النبوة ومحط الرسالة ومختلف الملائكة ومعادن العلم وينابيع الحكمة . . » .

وقال (ع) أيضاً : «تالله لقد عُلّمت تبليغ الرسالات وإتمام العدات وتمام الكلمات وعندنا ـ أهل البيت ـ أبواب الحِكَم وضياء الأمر . . »[١٨] .

وأحاديث وروايات كثيرة في هذا المجال . . المهم عرفنا أنّ الأئمة هم خلفاء الرسول (ص) بدليل القرآن والسنة الشريفة ففي القرآن آيات مباركة قاطعة بذلك وقد مرّت معنا بعضها وفي الكتب المختصة بهذا الجانب يكثر فيها الاستشهاد القطعي أما السنة الشريفة فمليئة بالأقوال القطعية أيضاً ولا يخفى علينا دور السنة المباركة في توضيح مجمل القرآن الكريم وتبيان أسباب النزول . . فقد بينت ذلك بشكل أوسع ومهما كانت اليد الأثيمة ماكرة في تأليف وتحريف بعض الأحاديث والروايات فإنها ما استطاعت أن تتلاعب في هذا البيان الواضح حول خلافة الرسول (ص) كمسألة مصيرية كما كان يحلو لها ذلك بشتّى الأساليب والطرق فقد سلمت

الأحاديث التي تنص بالخلافة وبأمره تعالىٰ تعييناً دون تدخل الناس في اختيارهم .

**٣ ـ العصمة :**

وهي عبارة من القدرة العقلية المتسلطة علىٰ جوانب الشهوات النفسية في الإنسان فهي قوة متحكمة وملكة خاصة تمنع من الوقوع في المعاصي والانحراف مع إمكان حدوث المعصية والخطأ علىٰ صاحبها .

وهي من شرائط الإمامة كما هي من شرائط النبوة (كما وسبق أن تحدثنا عن العصمة في النبوة) وهي ليست كما يفهمها البعض، أن الله تعالى يجبر المعصوم علىٰ ترك المعاصي وإتيان الواجبات لا وإنما لا تخفىٰ ألطاف الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ الجميع وعلىٰ المعصوم بالذات فالمعصوم يكون قادراً بقوة العقل والذكاء والإيمان المنقطع لله تعالى على أن يمتلك هذه الصفة أي العصمة عن الخطأ والزلل قال الشيخ المفيد في كتاب (أوائل المقالات) باب (القول في عصمة الأئمة) : إن الأئمة القائمين مقام الأنبياء في تنفيذ الأحكام وإقامة الحدود وحفظ الشرائع وتأديب الأنام معصومون كعصمة الأنبياء لا تجوز عليهم كبيرة ولا صغيرة . . ولا سهو في شيء من الدين ولا ينسون شيئاً من الأحكام . .

ويقول الشيخ المظفر : «ونعتقد أن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلىٰ الموت عمداً وسهواً كما يجب أن يكون معصوماً من السهو والخطأ والنسيان لأن الأئمة حفظة الشرع والقوامون عليه حالهم في ذلك حال النبي (ص)» .

ويقول العلامة الحلي في كتاب (نهج الحق) : « . . ولأن الحاجة إلىٰ الإمام إنما هي للانتصاف للمظلوم من الظالم ورفع الفساد وحسم مادة الفتن ولأن الإمام لطف يمنع القاهر من التعدي ويحمل الناس علىٰ فعل الطاعات واجتناب المحرمات ويقيم الحدود والفرائض ويؤاخذ الفساق ويعزر من

يستحق التعـزيـر فلو جـازت عليـه المعصيـة وصـدرت عنـه انتفت هـذه الفوائد»[١٩] .

والأدلة علىٰ عصمة الأئمـة يمكن أن تأتينـا من الآيات القـرآنية أو السنـة الشـريفة ونمـر علىٰ بعضها مـروراً عـاجـلاً ثم نستـدل بـالـدليـل العقلي علىٰ حكمة العصمة لدىٰ الأئمة (ع) :

قـال الله تعالىٰ : ﴿إنمـا يـريـد الله ليـذهب عنكم الـرجس أهـل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ .

[سورة الأحزاب ٣٣ ؛ الآية : ٣٣] .

وهـذه الآية تـوفر الحمـاية الإلهيـة لأهل البيت (ع) والـروايات الشـريفة كثيرة نذكر منها قـوله (ص) : «إني تـارك فيكم الثقلين كتاب الله وعتـرتي أهل بيتي مـا أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعـدي وإنهمـا لم يفتـرقـا حتىٰ يـردا عليَّ الحوض» رواه مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسنده .

وقـوله (ص) : «علي مـع الحق والحق مـع علي يـدور معه كيفما دار» وروىٰ صـاحب كنـز العمـال : «أن النبي (ص) قـال : من أحب أن يحيـا حياتي ويموت مـوتي ويسكن جنة الخلد التي وعـدني ربي فليتول علياً وذريته من بعـده فـإنهم لن يخـرجـوكم من بـاب هـدىٰ ولن يـدخلوكم في بـاب ضلاله» .

وكثيـرة الآيات والـروايات الـدالة علىٰ العصمـة فـأهـل البيت هم عِـدْل القـرآن وإنهما لم يفتـرقا علىٰ مـرّ الزمن والنبي لا ينـطق عن الهوىٰ إن هـو إلا وحي يوحىٰ كما وصفه القرآن المجيد يدفعنا للتمسك بالكتاب العـزيز والعتـرة الـطاهرة ويضمن عـدم الضلال من بعـده لو تمسكنـا بهما وأن عليـاً يدور مـع الحق كيفمـا دار وأنـه (ص) ينـزه الإمـام علي عن الخـروج من بـاب الهـدىٰ والدخول في بـاب الضلالـة فنحن نؤمن بالقـرآن العظيم ونستنّ بسنـة الرسـول (ص) لذلك نؤمن بعصمة النبي وعصمة خلفـائه أئمـة أهل البيت يقـول الإمام علي : «والإمام المستحق للإمامة لـه علامـات منها : أن يعلم أنـه معصوم من

الذنوب كلها صغيرها وكبيرها لا يزلّ في الفتيا ولا يخطىء في الجواب ولا يسهو ولا ينسىٰ ولا يلهو بشيءٍ من أمر الدنيا . . . الخامس العصمة من جميع الذنوب وبذلك يتميز عن المأمومين الذين هم غير المعصومين لأنه لو لم يكن معصوماً لم يؤمَن عليه أن يدخل فيما دخل الناس فيه من موبقات الذنوب المهلكات والشهوات واللذات . . » .

وعقلياً نتساءل كيف نضمن الاستقامة في المسيرة لو لم يكن إمامنا وقائدنا معصوماً عن الخطأ، أي إنْ لم يحصل الاطمئنان بالإمام في تبليغه وتنفيذه للأحكام الإسلامية، ولو جوّزنا عليه الانحراف والمعاصي ـ لا سمح الله ـ كيف نطمئن لقيادته لنطيعه .

ولو جوّزنا الخطأ والنسيان والمعصية علىٰ الإمام لنفينا غرضه ولجاز مخالفتهم في القرارات وهذا يخالف أمر الله والرسول بإطاعتهم وأنهم مع الحق دوماً فلا يمكن أن يوصفوا بالخطأ والنسيان إطلاقاً قال الإمام علي (ع) : «كبار حدود ولاية الإمام المفروض الطاعة أن يعلم أنه معصوم من الخطأ والزلل والعمد ومن الذنوب كلها صغيرها وكبيرها لا يزل ولا يخطىء ولا يلهو بشيءٍ من الأمور الموبقة للدين ولا بشيءٍ من الملاهي وأنه أعلم الناس بحلال الله وحرامه وفرائضه وسنته وأحكامه مستغنٍ عن جميع العالم وغيره محتاج إليه»(٢٠) .

### ٤ ـ الأفضلية على سائر الناس في صفات الكمال :

فالإمام المعصوم هو أفضل الناس علماً وتقوىً وإيماناً وشجاعةً وكرماً وعفةً وزهداً وعدلاً وسياسة وجهاداً وإدارةً وثورة وعبادة . . والأدلة علىٰ أفضليتهم هي عينها الدالة علىٰ أفضلية النبي (ص) يقول الشيخ المظفر : «أما علمه فهو يتلقىٰ المعارف والأحكام الإلهية وجميع المعلومات من طريق النبي أو الإمام من قبله وإذا استجد شيء لا بد أن يعلمه من طريق الإلهام بالقوة القدسية التي أودعها الله تعالىٰ فيه فإن توجّه إلىٰ شيءٍ وشاء أن يعلمه علىٰ وجهه الحقيقي لا يخطىء فيه ولا يشتبه ولا يحتاج في كل ذلك إلىٰ

البراهين العقلية ولا إلىٰ تلقينات المعلمين وإن كان علمه قابلاً للزيادة والاشتداد ولذا قال (ص) في دعائه : «ربّ زدني علماً» . . . فلذلك نقول إن قوة الإلهام عند الإمام التي تسمىٰ بالقوة القدسية تبلغ الكمال في أعلىٰ درجاته فيكون في صفاء نفسه القدسية علىٰ استعداد لتلقي المعلومات في كل وقت وفي كل حالة فمتىٰ توجه إلىٰ شيء من الأشياء وأراد معرفته استطاع علمه بتلك القوة القدسية الإلهامية بلا توقف ولا ترتيب مقدمات ولا تلقين معلم . . . ويبدو واضحاً هذا الأمر في تاريخ الأئمة (ع) كالنبي محمد (ص) فإنهم لم يتربّوا علىٰ أحد ولم يتعلموا علىٰ يد معلم من عهد طفولتهم إلىٰ سن الرشد حتىٰ القراءة والكتابة ولم يثبت عن أحدهم أنه دخل الكتاتيب أو تتلمذ علىٰ يد أستاذ في شيء من الأشياء[٢١] ليس هذا هو علم الغيب فلا يعلم الغيب إلا الله تعالىٰ وإنما علمهم هذا من علم رسول الله (ص) وشبيه لعلمه أيضاً .

قال ابن عباس : أُعطي علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم وأيم الله لقد شاركهم في العشر العاشر وقال ابن عبد البر : ما كان أحد يقول سلوني غير علي ، فالإمام (ع) هو الأفضل علماً وشجاعة وكرماً وسائر الصفات الحسنة .

وقال رسول الله (ص) : «أعلمكم علي وأقضاكم علي وأعدلكم علي وأفقهكم علي» .

وقال الإمام علي (ع) : «لا يتحمل هذا الأمر إلا أهل الصبر والبصر والعلم بمواقع الأمر» ، وقال أيضاً : «إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه وأعلمهم بأمر الله فيه فإن شغب شاغب أُستعتب فإن أبىٰ قوتل» وقال (ع) في حديث طويل يحدد فيه علامات الإمام يقول فيه . . . :

« . . والثاني أن يكون أعلم الناس بحلال الله وحرامه وضروب أحكامه وأمره ونهيه جميع ما يحتاج إليه الناس فيحتاج الناس إليه ويستغني عنهم .

والثالث : يجب أن يكون أشجع الناس لأنه فئة المؤمنين التي

يرجعون إليها إن انهزم من الزحف انهزم الناس لانهزامه . .

والرابع : يجب أن يكون أسخىٰ الناس وإن بخل أهل الأرض كلهم لأنه إن استولىٰ الشحّ عليه شح بما في يديه من أموال الناس» .

ويقول الإمام السجاد (ع) في الصحيفة السجادية : «اللهم إنك أنزلت القرآن علىٰ نبيك مجملاً وألهمته علم عجائبه مكملاً وورثتنا علمه مفسراً وفضلتنا علىٰ من جهل علمه وقويتنا عليه لترفعنا فوق من لم يطق حمله» .

ويحدد الإمام الرضا (ع) هذه العلامات بقوله : «للإمام علامات : يكون أعلم الناس وأحكم الناس وأتقىٰ الناس وأحلم الناس وأشجع الناس وأسخىٰ الناس وأعبد الناس . .» والإمام الباقر (ع) يقول : «إن الإمامة لا تصلح إلّا لرجل فيه ثلاث خصال : ورع يحجزه عن المحارم وحِلم يملك به غضبه وحسن الخلافة علىٰ من ولّىٰ حتىٰ يكون له كالوالد الرحيم» .

وقال الإمام الرضا (ع) : «إن العبد إذا اختاره الله عز وجل لأمور عباده شرح صدره لذلك وأودع قلبه ينابيع الحكمة وألهمه العلم إلهاماً فلم يعيَ بعده بجواب ولا يحير فيه عن الصواب» .

وكثيرة هذه الروايات التي تبين صفات الإمام المعصوم علىٰ أنها أفضل الصفات كمالاً لذلك يتم اختياره لهذا المنصب من قبله تعالىٰ فلو لم تكن هذه الصفات المتميزة للإمام فبماذا يتميز علىٰ الناس وكيف يمكنه أن يديرهم ويقودهم وعلىٰ الناس أن يطيعوه فإنه بهذه الصفات الكريمة يحتل الموقع القيادي الشرعي في قلوب الناس .

### ٥ ـ السلامة من العيوب الوراثية والجسدية والنفسية :

فكما أن المعصوم يتصف بأفضل الصفات الكمالية كذلك يتصف بعدم النقص من الوراثة والجسد والنفس أي أنه منزّه عن الأمراض النفسية والعيوب الجسدية كالعمىٰ والبرص والجذام والبخل وسوء الخلق ويتصف بطهارة الولادة وحسن المنشأ يقول الإمام الصادق : «إنّ الإمام لا يستطيع

أحد أن يطعن عليه في فم ولا بطن ولا فرج فيقال كذّاب ويأكل أموال الناس وما أشبه هذا . . » .

ويقول الإمام الباقر (ع) في تبيين علامة الإمام : «طهارة الولادة وحسن المنشأ ولا يلهو ولا يلعب» .

هذه الحالة التكاملية في شخصية المعصوم جسدياً ونفسياً هي التي تؤهله لقيادة الأمة بالشكل الصحيح البعيد عن النقص والانتقاص يقول الإمام علي (ع) :

«وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي علىٰ الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين : البخيل فتكون في أموالهم نهمته ولا الجاهل فيضلهم بجهله ولا الجافي فيقطعهم بجفائه ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع ولا المعطّل للسنة فيهلك الأمة»[٢٢] .

### ٦ ـ المعاجز والكرامات :

وهي من شرائط الإمامة فكل إمام من أئمة أهل البيت تظهر له معاجز خارقة تدلل علىٰ أنه هو الإمام المعصوم لا غيره وهو خليفة الرسول لا غيره وذلك في المعارف الإسلامية والعلوم الطبيعية أو يأتي بما تخالف العادات والتقاليد وقد يظهر ذلك في العلوم كالمنطق واللغة والطبيعة والكيمياء وقد يظهر في استجابة الدعاء لرفع كربة مظلوم أو للانتقام من الظالمين . . وحياة أئمة أهل البيت (ع) مليئة بهذه الكرامات .

بل إن هذه الكرامات الإلهية تجري علىٰ يد الأئمة الأطهار حتىٰ اليوم حيث الشفاء في تربة الإمام الحسين والدعاء يستجاب تحت قبته وأعسر الطلبات الصحية والأزمات النفسية والاجتماعية نجد حلها عند الأئمة الأطهار بإذن الله سبحانه فهم شفعاؤنا إلىٰ الرب الرحيم وأبواب المراد وما خاب من تمسك بهم ولجأ إليهم في طلب حاجة فإنها تقضىٰ إن كانت المصلحة والحكمة في قضائها والأمثلة في ذلك كثيرة جداً ويتداولها الناس .

# خامساً : الامام وعلاقته بالأمة

لما عرفنا شيئاً من الإمامة وشـرائطهـا وصفاتهـا ننتقل إلىٰ حقـوق الإمام وواجبـاته والأفضـل أن نستمع إليهم (ع) ليحـددوا ذلك فهم أعـرف بحقـوقهم وواجبـاتهم حيث حدّدهـا الله سبحانـه لهم وهي عين الحقوق والـواجبات التي تكتمـل بها شخصيـاتهم الـقياديّـة المربيـة وتكتمل نـواقص حياتنـا العـامـة في مختلف الجـوانب ومقابـل هذه الحقـوق والواجبـات هنالـك واجبات يجب أن نعرفـها فإنها ملقاة علينا اتجـاه أئمتنا الكـرام فلو عرفنـا الحقوق المتبـادلة بين الطرفين والواجبات كذلك اكتشفنا العلاقة الـروحية السليمـة التي تربط القيـادة الرشيدة بالأمة المسلمة .

يقـول الإمام علي (ع) : «حقٌ علىٰ الإمـام أن يحكم بما أنـزل الله وأن يؤدي الأمانة فإذا فعل فحقٌ علىٰ النـاس أن يسمعوا لـه وأن يطيعـوا وأن يجيبوا إذا دُعوا» .

ويقـول (ع) : «إن الله فـرض علىٰ أئمـة الحق أن يقـدّروا أنـفسـهم بضعفـة الناس كيـلا يتبيّغ بـالفقير فقـره» ويقول : «علىٰ أئمـة الحق أن يتأسـوا بـأضعف رعيتهم حـالاً في الأكـل واللبـاس ولا يتميـزون عليهم بـشيء لا يقـدرون عليـه ليـراهم الفقيـر فيرضىٰ عن الله تعـالىٰ بمـا هـو ويـراهم الغني فيزداد شكراً وتواضعاً» .

ويقـول أيضاً : «ليس علىٰ الإمـام إلاّ ما حُمّـل من أمـر ربـه : الإبـلاغ في المـوعـظة والاجتهـاد في النصيحـة والإحيـاء للسـنـة وإقـامـة الحـدود علىٰ مستحقيها وإصدار السّهمان علىٰ أهلها» .

ويقــول (ع) : «لا يحـل للخليفــة من مـال الله إلاّ قصعتــان : قصعـة يأكلها هو وأهله وقصعة يطعمها» .

وقال : «ان حقاً علىٰ الـوالي ألا يغيّره علىٰ رعيتـه فضل نـاله ولا طـول خصّ به وأن يزيده ما قسم الله له من نعمه دنوًّا من عباده وعـطفاً على إخوانه، ألا وأن لكم عنـدي ألاّ احتجـز دونكم ســرّاً إلا في حـرب ولا أطــوي دونكم أمـراً إلاّ في حكـم ولا أؤخر لكم حقـاً عن محله ولا أقف به دون مقـطعـه وأن تكـونـوا عنـدي في الحق سـواء فـإذا فعلت ذلـك وجبت عليكم النعمــة ولي عليكم الطاعة»[٢٣] .

والحقيقـة أن مسؤوليات الإمـام تتقاطـع مـع مسؤوليـات الأمـة وتشملهـا فتلتقي ليدفع الإمـام الموجّـه ، بالقـوىٰ الخيرة نحـو البناء والفضيلة وتستجيب الأمة لندائه المقدس . يقول جواد كاظم في كتابه القيادة الإسـلامية (ومن هنـا فإن الحديث حول مسؤوليات الإمـام شامـل لمسؤوليات الأمة أيضاً ذلـك لأن من الواضح أن الإمام كشخص لا يستطيع القيام بـالمسؤوليات الضخمـة . . . كـالمحافـظة علىٰ أمن البلاد واستقـلالها ونشـر العدالـة والحـريـة والخيـر بين ربـوعها ، بـل إنما يستـطيعـه كـإمام ممثـل لـلأمـة وكـذلـك الحـديث حـول مسؤوليـات الأمة شـامل لمسؤوليـات الإمام أيضـاً لأن الأمة لا يمكن أن تحقق شيئاً دون أن تنظّم نفسها داخل قيادة واحدة . . . فمـا جاءت فيـه هذه الكلمـة من نصوص شرعيـة أو تعابيـر تاريخيـة كالتي تبين مسؤوليـات الإمام أو تحـدد صلاحياته فإنمـا يقصد بهـا مسؤوليات الأمـة أيضاً إذ أنهـا هي التي تتجسد في شخص الإمام .

ولـذلك فـلا حاجـة لنا أن نثبت شـرعياً إلاّ أن علىٰ الإمــام مسؤوليـات محـددة كحفظ الأمن والعدل وتـوفير مؤهـلات العيش الرغيـد فيعـرف منـه أن

علىٰ الأمة إطاعة الإمام في أداء هذه المسؤوليات باعتبارها من حقوق الجماعة علىٰ الأفراد . . .

ولقد جاء في الكتاب الكريم ما يبين مسؤولية الأمة . .

قال سبحانه : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء علىٰ الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ . إذا كانت وظيفة الرسول هي الرقابة علىٰ تطبيق الدين الإسلامي، فإن مسؤولية الأمة مشابهة لذلك إلاّ في أمر واحد فقط هو أن رقابة الرسول علىٰ تطبيق الأمة لمنهاج السماء .

ورقابة الأمة إنما هي عليها وعلىٰ الأمم الأخرىٰ إذ ليس أوضح حقيقة من أن الأمة التي وكلت إليها الرقابة علىٰ سائر الناس في أمر إقامة الدين فبالأولىٰ يفرض عليها إقامة حكم الله داخل أبنائها إذن فللأمة الإسلامية سمتان اثنتان :

الأولىٰ : إقامة حكم الله في حدودها .
الثانية : إقامة حكم الله في آفاق الأرض ) .

ويقول العلامة جواد كاظم في موقع آخر : «وإذا كانت الرسالة الإسلامية ، لا تقف عند حاجز أنّى كان شأنه وأنّى كلّف الأمة ، جهوداً وأموالاً وأنفساً . فإن علىٰ الإمام ، وهو قمة الدولة ، وممثل الأمة ، أن يستقطب جهود الأمة ويوجه طاقاتها وينظّم شؤون دعوتها ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً ليحقق هدفها الأسمىٰ في الحياة ، حمل دعوة الدين ، إلىٰ كل أذن واعية وكل قلب سليم . . . وعلىٰ الأمة أن تحافظ علىٰ الدين ، بعيداً عن البدعة ، حصيناً عن الضياع ، حتىٰ لا تفوت علىٰ الأجيال الصاعدة ، فرصة الاستنارة به والاهتداء بتعاليمه . وإمام المسلمين مسؤول عن هذا الواجب فعليه المحافظة علىٰ حقائق الدين كلها ، نافياً عنها الشبهات، مبعداً عنها البدعة والزيغ»[٢٤] .

فلقد جاء في الأثر الشريف : (أن الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعز المؤمنين ، إن الإمامة رأس الإسلام النامي وفرعه

السامي ، بالإمام تقام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وتوفير الفيء والصدقات وإمضاء الحدود والأحكام ومنع الثغور والأطراف ، الإمام يحل حلال الله ويحرم حرام الله ويقيم حدود الله ويذب عن دين الله ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة ، عالم بالسياسة مفروض الطاعة قائم بأمر الله ناصح لعباد الله حافظ لدين الله) .

هذه مقاطع من الروايات ومضت مقاطع في بداية الحديث أيضاً أكتفي بها لنتوصل إلىٰ معرفة حجم العلاقة بين القائد والأمة وبين القائد والمبدأ فهو المسؤول عن الصغيرة والكبيرة في حياة الناس وهو يسعىٰ سعياً حثيثاً لتربيتهم التربية الصحيحة ووضعهم على الجادة المستقيمة ليعبدوا ربهم دون خوف من شيطان أو طاغوت، يطعمهم طعم الحرية ويعلمهم التوكل علىٰ الله تعالىٰ بدل التواكل ويرشدهم إلىٰ العمل بدل الكسل يتأسىٰ بأضعفهم ليكون القدوة الحسنة للجميع وهو يدير أمور المسلمين يحذِّر من الهوىٰ ويحذِّر الناس منه لأنه مصيدة الشياطين حلوة الظاهر قبيحة الباطن وهذه الوصايا بحد ذاتها تعتبر وثائق ملزمة للإمام (ع) هي نفسها كافية لمعرفة أحقية الأئمة بهذا المنصب الإلهي فهم أحرص منا لأنفسنا وهم كما النبي (ص) يسهرون ويتعبون ويضحون لأجلنا وأجل سعادتنا في الدنيا والآخرة ولقد حَذرونا أشد تحذير من الائتمام بأئمة الجور لأنهم القادة إلىٰ النار وسبيل الشياطين وأن أئمة الجور لا يرون إلا أنفسهم ولا يرغبون إلا في حكم الناس والتآمر عليهم ولم يرعوا شؤون الناس إلا من خلال مصالح عروشهم بعيدين عن التربية والعدل والاستقامة فعن الرسول الأعظم (ص) قال الله عز وجل : **(لأعذبن كل رعية في الإسلام أطاعت إماماً جائراً ليس من الله عز وجل وإن كانت الرعية في أعمالها برة تقية)** فهم أئمة جهنم . قال تعالى : **﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلىٰ النار﴾** .

[سورة القصص ؛ ٢٨ الآية : ٤١]

ويأتي هذا التحذير الشديد في النصوص المباركة لأهمية موقع الإمام في الأمة فبصلاحه تصلح الأمة وبفساده تفسد الأمة وقد قيل قديماً (الناس

علىٰ دين ملوكهم) فـإن كـان الملوك من الصـالحين كـانت الأمـة صـالحـة والعكس صحيح لشدة تأثير هـذا الموقـع على سلوكيات النـاس فلذلك ورد : إذا صلح العـالِم (بالكسر) صلح العالَم (بـالفتح) ، فـالقائـد والملك والعـالم هـذه أسماء تؤدي أدوار الصلاح أو الفساد . . فبـالإمام الشـرعي تنتشر العـدالة ويسـود الإيمـان وبسيـادة إمـام الفســاد والـظلم يســود في الأمـة الانحــراف والفساد .

هذه هي الحالة الاعتيادية السائدة أما القلة النادرة فهي التي تتبع الحق وإن كان إمام الحق في معزل عن الإدارة والحكم .

فقـد قال الإمـام علي : «نحن الشعار والأصحـاب والخزنـة والأبواب ولا تؤتىٰ البيوت إلا من أبوابها فمن أتاها من غير أبوابها سمّي سارقاً» .

وقال أيضاً: «نحن أهل بيت النبوة ومـوضع الـرسالـة ومختلف الملائكـة وعنصر الرحمة ومعدن العلم والحكمة» .

وقال (ع): «فأين يتـاه بكم ؟ وكيف تعمهون وبينكم عتـرة نبيكم ؟ وهم أزمّة الحق واعلام الدين وألسنة الصدق فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن»[٢٥] .

# سادساً : واجباتنا
# اتجاه الأئمة (عليهم السلام)

١ ـ الإعتقاد بهم
٢ ـ مصدر المعرفة الحقيقية
٣ ـ القدوة الصالحة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.
٤ ـ في زمن الغيبة

تتلخص واجباتنا بالأمور التالية :

**١ ـ الاعتقاد بهم :**

لا بد أن نتعرف على أئمتنا الكرام (ع) كما لا بد أن نتعرف على النبي الأعظم (ص) فمعرفة الأئمة سلوكاً وعملاً وجهاداً ومواقف تملي علينا هذه المعرفة البصائر الحقة في ساحاتنا الميدانية وفي كل الظروف وسنتحدث عن حياة الأئمة في الفصل القادم وندرس كيفية قيادتهم للحياة والمجتمع حيث أنهم القادة في كل الظروف المتعددة والمتنوعة ونحن بحاجة إلى هكذا قيادة موحدة في المواقف المبدئية متعددة بالأدوار وفقاً للظروف المتعددة ، المهم أننا لا بد أن نتعرف على أئمتنا في زمن الحضور وهكذا في زمن الغيبة أيضاً .

قال رسول الله (ص) : «من مات وهو لا يعرف إمامه مات ميتةً جاهلية»

وقال في حديث آخر : «من مات ولا بيعة عليه مات ميتة جاهلية» وفي الحديث الثالث : «من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية» والإمام الصادق يقول : «من بات ليلة لا يعرف فيها إمام زمانه مات ميتة جاهلية» .

وحينما سئل الإمام الصادق : جاهلية جهلاء أو جاهلية لا يعرف إمامه قال (ع) : «جاهلية كفر ونفاق وضلال» .

إذن لا بد من معرفتهم معرفة تامة لغرض الإيمان بهم كذلك أما في حالة عدم الإيمان بهم يعني ذلك الرد على المنهجية القيادية التي وضعها الله سبحانه للمسلمين وبمعنىٰ أوضح أن المنكر لهم يعد كافراً فقد قال الإمام الباقر (ع) : «إنما يَعْرِف الله عز وجل ويعبده من عرف الله وعرف إمامه منا أهل البيت» والإمام الصادق يقول : «من عرفنا كان مؤمناً ومن أنكرنا كان كافراً» .

وقال رسول الله (ص) «كل من دان الله عز وجل بعبادة يجهد فيها نفسه ولا إمام له من الله ، فسعيه غير مقبول وهو ضال متحير والله شانىء أعماله ومثله مثل شاةٍ ضلت عن راعيها وقطيعها» ، فأئمة أهل البيت (ع) هم باب الله ودليله أما أئمة الجور فهم ليسوا من الله ، يقول الإمام الصادق : «لا يقبل الله من العباد الأعمال الصالحة التي يعملونها إذا تولّوا الإمام الجائر الذي ليس من الله تعالىٰ» . فلا بد من التسليم لولاية أئمة أهل البيت (ع) لأنهم الطريق الشرعي للتسليم المطلق لله تعالىٰ .

يقول الإمام السجاد : «إن دين الله لا يصاب بالعقول الناقصة والآراء الباطلة والمقاييس الفاسدة ولا يصاب إلا بالتسليم فمن سلّم لنا سلم ومن اهتدىٰ بنا هدي ومن دان بالقياس والرأي هلك . . .» .

فأوامرهم أوامر الرسول وأوامر الرسول هي أوامر الله تعالىٰ فلا بد إذن من إطاعتهم يقول الرسول الأكرم (ص) «اسمعوا وأطيعوا لمن ولّاه الله الأمر فإنه نظام الإسلام» .

وعلىٰ أيديهم نحصل علىٰ سعادة الدارين وبطاعتهم نفوز بهما لأنها

تحقق رضاه تبارك وتعالىٰ . قال الإمام الباقر : «ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرحمٰن تعالىٰ الطاعة للإمام بعد معرفته . . .» فمعرفتهم تعني معرفة الله عز وجل .

## ٢ـ مصدر المعرفة الحقيقية :

لا بد أن نتعلم ونأخذ معارفنا منهم بشكلٍ عام وبالذات في توضيح الأحكام وتفسير القرآن وتهذيب الأخلاق وعلوم المعرفة الإلهية والمسائل التربوية والعقائدية فإنهم مفاتيح العلم وينابيع المعرفة ، قولهم وفعلهم وتقريرهم سنة واجبة التطبيق والتنفيذ والتسليم كما رسول الله (ص) .

قال رسول الله : «أنا مدينة العلم وعلي بابها» وقال (ص) : «حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسينا» «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة» «إماماں قاما أو قعدا . . .» .

والإمام الصادق يقول : «بني الإسلام علىٰ خمسة أشياء : علىٰ الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية» قال زراره فقلت وأي شيء من ذلك أفضل ؟ فقال الولاية أفضل لأنها مفتاحهن والوالي هو الدليل عليهن» .

ويقول أيضاً : «إن الأرض لا تُترك إلا بعالم يحتاج الناس إليه ولا يحتاج إلى الناس يعلم الحلال والحرام» والإمام الباقر يقول : «إنما كلف الناس ثلاثة : معرفة الأئمة والتسليم لهم فيما ورد عليهم والرد إليهم فيما اختلفوا فيه» .

فالإمامة هي النور المبين للشريعة الإسلامية يقول الإمام الكاظم : «الإمامة هي النور وذلك في قوله عز وجل : ﴿آمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾ النور هو الإمام» .

والآية الكريمة : ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم﴾ يقول عنها الإمام الباقر : «نحن نعلَمه . . .» .

فإذن مصدرنا في معرفة الأحكام والأسس الشرعية وتفسير القرآن هم

الأئمة (ع) بعد النبي (ص) لنحصن أنفسنا ومجتمعنا بـالثقافـة الواعيـة بعيدين عن التخبط العشـوائي في خضـم المعترك الفكـري نتيجـة التفسيـر بـالـرأي أو الأخذ من مصادر غير دقيقة .

## ٣ ـ القدوة الصالحة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية :

كما نتخذ الـرسول والأئمـة (ع) مثلاً أعلىٰ لنـا في العقيدة الـراسخة في النفس ومـا تعكسه هـذه العقيدة من أخـلاق فـردية واجتمـاعيـة ـ إنمـا الـدين المعاملة ـ فهم قدوتنا في الحياة الثقـافية والسلوكيـة كما مـر معنا في النقـطتين السـابقتين . فهم أيضاً قـدوات صالحـة لنا في الحيـاة السياسيـة والاقتصـاديـة والاجتمـاعية ففي حـالة التمكن من إقـامة الحكم الإسـلامي لا بد من معـرفـة التعامل السياسي لدىٰ الأئمـة في ظروف مشـابهة لـظروفنا وإن كنـا نفتقر لهـذا التأريخ الحـاكم بالنسبـة لأئمتنا (ع) ولكن مـع وجود هـذا القليل فـإنه كثيـر لو استطعنا أن نكتشف القواعد العامة في سيـاسة الأئمـة (ع) في حمـايـة الحقوق والواجبات فتتبلور لـدينا الـرؤية السيـاسية في الإسـلام . يقول العـلامة جـواد كاظم : «أما الغاية السـامية التي تهـدفها السيـاسة في الإسـلام فبوسعنـا تبينها من الآية الكريمة ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بـالبينات وأنـزلنا معهم الكتـاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾

[سورة الحديد ٥٧ ؛ الآية : ٢٥]

وأما القسـط : الهدف الذي يسعىٰ إليه ابتعاث الرسـل ، وإنزال الكتـاب والميـزان ، فهي كلمة جـامعة ، لكـل الغايـات الثـلاث من حمـايـة الأمـة أن تعتدي علىٰ غيرهـا أو تقع ضحيـة عدوان الأخـرين وصيـانتهـا عـن أن يعتدي بعضها علىٰ بعض (بجهل أو جهـالة) وعن اغتصـاب السلطة حريـاتها . ذلـك أنه لو وقع شيء من ذلك لارتفع القسط ، ووضع مكانه الظلم بصفةٍ عامة .

وتدخل ضمن هذه القاعدة الكلية :

١ ـ حمـايـة الحقـوق المـدنيـة . . . ٢ ـ حمـايـة كـرامـة المـواطن . . .
٣ ـ توفير الحريات الاقتصادية والسياسية والفكرية والشخصية لكل فرد .

ثم المحافظة علىٰ هـذه الحريـات ، من كل استغـلال واحتكار وسيـطرة وتضليل . . )[٢٦] .

فـلا بد أن نـأوي إليهم وبالفعـل نتخذهم أسسـاً لحياتنـا كما نتخـذ سنة رسول الله نبراسـاً لنا فسنـة الأئمة الأطهـار هي امتداد سنـة النبي الأكرم (ص) وكلهم أنوار الحياة .

يقول الإمام علي : «يحتـاج الإمام إلىٰ قلب عقـول ولسان قؤول وجنـان علىٰ إقامة الحق صؤول» وفي حديث آخر يصف الأئمة : «عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية فان رواة العلم كثير ورعاته قليل» .

وكمـا قلنا نتخـذهم القدوة الصـالحـة في الحيـاة الاقتصـاديـة أيضـاً في كيفية إزالة الفقـر والتخلف الاقتصادي ورفـع مستوىٰ المعيشـة كما قـال الإمام علي (ع) «الفقر الموت الأكبر» .

وهكذا علىٰ المنحىٰ الاجتماعي في سيـادة الفضيلة والإصلاح والـدعوة إلىٰ التماسك الاجتمـاعي كما كـان يفعل أئمتنـا (ع) في بناء الأسـرة الواحـدة والتحابب فيما بين النـاس وصلة الأرحام والعـطف علىٰ الصغير وتـوقير الكبيـر فقـد ورد «ليس منـا من لم يـوقر كبيـرنا ولـم يعـطف علىٰ صغيرنـا» «من حسن برّه بـأهل بيتـه زيد في عمـره» «إن أحببت أن يزيـد الله في عمـرك فسـر أبـويـك» «من سره أن يبسـط له في رزقه وينسَأَ له في أجله فليصـل رحمـه»[٢٧] .

### ٤ ـ في زمن الغيبة :

أما الواجبـات في زمن الغيبة وهـو زماننـا الحالي فـلا بد أن نعـد أنفسنا لإقـامـة الأحكـام الإسـلاميـة علىٰ الأرض ضمن المنهجيـة القـرآنيـة والسنـة الشـريفة من النبي (ص) والأئمـة الأطهـار (ع) متبلورةً اليـوم علىٰ يـد العلمـاء المراجع ـ نـواب الامام ـ ومن المؤكـد أن يكون هـذا طموح كـل إنسان مسلم في هذا العصر أن نمهـد لظهـور الإمام المهـدي المنتظر ونكـون جنوداً أوفيـاء لـدولته المبـاركة ومن واجبـاتنا اليـوم تبيان حقيقـة المقاييس الصحيحـة للقيادة

الواعية والمستقيمة ليتم اتباعها وهي منهجية أئمة أهل البيت (ع) وهذا مما يكشف زيف أئمة الجور والأمراء المتسلطين ويدفعنا نحو الموقف المبدئي المطلوب اتجاههم يقول الإمام الصادق :

«من أشرك مع إمامٍ إمامته من عند الله من ليست إمامته من الله كان مشركاً» .

والإمام الباقر يقول : «إن أئمة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله والحق قد ضلوا بأعمالهم التي يعملونها كرمادٍ اشتدت به الريح في يومٍ عاصف . . » .

وهذا التحذير يستمر إلىٰ قيام الساعة يقول الإمام الصادق : «من ادعىٰ الإمامة وليس من أهلها فهو كافر» ويقول أيضاً : «ما تبقىٰ الأرض يوماً واحداً بغير إمامٍ منا تفزع إليه آكامه» .

فإذن لا بد من البحث الحثيث في زمن الغيبة لمعرفة الأئمة وامتدادات الأئمة في المشروع القيادي المستقيم وبالمقابل لفضح أئمة الجور المتسلطين الذين توقع النبي الأكرم (ص) ـ كما قلنا آنفاً ـ ظهورهم علىٰ مسرح السياسة الإسلامية لذلك حذر المسلمين منهم بكثير من الأحاديث الشريفة ، منها :

قال (ص) : «إن رحىٰ الإسلام ستدور فحيث ما دار القرآن فدوروا به ويوشك السلطان والقرآن أن يقتتلا ويتفرقا ، إنّه سيكون عليكم ملوك يحكمون لكم بحكم ولهم بغيره فإن أطعتموهم أضلوكم وإن عصيتموهم قتلوكم» قالوا : كيف بنا إن أدركنا ذلك ؟ قال : «تكونون كأصحاب عيسىٰ نُشروا بالمناشير ورُفعوا علىٰ الخشب ، موت في طاعة خيرٌ من حياة في معصية . . . » .

وفي حديث آخر : «يا علي أربع من قواصم الظهر : إمام يعصي الله ويطاع أمره» وقال الإمام علي (ع) «احذروا علىٰ دينكم ثلاث . . . ورجلاً آتاه الله سلطاناً فزعم أن طاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله وكذَبَ لأنه لا

طاعة لمخلوق في معصية الخالق . . .» .

أما الأحاديث المزورة التي تدفع الناس للخضوع لأولي الأمر حتىٰ الظالمين منهم فكثيرة كان هدفها سياسياً معروفاً لإيجاد حالة الرضى من الظالمين الحاكمين والاسترخاء علىٰ أمر الفساد الشائع من قبل السلاطين وأنها غير صحيحة كما يروىٰ عن الرسول (ص) «الجهاد واجب عليكم مع أمير براً كان أو فاجراً وإن هو عمل الكبائر والصلاة واجبة عليكم خلف كل مسلم براً كان أو فاجراً وإن هو عمل الكبائر . . .» .

هذه الروايات تصطدم مع القرآن الكريم والشريعة الإلهية وإنها جُعلت لتخدير الشعوب المسلمة أمام انحراف الأمراء فقد قال سبحانه : ﴿**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار . .**﴾.

[سورة هود ١١ ؛ الآية : ١١٣]

والحديث الشريف الذي يرويه الإمام الحسين (ع) عن الرسول الأكرم (ص) يحدد معالم التحرك الواعي نحو الصلاح فقد قال (ص) : «من رأىٰ منكم سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله ، ناكثاً لعهد الله ، مخالفاً لسنة رسول الله ، يعمل في عباده بالإثم والعدوان فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقاً علىٰ الله أن يدخله مدخله» .

وقال الإمام علي : «اللهم إنك تعلم أنه لم يكن ما كان منا تنافساً في سلطان ولا التماساً لشيءٍ من فضول الحطام ولكن لنردّ المعالم من دينك ونظهر الإصلاح في بلادك . . .» فإذن لا بد من معرفة الكلمة الصادقة والرأي الشجاع في الشريعة الإسلامية .

وإلاّ كيف يمكن أن يصبر الإنسان المؤمن علىٰ حاكم باسم الإسلام كيزيد حيث الفساد الشخصي والاجتماعي والسياسي ـ كما هو معروف ـ فالذين يحكمون كيزيد ـ وإن كانوا يحكمون باسم الإسلام ـ إلاّ أن الموقف المطلوب هو الرفض لهؤلاء والبحث عن أئمة الحق . . ونقرأ في التاريخ الكثير من الخلفاء الذين حكموا في الأدوار الأموية والعباسية والعثمانية كانوا

كأمثال يزيد فهذا الوليد ـ الخليفة الأمـوي ـ المعلن بالفسق والفجـور فقد رمىٰ القرآن الكريم غضباً لما تفاءل به فجـاءت الآية المبـاركة ﴿واستفتحـوا وخاب كل جبار عنيد﴾ رماه بالنبل حتىٰ خرقه وأنشأ يقول :

تـهـددنـي بـجـبـارٍ عـنـيـدٍ فـهـا أنـا ذا جـبـارٌ عـنـيـدُ
إذا مـا جئـت ربـك يـوم حـشـرٍ فـقـل يـا رب مـزّقني الـولـيـدُ

هـذا تصرف يقـوم به خليفـة المسلمين ولا بد أن نـطيعه ونقتـدي به !، أي منطق يقبل ذلـك هل لأنـه حاكم علىٰ المسـرح ، وهل لـدينا نص شـرعي يقول بذلك ؟ بينما النصوص الشرعية علىٰ العكس تماماً . .

هذه مجمل المواقف المطلوبة اتجاه أئمة الحق أئمة أهل البيت (ع) .

# سابعاً : قادتنا الاثنا عشر

بعد ما عرفنا شيئاً عن خلفاء الرسول الأكرم (ص) الفعليين وهم الأئمة الاثنا عشر حيث عدّهم ووصفهم رسول الله كما في الأحاديث التي مضت معنا في الفصول السابقة والآن ونحن في صدد تكوين عقيدتنا القلبية نريد أن نتعرف علىٰ هذه القيادة الشرعية التي لم نعرف عنها الكثير من الممارسات السياسية علىٰ المسرح التاريخي فهل يمكن أن نؤمن بقيادة لم نعرفها ولم يعرفها التاريخ السياسي كثيراً؟ وبمعنىٰ آخر نريد أن نتعرف علىٰ ملابسات التاريخ الإسلامي. فلنحفره بأصابع طاهرة متوكلين علىٰ الله الحي القيوم راجين وجهه العظيم ، ولا بد من العمل الجاد لإزالة الغبار عن أحداث التاريخ المتراكمة بشرط أن تتم العملية بروح إيجابية لا بالشكل الذي نتحول فيه إلىٰ وقود فتنة دامية ينتعش لها العدو المتربص بنا . وبعد هذه العملية الشجاعة نريد كشف قادتنا الشرعيين ولا بد من أن تتم العملية الجراحية لباطن التاريخ بمباضع معقّمة وغير ملوثة بترسبات العصبية الجاهلية وبأمراض الأنانية الضيقة لنتطلع بصدق إلىٰ مواقف قادتنا ورجال الإسلام فنتلمس حالتهم ونعيش حياتهم ونستلهم من أدوارهم السياسية مواقف وعبر وندرس تفاصيل حياتهم كيف بدأت وكيف اختتمت؟ وهم يتحملون المسؤولية الكبرىٰ في التبليغ والإرشاد والإدارة والإصلاح والجهاد والعبادة وننظر كيف

تعاملوا مع الدنيا والحكم والسلطة وكيف طبقوا القرآن الكريم في حياة الإنسان والمجتمع؟ فالقرآن أمانة الله سبحانه وتعالىٰ ورسالته للبشرية لنتعرف عن قرب علىٰ قادتنا وندرسهم هل أنهم بحق خلفاء الرسول ؟ كيف كانت تجربتهم الميدانية في ظل الحكام المختلفين معهم ؟ . . وكيف استطاعوا أن يبلّغوا الرسالة في أحلك الظروف ؟ ليحافظوا علىٰ بيضة الإسلام وأخيراً لنتأمل شهادتهم سجناً أو قتلاً بالسم أو السيف كل ذلك نريد أن نعرفه في هذه الدراسة .

وبالأثناء نحن نحترم كل المحاولات الموضوعية التي تريد أن تقدم أسس العقيدة الإسلامية للنشْء الجديد بعيدة كل البعد عن زراعة الاختلافات التاريخية في قلب الشباب لأن هذه الزراعة لا ترضي أحداً بقدر ما هي فرصة للشيطان الرجيم وللطاغوت المتجبر ليشغلنا بمشاكل التاريخ ويضعفنا بالانشقاق والتفرقة لذلك ونحن ندخل هذا المضمار العسير من دراستنا الذي لا بد من الدخول فيه أوصي نفسي وأوصي من يتناول هذا الموضوع الحساس أن نتحلىٰ بأعلىٰ درجة من القيم الأخلاقية ونمدّ أيدينا بأمانة كبيرة إلىٰ أرشيفنا الإسلامي الضخم في التاريخ ونخرج للتنفيذ والتطبيق ما نراه شرعياً أو يحدد [illegible] سلوكنا على المستوىٰ الشرعي فنترك الزبد ليذهب جفاء مع أهله ونأخذ ما ينفعنا كعبرة ودرس واعتقاد ، وأرىٰ من الضروري أن أشير إلىٰ قضية أخرى قبل الخوض في البحث وهي أن همسة طويلة في أذني تخاطبني بترك هذا الموضوع وإسدال الستار عليه لنذهب إلىٰ حقيقة المعركة الفاصلة بين معسكر الإسلام ومعسكر الكفر وأجيب تلك الهمسة التي طالما أحسّ بها تدور في الأذهان بأن الأمراض الجلدية التي تظهر علىٰ ظاهر الإنسان لها أسبابها في العمق فلا بد من حرق جراثيم الفساد من الداخل وبشكل قاطع لنقضِ علىٰ المرض لتعود الصحة . أما المراهم والزيوت الخارجية هي مخدرات وقتية تطيّب الظاهر وتترك الباطن يتفاعل وينمو بجراثيمه لينفجر بعد فترة بمرض جلدي أقسىٰ وأمر . وهكذا بعد الإيضاحات المقنعة تستجمع ـ هذه الهمسة ـ نفسها حياءً وتنكمش خجلاً من

المطلب العلمي في البحث وترجع إلىٰ خاطرة اعتيادية بحجمها الطبيعي دون عواصف بعد أن كانت همسة طويلة ذات عواصف ورعود .

وأقول : إن الأمة التي تمتلك تاريخاً صلباً تقف عليه أنها أمة تستحق الحياة وأنها ستصنع المستحيل في الأحداث وأن الأمة التي لا تعرف تاريخها بل استلمته مشوّهاً لا تستطيع أن تقف عليه بل تكون بنت اللحظة الراهنة ولها في كل يومٍ قرار دون ثبات واعٍ واستقامة دائمة ونحن المسلمين نمتلك بلا ريب تاريخاً واسعاً فيه الغثُ والسمين علينا أن نكتشف الحقيقة التاريخية لنقف عليها لتدفعنا نحو الساحة للتحرك الصالح لغرض صنع الحضارة الإسلامية ، هذا والقرآن الكريم يشجعنا لمعرفة قصص الأمم السالفة ومعرفة قصص أسلافنا بالذات لنقف عندها متبصّرين واعين يقول تعالى : ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص . .﴾

[سورة يوسف ١٢ ؛ الآية : ٣]

﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾

[سورة الكهف ١٨ ؛ الآية : ١٣]

﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾

[سورة غافر ٤٠ ؛ الآية : ٧٨]

﴿تلك القرىٰ نقص عليك من أنبائها﴾ .

[سورة الأعراف ٧ ؛ الآية : ١٠١]

بل يقص علينا قصص الأنبياء كموسىٰ وعيسىٰ وإبراهيم ويوسف والكثير من هذه القصص والمواقف لنعيش الأحداث الجارية من قبلنا ومصيرها لنعتبر ونهتدي ونحن نعيش أدوارنا ونؤديها حالياً .

فهو إذن أسلوب ناجح للتربية والمعرفة ـ وأتخطر ـ وأنا أكتب هذه الأسطر اننا في إحدىٰ السنوات عزمنا علىٰ السفر إلىٰ دمشق ثم لزيارة الصحابي الشهيد حجر بن عدي الكندي المدفون قرب دمشق في مرج عذراء . وقصة هذا الشهيد الطاهر معروفة فإنه استشهد علىٰ يد جلاوزة

معاوية حيث أبىٰ التنازل عن الإمام علي وحبه وتقليده والرجل معروف تأريخياً من أبطال المسلمين وحامل راية رسول الله (ص) المهم أخذنا سيارة تاكسي وذهبنا إلىٰ مكان القبر في بداية السبعينات ونحن آنذاك في عنفوان الشباب وكان سائق السيارة يطيل النظر إلينا حيث أننا قادمون من بغداد في العطلة الربيعية وطلاب مدارس ولدينا الأموال . . . وقد تركنا الذهاب إلىٰ أماكن اللهو والترف وجئنا لزيارة مرقد شهيد قد استشهد قبل أربعة عشر قرناً هو ومجموعته المؤمنة . . وقفنا علىٰ مجموعة أحجار صامتة في صحراء ! أنهينا الزيارة والصلاة لمدة دقائق وعدنا ، وفي أثناء الطريق كنا نتحدث عن حياة الشهيد حجر أحدنا يذكّر الثاني بمواقفه وفجأة سألنا السائق من هذا الشهيد أهو قريب لكم وهل هو من أجدادكم؟ أم كان عملكم هذا زيارة ولي من أولياء الله ! وهو متعجب جداً ويوجه لنا هذه التساؤلات . . وقال إني سمعت أحد أقربائي يقول سيدنا معاوية قتل سيدنا حجر ! ! .

بهذا المنطق المهادن للباطل بدأ يتحدث السائق . . ونحن بكل رحابة صدر بدأنا نجيبه عن مواقف التاريخ وعن المبدئية في التعامل معه ولا يمكن أن يكون القاتل والمقتول سيّديْن لنا ! أليس الحق واحد ، أليس منطقكم يعني الإيمان بالتناقض . . . استوعب الرجل كلامنا لكن علامات التعجب لا تفارق عينيْه وذبذبات صوته المتقطعة وفجأة اغرورقت عيناه بالدموع وانفجر باكياً بكاءً شديداً حتىٰ افتقد السيطرة التامة علىٰ جهاز الاستدارة في السيارة فأوقف سيارته علىٰ جانب الشارع ووضع رأسه علىٰ المقْود وبكىٰ بكاءً عالياً ثم نزل من سيارته وغسل وجهه وعاد الكرّة إلىٰ عمله . . قفزت الأسئلة من حناجرنا ـ بهدوء وأدب ـ لماذا البكاء ! ؟ .

قال : بصراحة لقد أدخلتموني دورة ثقافية عقائدية واستفدت من درسكم هذا وأنا في المقاومة الفلسطينية ما كنت أعرف قيمة دم الشهيد في التاريخ وكنت أظن أن دماءنا ستذهب سدىٰ لبعض تصرفات القادة في القضية الفلسطينية والآن.وبعد ما رأيت العجب منكم ومن زيارتكم لشهيد قبل قرون طويلة ، يكفي لو نهض من قبره الآن لما عرفتموه ولكنكم زرتم

القيم وأكبرتم الموقف وشخصتم الظالم من المظلوم عرفت أن موقف البطل حجر هو الموقف البطولي الشجاع الذي يخلده الدهر وعلىٰ كل حال بكيت بكاء المغفرة وأشكركم علىٰ درسكم الوافي إني عاهدت الله بالعودة إلى المقاومة حتىٰ تحقيق إحدىٰ الحسنيين النصر أو الشهادة بل إني أطلب الشهادة كهدف أسمىٰ لي في الحياة لأنام باطمئنان في قبري وستأتي الأجيال لتزور القيم وتطّلع علىٰ الموقف الشجاع ـ هذا تقريباً ما دار بيننا من أفكار وكلام ـ ثم ترحم علىٰ الشهيد البطل حجر بن عدي بعد ما قصصنا له قصته البطولية فقال بشجاعة المؤمن إن حجراً سيدي وسيد كل المظلومين قد قتلته الفئة الباغية .

علىٰ ضوء ذلك فنحن نطالب بوضع برنامج للدراسة الوافية للتاريخ الإسلامي لنتوصل إلىٰ الحقائق ولنسير علىٰ ضوئها دون أن نقع في نفق الأحداث التاريخية ذلك النفق المظلم فنهادن الظالمين اليوم انعكاساً للحالة السلبية التي تعكسها علينا الدراسات المشوهة للتاريخ .

من هذه المقدمة ندرك أهمية التعرف علىٰ قادتنا الأئمة (ع) وسنتعرف علىٰ مواقعهم في الخارطة الجهادية والكفاحية والميدانية لنستلم راية التصحيح والتغيير في أنفسنا والأمة الإسلامية .

فالنبي الأعظم هو رأس القيادة الإسلامية فهو النبي المرسل الذي أرسىٰ قواعد الإسلام علىٰ الأرض وهو الذي وضح لنا بالأسماء الخلفاء الاثني عشر من بعده فهو وخلفاؤه كلهم قيادة إسلامية متكاملة ولكل قائد دور يكمل دور الإمام من قبله ويمهد لدور الإمام القائد من بعده ولربما الإمام الواحد في عصور مختلفة وظروف متعددة تختلف أطروحته الجهادية والتغييريّة للامة قال رسول الله (ص) «أنا وعلي مِنْ شجرة واحدة والناس من أشجار شتىٰ» .

عن جابر أن النبي (ص) كان بعرفه وعليّ اتجاهه فقال : «يا علي أُدن مني وضع خمسك في خمسي يا علي ! خلقت أنا وأنت من شجرة واحدة

أنا أصلها وأنت فرعها والحسن والحسين أغصانها ومن تعلق بها أدخله الله الجنة . . » .

وفي حديث آخر قال (ص) : «علي مني وأنا منه» و «علي مني بمنزلة رأسي من بدني» وأن النبي (ص) بعث بسورة براءة فدفعها إلىٰ علي وقال : «لا يؤدي إلا أنا أو رجل من أهل بيتي» وقال أيضاً: «إنه لا ينبغي أن أذهب إلّا وأنت خليفتي»[٢٨] .

وروىٰ الزمخشري بإسناده عن النبي (ص) أنه قال «فاطمة ثمرة فؤادي وبعلها نور بصري والأئمة من ولدها أمناء وحيي وحبل ممدود بينه وبين خلقه من اعتصم بهم نجا ومن تخلف عنهم هوىٰ»[٢٩] .

ولكي نقطع نزاع القوم في تشخيص الأئمة الاثني عشر ، نستمع إلىٰ جابر بن عبد الله الأنصاري ليحدثنا بقوله : لما أنزل الله تبارك وتعالىٰ علىٰ نبيه (ص): ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ .

قلت يا رسول الله قد عرفنا الله ورسوله فمن أولي الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك فقال «هم خلفائي وأئمة المسلمين بعدي أولهم علي بن أبي طالب ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي المعروف في التوراة بالباقر وستدركه يا جابر فإذا لقيته فأقرأه عني السلام ثم الصادق جعفر بن محمد ثم موسىٰ بن جعفر ثم علي بن موسىٰ ثم محمد بن علي ثم علي بن محمد ثم الحسن بن علي ثم سميّي وكنيتي حجة الله في أرضه وبقيته في عباده ابن الحسن بن علي»[٣٠] .

وروىٰ أحمد بن حنبل في مسنده وغيره من الجمهور عن النبي (ص) أنه قال للحسين «أنت السيد ابن السيد أخو السيد أبو السادة ، أنت الإمام ابن الإمام أخو الإمام أبو الأئمة أنت الحجة لبن الحجة أخو الحجة أبو

الحجج التسعة من صلبك تاسعهم قائمهم»[٣١] .

وهكذا نقرأ الكثير من الأحاديث والروايات من الطريقين تذكر أسماء الأئمة خلفاء الرسول الأعظم (ص) ، هؤلاء هم القادة الاثنا عشر من أئمة أهل البيت (ع) .

# ثامناً : النبي والأئمة قيادة متكاملة

١ ـ الوحدة القيادية والأدوار المتعددة

٢ ـ أطروحة الحياة

٣ ـ البناء الايماني للمجتمع المسلم

بعض الدارسين لتاريخ الأئمة (ع) ينظر بوحي شخصيته إلىٰ نتاج كل إمام ونتاج الموقف الصعب الذي يعتبره الحل الأكثر واقعية وذكاءً للأزمة العاصفة في حياة الأمة فيتصوّر الباحث تصوراً شخصياً أو ينساق مع الموجة العامة ليرتب علىٰ ذلك نسيج من الكلام والتعابير في وصف الإمام متخذاً من بعض الظواهر ذريعةً لتفسيره السطحي . فمثلاً يتناول الإمام الحسن (ع) بأنه مؤثر للعافية ، أما الإمام الحسين ففيه الشيء الكبير من أبيه علي فقد جاء في كتاب اليمين واليسار في الإسلام : أن الإمام الحسن لم يقف الوقفة التي كانت مرجوة منه ومهما قيل في تبرير ضعفه أو تبرير تسليمه الثورة لمعاوية فإنه يعتبر خالف رسالة أبيه . . . وكان الحسين مختلفاً عن الحسن فقد كان فيه من طبع أبيه الشيء الكثير ولم يوافق الحسين علىٰ شيء مما أجراه أخوه . . . »[٣٢] .

والإمام السجاد آثر الهدوء والسكينة والدعاء والبكاء والإمام الصادق

أسس مدرسة الشريعة وبين الموقف الشرعي من الأفكار الدخيلة بعيداً عن الثورة والجهاد ! ! .

هذه النظرة الساذجة إلىٰ نتاج كل إمام وطريقة حياته وتفكيره في الإصلاح والتغيير عارية عن معرفة الظروف الذاتية والموضوعية للأمة المسلمة آنذاك وإنها نظرة سطحية للأحداث ونتائجها وهؤلاء ينظرون إلىٰ الإمام بأنه لا بد أن يحكم ويمارس الدور السياسي العلني مهما بلغ الأمر ويمكن أن نقول أن من حق هؤلاء الدارسين أن ينظروا للإمام هكذا بأنه الحاكم السياسي لكنهم نسوا أو تناسوا الظروف المحيطة بالإمام والتي لها القدر الكبير في تحديد السلطة السياسية ففي بعض الأحيان يوضع الإمام في زاوية حادة أي يكون محدد الاختيار وربما أمامه خياران إما فناء الإسلام وإما فناء شخصه سياسياً أو جسدياً فيفضل فناء شخصه أمام بقاء الإسلام وإن كان تطبيقه ناقصاً ـ فالنقص خير من العدم ـ وخاصة لو عرفنا أن هذه المسائل حينما تبحث لا نستطيع أن نقطع بها لأنها مسائل اجتماعية قابلة للتقلص والامتداد حسب الرؤية ، فالفئة المتسلطة ـ عادة ـ تكون نفعية ومصلحية أما سواد الناس لا يعرفون اللعبة فأما يحافظ الإمام علىٰ الإسلام العام ويرضىٰ بإقصائه عن المسرح السياسي وأما أن يجاهد علناً ويثور ويستشهد ضمن المصالح العامة للمجتمع المسلم ليخطّ الطريق القويم بدمه كما فعل الإمام الحسين (ع) وإلاّ فإن الإمام لا يتصرف بطريقةٍ متهورة مع الأحداث ليؤدي ذلك إلىٰ إثارة الجاهلية الحمقاء من جديد بل يراعي الظروف الموضوعية في الأمة فيكتشف واجبه المقدس . .

من خلال هذه الرؤية المبدئية نفسر موقف الإمام علي في بداية الخلافة الإسلامية وننطلق أيضاً لتفسير مواقف الأئمة (ع) كلّ حسب ظروفه وللمصلحة الإسلامية العليا فهم جميعاً ناهضوا الحكام المتسلطين بطريقتهم الخاصة هدفهم إبقاء الشريعة وإفهام الناس الحقيقة لذلك ربحوا القلوب لا الكراسي وربحوا الجماهير لا الجلاوزة . . لأنهم ضحوا بأنفسهم وذواتهم لأجل المحافظة علىٰ الإسلام . وإن كان يظهر من بعضهم نوع من السكون،

في الحقيقة هذا هو الظاهر ومؤكداً أنهم لم يكتفوا بهذا الظاهر وإنما خطّوا في الأمة الإسلامية مسيرة التصحيح في حياة المسلمين فكانوا بمثابة دولة في داخل دولة وحكومة ثائرة في داخل حكومة . . وحكومة الأئمة هي المالكة للقلوب عبر الزمن لا حكومة الحكام ـ كما هو معروف ـ .

وأرى أن أسجل بعض النقاط في هذا الصدد لمعرفة القيادة الإسلامية المتكاملة :

## ١ ـ الوحدة القيادية والأدوار المتعددة :

إضافة للحديث الذي مرّ معنا تواً حول القيادة المتكاملة نحن آمنا بعصمة النبي (ص) وعصمة الأئمة الأطهار (ع) خلفاء من بعده فهم حجج الله في الأرض وهم مجتمعون متماسكون يشكلون مشروع القيادة الموحدة . .

يقول الإمام الصادق : «لو بقيت الأرض بغير الإمام لساخت» .

ويقول أيضاً : «إن الأرض لا تخلو إلا وفيها إمام كيما إن زاد المؤمنون شيئاً ردّهم وإن نقصوا شيئاً أتمه» . فإذن القيادة الإسلامية قيادة واحدة متعددة الشخصيات ومتنوعة الأدوار ولربما المعصوم الواحد يؤدي أكثر من دور في قيادته استجابة للظروف الموضوعية المحيطة به ولربما يقتصر معصوم آخر على دور واحد لامتداد تلك الظروف بشكل يشمل كل حياته وعمره (ع) حتى إنه يأخذ ذلك طابعاً متميزاً في أعماله وسائداً في حياته ومشتهراً به كالإمام السجاد والدعاء لذلك عرف بأسلوب الدعاء .

قال الإمام الرضا : «. . فإن قال : فَلِمَ جُعل أولي الأمر وأُمر بطاعتهم ؟ قيل : لعلل كثيرة : منها أن الخلق لما وقفوا على حد محدود وأمروا أن لا يتعدوا ذلك الحد لما فيه من فسادهم لم يكن يثبت ذلك ولا يقوم إلا بأن يجعل عليهم فيه أميناً . . ومنها أنا لا نجد فرقة من الفرق ولا ملة من الملل بقوا وعاشوا إلا بقيّم ورئيس لما لا بد لهم منه لا قوام لهم إلا به . . ومنها أنه لو لم يجعل لهم إماماً قيّماً أميناً حافظاً مستودعاً لدُرست

الملة وذهب الدين وغُيرت السنة . . »[٣٣] .

إذن النبي والأئمة الاثنا عشر كلهم وحدة قيادية متكاملة أو قل إنهم (ع) نسيج قيادي واحد كل له طريقة معينة في عمله وتحركه ومسيرته وكلٌ يكمل دور السابق ويهيىء دور اللاحق ـ كما أشرنا آنفاً ـ فالزهراء هيّأت الأجواء لتسليط الضوء علىٰ الإمام علي المعزول عن المسرح السياسي لينتبه المخلصون ـ على الأقل ـ بأن الزهراء المعصومة ـ التي يرضىٰ الله لرضاها ويغضب لغضبها ـ كما في الأحاديث النبوية قد غضبت علىٰ الوضع الراهن بعد النبي (ص) وأشارت إلىٰ اتباع العدل والحق يروي لنا العياشي أن أم سلمة سألتها عن حالها فأجابتها إلىٰ أن قالت (ع) : « . . هتك والله حجابه من أصبحت إمامته (الإمام علي) مقضية علىٰ ما شرّع الله في التنزيل وسنّها النبي في التأويل لكنها أحقاد بدرية . . . » .

والإمام الحسن هيّأ الظروف للثورة الحسينية حينما أبرم اتفاقية الصلح مع معاوية فقد اشترط في إحدىٰ الشروط بالاتفاقية أن تكون الخلافة لمعاوية فقط ما دام حيّاً فلو هلك في زمن الحسن تعود إلىٰ الحسن وإلاّ فهي للحسين . . فبدأ بتكوين نواة التحرك الحسيني فجمع الخط الايماني المعتمد في الصراع وعلىٰ ما يصطلح عليه اليوم بالكادر المتقدم الذي كان يعاني الإمام الحسن من نقصه في قواته وجماعته ـ ليخوض بهم معركة الشرف . . فإذن معاهدة الصلح كانت فرصة ذهبية لإيقاف النزيف الإسلامي لغرض التهيؤ الجدّي للقيام في وجه الظالمين وقد أحس معاوية بذلك فدسّ السم للإمام الحسن بحيلة غادرة أودت بحياته فانتهت فترته وبعد ذلك تفرغ لمعالجة وإنهاء قيادة الإمام الحسين المعينة في وثيقة الصلح . . فرفض الحسين ونهض ثائراً بعد أن فضح الفئة المتسلطة ودعا إلىٰ الحق فقال للوليد والي المدينة المنورة حينما طلب منه البيعة ليزيد : « . . إنّا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح الله وبنا ختم ويزيد فاسق فاجر شارب للخمور وقاتل للنفوس المحترمة ومستحل لجميع الحرمات ومثلي لا يبايع مثله»[٣٤] حتىٰ قيل أكثر من موقع بأن الإمام الحسين (ع) لو

كان في عهد أخيه الإمام الحسن لصالح معاوية ولو كان الإمام الحسن في عهد الإمام الحسين وظروفه لقام بالثورة الاستشهادية كما فعل الحسين (فالحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا) ـ كما قال الرسول (ص) أي قاما بالثورة أو قعدا عنها ـ .

وهكذا الأئمة من بعد الحسين ، الواحد يتمم دور الآخر بذكاء وحنكة سياسية ولولا الأئمة وعملهم الدؤوب لحماية الإسلام والخط المستقيم لما كان اليوم أحد يلتزم بالإسلام قولاً وعملاً بالشكل الصحيح فبالرغم من المؤامرات المتتالية على الأئمة إلّا أنهم مارسوا أدوارهم المباركة بالشكل المشروع .

إذن من الخطأ أن نصف إماماً معصوماً بأنه محب للعافية والآخر أخذ من أبيه الكثير والآخر اعتكف للدعاء . . هذه التأويلات بعيدة عن الروح الموضوعية والعلمية ومهما حاولت أئمة الكفر والضلال على أن يبعدوا الأئمة عن المجتمع ويقللوا من تأثيرهم ما استطاعوا فقد فوّت الأئمة كل فرص التآمر هذه باختراق الحواجز للدخول إلى صميم الأمة وإعادة المسلمين إلى الاستقامة والتقوى فمرّةً بالارتباط والدعوة والكلام ومرةً بالجهاد والعمل والتضحية والدماء ومرة بالدعاء والتربية ومرة أخرى بالدراسة الفكرية والفقهية والعلمية وهكذا . . وخلف كل طريقة بقية الأساليب الأخرى تمارس بشكل خفي دقيق أي أن الطابع العام الظاهري المناسب للظروف الأمنية والاجتماعية هو السائد في حياة الإمام بينما طرق الإصلاح الجذري يمارسها الإمام بأسلوبه الخاص الذي يمتاز بالحيطة والحذر والكتمان فنرى الحاكمين يشدّدوا قبضتهم على الأئمة خوفاً منهم وبشتى أنواع التشديد حتى يصل الحد إلى الاعتقال للإمام في قصر الخلافة كما صنع المتوكل العباسي بالنسبة للإمام الهادي وكما صنع هارون الرشيد مع الإمام موسى بن جعفر وأكثر من ذلك أن الإمام وهو في السجن يقلق مضاجع الحكّام ويشكّل خطورة بالغة على مسيرة الدولة القائمة وذلك لأن الأمراء يعرفون الإمام وأثره في نفوس الناس ويعرفون أحقيته بالخلافة الشرعية ويعرفون أيضاً قدرات

الإمام الفائقة بالارتباط والاتصال والعمل المتواصل لتحريك الناس باتجاه الثورة والتغيير فلذلك كان الإمام سجيناً بدناً لكنه الشبح المخيف لسلطانهم فكان الأمراء يلاحقون الشبح ليقضوا عليه سماً أو قتلاً ، قال الحسن بن علي : لقد حدثني جدي رسول الله (ص) «أن الأمر يملكه اثنا عشر إماماً من أهل بيته وصفوته ما منا إلا مقتول أو مسموم» والإمام الصادق يقول : «والله ما منا إلا مقتول شهيد» وروايات بهذا المعنىٰ كثيرة[٣٥] .

يعني أن الأئمة لم يقضوا حياتهم بالموت الطبيعي وإنما قضوا شهداء قتلاً بالسيف أو بالسم وقبل ذلك عاشوا السجن والتهجير والملاحقة وبكلمة أخرىٰ كانوا يلاحقونهم لغرض التصفية الجسدية التامة كل ذلك للخوف الشديد من تأثيرهم على السلطة والناس ولكنهم نسوا أن الشبح يلاحقهم أكثر حينما يكون شهيداً .

فبالنتيجة نفهم أن الإمام المعصوم سواء صالَحَ معاوية أو ثار علىٰ الواقع الفاسد أو فتح مشروعاً علمياً أو سجن أو سم أو قتل . . لا بد أن ننظر إليهم بمنظار واحد قال رسول الله : «ابناي هذان إمامان قاما أو قعدا»[٣٦] .

ـ وكما مر معنا ـ فالإمام هو بنفسه يعرف وظيفته الشرعية في القيام بالثورة أو القعود عنها وكل أعمالهم ثورات في ميادينها عسكرية كانت أو ثقافية أو أخلاقية . .

**٢ ـ أطروحة الحياة :**

الأطروحة الإسلامية هي أطروحة الحياة بكل ما تعني كلمة الحياة من معنىٰ شمولي واسع فأطروحة بهذه السعة والقدرة والشمولية لا تتوقف علىٰ أسلوب معين دون آخر ، والقيادي المعصوم يتصرف علىٰ ضوء ما يراه صالحاً لأنه هو المتمم للسنة النبوية الشريفة فعلاً وقولاً وتقريراً لأنهم كما قلنا نسيج قيادي واحد معصوم يكمل دور المعصوم السابق .

والمهم أن الثورة المسلحة هي مظهر من مظاهر العمل الإسلامي يمارسه المعصوم في الظرف المناسب ومهما كلف الثمن لأنه يسعىٰ لتحقيق الهدف الإلهي المقدس ولا اعتبار لأي سبب آخر في مواقف المعصومين ونقول بحق لو كان الحسين في زمن الحسن لتصرف مع الأحداث نفس تصرف الإمام الحسن ولو كان الحسن في ظرف الحسين لتصرف مع الأحداث نفس تصرف الحسين . لأن المواقف واحدة وثابتة تأتي مناسبة للظرف المحيط بالأمر .

وأن نشوء مدرسة أهل البيت الفقهية والفكرية وبيان خطوط الفلسفة الإسلامية وتحصين المسلمين من الغزو الثقافي اليوناني في عصر الترجمة هذا مظهر آخر من مظاهر العمل الإسلامي يؤدّيه المعصوم في الوقت المناسب فكان الإمام الباقر والصادق في ذلك الظرف الحسّاس فقاما بالثورة الثقافية الجبارة وكما أسلفنا هذا هو العمل السائد في حياتهما وقد أدّيا الأدوار الأخرىٰ الشاملة للحياة في كل مجالاتها السياسية والثورية والاقتصادية والاجتماعية . .

ومن خلال هذه النقطة أريد أن أوضح إنّ الإمام الذي يقوم بالثورة الثقافية ليس معنىٰ هذا إنه آثر العافية والراحة كما يحلو للبعض أن يقول ... بل إنّه يقوم بدورٍ معين مفروض عليه شرعاً وعقلاً ولو قام بالثورة المسلحة في محل الثورة الثقافية لما حصل الإسلام ربحاً عملياً مثلما يربح من الثورة الثقافية للإمام الصادق (ع) مثلاً والعكس صحيح بالنسبة للإمام الحسين فلو كانت ثورته ثقافية مكان الثورة الجهادية الاستشهادية لما حصل الإسلام والمسلمون خيراً وافراً بقدر الخير الكبير الذي حققته دماء السبط الحسين (ع) ودموع الأرامل والأيتام في صحراء كربلاء ولله در القائل :

تـوّج الأرض بالفتوح فللرمل ... علىٰ كل حبة إكليلُ
كذبوا كل ومضةٍ من سيوف الحق ... في فاحم الدجىٰ قنديلُ
وكل عرقٍ فروْهُ لهو بوجه ... الظلم والبغي صارم مسلولُ

والثورتان ـ الجهادية والثقافية ـ تشكلان الوازع الحقيقي في ضمير الإنسان المسلم للعودة إلىٰ مبدئه وعقيدته وترك الحالة الالتوائية الشاذة التي كان يروج لها المتسلطون الحاكمون .

وعلىٰ فرض صحة ما ذهبنا إليه فالإمام الحسين قام بالثورة الاستشهادية ليعيد الناس إلىٰ جادة الصواب .

إن كان دين محمد لم يستقم     إلا بقتلي فيا سيوف خذيني

وبيان الإمام الحسين في بدايات تحركه الذي قال فيه . . . «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي محمد (ص) أريد أن آمر بالمعروف وأنهىٰ عن المنكر وأسير بسيرة جدي محمد وسيرة أبي علي بن أبي طالب . .»[٣٧] يؤكد فيه امتداده القيادي .

هذا والإمام الصادق قام بالثورة الثقافية لتنبيه الناس من غفلتهم أمام التيارات الفكرية التي بدأت تغزو الساحة الإسلامية ليعيدهم إلىٰ الطريق المستقيم وهذا ما أكدناه قبل قليل إن الإمام يشتهر بثورة دون أخرىٰ للغلبة أي أن أغلب اهتماماته حسب الظاهر للقضية الثقافية أو الجهادية فيشتهر بها فمع صحة هذا الفرض نرىٰ خلف هذه الشهرة هنالك أعمالاً كبيرة يقوم بها المعصوم خارج إطار هذه الشهرة فلو تتبعنا حياة الإمام الحسين (ع) ففي عهد أبيه علي أو أخيه الحسن كانت له أدوار في الثورة المباركة فكرياً وتربوياً وفعلاً اشترك مع أخيه الحسن في كثير من مواقف الثورة التربوية في الأمة الإسلامية والتاريخ يحتفظ بقصص كثيرة من هذا القبيل يمكن أن تذكر في محلها وحتىٰ في يوم الصلح مع معاوية كان الحسين في صفوف أخيه الحسن ولم يبدُ عليه اعتراض أو عدم رضىٰ والتاريخ شاهد علىٰ ما نقول لأنه يعرف دوره ويعرف دور القائد المعصوم أخيه الحسن (ع) فهو إمام الزمان ولا بد من إطاعته فرؤيته هي الأصلح للإسلام وللمسلمين حتىٰ جاء دوره الجهادي المميز . .

والإمـام الحسن كذلـك كان قبـل معاهـدة الصلح قد جهـز جيشاً كبيـراً لخـوض معركـة مصيريـة فاصلة وأعـدّ لها إعـداداً عسكريـاً كبيراً ولكنـه حينما رأىٰ ظروفاً موضوعية خانقة محيطة به من الخيانـات المتلاحقـة في قواده مثـلاً وتشرذم جيشه كذلك فضّـل تفويت الفـرصة علىٰ الحـاكمين فبدّل استـراتيجيته من معركة عسكرية إلىٰ معركة فكرية ثقافية سياسية جماهيرية . .

وصحيـح أنه عـرف بالصلح لكنـه قبل الصلح وبعـده كـان مشغـلاً بـالإعـداد المستمر لخوض المعركة الجهادية الفـاصلة ولمّا لم تتـح له الفـرصة المنـاسبة وداهمـه معاويـة بـالسم فـاستشهـد (ع) حينـذاك تـابـع المسيـرة أخـوه الإمـام الحسين حتىٰ ختمها بالاستشهاد المبارك وهكذا من إمام إلىٰ إمام . .

وعلىٰ ما تقدم نـلاحظ أن الأطروحـة الإسلاميـة الشاملة للحيـاة مارسهـا كـل إمام بشتىٰ الأسـاليب والطرق ولكن كـل إمام عـرف بطريقـة معينـة وثـورة معينة لأنها كانت العلامة البارزة في حيـاته حيث شخّصهـا بالضـرورة الشرعيـة مع عدم إلغاء أدواره الجهاديـة الأخرىٰ المكملة لـلأطروحـة الإسلاميّة الشاملة فهم مـارسوهـا من كل نـواحيها وتميّـزوا بأسلوب معيّن لسيـادتـه علىٰ حيـاتهم وكان هو الأنسب . . وللعلم إن الجهـاد والكفاح السـري في المرحلة السلبيـة الممزوج بالعمل التوعوي الثقافي عملية شاقـة بل أشق في بعض الأحيـان من الخـوص المباشـر في الثورة المسلحـة فالتـربية والإعـداد الـدقيق قبـل الثـورة عمليـة غير سهلة وتـرتيب الأمور الـداخلية هـو الأهم بالنسبـة للثورة المسلحـة فلولا الإعـداد المتين لم يستطع المحـارب أن يصمد أمـام عدوه في المعـركـة فالأئمة (ع) كانوا باستمرار في عملية إنتاجية للكوادر الإسـلامية المضحيـة من أجـل المبدأ ويتحيّنون الفرص للثـورة المسلحة بعـد أن ينمـو الجيـل المؤمن الهادف ليتحمل مسؤوليتـه في عملية التغييـر والبناء والثـورة في عموم جـوانب الحياة .

**٣ ـ البناء الايماني للمجتمع المسلم :**

هدف الإسلام هو بناء الإنسـان والمجتمع إيمانياً وبـذلك يحتـل الأئمة

مـواقعهم الطبيعيـة في قلوب المسلمين وعادة من يـريد خـدمة النـاس ويسعىٰ لهم بـالخير والعـطاء نرىٰ أن النـاس بـأفئـدتهم يتعلقـون بـه والقضيـة فـطريـة وجدانية هذا علىٰ مستوىٰ الناس وكيف بالأئمـة (ع) إنهم علّمونا (خير النـاس من نفع الناس) وحينما نطالع سيرتهم المباركة نـراهم في كل خـطوة يخطونها يستهدفون رضـا الناس في الـدائرة الشـرعية ـ طبعـاً ـ فيوضحـون لهم غوامض الأمور ويكشفون مصـالحهم في الدنيـا والآخرة فـالأئمة هم النـور السـاطـع في قلوب المؤمنين كمـا قال الإمـام الباقـر : «. . لنـور الإمـام في قلوب المؤمنين أنـور من الشمس المضيئة بـالنهار . . . » فهم يعلّمـون الناس الحـلال والحرام وعن الإمـام الصادق : «ان الأرض لا تتـرك إلا بعـالم يحتـاج النـاس إليـه ولا يحتـاج إلىٰ الناس يعلم الحـلال والحرام» وفي روايـة أخـرى : (ان الأرض لا تخلو إلا وفيهـا إمام كيمـا إذا زاد المؤمنون شيئـاً ردّهم وإن نقصوا شيئـاً أتمـه) فلذلك كان البنـاء النفسي للمسلمين يتم علىٰ يد النبي والأئمـة فإنهم يسعـون لهـذا البناء وينصبـون لأنفسهـم مواقـع الخير في قلوب النـاس فكان من أرزاق الله وألطافه ان المؤمنين يحبّون الأئمة من أهـل البيت حباً قلبيـاً يقول الـرسول الأعظم (ص) لعلي : «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق» .

وكـذلـك قـال (ص) : «عنـوان صحيفـة المؤمن حب علي بن أبي طالب» .

ويقـول الإمـام السجـاد (ع) في خـطبتـه الشهيـرة في مجلس يـزيـد بـالشام : «. . أيهـا الناس أُعـطينـا ستـاً وفضلنـا بسبـع اعـطينـا العلم والحلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبة في قلوب المؤمنين . . . » .

ويقـول الإمام علي (ع) : «لـو ضَـربت خيشـوم المؤمن بسيفي علىٰ أن يبغضني مـا أبغضني ولو صببت الـدنيا بجمـاتهـا علىٰ المنـافق علىٰ أن يحبّني ما احبّني . . » .

وقـال رسـول الله : «اللهم أحبّ حسنـاً وحسينـاً وأحبّ من يحبّهمـا» ،

«حسين مني وأنـا من حسين أحب الله من أحب حسيناً» ، «حسين سبط مـن الأسباط» .

وهـذه مسألـة طبيعية لمن يـريـد الخيـر للنـاس والاستقـامـة والمصلحـة الـدنيويـة والأخرويـة لهم . وحين مطالعـة هذه الأحـاديث والروايـات ينكشف أمـراً خفياً كـأنما رسـول الله كان يعلم بمـا سيجري علىٰ أهـل بيته من مـظالم كما صرح في حـديثه مـع ابنته الـزهراء وهـو علىٰ فراش المـوت وفي أحاديث عديدة أيضاً كان بيّن ـ بعلم الله ـ خاتمة أمر الأئمة فأخبر عن شهادة الإمام علي والحسن والحسين ومـا يجـري عليهم من الآلام والمصـائب وهـذا هـو السـر لدفع الرسول الأعظم باتجاه حب أهل البيت وعـدم اقتراف الآثـام والمؤامرات بحقهم ، لأن الروايات والأحاديث في هذا الصـدد كثيرة جـداً لا نجدهـا بحق أي إنسان آخر صـادرة من النبي الأعظم (ص) وبـالفعل تـوصيات النبي بـأهل بيته لم نجد نظيرهـا مع أي صحـابي آخر قـال رسول الله : «علي إمـام البررة وقـاتل الفجـرة منصور من نصره مخذول من خـذلـه» وقـال : «مـرحبـاً بسيـد المسلمين وإمام المتقين» وهكذا . .

فـإذن تثبيت مـواقف الخط الايمـاني في التـربيـة والبنـاء والعـطاء جـاء بفضـل هذه القيـادة الحريصـة على المسلمين . والقيادة هذه تمتاز بـالحصـانـة الدقيقة فقد طبقت القرآن الكـريم وسنّة النبي بحـذافيرهـا من دون الأخذ بعين الاعتبار كل الحسابات الشخصية والسياسية وبهذا فـازوا بالاستقـامة والمبـدئية وأعلنوا بمواقفهم المتـلاحقة إن خطّ النبي الأعـظم لم يمت بموتـه جسديـاً بل إنه مستمر بامتداده الطبيعي الشرعي في الأئمة الأطهار ومهمـا حاولتْ أسـاليب الخـداع والتضليل احتـواء تحركهم الهـادف وتربيتهم الصـالحة مـا استـطاعت وإنمـا واصلوا لتـطبيق الإسـلام الحقيقي وملكـوا القلوب المؤمنـة لتبقىٰ في ولائها القلبي الدائم للإسلام والخط النبوي المستقيم .

# تـاسعـاً : من هـم
# أئمّـة أهـل البيـت (عليهـم السلام) ؟

نحـاول في هـذا المجـال أن نـذكـر الأئمـة الأطهـار ونستكشف بعض مـواقفهم ومعالجـاتهم لقضايـا الإسـلام والمسلمين بـالـطريقـة التي نتبيّن بهـا عقيدتنا عقليـاً لا عاطفيـاً ونستوضـح الدور القيـادي في عملية التغيير والتربيـة بشكـل سريـع يتناسب مـع كتابنـا العقائـدي هذا ، تـاركين تفاصيـل حيـاتهم وسيـرتهم إلىٰ كتب التـاريـخ المفصّلة ونحـاول أن نـسلط الأضـواء علىٰ كيفيـة حـلّ الأزمة القيـادية التي يعـاني المسلمون منهـا أشد المعـاناة اليـوم في زمن الغيبـة الكبرىٰ ومـا هي مؤهلات القـائـد الإسـلامي الشـرعيـة في زمن غيـاب الإمـام المعصوم لتكتمـل الصـورة الإسـلاميـة من كـل جـوانبهـا حيث الحـل الجذري للأزمة القياديـة وللعلم إن اتباع أهـل البيت حلّوا هذه الأزمـة من فترة غياب الرسول الأكرم وإلىٰ أن تقـوم الساعـة ضمن ضوابط شـرعية دقيقـة علىٰ عكس الآخـرين حيث بقيت هذه الأزمـة متفاقمـة منـذ غيـاب الـرسـول (ص) وإلىٰ اليـوم وهذا هـو السر الـذي يذيعـه الـرسـول الأعـظم (ص) في حـديثـه الشـريـف : «إني قد تـركت فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهمـا لن تضلوا بعدي واحـدهمـا أكبـر من الآخـر كتـاب الله حبـل ممـدود من السمـاء إلىٰ الأرض وعترتي أهل بيتي ألا إنّهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض» .

وقـال الإمام علي ـ في هـذا الصدد : «الـزموا أهـل بيت نبيكم فالـزموا

سمتهم واتبعوا أثرهم فلن يخرجوكم من هدىً ولن يعيدوكم في ردىً فإن لبدوا فألبدوا وإن نهضوا فأنهضوا» .

أما أئمة أهل البيت (ع) فهم :

١ ـ الإمام علي بن أبي طالب (ع) .
٢ ـ الإمام الحسن بن علي المجتبىٰ (ع) .
٣ ـ الإمام الحسين بن علي (ع) .
٤ ـ الإمام علي بن الحسين (زين العابدين) (ع) .
٥ ـ الإمام محمد بن علي الباقر (ع) .
٦ ـ الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) .
٧ ـ الإمام موسىٰ بن جعفر الكاظم (ع) .
٨ ـ الإمام علي بن موسىٰ الرضا (ع) .
٩ ـ الإمام محمد بن علي الجواد (ع) .
١٠ ـ الإمام علي بن محمد الهادي (ع) .
١١ ـ الإمام الحسن بن علي العسكري (ع) .
١٢ ـ الإمام المهدي بن الحسن القائم (ع) .

وكما قلنا سنتناول الأئمة (ع) من الجوانب التي حدّدناها بشكلٍ عاجل وسريع وسنسلط الضوء علىٰ الإمام الثاني عشر ، كيف ترك لنا القيادة الحالية وهل توجد لدينا القيادة الشرعية الممتدة لإمامة الإمام الثاني عشر أم تركونا دون قائد فإن قلنا لقد تركونا دون تحديد لهذه المسألة فتأتي الشبهة التي دفعناها سابقاً ولكن بشكلٍ أخف في أنه لو كان من المقرر ترك الأمر للناس ونحن رفضنا ذلك بعد غياب الرسول فلا بد أن نرفضه أيضاً بعد غياب الإمام الثاني عشر فلنتعرف علىٰ نواب الأئمة في عصر الغيبة الكبرىٰ كعلاج شرعي واضح داحضين الشبهة الجديدة بأسلوب عقلي وشرعي .

# عاشراً : وقفة سريعة
# في حياة الأئمة (عليهم السلام)

**الامام علي بن أبي طالب والدور القيادي :**

( أ ) باتجاه السلطة الحاكمة :

١ ـ ترميم ثغرات الجهاز الحاكم .

٢ ـ تنبيه الجهاز الحاكم بحقه الشرعي بالخلافة .

(ب) باتجاه المسلمين :

١ ـ الإعداد التربوي .

٢ ـ الثورة الأخلاقية .

(جـ) الإمام علي الخليفة الحاكم :

١ ـ بوادر الثورة التصحيحيّة .

٢ ـ الثورة الاقتصادية .

٣ ـ الثورة الإدارية .

٤ ـ الثورة الأخلاقية التربوية .

٥ ـ الثورة السياسية .

٦ ـ المعركة الحضارية .

٧ ـ المعركة المستقبلية .

## ١ ـ الامام علي بن أبي طالب ودوره القيادي :

بعد رسول الله (ص) كان للإمام علي (ع) الدور القيادي في التربية والتغيير والتصحيح وعلىٰ ما عرفنا من النصوص الشرعية الماضية ، لكن الملابسات التاريخية جعلته بعيداً عن الممارسة الفعلية للقيادة السياسية فترة ربع قرن أو أكثر بقليل ولا نريد بحث تلك الملابسات ونحيل ذلك للظرف المناسب . المهم أن الإمام علي كانت له مواقفه العقائدية والسياسية والجهادية في زمن الرسول الأكرم (ص) مما لا ينكره أحد وقد قال رسول الله (ص) : «ما قام الإسلام إلا بمال خديجة وسيف علي بن أبي طالب» .

وقال (ص) : «أعلمكم علي ، أقضاكم علي ، أعدلكم علي ، افقهكم علي» .

وفي بحثنا هذا نريد معرفة دوره القيادي في فترتين من حياته الشريفة فترة إبعاده عن السلطة السياسية أولاً وفترة استلامه للحكم حتىٰ شهادته المباركة ثانياً .

أما الفترة الأولىٰ وهي فترةُ عزلِهِ عن الخلافة حيث اجتماع السقيفة وصارت الخلافة لأبي بكر ومن ثم لعمر ومن ثم لعثمان ثم جاءت لعلي ففي زمن الخلفاء الثلاث الذين سبقوه كان للإمام علي دوره المتميز في طريقة قيادة المسلمين بالشكل الذي يناسب الظروف الراهنة ـ آنذاك ـ لنذكر أهم التوجهات في ذلك :

( أ ) باتجاه السلطة الحاكمة :

١ ـ ترميم ثغرات الجهاز الحاكم مراعاة للمصلحة الإسلامية العليا :

حين صارت الخلافة لأبي بكر رأىٰ الإمام علي أن موقفه منها لا بد أن يكون مطابقاً للمصلحة العليا وإلّا سيؤدي موقفه المعارض إلىٰ نزاع دموي بين مؤيديه ومؤيدي أبي بكر وبالتأكيد سيستفيد من هذا الموقف السلبي المنافقون والأعداء حيث الجو الكئيب والمتشابك الذي يصلح عادةً

لنمو الجراثيم السامة التي تستهدف الفتك بالأمة الإسلامية ساحقةً أهدافها المقدسة بعجلات المصلحة الذاتية الأنانية فيكون لهم المجال للتعبير عن موقفهم الواقعي المعادي للإسلام والمسلمين فمن باب الحرص علىٰ الشريعة وعلىٰ مصلحة المسلمين آثر (ع) الوفاء للدين الإسلامي وفضّله علىٰ الموقف الشخصي حيث سلبت الخلافة الشرعية عنه مبيناً موقفه المبدئي المخلص للشريعة الإسلامية ومبيّناً أيضاً شرعيته بالخلافة المنصوصة له بطريقته الخاصة فساير الأحداث بالروح الإيجابية دون استجابة للإثارة والنزاع ، مرمماً نواقص الخلافة من النواحي الفقهية القانونية حيث النقص الواضح لدىٰ السلطة الحاكمة وكتب التاريخ تذكر عشرات القصص في هذا الصدد ومن النواحي الإدارية والاستشارية أيضاً وبالفعل أصبح المستشار الناصح للحكومة القائمة خدمة للمصلحة العامة وعلىٰ سبيل التوضيح نورد بعض الأمثلة في زمن الخلفاء الثلاثة ـ دون تفصيل . ففي زمن الخليفة أبي بكر وردت مجموعة أسئلة إلىٰ بيت الخلافة فما كانت الإجابات وافية مقنعة أو ما كانت تلقي أُذناً واعية لها فكان الإمام علي هو كهف الإسلام والمسلمين يضع لها الإجابات الوافية بأدلتها الشرعية وخاصة لو عرفنا أن الكثير من غير المسلمين كانوا يريدون معرفة الخليفة الحق فيحضّرون أسئلة معيّنة ربما تكون من علامات الخليفة كما ورد في كتبهم المقدسة هذا علىٰ كافة المستويات الفقهية وتفسير القرآن والسياسة والعقائد والعمل الجهادي والاجتماعي ، يروي لنا التاريخ أن أبا بكر سئل عن قوله تعالىٰ ﴿وفاكهة وأبا﴾ فلم يعرف معنىٰ (أبا) فقال أي سماء تظلني أم أي أرض تقلني أم كيف أصنع إن قلت في كتاب الله تعالىٰ بما لا أعلم أما الفاكهة فنعرفها وأما الأب فالله أعلم به فبلغ أمير المؤمنين مقاله ذلك في ذلك فقال : يا سبحان الله أما علم أن الأب هو الكلاء والمرعىٰ وأن قوله تعالىٰ ﴿وفاكهة وأبا﴾ اعتداد من الله تعالىٰ بإنعامه علىٰ خلقه بما غذاهم به وخلقه لهم ولأنعامهم مما تحيي به أنفسهم وتقوم به أجسادهم .

وسئل عن الكلالة فقال أقول فيها برأي فإن أصبت فمن الله وإن

أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان فبلغ ذلك أمير المؤمنين فقال ما أغناه عن الرأي في هذا المكان أما عَلِمَ أن الكلالة هم الأخوة والأخوات من قبل الأب والأم ومن قبل الأب علىٰ انفراده ومن قبل الأم أيضاً علىٰ حدتها قال الله عز وجل ﴿**يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ان امرؤٌ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك**﴾ وقال عز وجل : ﴿**وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأةٌ وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث**﴾ .

ومما جاء في الخبر ان رجلاً رُفع إلىٰ الخليفة أبي بكر وقد شرب الخمر فأراد أن يقيم عليه الحد فقال له إني شربتها ولا علم لي بتحريمها لأني نشأت بين قوم يستحلونها ولم أعلم بتحريمها حتىٰ الآن فارتج علىٰ أبي بكر الأمر بالحكم عليه ولم يعلم وجه القضاء فيه . . . قال علي : مُرْ رجلين ثقتين من المسلمين يطوفان به علىٰ مجالس المهاجرين والأنصار ويناشدانهم هل فيهم أحد تلا عليه آية التحريم أو أخبره بذلك عن رسول الله فإن شهد بذلك رجلان منهم فأقم الحد عليه وإن لم يشهد أحد بذلك فاستتبه وخل سبيله . ففعل ذلك أبو بكر فلم يشهد أحد من المهاجرين والأنصار أنه تلا عليه آية التحريم ولا أخبره عن رسول الله (ص) بذلك فاستتابه أبو بكر وخلىٰ سبيله وسلّم لعليّ في القضاء .

أما في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب فوردت روايات كثيرة من هذا القبيل وكان للإمام علي موقفه المبدئي في ترميم الثغرات القانونية والعقائدية والسياسية ـ في الحكم ـ حتىٰ يذكر في كتب التاريخ والروايات أن للخليفة عمر كلمات خالدة نحو الإمام علي لأن الإمام كان ينقذه من الهلكات فورد مرات عديدة قوله (لولا علي لهلك عمر) و (لا خير في معضلة ليس لها أبو الحسن) .

فمثلاً ورد في قصة قدامة بن مظعون وقد شرب الخمر فأراد عمر أن يحده فقال له قدامة إنه لا يجب عليَّ الحد لأن الله تعالىٰ يقول : ﴿**ليس**

علىٰ الـذين آمنوا وعملوا الصـالحات جنـاح فيما طعمـوا إذا مـا اتقـوا وعملوا الصـالحات﴾ فـدرأ عنـه الحـد فبلغ ذلـك عليـاً فمشىٰ إلىٰ عمـر فقـال له: لِمَ تركت إقامـة الحد علىٰ قـدامة في شرب الخمر؟ فقال إنه تـلا عليّ الآية . . . فقـال عليٌ ليس قدامـة من أهل هـذه الآية ولا من سلك سبيله في ارتكـاب ما حـرم الله تعالىٰ: ﴿إن الـذين آمنوا وعملوا الصـالحات﴾ لا يستحلون حـرامـاً فأردد قدامه واستتبه مما قال فإن تاب فـأقم عليه الحـد وإن لم يتب فاقتله فقـد خرج عن الملة . . وعرف قدامة الخبر فأظهـر التوبـة والإقلاع فـدرأ عمر عنـه القتل ولم يدر كيف يحده فقال لعلي أشـر عليّ في حده فقـال حده ثمـانين إنّ شـارب الخمر إذا شـربها سكـر وإذا سكر هـذىٰ وإذا هذىٰ افتـرىٰ فجلده عمر ثمانين وصار إلىٰ قوله في ذلك .

وروي أن مجنونة علىٰ عهـد الخليفة الثـاني عمر فَجَـر بها رجـل فقامت البينة عليها بـذلك فـأمر عمـر بجلدها الحـد فمرّ بهـا علي لتجلد فقال : مابال مجنونة آل فـلان تقتل؟فقيل له: إن رجـلاً فجر بهـا وهرب وقـامت البينة عليهـا فأمر عمـر بجلدها فقال لهم :ردوها إليـه وقولـوا له أمـا علمت أن هذه مجنـونة آل فـلان وأن النبي (ص)قال:« رفع القلم عن المجنون حتىٰ يفيق » انها مغلوبة علىٰ عقلهـاونفسها . فردت إلىٰ عمر وقيـل له مـا قال علي فقال : فرج الله عنـه لقد كدت أن أهلك في جَلدها فدرأ عنها الحد[٣٨] .

وفي روايـة : أُتي عمر بـامرأة نكحت في عـدتهـا ففـرق بينهمـا وجعـل صداقها في بيت المال وقال : لاتجتمعـان أبداً فبلغ علياً فقال : لهاعليه المهـر بمـا استحل من فـرجها ويفـرق بينهمـا فـإذا انقضت عـدتهـا فهـو خـاطب من الخطاب .فبلغ عمـر (رض) فقال : لولا علي لهلك عمـر . وفي روايـة : أُتي عمر بامـرأة وضعت لستة أشهـر فأمـر برجمهـا فقال علي:ليس عليهـا رجم لأن الله تعالىٰ يقول : ﴿والـوالدات يـرضعن أولادهن حولين كـاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ . فخلّى عنها وقال : اللهم لا تبقني لمعضلة ليس لها ابن أبـي طالب»[٣٩] .

وجـاء كذلـك في زمن الخليفة الثـاني ما حـدّث به شبـابه بن سـوار عن

أبي بكر الهذلي ـ ملخص الفكرة ـ أن قوماً من أهل همدان والري وأصبهان وغيرهم قد أخفوا غضبهم على الرسول والخليفة الأول فتهيّأوا لغزو البلاد الإسلامية ولما استلم الخليفة هذا الخبر فزع فزعاً شديداً وجاء للمسجد وجمع المسلمين وخطب بهم بعد الحمد والثناء لله تعالى حتى قال : «. . . قد تعاهدوا وتعاقدوا أن يخرجوا من بلادهم إخوانكم من المسلمين ويخرجوا إليكم فيغزوكم في بلادكم فأشيروا عليّ وأوجزوا . . . » فقام طلحة وخطب . . . وقام عثمان بن عفان وتكلم . . . وقام علي بن أبي طالب وقال بعد الحمد لله « . . أما بعد فإنك ان أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم وإن أشخصت هذين الحرمين انتقضت عليك العرب من أطرافها وأكنافها حتى يكون ما تدع وراء ظهرك من عيالات العرب أهم إليك ما بين يديك فأما ذكرك كثرة العجم ورهبتك من جموعهم فإنا لم نكن نقاتل على عهد رسول الله (ص) بالكثرة وإنما كنا نقاتل بالنصر وأما ما بلغك من اجتماعهم على المسير إلى المسلمين فإن الله لمسيرهم أكره منك لذلك وهو أولى بتغيير ما يكره وأن الأعاجم إذا نظروا إليك قالوا هذا رجل العرب فإن قطعتموه فقد قطعتم العرب وكان أشد لكَلَبهم وكنت قد ألبتهم على نفسك وأمدهم من لم يكن يمدهم ولكني أرى أن تقرّ هؤلاء في أمصارهم وتكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا على ثلاثة فرق فلتقم فرقة منهم إلى إخوانهم مدداً لهم » فقال عمر أجل هذا الرأي وقد كنت أحب أن أتابع عليه وجعل يكرر قول علي وينسقه إعجاباً به واختياراً له .

أما في زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان فكذلك كانت لعلي المواقف المبدئية في دعم الخلافة الإسلامية مراعاةً للمصلحة العليا لكي لا تنخر الدولة الإسلامية من الداخل وتكون فرصة الشياطين في الانقضاض على الإسلام والمسلمين .

ففي الرواية : ان مكاتبة زنت على عهد عثمان وقد عتق منها ثلاثة أرباع فسأل عثمان علياً فقال :يجلد منها بحساب الحرية ويجلد منها بحساب

الرق.وسأل زيد بن ثابت فقال : تجلد بحساب الرق فقال له الإمام علي:كيف تجلد بحساب الرق وقد عتق منها ثلاثة أرباعها؟وهلاّ جلدتها بحساب الحرية فإنهافيها أكثر ؟. فقال زيد .لو كان ذلك كذلك لوجب توريثها بحساب الحرية فقال له أمير المؤمنين :أجل ، ذلك واجب فأُفحم زيد[٤٠] .

ومن هذه الأحداث المروية نجدها بكثرة في كتب التاريخ الإسلامي والروايات والسير نحيل القارىء الكريم إليها . .

**٢ ـ تنبيه الجهاز الحاكم بحقه الشرعي بالخلافة :**

والحق أن الطبقة الواعية في الأمة تعلم ذلك فكان الإمام علي يتصدىٰ للحالات الطارئة والعسيرة ليكشف عن قوته العلمية والفكرية والإدارية فكان الجميع يطأطىء أمام علم الإمام وروحه وإرادته وبهذا كان يشير إلىٰ أحقيته بهذا الموقع حسب النص الشرعي في القرآن وحديث الرسول وإشاراته هذه بأحقيته للخلافة يستهدف منها المصلحة العليا للإسلام والمسلمين أيضاً .

قال أحمد في (الفضائل) حدثنا عبد الله القواريري حدثنا موئل عن يحيىٰ بن سعيد بن أبي المسيب قال كان عمر بن الخطاب يقول أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن قال ابن المسيب: ولهذا القول سبب وهو إن ملك الروم بعث إلىٰ الخليفة الثاني عمر مجموعة من الأسئلة ينتظر إجابتها ليرتب عليها الأثر الطبيعي ونذكر بعض الأسئلة (. . . وما شيءٌ كلُّه فم ؟ وما شيء كله رِجل ؟ وما شيء كله عين ؟ وما شيء كله جناح ؟ وعن رجل لا عشيرة له ؟ وعن أربعة لم تحمل بهم رحم ؟ . . . وعن مكان لم تطلع فيه الشمس إلاّ مرة واحدة ؟ . . . وعن مفاتيح الجنة ما هي ؟) .

فقرأ عليّ الكتاب وكتب في الحال خلفه : نذكر إجابات الأسئلة التي ذكرناها فقط . . قال (ع) : «بسم الله الرحمٰن الرحيم . . أما بعد ـ فقد وقفت علىٰ كتابك أيها الملك وأنا أُجيبك بعون الله وقوته وبركته وبركة نبينا محمد (ص) . . وأما الذي كله فم فالنار تأكل ما يلقىٰ فيها وأما الذي كله رجل فالماء وأما الذي كله عين فالشمس وأما الذي كله جناح فالريح وأما

الـذي لا عشيرة لـه فـآدم (ع) وأمـا الـذي لم يحمـل بهم رحم فعصـا مـوسىٰ وكبش إبراهيم وآدم وحواء . . . وأما المكان الـذي لـم تطلع عليـه الشمس إلا مرةً واحدة فأرض البحر لمـا فلقه الله لمـوسىٰ (ع) وقام المـاء أمثال الجبـال ويبست الأرض بـطلوع الشمس عليها ثم عـاد ماء البحـر إلىٰ مكانـه . . . وأما مفـاتيح الجنـة فلا إلـه إلا الله محمد رسـول الله» قـال ابن المسيب فلمـا قـرأ قيصـر الكتـاب قـال مـا خـرج هـذا الكـلام إلاّ من بيت النبـوة ثم سـأل عن المجيب فقيل له هـذا جواب ابن عـمّ محمد (ص) فكتب إليـه سلام عليـك أمـا بعد : فقـد وقفت علىٰ جوابـك وعلمت إنك من أهـل بيت النبوة ومعـدن الـرسـالـة وأنت مـوصـوف بـالشجـاعـة والعلم وأوثـر أن تكشف لي عن مذهبكم . . . )[41] .

ومن هـذه القصص مذكـورة في التـاريخ الإسـلامي بشكـل جلي وفي كل أدوار الخلافة الإسلامية قبل عهد الإمـام علي (ع) وكانت لـلإمام خـطابات خاصة في هذا المضمار مذكورة في كتب الاحتصاص فكان يخـاطب الخلافـة والناس بهذا الصدد كإسقـاط للواجب الشرعي عن كـاهله فكان يقـول ـ مثلاً ـ (لقد تقمّصها ابن أبي قحـافة (الخليفـة الأول) وأنه يعلم أن محلي منهـا محل القطب من الرحىٰ . . ) في شقشقيته المعروفة المهم يسجل لـلإمام علي هـذا الدور الشرعي أثناء الخلافة التي سبقته .

**(ب) باتجاه المسلمين :**

بعد ما ذكـرنا مـوقفه المبـدئي اتجاه الجهـاز الحاكم لنتحـدث قليلاً عن توجهاته المباركة اتجاه عموم الناس ونجمل القول بما يلي :

**١ ـ الإعداد التربوي :**

كـان الإمام علي (ع) يعمـل في وسط الجماهيـر لغرض إعـداد الإنسان المؤمن للمـرحلة القادمـة وبهذا الجهـد العمقي في التربيـة استطاع الإمـام أن يبني جيلاً مؤمناً صلباً مقاوماً لكل الـظروف السلبية في الأمـة وهـذه النخبـة المؤمنـة أصبحت الـطليعـة المعتمـدة في تعـديـل الانحـراف السيـاسي

والاجتماعي والإداري فكان الإمام (ع) يتعب في تربيتهم وعطائهم فبذلك أنتج العناصر المركزة إيمانياً هي التي حملت أعباء الرسالة الإسلامية في زمن الخلفاء الثلاثة وفي زمن الإمام علي وأصبحوا بحق القدوات الصالحة للجيل الثائر والإدارة الناجحة أمثال عمار بن ياسر وأبو ذر الغفاري ومالك الأشتر وميثم التمار وحجر بن عدي الكندي وكميل بن زياد وغيرهم .

وكانت وصاياه القلبية هي أهم مصادر التربية المركزة عند الإمام لخلق حالة الوعي المكثف لدىٰ أصحابه ورجاله تلك الوصايا التي تجمع بين التوجهات الشرعية في القرآن والرسول الأكرم بالإضافة إلىٰ المعاناة الميدانية التي تواجه العاملين والتي بدورها تخلق البون الشاسع بين الحالة الفكرية والحالة التطبيقية علىٰ الأرض فكانت تأتي وصاياه وآراؤه المباركة كبلاسم الشفاء لأوضاع الولاة والرعية معاً . . فكان يخاطبهم بهذه اللغة الهادفة قاصداً هذا العمق في التربية والإعداد ومن جملة أقواله (ع) (طوبىٰ لمن عرف الناس ولم يعرفه الناس أولئك مصابيح الدجىٰ وأئمة الهدىٰ بهم يكشف الله عن هذه الأمة كل فتنة أو مظلمة أولئك سيدخلهم الله في رحمة منه وفضل ليسوا بالمذاييع البذر ولا الجفاة المرائين . . . ) وقال (ع) يصف المؤمن : (حزنه في قلبه وبُشره في وجهه أوسع الناس صدراً وأرفعهم قدراً يكره الرفعة ولا يحب السمعة) . . (لسان المؤمن من وراء قلبه وقلب المنافق من وراء لسانه لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبره في نفسه فإن كان خيراً أبداه وإن كان شراً واراه والمنافق يتكلم بما جاء علىٰ لسانه لا يدري ماذا له ولا ماذا عليه) .

وكانت تربيته (ع) تشمل الطريقتين تربية جماعية عامة وتربية فردية خاصة والطريقتان تلتقيان في هدف مقدس واحد ألا وهو الإعداد التربوي والبناء الإيماني في المجتمع .

وغالباً لا بد من استخدام الحديث الشخصي في التربية الفردية لغرض تنشئة الكادر المتقدم رسالياً يروي لنا الصحابي الجليل كميل بن زياد أنه :

(أخذ بيدي أمير المؤمنين علي (ع) فأخرجني إلىٰ ناحية الجبانة فلما أصحرنا جلس فتنفس الصعداء ثم قال يا كميل بن زياد إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها احفظ ما أقول لك الناس ثلاثة عالم رباني ومتعلم علىٰ سبيل نجاة وهمج رعاع اتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلىٰ ركن وثيق يا كميل العلم خير من المال. العلم يحرسك وأنت تحرس المال العلم يزكو علىٰ الإنفاق والمال يزول ومحبة العلم دين يدان به يكسبه الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد مماته، المال تنقصه النفقة والعلم يزكو علىٰ الإنفاق . . . يا كميل مات خزّان المال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر . . . اللهم بلىٰ لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته لكيلا تبطل حجج الله علىٰ عباده أولئك هم الأقلون عدداً الأعلون عند الله قدراً بهم يحفظ الله دينه حتىٰ يؤدونه . . .) .

وهكذا كان يتحدث الإمام مع المقربين له ويربّيهم التربية الدقيقة ليتم بناءهم النفسي والديني علىٰ أتم صورة وحينما كان يصطدم أحد طلابه بالواقع الفاسد فيعيش آلام ردود الفعل كان (ع) يسليه ويطمئنه . . فهذا أبو ذر الغفاري الذي غضب لله في زمن الخليفة الثالث وناقشه علىٰ فقدان العدالة في التوزيع فأبعد ـ بأمر الخليفة ـ إلىٰ الربذة في حالة عسيرة هنا كتب له الإمام علي (ع) برواية الشعبي :

(أما بعد يا أبا ذر فإنك غضبت لله تعالىٰ فأرج من غضبت له، ان القوم خافوك علىٰ دنياهم وخفتهم علىٰ دينك فاترك لهم ما خافوك عليه واهرب منهم لما خفتهم عليه فما أحوجهم إلىٰ ما منعتهم وما أغناك عما منعوك وستعلم من الرابح غداً فلو أن السموات والأرض كانتا رتقاً علىٰ عبد ثم أتقىٰ الله لجعل له منها مخرجاً لا يؤانسنك إلا الحق ولا يوحشنك إلا الباطل ولو قبلت دنياهم لأحبوك ولو قرضت منها لأمنوك) .

أوردنا هذه الأمثلة للتوضيح ونحيل القارىء الكريم لقراءة كتب هذه الحقبة الزمنية من التاريخ الإسلامي لمزيد من الاطلاع .

٢ ـ الثورة الأخلاقية :

قام الإمام علي (ع) بثورة أخلاقية عامة في الوسط الاجتماعي فكان ينشر أفكاره والقيم الخلقية الإسلامية عبر كلماته العامة والخاصة التي كان يلقيها على المسلمين في المناسبات وحين الاجتماع عنده ليقاوموا الشر والباطل ويصبروا على صعوبة المسير ويتحصنوا من الحالات المرضية المستجدة في حياة المسلمين فكان المأوى لشكاوى الناس من السلطة والمظالم في البلدان وكان يمتص غضب الناس من ناحية ليزوّدهم بالقيم الأخلاقية السامية في التجاوز والبناء والإحسان والعمل الصالح وتجميع القوى العامة وصبّها في الهدف التغييري نحو الأفضل وفي هذا الصدد ملأ الإمام (ع) الفراغات النفسية والخلقية التي كانت سائدة في ذلك الظرف بالذات وذلك لأن الفتوحات الإسلامية منحت للمسلمين ابتسامات عريضة من الدنيا من أموال وفتيات حسان بالسبي والغنائم والتسلط السياسي والعسكري مما جعل الكثير من المسلمين يفكر في دنياه وراحته ولذاته وقد أصيب الوسط الاجتماعي بالغرور النفسي وهو من أخطر الأمراض وأبرز بواطن الإثم .. فكانت الثورة الأخلاقية التي أعلنها الإمام (ع) وقادها في الظرف الحساس لهي الثورة المطلوبة فكان يذكرهم بالموت والآخرة والعاقبة وتجارب السابقين للموعظة والإرشاد والعبرة ليحدّ من الغرور واللهاث المادي .. ومن جملة الأمثلة على ذلك قوله (ع) : «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك فلا خير في الدنيا إلّا لأحد رجلين رجلٍ أذنب ذنوباً فهو يتدارك ذلك بتوبة ورجل يسارع في الخيرات ولا يقل عملاً في تقوى فكيف يقل ما يتقبل» .

وحينما شيّع جنازة فلما وُضعت في لحدها عجّ أهلها وبكوا فقال : مم تبكون أما والله لو عاينوا ما عاين لأذهلهم ذلك عن البكاء عليه أما والله أن له إليهم لعوده ثم عوده حتى لا يبقى منهم أحد ثم قام فيهم فقال (ع) :

أوصيكم بتقوى الله عباد الله الذي ضرب لكم الأمثال ووقّت الآجال وجعل لكم أسماعاً ... إن الله لم يخلقكم عبثاً ولم يضرب عنكم الذكر

صفحاً بل أكرمكم بالنعم السوابغ . . . بادروا بالعمل قبل الندم قبل هادم اللذات ومفرق الجماعات فإن الدنيا لا يدوم نعيمها ولا يؤمن فجايعها غرور حايل وسناد مايل ونعيم زايل . . . » .

ومن أقواله في التربية الأخلاقية «الدنيا دار ممر والأخرىٰ دار مقر فخذوا من ممركم لمقركم ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم وأخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم ففيها أختبرتم ولغيرها خلقتم . . » .

وقال : «لا تكن ممن يريد الآخرة بعمل الدنيا أو بغير عمل ويؤخر التوبة بطول الأمل يقول في الدنيا قول الزاهدين ويعمل فيها عمل الراغبين» ، «إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار وإن قوماً عبدوه رهبة فتلك عبادة العبيد وإن قوماً عبدوه شكراً فتلك عبادة الأحرار» .

وقال (ع) : «اتقوا معاصي الله في الخلوات فإن الشاهد هو الحاكم» وقال في وصف المتقين : «فالمتقون في هذه الدار ، هم أهل الفضائل منطقهم الصواب وملبسهم الاقتصاد وعيشهم التواضع غَضّوا أبصارهم عن المحارم ووقفوا أسماعهم علىٰ العلم النافع . . . عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم فهم والجنة كمن قد رآها منعّمون، وفي النار كمن رآها معذبون، قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة أجسادهم نحيفة وحاجاتهم خفيفة . . . ومن علامة أحدهم أنك ترىٰ له قوة في دين وورعاً في يقين وحزماً في علم وعزماً في حكم وقصداً في غناء وخشوناً في عباده . . . وفي الزلازل صبور وفي المكاره وقور وفي الرضا شكور . . . »[٤٢] .

وبالفعل كانت أحاديث الإمام وأفعاله وتصرفاته المثل الأعلىٰ للرؤية الإسلامية الحقة وكان الناس يرون فيه الامتداد الروحي للنبي (ص) ففي عصر اللهاث نحو الدنيا والمادة والتسابق علىٰ حطام الأرض ينمو خط الإمام علي كتيار مضاد للحالة السلوكية الجديدة في صفوف المجتمع الإسلامي وكان يشعر (ع) أن الأزمة الرئيسية التي تخنق الإسلام والمسلمين هي الأزمة

الأخلاقية فلذلك نرىٰ الكتب التي بحثت حول الإمام علي في كل حياته تشهد لثورته الأخلاقية العالية فكان يحاسب نفسه ويسهر ليله ويجهد حاله لحفظ الإسلام بالطريقة الصحيحة ليصل إلىٰ الأجيال الصاعدة بأمانة ولكي لا نفهم الإسلام كما يصوّره الأعداء دين التسلط والقمع والدماء والسلب بل هو دين المحبة والاخاء والتعاون وهو دين الدفاع والجهاد ضد الأعداء في نفس الوقت فحينما شعر الإمام بغياب الجانب الإصلاحي والتعاوني من حياة المسلمين أصر علىٰ إعادة الصورة الحقيقية للإسلام لذهنية المسلمين والناس أجمعين فكان يجالس الضعفاء والفقراء ويأكل معهم بل كان يأكل في بيته الخبز اليابس ويذكر المشايخ أن طعامه كان من خبز الشعير اليابس وكان يختمه لكي لا يأتي الحسنانِ ويضيفان عليه زيتاً . . وكان يحمل سيفه في أسواق الكوفة وهو الحاكم آنذاك ليبيعه ثم يقسم في نفسه والله لو كان عندي عشاء الليلة ما بعته . . .

وهكذا بيّن الإمام أُسس الثورة الخلقية لتكون نبراساً لكل المؤمنين عبر الزمن .

(جـ) الإمام علي الخليفة الحاكم :

عرفنا مما سبق الدور القيادي المتميّز للإمام علي (ع) في فترة إبعاده عن الممارسة السياسية المباشرة والقاعدة مطردة لدىٰ جميع الأئمة (ع) فكانوا يؤدون دورهم القيادي في الأمة مع أحلك الظروف المحيطة بهم مع الأخذ بنظر الاعتبار الظروف السياسية والفكرية والاجتماعية والنفسية في المجتمع القائم من جانب ومن جانب آخر الموازنة بين المبدئية الصارمة وهذه الظروف المحيطة وبالذات الظروف السياسية فهم يرفضون الخضوع لهذه الظروف لأن الخضوع ـ هنا ـ يخرجهم من الطور القيادي للأمة وهم كذلك يحاولون التغيير بخطوات هادئة حيث لا تأخذهم في الله لومة لائم من ناحية ومن ناحية ثانية نراهم متأطرين بالمصلحة الإسلامية والمجتمع القائم وفيما بين الناحيتين وضع الأئمة (ع) نظريتهم وفق الظروف المستجدة

ونـزلوا ليـطبقوهـا بكل دقـة وصـرامـة علىٰ الأرض فكـأنهم يسيـرون في أرض مـزروعة بـالألغام فكـانت مسيـرتهم دقيقـة وجـادة تمضي بخـطوات ثـابتـة في الميـادين الحياتيـة وليس معنىٰ ذلك هـو التوقف عن التـطبيق الإسلامي وإنمـا الاستمـرار في العطاء والعمـل بأسـاليب تتناسب مـع مـا ذكـرنـا من النـاحيتين المحيـطتين للقرار الشـرعي الصادر من الأئمـة (ع) فكـان العمـل الاجتمـاعي والثقافي والسلوكي والتأثير الواضح علىٰ المجتمع وتربيته .

ونعود للإمام علي (ع) وهو الخليفـة الحاكم في الأمـة والماسـك بزمـام الأمـور مباشـرة فإنـه بالفعـل قاد الثـورة التصحيحية في الإسـلام وهـذه الثـورة كانت شاملة نذكر بعض جوانبها بما يناسب المقام : ـ

**١ ـ بوادر الثورة التصحيحيّة :**

قبل أن يخوض في غمار الثورة التصحيحية هيأ أذهان المسلمين بالبداية للتغيـرات الجذريـة لبعض المفاهيم السـائدة والتي تبـدلت بعد وفـاة الرسـول الأعظم (ص) حيث دخل الاجتهـاد وأُسيء استخدامـه أحيانـاً ولا أرىٰ ضرورة لتقديم أمثلة تاريخيـة وإنما الأمـر يبدو واضحـاً للمتطلعين وحـدثت اختلافـات بين الخلفاء الثلاث في صدد قضايا فقهية معينـة وأمامنـا قصة خـالد بن الـوليد وقتله للصحـابي مالـك بن نويـره وهو يؤدي فـرض الصلاة وعمـل ما لم يعمله المسلم العـادي ولا أحب إكمال القصـة ـ فلتراجـع في مصادرها ـ فـاختلف الخلفاء في عقوبتـه أو العفو عنـه لأنه اجتهـد فأخـطأ . . وأمثلة كثيرة من هـذا النمط لـذلك لمـا استلم الخلافـة أمير المؤمنين علي أعـاد المسلمين إلىٰ سنة رسول الله ومنهجيته مباشرة لذلك نلاحظ في خطبته ما يؤكـد هذا المعنىٰ فقـد قـال (ع) : «إنما أنـا رجـل منكم لي مـا لكم وعليّ مـا عليكم وإني حـاملكم علىٰ منهج نبيكم ومنفذ فيكم ما أُمرت به . . . » .

وبهذا نفهم معنىٰ الثورة التصحيحية في حياة الأمـة الإسلاميـة بعد أكثـر من ربع قرن عاشت الأمة تقلبات سياسية وآراء اجتهاديـة متناقضـة أحيانـاً يأتي علي ليعيدها إلىٰ الأصالة .

٢ ـ الثورة الاقتصادية :

أعاد الإمام (ع) مبدأ المساواة في العطاء واعتبر عدم المساواة في العطاء بين المسلمين لأسباب عرقية وقومية مبدأ غير مشروع واعترض علىٰ التوزيع السابق حيث صار العربي مفضل علىٰ غيره والقرشي مفضّل علىٰ غيره من العرب وهكذا . . . ففي اليوم الثاني من بيعته صعد المنبر فحمد الله وأثنىٰ عليه وكان مما قال : « . . ألا وأيما رجل استجاب لله وللرسول فصدّق ملتنا ودخل في ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده فأنتم عباد الله والمال مال الله يقسّم بينكم بالسويّة لا فضل لأحد علىٰ أحد وللمتقين غداً أحسن الجزاء وفضل الثواب . . . » . ومما قال في تكملة الخطبة السابقة «ألا أن كل قطيعة أقطعها عثمان بن عفان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال فإن الحق لا يبطله شيء ولو وجدته قد تزوج به النساء وملّكت به الاماء وفُرّق بين البلدان لرددته فإن في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق . . . »[٤٣] .

وقال (ع) لمالك الأشتر : «واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنىً ببعضها من بعض فمنها جنود الله ومنها كتّاب العامة والخاصة ومنها قضاة العدل ومنها عمال الانصاف والرفق ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة . . . وكل قد سمّىٰ الله له سهمه ووضع علىٰ حده فريضة في كتابه أو سنة نبيه (ص) عهداً منه عندنا محفوظاً . . . »[٤٤] .

وهكذا بدأ بالثورة الاقتصادية والعودة إلىٰ الإسلام الحق لا تأخذه لومة لائم ولن يعطي أحداً من أقاربه شيئاً من بيت مال المسلمين وقصته مع أخيه عقيل معروفة حيث أحمىٰ له حديدة ووضعها في يده بدلاً من الأموال وحينما ضج قال له . . «ثكلتك الثواكل يا عقيل أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه وتجرني إلىٰ نارٍ سجّرها جبارها لغضبه !» .

وقال (ع) «الذليل عندي عزيز حتىٰ آخذ الحق له والقوي عندي ضعيف حتىٰ آخذ الحق منه» .

فعلىٰ كافة الأصعدة بنىٰ الحياة الاقتصادية بعيدةً عن الغش والفوارق قريبة إلىٰ الحب والوداد والعدل فازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة وشجع العمل ودفع الناس لمواصلة العمل ليدفعوا كابوس الفقر ـ لو تمثل لي الفقر رجلاً لقتلته . . ـ .

وساوىٰ في العطاء كما قلنا تطبيقاً للاخوة الإسلامية والإنسانية ولا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوىٰ . وكلكم لآدم وآدم من تراب . .

٣ ـ الثورة الإدارية :

عالج الإدارة القائمة فغيّر الولاة وتابعهم خطوة خطوة في أعمالهم وتصرفاتهم ليرمّم أخطاءهم فكان يبعث إليهم انطباعاته عن سلوكهم مع الرعية وكان يوبخهم علىٰ أخطائهم وسلبياتهم ويعزلهم أحياناً وكان يربيهم ويهذبهم حيث يصف لهم صفات المتقين والواعين والصالحين كي يتعلموها ويطبقوها ويذكر السيد القزويني في كتابه (علي من المهد إلىٰ اللحد) في صدد أعمال الخليفة الثالث قوله : «ومنها تسليطه أقاربه وأرحامه علىٰ رقاب المسلمين يلعبون بدمائهم وأموالهم ويصلون بالمسلمين في حالة السكر ويتقيئون الخمر في المحراب . .»[٤٥] .

مقابل ذلك إبعاد الصحابة المخلصين كأبي ذر وعمار بن ياسر بعد ضربهما وإهانتهما وعزلهما عن الأدوار الشرعية المطلوبة منهم .

قال (ع) لعثمان : «فاعلم أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُدي وهدىٰ فأقام سنة معلومة وأمات بدعة مجهولة» .

وقال (ع) أيضاً : «أيها الناس إن لي عليكم حقّاً ولكم عليّ حق فأما حقكم عليّ فالنصيحة لكم وتوفير فيئكم عليكم وتعليمكم كيلا تجهلوا وتأديبكم كيما تعلموا وأما حقّي عليكم فالوفاء بالبيعة والنصيحة في المشهد والمغيب . . .»[٤٦] وكتابه إلى عامله عثمان الأنصاري حين أبلغ بحضوره في وليمة خاصة خير شاهد فقال : « . . . وما ظننت أنك تجيب إلىٰ طعام قومٍ عائلهم مجفو وغنيهم مدعو . . . » .

## ٤ ـ الثورة الأخلاقية التربوية :

أشاع الإمام (ع) المفاهيم الإسلامية التي ابتعدت عن حياة المسلمين نسبياً ، فبدأ بتربية الولاة والمقربين له وشملت تربيته جميع الناس فكان يغرس مفاهيم التقوىٰ والعدل والمراقبة الذاتية والخوف من عقاب الله وغضبه ، في قلوب الناس ففي خطاباته وأحاديثه كان يؤكد علىٰ المسألة النفسية والتعامل الصادق مع الإسلام فقد قال الإمام (ع) : «لا تزيدني كثرة الناس حولي عزةً ولا تفرقهم عني وحشةً» وقال : «لولا التقىٰ والورع لكنت أدهىٰ العرب» .

ومن كلماته في تأديب الإنسان نفسه قبل غيره قال : «من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم . .» وقال أيضاً : «إحصد الشرّ من صدر غيرك بقلعه من صدرك . .» «ومن نظر في عيوب الناس فأنكرها ثم رضيها لنفسه فذلك الأحمق بعينه» وقال في ميزان السلوك ومعاملة الناس وهو يوصي ابنه الحسن (ع) : «يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك واكره له ما تكره لها ولا تظلم كما لا تُحب أن تُظلم وأحسن كما تُحب أن يُحسن إليك . .» وقال : «وكفىٰ أدباً لنفسك تجنّبك ما كرهته لغيرك . .»[٤٧] وكلماته (ع) في هذا الميدان كثيرة جداً مثلاً قال لابن عباس : «إن إمرتكم هذه أهون عليَّ من هذه النعل إلا أن أحق حقاً وأبطل باطلاً» فأشاع بذلك الأسس الأخلاقية بين المسلمين .

## ٥ ـ الثورة السياسية :

ابتعد الإمام (ع) عن مركز التوتر العالي حيث التراكمات السلبية المتفاقمة في العاصمة الإسلامية (المدينة المنورة) نتيجة الاضغان القديمة القبلية وحالة الصراع المتفشية بين الأجنحة المتعددة في صفوف المسلمين ولحالة البعد الإيماني أيضاً بظهور اللهاث المادي . . فقرر الإمام أن يبتعد

بالمكان ليفتح آفاقاً جديدة من موقع جديد فأعلن تشكيل حكومته في العاصمة الإسلامية الجديدة (الكوفة) وهذا الفتح السياسي الجديد جاء بعد البناء المجهد لهذه الأرضية والاعداد لهذه القفزة السياسية النوعية في حياة الخلافة الإسلامية وبالفعل استطاع الإمام أن يدير الأمر من الموقع الجديد بالشكل الأنسب ويقترب بقراره هذا من مواقع التوتر السياسي في البصرة والشام ويكون على تماس أكثر من التيارات الأجنبية ليقف لها بالمرصاد وبالفعل كان قراره الحكيم هذا في ظرفه المناسب جداً وما عادت المدينة المنورة صالحة لإدارة شؤون الدولة الإسلامية الكبرىٰ والدليل أن الخلافة الإسلامية بكل عصورها المتلاحقة والمتصارعة فيما بينها ما عادت للمدينة المنورة لتعتبرها عاصمتها فقد بقيت في أرض الرافدين والشام وتركيا وهذا دليل على البعد السياسي عند الإمام (ع) .

ولن تقتصر ثورته السياسية على نقل الخلافة إلى مكان جديد بل شملت ثورته السياسية كل النواحي السياسية الأخرىٰ فسادت الحرية في الرأي وحالة التنظيم في الوزارة وبالذات بيت المال والبرامج السياسية للولاة في مسألة العلاقات السياسية مع الدول الأخرىٰ وطرق التعامل معها وهكذا . .

### ٦ ـ المعركة الحضارية :

جبهات المعركة الحضارية لدىٰ الإمام علي (ع) كانت فاعلة وكان الإمام نشيطاً في تحريكها للصالح الإسلامي فمما لا شك فيه أن المهمة التي قام بها الإمام تتلخص في إحياء الإسلام وسنة الرسول (ص) بالشكل المتقن في حياة المسلمين فخاض معركة شجاعة من أجل الوعي الإسلامي بإدارة ذكية متقنة أيضاً يقول العلامة المدرسي : «فمن دون التوعية وتحريك الناس وإثارة تطلعاتهم وتوجيه شعورهم بالحرمان والشعور بالقدرة على تغيير الواقع الفاسد لا يمكن حشد الطاقات جميعاً لتصب في قنوات محددة تسير بصورة تدريجية وتصاعدية حتىٰ تبلغ ذروة الوعي المتجسدة في التحرك الجماهيري الصانع للثورة ، والإدارة التي تقوم بحشد الطاقات ـ العامل

الثاني بعد الوعي ـ وضبط الأمور ونظمها وتوحيد الصفوف للاستفادة من كل الجهود في سبيل الحصول على المكتسبات الثورية عبر رحلة التغيير التحررية ويمكن أن نشبه التوعية الثقافية بالأمطار الهائلة من السماء التي تهز الأرض بعد ذلك معطية الفرصة للبذور الكامنة في باطن التربة كي تنبت وتتبرعم وهكذا المشاعر والأحاسيس الكامنة في أعماق الجماهير كالإحساس بالحرمان والإحساس بضرورة التغيير وهنا يأتي دور الإدارة التي تصنع القنوات التي تستوعب تلك الأمطار والثورة لا تقوم بغير هذين العاملين»[٤٨] .

فخاض الإمام معركة لأجل الوعي في الميدان الأخلاقي ضد انحراف المجتمع وخاصة بعد الفتوحات التي أسالت لعاب العيش والترف وحب الدنيا لدى المسلمين فوقف ليعيد الحالة الإسلامية الأولى حيث التضحية والعطاء في لقاء الله بالشهادة فقد قال : «وأحذركم الدنيا فإنها منزل قلعه (غير مستقره) وليست بدار نجعه قد تزيّنت بغرورها وغرّت بزينتها دار هانت على ربها فخلط حلالها بحرامها وخيرها بشرها وحياتها بموتها وحلوها بمرها . . . وأسمعوا دعوة الموت آذانكم قبل أن يدعى بكم إن الزاهدين في الدنيا تبكي قلوبهم وإن ضحكوا ويشتد حزنهم وإن فرحوا . . . » .

(إن الدنيا دار فناء وعناء وغيَر وعبر . . . ) وكثيرة من هذه الأقوال التي تعد بحق أنجح مدرسة في الأخلاق والتربية .

وخاض معركة اجتماعية ليعيد التقييم الصحيح للإنسان والمجتمع بالتقوى والإيمان لا بالمادة والدنيا والأولاد . .

وهكذا على كافة الأصعدة وبالذات المستجدات في حياة المسلمين كالتعليم في الميادين العلمية كالنحو والفقه والفلسفة وبالذات معركة البناء العقائدي فقد خاضها بقوة لأن المرحلة كانت تسودها حالة الاضطراب والفوضى العقائدية فقد بدأت تتسرب بعض الأفكار الدخيلة عبر العلاقات والفتوحات الإسلامية والتجارة، المهم انبرى لها الإمام لتسود الاستقامة والصرامة فقد رَدَّ الشبهات ووضَّحَ المبهمات وضَرَبَ المساومات على حساب المبدأ فقد قال(ع): «العمل العمل

ثم النهاية النهاية والاستقامة الاستقامة ثم الصبر الصبر والورع الورع إن لكم نهاية فأنتهوا إلىٰ نهايتكم وإن لكم عَلَماً (القرآن) فأهتدوا بعلمكم وإن للإسلام غاية فأنتهوا إلىٰ غايته . . . » .

وهكذا خاض المعركة العسكرية الحاسمة ضد الانفصال السياسي وضد نعرات التجزئة للبلد الإسلامي الكبير فكانت معركة الجمل وصفين والنهروان فأعاد التلاحم الإسلامي في ظل الشرعية الحاكمة وخاض معركة سياسية ضد ترسبات الجاهلية التي كانت عالقة في أفكار بعض الولاة والحاكمين كالوراثة والتمييز العنصري ليطرح الفكرة الإسلامية القائمة علىٰ الإيمان والتقوىٰ دون حسابات أُخرىٰ ولم يساير الظروف السائدة فكرياً بل وقف ضدّها بحزم ليعيد الأفكار الإيمانية للساحة .

٧ ـ المعركة المستقبلية :

المعركة المستقبلية كان يهيّىءُ لها الإمام علي ضمن التربية الفردية والتوجيهات الاجتماعية العامة كي تستقبلها أذهان الناس فمرحلة صعبة سيفرزها المستقبل لا بد من الاستعداد لها فجذور الفساد التي بقيت متقطعة بسيفه المبارك ستعود في أجواء التخلف لتنمو وتستعيد صحتها لتقاوم الحق من جديد . . فكان (ع) يستعمل أسلوب التربيتين ـ الفردية والعامة ـ لهذا الغرض المتوقع فكان يربّي الجيل الناشىء لخوض المعارك المصيرية في المستقبل فكان يخاطب ابنه الحسن ويوصيه (ومن خير حظّ امريءٍ قرين صالح) .

يقول السيد المدرسي : أليست هذه وصية ثورية ؟ الإمام يريد أن يتجمع الصالحون مع بعضهم وليشكلوا بذلك الخلايا الاجتماعية الرسالية القادرة علىٰ التصدي للأوضاع الفاسدة ثم يقول (ع) : «فقارنْ أهل الخير تكن منهم وباين أهل الشر تبن منهم لا يغلبن عليك سوء الظن فإنه لا يدع بينك وبين صديق صفحاً . .» إلىٰ قوله (ع) : «وإياك والاتكال علىٰ المنىٰ فإنها بضائع النّوكىٰ» فالأحمق هو الذي يمنّي نفسه أما العاقل فإنه يعتمد

السعي والحركة كي لا تقعده أمانيه بالتماطل عن الوصول إلىٰ أهدافه الدنيوية والأخروية . . . و (بادر الفرصة قبل أن تكون غصة) وهذا أقوىٰ سلاح يمتلكه الثوري إذا امتلك عنصر المبادرة وترك عدوه في دوامة من ردود الفعل والبعض يترك الفرصة تمر دون اغتنامها وفوقها غصة إذ لا تعود إليك»[٤٩] .

وهكذا كما في التربية الاجتماعية للإمام كان يستهدف الإعداد التام للدور المستقبلي والمعركة المقبلة كان يدفع الناس للتحابب وقلع الحالة الوحشية من النفس ليوفر المناخ الانسجامي ما بين الناس فيقول: «قلوب الرجال وحشية فمن تألّفها أقبلت عليه» .

وقال : «مقاربة الناس في أخلاقهم أمْنٌ من غوائلهم» .

وقال: «وأكرمْ عشيرَتك فإنهم جناحك الذي به تطير وأصلك الذي إليه تصير ويدك التي بها تصول» .

ويوصي ابنه الحسن: «احمل نفسك من أخيك عند صرمه علىٰ الصلة، وعند صدوده علىٰ اللطف والمقاربة، وعند جموده علىٰ البذل، وعند تباعده علىٰ الدنو، وعند شدته علىٰ اللين، وعند جرمه علىٰ العُذر حتىٰ كأنك له عبد وكأنه ذو نعمةٍ عليك وإياك أن تضع ذلك في غير موضعه أو أن تفعله بغير أهله ولا تتخذنّ عدو صديقك صديقاً فتعادي صديقك وامحض أخاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة وتجرّع الغيظ فإني لم أرَ جرعة أحلىٰ منها عاقبة ولا ألذّ مغبة . . .»[٥٠] .

وهكذا كان يتوقع الإمام (ع) المعارك المستقبلية في ميادين الخلافة والسلطة والاستيلاء فأعدّ لذلك عدته كما لاحظنا .

وبهذا أصبحت صورة الإمام (ع) في أذهاننا في فترة خلافته واضحة بشكلٍ نسبي ، وأعني صفحة الإمام علي مكتفياً بما أوضحناه ـ وكما قلنا ـ نريد استكمال بحث الإمامة لتوضيح صورة (القدوة الحسنة) ـ النبي (ص) والأئمة الأطهار من أهل البيت (ع) ، وإني لأشعر من الأعماق بالتقصير التام

في تقييم سيرة القادة الربانيين ولكني في نفس الوقت أشعر بالاعتزاز لتناولي البحث العقائدي بهذه الصورة القريبة من الشمول - .

## ٢ - الامام الحسن بن علي المجتبى (ع) ودوره القيادي :

استلم الإمام الحسن قيادة الأمة الإسلامية بعد شهادة أبيه الإمام علي في ظروف اجتماعية ونفسية خاصة كان يتمتع بها المسلمون في عصره وكما كان المتوقع من معاوية بالشام فقد ثبّت معاوية أقدامه في السلطة عبر وسائله الماكرة بالعطاء وتوزيع المناصب السياسية وكأنما كان يتربص هذه الفرصة السانحة لإشاعة هذه الروح الجاهلية في الوسط الاجتماعي الإسلامي من جديد فهيأ نفسه لخوض معركة الخلافة يقودها ضد الوريث الشرعي لها وهو الإمام الحسن وكان يعلم أن الأئمة الشرعيين لا يمكن إخضاعهم إلاّ بالتصفيات الجسدية لذلك جهز الجيوش لمقاومة الخليفة الجديد الذي بدأ يعاني من انعكاسات الحالة المفسدة التي أشاعها جهاز معاوية بين المسلمين فبدأ الناس يشككون في شرعية الحرب والقتال ما بين المسلمين وظهرت مبادرات المصلحين بضرورة حقن دماء المسلمين بل لإيقاف نزيف الدم والصراع، هذا من جانب ومن جانب آخر كان معاوية يغدق أمواله وهداياه إلىٰ بعض رؤساء القبائل في الكوفة بل لمسؤولي جيش الإمام الحسن كل ذلك ساعد علىٰ نمو روح اللامبالاة من المسؤولية الشرعية فبدأ الضعف ينخر في جسم المقاومة الإسلامية بشكل واضح - أقصد جيش الإمام الحسن - من هنا عرف الإمام الحسن أنه أمام خيارين لا ثالث لهما إما أن يدخل حرباً خاسرة - سلفاً - ومعروفة النتائج ومن ثم سيستعمل معاوية مكره السياسي ومكر بطانته المنتفعة أمثال عمرو بن العاص وخداع حاشيته المصلحية ، في إخراج مسرحية ذكية يظهر فيها معاوية انه رجل السلام والصلح والعفو وبذلك سيحصل علىٰ تأييد الرأي العام بصلاحيته في الحكم فيكون هو الأجدر بالسلطة والجاه في نظر الناس وأن الإمام الحسن يريد الرئاسة والاعتداء وإراقة الدماء فيظهره أمام المسلمين بعد أسره في الحرب - مثلاً في الصلاة الجامعة - فتميل القلوب لمعاوية المنتصر ضد الإمام

المخذول من قِبل جيشه وبعد استحقاق الإمام للعقوبة حسب المسرحية المتوقعة يصدر معاوية عفواً عاماً للإمام بالضبط كما يصنع الطغاة اليوم فيضعه تحت الرقابة المتشددة وبذلك ينتهي الحسن سياسياً أي يموت سياسياً فقد ينفضّ الناس من حوله لأسباب ومبررات عديدة ويصير معاوية صاحب المن والعطاء علىٰ القيادة الشرعية المتمثلة بالحسن . وبذلك يمتصّ غضب الناس بالعفو عنه تقرباً إلىٰ جده وأبيه . . ولو نجحت هذه المسرحية سيصاب الإسلام بخسارة كبيرة وتسود حالة الاحباط في صفوف المسلمين وخاصة في تلك الظروف الحساسة حيث فقدان الحرية الإعلامية وضعف الحالة التوعوية لدىٰ عموم المسلمين وإلىٰ جانب ذلك ابتسامة الدنيا أمامهم فقد قال الإمام الحسن : «أما والله ما ثنانا عن قتال أهل الشام ذلة ولا قلة ولكن نقاتلهم بالسلامة والصبر نشيب السلامة بالعداوة والصبر والجزع وكنتم تتوجهون معنا ودينكم أمام دنياكم وقد أصبحتم الآن ودنياكم أمام دينكم . . . » .

حتىٰ أنّ قادةَ جيشه كتبوا لمعاوية بعد استلام الصفقات المالية الأولىٰ كمقدمة لما يأمرهم به معاوية ـ أتحب أن نسلّمك الحسن حيّاً أم ميّتاً ـ وهم أنفسهم كانوا يتظاهرون بالحب والولاء للإمام الحسن ولكنهم في الخفاء كانوا يستهزئون ويناجون شياطينهم بالخديعة .

فقالوا له : (أنت خليفة أبيك ووصيه ونحن السامعون المطيعون لك فمرنا بأمرك) ، فقال (ع) لهم : (. . . كيف أطمئن إليكم ولا أثق بكم) .

فهكذا علاقة بين القائد وجيشه علاقة اللائقة من المؤكد أن تكون الحرب خاسرة من بدايتها . . .

أما الخيار الثاني فهو أن يفوّت الإمام علىٰ معاوية فرصته الماكرة تلك وذلك بقبول معاهدة الصلح المعروضة علىٰ الإمام بمثابة الفصل الأول من المسرحية فكان يتصور معاوية أن عرض الصلح لحقن الدماء سيُردّ من قبل الإمام الحسن وكان يراهن علىٰ الرد العكسي وبذلك يرمي بأعباء المعركة

علىٰ كاهل الإمام في حالة رفضه للصلح ولكن معاوية فوجيء بقبول الصلح من قبل الإمام الحسن وبذلك تم تفويت الفرصة الماكرة فسقط البنيان الباطل في رأس معاوية وكانت خطة حكيمة من قبل الإمام مناسبة تماماً للظروف الموضوعية والذاتية في المسلمين .

يقول الإمام الحسن (ع) : «وإن معاوية نازعني حقاً هو لي دونه فنظرت لصلاح الأمة وقطع الفتنة فرأيت أن أسالم معاوية وأضع الحرب بيني وبينه وقد رأيت أنّ حقن الدماء خير من سفكها ولم أرَ إلاّ صلاحكم وبقاءكم وإنْ أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلىٰ حين» .

وبالفعل كانت المسألة اختبار وفتنة للمؤمنين حتىٰ تصقل شخصياتهم بالإيمان والصبر وليهيئوا أنفسهم إلىٰ حين وذلك الحين هو حين الإمام الحسين حيث إعلان الثورة الإسلامية في كربلاء ضد الانحراف والجهل .

هذا مع العلم ان بنود الصلح كانت انتصاراً سياسياً كبيراً حققه الإمام الحسن على خصمه معاوية وذلك لأنه دخل لإبرام المعاهدة من باب القوة لا من نقطة الضعف مما أزعج معاوية وخطه المتستر بالإسلام وبلغ غضبهم أشده حينما أحسّ معاوية بخطورة بنود الصلح فأنفعل وصرّح ضدها علناً أمام الملأ وبذلك بدأت تتساقط أوراق الخريف وتظهر عورة النظام أمام الناس وانحرافه عن الإسلام . وأعلن موقفه بقوله : «والله إني ما قاتلتكم لتصلوا ولتصوموا ولتحجوا ولا لتزكوا ولكني قاتلتكم لأتأمّر عليكم وقد أعطاني الله ذلك وأنتم لها كارهون الا وإنّي كنت منّيت الحسن وأعطيته أشياء وجميعها تحت قدميّ لا أفي بشيء منها» .

هذا هو النصر السياسي الساحق الذي حققه موقف الإمام الحسن بالصلح هذا الموقف الإصلاحي الشجاع والذي ظلم من قبل السلطة الجائرة هو الذي أولد فيما بعد الغضب الجماهيري الذي تجسد في الطليعة المجاهدة التي خرجت ثائرة مع الإمام الحسين ليقودها ضد الانحراف في السلطة الحاكمة والتي استمرت الثورات تلو الثورات حتىٰ تم إقلاع بني أمية

من الحكم . ومن جهة أخرىٰ نلاحظ أن الإمام الحسن بدأ باستثمار هذا الضعف البيّن في موقف السلطة في إلغاء المعاهدة عن طرف معاوية فقط وهذا الأمر خلاف القواعد الشرعية الإسلامية وقد أحست السلطة بخطورة وجود الإمام الحسن لذلك دبرت له مكيدة ودست له السم لتتخلص من أبرز مناهض سياسي للسلطة فلو كان تاركاً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد والعمل المتواصل والتخطيط الدؤوب ضد معاوية لما كانت السلطة تواصل سعيها في تصفيتِهِ جسدياً وإنما أقدمت علىٰ هذا الفعل المنكر بعد أن تيقّنت بأن الإمام يسير ضمن خطة متكاملة لتهيئة الأجواء للثورة المسلحة وأنه يسعىٰ لكسبها عسكرياً كما كسبها سياسياً في الجولة الأولىٰ . فكان يرتبط بالعناصر المؤمنة ويربيها ويهيِّئُها للدور الجهادي المرتقب وأشار للقيادة الشرعية القادمة أنها لأخيه الحسين وهذا ما نصه كذلك ضمن بنود المعاهدة بينه وبين معاوية وقد اتبع كذلك الدور القيادي في التغيير الاجتماعي والإصلاح واحتضان الأيتام والعوائل المظلومة بالرعاية والاهتمام والإدارة كما مر ذلك مع أبيه الإمام علي أي ضمن المشروع المتكامل للإصلاح الاجتماعي والثورة ضدَّ الواقع الفاسد في النظام الحاكم والأمة المسلمة .

## ٣ ـ الامام الشهيد الحسين بن علي (ع) ودوره القيادي :

**بيانات الثورة ، آثار الثورة المباركة :**

استلم الإمام الحسين الخلافة الشرعية بعد أخيه الحسن فقد قضىٰ الإمام الحسن مسموماً بخطة مدبرة من معاوية ظلماً وعدواناً وكانت ظروف الإمام الحسين في الحقيقة هي استمرار لظروف الإمام الحسن أي حينما استلم الخلافة واجه تركة ثقيلة من مجمل الظروف المحيطة بالمجتمع المسلم وعلىٰ كافة المستويات فالانحراف صار بالشكل العلني في القيادة الحاكمة خُلُقياً وسلوكياً حيث يزيد بن معاوية صار الخليفة من بعد أبيه معاوية وهو معروف بالفسق والفجور واللهو واللعب وانعكس هذا الانحراف الصارخ علىٰ الناس عموماً بصورة أو بأخرى ـ فالناس علىٰ دين ملوكهم ـ فعادت الجاهلية الأولىٰ في حياة الناس وازداد الفساد وأُشيع المجون وعادت

التقاليد الجاهلية لكن بوشاح إسلامي وإلى جانب رجال السلطة وعموم المسلمين كان موقف وعاظ السلاطين أولئك الذين باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم موقفاً مخزياً فكانوا يبررون للخليفة انحرافه وأعماله السلوكية الملتوية تبريراً شرعياً وإن كلفهم ذلك الكذب على الله والرسول وإن خالفوا بصيرة العقل أيضاً وبالإضافة إلى تبريرهم لأعمال الخليفة المنكرة كانوا يخدّرون الشعوب المسلمة بأحاديث وتأويلات تبعدهم عن التدخل في السياسة أو مراقبة الولاة بل بعدم المطالبه بحقوقهم وبحرمة محاسبة الأمراء فكثر الواضعون للأحاديث النبوية كذباً وزوراً كما ورد في الصحاح على سبيل المثال :

قال رسول الله (ص) «من يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني» . وفي كنز العمّال قال رسول الله : «لا تكفّروا أهل ملتكم وإن عملوا الكبائر وصلّوا خلف كل إمام وصلّوا على كل ميت وجاهدوا مع كل أمير» وقال (ص) ـ أيضاً ـ : «الجهاد واجب عليكم مع أمير براً كان أو فاجراً» !!(٥١) .

المهم تمّ الأمر للخلافة الأموية الجديدة على الشكل الذي كان سائداً في ملوك الأمم الجاهلية والمنحرفة حيث الخلافة وراثية من الأب إلى الإبن ومهما كان الإبن بعيداً عن القيم والمؤهلات وقد ضرب معاوية تلك المعاهدة التي ابرمت بينه وبين الإمام الحسن فظهرت العصبيات القبلية الجاهلية على أوضح الصور وبالفعل ان الحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بلغت أشد أنواع التفسخ والضلال وخاصة لما وردت عادات وتقاليد الأمم المفتوحة من غناء وموسيقى وشرب الخمور والتفنّن في اللهو والبذخ والتحلل والخلاعة وكذلك الطعام والانس . . فأصبحت دار الخلافة الإسلامية مظهراً من مظاهر الملكية المستبدة المنحرفة ويكفي أن أستشهد بترنيمة الخليفة يزيد حينما وضع بين يديه رأس الإمام الحسين سبط رسول الله بعد استشهاده بكربلاء أنشد هذه الأبيات :

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا     جزع الخزرجِ من وقعِ الأسلِ

لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل
لعبتْ هاشم بالملك فلا خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل

إذن لقد أحيا يزيد خط أشياخه الذين قُتلوا بسيف الإسلام في معركة بدر الكبرىٰ وأُحد فإنها أحقاد بدرية كما قالت الزهراء (ع) في حديثها الذي ذكرناه في فصل الإمام علي (ع) فهي أحقاد قبلية وثارات ماضية هدفها حب التسلط والزعامة وليس هنالك أي ارتباط ليزيد وأمثاله بوحي الله ورسالته . . . والعجيب أن بعض المسلمين يقدّسون أمثال هذا الخليفة الذي أصبح عاراً علىٰ جبين التاريخ الإسلامي ولن تجد سبباً معقولاً لموقفهم هذا إلا لأنهم مصروعون أمام تخدير وعاظ السلاطين بالأحاديث الموضوعة علىٰ النبيّ كذباً وزوراً أو لأنهم علىٰ نفس الخط الفكري من العصبيات القبلية والعقد النفسية التي لم تمت إلىٰ الإسلام بصلة إنها بحق الجاهلية المنبوذة وإن دلّ هذا علىٰ شيء فإنما يدل علىٰ أن الإسلام بأشعته الحارقة للجراثيم الفكرية ما استطاع أن يحرق جراثيم النفوس الخبيثة أمثال يزيد وأتباعه وبالفعل ﴿بل ران علىٰ قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾

[سورة المطففين ۸۳ ؛ الآية : ١٤]

وكأنْ لم يأتِ دين ولم ينزل وحي والأكثر عجباً من بعض الناس في هـ .زمن المتفتح يجاملون التاريخ ليبقوا في حالة الضياع السابق . .

المهم هذا الخطر الداخلي الذي بات يهدد البناء الإسلامي الذي افتداه النبي (ص) والإمام علي والحسن وبقية الصالحين معهم بدمائهم الزكية ، هذا الإسلام أصبح مهدداً بالانهيار والخراب من قبل السلطة الجائرة ، هذا من جانب ومن جانب آخر تمّ الإعداد الجيّد للجيل الإيماني الهادف والمستعد للتضحية والعطاء إلىٰ جانب القيادة الشرعية المتمثلة بالإمام الحسين آنذاك ، فأصبحت هذه النخبة الواعية علىٰ أتم استعداد لخوض أقسىٰ معركة في التاريخ انتصاراً للمبادىء ، ولا ضير لديهم أن تأتي الفدية هذه المرة بصورة مروّعة ولتكن صورة حزينة ثائرة ممتزجة بالدماء

والدموع والهجرة والغربة والعطش والسبي والقتل الجماعي وسحق الأطفال وحرق الخيام . . ولتكن هذه العملية الاستشهادية منبّهاً فعالاً لأذهان المسلمين ليعرفوا مواقعهم ويحرصوا علىٰ دينهم القويم وليتركوا آثار الخير والهداية علىٰ قلوب الناس ، كل الناس علىٰ كافة المستويات في جسم الأمة الإسلامية في القيادة والقاعدة ووعاظ السلاطين وعموم المجتمع . .

وبالفعل تم الأمر في صحراء كربلاء فانتصر الحق وأصحابه ، علىٰ الباطل وأصحابه انتصاراً سياسياً معنوياً بعد أن قطعت أجساد رجال الحق وعاد الشعور بالإثم والندم علىٰ اقتراف الجريمة النكراء في صفوف المعتدين والقاتلين قبل غيرهم . .

وبالفعل تحوّلت هذه التضحيات الجسام إلىٰ صرخة مدوّية في آفاق العالم وبالذات العالم الإسلامي لتعيد المسلمين إلىٰ جادة الاستقامة والصواب وحطمت الأساطير المضللة وأكاذيب الرواة المأجورين فقد منحت الهوية الشرعية الإلهية لكل الثورات في وجه الباطل والظلم والانحراف :

إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي فيا سيوف خذيني

وإنها بحق تتويج لكل التضحيات القيمة التي سبقت الإمام الحسين لهذا قال النبي (ص) «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا» ولهذا كان النبي يوصي المسلمين باتباع الأئمة (الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا) فهنالك توزيع للأدوار حسب الظروف الموضوعية .

وقال (ص) : «إنه ستقتله (الحسين) عصابة من أمتي لا أنالهم الله شفاعتي». وهكذا تحولت دماء الحسين وصحبه الكرام وأهل بيته العظام في ساحة كربلاء إلىٰ حمم ملتهبة تطارد الطغاة لتنزل بهم حكم الإعدام العادل وأصبحت كل قطرة دم أُريقت في ساحة الطف إعصاراً عنيفاً يقلع العروش المزيفة وكل كلمة نطق بها أبو الأحرار تحولت إلىٰ كلمة سر مقدسة لإعلان الثورة وتحطيم العروش الباغية ولهذا يقول الدكتور أحمد الوائلي في لاميته الرائعة :

الـجـراحـاتُ والـدمُ المـطـلولُ أينعتْ فـالـزمـانُ منهـا خميـلُ
ومـضـت تـنشـىء الفـتـوح وبـعض من الـدم فيما يعـطيه فتـح جليل
والـدم الحر مـارد ينبىء الأحـرار والـشـائـريـن هـذا الـسـبيـل
وحـديث الجـراح مـجـد وأسمىٰ سيـر المجـد مـا روتـه النصـول
يـا أبـا الـطف يـا نـجيعـاً إلىٰ الآن تهـادىٰ علىٰ شذاه الرمـول(٥٢)

**بيانات الثورة :**

بعد أن عرفنا الواقع الفاسد الذي لا بد من تغييره ولا سبيل لهذا التغيير المقدس إلا بالهزة العنيفة والزلزال المروِّع الذي يوقظ الضمائر المخدرة في حب الدنيا والأضاليل فكانت الثورة الاستشهادية المباركة التي لولاها لما سلم في الإسلام شيء .

والمتتبّع للمسيرة الثائرة يقرأ أقوال وخطابات الإمام الحسين فيطلّع علىٰ البيانات المعلنة للملأ والتي كانت توضّح أسباب الثورة وأهدافها ومن ثم يكتشف عمق هذه المبادرة الشجاعة التي فوّتت علىٰ الشياطين وقوىٰ الضلال في العالم فرص التلاعب والتحريف والتبديل بالشريعة الإسلامية وأُحاول في بحثنا الموجز هذا أن أقطع بعض كلمات الإمام السبط الشهيد لتوضيح الفكرة وأقول للمتشوق لمعرفتها أكثر عليه أن يقتني كتب السيرة الحسينية . .

قال الإمام الحسين مخاطباً عامل يزيد بن معاوية بالمدينة وهو الوليد بن عتبة بن أبي سفيان بعد أن طلب منه البيعة ليزيد ، فأعلن الإمام الحسين عن موقفه المبدئي أي أعلن بداية الثورة بالمجابهة السياسية «إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة بنا فتح الله وبنا ختم ويزيد فاسق فاجر مستهتر ومثلي لا يبايع مثله» .

وقال (ع) في موقف آخر حينما نصحوه بعدم الهجرة والثورة وأنها لا تبشّر بالانتصار العسكري وإذا كنت عازماً فلا تأخذ النساء فأجاب (ع) : (شاء الله أن يراني قتيلاً وأن يرىٰ النساء سبايا) .

وكان الناس وبالذات الناصحون بعدم الثورة لا يدركون أهدافها السياسية والتاريخية علماً بأن الإمام الحسين يتوقع مصيره ومصير أهل بيته وأصحابه ولكنه يسعىٰ لتحقيق أهداف الله المقدسة من إعادة الناس لإيمانهم وتنبيههم لانحراف الحاكم وتسليم المسلمين شرعية محاربة الطغاة الحاكمين وفعلاً صارت ثورته المباركة نبراساً يهتدي به الأجيال في المقاومة والتحرير .

وهكذا حينما أراد الهجرة للعراق قال« . . . كأني بأوصالي هذه تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأن مني اكراشاً جوفاً وأجربة سغباً لا محيص من يوم خط بالقلم رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين»[٥٣] .

ثم قال في موقف آخر : «ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين أثنتين إمّا السلة (الحرب) أو الذلة (الاستسلام) وهيهات منا الذلة يأبىٰ الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون» .

وقال (ع) : «ألا وإني زاحف بهذه الأسرة علىٰ قلة العدد وخذلان الناصر» .

وبالفعل كل مقطع من مقاطع بيانات الإمام الحسين منذ خروجه من مدينة جده الرسول (ص) وحتىٰ استشهاده بوادي كربلاء مظلوماً . . . يعتبر بحق قاموساً للثائرين والمجاهدين . اقتطعنا منها شذرات للتوضيح فقط ونختمها بكلمة السيدة زينب في خطبتها الشهيرة :

(وليجتهدنّ أئمة الكفر وأشياع الضلالة علىٰ محوه وتطميسه فلا يزداد اثره إلّا ظهوراً وأمره إلا علواً) .

آثار الثورة المباركة : ـ

( أ ) الانتصار السياسي .

(ب) تجربة ثورية جاهزة .

(جـ) استمرارية الثورات من بعده .

( د ) الأثر العقائدي .

( أ ) الانتصار السياسي الذي حققه الإمام الحسين بثورته لهو المعْلم البارز في الآثار المباركة حيث تمت تعرية النظام اليزيدي من كل مبررات وجوده في السلطة فقد سقطت الأقنعة المحاكة لفترة زمنية طويلة باسم التشريع الإسلامي وظهرت بواطن الحكم حيث الجاهلية المتنمّرة ضد الإسلام والإنسانية .

هذا الانتصار السياسي الهائل اصطحب مع إبراز المظلومية للحسين وأهل بيته دفع الثائرين والمصلحين في العالم ـ لا على المستوى الإسلامي فقط ـ يقتدون به فهذا غاندي محرر الهند يقول تعلمت من الحسين كيف أكون مظلوماً لأنتصر . وذلك القسيس يقول لو كان الحسين منا لنصّرنا العالم أي حولناه إلى الدين النصراني والآخر يقول في العالم كعبتان كعبة خاصة بالمسلمين في مكة المكرمة وكعبة عامة لكل البشرية وهي كربلاء الحسين .

فإذن هذا الانتصار السياسي ظهر من حين الثورة الحسينية مباشرة بعد الاستشهاد واستمر التأثير على البشرية جمعاء إلى يومنا هذا بل إلى قيام الساعة . .

والتأثير على الساحة الإسلامية يبدو واضحاً حيث صار خطاً متميزاً بالتقوى والاستقامة في طول الأمة الإسلامية من بركات دماء الحسين وتبلور الوعي السياسي في الأمة حتى تحوّل إلى ثورة عارمة عبر الزمن ويسجل لنا التاريخ الثورات المتلاحقة التي سارت على خطى الحسين كنتيجة طبيعية للانتصار السياسي الذي حققه الإمام الحسين .

(ب) قدم الإمام الحسين تجربة ثورية رائدة في نوعها وحجمها وكيفيتها فأصبح قدوة الثائرين والمضحين والصابرين في ساحة القتال فأعطى دروساً للحرب والنزال والأخلاق الإسلامية ورباطة الجأش والصبر والسيطرة على الأعصاب والاتزان في الشخصية . كل ذلك أصبح في قاموس الثورات الأنموذج الفريد الذي يقتدى به .

بالإضافة إلىٰ التضحيات الجسام من قبل أهل بيته وأصحابه للأغراض المقدسة فأبىٰ الاستسلام ودخل المعركة من نقاط القوة في الشخصية والقوة في المبدأ وقدّم كل ما يملكه حتىٰ نفسه الشريفة وصار جسمه مركزاً لهجمات الخيول والسيوف والرماح . . .

وأكثر من ذلك تجسدت في المعركة رؤىٰ التربية المركزة المعطاءة للأصحاب الذي بذلوا مهجهم دون الحسين فقد جنىٰ ثمار تربيته الرفيعة . . . فكان الاستئذان من القائد والإطاعة والانضباط من الجميع وكانت التضحيات الكبيرة من قبل الصحابة والهاشميين حتىٰ حينما طلب الحسين أن يتركوه لوحده رفضوا ذلك ، فقال لهم الحسين : « . . . وإني قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حلّ ليس عليكم مني ذمام وهذا الليل قد غشيكم فآتخذوه جملاً وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي فجزاكم الله جميعاً خيراً وتفرقوا في سوادكم ومدائنكم فإن القوم إنما يطلبونني ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري» فقام إلىٰ الحسين أكثر من واحد من إخوته وبني عقيل وأصحابه قائلين لن نفعل ذلك . . . فقال مسلم بن عوسجة : « . . . أما والله لو علمت أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق حياً ثم أذرىٰ يفعل بي سبعين مرة لما فارقتك حتىٰ ألقي حِمامي . . . » وقال زهير بن القين : «والله وددت أني قُتلت ثم نُشرت ثم قُتلت حتىٰ أقتل كذا ألف مرة وإن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك . . وهكذا تكلم بقية الأصحاب»[٥٤] .

(جـ) استمرارية الثورات من بعده

فمن ثورة المدينة المنورة في زمن يزيد حيث أباح المدينة لجيشه ثلاثة أيام وارتكب الجيش أفظع الجرائم وأقساها بحق أهل المدينة ، وإلىٰ ثورة التوابين في الكوفة وثورة المختار الثقفي وثورة زيد بن علي وحتىٰ الثورات في زمن العباسيين والعثمانيين والعصور التي تلت الحكم الإسلامي وحتىٰ الثورات الإسلامية المعاصرة ـ اليوم ـ فقد تعلم الشباب الاستشهاديون دروس الشهادة والإقدام والتضحية في مدرسة الإمام الحسين .

المتمثل في يقظة الناس ودعوتهم إلىٰ تحمل المسؤولية «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته» وعرف الناس القيادة الشرعية المعصومة ورفضوا الثقافة التبريرية التي توافق نظرية السلطات الظالمة فقد نمت الثقافة الهادفة في البحث عن القائد الإسلامي الشرعي الذي يصلح خليفة للرسول الأعظم وإنه الأجدر بربط المصير به في الدنيا والآخرة. وطبيعي آثار الثورة أكثر بكثير ممّا ذكرنا لكن اقتصرنا علىٰ ذلك بما يليق المقام .

## ④ـ الامام علي بن الحسين (زين العابدين)(ع) ودوره القيادي :

ـ أُسجل ملحوظة مسبقة للحديث عن بقية الأئمة الأطهار سنذكر الأئمة باختصار أكثر والغرض إكمال الصورة العقائدية لقادتنا المعصومين ولكي لا نذكرهم بالاسم فقط ـ .

استلم الخلافة الإسلامية بعد أبيه الحسين هو الإمام السجاد علي بن الحسين وكانت ظروف المجتمع تسودها الكآبة والأحزان علىٰ الواقعة المؤلمة التي جرت علىٰ الحسين في كربلاء وما تلت الواقعة من سبي النساء وحمل الرؤوس المقطعة علىٰ الرماح . . وكذلك بعد ثورة المدينة وإباحتها من قبل جيش يزيد ـ كما قلنا ـ تفاقمت المسألة فكان الإمام تحت المراقبة الشديدة من قبل أجهزة السلطة فلذلك بدأ بأسلوب جديد في أداء دوره القيادي في الأمة فقد قال الإمام علي بن أبي طالب (الامامة نظام الأمة)[٥٥] .

فبدأ الإمام زين العابدين بالتربية العامة للناس والتوعية السياسية مستثمراً حالة الحزن والانتباه للخطأ واليقظة لدىٰ الناس والشعور بالذنب كذلك فكان يظهر مظلومية أبيه الحسين بين الحين والآخر ويصور آلام الطف التي مرت عليهم في يوم عاشوراء وهو آنذاك كان مريضاً سقط عنه الجهاد لحكمة ربانية فيروي آلام السبي والأسر ليلهب مشاعر الناس بالحماس والإيمان وحب الانتقام من الظالمين والاستقامة . .

هـذا أُسلوب جديـد وناجـح بالإضـافة إلىٰ هـذا الأسلوب اتبـع طـريقـة مناسبة أيضـاً لتلك الظروف العصيبـة فقد اتبـع أسلوب الدعـاء لغرض التـربية الـروحية وامتصـاص روح الهزيمـة من النفوس بـل ليستبدل الهـزيمة بـالنصـر والاقـدام والتهيؤ والاعـداد للدور المستقبلي المنتـظر وكـان هـذا الأسلوب في التربية هو الأنجح لتربية الأجيال في مدرسة الإيمان والرسالـة والإخلاص فقـد كان يخرّج الإمام زين العابدين من مدرسته التربوية سنـوياً أعـداداً من الشباب المؤمن ومن مختلف البلدان والأمم حتىٰ أنــه كـان يشتــري العبيـد ليــربيهم التربية الصالحة ويقدمهم نماذج خيرة للمجتمع ويـذكر العـلامة المـدرسي في كتـابه التـاريخ الإسـلامي أن الإمام السجـاد قام بتـربية (١٥) ألف إنســان في حيـاته وقـدمهم للمجتمع بـالإضافـة إلىٰ أعمالـه في الوسط الاجتمـاعي لتنمية الـروح الايمانيـة والجهادية في النفـوس (لقـد بث في الأمـة الإسـلاميـة روح الدين التي تحتوي فيما تحتوي علىٰ رفض الـطواغيت والتهيئة من أجـل إقامـة حكم الله والعمل من أجل إنقاذ الإنسان من براثن الظلم والعبودية)[٥٦] .

وبـالفعل يكفي أن نعـرف أن ثورة زيـد بن علي المعروفـة قـائـدهـا ابن الإمـام السجاد وقـد ربّاه الإمـام هذه التـربية الصـالحة في الشجـاعة والجهـاد ليثور علىٰ الظالمين .

هـذا وقد أشـرف علىٰ ثورة المـدينـة المنـورة وفي زمـانـه حـدثت ثـورة التـوابين في العراق بقيـادة سليمان بن صـرد الخزاعي ربيب الأئمة (ع) ورعىٰ الإمام السجاد ثـورة المختار بـالكوفـة من بعيد مـراعاة للظروف بـاعتباره يقـود كـل الثورات الثقـافية والفكـريـة والجهـاديـة في الأمـة وكـان يهيىء الأجـواء للساعة الجهـادية المنـاسبة حتىٰ خـافته السلطة ودست لـه الـسم فمات شهيـداً مظلوماً تاركاً آثار أُسلوبه الرائع والمناسـب لتلك الظروف العـاتية بـرنامجـاً لكل المخلصين عبر الزمن .

## ⑤ ـ الامام محمد بن علي الباقر (ع) ودوره القيادي :

كان عهد الإمام الباقر عهد الصراعات الفكرية التي انعكست علىٰ الحياة السياسية القائمة وهذه التيارات الفكرية في الأمة حصلت علىٰ تشجيع عام من السلطة الحاكمة وأنها جاءت استيراداً من بعض البلدان المفتوحة إسلامياً والتي كانت تتمتع بأفكار وفلسفات معينة وقد وجد الحكام في بعض هذه الأفكار ما يبرّر انحرافهم الفكري والتواءهم السلوكي لذلك تمسّكوا بها وأشاعوها ، وأما حالة الأمة الإسلامية فكانت امتداداً للحالة السابقة في زمن الإمام السجاد (ع) حيث جراح المسلمين من واقعة الطف وما تبعتها من اضطرابات وانتفاضات وثورات مستمرة ودماء سيد الشهداء الحسين شاخصة أمام الأبصار تطالب بالثأر والانتقام إلا أن الظروف المحيطة بالإمام الباقر والإمام الصادق ـ أيضاً ـ كانت بحاجة ماسة إلىٰ إبراز الجانب الفكري والفقهي في الإسلام وإلىٰ وضع الخطة الثقافية للردّ علىٰ الدخيل من الأفكار الغازية والفلسفات المستوردة وبيان الحل للمعضلات الفلسفية التي أُثيرت آنذاك وهذا العمل الفكري الجبار قام به الإمامان الباقر والصادق مستغلين الفرص المناسبة لنشر فكر أهل البيت ولفرض مدرسة أهل البيت الفكرية والثقافية في الساحة ولكي تظهر ـ بوضوح ـ التكاملية والشمولية لهذه المدرسة الإلهية ولا يعني هذا الكلام أن الإمام السجاد قد ترك هذا الجانب وتمسك بالجانب التربوي الروحي عبر وسيلتي الدعاء والتذكير بمصيبة الحسين لا وإنما الظروف النفسية والاجتماعية والسياسية للأمة الإسلامية هي التي تحدد نوعية البرنامج الذي يمارسه الإمام ليصب في نفس المسيرة بالنتيجة فكل إمام كان يؤدي دوره القيادي في الساحة مراعياً فيها المصلحة الإسلامية العليا معالجاً الخطورة المهددة للشريعة الإسلامية لردها والتحذير منها من جانب ومن جانب آخر مستغلاً الظرف السياسي والاجتماعي المتاح لهذا الأسلوب أو ذاك .

وبالفعل كان الظرف للإمام الباقر مناسباً لتأسيس المدرسة الإسلامية الثقافية والفكرية ومما لا يخفىٰ أن هذه الأرضية الصلبة بالوعي والثقافة الحية

هي التي تصلح للوقوف عليها للمقاومة والثورة والتحرير من كل التيارات الفاسدة فلسفياً وسياسياً وإلا كانت أقدام المسلمين تقف على رمال متحركة سرعان ما تغور أجسامهم أمام أبسط التيارات العاصفة ويتم استيلاء الباطل على الساحة .

وهذه الفكرة هي التي تجعلنا نؤمن قلبياً بأن أهل البيت هم حماة الإسلام وهم الذين أعادوا الناس إلى الإسلام الصحيح بالرغم من الدسائس الخبيثة في الداخل والخارج ومن هذه الفكرة نرى أن الإمامة مشروع قيادي متكامل عيّنه الله سبحانه لإنقاذ الأمة ولاستمرار القيادة الشرعية للمسلمين والإمام الباقر جسّد هذه الفكرة المباركة . .

ينقل لنا التاريخ أن الخليفة هشام بن عبد الملك أراد أن يذل الإمام فبعث برسول يطلبه فجاء هو وابنه الصادق إلى دمشق ودخلا عليه . . . لم يأذن لهما بالجلوس فغضب الإمام . . . فأذن لهما . طلب من الإمام أن يتبارى معه بلعبة السهام وبالفعل سجل الإمام نصراً رياضياً كاسراً شوكته النفسية . . سأله مجموعة أسئلة منها على القيادة قال الإمام قول الله ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ وقال (ع) (والأرض لا تخلو ممن يكمل هذه الأمور التي يقصر غيرنا عنها) فأحمرّ وجه هشام . . . ولما سأله عن علم الإمام علي أجابه الإمام : « . . . وأوحى الله إلى نبيه (ص) أن لا يبقي في غيبه شيئاً إلّا يناجي به علياً»(٥٧) .

وبهذا استطاع الإمام أن يثبت الخلافة الشرعية في أئمة أهل البيت أمام السلطان الجائر فهذه الثورة الفكرية من الإمام الباقر حيث بقر العلم بقراً هي التي أولدت الجيل المؤمن الواعي لأهدافه ومسؤولياته الشرعية وهذه المدرسة الفكرية انتشرت في بقاع العالم الإسلامي وينقل أن الحسن بن علي الوشا أدرك تسعمائة شيخ في مسجد الكوفة يتدارسون ويروون الحديث عن الباقر .

وروى عن الإمام تلميذه محمد بن مسلم ثلاثين ألف حديث بقوله :

(. . حتىٰ سألته عن ثلاثين ألف حديث) ويقول البعض أن الإمام الباقر ترك تسعين ألف حديثاً في مختلف المجالات العلمية والفكرية والفقهية كما في رواية بحار الأنوار بالجزء الثاني يقول جابر الجعفي حدثني أبو جعفر سبعين ألف حديث هذه الثروة الكبيرة تركها لنا الإمام الباقر محدداً الإطار الفكري والثقافي والأخلاقي فكان يصف الشيعة ويبين أخلاقهم ليحدث الثورة الأخلاقية في النفوس فكان يصفهم بقوله (ع) : « . . . إذا غضبوا لم يظلموا وإذا رضوا لم يسرفوا بركة علىٰ من جاورهم وسِلْم لمن خالفهم » .

وبذلك ليكوّن الخلفية الثقافية لهذه الأمة المسلمة التي كثرت عليها المؤامرات عبر الاستعمار الثقافي المدبر من السلطة الحاكمة أو من الخارج فمثلاً يقف الإمام متحدياً ومفنداً الأفكار التبريرية كأفكار المرجئة (وهم الجماعة الذين قالوا بأن الأفضل لنا أن لا ندين الرجال بمعنىٰ أن لا نحدد موقفنا من الرجال السابقين ونرجىء ذلك إلىٰ يوم القيامة والله سبحانه وتعالىٰ هو المسؤول فقط فمعاوية والإمام علي تحاربا وذهبا إلىٰ ربّهما وهو الذي يحاكمهما فليس من وظيفتنا أن نحاكم أحدهما أو نحدد الموقف من الآخر ونقف إلىٰ جانب أحد الطرفين . . . وهناك حركة القدرية التي بثها الحسن البصري والتي تقول بأن معاوية قد جاء إلىٰ الحكم بأمر الله (أي جبراً) ونحن لا نستطيع أن نخالف أوامر الله سبحانه . . ولم يقتصر الأمر علىٰ الجانب السياسي إنما شمل كافة الأصعدة وخصوصاً أن عهد الإمام الباقر قد شهد أفكاراً متناقضة لأن الأمة وصلت إلىٰ مستوىٰ من الفوضىٰ السياسية من جميع النواحي)[٥٨] .

وبذلك نلاحظ أن الإمام الباقر كان في ظرف حسّاس معيّن أمكنه أن يمسك خيوط التصحيح في الأمة فكرياً وسياسياً وثورياً وجهادياً وفقهياً أي كانت قيادته شاملة بشمول الحياة هذا ما ناسب الظرف الذي كان يعيشه ، فهو المربي لزيد بن علي فتبلورت لديه الثورة في عهد الإمام الصادق فإذاً إنّ الإمام الباقر ورث الخط القيادي الشرعي لذلك فوّت الفرصة بل الفرص علىٰ المستغلين فنشر علوم أهل البيت في فرصة زمنية ذهبية لذلك كرّس

مفاهيم الثقافة الواعية والثقافة الثائرة في الأمة فكان المكمل لدور الإمام السجاد والممهد لدور الإمام الصادق إضافة إلىٰ تفجير الوضع ثورياً بثورة زيد بن علي .

## ⑥. الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) ودوره القيادي:

كان عصر الإمام الصادق مليء بالاضطرابات السياسية وهو يعيش في بيت الوحي حيث المعارضة الحقيقيّة والجدّية للنظام القائم وهذا يكفي لأخذ الحذر منه ومن نشاطاته من قبل السلطة الحاكمة إضافة إلى أن الحكام يعرفون عين المعرفة أنه الإمام الحق وأنه الخليفة الشرعي لرسول الله علىٰ المسلمين . . . المهم أنه عاش في العصرين الأموي والعباسي فقد قضىٰ حياته الأولىٰ حتىٰ الحادية عشرة من عمره مع جدّه الإمام السجاد وحتىٰ الثانية والثلاثين مع أبيه الإمام الباقر فنهل العلم من منابعه الصافية وترعرع في وسط الأحزان والآلام والمظالم التي يعيشها بيتهم الطاهر وعموم المسلمين يقول أسد حيدر : (كان العصر الذي اختص به الإمام الصادق عصر فتن واضطراب في جميع البلاد الإسلامية وحروب طاحنة ونزاع بين رجال الدولة وقد اصطدمت بمؤاخذات تهدد كيانها وتجاوبت البلاد بلغة الإنكار علىٰ الأمويين والمؤامرات السرية قد قاربت النجاح في تدبيرها الخفي . . . ) ولما استلم العباسيون الحكم باسم أهل البيت والعلويين إلاّ أنهم بعد ما استتب الأمر لهم نقموا مِن آل علي وعذبوهم شرّ عذاب (نفذوا تلك الخطط الانتقامية من آل علي فلم يدخر المنصور بعد أن عظمت شوكته وامتد سلطانه وسعاً لسحق العلويين وحزبهم . . . فهو يتوقع في كل آونة قيام ثورة دموية يترأسها علوي يحوط به عدد كبير من الأمة فتوجه بكل ما في وسعه من جد وحزم وأنالهم شر أنواع العذاب)[٥٩] .

وهذه الفترة الانتقالية بين العصر الأموي والعباسي كانت فترة ذهبية للإمام وذلك لإكمال دور أبيه الباقر في نشر علوم أهل البيت ففي أواخر العهد الأموي ساد الضعف الإداري داخل النظام وفي بداية العهد العباسي

حيث دور التكوين للدولة كانت فترة مناسبة لتخريج رجال العلم والجهاد وكانت هذه الثورة العلمية الثقافية هي السائدة في حياة الإمام الصادق ولكن ليست هي كل شيء بل إنه ظهر بالمظهر الثقافي العلمي بعيداً عن المظاهر السياسية ليبعد الأنظار عنه في تحركه التغييري والحركي واتخذ من العلم والفقه والتفسير مدخلاً هادئاً للتحركات السياسية والجهادية وهو يؤدي الثورتين معاً الثقافية والسياسية لأن النزول في تلك المرحلة للساحة بالشعارات السياسية والثورية لا يعني إلّا المجابهة المكشوفة مع النظامين في المرحلتين ومعنىٰ ذلك فوات الفرصة من أئمة أهل البيت في البناء والتحرير . . . فلذلك كان يحضر درسه في أغلب الأوقات ألفان وبعض الأحيان أربعة آلاف من العلماء المشهورين وكان يؤم مدرسته طلاب العلم ورواة الحديث من الأقطار النائية كذلك فقد نقل عنه الحديث الكثير من العلماء أمثال : مالك بن أنس والثوري وأبي حنيفة وشعبة وابن جريح وغيرهم فهو يعتبر مؤسس المدرسة الفكرية والفلسفية في الإسلام ، علماً بأن هذا الأسلوب كان من أبرز مظاهر أعماله (ع) للظرف المناسب حيث التيارات الفلسفية الغازية وتطور علم الفقه والأصول واعتماد السلطة علىٰ الفتاوىٰ وإعطاء الرأي فنشأت ملابسات القياس والاستحسان وظهور الزنادقة والمانوية والزرادشتية كواجهات فكرية تدعو إلىٰ الانحراف عن الإسلام وأن هنالك مظاهر عديدة كان يتبعها الإمام (ع) في سبيل تحقيق الحرية والعدالة إلّا أن بعضها كان يمتاز بالسرية التامة وبعضها كان نصف سري حسب ما تقتضيه الظروف المحيطة . . وكان الإمام في سعي دائم لإيجاد الطبقة المؤمنة الواعية التي تعي الرسالة وأهدافها ليقوم بهم ثائراً وحينما دخل عليه سدير الصيرفي يطلب من الإمام القيام لاستلام راية الثورة على الظالمين لوجود الموالين في الساحة وبعد النقاش التفت إليه الإمام وهو ينظر إلىٰ قطيع من الجداء : «والله يا سدير لو كان لي شيعة بعدد هذه الجداء ما وسعني القعود . . »[٦٠] .

ومع ذلك استطاع الإمام بخطته الحكيمة أن يوجد حكومة عادلة داخل

الحكومة الظالمة المتسلطة فبعد أن كوّن القاعدة الشعبية المؤيدة له وبنىٰ الرجال الذين يعتمد عليهم أمثال هشام بن الحكم وزرارة بن أعين . . فربط الإمام (ع) القواعد الجماهيرية بهذه النخبة الفاضلة فقد قال (ع) «انظروا إلىٰ رجل منكم يعلم شيئاً من قضايانا فأجعلوه بينكم قاضياً فإني قد جعلته قاضياً فتحاكموا إليه» وليس معنىٰ ذلك إلا المقاطعة للسلطان الجائر والعمل الشجاع بالولاية الشرعية فقد قال (ع) حينما سئل عن البناء لهم وكراية النهر (. . . ان أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتىٰ يحكم الله بين العباد»[٦١] .

وبالفعل كانت تجبىٰ للإمام الفرائض كالزكاة وغيرها في بعض البقاع لأنه في اعتقاد الناس هو الإمام والخليفة الشرعي وليس الإمام هذا السلطان الحاكم .

وكان الموقف السياسي والثوري بالنسبة للإمام يتضح جلياً حينما نطالع فصول الثورات والانتفاضات التي سادت في عهد الإمام الصادق وكيف كان يديرها ويدعمها بشكلٍ غير مباشر وبكتمان تام لتأخذ الثورة مجراها الطبيعي لذلك ما كان يتأثر بعرض العباسيين في البداية حيث رفعوا شعار (للرضا من آل محمد) فكان يدرك لعبتهم في استغلال هذا الاسم المؤثر في نفوس الناس وبالفعل جرىٰ ما كان يتوقعه الإمام وهذا إن دلّ علىٰ شيءٍ فإنه يدل علىٰ أن جهاز الإمام الحركي استطاع أن يخترق النظام الحاكم في عقر داره ويتلمس آخر التطورات الخاصة في داخل مقصورة الحكم فهذا الربيع مثلاً وهو حاجب الخليفة المنصور وكان موالياً للإمام (ع) يذكر العلامة المدرسي في كتابه التاريخ الإسلامي نقلاً عن البحار إنه لما جاء المنصور بالإمام الصادق قال الإمام للربيع (يا ربيع أنا أعلم ميلك إلينا فدعني أُصلي ركعتين وأدعو . . ) فقال الربيع شأنك وما تشاء وبعد ذلك بكىٰ الربيع فصلىٰ الإمام ركعتين وبعدها دخل علىٰ المنصور وكان قد جعل سيفاً تحت لبده وكلما يحتد النقاش بينه وبين الإمام الصادق كان المنصور يقبض علىٰ السيف فقال الربيع في نفسه إنْ أمرني فيه بأمر أن أعصيه لأنني

ظننت أنه يأمرني أن آخذ السيف فاضرب به الإمام وقلت : (وإن أمرني ضربت المنصور نفسه وإن آتىٰ ذلك عليّ وعلىٰ ولدي) .

(فالرساليون خلال أيام الإمام الصادق وما بعده من الأئمة كانوا قد حكموا البلاد عن طريق التسلل أو غيره وخذ لذلك مثلاً بني الأشعث والفضل بن يحيىٰ وخالد والفضل بن سهل ويعقوب وداود . . . وعلي بن يقطين وأولاده وسليمان بن جعفر . . . هؤلاء كلهم كانوا بمثابة وزراء كما كانوا ولاة في الأمصار كزياد بن عبد الله عامل المنصور على المدينة وحتىٰ قواد الجيش كطاهر بن الحسين الخزاعي القائد العسكري للمأمون الذي فتح له بغداد وهزم جيش أخيه الأمين)[٦٢] .

ومن أمثلة المواجهة المسلحة في عصره كانت ثورة زيد بن علي وأولاده وأن الإمام كان يدعم الثورة بشكل غير مباشر ويرعاها وقد ترحم كثيراً علىٰ زيد بعد استشهاده . . وكذلك ثورة إسماعيل بن الإمام الصادق .

وكان للمنصور محاولات عديدة لكشف تحرك الإمام الصادق لأنه يعرف أنه رجل القيادة والخلافة لكنه كان يفشل بشتىٰ الوسائل من أموال وترغيبات أخرى فكان يدس البعض عنده بتزوير بعض الكتب فكان الإمام يجابهها بحنكة سياسية عالية وكتمان كبير وهكذا كان ينظر المنصور إلىٰ ساحته وإذا بالعلويين يحركونها ضده في كل مكان فيربط القضية بالإمام الصادق من هذا الباب حتىٰ إنه ما استطاع أن يراه هكذا حتىٰ دسّ له السم ليستشهد مسموماً ـ سلام الله عليه ـ وهو يؤدي دوره القيادي في الشريعة وفي الأمة الإسلامية .

## ⑦ . الامام موسى بن جعفر الكاظم (ع) ودوره القيادي :

انتقلت الخلافة الشرعية من الإمام الصادق إلىٰ ابنه الإمام الكاظم بعد استشهاده علىٰ يد المنصور العباسي وكانت فترة إمامة الإمام الكاظم خمساً وثلاثين عاماً عاصر بقية عصر المنصور والمهدي والهادي وخمس عشرة سنة من حكم الرشيد واستشهد في سجن الرشيد ببغداد وكانت هذه الفترة ـ عهد

الإمـام الكاظم ـ تتميـز بقوة المؤمنين والمـوالين لأهل البيت كـاستمـرار لفتـرة الإمام الصادق لذلك بعد جريمـة المنصور في قتـل الإمام الصـادق كان عـازماً علىٰ تصفيـة الخلافـة الشرعيـة جسديـاً بشكـلٍ تـام قبـل نمـوهـا في الـوسط الاجتمـاعي لأن المنصور كـان يعرف أن الخـلافة الشـرعية ليست له وأن أئمـة أهـل البيت هم المنافسـون الحقيقيونَ لسلطانـه لا غيرهم ويعـرف أيضـاً أنهم يمتازون بقوة الإيمان والشخصية والجمـاهير فـلا تنفع معهم الحلول السيـاسية والمصالحة أمام صفقات مـالية مثـلاً ليضمن سكوتهم فقـرر التصفية الجسـدية لبقية الخلافة الإسلاميـة . لكن الإمام الصـادق (ع) فوّت عليـه الفرصـة حيث جـاءت وصيته العلنيـة دقيقة الاختيـار وبها ضمن سـلامة الخليفـة وهـو الإمـام الكـاظم من بعده فجعـل وصيته لخمسـة أشخاص من ضمنهم الإمـام الكاظم وكـان معه ابنـه عبد الله والمنصـور نفسه ومحمـد بن سليمان وزوجتـه حميـدة فلمـا طلب المنصـور من والي المـدينـة محمــد بن سليمـان أن يقتــل وصي الصـادق فأجـابه (إن أوصيـاءه خمسة فـأيهم أقتل) وبـذلك فـوّت عليه فـرصـة الغـدر المبكر بـالقيـادة . أمـا مـع الخـواص فبيّن لهم أن الإمـام الكـاظم هـو الإمام الشرعي والخليفة لا غير ففي روايـة ابن الحازم عن الصـادق أنه قـال : (. . . إذا كــان ذلـك فهــذا صـاحبكم وضــرب بيــده علىٰ منكب الكــاظم الأيمن)[٦٣] .

وفي هذه الفترة استطاع الإمام الكاظم أن يواصـل مسيرة الإمـام الصادق الفكرية والعلمية والجهادية أيضاً .

وكذلك أدخـل الإمام جمـاهيره الـواسعة في المعـارضة السيـاسية وكـان يـطالبهم بمقـاطعـة السلطة الـظالمـة وكمثـال علىٰ ذلـك حينمـا نهىٰ صفـوان الجمال أن يكري جماله لهم بقوله (ع) «يا صفوان أيقـع كراك عليهم ؟ أجـاب نعم فقـال (ع) من أحب بقاءهم فهـو منهم ومن كـان منهم كـان وارداً النار»، وأكثـر من ذلك دخـل الإمـام بنفسـه في المجـابهـة مـع السلطة بشكـلٍ علني ومبـاشر مـع الخـلافـة المتسلطة فقـد جـاء في بعض المـرويـات أن المهـدي العباسي قد عرض علىٰ الإمام الكـاظم أن يرد عليـه فدكـاً فرفض قبـولها ولمـا

ألحّ عليه المهدي قال لا أقبلها إلا بحدودها قال : وما حدودها ؟ قال (ع) : «الحد الأول عدن فتغير وجهه والحد الثاني سمرقند فأربد وجهه والحد الثالث أفريقيا فقال له المهدي والحد الرابع قال (ع) سيف البحر ما يلي الخزر وأرمينيه فقال له : لم يبق لنا شيء فتحوّل إلىٰ مجلسي فردّ عليه الإمام بقوله : لقد أعلمتك بأني إن حدّدتها لم تردها»[٦٤] .

ويروىٰ أيضاً أنه (ع) حينما أدخل علىٰ الرشيد سأله ما هذه الدار ؟ فقال الإمام هذه دار الفاسقين قال تعالىٰ : ﴿**سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق . . .**﴾ فقال هارون فدار من هي ؟ قال : هي لشيعتنا فترة ولغيرهم فتنة قال فما بال صاحب الدار قال أخذت منه عامرة ولا يأخذها إلا معمورة قال فأين شيعتك فقرأ أبو الحسن ﴿**لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البيّنة**﴾ فغضب عند ذلك .

والمسألة المهمة جداً والتي تسجل بوضوح في حياة الإمام الكاظم (ع) أن الإمام دفع جماعته نحو العمل السياسي وكانوا علىٰ درجة من الذكاء الكبير فاستطاعوا أن يواصلوا عملية الاختراق للجهاز الحاكم فسيطروا على بعض مفاصل النظام القائم بخطة حكيمة يرعاها الإمام الكاظم بنفسه سريا . .

فهذا علي بن يقطين الذي كان بمنزلة وزير الدولة لهارون الرشيد هو من رجال الإمام الكاظم وكان الإمام يحرص ببقاء هذا الرجل في هذا الموقع الحساس لإتمام العملية التغييرية ولدينا شواهد على هذا الكلام فمثلاً قصة الدراعة المعروفة هي خير شاهد علىٰ ما نذهب إليه حيث أهداها الخليفة لوزيره ابن يقطين حين أعجبته فأوصلها إلىٰ سيدنا الإمام الكاظم حباً وكرامة لكن الإمام أعادها بشكل خفي عليه لتنفعه وقت حاجته إليها قائلاً : «يا علي هذا وقت حاجتك إلى الدراعة . . .» وبالفعل وشىٰ للرشيد الواشون بأنه على غير مذهبكم بدليل الدراعة فقد أهداها لإمامِهِ الكاظم فغضب هارون

وأتىٰ بـه ليلاً بشكـل ٍ مفاجىء وحـاد ، سألـه عن الـدراعـة فـأحضـرهـا خـادم الرشيد مسرور بعد تـوجيهه لـه وهو رهين بين يـدي هارون فهـدأ غضبه وأعـاد وزيره إلىٰ مكانه معززاً مكرماً . وقصة أمر الإمام له بتبديل وضوئه معروفة ليماشي الرشيد وليخدم الرسالة الشرعية من موقعه، وكان الرشيـد متربصـاً به ويـراه من وراء حجـاب ، وان هـذه القصص لهي أكبـر عبـره لنـا في اختـراق الـطغـاة والمراقبة الدقيقة لـلأعداء عبـر جهاز دقيق من الأصـدقاء والمحبين المحيـطين بالعدو . والعبرة في القصـة هذه أن الـوزير ابن يقـطين حينما أرسـل الدراعـة لـلإمام تسـرب الخبر للسلطة وحينمـا أعـادهـا الإمـام للوزيـر لم يعـرف أحـد بذلك ! مما يدلل علىٰ متانة جهاز الإمام (ع) في تحركه وأعماله .

هذا وبالتالي نلاحظ ان الإمام كان يستهدف الإطاحـة بالسلطة العبـاسية لذلك حينما أراد الحسين بن علي بن الحسين ـ ثائـر وقعة فـخ ـ الثورة قـال له الإمام الكاظم : إنـك مقتول فـأحدّ الضراب فإن القـوم فسّاق يـظهرون إيمـاناً ويضمرون نفاقاً وشركاً . . ) وحينما قتـل وانتهت المجزرة المشهـورة بكىٰ (ع) وقال : «مضىٰ والله مسلماً صالحاً صوّاماً قوّاماً . . . )»[٦٥] .

وهكذا وصل إلىٰ درجـة كبيرة من القـوة والتركيـز وبالفعـل نجح الإمـام في زراعـة عناصـره المؤمنة المتسترة في عمق الخلافـة العباسيـة واستطاع أن يكوّن جهاز ارتبـاط مع هـذه العناصـر من داخل النـظام أي جهازاً أمنيـاً يراقب العناصر المزروعة ومـا يحيط بها وبشكـل ٍ مكتوم ٍ دقيق هـذا مما أدخـل الرعب الحقيقي في نفسية الخليفة هارون الرشيـد بالـذات وعناصـره المتوحشـة على المسلمين وكـانت بوادر التمـرد والثورة تـظهر بين آونـة وأخرىٰ تـربط بـالإمـام بشكل ٍ أو بآخر لذلك ما كـانت لهم حيلة أمام هـذا الخوف المهـدِّد لوجـودهم إلا اعتقال الإمام وبالفعل اعتقل حوالي ستة عشر عاماً بـاختلاف الـروايات من سجن لسجن وهو في السجن كذلك كانـوا يخافـون منه فهـو يشع نـوراً وعلماً وهداية حتىٰ في داخل السجون والطوامير فكانت عناصر النظام تهتـدي بهديـه فكان النظام يستبـدل عناصـره بين فترة وأخـرىٰ خوفـاً من تنفيذهم أوامـره بعد دخـولهم في حركتـه المباركـة . . حتىٰ قضوا عليـه مسمومـاً في السجن وأكثر

من ذلك أنه شهيد بجسمه لكنه يرعبهم بفكره وخطه فعبّروا عن خوفهم هذا بأمرين الأول باستخفاف التشيع والثاني فإن الخلافة العباسية أرادت أن تبين للجماهير المتألمة أن الإمام مات طبيعياً فنودي على جثمانه (هذا موسىٰ بن جعفر قد مات فانظروا إليه فجعل الناس يتفرّسون في وجهه وهو ميّت) ليمتصوا غضب الناس . . وهكذا انتهت فترة الإمام الكاظم ليستلم الخلافة من بعده الإمام الرضا فيدخل في الجهاد والعمل الدؤوب استمراراً للقيادة الشرعية المعصومة .

## ⑧. الامام علي بن موسى الرضا (ع) ودوره القيادي :

( أ ) استلام الخلافة

(ب) المحاربة النفسية للإمام

١ ـ إلصاق التهم

٢ ـ محاولات الاحتواء

(جـ) المعارضة تمارس أدواراً علنية .

### ( أ ) استلام الخلافة :

استلم الإمام الرضا الخلافة في ظروف تعتبر امتداداً لظروف الأئمة السابقين وبالذات والده الإمام الكاظم (ع) : «فلقد بقي الإمام الرضا مع أبيه نحواً من ثلاثين عاماً أو تزيد شاهد فيها ضروب المحن والبلايا التي أحاطت بأبيه» كما يقول السيد الحسني في كتابه .

إلا أنه بقي الإمام الرضا بالرغم من كل المحن والبلايا هو المرجع الأعلىٰ للفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية وإليه تشدُّ الرحال لمعرفة أسرار القرآن الفلسفية والتشريعية وأصبح الإمام الرضا بفعل الأعمال الفكرية المتابعة من الأئمة السابقين ومن نشاطاته العلمية هو الينبوع الفكري الأصيل للأمة الإسلامية عُرف بذلك علىٰ كافة المستويات يقول الإمام الكاظم لبنيه : «هذا أخوكم علي بن موسىٰ عالم آل محمد فاسألوه عن دينكم واحفظوا ما يقول لكم . . .» هذه شهادة من أبيه وهنالك شهادة من الخلافة

القائمة فقال عنه المأمون : « . . . لم يبق أحد على ظهرها أبين فضلاً ولا أظهر عفة ولا أورع زهداً في الدنيا ولا أطلق نفساً ولا أرضى للخاصة والعامة ولا أشد في ذات الله منه . . »[٦٦] .

المهم أنه برز علمياً وفكرياً لدى جميع طبقات المجتمع وهذا مما يؤهله في نظر الناس إلى الخلافة السياسية على عكس وضع الحكام الذين يحكمون بالسياط والإرهاب وبالفعل بانَ نقص الخلافة من هذه النواحي وكلما أراد الخلفاء أن يصنعوا حولهم ستاراً شرعياً بالفقهاء المعاصرين لهم ما استطاعوا وحتى أولئك الذين أدخلوهم للبلاط الأموي والعباسي قد تتلمذوا على يد الأئمة بصورة مباشرة أو غير مباشرة المهم أنهم تسلموا القيادة الفكرية والثقافية والفقهية بخطة ذكية حكيمة ففرضوا أنفسهم على الساحة الإسلامية عموماً ففي عيون أخبار الرضا ورد أن المأمون اشتكى للرضا الضغوط الجماهيرية المتصاعدة ضد حكمه وطلب من الإمام أن يكتب للناس لكي يسكتوا ولما طلب أخذ ولاية العهد من أهل الكوفة رفض أهل الكوفة ذلك وقالوا إنما نبايعه بالخلافة ولا نبايعه على ولاية العهد[٦٧] .

المهم هذه المرجعية الروحية والفكرية للإمام دفعت الخليفة المعاصر للإمام الرضا أن يفكر في احتواء هذه القدرة العلمية الفائقة وخاصة لو عرفنا أن الإمام الرضا مسك خيوط المعارضة والثورة المتصاعدة من قبل العلويين والمضطهدين في كل مكان وربّ سائل يسأل لماذا لم ينزل الإمام الرضا بنفسه إلى الصراع الدموي كما فعل الإمام الحسين بل لماذا لم ينزل الأئمة بعد الحسين إلى الصراع الدامي كما فعل الحسين ؟ وبالإجابة المختصرة على ذلك نقول إن الأئمة اكتفوا بثورة الحسين الدامية لتكون شعلة وهّاجة لتحريك الجماهير وبما أن القيادة الشرعية للإمامة قيادة متكاملة فسعوا إلى إكمال الصورة القيادية من الناحية الفكرية والثقافية مستثمرين ثورة الإمام الحسين للحزن والثأر والنهوض فدفعوا الناس للبكاء على الحسين والتأثر بالواقعة ونصبوا المآتم الحسينية كما فعل الرضا مع الشاعر دعبل الخزاعي علماً بأن الإمام الحسين سدّ هذا الجانب لا فقط في عهد الأئمة بل أصبح

أنشودة خالدة عبر الدهور (كل يوم عاشوراء وكـل أرض كربـلاء) فتوجهـوا إلىٰ تكملة الـروح القياديـة وتهيئة الأجـواء الساخنـة للثورة المنتصـرة فبذلـك كـان الإمام الرضا يرعىٰ الثورات العلوية روحـاً ومعنىً ومسانـدة ودعاءً ودفعـاً وذلك لتضييق الخناق علىٰ السلطة الظالمة وذلك للانقضاض عليهـا وإعادتهـا للقيادة الشرعية وهذا ما أنجز بشجاعة فائقـة لذلـك كان الـطغاة يـلاحقون أئمتنـا وفي حالة العجـز يسجنونهمويقتلونهم ويـطاردون أصحابهم ومـريديهم للتخلص من هذا التخطيط الذي يشعرون أن فيـه نهايتهم ومن هـذه الـثورات التي حـدثت في زمن الرضا هي ثورة محمد بن إبراهيم المعروف بـابن طباطبـا العلوي فقد ثـار بالكـوفـة الســدي بن منصـور الشيبـاني المعـروف بـأبي الـسرايـا الـداعي لمحمـد بن إبراهيم واستـطاع جيشه العقـائدي أن يهـزم جيـوش العبـاسيين ، وفي البصـرة خرج زيـد بن موسىٰ بن جعفـر المعروف بـزيـد الغـار الحسن بن الحسين الأفـطس وهكذا تـلاحقت الثورات واشتعلت في أكثـر أنحـاء الـدولـة ومع كل ثائر عشرات الألوف يناصرونه علىٰ أولئك الجبابرة[٦٨] .

(ب) المحاربة النفسية للإمام :

فكـانت السلطة تجـابـه هـذا التصعيـد ضـدهـا وهي تعـرف أن السلطة الشرعية جادة في العمل والمواجهة لذلك حاربوا الإمام بطريقتين :

١ ـ محـاربة الإمـام الرضـا بإلصـاق التهم به والتشكيـك بشرعيـة قيادتـه وللمثال نذكر هذه الرواية قال أبو الصلت للإمام الـرضا : يا بن رسـول الله مـا شيء يحكيـه النـاس عنكم قـال : ومـا هـو ؟ قلت يقـولـون انكم تـدّعـون أن النـاس لكم عبيـد فقـال (ع) : «اللهم فـاطـر السمـوات والأرض عـالم الغيب والشهـادة أنت تشهد بـأني لم أقل ذلـك قط ولا سمعت أحداً من آبـائي قـالـه وأنت العـالم بما لنـا من المظالم عنـد هذه الأمـة وأن هذه منهـا ثم أقبل عليَّ وقال : يا عبـد السلام إذا كـان الناس كلهم عبيـدنا علىٰ مـا يقولـون فعلىٰ من نبيعهم ثم قال : أمنكر أنت لما أوجب الله عز وجـل لنا من الـولاية كمـا ينكره غيرك قلت : معاذ الله بل أنا مقر بولايتكم» .

هـذا عن إلصاق التهم بـالإمـام وأمـا عن التشكيـك بشـرعيتـه فكـذلـك استعملت الخـلافة الـظالمة هـذا الأسلوب لتضعيف جماهيـرية الإمـام فشقّـوا قسماً من أبناء مدرسة أبيه الكاظم ليدّعوا الـوقف عنده وأن الإمـام الكاظم هـو غائب هذه الأمة وأنه لم يقتـل وإنما شبـه للناس ذلـك وسيظهـر فيما بعـد وهو المهدي الموعـود وسموا (الـواقفية) وهـذا الأسلوب ليس جديـداً يتبعه الـطغاة لتفـريق شمـل المعـارضـة وإنمـا هـو أسلوب معتـاد لـديهم في أغلب الأزمنـة فيأتون للخط الجهادي الواحـد ويقسموه إلىٰ أقسـام متعددة الـولاء مما يضعف تمـاسكهم وضمن اللعبة الشيـطانية يبـدأ التناحـر والانشقاق والشتـات والتنافـر فيمـا بين الأخـوة ومن الـطبيعي أن الـطغـاة في هـذه العمليـة يعتمـدون علىٰ عنـاصـر قيـاديـة تمتـاز بـالضعف الإيمـاني وضعف الـرؤيـة المستقبليـة وحب التسلط والـرئاسـة وبالفعـل اعتمدت الفتنـة في زمن الإمام الـرضـا علىٰ بعض أصحـاب الإمام الكـاظم أمثال علي بن أبي حمـزة البـطائني وزيـاد بن مـروان النقدي وغيرهما وكانت هذه الأطروحة (الانقساميـة) تناسب أهـواء هذا البعض فمثلاً كانوا قد جمعـوا أخماسـاً للإمـام الكاظم وهـو في سجنه فـأبوا تسليمهـا للرضـا بعد استشهـاد أبيه الكـاظم فأعلنـوا تشكيكهم بـالـرضـا كي لا يسلّمـوه الأموال والحقوق الشرعية فإذنْ المسألـة مسألـة مصالـح دنيويـة وأهواء نفسيـة وجدت مجـالها في نفسيات السلاطين وبعض المنتفعين باسم الدين .

هـذا وقد فعـل ذلك غيـر المأمـون من الخلفاء ويـذكر العـلامة الحسني في كتـابـه (وقـد اجتهـد المنصـور لإرجـاع الشيعـة إلى إسمـاعيـل بن جعفـر وعبـد الله الأفطح فـرجعت فئة منهم لهـذا وفئة لـذاك . .)[٦٩] لغـرض تفـريق الوحدة الجماهيرية عند القيادة الشرعية .

٢ ـ محاولات الاحتواء للإمام الرضا (ع) :

كـانت فترة الإمـامـة للرضـا عشـر سنـوات عـاصـر بقيـة حكم الـرشيـد والمأمون بعد الأمين وكما قلنا لقد بلغت قوة الحركـة الرسـالية أوجهـا في عهد الـرضا وقلنـا بدأ المـأمون يعـاني من الضغوط الجمـاهيـريـة بعـدم الاعتـراف بشرعية حكمـه وتصاعـد الثورات العلويـة في كل مكـان وبروز الإمـام الرضـا

كمرجع أعلىٰ للمسلمين مجسداً القيم الإسلامية والفكر الإسلامي مما جعل المأمون مضطراً للتنسيق الجدّي مع الإمام الرضا وخاصة أنه كان يعاني من ضعف داخلي حيث الصراع الدامي مع أخيه الأمين بالرغم من انتصاره عليه ولكن تركت هذه الحالة من الصراع آثارها الواضحة في صفوفه ، فوجد نفسه أمام خيارين الخيار الأول أن يسلم الخلافة أو يمنح ولاية العهد للرضا لأنه رجل الشريعة الإسلامية والجماهير المنتفضة والخيار الثاني أن يبقىٰ في الحكم بالقبضة الحديدية ماسكاً عرشه ضد الجميع ومعنىٰ ذلك تصاعد الانتفاضات بصورة أوسع وخسارة العرش والسلطة في المستقبل ففضّل الخيار الأول وأحاط الإمام الرضا بشكلٍ معين فاضطر الإمام لقبول ولاية العهد استجابة للظروف الموضوعية الخاصة وليخدم الحالة الثورية المتصاعدة من هذه الزاوية المستجدة بالرغم من أن الإمام الرضا رفض القبول لولاية العهد في البداية تحسباً منه ـ كما نظن ـ بأنه في حالة بقائه خارج المسرح السياسي يكون أكثر عطاءً للثورة وحينما يصبح ولي العهد تشتد عليه عيون النظام فيتحدد تحركه اتجاه الثورة الجماهيرية ـ أو لأسباب أخرىٰ فضل الرفض ولكن الإمام رضي بولاية العهد أخيراً ليخدم الثورة بالطريقة الذكية مفضلاً ذلك علىٰ أسلوب الرفض الذي قد يتخذه السلطان الجائر ذريعة لقتله بطريقة ماكرة ففي الرواية قال للإمام بأنك تتلقاني أبداً بما أكرهه وقد أمنْتَ سطوتي فبالله أُقسم لئن قبلت ولاية العهد وإلاّ أجبرتك علىٰ ذلك فإن فعلت وإلا ضربت عنقك ـ هذا وإن الإمام حريص علىٰ الأمة والشريعة فبوجود شخصه المبارك في السلطة سيحافظ عليهما ويهيء الأجواء للإمام التاسع ليكمل المسيرة وهذا ما تمّ فعلاً أي أنه قبل ولاية العهد ومن هذا المنصب السياسي أدىٰ دوره القيادي المتميّز خدمة للإسلام والمسلمين .

**(جـ) المعارضة تمارس أدواراً علنية :**

المعارضة تمارس أدوارها بالشكل السري عادة لحين الفرصة المناسبة وهذه الفرصة المناسبة إما أن تسمح بظهورها تماماً إلىٰ العلن وإما أن تظهر

بعض أدوارها للعلن وتخفي البعض الآخر تحسّباً لتغيير الظروف الانفراجية . . وهذا الوعي لدىٰ المعارضة يجعلها أكثر قوة وتماسكاً واستمراراً وبالفعل صعّدت المعارضة نشاطها في بعض الجوانب حتىٰ بدا للعيان أن الإمام يقود المعارضة للنظام القائم ـ كان ذلك ـ قبل قبول ولاية العهد فمثلاً حينما جرىٰ الحوار بين المأمون وبين الرضا في مسألة الخلافة لاحظوا جواب الإمام العلني قال المأمون (يا بن رسول الله قد عرفت فضلك وعملك وزهدك وورعك وعبادتك وأراك أحق بالخلافة مني . . ) حتىٰ قال (فإني قد رأيت أن أعزل نفسي عن الخلافة وأجعلها لك وأبايعك فقال الرضا (ع): (إن كانت هذه الخلافة لك وجعلها الله لك فلا يجوز أن تخلع لباساً ألبسكه الله وتجعله لغيرك وإن كانت الخلافة ليست لك فلا يجوز لك أن تجعل لي ما ليس لك)[٧٠] .

وكما قلنا سابقاً جاء قبول الإمام الرضا لولاية العهد نتيجة طبيعية للظروف الموضوعية في الأمة الإسلامية وللصالح الإسلامي العام وهكذا حين صار رسمياً ولي العهد استثمر موقعه الرسمي ليقود الأمة وينمّي حالة الثورة المتصاعدة في صفوف عناصره الخاصة وعموم الشعب ورجال السلطة والجيش فبدأ يعزل المأمون وحاشيته ووعاظ السلاطين من الجماهير وقد دعا مؤيديه بالانضمام للمواقع الرسمية بشكل دقيق فهاجروا إلىٰ موقعه في خراسان كثير من المريدين وأحدث تظاهرة بل نقله نوعية في أجهزة النظام وعمّم ذلك للناس ليشتركوا في الحالة التصحيحيّة وانجلىٰ الأمر في صلاة العيد التي تعتبر ـ بحد ذاتها ـ تظاهرة شعبية ورسمية عارمة قادها الإمام بنفسه وبجوٍّ روحانيٍّ نبيل وتوجهت ضد السلطة ودعت إلىٰ المساواة بين طبقات المجتمع والتعاون فيما بينهم في سبيل الصلاح والهداية والإخلاص للقيادة الشرعية لا الرسمية فلما أحسّ النظام بانصهار الناس مع القائد الحقيقي ضمن هذه التظاهرة بأجواءٍ إيمانية والتوجه المخلص إلى الله والهرولة إلىٰ الصحراء بشكلٍ عبادي رائع مما أزعج النظام فتدخل المأمون ليطلب من الإمام ترك صلاة العيد والعودة إلىٰ موقعه فأرسل إليه ـ لقد

كلّفناك شططاً وأتعبناك يا بن رسول الله ولسنا نحبّ لك إلاّ الراحة فارجع وليصلِّ بالناس من كان يصلي بهم علىٰ رسمه[٧١] .

هذا وقد تركت هذه المحاولة للصلاة أثرها الواضح في نفوس الناس وتساءلوا ضمناً عن أسباب المنع فعرفوا موقع الخليفة الشرعي من الخليفة الرسمي علماً بأن الإمام استلم الولاية في نصف شهر رمضان تقريباً والصلاة لعيد الفطر من تلك السنة . . هذا وكان الإمام يسافر إلىٰ البلدان ويلتقي بالجماهير ويتحدث إليهم للبناء العقائدي والجهادي فأحدث زوبعة حقيقية في داخل الأمة . . المهم شعر المأمون وسلطته ورجاله بالخطورة فدسّ إليه السم فاستشهد الإمام علىٰ أثره ـ سلام الله عليه ـ .

## ٩ ـ الامام محمد بن علي الجواد (ع) ودوره القيادي:

( أ ) استلام الخلافة

(ب) الخطة الماكرة للنظام الحاكم

(جـ) خطة الإمام الذكية :

١ ـ الانفلات من قبضة النظام

٢ ـ الثورة الثقافية

٣ ـ العمل الاجتماعي

٤ ـ العمل الثوري .

### ( أ ) استلام الخلافة :

الإمام الجواد أصغر الأئمة سناً ، استلم الخلافة الشرعية وعمره ثماني سنوات أو أقل وإن هذا الأمر أي صغر السن لدرس بالغ من الله سبحانه لأولئك الفقهاء الكبار الذين تتلمذوا علىٰ يد الإمام الكاظم والإمام الرضا كيف يتم الأمر لصبي صغير وأن يذعنوا له ويطيعوه ؟ امتحان عسير لهم ولكن المؤمنين يعرفون أن الإمامة منصب إلهي ـ كما قلنا سابقاً ـ لا يرتبط بالعمر والدرس والشكل ـ إنما هو تعيين إلهي كالنبوة ، وهذا الدرس غير مقتصر علىٰ تلك الفترة بل هو درس لكل المسلمين ليضعوا الميزان الحقيقي

في تقييم المؤمنين والفقهاء ورجال الفكر فلا عبرة بالسن والاعمار بل العبرة بالعلم والتقوىٰ والعدالة والعمل الصالح . . . فالنبي عيسىٰ كلّم الناس في المهد بقدرة الله سبحانه .

المهم استلم الخلافة ضمن ظروف خاصة وهو يرىٰ قاتل أبيه الرضا لا زال في الحكم والقاعدة الجماهيرية علىٰ سعتها بحاجة إلىٰ الامداد الفكري والجهادي فاستمر في عمله الدؤوب حتىٰ استشهد مسموماً بأمر الخليفة المعتصم وعمره ـ حوالي ـ خمس وعشرون عاماً ! !

(ب) الخطة الماكرة للنظام الحاكم :

استمراراً لمكر المأمون مع الإمام الرضا وبنفس الطريقة أراد احتواء الإمام الجواد في رسميات الخلافة القائمة لتكثيف العيون الحكومية التابعة للسلطان حول الإمام ليحصوا عليه أنفاسه وتحركاته من ناحية ومن ناحية أخرىٰ ليتم عزل الإمام الجواد عن القاعدة الاجتماعية الواسعة والمتنفّذة في وسط الأجهزة الحاكمة وبتحقيق هذين الهدفين سيسيطر النظام الحاكم علىٰ أكبر المنافسين له وأخطرهم عليه وسيظهر نفسه بالمقابل أنه نظام المتشرعين والمحبين لآل البيت مما يكسب قلوب عامة الناس . . هذا لو عرفنا بالذات إن المأمون يدرك أهمية الجواد ويفهم وجود أئمة أهل البيت هو الخطر الأكبر علىٰ سلطانه وكان يعرف مدىٰ تأثيرهم الواسع علىٰ الجماهير المسلمة لذلك كان يعيش ـ كما قلنا في عهد الإمام الرضا ـ نظام المأمون أزمةً خانقة من الناحية الاجتماعية حيث الضغوط الجماهيرية ضده ومن الناحية التشريعية حيث فقدان جانب العلم والفقه والتفسير ومن الناحية النفسية حيث المظالم وتعذيب الناس وبالمقابل يتصاعد العمل الثوري من قبل المعارضين وبالذات العلويين بشكل ملموس فلهذه الحالة المتأزمة تكرّست فكرة المأمون في احتواء الإمام الجواد ليشكل الغطاء الشرعي له وينقذ نظامه المتهاوي وبالفعل ضغط علىٰ الإمام بصورة معينة ليتزوج من ابنته (أم الفضل) وبالفعل تمّ ذلك . فإما أن تكون زوجته العنصر المخرّب لأعمال

الإمـام من الداخـل أو بالعكس ستحجب عنـه العيون وتكـون عنصراً ضـاغـطاً علىٰ الخلافة الرسمية لإنجاح أعمال الإمام والخلافة الشرعية .

(جـ) خطة الإمام الذكية :

أمام هذه المؤامرة المدبـرة ليلاً قـام الإمام بـدوره القيادي ضمن الخـطة الذكية التي تمتاز بما يلي :

١ ـ الانفلات من قبضة النظام

٢ ـ الثورة الثقافية

٣ ـ العمل الاجتماعي

٤ ـ العمل الثوري .

**١ ـ الانفلات من قبضة النظام :**

فقد استطاع الإمام الجواد أن ينفلت من قبضـة النظام بقبـول الزواج من ـ أم الفضل ـ لأن الرفض كان يؤدي إلىٰ ردّ فعل أحمق يقـوم به المـأمون ثـائراً لكرامته الشخصية حينما يرفض ابنته هـذا من جانب ومن جـانب آخر استـطاع الإمام أن ينفلت من القبضة الحديديـة في بغداد العـاصمة حين أصـرّ بالعـودة للمدينة المنورة ومن الطبيعي وجـود أعداد كبيـرة من عيون النـظام وجواسيسـه في العاصمة فربما يطوّقون الإمام تماماً ويعزلونه عن الجماهير .

فلذلـك نـرىٰ أن إصـرار الإمـام علىٰ الخـروج من بغـداد إلىٰ المـدينـة وقبـوله الـزواج من بنت المأمـون فبهاتين العمليتين استـطاع الإمام الجـواد أن يفوت خطة النظام الماكرة . . وحينما أفلس النـظام الحاكم من احتـوائه وشعـر بخطورته الجدية علىٰ الحكم دسّ الخليفة المعتصم للإمـام الجواد سمـاً فقتل شهيداً مسموماً ببغداد ـ وهذا ديدن الطواغيت المتجبرة في الأرض ـ.

**٢ ـ الثورة الثقافية :**

استمـر الإمام الجـواد في الثورة الثقـافية والفكـرية في المـدينة المنـورة إكمالاً لدور الإمـام الرضـا من قبله وبالـرغم من صغر سنـه إلاّ أنه استـطاع أن

يفحم كبار الفقهاء في عصره وبحضور المأمون العباسي نفسه وطبعاً ان هذه المناظرات سجّلت للإمام الجواد نصراً علمياً وسياسياً في نفس الوقت إلا أن المأمون كانت له أهدافه الخبيثة في تسليط الضوء على الإمام ليكشفه شخصياً أمام رجال الدولة ليحسبوا له ألف حساب في المستقبل من دون النظر إلىٰ حجمه وصغر سنه ، لذلك كان الجواد لا يرغب في خوض هذه المناظرات الفقهية والاجتماعية حتىٰ يظهر من بعض الروايات عدم قبول الإمام في بداية المناظرة في خوض غمار التساؤلات العديدة ولكن بعد الإلحاح الشديد أحياناً كان يتحدث الإمام ليستفيد المسلمون وتستفيد الحركة الرسالية إيجابياً وكان بعملهِ هذا يبرهن للعالم بأن الإمام المعصوم والقائد الحقيقي هو الرجل الأعلم بشؤون الدين والثقافة والإدارة والسياسة ، وبالرغم من صغر سن الإمام كان ينبري في الإجابات مما يذهل الخليفة والقضاة ورجال الفكر وقاضي القضاة ـ آنذاك ـ كان يحيىٰ بن أكثم . فمثلاً حينما سأله يحيىٰ بن أكثم في حضور المأمون والقضاة ومجموعة من الناس قائلاً . أصلحك الله يا أبا جعفر ما تقول في مُحرِم قتل صيداً . . فقال الإمام ـ وهو ابن سبع سنين وأشهر ـ كما يدعي ابن الجوزي في تذكرته ـ «قتلَه في حلٍّ أو حرم، عالماً أم جاهلاً، قتله عمداً أو خطأ، حراً كان أم عبداً، صغيراً كان أم كبيراً، مبتدئاً بالقتل أم معيداً، من ذوات الطير كان الصيد أم من غيْرها، من صغار الصيد كان أم من كباره، مصراً علىٰ ما فعل أو نادماً، في الليل كان قتله للصيد في أوكارها أم نهاراً وعياناً، مُحرماً كان للعمرة أو للحج . . » فتحير يحيىٰ بن أكثم وانقطع انقطاعاً لم يخف علىٰ أحد من أهل المجلس وبان في وجهه العجز والانقطاع وتلجلج حتىٰ عرف الناس منه ذلك(٧٢) .

ثم أجاب الإمام الجواد (ع) علىٰ كل فرع من الفروع التي ذكرها بالتفصيل مما زاد في حيرة الحضور جميعاً . ثم طلب المأمون من الإمام الجواد أن يسأل يحيىٰ بن أكثم كما سأله فسأله فعجز عن الإجابة ـ وتفصيل بعض المناظرات موجود في كتب سيرة الأئمة (ع) ـ .

٣ ـ العمل الاجتماعي :

توسع الإمام جماهيرياً على طريقة الأئمة السابقين لأن العمل الاجتماعي هو الأرضية الطبيعية لصناعة التغيير والإصلاح والجهاد والثورة ومتى ما عزل الإمام أو أي مصلح آخر عن الجماهير فسيموت سياسياً وجهادياً أيضاً مثله مثل السمكة التي لا بد لها من الماء كي تسبح فيه والمؤمن المصلح لا بد أن يسبح في بحر الجماهير ليؤدي دوره بينهم ، والإمام هو القدوة الحسنة في كل القيم والصفات النبيلة .

٤ ـ العمل الثوري :

قامت في زمن الإمام الجواد عدة ثورات عَلَويّة مناهضة للحكم من أبرزها ثورة محمد بن القاسم فكان الإمام يغذّي هذه الثورات ويدفعها للعمل والكفاح المتواصل لتحقيق الأهداف المقدسة لذلك ما وجدت السلطة مَخْلصاً من تحرك الإمام إلا بتصفيته جسدياً وتم ذلك للمعتصم ببغداد .

## (١٠) ـ الامام علي الهادي (ع) ودوره القيادي:

( أ ) استلام الخلافة
(ب) استمرار الثورة الثقافية
(جـ) تحصين الخط الايماني
( د ) التأثير السلوكي والأخلاقي
(هـ) تأييد الثورات في عصره

### ( أ ) استلام الخلافة :

كانت خلافة الإمام علي الهادي تمتاز بقوة المؤمنين وتوسعهم في داخل المجتمع وداخل الدولة مما أرعب نظام المتوكل العباسي وجعل الخليفة المتوكل نفسه يهتم بهذا الأمر وبالفعل امتاز بالشدة والملاحقة والتصفية الجسدية لأنصار الإمام الهادي وكان النظام يراقب مواقع

تجمع المعارضة ليمنعهم من التواجد فيها ولما كان يُعتبر قبر الإمام الحسين الشهيد نبراس الثائرين والمظلومين فكانوا يجتمعون حول القبر يزورون ويتزودون صبراً وقوة وإصراراً علىٰ الجهاد والثورة لذلك أمر المتوكل بنبش القبر وحرثه ويذكر السيد الحسني رواية تاريخ ابن الأثير وتاريخ الطبري : أنه في تلك السنة هَدَم قبر الحسين بن علي وسوّاه بالتراب ثم أمر بحرث الأرض وزرعها لتضيع معالمه وقتل عدداً كبيراً من زواره وبالتالي فرض عليهم الضرائب وشتىٰ أنواع العقوبات ليُمنَعوا عن زيارته وكان يستهدف كسابقيه عزل الإمام عن الجماهير ومنعه من أداء دوره القيادي في الأمة وكان أسلوب النظام يمتاز بالعنف والحديد والنار فعلىٰ مستوىٰ القائد الإمام الهادي كان يؤخذ إلىٰ سامراء ليتم الإشراف عليه ومراقبته بشكلٍ مباشر. وعلىٰ مستوىٰ الجماهير كانت السلطة تلاحقهم عند قبر الحسين لتمثل بهم كضريبة طبيعية للزيارة المباركة .

المهم استلم الإمام الخلافة الشرعية وبدأ بدوره القيادي لذلك حاربوه وخافوا منه .

(ب) استمرار الثورة الثقافية :

في الأوساط الإسلامية استمر الإمام بإتمام الثورة الثقافية والفكرية التي سار عليها الأئمة (ع) من قبله فلذا تصدىٰ الإمام الهادي في فترته الطويلة من الإمامة لحل المعضلات الفلسفية التي صارت تثيرها المدارس الفكرية كالمعتزلة والأشاعرة وكانت الخلافة القائمة تتبنىٰ إحدىٰ المدرستين وذلك لأهداف سياسية معروفة حيث يؤتىٰ بالخصوم ويسأل مثلاً عن خلق القرآن ؟ هل هو قديم أم مخلوق؟، فإذا قال قديم فهنالك من يكفّره ويأمر بقتله لأنه سيؤمن بتعدد القدماء ولا قديم إلا الله . . وإن قال مخلوق فهنالك من يكفّره ويأمر بقتله لأنه يؤمن بأن القرآن مخلوق أي مختلق ليس وحي منزّل من قبل الله !.

وبهذا الأسلوب استطاع المتوكل وغيره من الحكام تصفية خصومهم وبالذات أبناء مدرسة الهادي لأنهم الخطر الحقيقي لسلطانهم .

**(جـ) تحصين الخط الايماني :**

تحصين المؤمنين عملية شاقة في أجواء الترف والبذخ والرئاسة وحينما قلنا ان الخط الايماني متغلغل في أجهزة النظام حيث أجواء الإدارة وحب التسلط والدنيا فمن الصعوبة ألاّ تلفهم عجلة الدنيا فيبتعدوا عن حالتهم الايمانية هذا من جانب ومن جانب آخر ان القائد الشرعي وهو الإمام نقل إلىٰ سامراء لتتم مراقبته ـ كما قلنا ـ ومن قبل الخليفة مباشرة . . وبمعنىٰ آخر عزل الإمام عن أجهزته القيادية وقواعده الشعبية ولكن وبالرغم من شدة الأمرين كان الإمام يدير الخطوط الايمانية بحنكة وذكاء حتىٰ أن الوشاة غالباً كانوا يرفعون تقاريرهم لدار الخلافة ضد الإمام وتحركه وارتباط الناس به وتسليم الإمام الحقوق والأموال الشرعية . . فكان الإمام يتدارك الأمر ويعالجه بالتحرك السري التام مع المؤمنين فمن ناحية كانت تتوسع القاعدة الاجتماعية ومن ناحية أخرىٰ كان يحصنها بأساليب الاتصال السري وبذلك حافظ علىٰ المؤمنين كقواعد شعبية وركائز إيمانية منتشرة في البلاد وكذلك حصّن الخط الإيماني المخترِق للسلطة القائمة بالإيمان والقدرة علىٰ الاستقامة .

وللتوضيح نذكر هذه القصة : حينما أُخبر المتوكل بتحرك قافلة من قم تحمل أموالاً للإمام الهادي أمر فتح بن خاقان وزيره وقائد جيشه لاتخاذ ما يلزم من تدابير أمنية تكشف له الأمر علىٰ واقعه ولكن باءت خطة المتوكل وأجهزته بالفشل وذلك لأن الإمام ـ أيضاً ـ علم بواسطة عناصره المؤمنة داخل النظام بالمكيدة والرصد ففوّت الفرصة علىٰ نظام المتوكل ولنترك التاريخ يتحدث لنا بنفسه : عن محمد بن داود القمي

ومحمد الطلحي قالا : حملنا مالاً من خمس ونذر وهدايا وجواهر اجتمعت في قم وبلادها وخرجنا نريد بها سيدنا أبا الحسن الهادي فجاءنا رسوله في الطريق أن أرجعوا فليس هذا وقت الوصول فرجعنا إلىٰ قم وأحرزنا ما كان عندنا فجاءنا أمره بعد أيام أن قد أنفذنا إليكم إبلاً عيراً فاحملوا عليها ما عندكم وخلوا سبيلها قال فحملناها وأودعناها الله فلما كان في قابل قدمنا عليه فقال : انظروا إلىٰ ما حملتم إلينا فنظرنا فإذا المنايح كما هي . . وبذلك فشلت محاولة النظام في كشف تحرك المؤمنين وجلب الأموال الشرعية إلى الخليفة الشرعي .

**( د ) التأثير السلوكي والأخلاقي :**

لم يترك الإمام تأثيره السلوكي والأخلاقي الرفيع علىٰ المؤمنين والمسلمين فحسب بل علىٰ الظالمين والفاسقين في بيت الخلافة أيضاً فهذه أم الخليفة المتوكل حين يمرض ابنها المتوكل تنذر إن عوفي تحمل إلىٰ أبي الحسن علي الهادي حملاً جليلاً من مالها وحينما بُشرت بعافيته ـ ذات مرة ـ حملت إليه عشرة آلاف دينار تحت ختمها واستعمل الإمام هذه الهدية غطاءً سميكاً ليستر تحركه الهادف فوضع الهدية علىٰ ما هي عليه ولما أُخبر المتوكل بوجود المال والسلاح عند الإمام أمر حاجبه سعيد أن يهجم عليه ليلاً ويأتي بما عنده من الأموال والسلاح قال سعيد الحاجب : صرت إلىٰ دار أبي الحسن بالليل ومعي سلّم فصعدت منه إلىٰ السطح ونزلت من الدرجة إلىٰ بعضها في الظلمة فلم أدر كيف أصل إلى الدار فناداني أبو الحسن من الدار (يا سعيد مكانك حتىٰ يأتوك بشمعة) وبالنتيجة لم يجد شيئاً وحمل هدية أم المتوكل البدرة والكيس المختوم وسيفاً من جفن غير ملبوس وذهبَ للمتوكل فأرسل إلىٰ أُمه فأخبرته بأنها نذرت له لشفائك . . . لاحظوا التأثير النفسي علىٰ الخليفة وبيت الخلافة ـ إنها انتفاضة روحية من الداخل ـ فأمر المتوكل أن يضم إلىٰ البدرة بدرة أُخرىٰ وأعاد سعيد

الهدايا إلىٰ الإمام معتذراً[٧٣] .

وكذلك حينما أُحضر الإمام الهادي في مجلس المتوكل ليلاً وهو علىٰ مائدة الخمر وفي يده كأس فلما رآه أعظمه وأجلسه إلىٰ جنبه . . . فناوله المتوكل الكأس الذي في يده فقال الإمام : والله ما خامر لحمي ودمي فاعفني منه فعفاه ثم قال له : أنشدني شعراً أستحسنه فاعتذر الإمام وقال إني لقليل الرواية للشعر فألحّ عليه ولم يقبل له عذراً فأنشده :

باتوا علىٰ قلل الأجبال تحرسهم ... غُلب الرجال فما أغنتهم القللُ
وآستنزلوا بعد عزٍّ عن معاقلهم ... فأُودعوا حفراً يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا ... أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمة ... من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصَحَ القبر منهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود ينتقل

واستمر الإمام (ع) ينشده شعراً من هذا النوع الذي لم يكن يتوقعه المتوكل والمتوكل يبكي بكاءً عالياً حتىٰ بلت دموعه لحيته وبكىٰ الحاضرون لبكائه ثم أمر برفع الشراب . . [٧٤] .

وهكذا عمت الثورة الأخلاقية أرجاء المعمورة الإسلامية بل وغزا الإمام بيت الخلافة وترك فيه آثاره الخلقية والنفسية علىٰ الظالمين أيضاً . . وحينما نقول ان الثورة الأخلاقية للإمام شملت الظالمين أيضاً فمن باب أولىٰ أنها كانت مركزة للخط الايماني المبارك ليبقىٰ في سوح العطاء والتضحية .

(هـ) تأييد الثورات في عصره :

فإنها كانت تحمل شعار ـ الرضا من آل محمد ـ يعني إمام أهل البيت وظهرت ما يزيد علىٰ عشرين تحركاً وانتفاضة في مختلف الأماكن في عصره من أهمها ثورة يحيىٰ بن عمر بن الحسين ذو الدمعة في خراسان فاعتقل ثم أُفرج عنه فثار في الكوفة ثورة عارمة وحكم فيها ونشر العدل حتىٰ قتل (رض) وكانت أكثر هذه الثورات بإشراف الإمام الهادي وتربيته مباشرة أو

بصورة غير مباشرة حتىٰ أن الخليفة المعتز بالله بالنتيجة حينما عجز عن احتواء الإمام وعزله عن الناس أو تحديد نشاطه بشكلٍ لا يؤثر علىٰ سلطانه ، أقدم علىٰ قتله بالسم ليموت شهيداً مسموماً وبذلك انتقلت الخلافة إلىٰ الإمام الحسن العسكري .

## ⑪ ـ الامام الحسن بن علي العسكري (ع) ودوره القيادي :

( أ ) استلام الخلافة

(ب) القيادة الروحية والفكرية والثقافية

(جـ) التأثير السلوكي والخلقي

( د ) تحصين المؤمنين بالسرية

(هـ) الاعداد لفترة الغيبة

( و ) تأييد الثورات

**( أ ) استلام الخلافة :**

كانت ظروف الإمام الحسن العسكري مشابهة لظروف أبيه الإمام الهادي حيث الإقامة الجبرية في سامراء للغرضيْن المعروفيْن وهما تشديد الرقابة عليه من ناحية ومن ناحية أخرىٰ عزله عن الناس ولكن الأئمة بذكائهم وقدراتهم الفائقة في الإدارة والتأثير كانوا يمارسون أدوارهم العبادية والسياسية والاجتماعية والاجتهادية بشكلٍ دقيق يحافظ علىٰ المصالح الإسلامية العليا ويبنون عناصرهم إيمانياً . .

فظروف إمامة الإمام الحسن العسكري هي امتداد لظروف الإمام الهادي وعلىٰ العموم استلم الخلافة وملك القلوب وأدىٰ الدور القيادي المطلوب منه علىٰ أحسن صورة .

**(ب) القيادة الروحية والفكرية والثقافية :**

وهذه القيادة لا ينازع الأئمة الكرام أحد من السياسيين والاجتماعيين وعلىٰ مر العصور فكان الإمام العسكري كمن سبقه من الأئمة المعصومين فهو المرجع الأعلىٰ للفكر الإسلامي والقضية الروحية والثقافية .

فكان يسأل الإمام أبو محمد العسكري عن كتب الفطحية والواقفة'

وغيرهم من المنحرفين فقال (ع) «خذوا ما رووا وذروا ما رأوا . . » وقد جمعت مدينة قم مئات الرواة والعلماء في عصره ممن تفرغوا لدراسة الحديث المروي وتصفيته من موضوعات (الخطابية والغلاة) وغيرهما من المنحرفين عن خط الأئمة والمتهمين بالكذب عليهم وكانوا يرجعون إلىٰ الإمامين الهادي والعسكري فيما أشكل عليهم أمره من الأحكام ولم يجدوا عليه نصاً فيما لديهم من مؤلفات أصحاب الأئمة السابقين ومروياتهم .

(جـ) التأثير السلوكي والخلقي :

فالتأثير مستمر علىٰ جماهير الأمة الإسلامية بالرغم من المحاولات الحثيثة لعزل الإمام عن عناصره وجماهيره ولكنهم ما استطاعوا فكان لوجوده المبارك أثره الكامل علىٰ نفسياتهم وسلوكياتهم بل علىٰ جميع طبقات المجتمع . فكانت عناصره علىٰ اتصال دائم معه فينقلون للناس أقواله وانطباعاته بشكل دائم وهذا التأثير لم يقتصر علىٰ مريديه بل تعدىٰ ذلك ليشمل أعداءه ـ أيضاً ـ فهذا عبيد الله بن يحيىٰ بن خاقان وزير الخلافة القائمة يقول في الإمام (ع) (. . ما رأيت ولا عرفت بسر من رأىٰ رجلاً من العلوية مثل الحسن بن علي . . . ، في هديه وسكونه وعفافه ونبله . . .) .

( د ) تحصين المؤمنين بالسرية :

في مسألة الاتصال والتحرك فيما بينهم ومسألة اختراق النظام أيضاً فلكي يحافظ الإمام علىٰ قواعده وأنصاره وعناصره المتقدمة في العمل والجهاد كان يعمّم أفكاره الأمنية ليسيروا ويعملوا بخفاء وسرية علماً بأنه في الاقامة الجبرية، فلذلك كان (ع) يحضر في بعض مجالس الخلافة ليثبت وجوده ويوهمهم بعدم وجود عقدة نفسية بينه وبينهم وليكتشف وضعهم الداخلي .

هذا من جانب ومن جانب آخر يفسح المجال لعناصره المزروعة في جسم الخلافة أن تمارس أدوارها المطلوبة بشكل تام وهم يرون قيادتهم الشرعية كيف تمتاز علىٰ القيادة المنحرفة بالمعرفة والعلم والقدرات

والإمكانيات الهائلة من جميع النواحي الإدارية والفقهية والسياسية .

يروي أحمد بن عبد الله بن يحيىٰ بن خاقان ـ وكان المعتمد قد استوزره ـ فقد جاء عنه إنه قال : كنت جالساً علىٰ رأس أبي في يوم مجلسه للناس إذ دخل حجّابه وقالوا : إن أبا محمد بن الرضا بالباب فقال بصوتٍ عالٍ إيذنوا له فتعجبت منه ومن جسارتهم أن يكنوا رجلاً بحضرة أبي ولم يكن يكنىٰ عنده إلا خليفة أو ولي عهد أو من أمر السلطان أن يكنىٰ فدخل رجل أسمر أعين حسن القامة جميل الوجه جيد البدن حديث السن له هيبة وجلال فلما نظر إليه أبي قام فمشىٰ إليه مستقبلاً ولا أعلمه فعل هذا بأحد من بني هاشم والقواد وأولياء العهد ولمّا دنا منه عانقه وقبّل وجهه وصدره ومنكبيه وأخذ بيده وأجلسه علىٰ مصلاه الذي كان عليه وجلس إلىٰ جنبه مقبلاً عليه بوجهه . . . (وبعد ذلك سأله) فقال له : ذاك يا بني إمام الرافضة الحسن بن علي . .

ومن ناحية أُخرىٰ كانت السرية هي القاعدة في تحرك عناصره المتقدمة فكان مثلاً عثمان بن سعيد العمري السمان وهو وكيل الإمام العسكري متستراً ببيع السمن(٧٥) .

وحينما اعتقل بعض أصحابه أبو هاشم ومحمد العمري وغيرهما أخبرهم الإمام بالحذر من أحدهم يدّعي كونه علويّاً ـ في الاعتقال ـ وفي ثيابه قصة كتبها للسلطان يخبره عن أحاديثكم وبالفعل كان ذلك . . فالإمام كان يتابع عناصره وقواعده ليحصنهم بالسرية والكتمان ومعرفة العدو واختراقه فلو تساءلنا من أين عرف الإمام هذا الشخص المدسوس معهم في السجن . . وعن طريقة إخباره للسلطان . بالفعل إنها قوة في الإدارة فالأخبار تأتيه بدقة من داخل أجهزة النظام وهذا التفسير الموضوعي المقبول الذي يرتضيه العقل والمنطق فالإمام يريد المحافظة علىٰ أفراده لذلك يستخدم ما يمكنه من طرق ومعلومات لتحقيق هذا الهدف السامي .

**(هـ) الإعداد لفترة الغيبة :**

فترة الغيبة المقبلة للخليفة القادم لا بد من تهيئة ثقافتها وأرضيتها فكان

الإمام العسكري يعلم بإلهامٍ إلهي غيبي أن القيادة الشرعية المتمثلة بولده المهدي من بعده ستغيب عن الأنظار فلذلك كان لا بد من التمهيد لهذه الخطوة العقائدية أي الإيمان بالإمام الغائب والاتصال به عبر وكلائه بالغيبة الصغرىٰ وبالغيبة الكبرىٰ أيضاً .

فكان الإمام يوصي أصحابه ويعلمهم ذلك ـ وأيضاً كان يتحدث للناس في هذا المضمار وبالفعل لقد هيّأ الإمام ظروفاً نفسية مناسبة لهذه الظاهرة الجديدة المنوّه لها في أحاديث النبي (ص) والأئمة قبل هذا الوقت أما مهمة الإمام العسكري فكانت أصعب لأنها مباشرة تتواجه مع الناس وهو والد الإمام المعد للغيب . .

فلذلك استمر الإمام العسكري في هدفه هذا ومارس الغيبة بنفسه فوكّل قيادة الأمة لبعض وكلائه وأمر الناس باتباعهم وكان يغيب عنهم فترة ويراسلهم بالمكاتيب والرسائل وهذا الأسلوب اتبعه الأئمة فيما سبق لعسر الاتصال بالناس بينما الإمام العسكري استعمله لتكريس فكرة الغيبة وتعميق الاتصال بالإمام عن طريق وكلائه فقد كان يختفي عن الأنظار ويحوّل الأمور إلىٰ الوكلاء من استلام الحقوق وتوزيعها وكان بالمراسلة يجيب علىٰ أسئلتهم وإشكالاتهم حتىٰ إن ابنه الإمام المهدي كان يخفيه عن الناس إلا للخواص ويحدثهم عنه وعن دوره في المستقبل وغيبته عن الأنظار ، روي عن أحمد بن إسحاق قال : دخلت علىٰ أبي محمد العسكري فقال لي يا أحمد ما كان حالكم فيما كان الناس فيه من الشك والارتياب ؟ قلت لمّا ورد الكتاب بخبر مولد سيدنا (ع) لم يبق منا رجل ولا امرأة ولا غلام بلغ الفهم إلا قال بالحق قال (ع) : «أما علمتم أن الأرض لا تخلو من حجة لله تعالىٰ» .

فبهذا الوعي خاض الإمام العسكري تجربته مما أربك الطغاة الحاكمين وبالذات المعتمد العباسي فبعد استشهاد الإمام العسكري وبأمر النظام الحاكم فَتشت السلطة دار الإمام بحثاً عن وريثه وولده خوفاً وذعراً من هذا المنقذ المنتظر .

والملاحظ أن الإمام العسكري علّم الناس فكرة الغيبة واعتبرها جزءاً من العقيدة الإسلامية باعتبارها جزء من الإمامة فكان يخاطب الناس ويوصي قواعده بالذات فمثلاً كان يقول : «. . لا يزال شيعتنا في حزن حتىٰ يظهر ولدي الذي بشر به النبي (ص) يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً» .

وفي الرواية ـ كتب أبو محمد الحسن (ع) ـ فتنة تظلكم فكونوا علىٰ أهبه . . .[٧٦] .

( و ) تأييد الثورات :

الإمام العسكري كالأئمة السابقين كان يقود ويؤيد المبادرات الجهادية الصادقة فما ترك ثغرة في قيادته للأمة روحياً واجتماعياً وسياسياً وجهادياً فكانت مهام الإمام العسكري تؤدّىٰ بشكلٍ طبيعي بالرغم من المهمة الصعبة ـ التي ذكرناها آنفاً ـ إعداد الناس لقبول فكرة الغيبة فإنه كان يشرف علىٰ الانتفاضات الشعبية والثورات الجهادية التي كانت تحدث في البلاد وخاصة لو عرفنا إن المؤمنين قد انتشروا وتوسعوا في عهد الإمام العسكري في أكثر البلدان من إيران والكوفة وبغداد والمدائن ومصر واليمن والحجاز وحتىٰ في سامراء العاصمة . . ولم يكن لهم مرجع سوىٰ الإمام أبي محمد العسكري . .

وحدثت ثورات في مصر وهرات ـ أفغانستان حالياً ـ والديلم ونيسابور وخراسان وهمدان والهند والكوفة والجبل ـ جبل عامل في لبنان ـ واليمن . . .[٧٧] .

وكانت ـ بشكل أو بآخر ـ تحت رعاية الإمام العسكري (ع) .

## ⑫ ـ الامام محمد بن الحسن المهدي المنتظر (عج) ودوره القيادي:

( أ ) مقدمة

(ب) إخفاء ولادته

(جـ) الإدارة الناجحة

( د ) الغيبة الصغرى

(هـ) الغيبة الكبرى

( أ ) مقدمة :

سبق وأن قلنا ان الإمامين الهادي والعسكري خطّطا لمرحلة غيبة الإمام المنتظر وبالذات والده الإمام العسكري فكان يعتزل الناس ويدفع بالوكلاء لاستلام المهام ضمن دورة تربوية هادفة حتى أن ولادة الإمام المهدي كانت مخفية عن الكثيرين . .

والسؤال المطروح لماذا الإخفاء ؟ ولماذا الغيبة ؟ وحينما نفهم الظروف السياسية المحيطة بالأئمة عموماً وبالذات بالإمام العسكري يتوضح لنا الجواب فقد كانت السلطة تلاحق الأئمة في كل مكان ـ كما مر معنا في قراءتنا السريعة لحياة أئمة أهل البيت ـ فكل الأئمة كانوا يلاحقون ويطاردون وأكثر من ذلك إن اتباعهم وأشياعهم على نفس المنوال حيث المطاردة والاعتقال والتعذيب والنفي ومن المؤكد أن هنالك أسباباً داعية لهذا التصرف وكلها تتمحور حول المصالح السياسية لأن الأئمة حينما سُلبوا موقعهم القيادي للأمة أي نافسوهم على سلطانهم الإلهي وأبعدوهم عن المسرح السياسي حينذاك صعد الممثلون المزيفون ليمارسوا الدور القيادي في الأمة الإسلامية ظلماً وعدواناً . . كل هذا العدوان أثّر على قيادة الأئمة السياسية مما لا شك فيه ولكن الأئمة بقوا في موقعهم القيادي للأمة ـ روحاً ومعنىً ـ فهم خلفاء الرسول الأكرم وهم القادة والأئمة للمسلمين قلباً وروحاً ـ وكما مر معنا ـ فهم مراجع الفكر الإسلامي والثقافة الواعية وهم حماة الدين والمجتمع ـ هذا من جانب . . ومن جانب آخر نلاحظ إجماع المسلمين على أن النبي (ص) والأئمة من بعده أكّدوا على ظهور إمام من أهل البيت بعد غيبته عن الأنظار ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً . . وفي هذا الصدد أحاديث كثيرة جداً عن النبي (ص) من الفريقين وكذلك عن الأئمة (ع) منها :

قال رسول الله (ص) «لا تقوم الساعة حتى تمتلىء الأرض ظلماً وعدواناً ثم يخرج رجل من عترتي فيملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً

وعدواناً» وقوله (ص) «لا تقوم الساعة حتىٰ يلي رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي».

وقال الإمام علي (ع) «. . . بمهديّنا تقطع الحجج فهو خاتم الأئمة ومنقذ الأمة ومنتهىٰ النور . . .»(٧٨).

وهكذا فإنه لو ظهر الإمام المهدي سيقطع دابر حكم المعتدين وتنتهي أسطورة الظالمين المتسلطين ومرّ معنا أيضاً أن بعض الخلفاء والولاة كانوا يعترفون علناً بأنهم قد غَصَبوا حق الخلافة من أئمة أهل البيت واستولوا علىٰ الموقع القيادي لذلك كرسّوا جهودهم لتصفية الأئمة والإمام المنتظر بالذات لوجود تلك الأرضية والأحاديث والروايات التي أوجدت ثقافة معينة في وسط الناس بأن الإمام المنتظر سيصفي حسابات الطغاة وينهي وجودهم بأمر الله تعالىٰ فلذلك اجتهدوا في تصفية الإمام المهدي بالضبط كما أراد فرعون وزمرته المتسلطة أن يقضوا علىٰ النبي موسىٰ (ع) وقد قال تعالىٰ : ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾

[سورة التوبة ٩ ؛ الآية : ٣٢]

ويقدم لنا الإمام الصادق تحليلاً في أمر الإمام المهدي وإخفاء ولادته بقوله : «أما مولد موسىٰ فإن فرعون لما وقف على أن زوال ملكه علىٰ يده أمر بإحضار الكهنة فدلوه علىٰ نسبه وأنه يكون من بني إسرائيل حتىٰ قتل في طلبه نيفاً وعشرين ألف مولود وتعذر عليه الوصول إلىٰ قتل موسىٰ بحفظ الله تبارك وتعالىٰ إياه ، كذلك بنو أمية وبنو العباس لما وقفوا علىٰ أن زوال ملك الأمراء والجبابرة منهم علىٰ يد القائم منّا ناصبونا العداوة ووضعوا سيوفهم في قتل آل الرسول (ص) وإبادة نسله طمعاً منهم في الوصول إلىٰ القائم ويأبىٰ الله عز وجل أن يكشف أمره لواحدٍ من الظلمة ﴿إلاَّ أن يتم نوره ولو كره المشركون﴾ فقد طاردوا الجواري في المنازل والدور تفتيشاً عن الإمام المهدي حتىٰ حفظوا جارية توهموا أنها حامل به مدة سنتين أو أكثر تحت

الرقابة النسائية . ولكن دون جدوىٰ لأن الإمـام محفوظ في عين الله كمـا قال سبحانه ﴿ولتصنع علىٰ عيني﴾ .

[ سورة طه ٢٠ ؛ الآية : ٣٩]

**(ب) إخفاء ولادته :**

لِمَا سبق عرفنـا ضرورة إخفـاء ولادة الإمـام المهـدي وضـرورة تضييـع اسم والدته وبهذه الطريقة استطاع الإمـام العسكري أن يُـربك النـظام ويجعله غيـر قادر علىٰ تشخيص الإمـام المهدي أو تشخيص أمـه بالـذات . . فحينمـا قيل لعثمان بن سعيـد ما الاسم قـال : إياك أن تبحث عن هـذا فإن عنـد القوم أن هذا النسل قـد انقطع وقـوله . . . وإذا وقـع الاسم وقع الـطلب فاتقـوا الله وامسكوا عن ذلك .

قـال المفيد ولم يخلف أبـوه ولداً ظـاهراً ولا بـاطناً غيـره وخلفـه غـائبـاً متستـراً وكانت سنـه عند وفـاة أبيه خمس سنين أتـاه الله فيها الحكمـة وفصـل الخطاب وجعله آية للعـالمين وآتاه الله الحكمـة كما آتـاها يحيىٰ صبيـاً وجعله إمـاماً في حـال الطفـولية الـظاهرة كمـا جعل عيسىٰ ابن مـريم في المهـد نبيّـاً وعمره إلىٰ يومنا هذا(٧٩) .

أمـا أمه فهي رومية تـدعىٰ سـوسن ونـرجس وريحـانـه وصقيله ولعلهـا كانت تعرف بين أفراد عائلة الإمام بنرجس(٨٠) .

وفي رواية أخرىٰ أن اسمها الأصلي مليكه .

وهـذا الاختلاف في اسم أم الإمـام له بعـده الأمني حيث أنهـا ستضيـع أمـام أعين المتسلطين فكان الإمـام يكتفي بـإعـلام الخـواص عن حـالـه وعن ولادة الإمام المهدي وإمامته فكان يشير للمخلصين من أصحـابه بـذلك ، عن محمـد بن عثمان العمـري (قـدس سـره) قـال : سمعت أبي يقـول سئـل أبـو محمـد الحسن بن علي (العسكري) وأنـا عنده ـ من الحجـة والإمـام بعـدك ؟ فقال : ابني محمد وهو الإمام والحجـة بعدي من مـات ولم يعرفـه مات ميتـة جـاهلية أمـا أن له غيبـة يُحار فيهـا الجاهلون ويهلك فيهـا المبـطلون ويكـذب

فيها الوقّاتون ثم يخرج[٨١] .

فإذن استطاع الإمام العسكري بخطته هذه أن يحافظ على الإمام المهدي من العدوان وأن يبيّن لخواصه القيادة الشرعية لكي تتجنب الأمة أنواع الحكام المزيفين والسلطة الجائرة أو وعاظ السلاطين ومحبّي الرئاسة والتسلط أمثال جعفر بن علي وهو أخو الإمام العسكري حيث ادّعىٰ الإمامة زوراً بعد أخيه الحسن .

(جـ) الإدارة الناجحة :

اتبع الإمام أسلوب الوكلاء في الإدارة حيث أن الإمامين الهادي والعسكري مهّدا للعقيدة بالإمام الغائب ـ كما قلنا ـ وصعّدا من تلامذتهم المخلصين لإدارة شؤون الأمة فقهياً ومالياً وسياسياً وقد مرّ معنا ذلك فكانت الأمة الإسلامية مستعدة لهذه الحالة الجديدة وهي حالة غياب الإمام الأصل وربط الأمور بيد الوكلاء بل كانت أمنية الناس المؤمنين أن يبقىٰ الإمام بعيداً عن متناول السلطة الحاكمة في حالة الأمن والسلامة ويرتبطون به بشكلٍ خفي وبالفعل كانوا يراجعون الوكلاء بشكلٍ طبيعي ولذلك عيّن الوكلاء الأربعة المتتالين لإدارة الأمة في مرحلة انتقالية هي مرحلة الغيبة الصغرىٰ تمهيداً لوضع أسس الوكالة الشرعية العامة للإمام ، في فترة الغيبة الكبرىٰ ، المهم في الغيبة الصغرىٰ كان يظهر الإمام لخواصه ووكلائه وكانت تظهر تواقيعه علىٰ كتبه ورسائله لحل المعضلات الفقهية والاجتماعية . . واستمر الأمر هكذا حتىٰ عصر الغيبة الكبرىٰ .

( د ) الغيبة الصغرىٰ :

نعتبرها مرحلة انتقالية لتهيئة الأجواء النفسية والاجتماعية لتقبّل مرحلة الغيبة الكبرىٰ فكان الوكلاء في الغيبة الصغرىٰ هم الوكلاء الخاصّون وضمن فترات زمنية متتالية فكان التعيين من قبل الإمام لهم وهم :

١ ـ عثمان بن سعيد العمري

٢ ـ محمد بن عثمان العمري

٣ ـ الحسين بن روح

٤ ـ علي بن محمد السمري ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ .

وكان هؤلاء الوكلاء في بغداد عاشوا ودفنوا فيها وهذا التحول من سامراء حيث بيت الإمام العسكري إلىٰ بغداد هو بحد ذاته كان جيداً من الناحية الأمنية فقد تحوّل الاتصال مع الناس إلىٰ بغداد بدلاً عن سامراء ـ حيث الوكلاء الخاصون في بغداد ـ واستمرت الغيبة الصغرىٰ تسعاً وستين عاماً وستة أشهر وخمسة عشر يوماً وعمر الإمام آنذاك أربع وسبعون عاماً .

(هـ) الغيبة الكبرىٰ :

ترك لنا الإمام المهدي (عج) أسساً وقيماً علمية وإيمانية معينة تؤهل الشخص بشروط خاصة لوكالة الإمام العامة وما نسميه اليوم بالعلماء المراجع فهم قادة الأمة بالوكالة العامة عن الإمام المهدي وتبقىٰ هذه القيادة بامتيازاتها الفريدة هي الممثل الشرعي لخلافة الرسول والأئمة (ع) فهي تمتاز بالشرعية في زمن الغيبة الكبرىٰ وحتىٰ قيام دولة المهدي فعن الإمام العسكري «فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً علىٰ هواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه. . .»[٨٢] .

فمراجع التقليد ـ اليوم ـ هم الامتداد الطبيعي للقيادة الشرعية فهم يملكون حق الولاية علىٰ المسلمين بالنيابة العامة وتستمر هذه القيادة المحصنة بالشروط الإجمالية الأربعة في الرواية الماضية وروايات أخرىٰ كذلك في هذا الصدد وإلىٰ أن تقوم حكومة المهدي ـ جعلنا الله من أنصاره وأتباعه ـ .

وبهذا استطعنا أن نغطّي مساحة من الحديث عن الأئمة (ع) كركيزة رابعة من ركائز العقيدة الإسلامية المباركة وإن كانت هذه التغطية غير شاملة ولكني

أراها بالحجم المناسب لهذه الرسالة العقائدية . . وألفت الانتباه إلىٰ أهمية النقطة الأخيرة وهي قيادة المراجع ـ لأنها مسألة مصيرية وبحاجة إلىٰ حديث وافي نحيله إلىٰ وقته المناسب ـ فلا بد من معرفة المراجع بأنهم الوكلاء العامون للقيادة الشرعية ولا بد من إطاعتهم إطاعة تامة في العبادات والمعاملات وقضايا التحرك والجهاد والإصلاح وهذا على مجمله نرجو أن يكون نافعاً .

(١) عقائد المظفر ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) الأحاديث والروايات كلها من ميزان الحكمة ج ١ ص ١٦١ ـ ١٧٣ .

(٣) نقلاً عن أصول الكافي ج ٢ ص ٥٩٩ .

(٤) نقلاً عن تفسير الصافي ج ١ ص ٣٩ .

(٥) ميزان الحكمة ـ ري شهري ج ١ ص ٢٠٨ .

(٦) نفس المصدر ج ١ ص ١٦١

(٧) مجمع البيان للطبرسي المجلد الثاني الجزء الخامس ص ١٣٨ .

(٨) ميزان الحكمة ج ١ ص ١٧٢ .

(٩) أصول الكافي ج ١ ص ١٧٢ وحق اليقين ص ٨٧ .

(١٠) ميزان الحكمة ج ١ ص ١٧٠ .

(١١) نقلاً عن أصول الكافي ج ٢ ص ٤ .

(١٢) ميزان الحكمة ج ١٠ ص ١٩٧ .

(١٣) نفس المصدر ج ٧ ص ٤٦٣ .

(١٤) كما ورد في كنز العمال ج ٦ ص ٣٩٧ وغيره .

(١٥) حق اليقين ص ٨٦ .

(١٦) كلها من ميزان الحكمة ج ١ ص ١٥٩ وص ١٩١ ـ ١٩٧ ، ص ١٧٣ على التوالي

(١٧) نقلاً عن الشيخ مغنية ص ٣٧ العلامة الحلي في شرح التجريد ص ٢٥٠ .

(١٨) ميزان الحكمة ج ١ ص ١٩٠ ـ ١٩٢ .

(١٩) عقائد المظفر ص ٦٧ .
(٢٠) ميزان الحكمة ج ١ ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .
(٢١) عقائد المظفر ص ٦٨ .
(٢٢) ميزان الحكمة ج ١ ص ١٧٣ ـ ١٩٨ (كل الأحاديث والروايات) .
(٢٣) ميزان الحكمة ج ١ ص ١٧٦ ـ ١٧٨ .
(٢٤) القيادة الإسلامية ـ جواد كاظم ص ٨١ .
(٢٥) المحجّة البيضاء ج ١ ص ٥ بالتقدمة .
(٢٦) القيادة الإسلامية ص ٨٤ .
(٢٧) ميزان الحكمة ج ٦ ص ٥٤٦ .
(٢٨) ميزان الحكمة ج ١ ص ٢١٠ ـ ٢١٣ .
(٢٩) حق اليقين ج ١ ص ١٩٨ .
(٣٠) نقلاً عن منتخب الأثر ص ١٠١ .
(٣١) حق اليقين ص ٢٠١ .
(٣٢) اليمين واليسار في الإسلام ص ٤٢ .
(٣٣) ميزان الحكمة ج ١ ص ١٦٥ ـ ١٦٨ .
(٣٤) من وحي الثورة الحسينية ـ للحسني ص ٢٥ .
(٣٥) ميزان الحكمة ج ٥ ص ٢٠٠ .
(٣٦) نفس المصدر ج ١ ص ٢٣٥ .
(٣٧) مقتل الخوارزمي ص ١٨٩ ج ١ .
(٣٨) الإرشاد للمفيد ص ١٠٧ ـ ١١٠ .
(٣٩) تذكرة الخواص ص ١٣٧ .
(٤٠) الإرشاد للمفيد ص ١١١ ـ ١١٣ .
(٤١) تذكرة الخواص ص ١٣٤ بتصرف .
(٤٢) نفس المصدر ص ١٢٣ وما بعدها .
(٤٣) القزويني ـ علي من المهد إلى اللحد ص ٤٢١ .
(٤٤) تصنيف نهج البلاغة ـ بيضون ص ٣٣٥ .
(٤٥) القزويني ـ علي من المهد إلى اللحد ص ٤١٢ .
(٤٦) تصنيف نهج البلاغة ص ٣٤٨ .
(٤٧) نفس المصدر ص ٣٠٠ .

(٤٨) البعث الإسلامي ـ السيد المدرسي ص ٦٩ .
(٤٩) نفس المصدر ص ١٧٤ .
(٥٠) تصنيف نهج البلاغة ص ٣٢٩ ـ ٣٣١ .
(٥١) ميزان الحكمة ج ١ ص ١٨١ .
(٥٢) الديوان الأول ـ للشيخ الوائلي ص ٤٠ .
(٥٣) مقتل الحسين ـ للمقرم ص ٥٥ .
(٥٤) نفس المصدر ص ٢٥٨ .
(٥٥) ميزان الحكمة ج ١ ص ١١٦ .
(٥٦) التاريخ الإسلامي ـ للمدرسي ص ٥٩ .
(٥٧) بحار الأنوار ـ للمجلسي ج ٤٨ ص ٢١٠ .
(٥٨) التاريخ الإسلامي ـ للمدرسي ص ١٣١ .
(٥٩) أسد حيدر ـ الإمام الصادق ج ٢ ص ٣٣٨ ، ٣٥٣ .
(٦٠) الكافي للكليني ج ٢ ص ٢٤٢ .
(٦١) أسد حيدر ـ الإمام الصادق ج ٣ ص ٤٨ .
(٦٢) التاريخ الإسلامي ـ للمدرسي ص ١٧١ .
(٦٣) سيرة الأئمة ـ للحسني ج ٢ ص ٣١٣ .
(٦٤) الحسني ـ سيرة الأئمة ج ٢ ص ٣٤٠ .
(٦٥) بحار الأنوار ج ١٢ ص ٢٧٨ .
(٦٦) الحسني ـ سيرة الأئمة ج ٢ ص ٣٥٨ .
(٦٧) عيون أخبار الرضا ـ للصدوق ج ٢ ص ١٤١ .
(٦٨) الحسني ـ سيرة الأئمة ج ٢ ص ٣٩٥ .
(٦٩) نفس المصدر ص ٣٦٠ ، ٣٧١ .
(٧٠) بحار الأنوار ج ٤٩ ص ١١٣ .
(٧١) الحسني ـ سيرة الأئمة ج ٢ ص ٤١٠ .
(٧٢) نفس المصدر ص ٤٤٨ .
(٧٣) نقلاً عن التاريخ الإسلامي للمدرسي ص ٣٦٩ ـ بتصرف ـ والقصة السابقة أيضاً .
(٧٤) الحسني ـ سيرة الأئمة ج ٢ ص ٤٩١ .
(٧٥) نفس المصدر ص ١١٠ ـ ١١٧ .
(٧٦) التاريخ الإسلامي للمدرسي ص ٤٠٣ .

(٧٧) نفس المصدر ص ٤٠٦ .

(٧٨) ميزان الحكمة ج ١ ص ٢٧٨ .

(٧٩) السيد الأمين ـ المجلد الثاني القسم الخامس ص ٦ ، ٧ .

(٨٠) الحسني ـ سيرة الأئمة ج ٢ ص ٥٣٨ .

(٨١) ميزان الحكمة ـ ري شهري ج ١ ص ٢٧٧ .

(٨٢) نفس المصدر ج ٨ ص ٢٥٨ .

## الفصل الخامس

# المعاد في يوم القيامة

ويشمل بحث المعاد ما يلي :

**أولاً : المقدمة :**

**ونبحث في المقدمة العناوين التالية :**

**١ ـ كلمة قبل البدء .**

**٢ ـ تعريف المعاد ، ومتى تبدأ رحلة الانسان نحو الآخرة .**

**٣ ـ النظرة إلى الموت ، كيف نعتقد بالموت ؟ وكيف نعتقد بالبعث ؟ .**

**٤ ـ هل البعث يوم القيامة بالروح أم بالروح والجسم معاً ؟ .**

**٥ ـ المعاد في القرآن والسنة .**

**ثانياً : لماذا المعاد ضرورة حياتية ؟ .**

**ونبحث هنا بعد التوطئة العناوين التالية :**

١ ـ المعاد ضرورة دينيــة .

٢ ـ المعاد ضـرورة فطريــة .

٣ ـ المعاد ضـرورة فلسفيــة .

٤ ـ الحكمة والضرورة العقليــة .

٥ ـ المعاد ضـرورة نفسيــة .

٦ ـ المعاد ضـرورة علميــة .

٧ ـ المعاد ضـرورة سلوكية أخلاقيّــة .

ثالثاً : ماذا بعدِ الموت في القبر وعالم البرزخ ؟ .

رابعاً : نهايــة الكـون .

خــامســاً : الحشــر والحيـاة في الآخـرة ، بحث في الجنة والنار .

سادساً : الشبهات والإجابة عليهــا .

# أولاً
# المقدمة

ونبحث في المقدمة العناوين التالية :

**١ ـ كلمة قبل البدء :**

المعاد هو الأساس الخامس من أُسس العقيدة الإسلامية ، والمعاد يوم القيامة يعني الإيمان بعودتنا للحياة بعد الموت وذلك للمحاسبة علىٰ ما عملناه في حياتنا الدنيوية من أعمال صالحة أو سيئة تحددها المحكمة الإلهية الكبرىٰ التي تمتاز بالدقة والضبط كما يقول سبحانه وتعالىٰ :

**﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾** .

[سورة الأنبياء ؛ ٢١ الآية : ٤٧] .

وهنالك يأخذ كل إنسان جزاءه المناسب . .

وبدراسة هذا الأصل العقائدي وهذا الأساس الخامس من العقيدة تنتهي أُصول الدين أي العقائد الإسلامية الأساسية ونظراً لتشابك الأفكار والرؤىٰ في هذا البحث أعني ـ المعاد ـ آثرنا هذه الطريقة لدراسة هذا الأصل بالشكل الذي أوضحنا هيكليته ـ آنفاً ـ لكي نستوعب ذلك بجد واخلاص وبساطة .

أما كيف نفسّر هذا التشابك للأفكار والرؤىٰ في هذا الأصل أظن أن

ذلك لأسباب عديدة منها لكون المعاد أمراً غيبياً ولكونه أمراً مستقبلياً يعني أنه ستقع أحداثه في المستقبل وهذا المستقبل غير مرئي الآن ، وأيضاً ـ إن هذا المستقبل ترسمه أعمالنا في الحياة الدنيا ـ ونقرأ في الحديث الشريف : «الدنيا مزرعة الأخرة» اضافة لذلك إن تحديد نقاوة الأعمال بنقاوة القلب وصفاء الروح وهذه الأمور خاضعة لإرادة الله تعالىٰ فهو القائل سبحانه في محكم كتابه العزيز :

﴿**يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**﴾ .

[سورة غافر ؛ ٤٠ الآية : ١٩] .

ولأن الأعمال الحسنة في الحياة والمجتمع مهددة بالضياع وعدم القبول ﴿**إنما يتقبل الله من المتقين**﴾ . فلرب خطيئة خُلُقية أو التواء في السلوك يرتكبه الإنسان وقد لا يشعر بذلك يكفي أن يحرقَ أعماله وينهيها بل يحوّلها من أعمال صالحة إلىٰ سيئة كارتكاب الغيبة والنميمة والفتنة ويمكن أن يحدث العكس وكلا الأمرين لا يخرجان من اطار العدالة الإلهية . إضافة لذلك ان توضيح نعيم الجنة وعذاب النار وعالم البرزخ وما يجري في القبر ومن يستحق النعيم ومن يستحق العذاب كل ذلك أمر خاضع لإرادة الله عز وجل وحكمته ورحمته فإذن نلاحظ أن الأفكار والآراء ـ كما قلنا ـ كثيرة متشابكة فقررنا أن نبحث هذا الأساس العقائدي في الإسلام بما نراه مناسباً ـ بالصورة المشار إليها ـ .

## ٢ ـ تعريف المعاد ، ومتى تبدأ رحلة الانسان نحو الآخرة ؟ :

المعاد : هو الإيمان بأن الله سبحانه سيعيدنا أحياءً بعد أن نموت ونفنىٰ من عالم الدنيا ويفنىٰ الكون كله وذلك في عالم آخر له مقاييسه لأخرىٰ قال تعالىٰ :

﴿**كل من عليها فان ، ويبقىٰ وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾ .

[سورة الرحمن ؛ ٥٥ الأيتان : ٢٦ ، ٢٧] .

ويذكر السيد شبر في كتابه (حق اليقين) : للمعاد ثلاثة معانٍ أحَدها المعنىٰ المصدري من العود وهو الرجوع إلىٰ مكان ، وثانيها وثالثها : مكان العود وزمانه ومآل الكل واحد[1] .

فإذن يتجلىٰ معنىٰ المعاد بأنه الاعتقاد بحياة أُخرىٰ بعد هذه الحياة الدنيوية سيبعثنا الله سبحانه من جديد يوم القيامة ، فالإنسان يموت في هذه الحياة بل وتنتهي هذه الحياة بما فيها لتبدأ مرحلة أُخرىٰ من مراحل الوجود فقد قال سبحانه :

﴿يوم نطوي السماء كطيّ السّجِلّ للكتب . . .﴾ .

[سورة الأنبياء ؛ ٢١ الآية : ١٠٤ .

وفي آية أُخرىٰ : ﴿كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون﴾ .

[سورة العنكبوت ؛ ٢٩ الآية : ٥٧] .

وهذا الاعتقاد هو الأصل الخامس ـ كما قلنا ـ من أُصول العقيدة الإسلامية ويعتمد في توضيحه علىٰ التصديق بالله وبرسالته المنزلة علىٰ النبي الأكرم محمد (ص) حيث إن القرآن الكريم وأحاديث الرسول (ص) وروايات الأئمة (ع) توضح لنا المعاد والبعث وما يجري بعد الموت وأوصاف الجنة والنار فالايمان بالله والتصديق بالرسول (ص) يضمنان إزالة الغموض ويوضّحان الاعتقاد الصحيح بالمعاد يوم القيامة أما الذي لا يؤمن بالله ورسوله فهو ـ من باب أولىٰ ـ لا يؤمن بالبعث والحساب والجنة والنار لأن الايمان بالحساب والجنة والنار يتفرع من الايمان الأصل وهو الايمان بوجود الله وقدرته ورسالته .

فلذلك صار من الضروري أن نبحث المعاد بحثاً يلائم الظرف والمقام لنفهم هذا الأصل من الأُصول الاعتقادية من جانب ومن جانب آخر يمكننا أن نتعرف علىٰ أبعاد هذا الاعتقاد وأثره في سلوكنا وحياتنا وهذا ما نلاحظه لدىٰ الإنسان المؤمن بالمعاد والإنسان المنكر له وسنوضح هذا الأمر في الاحاديث القادمة بإذنه تعالىٰ . .

### متىٰ تبدأ رحلة الإنسان نحو الآخرة ؟ :

يقول الرسول الأعظم (ص) ما خُلقتم للفناء بل خلقتم للبقاء وإنما تنقلون من دار إلىٰ دار[٢] .

بالتحديد تبدأ الرحلة إلىٰ العالم الآخر بالهجرة من الدنيا أي بالموت فحين يموت الإنسان يغادر هذه الحياة الدنيوية إلىٰ حياة أُخرىٰ فتبدأ مرحلة جديدة مرسومة له سلفاً وتمتد هذه المرحلة التي تلي مرحلة الدنيا حتىٰ قيام الساعة حيث يبعث الله من في القبور وسنتحدث عن عالم البرزخ ـ وهو ما بين الدنيا وقيام الساعة ـ وسنتحدث عما يجري في القبر في فقرات بحثنا القادمة .

ولرب مجيب عن هذه المساءلة بأن الرحلة للعالم الآخر تبدأ منذ انعقاد نطفة الإنسان في رحم أُمه حيث إنه يحسب أياماً وسنين بعد ولادته للدنيا فيرحل ليخلفه الجيل الصاعد .

ولكن الإجابة الواضحة أنها تبدأ بيوم الهجرة من الدنيا إلىٰ مراحل أُخرىٰ من حياته . . وإنها بالفعل لمرحلة مستقبلية محتومة تمر علىٰ كل إنسان وبما إن الشريعة الإسلامية هي شريعة شاملة لجميع الحياة بما في معنىٰ الحياة من سعة وشمول فتحتوي جميع فترات الإنسان وتدخل معه لتبين له الأمر بوضوح وهنا لا بد أن نشير بأن الإسلام هو المدرسة الواعية التي يتتلمذ فيها طلاب الآخرة وتضع هذه المدرسة من أولوياتها المسألة الاخلاقية حيث تحدد النظرة المطلوبة إسلامياً للدنيا وما فيها من إغراءات وشهوات فترسم لنا الشريعة الإسلامية الخط الواضح للتعامل مع ا لدنيا والطريقة الفضلىٰ للعلاقة مع الحياة الدنيوية ولا بد أن نعتبرها ممراً للحياة الأبدية في الآخرة وإن ما نعمله في الدنيا سنجني ثماره في الآخرة وكما ورد في الحديث الشريف : (الدنيا مزرعة الآخرة) فلا بد أن تأتي الأعمال بشكل يحقق طموح الإنسان في الأخرة فالدنيا مرحلة الزراعة والآخرة مرحلة الحصاد فمن زرع خيراً يحصد في الآخرة نعيماً ورضواناً ومن زرع

في الدنيا شراً ـ لا سمح الله ـ فيحصد بالآخرة عقاباً وهواناً . .

وتُعلّمنا المدرسة الإسلامية بأن ما يجنيه طالب الدنيا من أموال وأرباح واشباع للغرائز والحاجات فإنها زائلة لا محالة بالرغم من محدوديتها فالإنسان محدود في انتفاعه واستغلال رزقه لذلك يعرّفون الرزق بأنه القدرة علىٰ الانتفاع بخيرات الأرض مالاً وصحة وأولاداً وطبيعة لذلك فالإنسان محدود في انتفاعه بالأكل والشرب والمنام ومهما حصل علىٰ الملذات وفرصِ اشباع الغرائز فإنها غير خالدة . .

فما دام الإنسان مغادراً للدنيا ـ مهما بلغ من الوجاهة والثروة والسلطة ـ فعليه تأتي المدرسة الإسلامية لتبين طريقة التعامل مع الدنيا وطريقة التصرف الصحيح للنجاة والربح الحقيقي في الآخرة فتضع الأسس الاخلاقية والسلوكية العامة للابتعاد عن حب الدنيا والتعلق بها وبالتالي الابتعاد عن الانحراف والشذوذ والهلع واللهاث وراء المادة وتدفع الإنسان للاقتراب من الفضيلة والاحترام والايثار والتهذيب السلوكي والحب في الله لأنّ هذه السلوكية هي التي تجعل الإنسان المؤمن رابحاً في رحلته القادمة بعد الموت .

قال رسول الله (ص) : «المعاد مضمار العمل فمغتبط بما احتقر من العمل غانم ومبتئس بما فاته من العمل نادم» .

أما الإمام علي فيقول : (حتىٰ إذا تصرّمت الأُمور وتقضّت الدهور وأزف النشور أخرجهم من ضرائح القبور وأوكار الطيور وأوجرة السباع ومطارح المهالك سراعاً إلىٰ أمره مهطعين إلىٰ معاده)[٣] .

### ٣ ـ النظرة الايمانية إلى الموت ، كيف نعتقد بالموت ؟ وكيف نعتقد بالبعث ؟ :

مما لا شك فيه ان الموت يعني الانقطاع عن عالم اعتدنا عليه وجماعة ائتلفنا معهم فالفراق صعب لغياب أو سفر فكيف بفراقٍ طويل ولربما دون لقاء حتىٰ في الآخرة ومن يدري ذلك فالمهم يترك الموت أثره

النفسي لدىٰ الناس قهراً وانزعاجاً وارباكاً فورد في الأثر المبارك (وقهر عباده بالموت والفناء) ، فإذن الأثر الحزين الصادر من فكرة الموت ينعكس علىٰ النفس بنسب مختلفة ونحن نريد أن نتعرف علىٰ الرؤية المطلوبة إيمانياً نحو الموت وهل هنالك عدة رؤىٰ حول الموت كل رؤية تنظر للموت من زاوية معينة ؟ .

في الحقيقة ـ بلىٰ ـ فالمؤمن المتفهم للحياة والفكر الإسلامي يعتقد ان الموت نهاية طبيعية للحياة الدنيوية وينظر للموت نظرة اطمئنان وتحوّل من حياة لأخرىٰ من وضعٍ لوضع آخر من عملٍ إلىٰ حساب وبالفعل ينتظر الموت ويحسبه قادماً إليه في لحظةٍ ما وإنه ينتظر العطاء والنعيم في الآخرة أكثر بكثير مما يراه في الدنيا فهنالك الرحمة الإلهية الكبرىٰ في الجنة والحور والسعادة الأبدية قال سبحانه :

**﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّ لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار كلّما رزقوا منها من ثمرةٍ رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل . . .﴾** .

[سورة البقرة ٢ ؛ الآية : ٢٥] .

ـ طبعاً ـ هذه حالة المؤمن الواعي الحالة المجردة عن العواطف الوقتية من بكاء وجزع فإنهما ضمن المسألة الطبيعية في حدودها الشرعية ولا ضير فيها أما حديثي فهو عن الحالة النفسية والنظرة الإيمانية للموت الذي لا بد منه .

أما الإنسان غير المؤمن بعالم ـ ما وراء الطبيعة ـ والذي يعتقد بأن الدنيا هي التي خلق فيها ويموت فيها ولا شيء آخر بعد الموت . .

**﴿وقالوا إن هي إلاّ حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾** .

[سورة الأنعام ٦ ؛ الآية : ٣٠] .

فهكذا إنسان ينظر إلىٰ الموت نظرة سلبية قاتمة حيث سيخسر الميت

نعيم الدنيا من الهواء والماء والأشجار والأصدقاء ليسكن تحت تراب الأرض في الظلام والحرمان .

﴿ويوم يحشر أعداء الله إلىٰ النار فهم يوزعون . .﴾ .

[سورة فصلت ٤١ ؛ الآية : ١٩] .

لذلك نرىٰ ان الأمراض النفسية متفشية بشكلٍ مروّع بين هذا النمط من البشر فالقلق والاضطراب وعدم الاستقرار النفسي والفزع والتحسس من المفاجئات والأمراض بشكلٍ فظيع ـ بعكس المؤمن العارف ـ فقد قال عز وجل ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ .

وفي الرواية أنه : (دخل الإمام علي الهادي علىٰ مريض من أصحابه وهو يبكي ويجزع من الموت فقال له : يا عبد الله تخاف من الموت لأنك لا تعرفه أرأيتك إذا آتسخت وتقذّرت وتأذّيت من كثرة القذر والوسخ عليك واصابك قروح وجَرَب وعلمت أن الغسل في حمام يزيل ذلك كله أما تريد أن تدخله فتغسل ذلك عنك أو ما تكره أن لا تدخله فيبقىٰ ذلك عليك ؟ قال : بلىٰ يا بن رسول الله قال : فذاك الموت هو ذلك الحمام وهو آخر ما بقي عليك من تمحيص ذنوبك وتنقيتك من سيئاتك فإذا أنت وردت عليه وجاوزته فقد نجوت من كل غمٍّ وهمٍّ وأذىٰ ووصلت إلىٰ كل سرور وفرح فسكن الرجل واستسلم ونشط وغمّض عين نفسه ومضىٰ لسبيله)[٤] .

وما بين الإنسان المؤمن المطمئن وبين الإنسان غير المؤمن بالآخرة والحساب مجموعة تصورات يقترب بعضها للإنسان المؤمن ويقترب بعضها الآخر لغير المؤمن في النظرة إلىٰ الموت ولربما تكون نظرة أُخرىٰ للموت وهي النظرة الشائعة بين الناس التي تمتاز بالتأثير الوقتي حين مشاهدة مصيبة الموت أمام العيان وحين زوال المشهد تعود حالة اللا انضباط بل الانفلات الخلقي ونسيان الحساب والآخرة .

**أما كيف نعتقد بالموت ؟ وكيف نعتقد بالبعث يوم القيامة ؟ :**

يقول الله سبحانه : **﴿كل نفس ذائقة الموت ثمّ إلينا ترجعون﴾** .

[سورة العنكبوت ؛ ٢٩ الآية : ٥٧] .

فالموت ظاهرة حياتية يجب الإيمان بها ولكن بعض الناس يحاول أن يتناسىٰ أو يهمل ذكر الموت وكأنّه غير مستعد لهذه الرحلة التي لا بد منها وأكثر من ذلك إنه غير مستعد للتفكير حول الموت بل يهرب من مشاهدة ميت أو تشييعه مبرراً ذلك بكثرة انشغاله بزخارف الدنيا وأعمالها . . . وهؤلاء عادة يصطدمون بالموت حين يحل بواديهم ومن المؤكد أن سلوكيات هذا البعض تمتاز بالحيرة والقلق واللهاث نحو الدنيا بعيدين عن النبل والخلق الرفيع علىٰ عكس عباد الرحمٰن : **﴿وعباد الرحمٰن الذين يمشون علىٰ الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾** والمفروض علىٰ المؤمن أن يذكر الموت دائماً ليستقيم خلقياً ويتهيأ لفراق الدنيا والرحلة الطويلة نحو الآخرة فهي رحلة شيقة ـ حسب نظره ـ من عالم السجن إلىٰ عالم الحرية فـ (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) كما ورد في الأثر المبارك .

يقول الرسول الأعظم (ص) : «أكثروا ذكر الموت فإنه يمحّص الذنوب ويزهد في الدنيا»[٥] .

وعن الصادق (ع) قال : (ذكر الموت يميت الشهوات في النفس ويقلع منابت الغفلة ويقوي القلب بمواعد الله ويرقّ الطبع ويكسر اعلام الهوىٰ ويطوي نار الحرص ويحقر الدنيا)[٦] .

ويقول الرسول محمد (ص) : «إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته فاعبدوا الله كأنكم ترونه واستغفروه كل ساعة» .

وقال الإمام علي : (الموت باب الآخرة) و (بالموت تختم الدنيا) (الموت هادم لذاتكم ومكدر شهواتكم) ومن وصاياه لولده الحسن : (اعلم يا بني إنما خلقت للآخرة لا للدنيا وللموت لا للحياة . .) .

وقال ـ أيضاً ـ : (أنتم طرداء الموت إن أقمتم له أخذكم وإن فررتم منه أدرككم وهو ألزم لكم من ظلكم ، الموت معقود بنواصيكم)[٧] .

فإذن الإنسان (وكل كائن حي) لا بد أن يموت في ساعة معينة والآن ماذا بعد الموت ؟

يقول الشاعر :

الموت باب وكل الناس داخله ... يا ليت شعري بعد الباب ما الدارُ؟
الدار جنات عدن إن علمت بما ... يرضي الإله وإن قصّرت فالنارُ

عرفنا أن الموت حق والبعث حق ولكن ماذا هنالك ؟ :

يقول العلامة المظفر: نعتقد أن الله تعالىٰ يبعث الناس بعد الموت في خلق جديد في اليوم الموعود به عباده فيثيب المطيعين ويعذّب العاصين وهذا أمر علىٰ جملته وما عليه من البساطة في العقيدة اتفقت عليه الشرائع السماوية والفلاسفة ولا محيص للمسلم من الاعتراف به عقيدة قرآنية جاء بها نبيناً الأكرم (ص)[٨] .

ويتساءل ربنا عزّ وجلّ بقوله : **﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾** .

[سورة البقرة ٢ ؛ الآية : ٢٨] .

وقال في سورة الحج : **﴿وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور﴾** .

[سورة الحج ٢٢ ؛ الآية : ٧] .

وجاء في السنة الشريفة قول الرسول الأكرم (ص) «يا بني عبد المطلب إن الرائد لا يكذب أهله والذي بعثني بالحق لتموتنّ كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون وما بعد الموت دار إلا جنة أو نار وخلْق جميع الخلق وبعثهم علىٰ الله عز وجل كخلق نفس واحدة وبعثها قال الله تعالىٰ : **﴿وما خلْقكم ولا بعثكم إلاّ كنفس واحدة﴾** .

وكـان فـيمـا وعظ لقمـان ابنـه أن قـال : يـا بني إن تـكُ في شـك من المـوت فـارفـع عن نفسـك النـوم ولن تستـطيـع ذلـك وإن كنت في شـك من البعث فـارفع عن نفسـك الانتباه ولن تستـطيع ذلك . عن الإمام البـاقر (ع) :
وعنه أيضاً (ع) في قوله تعـالى : ﴿يا ويلنـا من بعثنا من مـرقدنـا﴾ فإن القـوم كـانوا في القبـور فلما قـاموا حسبـوا أنهم كـانـوا نيـامـاً قـالـوا : من بعثنـا من مرقدنا ؟ قال الملائكة : ﴿هذا ما وعد الرحمٰن وصدق المرسلون﴾[9] .

وقـال سبحانـه أيضاً : ﴿فـانـظر إلىٰ آثـار رحمـة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتىٰ﴾ .

[سورة الروم ٣٠ ؛ الآية : ٥٠] .

فـإذن ظاهـرة الموت حيـاتية طبيعيـة ولا بد من الاستعـداد النفسي لها (اعمـل لدنيـاك كأنـك تعيش أبداً واعمـل لآخرتـك كأنـك تموت غـداً) ـ كما يقول الإمام علي ـ فـالموت والبعث يـوم الحساب ظـاهرتـان طبيعيّتان ستمّـر بهما ولا بد من الاستعداد لهما بالشكل المطلوب .

## ٤ ـ هل البعث سيكون بالروح أم بالروح والجسد معاً ؟ :

في الحقيقة هنالك اختلاف في وجهات النظر إتجـاه هذه المسـألة وكـل وجهـة نـظر لهـا أصحـابهـا وهؤلاء لهم أدلتهم علىٰ مـا يـذهبـون إليـه ، قـال الـرازي في كتـاب نهـايـة العقول :قـد عــرفت أن من النـاس من أثبت النفس الناطقة فلا جرم اختلفت أقوال أهل العالم في أمر المعاد علىٰ وجوه أربعة :

أحــدهـا : قــول من قـال إن المعــاد ليس إلا للنفس وهــذا مــذهب الجمهور من الفلاسفة .

وثـانيهـا : قـول من قـال المعـاد ليس إلاّ لهـذا البـدن وهـذا قـول نفاة النفس الناطقة .

وثالثها : قول من أثبت المعاد للأمرين .

ورابعها : قول من نفىٰ المعاد عن الأمرين .

وغرضنا إثبات المعاد البدني للناس فيه قولان :

**أحدهما** : إن الله تعالىٰ يعدم أجزاء الخلق ثم يعيدها .

**وثانيهما** : إنه تعالىٰ يميتهم ويفرق بين أجزائهم ثم قال إنه تعالىٰ يجمعها ويرد الحياة إليها . . . وقال العلاّمة (ره) في شرح الياقوت اتفق المسلمون علىٰ إعادة الأجسام خلافاً للفلاسفة(١٠) .

حيث إن الفلاسفة أرادوا أن يتحسسوا البعث الجسماني مقروناً بالروح فما استطاعوا ذلك بواسطة عقولهم الفلسفية ويؤكد بعض الفلاسفة أن الروح هي أساس الإنسان ولولا الروح لمات البدن فالاحساس الحاصل للإنسان إنما يحصل بواسطة الروح ووجود الروح في البدن فالبدن هو آلة تنفيذية خاضعة للروح أي أن البدن جهاز تنفيذي بيد الروح فالروح هي أساس الاحساس لدىٰ الإنسان وهذا الاحساس قد يكون لذيذاً أو أليماً باختلاف المؤثر وبخروج الروح عن البدن ـ بالموت مثلاً ـ ينتهي دور البدن بدفنه بالتراب وتحلّق الروح خالدةً في الجنة والنعيم أو تبقىٰ متألمة في النار والجحيم وإن لذة الروح أو ألم الروح إنما يتحققان حينما تبتعد أو تقترب عن رضا الله عز وجل يوم القيامة فكلما اقتربت الروح من رضوانه كانت حالة الاطمئنان والفرح وكلما ابتعدت كانت حالة القلق والذعر والألم وطبيعي ان القرب والبعد تحدده أعمال الإنسان في الدنيا ويجيب أمثال هؤلاء الفلاسفة عن الأيات القرآنية التي تجسد النعيم البدني أو العذاب الجسمي مثلاً يقول سبحانه في وصف بعض اللذائذ في الجنة :

**﴿حور مقصورات في الخيام، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، لم يطمثهنّ إنسٌ قبلهم ولا جان﴾** .

[سورة الرحمٰن ؛ ٥٥ الآيات : ٧٢ ـ ٧٤] .

ويقول أيضاً في وصف العذاب : **﴿فالذين كفروا قطّعت لهم ثيابٌ من نار يصبُّ من فوق رؤوسهم الحميم، يُصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد﴾** .

[سورة الحج ؛ ٢٢ الآيات : ١٩ ـ ٢١] .

يقولون إن أمثال هذه الآيات والأحاديث والروايات جاءت لتقريب الفكرة للإنسان والإنسان محدود الآفاق لا يستطيع أن يستوعب مدىٰ اللذة والألم في عالم الأرواح في الآخرة فيقربها الله إليه بهذا التوضيح والتقريب الحسي .

وبكلمة أخرىٰ إن العقل الفلسفي - لدىٰ البعض - ما استطاع أن يدرك المعاد الجسماني بينما العقل الإسلامي المنطلق من نصوص الشارع المقدس لا يستطيع أن يفهم المعاد بدون الجسم فقد قال المحقق (ره) الدواني في شرح العقائد العضدية (والمعاد أي الجسماني فإنه المتبادر عن اطلاق أهل الشرع إذ هو الذي يجب الاعتقاد به ويكفر من أنكره حتىٰ بإجماع أهل الملل الثلاث)[11] .

وحتىٰ أولئك الفلاسفة الذين ذهبوا إلىٰ كون المعاد روحياً لم يمتلكوا دليلاً قانعاً في أمرهم بينما الرأي القائل بعودة البشر روحاً وجسماً يوم القيامة هو رأي الإسلام عبر الشريعة الإسلامية في القرآن والسنة وسنذكر شواهد بعد قليل ، وعبر العقل الإنساني الذي يرىٰ قدرة الله عز وجل علىٰ كل شيء هذا الأساس العقائدي الذي يقوم عليه إيماننا بهذه القدرة الكبرىٰ فالتشكيك بالمعاد الجسماني إنما هو تشكيك في قدرة الله عز وجل حيث ان إعادة الإنسان جسماً وروحاً بعد موته في الدنيا إنما هو أمر ممكن عقلاً فالخالق سبحانه عالم قادر ومدبر .

نعم إن عقولنا - كما قلنا سابقاً - فيها من القصور ما يمنعها من إدراك بعض المسائل الغيبيّة ولكن العقل نفسه يعتقد بالقدرة الإلهية العظمىٰ القادرة علىٰ كل شيء وإعادة الإنسان يوم القيامة بالروح والجسم معاً شيء من الأشياء .

وأما الأدلة الشرعية علىٰ ذلك فالقرآن الكريم يذكر مسألة المعاد كثيراً وسنذكر بعض الشواهد من الآيات المباركة والأحاديث والروايات بصدد المعاد الجسماني .

قال تبارك وتعالىٰ : ﴿أو لم يرَ الإنسان أنا خلقناه من نطفةٍ فإذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلاً ونسيَ خلقه قال من يُحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرةٍ وهو بكلّ خلقٍ عليم﴾ .

[سورة يٰس ؛ ٣٦ الآيات : ٧٧ ـ ٧٩] .

قال المفسرون نزلت هذه الآية في أُبي بن خلف ، خاصم رسول الله (ص) وأتاه بعظم قد رمّ وبلي ففتّه بيده وقال يا محمد أترىٰ الله يحيي هذا بعد ما رمّ فقال (ص) : نعم ويبعثك ويدخلك النار[١٢] .

وهكذا نلاحظ الآية الكريمة تقرّب إلينا فكرة البعث الجسماني بالرد علىٰ هذا المستفهم الذي لا يدرك بعقله بدايات تكوينه وكيفية نشوئه يريد أن يدرك مستقبله الغيبي فالله سبحانه يبيّن بالآيات القرآنية وكذلك يبيّن الرسول (ص) والأئمة بالاحاديث الشريفة فنستخلص مما لا ريب فيه ان المعاد جسمي وروحي معاً فقد قال سبحانه : ﴿ويقول الإنسان أإذا ما متُّ لسوف أُخرج حياً ، أوَ لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾ .

[سورة مريم ١٩ ؛ الأيتان : ٦٦ ، ٦٧] .

وقال ـ أيضاً ـ : ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السمٰوات والأرض ولم يعي بخلقهنّ بقادرٍ علىٰ أن يحيي الموتىٰ . . .﴾ وفي آية كريمة أخرى : ﴿أيحسب الإنسان ألّن نجمع عظامه . . .﴾ .

[سورة القيامة ؛ الآية : ٣] .

فمن خلال هذه الآيات وأمثالها نفهم أن الله سبحانه يريد أن يزيل الشك من عقول الناس بقدرته الكبرىٰ ومن ثمّ لا يمكن أن نفهم معنىٰ لنعيم الجنة أو عذاب النار إلاّ بالمعاد الروحي والجسمي معاً . .

فيقول القرآن العظيم : ﴿كلّما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب . . .﴾ .

[سورة النساء ٤ ؛ الآية : ٥٦] .

وكـذلك في قـوله تعـالىٰ : ﴿فالـذين كفروا قـطِّعت لهم ثيـاب من نـار يُصبّ من فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما في بـطونهم والجلود، ولهم مقامـع من حديد . . .﴾ .

[سورة الحج ؛ ٢٢ الآيات : ١٩ ـ ٢١] .

وفي الأحـاديث والـروايـات الشـريفـة حينمـا نقـرأ النعيم في الجنـة من طعامٍ وحور عينٍ وانهارٍ لذة للشاربين كيف يمكن تصويـر ذلك من دون العـودة الجسميـة يوم القيـامة يـروي الطبـرسي (ره) في مجمع البيـان عن أبي أُمـامـة الباهلي إن رسول الله (ص) قال : «ما من عبد يدخـل الجنة إلاّ ويجلس عنـد رأسه وعند رجليـه اثنتان من الحـور العين يغنيانـه بأحسن صـوت . . .» وعن الصـادق (ع) عن آبائـه عن أمير المؤمنين قـال (ع) : في جملة حديث: (ومن صلىٰ ليلة تامة تـاليـاً كتـاب الله راكعاً وسـاجداً وذاكـراً وساق الحـديث إلىٰ أن قـال يقول الـرب تبارك وتعـالىٰ لملائكتـه انظروا إلىٰ عبـدي أحيىٰ ليلةً ابتغـاءً لمرضاتي اسكنوه الفردوس وله فيها مـائة ألف مـدينة في كـل مدينـة جميع مـا تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ومـا لا يخطر علىٰ بـال . . .)[١٣] وهكذا بـالنسبـة للروايات الواردة بصدد العذاب والجحيم ـ اعاذنا الله سبحانه من عذابه ـ .

ومن الأدلة الواضحـة في القرآن الكـريم ما ورد عن قصـة عُزيـر ، أنـه في يوم من الأيام كـان راكباً دابتـه وصادف منـظراً موحشـاً وعظامـاً نخرة لبشـر فتأمل في العـظام وبدأ يتسـاءل عن كيفية إحيـائها وقـد فنيت وفي هذه الحـالة قبض الله روحه وبعد مرور مائـة عام أعـاد الله إليه الحيـاة فقام من مقـامه وفي تصوره انه كان نائماً ليوم أو بعض يـوم فأمـره الله سبحانـه أن ينظر إلىٰ حمـاره الفـاني الذي بـدأت تدب الحيـاة في جسمـه المتـلاشي بـإذنـه تعـالىٰ ، قـال سبحانه :

﴿أو كـالذي مـرّ علىٰ قريـة وهي خاويـة علىٰ عـروشهـا قـال أنّىٰ يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه . . .﴾ .

[سورة البقرة ٢ ؛ الآية : ٢٥٩] .

هذه القدرة الإلهية وهذه التجربة العملية جاءت لتطمْئن قلوب الناس بقدرة الله أما الإنسان الذي لا يستطيع أن يتذكر تقلبه في رحم أمه ولا يعرف كيف ولد وكيف ترعرع في الحياة ، بهذا القصور العقلي يريد معرفة المعاد الجسمي وبإدراكه القاصر هذا يريد أن يرىٰ ذلك !! والإمام أمير المؤمنين يصف لنا مشهد المعاد بقوله : (حتىٰ إذا تصرّمت الأمور وتقضت الدهور وأزف النشور أخرجهم من ضرائح القبور وأوكار الطيور وأوجرة السباع ومطارح المهالك سراعاً إلىٰ أمره مهطعين إلىٰ معاده)[١٤] .

وعن هشام بن الحكم أنه قال الزنديق للإمام الصادق : أنّىٰ للروح بالبعث والبدن قد بلىٰ والأعضاء قد تفرقت فعضو في بلدة تأكلها سباعها وعضو بأخرىٰ تمزقه هوامها وعضو قد صار تراباً بنيَ به مع الطين حائط ! قال : (إن الذي أنشأه من غير شيء وصوّره علىٰ غير مثال كان سبق إليه قادر أن يعيده كما بدأه . . .)[١٥] .

والآن لنتساءل أي الأجسام يبعث للحساب ؟ فعلىٰ ضوء ما تقول الحقائق العلمية إن خلايا الجسم تتبدل حيث تتلف وتموت وتتولد محلها خلايا أخرىٰ وبمرور الزمن لعدة أعوام تتبدل جميع خلايا جسم الإنسان والسؤال أي الأجسام يبعث ليثاب أو يعاقب[١٦] .

في مدخل الإجابة لا بد أن نتذكر عدالة الله سبحانه وأنه لا يظلم أحداً : ﴿وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ .

[سورة النحل ؛ ١٦ الآية : ٣٣] .

فلو وضعنا ذلك نصب أعيننا نقول إن الله تعالىٰ سيعذب الروح والجسم معاً للإنسان العاصي وحينما نقول الإنسان العاصي نقصده بخلاياه المعروف بها وقت المعصية وهي التي تحافظ علىٰ شخصية الإنسان العاصي هذا ـ كما في المثال ـ فبالرغم من تبدل خلاياه لكن الإنسان يبقىٰ هو بعينه وشخصه بل شعورياً يعرف كذلك أي وجدانياً يشعر الإنسان أنه هو هو حتىٰ مع تبديل خلاياه البدنية والإنسان بذاته يشعر ويعرف أنه يحمل خصائص

ومميـزات جسمه وشخصـه حتىٰ بعد تبـديل خـلاياه أو تجـديدهـا هـذا القـدر الجامع لشخصية الإنسان الثابتة هـو الذي يخـرجه الله تعـالىٰ بقدرتـه من القبر المـدفون فيـه ذلك الجسم ليقف في يـوم الحساب الأكبـر جسمـاً وروحاً أمام المحكمة الإلهية الكبرىٰ والرواية الماضية للإمام علي توضح هذه الفكرة . .

## ٥ ـ المعاد في القرآن والسنة :

بما أن القرآن الكريم هو المصدر الرئيسي الأول للفكـر الإسلامي فمنـه تؤخذ الأسس العقائـدية ومن المفـروض أن نتعرف علىٰ رؤيـة القرآن المجيـد لهـذا المبدأ العقـائدي وهـو المعاد وبـالفعل نـرىٰ أن القرآن قـد اهتم بالمعـاد اهتماماً كبيـراً حتىٰ انه ذكـر المعاد وحيـاة الأخرة في أكثـر من ألف آية مبـاركة بمختلف مـظاهر المعـاد في يوم القيـامـة ويسـرد لنـا الكتـاب العـزيـز قصصـاً وتساؤلات وبراهين من زمن الأنبياء وأممهم في شأن المعـاد وكيفيته وسنحـاول أن نسلط الضـوء علىٰ بعض الآيات المبـاركة التي تتحـدث عن المعـاد وقبـل ذلـك أشير إلىٰ إحـدىٰ أهم الضـرورات النـاتجـة من الايمـان بـالمعـاد ويـوم الحسـاب وهي إن الايمان بـالمعاد والحسـاب الدقيق يـوم الحشر وإن الجـزاء العـادل الذي سيصيب الإنسـان سلبـاً أو إيجابـاً هـذا الإيمـان بحقيقـة الأمـر سيدفع الإنسان [illegible] محاسبة الذاتية المركـزة بين الحين والأخر خـوفاً من الفشـل الأكبـر هناك وبـالنتيجة يجهـد للحصـول علىٰ الاستقـامـة والتقـوىٰ والتضحيـة والصـدق في حياتـه وبمعنىٰ آخر إن هـذا الأساس العقـائـدي الـذي أولىٰ لـه القرآن الحكيم هذا الاهتمـام وبهذا الحشـد الكبير من الآيـات الكريمـة ليزرع فينا القيم الخلقية الأساسية والتي تعتبر القيم الإيجابيـة علىٰ كافـة الاصعدة ، الصعيـد النفسي والاجتمـاعي والفكـري ، لتسـود حـالـة النقـاء والصفـاء والمحـاسبـة الـذاتيـة للنفس والمجتمـع . ﴿وأمّـا من خـاف مقام ربّـهِ ونهىٰ النفس عن الهـوىٰ فـإنّ الجنـة هي المـأوىٰ﴾ والآن لنمض معـاً في رحـاب القرآن ونقرأ بعض الآيات في هذا الصدد :

قال تبارك وتعالىٰ : ﴿وما خلقنا السماءَ والأرض وما بينهما بـاطلاً ذلـك ظنُّ الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعـل الذين آمنـوا وعملوا

الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ .

[سورة ص ٣٨ ؛ الآيتان : ٢٧ ، ٢٨] .

وقال سبحانه : ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنّما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ .

[سورة إبراهيم ١٤ ؛ الآية : ٤٢] .

﴿فأما من طغىٰ، وآثر الحياة الدنيا، فإنّ الجحيم هي المأوىٰ، وأما من خاف مقام ربه ونهىٰ النفس عن الهوىٰ، فإنّ الجنة هي المأوىٰ﴾ .

[سورة النازعات ٧٩ ؛ الآيات : ٣٧ ـ ٤١] .

﴿وضرب لنا مثلاً ونسيَ خلقَه قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أوّل مرة وهو بكل خلق عليم﴾ .

[سورة يسۤ ٣٦ ؛الآيتان:٧٨ ـ ٧٩].

﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خيرٍ محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ .

[سورة آل عمران ٣؛ الآية : ٣٠] .

﴿فالذين كفروا قطّعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد . . . .﴾ .

[سورة الحج ؛ ٢٢ الآيات : ١٩ ـ ٢١] .

﴿ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ .

[سورة يوسف ١٢ ؛ الآية : ٥٧] .

﴿ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ .

[سورة النحل ١٦؛ الآية : ٤١] .

﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ .

[سورة البقرة ٢ ؛ الآية : ٤] .

﴿وإن الساعة آتية لا ريب فيها وأنَّ الله يبعث من في القبور﴾ .

[سورة الحج ؛ ٢٢ الآية : ٧] .

وتذكر بعض الآيات الكريمة ساعة القيام من القبور أي بداية المعاد مثلاً قوله تعالىٰ :

﴿ثم نفخ فيه أُخرىٰ فإذا هم قيام ينظرون﴾ .

[سورة الزمر ٣٩؛ الآية : ٦٨] .

﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلىٰ ربهم ينسلون﴾ .

[سورة يس ٣٦ ؛ الآية : ٥١] .

﴿ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ .

[سورة ق ٥٠؛ الآيتان : ٢٠ ، ٢١] .

﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير﴾ ، ﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج﴾ .

[سورة ق ٥٠ ؛ الآيتان : ٤٤ ، ٤٢] .

﴿وألقت ما فيها وتخلّت﴾ .

[سورة الانشقاق ٨٤ ؛ الآية : ٤] .

وورد في تفسير هذه الآية المباركة . . وألقت ما فيها من الموتىٰ والكنوز مثل ـ واخرجت الأرض أثقالها ـ عن قتادة ومجاهد (وتخلت) أي خلت فلم يبق في بطنها شيء وقيل معناه : ألقت ما في بطنها من كنوزها ومعادنها وتخلت مما علىٰ ظهرها من جبالها وبحارها[١٧] .

وآيات كريمة أُخرىٰ تتناول المعاد وحالة القيام وساعته يوم القيامة .

أما في السنة الشريفة فقد ورد المعاد في أحاديث النبي (ص)

وروايات الأئمة الأطهار (ع) نذكر منها :

إن رسول الله (ص) صلّىٰ بالناس الصبح فنظر إلىٰ شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه مصفراً لونه قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه فقال له رسول الله (ص) : «كيف أصبحت ؟ قال أصبحت يا رسول الله موقناً فعجب رسول الله (ص) من قوله وقال : إن لكل يقين حقيقة فما حقيقة يقينك ؟ فقال : إن يقيني هو الذي أحزنني وأسهر ليلي وأضمأ هواجري فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها حتىٰ كأني أنظر إلىٰ عرش ربي وقد نصب للحساب وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم وكأني أنظر إلىٰ أهل الجنة يتنعمون في الجنة . . . وكأني أنظر إلىٰ أهل النار وهم فيها معذبون مصطرخون وكأني الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي فقال رسول الله (ص)لأصحابه: « هذا عبد نوّر الله قلبه بالإيمان . . . »[١٨] .

وقال رسول الله (ص) : « المعاد مضمار العلم مغتبط بما احتقر من العمل غانم ومبتئس بما فاته من العمل نادم» .

وقال (ص) : « يا بني عبد المطلب إن الرائد لا يكذب أهله والذي بعثني بالحق لتموتنّ كما تنامون وتبعثنّ كما تستيقظون وما بعد الموت دار إلاّ جنة أو نار وخَلْق جميع الخلق وبعثهم علىٰ الله عز وجل كخلق نفسٍ واحدة وبعثها ، قال تعالىٰ : ﴿وما خلقكم ولا بعثكم إلاّ كنفس واحدة﴾ » .

وقال الإمام الباقر (ع) كان فيما وعظ به لقمان (ع) ابنه أن قال : (يا بُني إنْ تكُ في شكٍ من الموت فارفع عن نفسك النوم ولن تستطيع ذلك وإن كنت في شك من البعث فارفع عن نفسك الانتباه ولن تستطيع ذلك)[١٩] .

وعن عبد الله بن يزيد بن سلام أنه سأل رسول الله (ص) فقال : أخبرني عن القيامة لِمَ سُميّت القيامة ؟ قال : «لأن فيها قيام الخلق للحساب» .

ومن مواعظ علي بن الحسين (عليهما السلام) : (اعلم يا بن آدم أن

من وراء هذا أعظم وافظع وأوجع للقلوب يوم القيامة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود يجمع الله فيه الأوّلين والآخرين) وقال الإمام علي : (فإنّ الغاية أمامكم وإن وراءكم الساعة تحدوكم تخففوا تلحقوا فإنما ينتظر بأولكم آخركم) .

وهكذا نجد الكثير الكثير من الأحاديث والروايات الواردة عن النبي (ص) والأئمة الأطهار (ع) في توضيح ما يجري يوم المحشر وإنه حق ولا بد من يوم الحساب العادل حيث تحشر الخلائق للمحكمة الكبرىٰ .

وقال أيضاً: (أيها الناس إنا خُلقنا وإياكم للبقاء لا للفناء ولكنكم من دارٍ تنقلون فتزوّدوا لما أنتم صايرون إليه وخالدون فيه) .

وقال الإمام علي كذلك : (وأنتم والساعة في قَرَن . . . وكأنها قد أشرفت بزلازلها وأناخت بكلاكلها وانصرمت الدنيا بأهلها وأخرجتم من حضنها)[٢٠] .

فمجموع هذه الآيات والأحاديث والروايات ـ الموجودة في مصادرها المفصلة ـ تتناول المعاد من عدة جوانب لإثباته كمبدأ من مبادىء الإسلام وكما قلنا في المقدمة لأن المعاد أمر مستقبلي فلذا لا بد من توضيحه بشكلٍ يؤمن به الإنسان كواقع سيحصل في المستقبل هذا من جانب ومن جانب آخر تهتمّ النصوص المقدسة بتوضيح المعاد وتبيين الحقائق والوقائع التي ستحصل علىٰ الإنسان والمجتمع والدنيا كنهاية للحياة الدنيوية وبداية للعالم الآخر . . وكذلك تهتم هذه النصوص بإبراز جانب العدل الإلهي في تقييم الأعمال سلباً أو إيجاباً وفي داخل هذا التقييم تبدو الدرجات المتعددة . وكل ذلك يخضع للقانون الإلهي العادل يوم القيامة .

فإذن هو موضوع كبير يحوي عدة مواد يقربها القرآن وتسعىٰ السنة لتوضيح هذه الفكرة الاعتقادية .

# ثانيـاً
# لماذا المعاد ضرورة حياتية ؟

ونبحث هنا بعد التوطئة العناوين التالية :

١ ـ المعاد ضـرورة دينيـة .
٢ ـ المعاد ضـرورة فطريـة .
٣ ـ المعاد ضـرورة فلسفيـة .
٤ ـ الحكمة والضـرورة العقليـة .
٥ ـ المعاد ضـرورة نفسيـة .
٦ ـ المعاد ضـرورة علميـة .
٧ ـ المعاد ضـرورة سلوكية أخلاقية .

## تـوطئـة :

مـرت معنا الآيـات الكريمـة والأحاديث والـروايـات الشـريفـة وهنـالـك أمثـالها الكثيـر كلها تتحـدث عن العودة بعـد المـوت جسمـاً وروحـاً وبـذلـك تتجسـد فكـرة العـدل الإلهي كمـا بحثنـا ذلـك في فصـل ـ العـدل الإلهي ـ فهنالك يكون الميزان الدقيق والحساب التفصيلي علىٰ مـا فعلناه وأنجـزناه من أعمـالٰ ومشاريـع ونيّات وطمـوحـات علىٰ كـافـة الأصعـدة في مـرحلة الحيـاة الـدنيويـة فالـدنيا دار عمـل والآخرة دار حسـاب . . هذا مـا يؤمن به الإنسـان المسلم ولو أردنا توسيع الدائرة الإيمـانية بيـوم المعاد لـوجدنـا أن الإنسـان بمـا

هـو إنسـان مفكـر عـاقـل ـ مـع غض النـظر عن كـل مـا يؤمن بـه من شـرائـع وافكـار ـ إنـه يؤمن بفـطرتـه النقيـة وفي لاشعـوره الـطبيعي بضـرورة المعـاد والمحاسبة التفصيليـة وخاصـة حينما يـرىٰ الكون والـطبيعة والحيـاة كل ذلـك قائم علىٰ التوزيع العادل فلا بد أن تستكمل العدالـة أدوارها في رفـع المظالم والاقتصاص من الظالمين وهذا ما يتحقق بيوم المعاد فقد قال سبحانه :

**﴿أفنجعل المسـلمين كالمجرمين، ما لكم كيف تحكمون﴾** .

[سورة القلم ؛ ٦٨ الآيتان : ٣٥ ، ٣٦] .

وفي آية كريمـة أُخرىٰ : **﴿وفضّـل الله المجاهـدين علىٰ القاعـدين أجراً عظيماً﴾** .

[سورة النساء ؛ ٤ الآية : ٩٥] .

وفي سـورة الجاثيـة قولـه تعالىٰ : **﴿أم حسب الـذين اجترحـوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنـوا وعملوا الصالحـات سواءً محيـاهم ومماتهم سـاء ما يحكمون﴾** .

[سورة الجاثية ؛ ٤٥ الآية : ٢١] .

وقـال تبارك وتعـالىٰ في آية أُخـرىٰ : **﴿أم نجعـل الـذين آمنـوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض﴾** .

[سورة ص ؛ ٣٨ الآية : ٢٨] .

وعلىٰ هذه الحالة نلاحظ أن المعـاد أصبح ضـرورة حياتيـة متأصلة ممـا يشعر الإنسان بالفعل ، إنها ضرورة إيمانية فـالإيمان بـالمعاد ضـرورة إنسانيـة ملازمة .

أما الآن فلنسلط الضوء علىٰ بعض هذه الضرورات :

### ١ ـ المعاد ضـرورة دينيـة :

وكمـا بينّا في الآيـات القـرآنيـة والاحـاديث الصـادرة عن النبي (ص) والأئمـة (ع) فالـذي يعتقد بـالإسلام لا بـد أن يعتقد بـالمعاد يـوم القيامـة لأن

المعاد من عقائد الإسلام الأساسية يقول الشيخ المظفر : (فإنّ من يعتقد بالله اعتقاداً قاطعاً ويعتقد كذلك بمحمد رسولاً منه أرسله بالهدىٰ ودين الحق لا بد أن يؤمن بما أخبر به القرآن الكريم من البعث والثواب والعقاب والجنة والنعيم والنار والجحيم وقد صرّح القرآن بذلك ولمّح إليه بما يقرب من ألف آية كريمة . وإذا تطرق الشك في ذلك إلىٰ شخص فليس إلّا لشك يخالجه في صاحب الرسالة أو وجود خالق الكائنات أو قدرته بل ليس إلّا لشك يعتريه في أصل الأديان كلها وفي صحة الشرائع جميعها)(٢١) .

قال تعالىٰ : **﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ثم من نطفةٍ ثم من علقة ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلّقة . . .﴾** .

[سورة الحج ٢٢ ؛ الآية : ٥] .

وقال الإمام علي (ع) : (عجبت لمن أنكر النشأة الأخرة وهو يرىٰ النشأة الأولىٰ) .

وقال تبارك وتعالىٰ في آية كريمة : **﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أُخرىٰ﴾** .

[سورة طه ٢٠ الآية : ٥٥].

وهناك آيات وروايات عديدة في هذا الصدد تصف لنا المحشر ومواقف يوم القيامة وتصف المتقين والظالمين ـ أيضاً ـ نذكر منها :

قوله سبحانه : **﴿ولقد جئتمونا فرادىٰ كما خلقناكم أول مرة﴾** .

[سورة الأنعام ٦ ؛ الآية : ٩٤].

و**﴿يومئذٍ يصدر الناس اشتاتاً ليروا أعمالهم﴾** .

[سورة الزلزلة ٩٩ ؛ الآية : ٦].

و **﴿يوم نحشر المتقين إلىٰ الرحمٰن وفداً﴾** .

[سورة مريم ١٩ ؛ الآية : ٨٥].

﴿يوم يُنفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذٍ زُرقا﴾ .

[سورة طه ٢٠ ؛ الآية : ١٠٢] .

وقال رسول الله (ص) : «يموت الرجل على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه ، شعار الناس يوم القيامة في ظلمة يوم القيامة : لا إله إلّا الله» .

وقال الإمام الصادق : (من آثر الدنيا على الآخرة حشره الله يوم القيامة أعمى - وقال - أيضاً - من لقي المسلم بوجهين ولسانين جاء يوم القيامة وله لسانان من نار)[٢٢] .

فإذن نفهم ان المعاد ضرورة من ضرورات الدين الإسلامي - دون أدنى شك - .

## ٢- المعاد ضرورة فطرية :

إن الله سبحانه خلق الإنسان وأودع فيه الغرائز المعروفة أي جعله في حالة فطرية معينة مؤمن بقيم خاصة ومتطلبات وحاجيات نفسية معينة ومن طبيعته أنه يندفع نحو تحقيقها بشكل ما .

مثل الغريزة الجنسية فنحن نلاحظ منذ القدم أن الإنسان يسعى بكل ما أُوتي من قوة كي يشبع هذه الغريزة الفطرية بطريقة مستحسنة لدى النفس والمجتمع وهكذا جميع الحاجيات الفطرية فهو يبحث عن سبل تحقيقها بشكلٍ أو بآخر لذلك بعث الله سبحانه وتعالى الرسل والكتب السماوية ليتوّج هذه الفطرة بالطرق المشروعة لتحقيقها فحرّم الزنا واحل النكاح كما في مثالنا وسنّ طرقاً مشروعة للكسب المادي لذلك أحل البيع وحرم الربا وهكذا في بقية المتطلبات الفطرية الداخلية لدى الإنسان نرى مقابلها القانون الإسلامي القرآني الذي يعالجها ضمن الضوابط القانونية هذا ومما نراه فطرياً لدى الإنسان هو الإيمان بالمعاد والحساب بعد الموت فمنذ القدم وفي عصور الجاهلية الأُولى وضمن الشرائع غير السماوية نلاحظ قسطاً من

القوانين البشرية تعنىٰ بمسألة المعاد في يوم القيامة فلو تصفحنا التاريخ القديم في العصور اليونانية والرومية والمصرية والبابلية والأشورية . . . . لوجدنا أن المجتمع يعتني بالميت وله مراسيم خاصة ، وكل مجتمع بطريقته الخاصة يودع هذا الميت في قبره فبعضُهم يدفنه ومعه أجمل الملابس والعطور ولوائح الذهب والفضة والسبائك الثمينة وربما يحتفل البعض الآخر أياماً علىٰ قبره احساساً منهم بأن الميت لم يمت كلياً بل إنه انتقل إلىٰ عالم ثان وهذه العدة من الملابس والمطعومات يجهزونها له لكي يستفيد منها في حياته الثانية والغريب لدىٰ البعض من هؤلاء الأحياء انهم يضعون وسائل لعب الميت وبعض مسلياته إلىٰ جانبه في القبر ليتسلىٰ بها في حياته الثانية بعد استيقاظه من موتته ـ كما يظنون ـ ولا يمكنهم أن يؤمنوا بفناء الميت تماماً وانقراضه من الوجود فتبدأ ملاحقة الواحد للآخر فيلاحقون الميت ويلاحقهم هو الآخر بالشبح والحلم وفي هذا الصدد تنقل القصص العجيبة في تصرفات الإنسان الحي مع أخيه الميت وسلوكيات المجتمع مع الأموات وحينما نقرأ في معتقداتهم نراهم يؤمنون إجمالاً بحياة الميت بعد موته في الدنيا ويؤمنون بلا بدّية عودته في يوم عظيم يجتمع الناس فيه ويتم اللقاء الكبير هنالك ـ طبيعي هذا مجمل الاعتقاد ـ وفي الأثناء أُشير إلىٰ الخرافات والأساطير فإنها تسود هذا الفراغ العقائدي لديهم .

ولكن نقول إن مجرد هذا التصور لدىٰ عموم الناس لهو دليل علىٰ أن الفطرة الإنسانية تنطق بهذه الضرورة وتشير إلى هذه الحاجة الفطرية وهذا هو من استعدادات البشر الفطرية التي أودعها سبحانه وتعالىٰ في الإنسان لذلك توّجها بالإيمان الحقيقي الواضح بالمعاد والحساب يوم القيامة كما توّج الحاجة الفطرية إلىٰ الأكل والشرب والجنس بقوانين إسلامية مشروعة لغرض اشباعها . . .

وكما قلنا سابقاً إن مظاهر العدل الإلهي واضحة في الحياة الطبيعية والاجتماعية فنلاحظ الإنسان فطرياً يبحث عن طرق معينة لاستكمال هذه

المظاهر العادلة لأنه أمام صور المظالم يشعر باللوم والتأنيب في أعماقه يقول سبحانه :

﴿ . . ولا أقسم بالنفس اللوامة . . . ﴾ .

[سورة القيامة ؛ ٧٥ الآية : ٢] .

فالفطرة الإنسانية هي التي تحاكم الإنسان في تصرفاته وهذه الفطرة هي التي تشير إلىٰ إكمال مظاهر العدل وإعادة الحق إلىٰ صاحبه في يوم ٍ يجتمع فيه الناس وتجري المحكمة العادلة ويؤخذ حق المظلوم من الظالم ولو بقيت المسألة دون الإيمان بالمعاد والمحاكمة الكبرىٰ لبقيت صور العدالة الإلهية غير كاملة ـ لا سمح الله ـ .

### ٣ ـ المعاد ضرورة فلسفية :

من الطبيعي أن يكون المعاد ضرورة فلسفية لما قد رأينا من الضرورة الفطرية والمعروف ان الفلاسفة يتناولون الأمور الغيبيّة والنفسية غالباً وذلك ليضعوا أفكارهم ونظرياتهم وفقها وإن نظريات الفلاسفة تحاول أن تكون شاملة لجميع نواحي الحياة فلذلك نلاحظ إن اليونانيين مثلاً في اقدم العصور تناولوا مسألة الموت وبقاء الإنسان بعد الموت وانتقاله إلىٰ عالم ثانٍ ، له مقاييسه واحكامه وظروفه وهنالك تتقابل الأرواح وتتباحث وتعمل وفقاً لمقاييس خاصة وكأن تلك الحياة هي امتداد لهذه الحياة الدنيوية . . ونلاحظ أيضاً الإهتمام الكبير بمسألة الموت والميت فنشأت لدىٰ الفراعنة فكرة التحنيط فحنّطوا بعض موتاهم ليحفظوها من التفسخ ونشأت الأهرامات لديهم . .

إذن الفلسفة المثالية التي تعتني بما وراء الطبيعة أخذت بعين الاعتبار الحياة بعد الموت وما نجده لدىٰ الملحدين الماديين من أفكار منكرة للمعاد هذه الأفكار هي صادرة من ايمانهم بالمادة ومظاهرها وردود أفعال معينة ـ كما يطلقون عليها ـ (الفعل المنعكس الشرطي) بعيداً عن الروح والمتيافيزيقيا والحياة بعد الموت ويؤكدون أن الإيمان بالحياة الأخرة الهانئة إنما هو حلم

ربيعي يتمتع به الإنسان لامتصاص همومه وغضبه من قساوة الحياة وتوصله إلىٰ عالم الخيال والأوهام والأماني . .

والحقيقة ان مجرد هذا الرّد والنقاش في أصل الموضوع هو دليل علىٰ وجود هذه المعضلة الفلسفية لدىٰ الفلاسفة وفي كتبهم وآرائهم، هذا ومن دون مناقشة الفلاسفة الماديين نراهم يصطدمون بحقائق (ما ورائية) روحيّة أثناء حياتهم فهم يعجزون عن تفسيرها وتحليلها مادياً ـ ونحن ـ لسنا بصدد الردّ عليهم بل نريد أن نبيّن أن الحياة بعد الموت من ضرورات الفلسفة قديماً وحديثاً تصديقاً أو رداً لدىٰ جميع الفلاسفة والمفكرين بمختلف انتماءاتهم الأيديولوجية .

## ٤ ـ الحكمة والضرورة العقلية :

دعنا ننظر بدقة إلىٰ خلق العالم من أكبر مجرة كونية إلىٰ أصغر ذرة وفي حدود معرفتنا ترانا منبهرين أمام الدقة والعظمة بل لننظر إلىٰ أجسامنا وأجهزتنا الداخلية ماذا نرىٰ ؟ بالفعل نشاهد هنا الإنسان العجيب بكيانه وخلقه وأجهزته ونموه فكل جزء من أجزاء الإنسان بل كل عضو في جهاز من أجهزته مركب بحكمة ومصنوع بدقة يلفه وشاح العطف والعقل فهو رقيق في اللمس دقيق في التركيب مصنوع بحكمة عقلية كبيرة ومن وراء هذه الخلقة العظيمة يستهدف هدفاً معيناً . .

يكتب (سيل بويس هامان) أستاذ علم معرفة البيئة في كلية آسبوري قائلاً :

(عندما أرىٰ قطرة من الماء تحت الميكرسكوب وحينما أشاهد أبعد النجوم بالتلسكوب تأخذني الحيرة الشديدة).

إن النظام في الطبيعة متحكم تماماً بحيث يمكن علىٰ أساس منه أن نتنبأ بحكم أية حادثة قبل حدوثها وذلك بالقوانين الثابتة ولأجل كون الأحكام والقوانين الحاكمة علىٰ الطبيعة ثابتة ومعينة فإن العلماء يكافحون في سبيل

كشف القوانين الطبيعية وإلاّ فإن كل جهد في هذا المجال سيصبح عقيماً)[٢٣] .

هذا عن الحكمة في خلق الطبيعة ومن أراد التفصيل فليراجع الكتب المعنيّة بذلك اما عن الإنسان وأجهزته الداخلية نذكر مثالاً للتوضيح ـ ونكرر ـ من أراد التفصيل فعليه بالكتب المعنية والتي هي متوفرة ـ اليوم ـ ومثالنا غدة تيموس وهي غدة صغيرة في القفص الصدري وتقع فوق البلعوم وقد كانت المهمة الخاصة بها غير معلومة واعتبرها البعض من المتقدمين عضواً لا فائدة فيه ولكن قد علم اليوم بأن لهذه الغدة الدور الكبير في توفير الحماية والمقاومة والدفاع للبدن ضد العناصر الأجنبية المهاجمة له وأما غدة (أبي فير) وهي اعقد من غدة ـ تيموس ـ وتقع داخل الدماغ وكان البعض من علماء الفيزياء في الماضي لا يتصورون فائدة لها ولكنهم اعتقدوا اليوم بأن هذه الغدة مؤثرة في النشاطات الجنسية ومنع البلوغ السريع وكذلك لها فعاليات أُخرىٰ يؤدي اختلالها في بعض الأحوال إلىٰ الموت[٢٤] .

هذه الغدد التي كانت تعتبرها الأوساط الطبية خالية من الأهمية بدأت تكتشف أهميتها وحتىٰ الزائدة الدودية وعن نفس المصدر تقول المجلة الطبية (جاما) : استئصال الزائدة الدودية في الأشخاص المؤهلين للابتلاء بالسرطان له تأثير ملحوظ في ذلك ويمكن أن يكون باعثاً علىٰ حدوثه في الجسم .

أما الغدد والأعضاء البارزة الأهمية فمسألتها واضحة كالعين والقلب والاذن بل المادة السامة التي تفرزها الاذن التي تقتل الحشرات لتمنعها من الدخول إلىٰ الداخل فإذن لكل عضو بالإنسان هدفه ولكل شيء في الطبيعة هدف فالحكمة العقلية واضحة والهدف واضح من هذه الخلقة المبدعة كذلك المعاد يوم القيامة من مظاهر الحكمة الإلهية .

فالذي يعتقد بالحكمة الإلهية في خلق جزئيات الأُمور يؤمن كذلك بالهدف العام فالذي يؤمن بهدف وحكمة الله في خلق غدة تيموس وجهاز السمع والبصر يؤمن بأن للإنسان هدف من خلقته هدف عام وكبير يعتبر

تتويجاً للأهداف الصغيرة لكل جهاز . .

فقد قال سبحانه : ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً﴾ .

[سورة ص ؛ ٣٨ الآية : ٢٧] .

وقال أيضاً : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون﴾ .

[سورة الذاريات ؛ ٥١ الآية : ٥٦] .

فإذن هنالك أهداف حكيمة لهذا الإبداع الكبير تتلخص بالعبادة والإطاعة المطلقة لله سبحانه عبر الاختبار في الدنيا ففي قوله تعالىٰ :

﴿ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . . .﴾ .

[سورة العنكبوت ؛ ٢٩ الآيتان : ١ ، ٢] .

وبعد هذا الامتحان في ظروف الدنيا فإن الحكمة الإلهية تقتضي المحاسبة علىٰ الصبر والتحمل أو الضجر وعدم التحمل فالإنسان يسعىٰ في الدنيا يزرعها ليحصد في الآخرة (الدنيا مزرعة الآخرة) .

وقال سبحانه : ﴿وأن ليس للإنسان إلّا ما سعىٰ، وأن سعيه سوف يرىٰ ثم يجزاه الجزاء الأوفىٰ﴾ .

[سورة النجم ؛ ٥٣ الآيات : ٣٩ ، ٤١] .

وفي آية كريمة أُخرىٰ : ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلىٰ ربك كدحاً فملاقيه﴾ .

[سورة الانشقاق ؛ ٨٤ الآية : ٦] .

إذن فالعقل يرشدنا لهذه الحكمة البالغة في اللقاء يوم الحساب وبهذا يكون المعاد ضرورة عقلية توصلنا لاكمال صورة الحكمة الإلهية .

**٥ ـ المعاد ضرورة نفسية :**

من طبيعة الإنسان أنه يفكر في مستقبله ويحاول أن يجعله مستقبلاً

آمناً من البلاء فهو الكائن الحي الفريد في هذا التفكير لذلك تجده يقلق أمام صعوبات الحياة ومشاكلها ويفكر في تذليلها بكل ما أوتي من قوة عقلية مفكرة وحينما يرىٰ حقيقة النهاية في الدنيا يتأمل كثيراً فهو يؤمن بالموت ولا بد من مفارقة الدنيا ـ كل نفس ذائقة الموت ـ كما قال تبارك وتعالىٰ ، فيحزن ويضطرب نفسياً علىٰ هذا المستقبل الحتمي المرتقب الذي سيباغت الإنسان ساعةً ما ، وهو في نفس الوقت مستقبل مجهول لا يدري ماذا يدور هناك وهل إن الموت نهاية كلية أو أن ما بعدها حياة أخرىٰ؟ . . . هذا القلق الدائم يتحول إلىٰ حاجة نفسية في داخل الإنسان لذلك تأتي الشريعة الإسلامية لتعالج هذا القلق فيقول سبحانه : ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾ .

ذِكْرُ الله وإطاعته وتصديق رسالته هو الذي يزيل القلق والخوف والاضطراب من هذه العاقبة المبهمة وبالفعل يخاف الإنسان من الموت وهذه حقيقة واضحة فقد ورد في الأثر الشريف ـ وقهر عباده بالموت والفناء ـ ولكن المعالجة الحقيقية لرفع حالة القلق والخوف أن نؤمن بالرسالة المقدسة بكل ما تحتوي هذه الرسالة من شرحٍ وافٍ لما يجري في الحياة الأخرىٰ من معاد وحساب وأحداث يوم القيامة هذا الإيمان يهدّيء روع الإنسان ويجعله يسعىٰ لتحقيق أهدافه الكبرىٰ في العالم الآخر المتلخصة في نيل رضا الله سبحانه :

﴿**وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون**﴾ .

[سورة العنكبوت ؛ ٢٩ الآية : ٦٤] .

﴿**وإن الآخرة هي دار القرار**﴾ .

[سورة غافر ؛ ٤٠ الآية : ٣٩] .

أما الذين يعارضون فكرة الحياة بعد الموت ويعتبرون ما تذكره الكتب المقدسة إنما هي أحلام اليقظة فهم يستجيبون للخوف الموروث والمتراكم في بواطن النفس من الموت والنهاية الحتمية ونحن لا نريد مناقشة أصحاب

هذا الرأي وإنما نقول إنه بمجرد قولهم إن الكتب المقدسة والقرآن الكريم بالذات يريد إزالة الحالة النفسية السلبية أمام الموت المتلخصة بالخوف والاضطراب وتعويض النفس بالحالة الإيجابية بالطموح والأمل ـ بمجرد قولهم هذا هو نوع من الاعتراف بالضرورة النفسية لهذا الايمان بالمعاد ونحن نكتفي وحسب فرضنا بأن الإيمان بالمعاد والحساب والجنة والنار استجابة للحالة النفسية لدىٰ الإنسان من المصير المجهول الذي ينتظره بعد نهاية عمره في الدنيا ـ فبدلاً عن رفض الاستجابة الطبيعية للضروة النفسية والبقاء علىٰ حالة القلق والخوف وبدلاً عن ملء الأذهان بالأساطير الخيالية كما فعل الصينيون والبابليون وغيرهم في التراث البشري الكبير . . وبدلاً من سيادة الأفكار غير العلمية كالتناسخ في الأرواح إذ تفنىٰ الأجسام وتنتقل الأرواح إلىٰ الأجنة الأُخرىٰ وبدلاً من الحكايات الباطنية التي تسود المجتمع المتخلف الذي يتخبط في متاهاتها ـ .

فبدلاً عن كل ما تقدم نؤمن بالمعاد يوم القيامة ليسود الجو النفسي الهادىء ويزول القلق وتزول الأساطير ـ إضافة لكون الإيمان بالمعاد من الضرورات الشرعية لدينا ـ وإنما حديثنا عن الضرورة النفسية ـ فمن هنا قال عز وجل في محكم الكتاب العزيز :

**﴿فإذا هم من الأجداث إلىٰ ربهم ينسلون﴾** .

[سورة يس ٣٦ ؛ الآية : ٥١] .

**﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير﴾** .

[سورة ق ٥٠ ؛ الآية : ٤٤] .

**﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً﴾** .

[سورة القصص ؛ ٢٨ الآية : ٨٣] .

فالإنسان يبدأ بصنع المعروف والخير والتواضع ليفوز بالدار الآخرة . . أليس كذلك ؟ .

### ٦ـ المعاد ضرورة علميّة :

التطور العلمي يثبت لنا عملياً القدرة علىٰ إعادة قسم من المواد المضمحلة والمنتهية ظاهراً من الوجود وذلك بطرق معينة فالأصوات التي دوّت في العالم قبل قرون بإمكان العلم الحديث بأجهزته المتقدمة أن يستحضرها وهي في الزمن الغابر وهذه النظرية الحديثة في العلم تؤكد عدم الفناء المطلق للأجسام وإنما تبقىٰ الأجسام المنحلة بدرجة معينة وبشكلٍ معين لو توفرت الأجهزة الكافية لأمكن إعادتها للوجود مرةً أُخرىٰ أو علىٰ الأقل حفظها ضمن قواعد كيمياوية كي لا تتفسخ كما فعل الفراعنة في تحنيطهم المعروف .

ويذكر الشيخ نعمة في كتابه : (وأكدت التجارب هذه الحقيقة فقد قام طبيب ألماني اسمه (أزفين سانتو) باستخراج بعض البكتريا من جسم مات من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة ووضعها في محاليل غذائية معينة محلول (الليتوم) لمدة سبع عشرة ساعة ثم وضعها تحت المجهر فلاحظ انها تتحرك وعاشت بعد تلك المدة . وفي سنة ١٩٥١ أعلنت عالمة روسية اسمها (البشكايا) ان بعض الخلايا يمكن إحياؤها مرة أُخرىٰ وان من بين الخلايا نوعاً منها (ناقلة الحياة) من الممكن أن تقفز من كريات دموية متآكلة وأنه لا شيء يموت كله وإنما يموت بعضه وتظل هناك خلايا تحمل مشعل الحياة)[٢٥] .

وهذه النظرية علىٰ علاّتها وعلىٰ ما فيها من قيل وقال تؤكد لنا ان العلم الحديث بدأ يعترف عملياً بإمكانية عودة الأجسام الفانية بنسبة معينة وبشكلٍ معين . .

ولما كان الإنسان مخلوقاً من التراب كما قال الرسول الأكرم (ص) : (كلكم لآدم وآدم من تراب) ففي الموت يعود الجسم إلىٰ عناصره الأصلية إلىٰ التراب . يقول الشاعر أبو العتاهية :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلُّكُمُ يصير إلىٰ تباب
لمن نبني ونحن إلىٰ تراب نعود كما خلقنا من ترابِ

فالذي خلقنا من تراب وتركنا نعيش على التراب وسيعيدنا إلى التراب حين الموت إنه لقادر على إعادتنا من التراب نفسه ، يقول عز من قائل :

**﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً أُخرى﴾** .

[سورة طه ٢٠ ؛ الآية : ٥٥] .

فحينما يموت الإنسان ، يودع في قبره بالتراب ـ دون أدنى شك ـ والبشرية كلها تؤمن بهذه النتيجة المستقبلية الحتمية ومسألة إعادتنا من جديد هي مورد التساؤلات يقول تعالى حكاية عن المنكرين :

**﴿فقال الكافرون هذا شيء عجيب، أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ﴾** .

[سورة ق ٥٠ ؛ الآيات : ٢ ـ ٤] .

فإذن هو القادر على جمع شتات الإنسان وإعادة بنائه : **﴿أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه، بلى قادرين على أن نسوّي بنانه﴾** .

[سورة القيامة ؛ ٧٥ الآيتان : ٣ ، ٤] .

فيقدم القرآن الكريم دليلاً علمياً واقعياً لدعم القدرة الإلهية في إعادة العظام والهيكل الإنساني بشكل عام على حالته الأولى والدليل ـ في الآية الماضية ـ هو خطوط أصابع اليد في الإنسان فانها لا تتشابه من شخص لآخر إطلاقاً . . فهذا الدليل الاعجازي الملموس هو لتقريب الاعجاز الرباني في مسألة جمع العظام وإعادة بناء الهيكل الإنساني . .

ومن خلال التطور العلمي نلحظ أنّ المعاد أصبح ضرورة علمية باعتبار وقوف العلم الحديث بوسائله المتطورة وإنجازاته المتقدمة إلى جانب الإقرار بمسألة العودة للأبدان وهذا ما يوافقه القرآن الكريم حول المعاد يوم المحشر والحساب والعقاب قال تعالى :

**﴿إن الله فالق الحبّ والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي﴾** .

[سورة الأنعام ؛ ٦ الآية : ٩٥] .

هـذا من جانب حشـر الأبدان وامكـانية ذلـك أمـا الحـديث عن الأرواح فـانها لا تفنىٰ وقـد قرأت في كتـاب (ظـواهـر الخـروج من الجسـد) للدكتـور رؤوف عبيـد ويذكـر فيه الكثيـر الكثير من تـداعي الخـواطـر وحضـور الأرواح ولقاءاتها بالأرقام والشـواهد والأسماء، قصص حصلت في الشرق كمـا حصلت في الغـرب دون فرق لهـذه الأرواح التي تلتقي فيمـا بينهـا أنهـا أرواح عـائـدة لأجسـام نائمـة أو ميتة وكـذلك مسـألة تحضيـر الأرواح الميتة ومسـألة التنـويم المغنـاطيسي أيضاً وحتىٰ بعض الأحـلام التي تتحقق بذاتهـا وتفـاصيلهـا فيمـا بعد .

فـالعلم أقر بـأن الأرواح لا تفنىٰ مطلقـاً بمـوت الأجسـام . وعليـه نفهم مسألة إلحـاق هذه الأرواح بـأبدانهـا مسألـة غير عسيـرة الاستيعاب هـذا فضلاً عن إيمـاننا بـالقدرة الإلهيـة القادرة علىٰ كـلِّ شيء فالله عـز وجل خلقنـا وهـو الـذي يميتنا وهـو الذي يحيينـا ـ جسماً وروحـاً ـ يوم الحشـر الأكبر فقـد قـال الإمـام علي في خـطبتـه (رقم ١٠٧) : (حتىٰ إذا بلغ الكتـاب أجله ، والأمـر مقـاديره . والحق آخـر الخلق بأولـه وجاء من أمـر الله مـا يـريـده من تجـديـد خلقـه ، أماد السمـاء وفطرهـا وأرجّ الأرض وأرجفها وقلع الجبـال ونسفها ودك بعضها بعضاً من هيبة جلالته ومخوف سطوته . وأخرج من فيها فجددهم بعد إخـلاقهم وجمعهم بعد تفـريقهم ثم ميزهم لمـا يريـد من مسألتهم عن خفـايـا الأعمـال وخبـايـا الأفعـال وجعلهم فـريقين : أنعم علىٰ هؤلاء وانتقم مـن هؤلاء) .

## ٧ ـ المعاد ضرورة سلوكية أخلاقيـة :

للإنسـان قوة هائلة علىٰ التمـرد من القانـون مهما كـان نوعـه ومستواه من فـردي أو اجتمـاعي أو حكـومي أو ديني اخـلاقي وكلمـا ازداد الضغط علىٰ الإنسان في تطبيق القوانين المشار إليها تفجرت ـ بـالمقابـل ـ في ذاته طـاقات بديلة معاكسة يستطيـع أن ينفلت من القانـون بواسطتها فينفّـذ مآربـه وأهدافـه ولسنـا بحاجـة إلىٰ تقديم دليـل علىٰ ذلك وتكفينـا نـظرة عـامـة علىٰ القـوانين

الحكومية المفروضة علىٰ الناس كيف يتم الاحتيال من بعض الناس والالتفاف حول القوانين هذه بشكلٍ ذكي ومن دون أن يشعر به المراقبون ويمكن أن يكون الإنسان مجرماً يدخل المحكمة ليخرج منها بريئاً يعتذر منه الحاكمون ، علاوة علىٰ ذلك إن الإنسان يمتلك قوة حادة في الذكاء وقدرة عالية في المكر والخداع للدفاع عن نفسه والتبرير لأعماله ومواقفه المنحرفة بشتىٰ الوسائل والحجج .

المهم أمام هاتين القدرتين ينهدم صرح السلوك الحسن والاخلاق الفاضلة فيشاع الفساد والإنحراف والتآمر والاعتداء والاختلاس والسرقة وما شابه ذلك مما تعج به دوائر القانون والمحاكم الجنائية في العالم . .

والشريعة الإسلامية تعالج هذه الظواهر السلبية من الجذور بدلاً من أن تأتي للمعالجة من السطوح الفوقية كما في القوانين البشرية والعقوبات البدنية التي يطمْئن البعض نفسه لها بل ويتكيف لها مهما بلغت من البطش والقوة فيأتي الإسلام لينصب رقيباً داخلياً في ذات الإنسان يسهر هذا الرقيب ليحصي تصرفات الإنسان وكلامه وسلوكه ثم تجتمع هذه الأمور ضمن صحف دقيقة يتلقاها الإنسان بنفسه يوم المعاد وهي التي تحدد مصيره إلىٰ الجنة أو إلىٰ النار .

قال سبحانه : ﴿ما يلفظ من قولٍ إلاَّ لديه رقيب عتيد﴾ .

[سورة ق ؛ ٥٠ الآية : ١٨] .

وقال أيضاً : ﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق، خالدين فيها ما دامت السمٰوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد،وأما الذين سُعدوا ففي الجنةِ خالدين فيها ما دامت السمٰوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاءً غير مجذوذ﴾ .

[سورة هود ١١ ؛ الآيات : ١٠٦ ـ ١٠٨] .

إذن الإيمان بالمعاد والرقابة الذاتية لجميع التصرفات الاخلاقية

والسلوكية علىٰ كافة المستويات سواء كانت في وضح النهار أم في جنح الليل فالمسألة واحدة والمؤمن لا يعصي ولا يعتدي ولا يسرق ولا يكذب ولا يخون خوفاً من الرقابة الذاتية (الوجدان) وخوفاً من يوم المعاد حيث تبلىٰ السرائر كما قال سبحانه في محكم الكتاب العزيز :

﴿إنه علىٰ رجعه لقادر، يوم تُبلىٰ السرائر﴾ .

[سورة الطارق ٨٦ ؛ الأيتان : ٨ ، ٩] .

﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ .

[سورة المدثر ٧٤ ؛ الآية : ٣٨] .

فالاسرار تُكشف والخفايا تُعلن فلا خير في لذة عاجلة أمام عقوبة دائمة خالدة فالمؤمن بالمعاد يحسن تصرفه في الحياة الدنيا فيكبت عواطفه ويصبر علىٰ آلام الدنيا وصعوباتها وللصابرين أجورهم :

﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جناتٍ﴾ .

[سورة البقرة ؛ ٢ الآية : ٢٥] .

﴿وبشر الصابرين﴾ .

[سورة البقرة ؛ ٢ الآية : ١٥٥] .

فعواطف المؤمن مهذبة ضمن الحدود المشروعة فحلال الدنيا حساب وحرامها عقابٌ وشبهاتها عتاب علىٰ هذه الأُسس يسلك الإنسان المؤمن بالمعاد سلوكه وطريقته في الحياة . .

وبهذا نلاحظ ان المعاد ضرورة سلوكية خلقية علىٰ كافة مستويات الحياة . . وفي الحقيقة هذه المحكمة الكبرىٰ المنتظرة في يوم المحشر هي من مظاهر العدالة الإلهية فلا بد ـ كما قلنا سابقاً ـ من إتمام الصورة للعدل الإلهي حيث انتصار المظلوم والانتقام من الظالم هذا الانتصار وهذا الانتقام اللذان لم يستوفيا ثأرهما في الدنيا يراه المظلوم ويراه الظالم أيضاً في الآخرة ـ كما مر في بحثنا حول العدالة ـ وبعد هذه الجولة من الضرورات

العامة التي توصلنا إلىٰ الإيمان بالمعاد تقدم لنا الطبيعة المحيطة بنا مثالاً رائعاً للعودة بعد الموت وهذا ما نراه في النباتات في فصل الشتاء حيث السبات العام لهذه الكائنات الحية فتتساقط الأوراق والأزهار وتتعرىٰ الحدائق من الجمال الطبيعي . . . ويبدأ المزارعون بإدخال عملياتهم الجراحية علىٰ بعض الأشجار من التقليم والتطعيم والنقل في فترة السبات لأنها فترة تخدير عام للنباتات وبعد هذه المرحلة الراكدة تعود النباتات إلىٰ ابتسامتها الخضراء فتورق وتزدهر وتنتج الأزهار والثمار فتعود للحياة بحيوية عالية بعد أن ماتت (نسبياً) في فترة معينة فهذه صورة تجسد ظاهرة المعاد بالنسبة للإنسان ـ نسبياً ـ .

قال سبحانه : **﴿ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد، رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج﴾** .

[سورة ق ٥٠ ؛ الآيات : ٩ ـ ١١] .

وفي آية كريمة أُخرىٰ : **﴿وترىٰ الأرض هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتىٰ وأنه علىٰ كل شيءٍ قدير﴾** .

[سورة الحج ٢٢ ؛ الآيتان : ٥ ، ٦] .

فهذه تجربة حية تخوضها النباتات كشاهد ميداني علىٰ عودة الإنسان بعد موته فقد قال عز من قائل :

**﴿فلينظر الإنسان ممّ خلق، خلق من ماءٍ دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب، إنه علىٰ رجعه لقادر﴾** .

[سورة الطارق ٨٦ ؛ الآيات : ٥ ـ ٨] .

# ثالثاً
# وماذا بعد الموت في القبر وعالم البرزخ ؟

هنالك مرحلة انتقالية ما بين الحياة الدنيا وبين المعاد يوم القيامة هذه المرحلة هي التي تسمىٰ بعالم البرزخ ، والبرزخ لغة هو الحد الفاصل بين أمرين وهنا بين الحياة الدنيوية الزائلة وبين الحياة الأخروية الخالدة .

قال تعالىٰ : **﴿حتىٰ إذا جاء أحدهم الموت قال رب آرجعون، لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت كلّا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلىٰ يوم يبعثون﴾** .

[سورة المؤمنون ٢٣ ؛ الأيتان : ٩٩ ، ١٠٠] .

وفي تفسير علي بن إبراهيم ، البرزخ هو أمر بين أمرين وهو الثواب والعقاب بين الدنيا والآخرة وهو قول الإمام الصادق : والله ما أخاف عليكم إلا البرزخ[٢٦] . . .

فإذن يمر الإنسان بهذه المرحلة بعد الموت أي بعد دفنه بالقبر فالقبر أول منازل الحياة الأُخرىٰ كما قال رسول الله (ص) (إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينجُ منه فما بعده ليس أقل منه) وقال الإمام علي (يا ذوي الحيل والآراء والفقه والأبناء اذكروا مصارع الآباء فكأنكم بالنفوس قد سلبت والأبدان قد عريت وبالمواريث قد قسّمت

فتصير يا ذا الدّلال والهيبة والجمال إلىٰ منزلة شعثاء ومحلة غبراء فتُنوَّم علىٰ خدّك في لحدك . . . حتىٰ تُشق عن القبور وتُبعث إلىٰ النشور[٢٧] .

فإذن هذه المرحلة من المراحل الطبيعية التي يمر بها الإنسان كما مرّ من قبل بمرحلة الاصلاب والأرحام ثم مرحلة الدنيا . . . وبعد الموت تكون أرواح المؤمنين في نعيم وسرور علىٰ عكس أرواح الكافرين والمنافقين فانها تعيش في حياة ملؤها الكآبة والعذاب .

قال الإمام الصادق : (البرزخ قبر وهو الثواب والعقاب بين الدنيا والآخرة) وفي حديث آخر : (والله أتخوف عليكم من البرزخ قلت ما البرزخ ؟ فقال : القبر منذ حين موته إلىٰ يوم القيامة) وفي الحديث النبوي «النوم أخو الموت كما تنامون تموتون وكما تستيقظون تبعثون» وقال الله سبحانه : ﴿**الله يتوفىٰ الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها**﴾ وروي في الكافي بإسناده عن الكاظم أنه قال في قصة لمنكري المعاد في الأمم الماضية : (فأحدث الله فيهما الأحلام ولم يكن قبل ذلك فأتوا نبيّهم فأخبروهُ بما رأوا وما انكروا من ذلك فقال الإمام : إن الله تعالىٰ أراد أن يحتج عليكم بهذا هكذا تكون أرواحكم إذا متم وإن بليت أبدانكم تصير الأرواح إلىٰ عقاب حتىٰ يبعث الله الأبدان ) . .

وفي رواية عن الصادق : (فإذا قبضه الله صيّر تلك الروح في قالب كقالبه في الدنيا فيأكلون ويشربون فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة التي كانت في الدنيا)[٢٨] . .

وقال الإمام المهدي في قوله تعالىٰ : ﴿**ومن ورائهم برزخ** . .﴾ (هو القبر وإنّ لهم فيه لمعيشة ضنكا واللهِ إن القبر لروضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار)[٢٩] .

أما الأبدان فيقول عنها أمير المؤمنين : (سلكوا في بطون البرزخ سبيلاً ، سلطت الأرض عليهم فيه فأكلت لحومهم . .) .

وسئل الإمام الصادق عن الميّت يُبلىٰ جسده قال : (نعم حتىٰ لا يبقىٰ

لـه لحم ولا عـظم إلاّ طينتـه التي خُلق منهـا فـانّهـا لا تُبلىٰ تبقىٰ في القبـر مستديرة حتىٰ يُخلق منها كما خُلق أول مرة) .

وقال سبحانه : ﴿أليس ذلك بقادر علىٰ أن يحيي الموتىٰ﴾ .

[سورة القيامة ٧٥ ؛ الآية ٤٠] .

فمن هـذه الروايـات الشريفـة نتبين أن البرزخ عـالم خاص لـه مقاييسه المعيّنـة تحدد منـزلة الإنسـان علىٰ ضوء أعمـاله في الـدنيا فهي مقـدمـة ليـوم الحساب الأكبر فإما أن يتحـول القبـر إلىٰ روضـة ونعيم مؤقت وإمـا إلىٰ عـذاب وجحيم مؤقت كـل ذلـك يعتبـر المنـزل الأول والمـرحلة الأولىٰ من مـراحـل الأخرة حيث الحساب الأكبر .

قال تبارك وتعـالىٰ : ﴿ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيـل الله أمواتـاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ .

[سورة آل عمران ٣ ؛ الآية : ١٦٩] .

وفي الخبـر . . . (فإذا قبضه الله عـز وجـل صيّـر تلك الـروح في قـالب كقالبه في الدنيا فيأكلون ويشربون فإذا قدم عليهم القادم عـرفوه بتلك الصـورة التي كـانت في الدنيا) ـ عن الإمام الصـادق ـ وعنه أيضاً ـ (أرواح المؤمنين في حجرات في الجنة يـأكلون من طعامهـا ويشربـون من شرابهـا ويتزاورون فيهـا ويقولون : ربنا أقم لنا الساعة لتنجز ما وعدتنا . . .) .

وعن الإمام علي (يا بن نبـاتـة لـو كشف لكم لـرأيتم أرواح المؤمنين في هذا الظهـر (النجف) حلقاً يتـزاورون ويتحدثـون إن في هذا الـظهر روح كـل مؤمن وبوادي برهـوت نسمة كـل كافـر ووادي برهـوت مكان يعـرف به تجمـع الكافرين و لأرواح الكفار عذاب خاص) وأمامي مجمـوعة كبيـرة من الاحاديث والروايات في هذا الصدد .

مثـلاً عن الإمام الصـادق : (إن أرواح الكفـار في نـار جهنم يعـرضـون عليهـا يقولـون ربنا لا تقم لنـا الساعـة ولا تنجز لنـا ما وعـدتنا ولا تلق آخـرنـا

بـأولنا . . ) وعن النبي (ص) وقـد وقف على قتلى بـدر : «يـا أبـا جهـل ! يـا عتبة ! يا شيبة ! يا أمية ! هل وجـدتم ما وعـد ربكم حقاً فـاني قد وجـدت ما وعـدني ربي حقاً ؟» فقـال عمر : يـا رسول الله أمـا تكلم من أجسـاد لا أرواح فيهـا ؟ فقال : «والـذي نفسي بيده مـا أنتم بأسمـع لما أقـول منهم غير أنهم لا يستطيعون جواباً»[٣٠] .

ولـلإمام علي قـول هنا : (يـا عباد الله مـا بعد المـوت لمن لا يغفـر لـه أشـد من الموت ، القبـر ، فاحـذروا ضيقه وضنكـه وظلمتـه وغـربتـه . . وإن المعيشة الضنك التي حذر الله منها عدوّه، عذاب القبر)[٣١] .

هكـذا تكون حـالة الأرواح في عـالم البرزخ وتتحـدّد السعادة أو الشقـاء على ضـوء ما يقدّم الإنسان في حيـاته الـدنيويـة من أعمال صـالحة وطـاعة الله سبحـانه فعنـد انتزاع روحـه تبدأ حيـاته الجـديـدة فتنفصـل الـروح عن البـدن ويترك البدن في القبـر بعد أداء المـراسيم الشرعيـة في الدفن . . أمـا الأرواح فهي التي تعيش الحـالة المحـددة لها على ضـوء صحيفة أعمـال الـدنيـا ومن مـرحلة الانتزاع يستـطيع المؤمن أن يعـرف مصيـره الـذي ينتـظره يسـأل أحـد الأصحـاب الإمـام الصادق: يا بن رسـول الله هـل يُكـره المؤمن على قبض روحـه ؟ قال: لاوالله إنـه إذا أتاه ملك المـوت لقبض روحـه جـزع عنـد ذلـك فيقول له ملك الموت : يا ولي الله لا تجـزع فوالـذي بعث محمداً (ص) لأنـا أبرّ بك واشفق عليك من والد رحيم لو حضرك، افتح عينك فـانظر قـال ويمثل لـه رسـول الله وأميـر المؤمنين وفـاطمـة والحسن والحسين والأئمـة من ذريتهم فيقـال له : هـذا رسول الله وأميـر المؤمنين وفاطمـة والحسن والحسين والأئمة رفقاؤك قال : فيفتح عينه فينظر فينادي روحـه منادٍ من قبـل رب العزة فيقـول : ﴿يـا أيتها النفس المـطمئنة (إلى محمـد وأهـل بيتـه) ارجعي إلى ربك راضيـة (بـالولايـة) مرضيـة (بالثـواب) فادخلي في عبـادي (يعني محمـد وأهـل بيتـه) وادخلي جنتي﴾ فمـا شيء أحب إليـه من استـلال روحـه واللحـوق بـالمنـادي على عكس الكـافر والمنـافق والمنحرف فـإنه يصـرخ بالبكـاء والعويـل ويريـد البقاء في الدنيا لأن الدنيا جنة الكافر قياساً بـالعذاب المنتـظر له والـدنيا سجن

المؤمن قياساً بالنعيم الذي ينتظره .

## وماذا في القبر ؟ :

يقول الإمام الصادق إذا نظرت إلىٰ القبور فقل : (اللهم اجعلها روضة من رياض الجنة ولا تجعلها حفرة من حفر النيران) .

وفي القبر تبدأ المساءلة عن أهم الأعمال والواجبات في الدنيا فعن الصادق (إذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه والزكاة عن يساره والبر مطل عليه ويتنحّىٰ الصبر ناحية فإذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته قال الصبر للصلاة والزكاة والبر : (دونكم صاحبكم فإن عجزتم عنه فأنا دونه)[٣٢] .

وهكذا تعود الروح إلىٰ البدن كما تعود القوة الكهربائية لجهاز التبريد بعد انقطاعه فترة زمنية أو جهاز الهاتف فالروح بمثابة القوة الكهربائية للبدن فتحلّ الروح بالبدن في القبر فترة التساؤل فيجلس الميت ويردّ علىٰ الأسئلة الموجهة إليه ثم تخرج الروح كما في الروايات الكثيرة منها :

عن الإمام زين العابدين : (كأن قد أوفيتَ أجلك وقبضَ الملكُ روحك وصرت إلىٰ منزل وحيداً فردًا إليك فيه روحك واقتحم عليك فيه ملكاك : منكر ونكير لمساءلتك وشديد امتحانك ألا وإنّ ما يسألانك عن ربك الذي كنت تعبده وعن نبيك الذي أُرسل إليك وعن دينك الذي تدين به وعن كتابك الذي كنت تتلوه وعن إمامك الذي كنت تتولّاه ثم عن عمرك فيما أفنيته ومالك من أين اكتسبته وفيما أتلفته فخذ حذرك وانظر لنفسك واعدّ الجواب قبل الامتحان والمساءلة والاختبار) .

وفي الحديث عن رسول الله (ص) : «ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله فيقولان له : وما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول : هو رسول الله . . » .

أمـا رواية الإمـام الصادق فتقـول :(يُسـأل الميت في قبـره عن خمس : عن صلاته وزكاته وحجـه وصيامـه وولايته إيّـانا أهـل البيت فتقول الـولاية عن جانب القبر للأربع ما دخل فيكن من نقص فعليّ تمامه[٣٣] .

فـإن كانت أعمـاله إيجـابية في الدنيا فإجـابته ستكـون كذلـك وتنتقـل روحـه إلىٰ النعيم حيث الصالحين والمؤمنين في الـروضة المبـاركة وتبـدأ فترة الانتـظار ليوم المحشـر وأما لـو كانت أعمـاله في الـدنيـا سلبيـة غيـر صـالحـة فإجابته ستكون كـذلك فتنتقـل روحه إلىٰ الجحيم حيث المجـرمين والمنافقين كذلك ينتظرون الساعة للحساب الأكبر يوم المحشر .

قـال سبحانـه : ﴿حتىٰ إذا جاء أحـدهم الموت قال رب آرجعون، لعلّي أعمل صالحاً فيما تـركت كـلاّ إنهـا كلمة هـو قائلهـا ومن وراءهم برزخ إلىٰ يوم يبعثون﴾ .

[سورة المؤمنون ٢٣ ؛ الآيتان : ٩٩ ، ١٠٠] .

# رابعاً
# نهاية الكون

قال تبارك وتعالىٰ في محكمَ كتابه الكريم : ﴿**فإذا النجوم طمست**﴾ .

[سورة المرسلات ٧٧ ؛ الآية : ٨] .

﴿**إذا الشمس كُوِّرَت ، وإذا النجوم انكدرت**﴾ .

[سورة التكوير ٨١ ؛ الآيتان : ١ ، ٢] .

﴿**إذا السماءُ انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجّرت**﴾ .

[سورة الإنفطار ٨٢ ؛ الآيات : ١ ـ ٣] .

﴿**يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً . وفُتحت السماء فكانت أبواباً ، وسيرت الجبال فكانت سراباً**﴾ .

[سورة النبأ ؛ ٧٨ الآيات : ١٨ ـ ٢٠] .

وجاء في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿**فإذا النجوم طمست**﴾ . . إلىٰ قوله : ﴿**أُقتّت**﴾ ـ بيان لليوم الموعود الذي أخبر بوقوعه في قوله تعالىٰ : ﴿**إنما توعدون لواقع**﴾ وقد بين سبحانه اليوم الموعود بذكر حوادث واقعة تلازم انقراض العالم الإنساني وانقطاع النظام الطبيعي في الكون كانطماس النجوم وانشقاق الأرض واندكاك الجبال وتحول النظام فقوله : ﴿**فإذا النجوم**

**طمست﴾** أي محي أثرها من النور وغيره والطمس إزالة الأثر بالمحو وقوله تعالىٰ : **﴿إذا الشمس كورت﴾** التكوير اللف علىٰ طريق الإدارة كلفّ العمامة علىٰ الرأس ولعل المراد بتكوير الشمس انظلام جرمها علىٰ نحو الإحاطة استعارةً ، وقوله تعالىٰ : **﴿وإذا النجوم انكدرت﴾** . . فالمراد سقوط النجوم ـ وقوله سبحانه : **﴿وإذا الكواكب انتشرت﴾** أي تفرقت بتركها مواضعها التي ركزت فيها شبهت الكواكب بلآلي منظومة قطع سلكها فانتثرت وتفرقت(٣٤) .

وفي الرواية لما عاد الرسول الأكرم من تبوك إلىٰ المدينة قدم عمرو بن معدي كرب قال له النبي (ص): «أسلم يا عمرو يؤمنك الله من الفزع الأكبر» قال : يا محمد وما الفزع الأكبر ؟ فأني لا أفزع ! فقال: «يا عمرو إنه ليس كما تظن وتحسب : (إن الناس يُصاح بهم صيحة واحدة فلا يبقىٰ ميت إلاّ نُشر ولا حيٌّ إلا مات إلا ما شاء الله ثم يصاح بهم صيحة أُخرىٰ فينشر من مات ويصّفون جميعاً وتنشقّ السماء وتهدّ الأرض وتخرّ الجبال هدّا . .) فأين أنت عمرو من هذا؟» قال: ألا إني أسمع أمراً عظيماً ، فآمن بالله ورسوله وآمن معه من قومه ناس ورجعوا إلىٰ قومهم(٣٥) .

إذن لا [illegible] هذا الكون بنظامه الدقيق من المجرات الكبيرة إلىٰ الذرات الدقيقة سيفلت يوماً ما عن تماسكه ومغناطيسيته المتوازنة فتنتثر الكواكب وتنطفيء النجوم وتتكور الشمس . . . وينتهي النظام الكوني وتنطوي مرحلة الحياة الدنيوية لتبدأ المرحلة الأخروية بعد فترة البرزخ ـ المارة الذكر ـ .

قال عز وجل : **﴿إذا رجّت الأرض رجّا ، وبُست الجبال بساً، فكانت هباءً منبثاً﴾** .

[سورة الواقعة ٥٦ ؛ الآيات : ٤ ـ ٦] .

وفي آية كريمة أُخرىٰ : **﴿إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت﴾** .

[سورة الإنفطار ؛ الآيات : ١ ـ ٤] .

فينتهي مفعول الجاذبية وتنفرط الكواكب عن قانونها والبحار تتفجر ثم القبور تتبعثر لتجتمع ذرات الإنسان من جديد وتتشكل في بنائها الجسمي فتحله الروح التي كانت في عالم البرزخ في حالة إيجابية أو سلبية المهم أن تلتحق بجسدها.

﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرةٍ وهو بكل خلقٍ عليم﴾ .

[سورة يس ؛ ٣٦ الآيتان : ٧٨ ، ٧٩] .

وفي آية مباركة أُخرىٰ : ﴿يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسمٰوات وبرزوا لله الواحد القهار﴾ .

[سورة إبراهيم ؛ ١٤ الآية : ٤٨] .

يقول العالم الفلكي (ماريون) في كتابه (نهاية الدنيا) :

إن ظهور الحياة بجلالها وهيبتها كان نتيجة تبعية المنظومة الشمسية لقوة الجاذبية العامة والقوة المركزية الطاردة ذلك إن قوة الجاذبية العامة تربط جميع أجزاء هذا العالم ـ بدءاً من الذرات وانتهاءً بالنجوم ببعضها ـ أما القوة المركزية الطاردة فهي التي تنظم وتضبط حركاتها وبالتالي فهي تبث في ـ ـح أرجاء العالم نظاماً عاماً ولكن هذا النظام سوف يتبعثر شئنا أم أبينا وسوف تنتهي الكواكب إلىٰ الموت وسوف تنتشر النجوم كحبات العقد الذي انقطع حبله فتذهب هنا وهناك[٢٦] .

يقول سبحانه : ﴿يوم نطوي السماء كطيّ السّجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ .

[سورة الأنبياء ؛ ٢١ الآية : ١٠٤] .

ولعلماء الفلك والطبيعة أقوال كثيرة في صدد نهاية الكون وأمامي الكثير من هذه الأقوال التي تجعل نهاية لهذا النظام الكبير اكتفي بهذه الإشارة فإنها تتلخص في تصديق القرآن الكريم بنهايات الوجود الطبيعي

والقانوني للبشرية والطبيعة ككل وما هذه الزلازل والبراكين التي تبتلع مدناً كاملة في لحظات إلاّ صورة من صور النهاية المرتقبة وإنها تحدث لتحركات في بواطن القشرة الأرضية وقبل أيام أعلنت وكالات الأنباء عن خبر الزلزال المروع الذي حدث في أرمينيا السوفيتية والذي أودى بحياة مائة ألف ودمرّ قرى كاملة ، المهم أمام هذه الكوارث يقف العلم ووسائل العلم والتطور التكنولوجي كل ذلك يقف متفرجاً ليتابع الحدث فلا يستطيع أن يوقفه أبداً . بل تسعى هذه الوسائل لترتيب الأمور فيما بعد وقوع الحدث .

# خامساً

# الحشر والحياة في الآخرة

# بحث في الجنة والنار

مرت معنا بعض الآيات الكريمة والاحاديث والروايات الشريفة واصفة لنا طبيعة المحشر والقيام من القبور وبعض صفات المتقين والظالمين يوم القيامة وفي هذا الفصل نريد التحدث عن نفس الموضوع بتوضيح أكثر لإكمال البناء العقائدي في النفس . .

قال سبحانه : ﴿ويقولُ الإنسان أإذا ما متّ لسوف أُخرج حياً، أوَ لا يذّكر الإنسان أنا خلقناه من قبلُ ولم يك شيئاً﴾ .

[سورة مريم ١٩ ؛ الآية: ٦٦، ٦٧].

﴿وأحيينا به بلدةً ميتاً كذلك الخروج﴾ .

[سورة ق ٥٠ ؛ الآية: ١١ ].

﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربتْ إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيءٍ قدير﴾ .

[سورة فصلت ٤١ ؛ الآية ٣٩].

فمن خلال هذه الآيات وغيرها في هذا المضمار نلاحظ أن القرآن الكريم يقدم لنا برهاناً عقلياً قاطعاً بأن ايجاد الإنسان في الحياة الدنيا بعد

العدم واماتته بعد حياته دليل قاطع علىٰ قدرته عز وجل في إعادة الإنسان هذا يوم الجزاء فبما إننا لا نستطيع نكران الجانب الأول من قدرة الله وهو وجودنا من العدم بالرغم من أننا لم نشهد بداية التكوين لكننا لا نستطيع أن ننكر ذلك والذي ينكره يعني ينكر وجود نفسه وهكذا لا نستطيع أن نقدم أدنىٰ دليل علىٰ عدم البعث والإحياء بعد الموت بل العكس تماماً حيث يحكم العقل بامكان وقوع الإحياء بعد الموت وإلا فقد قررنا في بحث العدالة الإلهية : يحكم العقل بوجوب الإحياء والنشور لتكتمل العدالة الربانية في تصفية الحساب مع المحسنين أو المُسيئين فالنعيم للمحسنين والعذاب للمسيئين .

قال سبحانه وتعالىٰ في سورة مريم ١٩ ؛ الآيتان : ٦٦ ، ٦٧ :

**﴿ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حياً،أولا يذّكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يكُ شيئاً﴾** .

وقد مرّ معنا أيضاً أنّ الحشر سيكون للروح والجسم معاً في بحثنا عن ذلك .

قال رسول الله (ص) «يا أيها الناس إنكم محشورون إلىٰ الله حفاةً عراةً عزلاً ﴿كما بدأنا أول خلقٍ نعيده . .﴾» .

وعن أبي ذر قال : إن الصادق المصدوق حدّثني (أن الناس يحشرون ثلاثة أفواج : فوجاً راكبين ، طاعمين كاسين وفوجاً تسحبهم الملائكة علىٰ وجوههم وتحشرهم النار وفوجاً يمشون ويسعون) .

والإمام علي يحدثنا عن يوم المحشر بقوله : (إسمع يا ذا الغفلة والتصريف من ذي الوعظ والتعريف جعل يوم المحشر يوم العرض والسؤال والحباء والنكال يوم تقلب إليه أعمال الأنام وتحصىٰ فيه جميع الآثام يوم تذوب من النفوس أحداق عيونها وتضع الحوامل ما في بطونها . .) .

وعن أبي سعيد أنه لما حضره الموت دعا بثياب جدُد فلبسها ثم

قـال : سمعت رسـول الله (ص) يقـول : «الميت يبعث في ثيـابـه التي يمـوت فيها»[٣٧] .

وروايـات كثيـرة أُخـرىٰ تـوضـح لنـا المستقبـل الحتمي للبشـريـة حيث الحشـر الجسمي والروحي فـإلىٰ المحكمـة الإلهيـة الكبـرىٰ وكمـا أكـدنـا أن مقـاييس الأخرة هي غيـر مقايس الـدنيا ومقـاييس المحكمة الإلهيـة هي غيـر المقاييس التي نألفها في الدنيا فمثلاً الشهـود في محاكم الـدنيا يشهـدون علىٰ عملٍ معين بألسنتهم بينمـا مقاييس الآخـرة تختلف فالشهـادة هناك تـنـطلق من الأيـدي والأرجل يقـول سبحانـه في سورة النور ٢٤ ؛الأية :٢٤ : ﴿يـوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيـديهم وأرجلهم بمـا كـانـوا يعملون﴾ وفي سورة فصلت ٤١ ، الآيـات : ١٩ ـ ٢١ : ﴿ويوم يحشـر أعداء الله إلىٰ النـار فهم يوزعون، حتىٰ إذا مـا جاؤوها شهـد عليهم سمعهم وأبصـارهم وجلودهم بمـا كانوا يعلمون، وقالوا لجلودهم لم شهـدتم علينا قـالوا أنـطقنا الله الـذي أنطق كل شيءٍ وهـو خلقكم أول مرةٍ وإليه تـرجعون﴾ ففي محـاكم الدنيـا يسيطر الإنسـان بإرادتـه علىٰ لسـانه فبـإمكانـه أن يكذب مثـلاً ويصـرّ علىٰ الكـذب بينمـا في مقـاييس الأخـرة تكون الشهـادة حقيقية دون خضـوع لإرادة الإنسان ولمّـا يريـد عتـاب حـواسه الشـاهدة علىٰ فعله المنكـر تجيبه أيضـاً بالـرّد كما في الآيـة ـ المـارة الـذكر ـ وقـالوا لجلودهم لم شهـدتم علينا قـالوا أنـطقنا الله الـذي أنـطق كـل شيء . .

وفي سورة يس ٣٦ ؛الأيـة : ٦٥ : ﴿اليـوم نختم علىٰ أفـواههم وتكلمنـا أيـديهم وتشهد أرجلهم بمـا كانـوا يكسبون﴾ وهكـذا نرىٰ اختـلاف المقاييس في الحشر عما ألفناه بالدنيا .

أما الحياة في الآخـرة فيبدو ان لهـا مقايس أُخرىٰ ـ أيضاً ـ لم نعهـدها نحن ضمن مقايسنا الـدنيويـة والقرآن الكـريم يقرب لنـا تلك الصور من نعيم أو عـذاب ويمكن تقـريب الفكـرة نسبيـاً من تـاريـخ الإنسـان الشخصي فكـل إنسـان يمر في مـراحل الحيـاة الخاصـة به منـذ نشأتـه الأُولىٰ فهنالـك مـرحلة

الاصلاب وبعدها مرحلة الأرحام فلو حدثنا مخبر ونحن في الأرحام ان الدنيا تنتظركم بملاذها ونعيمها ويحذرنا من الوقوع في شراك الشياطين والأهواء ويشرح لنا لذة الأكل والشرب والنوم والممارسة الجنسية والارتياح النفسي ما كنا نتصور ذلك اطلاقاً لأننا ضمن مقاييس محدودة في أرحام الأمهات لا نرىٰ إلاّ ما يحيط بنا من أغشية وحنان . . أما حينما خرجنا من أرحام الأمهات إلىٰ رحم الدنيا وقد اكتمل نمونا العقلي والإرشادي بواسطة الكتاب العزيز والسّنّة الشريفة وتطور الحياة وتقدم العلم ومع ذلك لا يمكننا أن نتصور الجنة التي عرضها السمٰوات والأرض أُعدت للمتقين أو نتصور نار الجحيم التي تنضج جلود المذنبين وتجدد الجلود لتجدد التعذيب . . فالمقاييس إذن جديدة ـ لذلك ورد ـ الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا ـ وتحضرني رؤية لأحد العلماء الكرام بعد موته كان يردد بالحلم هذه الرواية ويضيف كنت نائماً فاستيقظت !! .

كيف يمكن أن نتصور نومنا في هذه الحياة ونحن علىٰ أشد اليقظة والنهوض والمعرفة كما ندّعي أيصدق علينا النوم أو للنوم حالته الأُخرىٰ ! ويمكن أن نعتبر حياتنا هذه نوماً نسبةً لما نراه في الآخرة كما كنا نعتبر حياتناالجنينية في الأرحام نومة بالنسبة لحياتنا الدنيوية ودعونا الآن نتنقل ما بين الآيات والروايات لنكوّن في أذهاننا فكرة عن الجنة والنار حيث سيكون مصيرنا الحتمي إلىٰ أحدهما .

قال عز وجل في سورة الرعد ١٣ ؛ الآية : ٣٥ :

**﴿مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أُكُلها دائم وظلُّها تلك عُقبي الذين اتقوا وعُقبى الكافرين النار﴾** .

وفي سورة فاطر ٣٥ ؛ الآيات : ٣٣ ـ ٣٥ . قوله تعالىٰ : **﴿جنات عدن يدخلونها يحلّون فيه من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ، وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ، الذي أحلّنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نَصَب ولا يمسنا فيها لغوب﴾** .

ويقـول سيدنـا أمير المؤمنين : (وطلوع تلك الثمـار مختلفـة في غلف أكمامها تجنىٰ من غير تكلف فتأتي علىٰ منية مجتنيها) .

وقول آخر للإمام : (إنْ كنتم راغبين لا محالة فـارغبوا في جنـة عرضهـا السمٰوات والأرض) .

والـرسول الأعـظم يقول : قـال الله تعالىٰ ـ أعـددت لعبادي الصـالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر) ـ وثمن الجنة العمل الصالح والزهد في الدنيا كما قال الإمـام علي وقال الـرسول : (ص) «أكثـر ما تلج به أمتي الجنة تقوىٰ الله وحسن الخُلُق» .

وقال (ص) : «الجنة فيها ثمانية أبواب . . . من أراد الـدخول من هـذه الأبـواب فليتمسك بـأربع خصـال السخاء وحسن الخلق والصـدقة والكف عن أذىٰ عباد الله تعالىٰ» .

أمـا وصف الجنة ففي الـروايات نقـرأ وصفاً دقيقـاً للجنة رزقنـا الله نعيم الجنة فقد قال النبي (ص) «لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها» .

والإمام الباقر يقول :

(إن أرض الجنة رخامها فضة وترابها الورس والزعفـران وكنسها المسـك ورضراضها الدر والياقوت) .

ويقول الإمام الصادق : (إن من أدنىٰ نعيم أهل الجنـة أن يوجـد ريحها من مسيرة ألف عام من مسافة الدنيا) .

وللإمام علي كلام طويل في وصف الجنة ـ فمن جملة ما قال : (فيها درجات متفاضلات ومنازل متعـاليات لا يبيـد نعيمها ولا يضمحـل حبورهـا ولا ينقــطع ســرورهــا ولا يــظعن مقيمهــا ولا يهـرم خــالــدهــا ولا يـبــوس ساكنها . . )[٣٨] .

اكتفي بهذا القدر ممّا ورد عن الجنة وأما بالنسبـة للنار وأوصـافها وكيف يعذَّب المنحرف فيهـا فورد الكثيـر أيضاً ففي الآيـات القرآنيـة مشاهـدات حيّة

للنار والجحيم وفي الروايات المباركة أيضاً فللإحاطة بـأطراف العقيـدة ولإتمام الصورة العقائدية نذكر منها :

قوله تعـالىٰ : ﴿ من ورائـه جهنم ويُسقىٰ من ماء صديد، يتجـرّعه ولا يكـاد يُسيغه ويـأتيه المـوت من كل مكـان ومـا هـو بميّت ومن ورائـه عـذاب غليظ﴾ .

[سورة إبراهيم ١٤ ؛ الآيتان : ١٦ ، ١٧] .

﴿يـا أيهـا الـذين آمنـوا قـوا أنفسكم وأهليكم نـاراً وقـودهـا النـاس والحجـارة عليها مـلائكة غـلاظ شداد لا يعصـون الله مـا أمـرهم ويفعلون مـا يؤمرون﴾ .

[سورة التحريم ٦٦ ؛ الآية : ٦] .

فجهنم مصيـر الطاغين فقـد قال عـز وجل : ﴿إن جهنم كـانت مرصاداً، للطاغين مآبا﴾ .

[سورة النبأ ٧٨ ؛ الآيتان : ٢١ ، ٢٢] .

وأنهـا نار وعـذاب علىٰ المنحرفين بـأقسىٰ ما يمكن تصـوره : ﴿مأواهم جهنم كلمّا خَبَت زدناهم سعيرا﴾ .

[سورة الإسراء ١٧ الآية : ٩٧] .

وقـال الرسـول الأعظم (ص) : «إن نـاركم هذه جـزء من سبعين من نار جهنم لكل جزء منها حرّها» .

وقال الإمام علي : (إنها نار لا يهـدأ زفيرهـا ولا يفك أسيـرها ولا يجيـر كسيرها حرها شديد وقعرها بعيد وماؤها صديد) .

وقال أيضاً : (احذروا ناراً قعرها بعيد وحرها شديـد وعذابهـا جديـد دار ليس فيها رحمة ولا تسمع فيها دعوة ولا تُفرّج فيها كربة) .

وقال الإمام البـاقر : (إن أهـل النار يتعـاوون فيها كمـا يتعاوىٰ الكـلاب

والـذئـاب ممـا يلقـون من أليم العـذاب . . . كليلة أبصـارهم صم بكم عمي مسودة وجوههم خاسئين فيها نادمين) .

والإمام علي يثير وجدان الإنسان لمعرفة الحقيقة فيقول : (اعلمـوا إنه ليـس لهذا الجلد الرقيق صبر علىٰ النار فارحموا نفوسكم فانكم قـد جرّبتمـوها في مصـائب الدنيـا فرأيتم جـزع أحـدكم من الشـوكـة تصيبـه والعثـرة تـدميـه والـرمضاء تحـرقـه فكيف إذا كـان بين طـابقين من نـار ضجيـع حجـر وقـرين شيطان ! . .) .

هكـذا عذاب جهنم سـلاسـل واغـلال وسرابيـل خاصـة فقد قـال تبـارك وتعالىٰ :

﴿إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً﴾ .

[سورة الإنسان ٧٦ ؛ الآية : ٤] .

﴿خذوه فغلّوه، ثم الجحيم صلّوه، ثم في سلسلة ذرعها سبعـون ذراعـاً فاسلكوه﴾ .

[سورة الحاقة ٧٩ ـ ؛ الآية: ٣٠ ـ ٣٢].

والرسول الأعـظم يقول : «لـو أن حلقة واحـدة من السلسلة التي طولهـا سبعون ذراعاً وضعت علىٰ الدنيا لذابت الدنيا من حرّها» .

أمـا السـرابيـل فقـد قـال عـز وجـل : ﴿ســرابيلهم من قـطران وتغشىٰ وجوههم النار﴾ .

[سورة إبراهيم ١٤ ؛الآية: ٥٠].

والرسول (ص) يقـول : «لو أن سـربالاً من سـرابيل أهـل النار عُلّق بين السماء والأرض لمات أهل الدنيا من ريحه» .

والإمـام علي يتحـدث للصحـابي أحنف بقـولـه : (. . . فلو رأيتهم يـا أحنف ! ينحـدرون في أوديتها ويصعـدون جبالهـا وقد أُلبسـوا المقـطّعـات من

القطران واقرنوا مع أفجارها وشياطينها فإذا آستغاثوا من حريق شدت عليهم عقاربها وحيّاتها. .) أما طعام أهل النار فيقول جلّ وعلا :

﴿ليس لهم طعام إلاّ من ضريع، لا يُسمن ولا يُغني من جوع﴾ .

[سورة الغاشية ٨٨ ؛ الآيتان : ٦ ، ٧] .

وقال أيضاً : ﴿إن شجرة الزقوم ، طعام الأثيم﴾ .

[سورة الدخان ٤٤ ؛ الآيتان : ٤٣ ، ٤٤] .

وفي سورة الحاقة ٦٩ ؛ الآيتان ٣٥ ، ٣٦ : ﴿فليس له اليوم هٰهنا حميم ولا طعام إلاّ من غسلين﴾ .

يقول الرسول محمد (ص) «لو أن دلواً صبت من غسلين في مطلع الشمس لغلت منه جماجم من مغربها» .

والإمام الصادق يقول : (لو أن قطرة من الضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها) .

والرسول الأكرم (ص) يعرّف لنا الضريع بقوله : «الضريع شيء يكون في النار يشبه الشوك أمرُّ من الصبر وأنتنُ من الجيفة وأشدُّ حراً من النار سماه الله الضريع» .

أما سقيهم فهو من حميم ﴿والذين كفروا لهم شراب من حميم﴾ وقال (ص) في قوله تعالىٰ ﴿ويسقىٰ من ماءٍ صديد﴾ قال : يقرب إليه فيكرهه فإذا أُدني منه شوىٰ وجهه ووقع في فروة رأسه فإذا شرب قطّع أمعاءه حتىٰ يخرج من دبره يقول الله : ﴿وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم﴾ ويقول : ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماءٍ كالمهل يشوي الوجوه﴾ .

أما أبواب جهنم فيقول عز وجل : ﴿فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوىٰ المتكبرين﴾ .

[سورة النحل ١٦ ؛ الآية : ٢٩] .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾ قال الباقر : فبلغني والله أعلم أن الله جعلها سبع دركات : أعلاها : الجحيم

يقوم أهلها على الصفا منها تغلي أدمغتهم فيها كغلي القدور بما فيها ، والثانية : لظى نزاعة للشوى تدعوه من أدبر وتولى فجمع فأوعى والثالثة : سقر لا تبقي ولا تذر لوّاحة للبشر عليها تسعة عشر والرابعة : الحطمة ومنها يثور شرر ﴿ترمى بشَرر﴾ كالقصر كأنها جُمالات صفر والخامسة : الهاوية فيها ملأ يدعون يا مالك أغثنا فإذا أغاثهم جعل لهم آنية من صفر من نار فيه صديد ماء يسيل من جلودهم كأنه مهل ، والسادسة : هي السعير فيها ثلاث مائة سرادق من نار ، والسابعة : جهنم وفيها الفلق وهو جبّ في جهنم إذا فتح أسعر النار سعراً وهو أشد النار عذاباً .

فإذن العذاب شديد وأليم وأهونه يتصف بالألم الشديد فقد قال (ص) : « أدنى أهل النار عذاباً ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه » .

أما العذاب الشديد الذي يجري على المتكبرين مثلاً فيصفه الإمام الباقر بقوله : (إن في جهنم لجبلاً يقال له : الصّعدى وإن في الصعدى لوادياً يقال له سقر : وإن في سقر لجُباً يقال له : هبهب كلما كشف غطاء ذلك الجب ضجّ أهل النار من حره وذلك منازل الجبارين)[٣٩] .

هذا والإنسان منذ بداية المحكمة الكبرى يمكنه معرفة مصيره وذلك حينما يطّلع على كتاب دنياه وصحيفة أعماله فيحكم نفسه بنفسه فمن عدالته تعالى خلق النار للعاصين وخلق الجنة للمطيعين والمؤمنين فقد قال جلّ وعلا :

**﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾** .

[سورة الإسراء١٧ ؛ الأيتان : ١٣ ، ١٤] .

فيتعجب المنحرفون، لذلك يصف القرآن الكريم تعجبهم بقوله سبحانه : **﴿يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾** .

[سورة الكهف ١٨ ، الأية : ٤٩]

# سادساً
# الشبهات والاجابة عليها

تبرز عدة من الاستفهامات التي تتضمن الشبهات علىٰ عقيدة المعاد يوم القيامة فقد تكون صادرة من المؤمنين لغرض استيعابها وفهم المسألة فهماً عميقاً وقد تكون صادرة من المشككين وذوي الأغراض المنحرفة الذين يثيرون علىٰ رؤوس الشبيبة الصاعدة هذه الشبهات لإبعادهم عن الدين الإسلامي الحنيف . .

المهم أن الشبهات حول موضوع المعاد والجنة والنار وعالم البرزخ في القبر تأخذ قسطاً من التساؤلات التي قد تكون جادة وهي بالفعل قد تأخذ طريقها في وسط الناس بنسبةٍ معينة وأنها خير ما يستخدمه الماديون والمشككون في سبيل بيان أغراضهم وذلك لأن المسألة غيبية وبعيدة عن الحواس الخارجية للإنسان التي تعتبر منافذ المعرفة البشرية عادةً والمسألة الغيبية والمستقبلية هي خير زاد لهذه الطبقة المشككة فتثير شبهاتها بسخرية وهزؤٍ أحياناً وتثيرها للهجوم علىٰ الفكر الديني أحياناً أُخرىٰ . . وعموماً إن المسألة ليست جديدة وإنما خوطب الأنبياء بذلك من قبل .

**﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلاّ أنفسهم وما يشعرون﴾ .**

[سورة البقرة ؛ ٢ الآيتان : ٨ ، ٩] .

وقوله جل وعلا في سورة يونس : **﴿واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه . . . . فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا . . ﴾** .

[سورة يونس ؛ ١٠ الآيتان : ٧١ ، ٧٣] .

**﴿ثم بعثنا من بعدهم موسىٰ وهارون إلىٰ فرعون وملإه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾** .

[سورة يونس ؛ ١٠ الآية : ٧٥] .

إذن لا سبيل لبيان الجنة والنار والملائكة الغلاظ وقبل ذلك عذاب القبر والبرزخ أو نعيم القبر إلاَّ عبر الآيات الكريمة في القرآن والروايات الشريفة ومجمل الضرورات التي سقناها في بداية البحث عن ـ المعاد في يوم القيامة ـ .

وبيّنا سابقاً ان هذا الإيمان هو فرع من الايمان الأصلي الذي آمنا به وهو الإيمان بالله وكتابه المبارك ونبيه الكريم بالأدلة العقلية والنقلية وكذلك أوضحنا ان الحواس الخارجية للإنسان ومجمل إمكانيات الإنسان هي محدودة في أُطر معينة وأثبت لنا العلم ذلك أيضاً فالمحدود لا يستطيع أن يحيط بعلم اللامحدود وهو الله عز وجل وليس الإيمان بالشيء محصور عبر رؤيتنا له كما أوضحنا ذلك في حديثنا عن الله سبحانه وتعالىٰ في بداية الكتاب فكثير من الأُمور نؤمن بها ونتعقّلها وندافع عنها رغم اننا لم نشاهدها مباشرة بالعين بل هي غير قابلة لكي تراها العين المجردة بل نؤمن بها من خلال آثارها كالمغناطيسية والكهربائية ومع كل ما تقدم نحاول أن نسجل لشبابنا رؤية عن هذه الشبهات ونماذج بسيطة منها مشفعة بالرد والجواب ونقول إن الدين الإسلامي عقيدة ومنهاجاً دين كامل شامل وإن هذه الشبهات لا تنقصه شيئاً بل تزيده فخراً وثباتاً وتكاملاً حيث ينبري لاجابتها وتوضيحها بشكل دقيق ومدروس أصحاب الدين والعلم فالاستعانة بالعلم وتطوراته الحياتية عملية صائبة في هذا الميدان ـ أيضاً ـ .

## ونجمل هذه الشبهات في أربع :

١ ـ كيف نتصور الخلود ؟ وهل من العدل ذلك ؟

٢ ـ كيف نعود أبداننا مرة أُخرىٰ بعد تحولها إلىٰ تراب ؟

٣ ـ هل الجسم كلهُ ينعّم أو يعذّب أم العضو المنفذ ؟

٤ ـ أجسامنا في تجدّد فأيُّ الأجسام يبعث للحساب ؟

## الشبهة الأولى : كيف نتصور الخلود ؟ وهل من العدل الالهي ذلك ؟

بما أن الزمن يسير دون توقف فكل جديد يصبح قديماً بمرور الزمن حتىٰ يصل إلىٰ النهاية ، هذا ما تعلمناه وتعودناه من كتاب الدنيا :

**﴿هل أتىٰ علىٰ الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾** .

[سورة الإنسان ؛ ٧٦ الآية : ١] .

والآن نحن نقرأ في المصحف المبارك حول خلود الإنسان في الآخرة سلباً أو إيجاباً ، نتساءل عن كيفية الخلود هذا ، فيقول القرآن المجيد :

**﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلىٰ النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلىٰ الظلمات أُولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾** .

[سورة البقرة ؛ ٢ الآية : ٢٥٧] .

وبالمقابل تتحدث الآيات عن الخلود في الجنة فمثلاً : **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أُولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾** .

[سورة البقرة ؛ ٢ الآية : ٨٢] .

فمن حقنا أن نتساءل عن كيفية الخلود وهل يمكن تحققه ومن ثم هل من العدل ذلك؟ أي أنه حينما يرتكب الإنسان أثماً وعصياناً لفترة زمنية محددة هل يستحق هذا المذنب عذاباً دائماً وهل من العدل أن يؤمن الإنسان بالله ويطيعه ويحسن في حياته فترة زمنية ليعيش نعيماً خالداً دائماً . .

وللاجابة على هذه الشبهة نعود لنقول إن الإنسان ضعيف وقاصر عن معرفة الكثير من الأمور المحيطة به فضلاً عن القضايا المستقبلية في الزمن الغائب فعدم رؤيته واحساسه الملموس لا يمكن أن يكون دليلاً قائماً بل إن اعتراف الإنسان بضعفه دليل قاطع على أن إحساسه لا يستطيع أن يحيط بكثير من الأمور بل يدركها بالآثار والعقل . .

**وأما الشق الثاني من الشبهة : أمن العدل الخلود للإنسان ؟ سلباً كان أو إيجاباً :**

وأرى هنا لا بد من مقدمة بسيطة قبل الإجابة على الشبهة .

إن الخلود ليس أمام المعاصي والآثام القابلة للمغفرة وإنما كما قال جلّ وعلا :

**﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾** .

[سورة البقرة ٢ ؛ الآية : ٣٩] .

أما المعاصي الأخرى القابلة للغفران فيكون العقاب متناسباً معها ففي الحديث النبوي الشريف : «يخرج الله قوماً من النار فيدخلهم الجنة . .» وحديث آخر عنه (ص) : «يخرج من النار قوم بعدما احترقوا فيدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميّون» إذن فالخلود في النار هو الأثر الطبيعي للمعاصي الكبرى :

**﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾** .

[سورة النساء ؛ ٤ الآية : ٤٨] .

فالكبائر من الآثام هي المسببة لحالة الخلود في النار وكما ورد في الحديث النبوي الشريف : «الدنيا مزرعة الآخرة» فما يزرع الإنسان هنا في الدنيا يحصد أثره في الآخرة بالشكل الطبيعي كالذي يزرع الفواكه ضمن

الضوابط الجوية الصالحة والتربة والماء فسيحصد الفواكه نهاية الموسم بصورة طبيعية كذلك الأعمال في الدنيا إن كانت خيراً فسيحصد العامل النتيجة الصالحة وإن كانت شراً فسيحصد النتيجة السلبية قال سبحانه :

﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾ .

[سورة الكهف ١٨ ؛الآية : ٤٩] .

﴿فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره،ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ . .

[سورة الزلزلة ؛ ٩٩ الأيتان : ٧ ، ٨] .

فإذن المسألة طبيعية تكوينية تتعلق بالجعل الإلهي والسنة الربانية .

مثلاً إنسان يحرق نفسه ويموت من الدنيا تماماً أي دون رجعة إلىٰ الحياة فهل في المسألة ظلم وتعّدٍ أم أنه استحقاق طبيعي لما ارتكبه من خطأ ولما أصابه من حرق ؟ فهو استحقاق طبيعي لتطبيق سنة تكوينية معينة وهي حرق الجسم بالنار يودي بحياة الإنسان كلها تماماً وهو لم يرتكب سوىٰ ذنباً بسيطاً وهو احراق نفسه !! .

فالمهم من المعاصي الكيف لا الكم فقد تكون هنالك معاصٍ كبيرة تخلد الإنسان في الجحيم وإن كانت لذتها في زمن قصير عابر فالعذاب أو النعيم لا يعتمدان علىٰ زمن أدائهما فلا يتحددان بتحديد زمن المعصية أو الطاعة فلرُبَّ معصية تُرتكب في زمن قصير تجلب عذاباً طويلاً ولرُبَّ طاعة في لحظة تجلب نعيماً مديداً .

وهذا هو الذي يتناسب مع العدالة الإلهية ، أليس كذلك ؟ .

فقد جاء في الأثر المقدس عن الإمام الصادق في توضيح الآية الكريمة : ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ انه قال: (ليس يعني أكثر عملاً ولكن أصوبكم عملاً وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة والحسنة ثم قال الإبقاء علىٰ العمل حتىٰ يخلص أشد من العمل . . .) .

فإذن المسألة متعلقة تماماً بالكيف فأداء المعروف القليل بروح متفاعلة خير

من أداء المعروف الكثير بدون روح متفاعلة صابرة .

ونقرب ذلك بمثل آخر بالنسبة لامتحانات الطلبة في المدارس فإن ساعات الإجابة في قاعة الامتحان معدودة لكنها تقرر مصير سنة دراسية كاملة أما النجاح وأما الفشل والمسألة في إطارها القانوني الطبيعي بعيدة كل البعد عن المظالم .

ويحدد الإمام الصادق علة الخلود سلباً أو إيجاباً في قوله : ( إنما خلّد أهل النار في النار لأن نيّاتهم كانت في الدنيا أن لو خلّدوا فيها أن يعصوا الله أبداً وإنّما خُلّد أهل الجنّة في الجنّةِ لأن نيّاتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً فبالنيات خلّد هؤلاء وهؤلاء ثم تلا قوله تعالىٰ : ﴿قل كل يعمل علىٰ شاكلته﴾ قال : علىٰ نيتهِ)[٤٠] .

وهذه النية يحددها الله سبحانه وستكشف يوم القيامة : ﴿يوم تبلىٰ السرائر﴾ وتكشف الأسرار وكل يأخذ نتيجته مقابل أعماله وحقاً إنها قمة العدالة ورأس الانصاف حيث يترك الله عز وجل الإنسان في فرص ذهبية في حياته عسىٰ أن يرتدع أو يتوب أو يتراجع عن معصيته ولكن .

﴿كلاّ بل ران علىٰ قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ .

[سورة المطففين ؛ ٨٣ الآية : ١٤] .

فما يلاقيه المذنب من عذاب هو ما يستحقه بالعدل الإلهي علىٰ ضوء أعماله فالنتيجة الطبيعية هي عذابه الدائم وما يلاقيه المؤمن من نعيم خالد كذلك نتيجة طبيعية لأعماله الخيرة ولا ننسىٰ لطف الله ونعمته ومننه علىٰ الناس جميعاً وبالذات المؤمنين منهم حيث يعطيهم سبحانه وتعالىٰ أكثر مما يستحقون من باب اللطف والعطف والرحمة ونقرأ في الدعاء ـ (يا من يعطي من سأله ويا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة. . .) .

**الشبهة الثانية : كيف تعود أبداننا مرةً أخرى بعد تحولها إلى تراب ؟ :**

**قال جلّ وعلا : ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أوّل مرّة وهو بكل خلق عليم، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾ .**

[سورة يس ؛ ٣٦ الآيات : ٧٨ ـ ٨٠] .

بهذه الآيات المباركة نستطيع أن نفهم مدىٰ هذه الشبهة في الأذهان فقد كانت منذ بداية الدعوة الإلهية ولا زالت من الشبهات المهمة التي يتشدق بها المنكرون والمشككون وما قلناه في الجواب علىٰ الشبهة الأولىٰ يمكن درجه هنا بالإضافة إلىٰ أننا حينما آمنا بقدرة الله عز وجل الكبرىٰ وأنه أبدع وأوجد الكون ليس من العسير أن يعيده كما كان حين خَلَقه ، هذا وإن عناصر الجسم الإنساني أُعيدت إلىٰ التراب بالموت وهو الذي خلقنا من تراب بقدرته فسيعيدنا مرةً أُخرىٰ منه .

فإذن لا وجود لهذه الشبهة حينما نقرر أننا خلقنا من تراب .

**﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً أُخرىٰ﴾ .**

[سورة طه ؛ ٢٠ الآية : ٥٥] .

وفي هذا الصدد روايات كثيرة يسأل الناس أئمة الهدىٰ ليعرفوا حقائق الأُمور مثلاً يسأل أحد الزنادقة الإمام الصادق ـ كما يروي الطبري في الاحتجاج عن هشام بن الحكم ـ يقول الزنديق : أنّىٰ للروح بالبعث ؟ والبدن قد بلي والأعضاء قد تفرّقت فعضو في بلدة تأكله سباعها وعضو بأُخرىٰ تمزقه هوامها وعضو قد صار تراباً بني به مع الطين حائط ؟ .

قال الإمام : (الذي أنشأه من غير شيء وصوّره علىٰ غير مثال كان سبق إليه قادر أن يعيده كما بدأه) ، قال أوضح لي ذلك ؟ .

فقال (ع) : (إن الروح مقيمة في مكانها ، روح المحسنين في ضياء

ونسمة وروح المسيء في ضيق وظلمة والبدن يصير تراباً (كما) منه خلق وما تقذف به السباع والهوام في أجوافها مما أكلته ومزقته كل ذلك في التراب محفوظ عند من لا يغرب عنه مثقال ذرة في ظلمات الأرض ويعلم عدد الأشياء ووزنها وإن تراب الروحانيين بمنزلة الذهب في التراب فإذا كان حين البعث مطرت الأرض فتربوا أي تنمو الأرض ثم تمخّض مخض السقاء فيصير تراب البشر كمصير الذهب من التراب إذا غُسل بالماء، والزبد من اللبن إذا مخض فيجتمع تراب كل قالب فينتقل بإذن الله تعالىٰ إلىٰ حيث الروح فتعود الصور بإذن المصور كهيئتها وتلج الروح فيها فإذا قد استوىٰ لا ينكر من نفسه شيئاً)[٤١] .

قال سبحانه : **﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب . . . ذلك بأن الله هو الحق وأنّه يحيي الموتىٰ وأنّه علىٰ كل شيء قدير﴾** .

[سورة الحج ؛ ٢٢ الآيتان : ٥ ، ٦] .

**﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾** .

[سورة البقرة ؛ ٢ الآية : ٢٨] .

وفي صدد الاحتجاج قال عز وجل : **﴿وقالوا أإذا كنّا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً، قل كونوا حجارةً أو حديداً، أو خلقاً ممّا يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة . . ﴾** .

[سورة الإسراء ؛ ١٧ الآيات : ٤٩ ـ ٥١] .

وجاء في الكافي عن الصادق أنّه سئل عن الميت هل يبلىٰ جسده قال : نعم حتىٰ لا يبقىٰ لحم ولا عظم إلاّ طينته التي خلق منها فانها لا تبلىٰ في القبر مستديرة حتىٰ يخلق منها كما خلق أول مرة) قال : في الوافي لعل المراد بطينته التي خلق منها بدنها المثالي البرزخي اللطيف الذي يرىٰ

الإنسان نفسه فيه في النوم[٤٢] .

ويروي الصدوق في الصحيح عن الإمام الصادق قال: (إذا أراد الله أن يبعث الخلق أمطر السماء على الأرض أربعين صباحاً فاجتمعت الأوصال ونبتت اللحوم) وعن السجاد قال: (عجباً كل العجب لمن أنكر الموت وهو يرى من يموت كل يوم وليلة والعجب كل العجب لمن أنكر النشأة الأخرة وهو يرى النشأة الأولى)[٤٣] .

وقد قال تبارك وتعالى : ﴿**ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون**﴾ .

[سورة الواقعة ٥٦ ؛ الآية : ٦٢] .

وبالفعل لو نخبر عاقلاً من كوكب آخر بطريقة تكوين الجنين وولادته وغذائه المفضل لبن أمه وهو أضعف المخلوقات ينمو وينمو حتى يصبح شاباً قوياً تقوم عليه وعلى أمثاله أعباء الحياة وقد يتحول هذا الكائن الضعيف إلى جبار عنيد فلو لم يكن مألوفاً لدى ذلك العاقل هذا الكلام لتعجب منه ولربما أنكره أو توقف عنده يتأمل ولكن سرعان ما يزول هذا العجب والإنكار بمجرد استعمال عقله وتدبره في الخلق والخالق المبدع المدبر .

فإذن هو الذي صوّرنا وخلقنا وهو الذي يميتنا ومن ثم هو الذي يعيدنا بأجسادنا وأرواحنا والعلم الحديث لا يستطيع أن ينكر ذلك على الاطلاق بل إن الدراسات الحديثة تؤيد ذلك تماماً .

## الشبهة الثالثة : هل الجسم كله ينعّم أو يعذّب أم العضو المنفّذ :

إنقدح في ذهن أحد الشباب وهو يستمع لمحاضرة لي حول العدل الإلهي بصفته الدقيقة في الكون فبادرني بالتساؤل الماضي إذا كانت يداي أثيمتين فما ذنب بقية جسمي وإذا كانت عيناي ارتكبتا جريمة النظرة الخائنة فما ذنب قلبي وفؤادي . . وأظن أن الإجابة واضحة بالنسبة لهذه الشبهة وخاصة لو علمنا أن الإنسان بأجزائه المتعددة وأجهزته المتنوعة التي يصدر

عنهـا الفعل فـإنه يكـون بإرادتـه الحاكمـة علىٰ تصرفـاته فـالإرادة في شخصية الإنسـان واحـدة وهي التي تسيـطر علىٰ أعمـالـه جميعـاً وإنمـا الأعضـاء هي أدوات تنفيـذية ـ لا غيـر ـ فالإرادة واحـدة وقرار الإنسـان نابـع من عقله وذهنه فهـو قرار مـركزي واحـد ـ وكما قلنـا ـ إن المنفـذ هـو أحـد أطـرافـه أو ربمـا يشترك أكثر من طرف بنسب معينة لغـرض التنفيذ في ارتكـاب جريمـة أو إتيان عمـلٍ إيجابي وصحيـح أن اليد هي التي تمـارس السـرقـة مباشـرة ولكن قـرار السـرقة هـو بيد الإرادة الإنسـانية فـإذن الإنسان ككـل يقـدم إلىٰ المحكمـة لا فقط يده فهو إما ينعم أو يعاقب .

قال سبحانه : ﴿والعصر، إن الإنسان لفي خسرٍ، إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ .

[سورة العصر ؛ ١٠٣] .

فـالإنسان ككـل هو المقصـود مما يؤدّيـه وينفّذه من تصـرفـات وأعمـال فيستحق جزاءه بشكل طبيعي هذا في الآخرة أما في الدنيـا فتأتي العقـوبات ـ بعضها بالذات ـ علىٰ طرف من الأطراف ففي مثال السـرقة فتقـطع يد السـارق وحين تقطع اليد لا نستطيع أن نحصر الألم في هذا الطرف لوحده وإنما هذا الطرف هو الضحية المباشـرة وأما الألـم فـإنه يتـوزع إلىٰ سائـر أعضاء الجسـد ويبقىٰ الإنسـان متألمـاً لهذا المصيـر ـ وفي الآخرة سيكـون التعـامـل مـع كـل الإنسـان إيجابـاً أو سلباً . لأنـه قرّر ذلـك بقرارٍ مـركزي واحـد ـ والحقيقـة ان ذلك هو العدل والقسط .

## الشبهة الرابعة : أجسامنا في تجدد فأي الأجسام يُبعث للحساب ؟ :

وكما يستدل العلم الحديث بأن خـلايا الجسم العضليـة في حالـة تجدد مستمـر ولربمـا تمر عليـه فترة زمنيـة يستبدل الإنسـان كل خـلايـاه التي اتلفت جراء نشاطه في الحياة فحين شبابه مثلاً ارتكب جريمة معينة ولمـا كبر تبـدلت خلاياه الجسمية فمات وهو كبير السن فـأي البدنين يحشر للعقاب؟ فإنْ كـانت خلايا الفترة الشابة وهي المنفذة للجريمة فـانها قـد اتلفت في حياتـه وتجددت

غيرها وإن كانت خلايا فترة الشيخوخة حيث مات فيها فما ذنب هذه الخلايا البريئة أما يكون ذلك ظلماً ؟ .

وأفضل إجابة لهذه الشبهة ما روي عن الأئمة الأطهار وفي هذا الصدد هنالك روايات كثيرة منها إن ابن أبي العوجاء يسأل الإمام الصادق عن قوله تعالىٰ :

﴿كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾ .

[سورة النساء ؛ ٤ الآية : ٥٦] .

ما ذنب الغير قال : ويحك هي هي وهي غيرها قال فمثّل لي ذلك بشيء من أمر الدنيا قال : نعم أرأيت لو أن رجلاً أخذ لبنة فكسرها ثم ردّها في ملبنها فهي هي وهي غيرها .

وفي رواية الأمالي أرأيت لو أن رجلاً عمد إلىٰ لبنة فكسرها ثم صبّ عليها الماء وجبلها ثم ردّها إلىٰ هيئتها الأُولىٰ ألم تكن هي هي وهي غيرها فقال بلىٰ امتع الله بك .

فإذن حقيقة بدن الإنسان هي واحدة تتلخص في جوهرةٍ معينة يُعرف بها الإنسان بذاته وبعينه فالأجزاء الأصلية هي مدار الأمر يوم الحساب وتشير روايات كثيرة لهذا المعنىٰ .

فعن عمار عن الإمام الصادق قال : سئل عن الميت يُبلىٰ جسده قال : نعم حتىٰ لا يبقىٰ لحم ولا عظم إلاّ طينته التي خلق منها فإنها لا تبلىٰ بل تبقىٰ في القبر مستديرة حتىٰ يُخلق منها كما خلق أول مرة[٤٤] .

فإذن تلج الروح في الإنسان بجوهرته الأصلية وحينما يُرىٰ يُقال إنه فلان بعينه ، هذه الجوهرة البدنية مع الروح يكوّنان الإنسان هذا الإنسان الذي سيعاقب أو سينعم في الآخرة علىٰ ضوء أعماله في الدنيا علماً بأن العذاب أو النعيم للروح والجسد معاً ـ كما مرّ سابقاً ـ .

(١) حق اليقين السيد شبر ج ٢ ص ٣٦
(٢) البحار ج ٦ ص ٢٤٩ .
(٣) ميزان الحكمة ، ري شهري ج ٧ ص ٥٤ .
(٤) معاني الأخبار ص ٢٩٠ .
(٥) ميزان الحكمة ج ٩ ص ٢٤٦ .
(٦) المحجة البيضاء ج ٢ ص ٤٢٧ .
(٧) ميزان الحكمة ج ٩ ص ٢٢٥ .
(٨) عقائد المظفر ص ١٢٦ .
(٩) ميزان الحكمة ج ٧ ص ٥٥ .
(١٠) حق اليقين للسيد شبر ج ٢ ص ٣٦ .
(١١) نفس المصدر ص ٣٧ .
(١٢) نفس المصدر ص ٣٥ .
(١٣) نفس المصدر ص ٣٩ ، ٤٠ .
(١٤) ميزان الحكمة ج ٧ ص ٥٤ .
(١٥) ميزان الحكمة ج ٧ ص ٧٣ .
(١٦) المنسوب إلى العالم الفسيولوجي . . .
(١٧) مجمع البيان للطبرسي ج ١٠ ص ٤٦٠ .
(١٨) الكافي ج ٢ ص ٥٣ .

(١٩) الروايات الثلاث من ميزان الحكمة ج ٧ ص ٥٤ .
(٢٠) ميزان الحكمة ج ٧ ص ٥٧ ، ٩٥ .
(٢١) عقائد المظفر ص ١٢٦ .
(٢٢) ميزان الحكمة ج ٧ ص ١٠٦ .
(٢٣) إثبات وجود الله ص ٢٦١ نقلاً عن الدروس ص ١٩ .
(٢٤) نقلاً عن الدروس ص ٢٧ .
(٢٥) عقيدتنا الشيخ نعمة ص ٣١٥ .
(٢٦) ميزان الحكمة ج ١ ص ٤٠٤ .
(٢٧) نفس المصدر ج ٨ ص ٨ .
(٢٨) قرة العيون للكاشاني ص ٤٥٢ .
(٢٩) ميزان الحكمة ج ١ ص ٤٠٤ .
(٣٠) نفس المصدر ج ١ ص ٤٠٥ ـ ٤٠٨ .
(٣١) ميزان الحكمة ج ٨ ص ١٣ .
(٣٢) الكافي ج ٣ ص ١٢٧ .
(٣٣) ميزان الحكمة ج ٨ ص ١٠ ـ ١٤ .
(٣٤) نفس المصدر ج ٧ ص ٨٩ نقلاً عن تفسير الميزان للطباطبائي .
(٣٥) نفس المصدر ج ٧ ص ٩٣ .
(٣٦) نقلاً عن العقائد للآري ج ٣ ص ١٠٩ .
(٣٧) ميزان الحكمة ج ٧ ص ١٠١ .
(٣٨) نفس المصدر ج ٢ ص ٩٠ وما بعدها .
(٣٩) نفس المصدر ج ٢ ص ١٦٢ وما بعدها .
(٤٠) نفس المصدر ج ٢ ص ١٧٧ ، ١٧٨ .
(٤١) نقلاً عن حق اليقين للسيد شبر ج ٢ ص ٥٤ .
(٤٢) قرة العيون للكاشاني ص ٤٥٤ .
(٤٣) حق اليقين ج ٢ ص ٥٤ .
(٤٤) نقلاً عن حق اليقين ج ٢ ص ٤٧ .

# مصادر الكتاب

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ الإختصاص ـ الشيخ المفيد ، طبع بيروت ١٩٨٢ .

٣ ـ الإنسان ذلك المجهول ـ الكسيس كاريل .

٤ ـ الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ـ أسد حيدر ، ستة أجزاء في ثلاثة مجلدات ، طبع بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٣ .

٥ ـ الأنوار النعمانية ـ نعمة الله الجزائري ، طبع إيران .

٦ ـ أصول العقائد في الإسلام ـ مجتبىٰ الموسوي اللاري ، تعريب محمد عبد المنعم الخاقاني ، ثلاثة أجزاء طبع إيران .

٧ ـ أصول الكافي ـ للكليني .

٨ ـ أصول العقيدة في التوحيد والعدل ـ السيد مهدي الصدر ، طبع بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨١ .

٩ ـ أوائل المقالات ـ للشيخ المفيد .

١٠ ـ الله خالق الكون ـ بقلم جعفر الهادي محاضرات جعفر السبحاني ، طبع إيران ، قم ١٤٠٥ .

١١ ـ آيات الله تعالىٰ ـ محمد وفا الأميري ، جزءان ـ حلب ـ الإسماعيلية .

١٢ ـ بحار الأنوار ـ للعلامة المجلسي ـ طبع بيروت .

١٣ ـ بداية الفلسفة الإسلامية ـ السيد إبراهيم الموسوي الزنجاني ، طبع بيروت ١٩٧٧ .

١٤ ـ البهائية والقاديانية ـ الدكتور أسعد السحمراني ، طبع بيروت ١٩٨٧ .

١٥ ـ التاريخ الإسلامي ـ السيد محمد تقي المدرسي ، طبع بيروت ١٤٠٤ ـ ١٩٨٣ .

١٦ ـ تحف العقول عن آل الرسول ـ للشيخ ابن شعبة الحراني ، الطبعة الخامسة في النجف ١٩٦١ .

١٧ ـ تذكرة الخواص ـ للعلامة ابن الجوزي ، طبع بيروت ١٩٨١ .

١٨ ـ تصحيح الاعتقاد بصواب الانتقاد أو شرح عقائد الصدوق ـ لنابغة العراق الشيخ المفيد ، طبع بيروت ١٩٨٣ .

١٩ ـ تصنيف نهج البلاغة ـ لبيب وجيه بيضون ، بيروت الطبعة الأولىٰ .

٢٠ ـ التكامل في الإسلام ـ أحمد أمين ، ثلاثة مجلدات ـ بيروت .

٢١ ـ تلخيص المحصل المعروف بنقد المحصل ـ الخواجة نصير الدين الطوسي ، طبع بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٥ .

٢٢ ـ ثورة الإمام الحسين ، الدوافع والدروس ـ للشيخ محسن الحسيني ، طبع طهران ١٤٠٧ .

٢٣ ـ الحسين قتيل العبرة ـ للشيخ عبد الزهراء الكعبي ، طبع بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٠ .

٢٤ ـ الحقائق في محاسن الأخلاق ، قرة العيون في المعارف والحكم ـ للعلامة الفيض الكاشاني .

٢٥ ـ حق اليقين في معرفة أصول الدين ـ للسيد عبد الله شبر ، طبع بيروت .
٢٦ ـ الحياة ـ محمد رضا الحكيمي جزءان، الطبعة الثالثة طهران ١٤٠٦ .
٢٧ ـ دائرة المعارف ـ لمحمد فريد وجدي .
٢٨ ـ دروس في أصول الدين ـ تأليف لجنة التحرير ، ترجمة محمد علي التسخيري ، طبع قم إيران ١٤٠٣ .
٢٩ ـ الديوان الأول ـ من شعر الشيخ أحمد الوائلي ، طبع بيروت ١٩٨٠ .
٣٠ ـ سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار ـ للشيخ عباس القمي ، طبع بيروت ، جزءان .
٣١ ـ سيرة الأئمة الإثني عشر ـ هاشم معروف الحسيني ، جزءان ، طبع بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨١ .
٣٢ ـ شجرة طوبىٰ ـ محمد مهدي الحائري ، طبع بيروت .
٣٣ ـ العدل الإلهي ـ للشيخ مرتضىٰ المطهري، ترجمة محمد عبد المنعم الخاقاني ، طبع بيروت ١٩٨١ .
٣٤ ـ عقائد الإمامية ـ للشيخ محمد رضا المظفر ، طبع مؤسسة البعثة طهران .
٣٥ ـ عقائد الإمامية الإثني عشرية ـ السيد إبراهيم الزنجاني ، الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٣ .
٣٦ ـ عقيدتنا ـ عبد الواحد الأنصاري ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية طهران ١٩٨١ .
٣٧ ـ عقيدتنا في الخالق والنبوة والآخرة ـ الشيخ عبد الله نعمة ، طبع بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٣ .
٣٨ ـ العلوم الطبيعية في القرآن ـ يوسف مروه ، طبع بيروت ١٩٦٨ .

٣٩ ـ علي إمام المتقين ـ عبد الرحمٰن الشرقاوي ، طبع بيروت ١٩٨٥ .
٤٠ ـ علي من المهد إلى اللحد ـ السيد محمد كاظم القزويني ، الطبعة السابعة ـ بيروت .
٤١ ـ عهد الأشتر ـ محمد مهدي شمس الدين ، طبع بيروت ١٩٨٤ .
٤٢ ـ فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ـ للسيد محمد كاظم القزويني ، طبع بيروت .
٤٣ ـ الفكر الإسلامي مواجهة حضارية ـ السيد محمد تقي المدرسي ، الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٥ .
٤٤ ـ فلسفة التوحيد والنبوة ـ للشيخ محمد جواد مغنية ، الطبعة الرابعة بيروت ١٩٨٤ .
٤٥ ـ فلسفتنا ـ السيد محمد باقر الصدر ، الطبعة الثالثة عشر بيروت ١٩٨٢ .
٤٦ ـ في رحاب أئمة أهل البيت ـ السيد محسن الأمين ، خمسة أجزاء في مجلدين بيروت ١٩٨٠ .
٤٧ ـ القرآن محاولة فهم عصري ـ مصطفىٰ محمود ، بيروت ١٩٧٠ .
٤٨ ـ قصص الحق ـ السيد محمد الحسيني الشيرازي ـ طبع بيروت .
٤٩ ـ قصص الأنبياء ـ للجزائري .
٥٠ ـ قضاء أمير المؤمنين ـ للشيخ التستري ، بيروت الطبعة العاشرة .
٥١ ـ القيادة الإسلامية ـ جواد كاظم ، طبع بيروت .
٥٢ ـ كيف تعرّفنا خالق الكون عن طريق العلم والفكر ـ القسم الأول ، الشيخ محمد حسن القبيسي العاملي ، بيروت ١٩٧١ .
٥٣ ـ ما هو نهج البلاغة ـ هبة الدين الشهرستاني ، النجف الطبعة الثالثة ١٩٦١ .

٥٤ ـ مجمع البيان في تفسير القرآن ـ للعلامة الطبرسي ، ستة مجلدات ـ بيروت .

٥٥ ـ محاضرات في العقيدة الإسلامية ـ الشيخ أحمد البهادلي ، بيروت ١٩٧٩ .

٥٦ ـ المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء ـ المحقق محسن الكاشاني ، الطبعة الثانية ، قم ثمانية أجزاء في أربعة مجلدات .

٥٧ ـ مع الحسين في نهضته ـ أسد حيدر الطبعة الثالثة ، بيروت ١٣٩٩ .

٥٨ ـ المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة ـ لمحمد دشتي وكاظم محمدي ، طبع قم ـ إيران .

٥٩ ـ معالم التوحيد في القرآن الكريم ـ بقلم الشيخ جعفر الهادي محاضرات الشيخ جعفر السبحاني ، إيران ـ قم ١٤٠٠ هـ .

٦٠ ـ من روائع القرآن ـ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، الطبعة الخامسة ١٩٧٧ .

٦١ ـ من وحي الثورة الحسينية ـ للسيد هاشم معروف الحسني ، طبع بيروت .

٦٢ ـ موجز علوم القرآن ـ الدكتور داود العطار ، بيروت ١٩٧٩ .

٦٣ ـ ميزان الحكمة ـ محمدي الري شهري ، عشرة أجزاء ، طبع بيروت ١٤٠٥ ـ ١٩٨٥ .

٦٤ ـ نظام الإسلام العقيدة والعبادة ـ محمد المبارك ، بيروت ١٩٧٥ .

٦٥ ـ نهج البلاغة للإمام علي (ع) ـ شرح الأستاذ محمد عبده ، طبع بيروت

٦٦ ـ نهج الكفاح ـ للإمام علي ـ جمع السيد المرتضىٰ ـ بيروت ١٩٧٧ .

٦٧ ـ النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين ـ السيد نعمة الله الجزائري ، الطبعة الثامنة بيروت ١٣٩٨ ـ ١٩٧٨ .

ملحوظة : هنالك مصادر عديدة أخرى اعتمدناها في البحث وأشرنا إليها في مواقعها ولم ندرجها مع مصادر الكتاب لقلة الاستفادة منها لذلك آثرنا أن نذكر أهم المصادر .

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |



## الفصل الأول

## الفصل الثاني

## الفصل الثالث

## الفصل الرابع

## الفصل الخامس